

النَهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي سِيرَ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ

تَأَلَّفَ

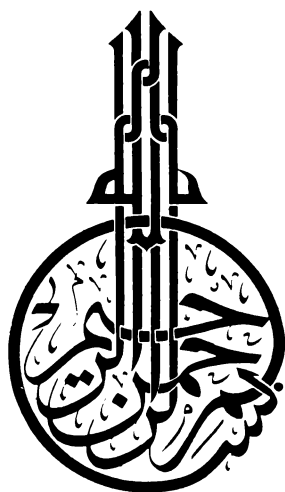
الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَبِيبُ الشُّومِي

عَمِيكَ طَبَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمُصَوِّفَةِ

الْجُرْعَةُ الرَّابِعَةُ

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بِירוَت

وَلَارُ الْقَاهِرَةِ
رَمْسُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة (الجزء الرابع)

إذا أراد الله شيئاً يسهّره .

فقد تلقّيت كتاباً من عالم هندي فاضل ، يسألني كيف أنسى في مجموعة أعلام النهضة الحديث عن الأعلام الكبار من علماء الهند، مثل الشيخ شبلي النعماني ، والأمير صديق حسن خان، وخوجه كمال الدين ، وهم من أكبر رجال النهضة . وقد دفعني هذا السؤال إلى التعرف على هؤلاء الأعلام ، فقرأت ما قرأت عنهم ، حتى اتضحت صورهم العلمية في خاطري ، فتحدثت عنهم بما أملك من أفكار . وطبيعي ألا يقتصر الحديث عنهم ، بل لا بد من إضافة أمثالهم ، ممّن يستحقّون الحديث في هذا المجال .

لذلك أتقدّم بالجزء الرابع شاكراً لدار القلم سرعة استجابتها لنشر كلّ ما يخص الفكر الإسلامي من بحوث مضيئة .

محمد رجب البيومي

إبراهيم عبد القادر المازني

كاتب ملتزم ذو أهداف

في أدب الكاتب إبراهيم عبد القادر المازني رجولةٌ، وسلامة اتجاه، وبعدٌ عن الانحراف، وإذا كان لم يكتب مؤلفات خاصةً بالنواحي الإسلامية، فروح الإسلام ترفرف على كل ما كتب، لأنّ الشعور الراقي المهذب، والحديث المتصل عن الأدب والسياسة والاجتماع في ظلّ الصدق الأبّي، والنصح السديد امتثالٌ لمعاني الإسلام، وقد يكتب كاتب ما مقالات شتى في صميم الدعوة الإسلامية وميدان تشريعها الفسيح، ثم لا يلتزم بمُثل الإسلام في سلوكه، فيكون كما قال أبو العلاء: يحزّم فيكم الصهباء صباحاً ويشربها على عمد مساءً

أما كاتب الأدب والنقد والاجتماع والسياسة ذو الهدف الأصيل، والغاية الصحيحة فهو من رجال النهضة الإسلامية الذين يشدون أزرها، ويهيئون النفوس إلى الصراط القويم.

أقولُ هذا ردّاً على صديق رآني أعدّ المازني من كتّاب النهضة الإسلامية، فقال معترضاً: هو من كتّاب النهضة الأدبية لا النهضة الإسلامية، وقد نسي أن نهضة الأدب الهادف، ذي الخطة الموجهة، هذا الأدب الذي يرتقي بقارئه، ويعلو بشعوره وإحساسه، إنما يمثل نهضةً إسلامية، تسير في اتجاهها الصحيح. على أنّ الأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، وإن لم يُفرد كتباً خاصة بالإسلام كزميله الأستاذ عباس محمود العقاد، فقد كان له جولاتٌ موفقة في شؤون إسلامية كثيرة، تحدّث عنها في مناسبات دينيّة، ولو جمعت مقالاته هذه لكانت كتاباً رائعاً يُسكّت اعتراض من يُبعده عن رجال النهضة الإسلامية، ويتعمّد أن يضيق مداه حتى ينحجر في نطاق ضئيل.

كانت المجالات الأدبية الراقية تصدر أعداداً ممتازة في مناسبات تاريخيّة، وتستكتب كبار الأدباء ليتحدّثوا في هذا المجال بما يشبع نهمة القارئ الحريص على تتبع هذه المقالات، وكان الكاتب الكبير الأستاذ المازني في طليعة من يكتبون

في هذه المجلات، وقد أحصيت له عدّة بحوث ومقالات تُفصح عن وجهات سديدة، لأنّ المازني - رحمه الله - لا يكتُب المكرر المعاد، ولكنه يأتي إلى الموضوع الذائع فيُشبعه تحليلاً ممتلئاً بالنظرات الجديدة، فيُضيف الطريف حقاً.

ونحن نعرف أن المازني كاتبٌ ذاتي يستلهم مشاعره في كل ما يكتب، فأحاسيسُه نبغٌ دافق لمقالاته التي يُعجب بها القراء لطرافة اتجاهها، فإذا كتب في السياسة والاجتماع والتاريخ فإنّ كتاباته لا تنفصل عن مشاعره الخاصة، وذلك يدلّ على سعة محيطه النفسي، وعلى أنّه كان كثير الاستماع إلى خواطره، فلا يجعلها تمرّ مرور البرق الطائر، بل يمعنُ في تحليلها وتعليلها، وقد يعترف للقارئ في فكاهة ساخرة أنّه أحياناً لا يدري تعليلاً لهذا الشعور الذي يحسّ به، ولكنه يكتفي بتسطيره، فلعل قارئاً يفتح الله عليه بالتعليل، فيكشف للكاتب الكبير عما يجهل، ولا أدري أهذا تواضع أم استدراج؟! .

فموضوعُ كموضوع الهجرة لن يُحصى أحد ما كتب الكاتبون في شأنه، والمازني حين يتحدث عنه لا يصف الحادث بدءاً من المؤامرة إلى حين استقبال الرسول في يثرب، ولكنه يتساءل هل فكّر الرسول في الهجرة تفكيراً متّنداً رسم له الخطط، أم كان عفو الخاطر استجابةً لحادث معين؟ إنه يفرق بين الهجرة السابقة إلى الحبشة، والهجرة اللاحقة إلى المدينة، فيرى أنّ الهجرة الأولى - وذلك حق - كانت بمثابة استراحةٍ لبعض المسلمين مما يلقون من عناء قريش، ولم يكن لها سببٌ أبعد من ذلك، لأنّ بُعد الحبشة واختلاف لغتها وجنسها ودينها، لا يجعل رسول الله يفكر في أن تكون مهجراً دائماً، ولكنها استراحة وقيّة، أما المدينة فتفكير الرسول بها تفكيرٌ من يريد أن يقيم بها دولةً تحمي الدين الجديد، وقد مهّد لذلك قبل الهجرة بسنوات، فقابل الأوس والخزرج في بيعة العقبة، وأرسل سفيره الخاصّ يهدي اليثريين إلى الدين الجديد، ورسم الخطط الموفقة خطوةً خطوةً حتى هاجر في توقيت دقيق بعد أن رسم كل شيء، ليصبح كما قدّر! .

يقولُ المازني بعد أن أفاض في تسجيل ما جدّ على المسلمين من استقرار واستقلال وأمل في المدينة: «ولا شك أن النبي ﷺ كان يفكر في المدينة منذ زمن طويل، قبل أن يقصد إليها، فقد كان كلّ شيء يدعو إلى ذلك، حين قلبه، ومصلحته المسلمين في الدفاع عن أنفسهم أولاً، ثم التغلب على مكة، والقضاء على شرك

قريش، ولعل من الدلائل على طول التفكير، واتجاه النفس، وعلى الإحياء أيضاً، أن النبي ﷺ كان أوّل الأمر يتّجه في الصلاة بالمدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى، فلما انتهى هذا الدور، جعل الكعبة قبلته في الصلاة، فوجّه المسلمين صوب مكة حتى استولى عليها، وقد اطمأن إلى المدينة^(١).

فالمازني في حديثه عن الهجرة لم يلجأ إلى المصادر، ليضيف جديداً كان مستتراً في الأوراق، ولكنه لجأ إلى خواطره الذاتية مقارناً بين هجرة وهجرة، ومبيناً كيف أتت الهجرة الثانية بما كان متوقّعا لها في خيال الرسول، أما توجيه القبلة إلى مكة، فليس من شأن الرسول وحده، ولكنه أمر سماويّ نزل به القرآن، فنفّذه النبي عليه السلام.

ومن الموضوعات التي وقف أمامها المازني متسائلاً ومجيباً، موضوع الفتوح الإسلامية، فقد ذهب إلى أنّها كانت بتوجيه الرسول وتصميمه عليها، وآية ذلك أنّه قبل أن يستتبّ له الأمر في الجزيرة بزمانٍ طويل، بل قبل أن يفرغ من قريش ويفتح مكة، بدأ يفكر في الناس خارج الجزيرة، فأرسل كتبه إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، وملك الحيرة، وملك اليمن، وملك الحبشة؛ يدعوهم إلى الإسلام، وهذا ما يعني الاتجاه إلى تعميم الدولة في الآفاق.

وإذا كانت الشام وما جاورها هي الطريق الطبيعي لامتداد الإسلام وانتشار الدعوة إليه، وتخطّيها حدود الجزيرة، فمن الطبيعي أيضاً أن يفكر الرسول في دعوتها للإسلام، وقد بادر فأرسل حملةً تأديبية إلى (مؤتة) ثم اتجه إلى غزوة تبوك، فقام وقتاً عند الحدود متحدّياً متحفزاً، ثم جهّز - بعد عودته من حجة الوداع - جيشاً لغزو الشام، تحت قيادة أسامة بن زيد، فدلّ ذلك على الرغبة الأكيدة في الدعوة إلى الإسلام في شتى البقاع.

ولم يكتب المازني هذا المقال عبثاً، بل ليردّ على نفرٍ من الغربيّين يزعمون أنّ الفتح الإسلامي كان فكرةً أولى في ذهن أبي بكر، خطرت له بعد نجاحه في حروب الردة. ثم جاء عمر رضي الله عنه فكان المنقذ الحقيقي للفتوحات الكبيرة التي تحققت للإسلام، وقد استعرض المازني ما كان من أمر الخليفين الراشدين في هذه الفتوح، ليختم مقاله بقوله^(٢):

(١) مجلة الرسالة، العدد ٢٤٦، ١٩٣٨/٣/٢١.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ٣٤٨، ١٩٤٠/٣/٤.

«من الممكن أن يُقال: إن أبا بكر رضي الله عنه أراد بالزحف على الشمال أن يشغل المسلمين بالحرب والفتح بعد الردة وحروبها، وهذا صحيح، ولكن أصح منه أن يُقال: إن هذا من توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، كما فهمه أبو بكر وعمر من بعده، فالنبي لم يَجِءْ بالدين وحده، بل وضع قواعد الدولة المدنية أيضاً، ورسم لها مستقبلها العالمي، وعيّن لها اتجاهاتها جميعاً».

وكم جميل أن يردد المازني ذلك في وقتٍ صاح فيه الصائحون بأنّ الرسول لم يكن صاحب سياسة ودعوةٍ إلى انتشار الإسلام!! بل كان مُبلّغاً فقط!! صاحبوا بذلك مقلّدين من كتبوا الخطأ من الغربيين، مع أنّ حقائق التاريخ ذائعة شائعة، ولن يقدر على إنكارها جحود!.

ولديّ مجالٌ للنظر فيما كتبه المازني تحت عنوان: (بطولة محمد) حيث كتب مقالاً يتحدث عن بطولة رسول الله ﷺ إذ جاء بدين ينقض كلّ ما قامت عليه حياة العرب في زمانه من تقاليد وعادات وآراء، ودينه لا يُرضي أهله لأنّه يحرمهم من مزايا كثيرة، وقد لقي من الضيم والأذى ما لم نعهد الصبر عليه عند بشر، ولم يُهاجر إلى المدينة إلا بعد أن هاجر أكثر أنصاره، واطمأنّ عليهم، ووثق بنجاتهم وسلامتهم، ولم تجر أيامه كلها رخاءً في المدينة بعد الهجرة، بل كانت بين نصر وهزيمة، فلا أبطره النصر، ولا ضعضته الهزيمة، وهو الوحيد بين الرسل الذي بلغ الرسالة كلّها، وأتمّ عمله أجمعه في حياته، فأكمل الدين وأسس الدولة، ووضع القواعد كلها! وقد خلق أمة عظيمة فتحت الدنيا، وأهدت إلى العالم حضارة غيرت مجرى التاريخ الإنساني كله.. فهل بعد ذلك بطولة!.

هذا فحوى ما قاله المازني، وجميعه صحيحٌ لا اعتراض عليه، ولكنه قال في المقال ذاته^(١):

«فما كان ﷺ يُعنى بالاشتراك في القتال بسيفٍ أو رمح، وكان يشهد المعارك ويصحب رجاله، ولكنه لا ينزلُ إلى الحومة بنفسه، ولا يخوضُ المعركة مع أنصاره، وإن كان يوجّههم».

وهذا كلام بعيد عن الصواب، فالثابتُ أن رسول الله قد غشي المعركة مقاتلاً،

(١) مجلة الرسالة، العدد ٤٤٩، ٩/٢/١٩٤٢م.

وثبت أنه كُسرَتْ رباعيته، وجُرح حتى سال منه الدم، وفي غزوة أحد نزل في عدوة الوادي، وجعل ظهره إلى الجبل، وفي غزوة حنين ثبت مع قلة من المسلمين، بينهم عمّه العباس، وجعل يرمي القوم، ويقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وقد قَتَلَ أُمَيَّةَ بن خلف حين توجه إليه في المعركة، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، فتناول الحَزْبَةَ ﷺ وطعنه طعنة تدأدأ منها على فرسه صريعاً! فالرسولُ بطلٌ محاربٌ بسلاحه، كما هو بطل كبير بدعوته وثباته في نشرها!.

وكل ما ذكرته مما كتبه المازني من قبيل البحث العلمي الخالص، أما ما كتبه من قبيل الفنّ الرائع المبتكر، الذي لم يسبقه أحد في تصوّره أو تصويره، فحين نشر حديثاً صحفياً تحت عنوان (مقتل عمر بن الخطاب) ^(١)!!، وفيه تصوّر أن مصرع أمير المؤمنين قد حدث في عهد الجرائد اليومية، وأن جرائد يومية تسمى (يثرب) و(دار الهجرة) و(العدراء) قد تتبّعت الحادث في كلّ أبعاده، ونشرت في صفحاتها الأولى ما تمّ من الاغتيال، فما كاد المصلّون ينتهون من صلاة الفجر حتى تظهر الجرائد، فيتخطّفها القارئون، وقد صدر ملحقٌ خاص لجريدة (يثرب) يوم الأربعاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية، يحملُ في الصفحة الأولى بالخط الجليل على سبعة أعمدة (عِلْجٌ فارسيّ يطعن أمير المؤمنين، وهو قائم بالصلاة، ويصيب ١٣ رجلاً، ثم ينتحر) وتحت العنوان عنوان آخر (أهي مؤامرةٌ فارسية نصرانية؛ تحرّيات مندوبي يثرب الخصوصيين) ثم وُصفَ تفصيلي كامل للجريمة، بأسلوبٍ صحفي بارع كالذي نشهده في هذا العصر، ومطلعُ هذا الوصف:

«لم نكدُ نفرغ من طبع العدد الأخير من يثرب، ونذفعُ به إلى الباعة، ونذهب إلى المسجد للصلاة، حتى فوجئنا باعتداءٍ أثيم مروّع من علج من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين، وهو يُسوّي الصفوف في المسجد، ويهمّ بإقامة الصلاة، وهو اعتداءٌ دنيء وغدر خسيس، تنكره الشهامة، وقد سبق أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى، الذين يقدمون على مدينة رسول الله... إلخ».

وأخذت الجريدة في تفصيل الحادث تفصيلاً رائعاً، مما يُنتظر أن يكتبه صحافي متمرّس قدير، استغرق ثلاث صفحات كبار، وانتقل المازني في مقاله الرائع إلى العدد التالي فقال:

(١) مجلة الرسالة، العدد ٩٣، ١٥/٤/١٩٣٥.

«صدر العدد التالي من يثرب مجللاً بالسواد، وفيه نعتُ الجريدة أمير المؤمنين إلى العالم الإسلامي ورثته رثاء طويلاً، ولخصت سيرته في الجاهلية والإسلام، ووصفت تجهيزه للدفن، وتشيع جنازته، والصلاة عليه بالمسجد، وحمله على سرير رسول الله ﷺ ودفنه معه جوار أبي بكر الصديق، وروّت الجريدة أن علياً وعثمان تقدّما للصلاة عليه فردّهما ابنه عبد الرحمن».

وأفاض المازني في ما تمّ من أمر التحقيق الجنائي إفاضة ذات خيال جذّاب .

هذا التصوير الخيالي البديع في هذا المقال المستفيض صادف إعجاب القراء، ومن المضحكات أن بعض الكتّابين في المغرب حين قرأ المقال ظنّ الأمر صحيحاً، وأنّ هناك جرائد ثلاثاً كانت تُطبع وتنشر! ولكنّه جعل يرتاب في الأمر، ويسأل من أين جاء المازني بهذا كله؟ ولعلّ القارئ يكذبني، ولكن ليسمع ما جاء في المجلة العربية الصادرة بالمملكة العربية السعودية في (ذي الحجة سنة ١٣٩٩هـ الموافق أكتوبر سنة ١٩٧٩م) تحت عنوان (كيف نشأت الصحافة في بلادنا):

«ومن الأخبار التي يقف العقل عاجزاً عن هضمها والتسليم بها، ما روته جريدة «العلم» المغربية التي تصدر في الرباط، في عددها الصادر سنة ١٣٧٤هـ، أن ثلاث صحف كانت تصدر بالمدينة المنورة في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هي يثرب والهجرة والعذراء، . . . وقالت الجريدة: إن هذه الأخبار نشرها إبراهيم عبد القادر المازني في الرسالة سنة ١٩٣٥م، وهي أخبار غريبة تفتقر إلى المصدر الصحيح، وإني أرويهما بتحفظ!».

كم تمنيت لو عاش المازني ليقراً هذا الكلام، إذ لا يعفيه من مقال آخر على طريقته الخاصة، يكون مجال إمتاع وطرب!

وتتجلّى قوة ملاحظة المازني فيما كتبه تحت عنوان: (الجزيرة والتاريخ الإسلامي)^(١)، حيث أخذ من مشهدٍ عابر دليلاً قوياً على الروح العربية، التي نهضت بالفتح الإسلامي، فقد روى أنّه في رحلته إلى الحجاز حين نزل بوادي فاطمة، دعاه أحد أصدقائه إلى مأدبة حافلة، فشهد بعض الرفاق من العرب لا ينهض للطعام، فسأله فقال: إنه أكل بالأمس، يقول المازني بعد تحليل دقيق لهذه العبارة:

(١) الرسالة، العدد ١٩٦، ٥/٤/١٩٣٧م.

«إن صبر العربي على الجوع هو الذي جعله يقطعُ الصحراء المترامية دون احتياج إلى تموين كثير، وأنّ الكفاف من الطعام جعل من البدو أشداء أقوياء عند النزال، فإذا لم يصمد مئة ألف جندي رومانيّ من المترفين أمام بضعة آلاف من العرب، فذلك لروح القوة المسيطرة على البدويّ، ومعنى ذلك أن التقشف والزهد من مظاهر الرجولة، وأنّ هوان ملذّات الحياة عند العربي يجعله لا يأسى على فقدها، بل يرحّب بالموت في حومة القتال، لأنّه لا يخسر شيئاً جوار ما ينتظر في جنات النعيم.

وقد افتخر بعض الشعراء بحياة الجفاف لدى الأعراب، فذكر أنّهم لم يعرفوا غير (الهيبد)، وهو حبّ الحنظل، وغير (برض الماء)، وهو الوشل القليل!! أما الفصاحة، أما البيان، أما الشجاعة فوق متون الخيل، أما الفهم الدقيق لما يقول القائل، فذلك بعض شمائلهم؛ يقول هذا الشاعر:

يا ربُّ فيك المها والأَسْدُ أحبابُ	فقلْ لنا أَكْثَاسُ أنت أم غابُ
بين الكثيين حيّ لغوهم أدبُ	مخض، وإيجازهم في القول إسهابُ
خَطُّوا وأقلامهم خطية سُلِبَ	فهم على الخيل أميون كَتَّابُ
أهلُ الإصابة إن قالوا وإن سمعوا	وللسَّماع كما للقول إعرابُ
غير الهيبد وبرض الماء ما عرفوا	والعزّ يعذب في أكوابه الصَّابُ

وتصديقاً لما قرّره المازني نجد كتاب الله عز وجل يجعلُ عاقبة الذين أترفوا في مساكنهم وبيلة، لأن الترف داع إلى فسق أهله، فيحقّ عليهم القول إذ يُدمِّرون أسوأ تدمير، وقد صدق الله عز وجل حين قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٣١] وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

برز الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني في النقد الأدبي، إذ كان صاحب مذهب أدبيّ يدعو إليه في الشعر والنثر معاً مع زميليه الكبيرين؛ الأستاذين عبدالرحمن شكري، وعباس محمود العقاد، وأكثر ما كُتب من صحف هذا النقد لم يُجمع في كتاب خاص، لأنّ شواغل الحياة الصحفية كانت لا تترك له فرصة يعيش فيها لتتبع آثاره، وكان دائم السخرية من نتاجه العلمي والأدبي يظنه «قبض الريح، وحصاد الهشيم، وخيوط العنكبوت»، وتلك أسماءٌ لمجموعاتٍ من كتبه سمّاها بهذا الوصف المتواضع، وقد قال قوم: إنه يحاول أن يلفت الأنظار إلى فته بهذا التواضع

الخاشع، وأنا لا أرى ذلك، إذ لو كان محتفلاً بآثاره كغيره لحرص على جمعها، وقد كان يكتب كل يوم مقالاً، فأين حاصل ذلك؟ وكل ما رجعتُ إليه في صدر هذا البحث لم يُجمع في كتاب، بل تصيّدته من صحف شتى، ومجلات متفرقة.

لقد كان المازني جريئاً في نقده مع زعماء الأدب ممن سبقوه في مضمار التفوق الإبداعي، مثل مصطفى لطفي المنفلوطي، وحافظ إبراهيم، أما زملاؤه ورفقاء عُمره، فكان رفيقاً معهم باستثناء الدكتور طه حسين، وللدكتور طه يومئذ صوتٌ عال أخذ يُرهب به الأدباء عن حق وعن باطل، ولكنّه مع المازني والعقاد بالذات كان هادئاً متخاذلاً، يحذرهما كل الحذر عن رَهبة تأخذ عليه مسالك حياته الأدبية، أقولُ ذلك لأنني أعجب كل العجب من هجوم متكرّر قام به المازني على طه حسين بالغأ به حدّ العُنف ثم لا أجد ردّاً ما، إلّا في حالة واحدة كان فيها حذراً، كأنه يمشي على الشوك.

تحدث المازني عن أسلوب الدكتور طه حسين في (حديث الأربعاء)^(١)، فقال: «إنه أَلِف أن يُملّي كتبه ورسائله ومقالاته، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مطّ الكلام وأن يُغري بالتكرير والإعادة إلى حدّ ما، كما هو الشأن في الخطابة، ومن هنا كان أسلوبُ الدكتور طه خطابياً، أو أن صَنعة الخطابة فيه أغلب من الصنعة الكتابيّة، والخطابة فنٌّ مختلف عن فن الكتابة، فأنا أخرج مقالات الدكتور عن عالم الكتابة، ولا أراها إلّا خُطباً مدوّنة، بل أزيدُ على ذلك فأراها خلّت من مزايا الفنّين جميعاً، أمّا مزايا الكتابة فقد عطلت منها، لأنّ صاحبها يملّيها دُون تهذيب، ولو تعهّدها بالتنقيح بعد كتابتها لخلّت من التكرار وما يعتورها من العيوب، وأمّا خلوها من مزايا الخطابة، فإنّه لا يملّيها على أنّها خطب بل على أنّها مقالات، وكما أنّ الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها في نفوس القراء حين يقرؤونها، فكذلك مقالات الدكتور طه من عيوبها أنّ الناس يقرؤونها، ولا يسمعونها، وأظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار والحشو».

وفي مقال آخر كتب المازني عن (حديث الأربعاء) مقالاً يقول^(٢) فيه: «إن الدكتور طه قد قال عن كتابه في المقدمة: (هي مباحث متفرقة لست تجد فيها هذه الفكرة الواضحة المتحدة، التي يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم) وبالغ في

(١) قبض الريح، ص ٢٩ - دار الشروق.

(٢) قبض الريح، ص ٣٧ - دار الشروق.

هذا الضرب من التواضع المقلوب، فأعلن للناس أنه لم يُعَنَ بهذه المباحث العناية التي تليقُ بكتابٍ يعده صاحبه ليكون كتاب حق، وأنه يعلم أنه شديد النقص محتاجٌ إلى استئناف العناية والنظر، ولم يكذب الدكتور حين قال ذلك، وكأنه أراد أن يقول للقراء: لستُم أهلاً للعناية وإنما في وسعي أن أؤلف خيراً من هذا الكتاب، ولكن لمن؟ ألقراء الصحف السيارة، وهم جمهور القراء في مصر؟ كلا يا سيدي، لم يكن بدٌ من أن يتجنّب الدكتور التعمّق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي، إذا كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا، وكم وددتُ حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور طه كتابه أن أعلمه أن يحترم القراء.

وقد سمع المازني من الدكتور طه أنه يعتزُّ بأن كثيراً من الكتاب يقلّدونه ويحتذون طريقته، مع أن الكاتب الذي يستطيع القارئ أن يقلّده ليس من ذوي التَّمط الرفيع، فهل يستطيع أحد أن يقلّد المتنبي أو كارليل، والتقليد سهلٌ جداً إذا كان الأسلوب خالياً من الخصائص التي ترجعُ في مردّها إلى النفس فلم يفخر الدكتور بما لا يفخر به؟ ثم نقد الدكتور طه في إثارته عجاجة القديم والجديد في الأدب، دون أن يكون وراء ذلك محصول يعتد به!«.

مقالان طويلان في نقد أسلوب الدكتور طه، سكت أمامهما ولم يردّا! وقد نقده المازني نقداً مستتراً، حين كتب فصلاً عن العمى والغريزة الجنسية محللاً شخصية بشار بن برد، وكان الدكتور قد أكثر من عَرَض قصائد المجون في العصر العباسي لدى أبي نواس، وبشار، وابن مُطِيع، وأشباههم، وبالغ في ذلك مبالغةً عابها الكثيرون، فكتب المازني مقالة لئسِّيء إلى بشار ناقداً فاضحاً، وبشار ستارٌ للحديث عن سواه.

وقد كتب المازني مقالاً عن كتاب (الشعر الجاهلي) لطه حسين، جاء في خاتمته^(١): «وقد أطلنا جداً، والصحيفة لا تتسع إلى الإفاضة، ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخليط الطلبة منه بأبحاث الأساتذة، فليته استغنى عنه، وإنّ الدكتور ليحسنُ جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل، إلى النقد التطبيقي أو الدراسات الفردية»، والعبارة الأخيرة تصوّر رأي المازني الصريح، وأن الدكتور طه فهم من الأسلوب الأدبي ما لا يتفق مع الفهم الصحيح.

(١) قبض الريح، ص ١٦٢.

أما حديث المازني في هذا المقال عما ذكره الدكتور من اختلاف اللغة الجاهلية بين الجنوب والشمال، لينتهي إلى أن الشعراء الذين نروي شعرهم لا تختلف أساليبهم في شيء، فشعرهم إذن منحول لم يقلوه، فقد ردّ عليه المازني ردّاً موجزاً ولكنه حاسم قاطع، وإذا كان المازني في مجال النقد الجادّ قد حمل المعول، فقد شاء أن ينقد الدكتور نقداً فكاهياً كان في قوته أقوى هذماً من نقده الجاد، ذلك أن الدكتور طه كتب بحثاً نفى فيه وجود مجنون ليلي، لاختلاف متناقضة قالها الرواة عن حياته، فجعل طه حسين من هذا التناقض مبرراً لإنكار وجود المجنون بالمرّة، وكتب في ذلك مقالاً مسهباً كعادته، فنقضه المازني نقضاً هادماً، إذ ردّ على الدكتور بمثل منطق، فساق هذه اللفظات الماهرة حين قال ما فحواه ممّا ألخصه الآن :

عمد المازني في مهاجمة رأي طه حسين في خرافة مجنون ليلي إلى الناحية التصويرية ذات الخيال المؤكّد للحقيقة، والذي يزيدها جلاءً وسطوعاً، وإذا كان قد تحدّث عن مقتل عمر بن الخطاب في تصوير خياليّ، لم يَجْنِ على الحقيقة بل زادها إشراقاً ووضوحاً، فإنّه تحدّث عن وجود المجنون بمثل هذا الاتجاه التصويري، الذي لا يستطيع طه حسين نفسه إلّا أن يقف أمامه حائراً، لا يدري بما يجيب!!

لقد قال المازني: إنّ ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من إنكار وجود المجنون لِيَصْرَبِ ما روى الرواة عنه من أنباء متناقضة تُؤكّد عدم وجوده، ما ذهب إليه الدكتور في ذلك يودّي إلى إنكار وجود طه حسين نفسه! لو اتّبعتنا طريقته في الإثبات والإنكار، والفكرة في أصلها للعقاد، قالها في مجلس من مجالسه، فأخذها المازني ليمتدّ بها إلى غايتها المحتومة، إذ افترض أن يأتي باحث في القرن الثالث والعشرين مثلاً ليتناول حياة طه حسين بمثل ما تناول به الدكتور حياة المجنون فيقول مثلاً^(١):

«يزعمون أن رجلاً اسمه طه حسين عاش بمصر في أوليات القرن العشرين، وأنّه صاحب هذه الكتب التي نسبوها إليه، ونحلوه إياها، ولكنّ كل ما اطلعت عليه مما يُعزى له يحملني على التردّد بين رأيين؛ أحدهما: أن يكون هناك أناسٌ كثيرون يسمّون طه حسين، وثانيهما: أن يكون هذا اسماً استعاره فردٌ أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، ذلك أنّه على ما رُوي أزهريّ النشأة، والأزهر جامعة إسلامية كبرى،

يلبسُ طلابها الجبّة والقفطان والعمامة، وما يُماثل ذلك من ثياب العامة، فهو على هذا شيخ، ويقولون: إنه في صدر أيامه كان يكتب في صحيفة اسمها الجريدة، فألفت أحد أدباء هذا العصر واسمه عبد الرحمن شكري يسميه طه أفندي حسين، وهو ما لا سبيل إلى حمله على الخطأ أو زلة القلم، لأنّ الفرق بين الشيخ والأفندي من الوضوح والاختلاف في النشأة والتعليم والزي بحيث لا تعليل أن يخلط بينهما.

ويُظن أن هناك أكثر من دكتور طه حسين واحد، ففي بعض المقالات المعزّوة إلى المسمى بطه حسين تنويهٌ بأنه كيف، مع أنه فيها يُروى من مؤلفاته يقول: رأيتُ، وشاهدتُ، وقرأتُ، ويكتبُ عن روايات تمثيلية يقول: إنه شهدها. ومما يؤكّد هذا التعدد أن لأحد هؤلاء الدكاترة المسمّين بطه حسين أبناءً يسميهم أسماء إفرنجية، والصّحف المحفوظة في دور الكتب، بعضها يقول: الشيخ طه حسين، وبعضها يقول الدكتور طه، وواحدةٌ تزعمه أستاذاً جامعياً، والأخرى تراه صحفياً، وقوانين عصره تمنع اجتماع الصحفي والجامعي في وظيفة واحدة، كما أنه ذهب إلى فرنسا وجاء بما يخالف ما تعلّمه بالأزهر، فلا بدّ أن يكون من ذهب إلى فرنسا غير من تعلّم في الأزهر».

يقولُ المازني بعد أن عرض أمثال هذه المتعارضات المتضاربة: «فالأمر لا يعدو إحدى اثنتين، أن يكون هناك أشخاصٌ عديدون بهذا الاسم، وهو غير محتمل، أو أن يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الأرجح». وهذه هي النتيجة التي وصل إليها طه حسين في حديثه عن المجنون!.

وقد ظهر هذا المقال في الطبعة الأولى من كتاب (قبض الريح) للمازني، ثم حُذف في الطبعات التي نُشرت بعد موته، وهو ما نتساءل عن سببه، أيكون أحدٌ قد ضاق بالحقيقة التي عنها الكاتب فعصف بالمقال، وهل يملك ناشراً ما أن يأتي إلى كتاب مات مؤلفه فيحذف منه ما يشاء، ويترك القارئ في عماية من أمره، دون أن يشير في المقدمة إلى أنه حذف أبواباً وترك أبواباً؟ وهذا تساؤل إنكاري لا حقيقي لأن الأمر واضح بيّن.

وفي مجال قضايا العروبة كان المازني أبرز كتّاب الصف الأول بالهتاف بالوحدة العربية، فقد كتب عنها مقالات ضافية بمجلة الرسالة، وجريدة البلاغ، وجريدة الأساس، والذين جمعوا مقالاته بعد وفاته لم يجمعوا إلا بعض ما تركه من

القصص، لأنه في رأيهم قصاصٌ قبل أن يكون كاتب مقال توجيهي، وهذا ظلمٌ فادح للمازني، وقد زار المازني العراق وسورية وفلسطين والحجاز، وكتب عن هذه البلاد كثيراً من المقالات ذات النظر الصائب، بل إنه أفرد رحلة إلى الحجاز بكتابٍ مستقل، اقترح فيه كثيراً من الإصلاحات، ومزّت الأيام فتحقق أكثر ما اقترحه، وكأنّه كان يرى بعين الغيب ما سيكون.

والصحفي من طراز المازني أديبٌ مقتدر لا يصوّر الحاضر وحده كأكثر ما نقرأ للصحفيين، ولكنه يربط الحاضر بالماضي، فيتحدّث عنه بإشباع، ثم يمدّ نظره إلى المستقبل، فيرسم وجوهاً للإصلاح يراها ضرورية التحقيق، وهكذا جمعت الرحلة الحجازية للمازني بين الماضي والحاضر والمستقبل، وكان طريفاً من المازني أن يذكر في مكة أنه ابن هذه البلاد؛^(١) بل ابن مكة بالذات لأنّ جدته لأبيه مكيّة، زوّجوها وهي بنت عشرين، رجلاً من المدينة فغضباً وتقاطعا فطلّقت منه، ثم ارتحلت إلى مصر بعد وفاة والدها، وخراب بيتها، فتزوجت من جد المازني، ولهذا فهو يتلفت يميناً وشمالاً باحثاً عن أسرة مازن! وقد علم أن لها أصولاً في جدّة، لذلك أفرد صفحات طيبة في الحديث عن (جدّة) واصفاً شواطئها وبيوتها وشوارعها وسكانها، ومن يقرأ وصف المازني لجدّة في سنة (١٣٥٤هـ) ويرى ما هي عليه الآن يظن أنّ المازني كتب مقاله من عدة قرون، لا في هذا القرن، لأنّ التطور الحضاري الذي طرأ على هذه المدينة المباركة قد ارتفع بها إلى السماوات.

أما مناسك الحج والعمرة وشعائرها فقد أبدع الكاتب الأديب في وصفها بما لم يَفْقُه في تصويره إلا قلم الكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل، والفرق بين الكاتبين العظيمين حقاً، أن هيكل كان يخرج مؤلفاً علمياً يجمع إلى المشاهدة حقائق التاريخ في حيز ضخم، أما المازني فقد كتب مقالات صحفية بارعة اللمحة، ثم جمعها في كتاب.

أما قضية فلسطين فقد كانت شغل المازني الشاغل، وقد كتب عنها عدة مقالات في (البلاغ)، و(الأساس)، و(مجلة الرسالة)، ولم أستطع الحصول على ما كتبه في جريدتي البلاغ والأساس، ولكنّي وجدت بعض الدارسين ينقل عنهما بإسهاب، أما مقالاتُ الرسالة فقد تابعت تحمل هذه العناوين؛ (خطب فلسطين بين الصهيونية

(١) رحلة الحجاز، للمازني، ص ٧١.

الاستعمار)، و(فلسطين المنكوبة) و(فلسطين والسياسة الإنجليزية الجديدة)، و(فلسطين لا تقهر)، و(الحلف العربي قضيتا فلسطين وسورية)، و(نكبة فلسطين في أيدي العرب سلاح ماض)، و(فلسطين بين العرب والصهيونية)، و(مقاطعة الصهيونية وحقائق عن فلسطين)، و(القلة الفلسطينية هي المعتدية)، و(فلسطين وشرق الأردن)، ومجلدات الرسالة سجلّ وافٍ لهذه المقالات وأمثالها مما تركت عنوانه دون إشارة، وقد مات المازني قبل محنة التقسيم، وبالطبع قبل هزيمة (يونيو)، فماذا كان يصنع لو رأى ما رأيناه من هذه النكبات!

إذا كان المازني قد جابه طه حسين مجابهة حادة، فقد جابه توفيق الحكيم حين كتب مقالاً عن أثر المرأة في أدبائنا المعاصرين، فزعم في مطلعته أنّ وراء كل عظيم امرأة، وذكر أشتاتاً من أدباء الغرب، متحدثاً عن أثر المرأة في نتاجهم، ولكنه تورّط حين ذكر بين هؤلاء محمداً ﷺ وزوجته خديجة، فردّ عليه المازني ردّاً صائباً، قال فيه^(١):

«ما تزوج النبي ﷺ خديجة لأنه عشقها، بل الذي حدث أنه عمل لها في مالها وتجاريتها، فأعجبت بأمانته، وسرّها حسن سيرته واستقامته، فرغبت هي أن يكون زوجها، وجاء رسولٌ يدعوهُ إلى ذلك أو يقترحه عليه، وكان هو يعرف لها فضائلها فقبل، وكانت له نعم الزوجة الحكيمة الوفية الرزينة المخلصة، ولكن ليس هناك عشقٌ بالمعنى المعهود، ولا يمكن أن يقال: إنها أثّرت فيه التأثير الذي يقصده الأستاذ توفيق حين يذكر المرأة في حياة الرجل».

وللمازني مجابهة أخرى مع الحكيم، حين زعم أنه يدعو إلى تحرر الأسلوب العربي من قيود الصنعة ليصبح ذا موضوع، فقال له المازني: «ماذا كُنّا نعمل يا توفيق أنا والعقاد منذ ثلاثين عاماً، وأنت تلميذٌ صغير، إن هذه الدعوى قد فات أوانها منذ زمن بعيد، وبسببها تحررت أساليب الأدباء من بعد، ومن بينها أسلوب توفيق الحكيم!». وقد قرأت هذا قديماً، ولكني لا أذكر موضعه الآن، بل أنقل من الذاكرة.

لقد كان المازني كاتباً من كتّاب الصف الأول في النهضة المعاصرة، ومكانه منها مشهور غير منكور.

* * *

(١) مجلة الرسالة، العدد (٣٠٤) ١/٥/١٩٣٩م.

الدكتور أحمد الشرباصي

خطيب باحث دؤوب

رزق الدكتور أحمد الشرباصي سعادة في وقته، فهو لا يكاد يقضي يوماً دون عمل جديّ، على ما يضطر إليه من كثرة الرحلة إلى عواصم الجمهورية خطيباً داعية، فقد تسمعه في المساء في أسيوط يلقي محاضرة علمية، ثم تعرف أنه في اليوم التالي قد استعد لمحاضرة في موضوع آخر ببور سعيد، هذا في داخل مصر، أمّا رحلاته إلى الخارج فقد شملت أكثر بقاع العالم الإسلامي، محاضراً ومفكراً وموثّق صلّات.

ومع هذا الجهد الجسمي ترك آثاراً علمية لا أستطيع أن أحصرها، إذ كتب موسوعة (أخلاق القرآن) في سبعة أجزاء، وموسوعة (يسألونك) الحافلة في سبعة مجلدات، وموسوعة (الخطب الشرباصية) في خمسة مجلدات، وموسوعة (الفداء في الإسلام) في أربعة مجلدات، كما أعد رسالة الماجستير عن أدب الأمير (شكيب أرسلان) في جزئين، ورسالة الدكتوراه عن السيد (محمد رشيد رضا) في ثلاثة أجزاء، هذا إلى عدد كبير من المؤلفات المتنوعة تشمل الأدب والدين والتاريخ والاجتماع، وتلك همة عالية لا يقف دون حمدّها منصف أمين.

وأكبر ما يوجّه إلى هذه الثروة العلمية من نقد، أنه كتب البحوث العلمية بروح الخطيب، فقد يتسع الكلام دون تحديد دقيق، وهذا ما لا حيلة له فيه، لأنه خطيب متمرّس، قد اعتاد أن يسهب ليفهم عنه الجمهور الشعبي في تواضعه الذهني، ولم يفرق بين الخطابة والكتابة في بعض ما ألّف، ولكن ذلك لا يعمّ مؤلفاته، فرسائله الجامعية التي نال بها أعلى الدرجات، وكتبه التي قرّرها على الطلاب في كلية اللغة العربية، تحفظ له مكانه المرموق في التأليف.

وقد عانى في مرضه الأخير ما لا قبل له من الداء، فكانت رغبته في الكتابة تدفعه إلى استزارة تلاميذه ليكتبوا ما يمليه عليهم، إذ عجز عن حمل القلم، وتلك طبيعة علمية ذات اتصال بمشاعره، يسوؤها أن ينقطع تيار الفكر مهما اشتد الداء، وقد أتيح لي أن أشاهده في كثير من مواقفه العلمية، فأعجب ببراعة سلوكه المتسامح، وقد أهداني كل مؤلفاته مشكوراً، فكتبتُ عنها في كثير من الصحف، وأحب أن أختار شيئاً مما كتبه عن بواكيره الأدبية، قبل أن يستوي أستاذاً جامعياً، ليعطي الانطباع الصادق عن معدن هذا الفقيه الأثير، وهي ذكريات أمينة من الخير أن تُذاع، وإذا تغاضيت عن بعض النقدرات، فذلك عطف من زميل شاب على زميل شاب، قبل أن أعرف معنى النقد الصحيح فأقول:

«... حينما أصدر الدكتور أحمد الشرباصي كتابه القيم (الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز) كتبت بمجلة الأزهر (شوال سنة ١٣٧٦ هـ) فصلاً تحليلياً عنه، ولا أدري لماذا قابله أحد الزملاء بالابتسام المريب، فاندفع يسألني عن سر إعجابي بالكتاب!! وهو مجهود «علمي» وإنساني معاً، فلا غرابة حين أوفيه حقه، إنما الغرابة أن ينكر منكر على الأصدقاء أن ينوهوا بجهود زملائهم في الميدان العلمي مع أنهم بحكم صلاتهم الوثيقة أقدر على الفهم والتعليل».

وقد رجعت بذاكرتي إلى الوراء أمداً طويلاً، أيام كنت طالباً بالسنة الأولى بمعهد دمياط الديني، وقد سبقني في التخرج منه زميلي أحمد الشرباصي، تاركاً خلفه ثناء مستطاباً، تفيض به السنة المدرسين بالمعهد، وأدباء دمياط خارج الدراسة في أندية السمر، ونزهات الترويح، ودهشت كثيراً حين علمت أن الطالب المتخرج في المعهد الديني الابتدائي قد أصدر كتاباً شائقاً في موضوع توجيهي تحت عنوان (حركة الكشف) ولم يكن الكتاب مقالات متناثرة، في موضوعات متفرقة، تزدهم بها أساليب الإنشاء المحفوظة، كما نلاحظ دائماً من إنتاج الشدة من الناشئين، والطامحين من المراهقين، ولكنه كان كتاباً هادفاً، يسعى إلى غرض، ويدور حول فكرة، فاجتمعت له الأصالة والجدة مع التوجيه الدافع، والحرص الغيور.

وقد انتقل الإعجاب بهذا الكتاب إلى الدوائر الأدبية في القاهرة، فأفردت له مجلة الرسالة الغراء (عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٨ م) صفحة خاصة تحدث فيها الأستاذ محمد سعيد العريان عن الكتاب الغضّ وصاحبه الطالب الناهض، فقال فيما قال:

«ها هو ذا فتى أزهرى يضرب المثل لإخوانه الأزهريين، في الفتوة الرحيمة، التي تعمل للإنسانية، فياله من فتى متمرد!! لا، لا تسموه متمرداً، إنه عرف ما عليه من تبعات الرجولة في غده، فأعدّ للغد عدته، فلا عليه أن كان هو وحده الفتى الكشاف في الأزهر الكبير، وروافده، إنني لفخور به» اهـ.

وأخذنا نطالع مقالات أسبوعية يفاجئنا بها أحمد الشرباصي الطالب بمعهد الزقازيق الثانوي في مجلات مختلفة (كالإسلام، وال صباح، ومنبر الشرق، والنهار)، وكان عجباً أن تصدر مجلة «السياسة الأسبوعية» في (٩ يوليو سنة ١٩٣٩م) عدداً خاصاً في ذكرى الأستاذ الإمام محمد عبده، يكون من كتّابه الأساتذة منصور فهمي، ومحمد أحمد جاد المولى، وأمين الخولي، ومن شعرائه أحمد محرم، وعلي الجارم، وغير هؤلاء من أدباء الصف الأول، ثم يكون للطالب الناشئ بهذا العدد الممتاز مقالان اثنان لا مقال واحد، فأية همة طامحة تدفع بهذا الفتى المتوثب إلى مراقبي المعجدين في ميدان تتسابق فيه عتاق الجياد؟!.

وقد شاء له تطلّعه أن يجمع بعض ما كُتب في سِفْرِ لطيف أسمائه (محاولة)، وفي اسمه ما يدل على تواضع مثد، كما تدل كلماته على أمل فسيح ورجاء ممتد، وقد انتقل صدى الكتاب من الزقازيق إلى القاهرة إذ تحدثت عنه (الأهرام، والمقطم) ورأى الكاتب الكبير الأستاذ (فيلكس فارس) أن يسجل إعجابه بهذه المحاولة بمقال جهير نشره بمجلة الرسالة (٦ فبراير سنة ١٩٣٩م) جاء فيه:

«إنّ المؤلف يذهب في محاولته ذهاب من رسخت عقيدته متعالية عن تردد المحاولين، فيأتي بسلسلة مقالات أولها عن الصديق الصدوق، يجيء فيها على وصف إخلاص أبي بكر الصديق للرسول الكريم سارداً ما حدث للأول مع عمر، فيرسم أروع صور شهداء التاريخ للوفاء والإقرار بالخطأ، وإنصاف سيد المنصفين... ويكتب الأزهرى الناشئ قطعة (أمام المحراب) بشعر منشور، فإذا هي صرخة نفس تتجه إلى خالقها بإيمان يختلج له القلب، ويتنبأ لرجال اليوم بتفوق رجال الغد عليهم في إدراك عظمة العبادة، ومبادئ الدين الحق».

إلى أن يقول الأستاذ (فيلكس فارس) بعد أن يستعرض أبواب الكتاب: «إن العبقريّة العربيّة، تنتبه في هذا الجيل، الذي يتقدم ليحل محلنا على الذروة، نحن النازلين منها إلى الأغوار، لقد ولدت أقلامنا أقلاماً خيراً منها، وما كان بيننا من

يكتب بين الخامسة عشرة والعشرين، ما تكتبه الناشئة في نضوجها المتيسر في هذه الأيام، فليعطف شيوخ الأدب على هؤلاء الأحفاد.

وثناء كهذا الثناء تعبق به مجلة الرسالة بلسان كاتب كبير من أدباء العصر، جدير بأن نهنيء به الكاتب الواثب، وكأنه وسام رفيع.

مضت الأيام وأحمد الشرباصي لايني عن رسالته الأدبية، بل يكدح مصباحاً ممسياً، ليزاحم الكبار تأليفاً وابتكاراً، على طراوة العمر، ولدونة اليفاع، وكان لابد لهذا النشاط أن تجتمع آثاره في كتاب ثالث يخرج الطالب الناشئ تحت عنوان (بين صديقين)، كما كان لابد لجمهرة المنصفين من الأدباء أن يتسابقوا إلى تكريمه وتشجيعه، فهيات جمعية الشبان المسلمين ساحتها مساء الأربعاء (٢٨ من نوفمبر ١٩٤٠م) لحفلة تكريمية ساهرة خطب فيها كبار الأدباء والشعراء، فأظهر الوفاء دلائله الصادقة، في نفوس كريمة تقدر الكفاح الدائب والجهد الموصول. وأنت تدرك كفاح الطالب الناشئ حين تستمع إلى زميله الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف يتحدث عنه في هذا الحفل فيقول^(١):

«كنت ألتقى بريد (الرسالة) فأجد الشرباصي في اليوم الواحد كاتباً في (المكشوف) اللبنانية، و(الحديث) الحلبية، و(النفیض) العراقية، و(المجلة) الدمشقية. وهذه الحقيقة الماثلة تنطق بنشاط حافل، تمده الموهبة، وينميها الاطلاع».

وقد آثرت أن أنقل هذه النصوص عن الأساتذة سعيد العريان، وفيلكس فارس وفهمي عبد اللطيف، ليعلم هذا المبتسم عن ريبة، أنني لا أبارك وحدي جهود أديب طامح، شهد له إنتاجه الحافل، بل أتبع نفرأ كريماً من المنصفين يقرؤون فيحمدون.

وإذا كان لي أن أبدي وجهة نظر مستقلة، فإني أقرر أن الشرباصي في مطلع حياته قد احتفل بالأدب العربي وحده، فهو غاية يضعها نصب عينيه، ولم يك يدري أن الأيام ستجعل هذه الغاية وسيلة إلى هدف أسمى، ومطلب أعز، إذ صار داعية إسلامياً، يوضح منهج الإسلام بلسان مبين.

لقد أكتب الشرباصي على دراسة الأدب، في مختلف عصوره، فألم به إماماً

(١) جمعت الكلمات والقصائد في كتاب خاص، صدره السيد حسن القاياتي بنفثة من شعره. ومنه أخذنا كلام الأستاذ فهمي عبد اللطيف.

مستوعباً، وكتب سلسلة من الفصول الأدبية، أخص بالذكر منها بحثه عن (الخطابة في الأندلس) وقد نشر مسلسلأً بمجلة الأزهر، فانتهى إلى حقائق طريفة، كما أذكر أن الدكتور محمد مهدي البصير، أحد أساتذة الأدب بالعراق، قد كتب مؤلفاً تحت عنوان (بعث الشعر الجاهلي)، فانبرى الشرباصي لنقضه في مجلة (المقتطف)، وأبدى من غزارة المادة وقوة العارضة ما أبان عن استعداد رائع، ولو تفرغ للأدب وحده، ومعه هذا الاستعداد الواعد، لرأينا اسمه في مقدمة الدارسين، ولكن الخطابة قد شغلته .

وأخال الشرباصي يتعرض في نقده الأدبي إلى مأزق ضيق، يكابد منه تبريحاً ثقيلاً، فهو يحرص على التشجيع الدائب، وقد تدفعه المجاملة المتسامحة إلى إهمال حقوق النقد الصريح، فقد تقرأ له بحثاً أدبياً عن كتاب معاصر، أو شاعر صديق فلا ترضى عما يشيع فيه من مبالغة الإطراء، فإذا اضطر اضطراراً إلى النقد، ساقه في ثوب حريري ناعم، بحيث لا يلوح إلا لمن يلمسون الغور العميق، دون أن يخدعوا بالسطح الهادىء، وقد تخلو إليه فيحدثك عن بعض المآخذ التي طواها، فتسأله عن السبب؟ فيقول: لا أحب أن أثبط. ولماذا لا أكون صريحاً، فأعلن أن كتابه (أيام الكويت) قد أصيب بهذه العلة، حين ارتفع بقوم من النظامين إلى ما يجب أن ينحدروا عنه من التقدير الجزاف، والثناء المستطيل .

على أن الشرباصي إذا تسامح مع زملائه مشجعاً، فهو لا يتهاون قيد شعرة مع كبار الأساتذة من الأدباء، وقد تعرض لغضب الأستاذ الزيات، حين نشر نقداً أدبياً لبعض ما جاء في كتاب (تاريخ الأدب العربي) بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٠م، كما أغضب الأستاذ أحمد أمين، حين انحاز مجاهرة إلى تأييد الدكتور زكي مبارك في هجومه على صاحب فجر الإسلام، وغضب الزيات له مبرراته، لأن أحمد الشرباصي قد تسرع فخطأ الصواب، هذا ما لا جدال فيه، أما غضب الأستاذ أحمد أمين فلم يمتد به الوقت، إذ أهدى إلى الشرباصي مؤلفاته عن كرم واحتمال .

وقد كان التحاق الشرباصي بكلية اللغة العربية بالقاهرة! بل كان انتقاله من الزقازيق إلى القاهرة نقطة تحول كبير في إنتاجه، إذ كان المظنون به أن يتوسع في الدراسة الأدبية التي تتيحها كليته، مقتصرأً على علومها، ولكنه وجد في القاهرة مجالاً للنشاط الإسلامي في جمعياتها وندواتها ومساجدها عن طريق المحاضرة

والمناظرة والخطابة، فانفرجت دائرة كفافه إلى حيث تتسع إلى الإصلاح الديني، والنقد الاجتماعي، فوجّه نفسه لخدمة الفكرة الإسلامية بالقلم واللسان، «وكلّ ميسّر لما خلق له».

ونحن نعلم أن أسلوب الكاتب يتميز عن أسلوب الخطيب، وإذا اشتغل الشرباصي بالخطابة فقد انتقلت عدوى لسانه إلى قلمه، إذ تجد في بعض ما يكتب - لا في كل ما يكتب - تفصيلاً وإطناباً لا يقنعان من يلتزم بالتركيز والتحديد، وكأني بالشرباصي وقد أثر أن يجتذب القارئ بما يجتذب به السامع فاستطرد وكرر حيناً، وقد عرف قارئه أنه يطالع بيان داعية خطيب، فأثره وارتضاه، ولعلي أشير إلى مؤلفات أصدرها الصديق تنحو هذا المنحى مثل: (صلوات على الشاطيء)، و(النيل من القرآن)، و(واجب الشباب العربي)، و(نفحات من سيرة السيدة زينب)؛ وطبيعة هذه الموضوعات تشفع بقدرٍ ما لصاحبها حين يستطرد ويفيض.

ولا أكنتم الحق حين أقرر أن الشرباصي قد فرغ إلى البحث العلمي الدقيق في بعض مؤلفاته القوية مثل: (القصاص في الإسلام)، و(محاضرات الثلاثاء)، ولن يضيره في شيء أن يعرض بحوثه الدقيقة النافعة، في ثوب جميل، فالحقيقة العلمية لا ينتقص معدنها أسلوب مشرق واستطرد نافع، وإنما يضيرها أن يتشعب بها القول في متاهة لا تحد، وهذان الكتابان من النفاسة جوهرًا، والتجديد منطلقاً، والإشراق تعبيراً في مستوى مشرف، وماذا تريد من الكاتب غير ذلك.

يقول فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف، المفتي الأسبق، في معرض الحديث عن (محاضرات الثلاثاء)، في جريدة منبر الشرق (١٩٥٢/٢/١): «من عاداتي ألا أكتب عن كتاب إلا بعد أن أقرأ أكثر مباحثه على الأقل، فإذا استمالي لمتابعة القراءة فيه لغزارة مادته، وطلاوة عبارته، وجودة معانيه، مضيت فيه إلى نهايته، وقد أهداني فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي كتابه (محاضرات الثلاثاء)، وأنا أعلم أنه رجل موهوب، ازدان علمه بتقواه، وأسلوبه بالأدب الرفيع، وقلمه بالسلاسة والرونق، فعكفت على قراءته كعادتي إذ وجدت فيه طلبتي».

ولعلي أذكر أن (محاضرات الثلاثاء) من أوضح الأمثلة على منحى الشرباصي أسلوباً واتجاهاً، إذ حدد مسلك الداعية البياني في مضممار الهداية والإرشاد، وبوحي من هذا المسلك النبيل سافر الشرباصي إلى شتى البلاد الإسلامية، وصادف

محنًا وصعباً، ولم يترك تجاربه تضيع سدى، بل أفرد لها كتباً نسجلها ونأخذ منها أصدق العبر مثل: (أيام الكويت) و(عائد من الباكستان) و(مذكرات واعظ أسير)؛ وقد سلك في كتبه هذه مسلكاً يلتزمه الكثيرون، فهو يدوّن الحوادث اليومية معجزة متصلة، تتماوج في سلسلة تتعاقب يوماً وراء يوم.

وأذكر أنني كتبت إليه في رسالة خاصة نقداً لهذه الطريقة، التي تعرض الواقع معرض الحديث الشفهي في مجلس ما، إذ أرى أن من الأوفق أن تمتزج هذه اليوميات في فصول خاصة، ذات عناوين واضحة الدلالة، ولكن الشرباصي أرشدني إلى ما كتبه الدكتور محمد عوض محمد خاصاً بنقد كتاب (جولة في ربوع أفريقيا) للرحالة المصري الأستاذ محمد ثابت، حيث أثر أن يكتب الرحالة أحاديثه في مذكرات يومية تتوالى كما وقعت على مسرح الزمن، فيصف المشاهد والأحداث وصفاً مباشراً، وهذا ما يعزز اتجاه الشرباصي.

ولعلي أسجل أن أفكار الكاتب في نشأته الأولى لم تكد تتبدل شيئاً في شبابه المكتمل، ولكن أكسبها الزمن عراقية وأصالة دون أن يميل بها إلى اختلاف وتعارض، ولتوضيح بعض ما أعنيه، أذكر أنني قرأت لأخي أحمد الشرباصي ثلاثة فصول مختلفة عن الأستاذ الإمام محمد عبده، كتبت في فترات شتى، تبتدىء من سنة ١٩٣٨، وتقف عند سنة ١٩٥٦م، وبالنظر الفاحص لهذه الفصول وجدت أن ما جاء عن الأستاذ الإمام في كتاب (محاولة)، كان أساساً لما ذكره في (محاضرات الثلاثاء)، ثم لما كتبه أخيراً في مجلة الأزهر، ولا أقول: إن الكاتب يكرر نفسه، بل أقول: إنه ينفس عن عواطفه الصادقة نحو إمام جليل.

والذين يتابعون النشاط الثقافي بالقاهرة، وبخاصة في جمعية الشبان المسلمين ودار الرابطة الإسلامية يعجبون لحيوية الأستاذ الشرباصي، إذ لا يكاد يمر يوم واحد دون محاضرة تقال في جمعة، أو خطبة تذاع في مسجد، أو حوار يدور في منتدى، وكل ذلك لا يدور في فلك واحد، حتى نقول: إن الرجل داعية يؤدي واجبه الإرشادي في حقله المتخصص، ولكن هذا لنشاط الواسع يتنوع تنوعاً مختلفاً، فمن محاضرة سياسية عن محنة الجزائر ومأساة فلسطين، إلى محاضرة دينية عن القتل الخطأ في الشريعة الإسلامية، إلى حديث تاريخي عن بطل مجاهد معاصر أو سالف، إلى تحليل أدبي لكتاب حديث، أو عرض مشوق لديوان شعري طريف،

وهذا واقع حقيقي أسطره دون مبالغة، وأنا أسائل نفسي: كيف يجد أخي الشرباصي وقتاً كافياً للنشاط العلمي يومياً؟! لأنني أعرف أن الحديث الواحد يتطلب إعداداً متأنياً، وفي تتابع هذه الأحاديث قدرة مقتدرة تدل على موهبة لافتة، لأن صاحبها غير متفرغ لها، فهو أستاذ بالمعهد الديني، يقضي أكثر اليوم في الفصول الدراسية متنقلاً بين الطلاب.

وقد رزق الرجل حظاً وافراً من جودة الإلقاء ولطف التآني، وبشاشة السرر، فكان لذلك أثره في انجذاب السامعين إلى ندواته المتوالية، وخطبه الرنانة، وأذكر أنني كنت حريصاً على صلاة الجمعة في مسجد المنيرة حين كنت طالباً بكلية اللغة العربية، كي أسمع الشرباصي، وكنت أجد من ازدحام الناس، وتدافعهم على المسجد داخلاً وخارجاً، ما يعطي الشاهد على قوة إقناع الخطيب، وشدة استمالته، إذ أن المسجد قد امتدت حوله البسط، لتسع مئات ممن لا يجدون مكاناً للصلاة من الداخل، فاكثفوا بالسماع عن العيان.

وإذا كانت محاضرات الشرباصي قد ملأت الأسماع، فإن كتبه لم تتوقف عن الصدور، بل أخذت تتتابع لتضم بعض هذه المحاضرات تارة، ولتأتي بالجديد تارة أخرى، وقد يجمع المؤلف الواحد منها ضروباً من القول تتباعد مصادر ومراجع، وتتقارب هدفاً وغاية، وتلك حقيقة واضحة سجلها الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور حين قال عن كتاب (في عالم المكفوفين) بمجلة الرابطة الإسلامية (١٦/٤/١٩٥٦) من كتاب شاكر:

«وأكبر ظني أيها الصديق، أنك ستشق بكتابك هذا على من يريدون إلحاقه بفن من فنون التأليف، فإنهم يحارون فيه، إن ألحقوه بالعلم فهو ذاك، لما حوى من دراسة وتحقيق، وإن وصلوه بالتاريخ فله منه نصيب موفور، وإن درجوه بالاجتماع فما ظلموه، وإن عدوه كتاباً في الأخلاق، فليس هو منها ببعيد».

هذه شهادة منصفة من تيمور، وهي - بعد - تحقيق لما تنبأ به أصدقاؤه عنه، منذ ظهرت بواكيره، وإذا كان الأستاذ محمود تيمور قد أوجز حديثه عن كتاب (عالم المكفوفين)، فلي أن أتبعه بما كتبه عن هذا المؤلف عقب صدوره، لأنه يمثل الدكتور الشرباصي في أرقى ما كتب من بحوث!.

من آثار الشرباصي (في عالم المكفوفين)

تقرأ بعض الكتب فلا تجد لها سمة بارزة، أو دلالة معبرة، بل تطالع حشوداً مختلفة من القول، وأفانين متشعبة من الحديث، يأخذ بعضها برقاب بعض، دون حاجة ماسة، أو ضرورة ملجئة، وقد تتجاوز صفحات متتابعة دون أن تحس تحقق الوحدة، وترباط الأصرة، وهو - بعد - كتاب يحمل اسماً واحداً لمؤلف واحد في موضوع واحد!! وإن فقد منهجه العلمي، ومال به التشيُّتُ إلى التناقض والاضطراب.

هذا نمط من الكتب، نعهده لبعض اللامعين من ذوي الإنتاج السريع، والإقبال المصطنع!! وإذا كنا نقف منه موقف المشمئز المتضايق، فإننا نذهب بإعجابنا وتقديرنا إلى نمط آخر في التأليف، يقف منه موقف النقيض من النقيض!! فللمؤلف في كتابه سمة بارزة ملحوظة وروح عامة تترقق بين الأبواب والسطور، وتتخيل بين الحروف والكلمات!! ولئن تعددت مزاياه المتنوعة فإن هذه السمة البارزة تسيطر عليه سيطرة خالصة مؤثرة، فهي تتضح في توهُّج آخذ، وتومض في سطوع بَرّاق.

وكتاب صديقنا الأستاذ أحمد الشرباصي، الذي أخرجه تحت عنوان (في عالم المكفوفين) تهيمن عليه سمة خاصة، فهو يذكرني بكتاب آخر للمؤلف الكريم، أصدره عن (القصاص في الإسلام) وقد ائتملت في الكتابين الجليلين محامد غالية تضم وحدة الموضوع، وطرافة المنحى، وصدق الاستنباط!! ولكن كتابه الأخير يتسم بطابع رائع، إذ تغمره الإنسانية النبيلة فترتفع به إلى أفق كريم، ولئن تواكبت فيه مزايا مرموقة، من بلاغة السرد، وجودة الاستشهاد، ودقة التشريح، وقوة الاستقراء، فإن هذه السمة البارزة تحتضن مزاياه جميعاً!! إذ تلوح الإنسانية النبيلة من أول كلمة في العنوان، ثم لا تزال تتهاوى في أفلاكها الساطعة، حتى تنتهي بك إلى آخر سطر دُون في الكتاب! فالإنسانية ظل باسق يرف على الصفحات، ويسقط ثماره المشتهاة فوق الحروف والكلمات.

لقد تجلت هذه الإنسانية - أولاً - في اتجاه المؤلف الجليل إلى الحديث عن قوم حرّمهم القدر أئمن ما يمنحه الإنسان! فعاشوا يتخطون في ديجور غامر لا يَسْطَعُ في

آفاقه ضوء، ولا تبتسم في غياهبه حياة! وبذلك كانوا جديرين في رأي المؤلف بالإشادة والالتفات، فاندفع يقرأ التاريخ، ويطالع الكتب، ويدرس المكتشفات، ويجول بين معاهد النور المختلفة، ويتسمع إلى ذوي الدربة من المتخصصين، ثم يفيء إلى نفسه، فيرصد انفعالاته المتوثبة، ويصور انطباعاته المتعاقبة، مضيفاً إليها ما قد رسب في خاطره من تجارب المشاهدة، ومرارة الواقع، وتخاذل التوفيق!!

وظفك يصوغ من ذلك كله كتابه المسطور في أربعمئة صحيفة، ليقول للناس: لقد أدت ما عليّ نحو هؤلاء الرفاق، فأرحت ضميراً يوخز، ونقعت أوماً يحرق، وهذا - مع جدواه المحققة - غاية المستطاع!!

تجلت الإنسانية النبيلة في اختيار الموضوع أولاً، ثم تجلت ثانية في اختيار العنوان، فقد أصّر المؤلف على استعمال كلمة (المكفوف) دون الضرير والأعمى والأكمه والعاجز!! مختبراً أصول اللغة، ومستنطقاً قواميس العربية!! وقد راعه أن تكون جميع الأوصاف السابقة مدعاة للإصاق نعت كرية يقوم لا حيلة لهم فيما طرأ عليهم من عجز وضر وعمى وعمه!! ومن ثم فكلمة المكفوف أخف وقعاً، وألطف معنى! وهي وحدها في نطاق الإنسانية النبيلة، التي تشمل جميع الكتاب، اسم متعين ووصف محتوم!!

وفي ظلال هذه الإنسانية النبيلة اندفع الأستاذ الجليل إلى اختيار مواضيعه وأشخاصه معاً، فهو في أبواب الكتاب يتحدث عن أخلاق المفكوفين، فيعرض مواقف رائعة تصور البطولة الخارقة في الحق، والذكاء النافذ في الفهم، والفكاهة البارة في السمر، والروعة المعجزة في الشعر!! والطريف المعجب أنه جعل آفتهم ينبوعاً يفيض بالقدرة، فقد استعان بالتحليل الدقيق، والتشريع الفاحص على تصوير ما لديهم من إمكانيات وفيرة، تسعف بالجودة والدقة والإبداع!! وبخاصة في الميدان الخُلقي، الذي يستمد مقوماته الوطيدة من السماء، فتتجه النفس إلى ذرى رفيعة، ترنُّ فيها هوائف الخير والحق والفضيلة!! وينفسح بها مدى التأمل الروحي والاستشفاف الوجداني!!

والمؤلف يجيد تعليل ذلك حين يقول: «وللمكفوف من كف بصره ما يجعله يبصر بقلبه وروحه، فيطوف به ذلك القلب في عوالم غير منظورة، وتهيم به تلك الروح في آفاق بعيدة غير مرئية، ولذلك يكون مدى تفكيره وسبحه الروحي أوسع

وأرحب، يضاف إلى ذلك أن تخيل المكفوف للكون والأحياء يصحبه نوع من الإبهام يوجد في النفس نوعاً من الرهبة والخشية، ومن وراء هذه الرهبة وتلك الخشية تتوالد في نفس المكفوف عناصر الخوف من ربه، والحذر من عقابه، والرجاء في ثوابه، فندفعه تلك العناصر المتكاثرة إلى منهج أخلاقي روحي فيه تأمل وتخيل، وفيه غموض وإبهام، وفيه رهبة وجلال»^(١).

هذا الفهم البصير لنفسية المكفوف قد غمرته الإنسانية الفاضلة، فاندفعت بالكاتب إلى تبرير ما قد وقع فيه بعض المكفوفين من هبوط وإسفاف، فعمد إلى تحليل الدافع، وتصحيح السلوك، وتصوير الخلجات المتباينة في نفوس أزعجها مركب النقص العنيف، وقد وجد من ذلك كله ما يكفي لتهوين الخطأ وتحقيره! لا سيما إذا أحيطت هذه النقائص المعدودة بطوفان غامر من الفضائل السامية، فغرقت في دوامة شديدة، تتفاعل وتجيئ!! وقد أفاد الأستاذ الشرباصي من اطلاعه الواسع على مصادر موضوعه، فألف بين الشوارد النافرة، وجمع بين الصبابات المتقاطرة، جدولاً مترقراً، به نميره العذب، وله منظره الرائق، وعليه غصونه الخضر المورقات.

هذا عن الاتجاه الإنساني في اختيار المواضيع!! أما اختيار الأشخاص فقد شملته الإنسانية العالية بقوة وإصرار، فلم يعمد المؤلف إلى الأسماء الضخمة، ذات المراجع الموفورة، والكلفة الهينة، والمورد القريب! ولئن فعل ذلك فما عليه من تثريب، فهو يتحدث عن أناس من أصحابه، لهم مواقفهم الكثيرة ومواهبهم الوفيرة، ولكنه في ظلال الإنسانية العريقة، يأبى ذلك في عنف وإصرار، يأبى المركب الذلول والطريق المعبد! ليعتسف مسلكاً وعراً، تضيق منرجاته، وتنطبق فروجه، إذ يتحدث عن قوم كادت تطمس آثارهم، وتذهب أصداؤهم في جلبة الزمان الصاخب، ذي الرعد المجلجل، والدوي العارم الشديد، وإليك مثلاً واحداً من الكتاب، يكشف الهدف الرائع، ويصدق به التمثيل الصحيح.

لقد تحدث الأستاذ الشرباصي عن الشاعر الراوية العالم الأستاذ أحمد الزين رحمه الله، حديثاً مسهباً طويلاً، تناول حياته بالتسجيل وشعره بالتحليل، وخلق أهدافه ونوازعه بالرصد والتعليل، والحديث عن الأستاذ الزين بكثرٍ جديد يفترعه

(١) في عالم المكفوفين، ص ٨١.

الشرباصي افتراعاً، إذ لا يتجاوز - للأسف اللاذع - ما كتب عن الرجل، وهو من أعلام الأدب في عصره، بضع مقالات، لا تخرج في أكثرها عن التفجع والثناء، وقد صمت زملاؤه في لجنة التأليف والترجمة والنشر عن أداء حقه بالإشارة والتنويه، إلا ما كان من طبع ديوانه الشعري، كإنتاج تقدمه اللجنة إلى قراء العربية، فتأخذ حظاً من الشكر والإقبال!! .

ورحم الله الأستاذ أحمد أمين، فقد أبى أن يتحدث عن صديقه وزميله أكثر من صحيفة ونصف في مقدمة الديوان!! إي والله! صحيفة ونصف! يكتبها أديب لامع عن أديب صديق رافق جهوده، وزامل إنتاجه، وتفهم روحه، واستشف أعماقه!! ولو كان الحديث عن شاعر محظوظ جهير، لأكثر المقدم وأسهب، ليستمد من مقدمته خلوداً يقرنه بصاحبه!! كما فعل الأستاذ أحمد أمين حين كتب مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، بتكليف من معالي الوزير!! مع أن الأستاذ الزين قد خدم صاحبه خدمات يعرفها الأدباء جميعاً، فيعلمون مَنْ صاحب اليد الطولى في جميع ما قام به الرجلان معاً من المراجعة والتصحيح! .

ومع ضالة ما كُتب عن الزين فقد شمر الأستاذ الشرباصي عن ساعده ليصول في غابة شجراء مظلمة المسالك، موغلة الدروب؛ ولو أراد الدعة الوارفة، والراحة الهنيئة، لآثر الحديث عن رجل كالدكتور طه حسين، فقد تهافت الكتاب من تلاميذه المتزلفين وزملائه الكثيرين على الحديث عنه حقاً وباطلاً، واندفع المتملقون إلى إصدار كتب خاصة عن حياته، ومن العجيب أن جلّ هذه الكتب قد صدر أيام وزارته للمعارف، أو عمادته لكلية الآداب، أو إدارته لجامعة الإسكندرية!! فكشفت الظروف الملابس عن الميول والرغبات!!

ولو كان الشرباصي الصبور قد تخلى عن إنسانيته الرفيعة قليلاً لترك أحمد الزين، كي يريح نفسه من عناء ناصب، وجهد كريح! ولاندفع إلى الحديث عن الدكتور طه ليسير في طريق معبد، تظلل الغصون، وتضيئه الثريات، ولكن روح الكاتب الإنساني يصيح به: أن اختر هذا ودع ذاك!! .

ولن يكون في إغفال الحديث عن الدكتور طه^(١) ظلم لأحد، فالكاتب لا يترجم

(١) ترجم المؤلف للدكتور في جزء تال من كتابه، مع جماعة من أمثاله، وكلهم فضلاء.

لجميع المكفوفين!! وإنما يأخذ من سيرهم المختلفة عناصر هامة تكون أبواباً رئيسية، وتدور في نطاق خاص يميل بها إلى البسط والتحليل حيناً، وإلى الفلسفة والتعليل حيناً آخر.

ومن يفعل ذلك إنما يرهق نفسه إرهاقاً عسيراً، يعرفه من يضطلع بالبحث والتأليف، وقد أخرج الصلاح الصفدي كتابه (نكت الهميان) فملأه بتراجم المكفوفين!! والترجمة وحدها في عصر كعصر الصفدي، وعلى طريقته المعهودة لدى السلف المؤرخ، مجهود محدود، لا يوازن بما قام به الأستاذ الشرباصي، ولا أدري كم يوفر المؤلف على نفسه من الجهد لو سلك مسلك صاحبه، فحشد - على طريقته الخاصة طبعاً - تراجم ضافية لأمثال بشار، وحسان، وأبي العلاء، وابن عباس، وأبي العيناء، والحصري. إنه بلا شك سيبدع ويعجب، ولكنه مهما افتن في الترجمة وتوسع في الاستنباط فلن يبلغ مبلغه الذي ظفر به في كتابه العظيم، إذ أحكم الخطة، وحدد الهدف، وأصاب الإخراج والتبويب.

ولم ينس المؤلف، كداعية إسلامي، له وجهته المرسومة، أن يتحدث عن عناية الإسلام بالمكفوفين، والإسلام دين الإنسانية جمعاء! ولو لخصت الإنسانية في كلمة واحدة لكانت هي الإسلام، دون مرأ!! وإذن فمجال القول ذو سعة، فالكتاب إنساني، والإسلام كفيل الإنسانية.

وللمكفوفين منه حظ حميد، أسهب المؤلف في إيضاحه وتبيينه، وقد حالفه التوفيق فيما سرد من الآراء، وعلل من الأحكام، ولم يفتئ أن يعرض لموقف نبي الإسلام من أصحابه المكفوفين! فنشر أفواحاً عاطرة عن جماعة من مكفوفي الصحابة، صدقوا النية، وأخلصوا العقيدة، فعرف لهم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - مكانهم الكريم، وخَفَضَ لهم جناح المحبة والتقدير، ولا تسل عن المدد الزاخر الذي ارتشف منه الكاتب، فمحمد نبي الإنسانية، وقد كان الأسوة الحسنة في رقة الإحساس وقوة الشعور! ومَن أولى بعطفه من المكفوفين!؟.

أما أسلوب الكتاب فقد اكتملت له عناصر التأثير، فاتخذ من صدق العاطفة، وخلوص النية، وتجهُّم الواقع، أوتاراً مشجية، أجاد الأستاذ الشرباصي عزفها على نبضات القلوب، وجيشان الصدور، وقد يستخفك جمال العبارة، بإيقاعها الخالب

ورنينها النافذ، ولكن المعنى الكئيب يخلع على جمالها شحوباً مريراً، تدركه فتبتسم ابتسامة لا تكاد تنفج حتى تنقبض!! .

وأسلوبٌ يثير في نفسك هذه العواطف المتقابلة جديرٌ بالتحية والترحيب، على أن التأثير قد جاوز قمته حين انتقل الأسلوب الخالب في الصفحات الأخيرة إلى ميدان الشعر، فقرأنا بالكتاب قصائد مشجية لكبار الشعراء في الأقطار العربية، وقد انتقل المؤلف بالطائرة إلى شفيق المعلوف بالمهجر، وشبلي ملاط، وميخائيل نعيمة بلبنان، وأحمد الصافي النجفي بالعراق، كما بعث بريده إلى الآخرة، فنقل عن علي الجارم، وعلي طه، وفخري أبي السعود، وولي الدين، وجبران!! ولكنه لم يركب الترام في رحلة قصيرة إلى العباسية، ليأخذ من الأستاذ عباس العقاد قصيدته الجميلة في الأعمى، وهي مدونة بالجزء الأول من ديوانه!! ومن يدري لعله قرأها واكتفى بما نشر!! ولن تنقص قصيدة العقاد كتاب الشرباصي فهو بمباحثه المختلفة ثمر ناضج، وظل مديد.

ولن يمنعني إعجابي بالكتاب أن أعلن عدم ارتياحي لما جاء بصحيفة ١٩٤ و١٩٥ و١٩٦ إذ أن الكتاب بحث علمي يجلّ عن المجاملة والترغيب، وقد يهدف المؤلف بما كتب إلى الدعوة للخير عن طريق المثال!! ولكنه يعيش في عصر تتلمس فيه أسباب المؤاخذه، وتدعو اليقظة أصحابها إلى الحذر والاحتياط.

* * *

أمين الخولي

في بحوثه العلمية

رزق الأستاذ أمين الخولي قدرةً على الجِدال والمناظرة، وقد نشأ مولعاً بالبحث، واعياً إلى نقد ما يقال، وظهر ذلك في أثناء طلبه للعلم بمدرسة القضاء، حيث أُوتي منطقاً واعياً، وشاع عنه قوة الدفاع عما يعتقد، ثم تقلّب بعد تخرجه في عدّة مناصب، انتهت به إلى الانضمام لهيئة التدريس بكلية الآداب، فاستطاع أن يُنشئ من الطلاب شباباً يهيّمون بالبحث، ويتفتحون للوافد الجديد، قدرَ ما يعملون على هضم التراث الماضي، وكان أستاذهم رائدهم في ذلك، فقد درس علوم التراث العربي دراسة واعية، وعرف الجديد من الدراسات التي نهضت بها جامعات الغرب، ووازن ورجّح، ثم كان ذا نظر استقلاليّ، وأثره في تلاميذه من الناحية العلمية كأثر جمال الدين الأفغاني في تلاميذه من الناحية السياسية، ولتلاميذه تعلّق به لا ينشأ عن فراغ، بل عن ثقة فيما أعطاه من الفكر، وذللّ لهم من الصعاب.

لا أريد أن أترجم لحياته في هذه الصفحات، فحسب القارئ أن يعلم أنه نشأ بالأزهر وانتسب لمدرسة القضاء، وعُيّن مدرساً بها، ثم ارتحل إلى إيطاليا وألمانيا مبعوثاً دينياً في السفارتين، فلم يُضِع الفرصة، وتعلّم الإيطالية، ودرس مناهج الاستشراق، وخالط علماء الغرب، ليدافع عن رأيه المستقل، لا لينقاد إلى آرائهم، وقد كتب مقالات وتعقيبات تصحّح ما وقعوا فيه من الأخطاء.

والمأخذ الذي أراه في نقداًته لزملائه - وفيهم أساتذته - أنّه لا يلتفتُ لغير مواضع الخطأ، بل يحاول أن يمتدّ بها إلى ما لا تنطق به، أمّا نقداًته لتلاميذه فذاتُ نظرة مشجعة عاطفة، ولعلّه رأى الكبار لا يحتاجون لمجاملة تفرضها اللبّاقة، أو أنّهم

يستطيعون مجاذبته الرأي في صلابه، أما التلاميذ فلا تزال أجنحتهم في حاجة إلى ريش قويّ.

تعددت ميادين اجتهاد الأستاذ أمين الخولي، فكتب في التفسير والتشريع والأدب والنحو والبلاغة، كتابة من لا يرضى عن كثير مما تعورف واشتهر، وقد جمع خلاصة آثاره النقدية في كتاب سمّاه (مناهج تجديد) وحقاً صدق؛ لأنّه تحدّث عن المنهج في كلّ علم حديثاً كثيراً، شغله عن التطبيق الممتد، لذلك نرى مقدّمات كتبه ذات اقتراحات وانتقادات حافلة، حتى لتشعر القارئ أنّ الأمر قد تأزّم واستعصى على العلاج، فإذا تجاوز القارئ المقدمة إلى ما بعدها، فإنه يجد السبيل مألوفاً، وليس الرجل واحداً فيه! ولعل ذلك قد أتى من توزيع نشاطه على عدّة علوم أو فنون، فكان يغرس في كلّ حقْل بعض البذور، ويتجاوزهُ إلى حقْل فآخر، ولو عكف على أرضٍ واحدة لظهر أثره يانعاً زاهراً، ولا أريد أن أنتقصه، فمكانه في الريادة ملحوظٌ محفوظ، ولهذا عقدت هذا الفصل مشيداً به، ولكنّي أوضح وجهة نظري فحسب، وقد أكون مخطئاً.

قلت: إن ملامح الابتكار قد بدت عليه منذ كان طالباً، وهذا حقّ، لأنّه كتب بحثاً جيداً وهو طالب عن السياحة الإسلامية، نشره بعد تخرّجه، وقد أضاف إليه ما جدّ، ثم كتب بحثاً عن الجندية الإسلامية ونُظُمها كان الأوّل في موضوعه، دقّة وترتيباً واستنتاجاً، وحين عُيّن مدرّساً بمدرسة القضاء وضع رسالة عن آداب البحث والمناظرة، جمع أصولها من السّابِقين، وأضاف إليها ما جعلها مبتكرة طريفة، كما أشرف على تحرير مجلة القضاء، وهي مهمّة صعبة لمثله؛ لأنّه لا يسكت على خطأ أو على اختلاف وجهة نظر، وحين يقدّم مقالاً للقراء فلا بدّ من التعقيب، وقد يلي التعقيب ردّاً، يليه ردّاً!

ومن المواد التي درّسها في مدرسة القضاء بعد عودته من أوروبا (تاريخ العقيدة الإسلامية بحث تاريخي اجتماعي ديني) وقد قال في مقدمته^(١):

«هذا بحثٌ مستحدث، يرادُ به تاريخ العقيدة الإسلامية، ومكانها من الأديان السماوية، وماذا كان حال الناس حين دُعوا إليها، وكيف تدرّج بها التنزيل، وإلى

(١) كتاب: (أمين الخولي) للدكتور كامل سعفان، ص ٦٩.

أين امتد بها التأويل، وما مدى هذا الخلاف، أو بم تأثر، وفيه أثر؟ وما كان من ذلك سياسياً واعتقادياً». وإذا كانت بحوث التاريخ للعقيدة الإسلامية قد كثرت الآن فلاشك أن الأستاذ أمين قد بدأها، وقد جاء بعده صاحب (فجر الإسلام وضحاها) فبلغ بالقول مداه..

ثم اختير لتدريس الفلسفة بكلية أصول الدين عند إنشائها، فكتب للطلاب مذكرة في الفلسفة وتاريخها، كما قدّم للطلاب بحثاً عن تاريخ الملل والنحل، والأستاذ قد اكتفى بتوزيع المذكرتين على الطلاب في ملازم تصل إليهم عقب الطبع، ولم يُعَنّ بجمع المذكرتين في كتابين يُطبعان ويتداولهما القراء، ولعلّه يرى أن الباحثين كانا في حاجة إلى المزيد، وهو تفكير لا يبعد عن نابغة مثله لا يزال يطمح للجدید كلما كتب، مهما أصاب حظّه من التوفيق، وليت الذين يمطروننا بمؤلفاتهم الخاوية يتساءلون: كيف أهمل أمين الخولي طبع مذكراته وتقديمها للناس، وفيها من قوة الرأي، وسديد المنطق، ووفرة الحجاج ما يفسح لها مكانها الطيب في نفوس الدارسين! وكيف دأبوا على جمع المسائل المشتهرة دون بحث، وجعلوا يُصدرونها في كُتُب تتابعُ مباحين مفتخرين؟.

وقد أعلن الأستاذ في مقدمة كتابه عن الفلسفة وتاريخها أن منهجه ليس تاريخياً فحسب، يقومُ به الباحث مقام الواصف لا غير، بل فيه مناقشات ومقارنات يبحث فيها ما يخالف المقررات الإسلامية؛ من تفسير لمظاهر الحياة الاعتقادية الإنسانية، أو حياة ملّة بعينها، ثم قال^(١): «إن كُتُب الغربيين في ذلك إنما كُتبت لبلادهم في ثقافتها وبيئتها وعقيدتها، فلها ترتيبها وتناولها الخاص، ثم هي بعد ذلك لا تبرأ في كبريات الملل - كالمسيحية والإسلام - من هوى، ولا تخلص من تناول أو تحامل تصبغه صبغة العلم، وتفيضُ عليه طابع البحث النزيه، وما هو به».

وقد أحسن المشرفون على طبع دائرة المعارف الإسلامية، إذ انتدبوا للتعقيب على ما يشدّ من آرائها نفرأ من كبار العلماء، في مقدمتهم الأستاذ أمين الخولي، وقد أصاب مقطع الصواب حين ذكر أنه يرى أن أنفس ما يُقتبس من الغرب في الدراسات الإسلامية إنما هو أساليب البحث العلمي، وطرائق النقد الدقيق الحر المنظم، ولكنه

(١) (أمين الخولي) للدكتور كامل سعفان.

يشهد هذه الأساليب تضطرب وتلتوي بين رجالٍ من هؤلاء، لذلك كانت تعقيبات الأستاذ الخولي تصويماً للأخطاء لا يجوز السكوت عنها، وقد تعددت هذه التعقيبات حتى ليجوز أن تملأ كتاباً مستقلاً.

ومما خصّه بالنقد قول (يوسف شاخ): «أن المسلمين لم يشكّوا في ثبوت القرآن وتنزهه عن الخطأ على الرغم من إمكان سعي الشيطان لتخليطه». وتلك العبارة سَهْم قاتلٌ يُرَدُّ إلى صاحبه، لأنّ مسألة الغرائيق التي حاول الاستشهاد بها، قد فرغ من تبديدها الأستاذ الإمام محمد عبده قبل أن يكتب شاخ تعقيبه، وكلامُ الإمام من الاشتهار بحيث لا يُظنّ أن مثله قد غفل عنه، وقد أوسع الأستاذ أمين الخولي هذه المسألة إيضاحاً، لا ليقنع الباحث، فهو من الذين في قلوبهم مرض، لا تبرأ إلاّ بهجو الإسلام، ولكن ليعصم قراء الدائرة من هذا الإفك!.

هذا عن شاخ، أمّا المستشرق الإيطالي (كايتاني) فقد شغل نفسه بالطعن في رواية الحديث النبوي، ودعوى أن المسلمين شغلوا أنفسهم بتصحيح الإسناد، ولم يلتفتوا إلى تصحيح المتن. وهي دعوى جاهلة، لأنّ التشريع الإسلامي قد قام على أصليْن كبيرين هما القرآن ومتن الحديث! فكيف يكون المتن موضع التشريع؛ ثم لا يلتفت إلى مضمونه علماء الإسلام! لقد واجه الأستاذ الخولي هذا الطعن بما يبّد مدلوله، أمّا تعليق الأستاذ على مادة البلاغة؛ فتعليقُ أستاذ البلاغة المكين، ومجدها الأمين، ولن يفوقه في هذا المجال سواه.

وقد تبع الدكتور كامل سعفان تعقيبات الأستاذ الخولي على شطحات الدائرة، فلخصّها في كتابه عنه، لتدلّ على نمط من الجهاد الصادق، لا يقف مدلوله عند الإعجاب بموهبة الأستاذ العلمية، بل تتعداه إلى الإعجاب بحميته الإسلامية، التي التهب عن صدقٍ في اليقين، لا عن حماسة في الخطاب.

وقد أسلفْتُ القول على التفسير البياني كما ارتآه الأستاذ الخولي فيما كتبه في (التفسير القرآني) فنقلت قول الدكتورة الفاضلة بنت الشاطيء عن وجهة الأستاذ في هذا التفسير، وهي تناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كلّ ما في القرآن عنه، وتهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك، والدكتورة الفاضلة في الجزئين الخاصين بتفسيرها البياني لم تسلك هذه الوجهة التي تحدثت عنها تحديداً لمنهج الأستاذ، فكأن

الأستاذ قد اكتفى بالتوجيه وحده، دون أن يضع التفسير المرتقب، على أنه في محاضراته الإذاعية التي جمعت تحت عنوان (من هدى القرآن) قدّم ما يصلح أن يكون نموذجاً يذاع للعامة، لا أن يكون بحثاً يشغل الدارسين، وللتفسير الموضوعي المعاصر رجاله المعدودون، وكلّهم قريب من قريب.

ويطولُ البحث لو شرحنا ما عناه الأستاذ عن التجديد البلاغي في كتابه (فن القول)، و(مناهج تجديد) حيث بيّن في مقدمة (فن القول) أنه يتحدّث عن الموضوع عن خبرة به، ورأي ثابت عنه، وخطة بيّنة لا خفاء بها، وقد شرع يتعرّف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة، والأدبية بخاصّة ويوازن بينهما، وكانت نظراته اليائسة إلى القديم دافعةً له إلى نقده، وإلى العناية بتاريخه، إذ لا يأتي الجديد إلّا بعد التمعن في مراجعة القديم، ثم شرح العوامل التي أدّت إلى تكوين فنّ البلاغة فأشار إلى المدرستين البلاغيّتين؛ المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلاميّة، وقد تداخلت تعاليمهما تداخلاً جعل من الصعب أن يفترقا عند مؤلّف واحد.

هكذا قال، ولكنّي أرى غير ذلك، فالمدرسة الأدبيّة لا تشبّه بغيرها في كتاب مثل (المثل الثائر) لضياء الدين بن الأثير، والمدرسة الكلاميّة - وقد تكون المدرسة الأعجميّة أقرب إلى المراد - لا تشبّه في كتاب مثل متن التلخيص وشروحه المتعدّدة ذات السبع الطويل، على أنّ الأستاذ الخولي قد واجه أدعياء المجدّدين بقوله الحاسم:

«ويقضي اتصال المدرستين والثقافتين بالانتفاع بهذه الصلة وتتبعها في مظانها تدعيماً لأساس تجدّدنا وتجديدنا» لأنّ أدعياء المجدّدين لا يعرفون شيئاً عن تراثنا البلاغيّ، وينقدونه دون دراية، وقد كتب أحدهم كتاباً تحت عنوان (البلاغة العصرية) طُبِعَ أربع مرات، وليس فيه سطرٌ واحد يدل على أنه قرأ ما كتبه القدماء!.

ولعلّ من أظهر ما جاء في كتاب الأستاذ الخولي من نقد للقدماء هو ما قرّره صادقاً؛ من أنّ دائرة البحث البلاغي عند القدماء مقصورةٌ على الجملة، ومحدودةٌ بالألفاظ، على حين تتسع دائرة البحث المحدث باتساع خطوات العمل الفني، لتشمل كل ما يتعلق بالأسلوب بدءاً وخاتمة.

ولي كلمة تقال، هي أننا نسمع كلّ يوم من يعيب البلاغة العربية بالقصور، ولكنّا لم نر باحثاً اختطّ منهجاً حديثاً للبلاغة، يجمع بين الحديث والقديم في وُضْع يرضي

ثقافة العصر، ولعلّ ذلك قد جاء من الفصل بين دروس النقد ودروس البلاغة، إذ تكفّلت دروس النقد بموضوعاتٍ هي من صميم الدرس البلاغي، فموسيقى الكلام نظماً ونثراً، والتجربة الشعرية، والوحدة العضوية، والتناسق بين الأداة والفكر، وما تمتلئ به كتب النقد من المناحي الأسلوبية. . كلّ ذلك كان من الأُلزم ألا يفصل عن دروس البلاغة، لأنّ النقد في جوهره الحقيقي هو التطبيق الدقيق للقاعدة البلاغية، ولنْ يوجد ناقد يسير على نهج صحيح إذا أغفل علوم البلاغة، واكتفى بما جدّ من المسائل التي أشرتُ إليها من قبل، وهذا ما عناه الأستاذ الخولي حين طالب بامتزاج المدرستين على نحو بصير.

ونلمّ ببعض دراساته الأدبية، فنقول: إن الأدب أصيلٌ في نفس أمين الخولي، فقد قرأ التراث طالباً، وألّم بالأدب المعاصر مدرّساً وأستاذاً، وعرف له وجهةٌ خاصة في فهمه، وقد درّس الأدب لطلابه بالجامعة بعد انتقال طه حسين منها، فكان عجباً أن يدرّس الأدب معه فضيلة الأستاذ أحمد الإسكندري، وهو سلفيّ الاتجاه يُلقي دروسه عربيّة خالصة يتحمّس لمقرراتها، ولا يكاد يشكّ في مقرّرات مدونة. وكانت كثرةُ محفوظه تساعده على إمتاع الطلاب.

أما زميله الشيخ أمين الخولي، فقد ربط دراسة الأدب بعلميّ الاجتماع والنفس، فتحدّث عن أثر البيئة في الأدب والأديب، وبيّن ملامحها في النتاج الأدبي، كما جعل شعر الشاعر، ونثر النثر صورةً لنفسه، فصارت دروسه مزيجاً من دروس الأدب والاجتماع وعلم النفس، على حين كانت دروس الشيخ الإسكندري مزيجاً من الأدب والبلاغة والتاريخ، وقد جعل من درس الأدب درساً للبلاغة حين تحدث عن الأسلوب وأقسامه، وعن عناصر الأدب؛ وهي الفكرة والتعبير، والتصوير المستمد من الخيال.

ثم أفرد كتاباً عن أبي العلاء سلك في تأليفه مسلك الحائر في قضايا أبي العلاء حين يراه يميلُ إلى الشيء ونقيضه، في الزهد والمرأة والحيوان والأسرة، وهذا التناقض في رأيي شيء طبيعي لشاعرٍ عاش أكثر من ثمانين عاماً، وصدق عليه قول المتنبي:

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبتُ على عينه حتى يرى صدقها كذباً

ثم خلص من هذا^(١) كله إلى أن التناقض لا يدلّ على فلسفة، وليس مذهباً يرتكن إليه فيلسوف، وقال في ذلك: «ليكن أبو العلاء شيئاً من ذلك أو ما يشبهه، أمّا أن يكون فيلسوفاً يتخذ البحث والتفكير العقلي عملاً له، ويعتمد في ذلك على مقدرة منطقية عقلية، فما أظنّ، فليس على المنطق العقلي تُعرض أقواله، ويحكم بتناقضها ويلتمس لها التعليل، إنما أبو العلاء رجلٌ وجداني أديب، أو متفنن واعظ، أو خطيب».

وأنا لا أدعي أن أبا العلاء كان فيلسوفاً، ولكني لا أوافق على أن يكون تناقضه في بعض الآراء مبعداً له عن الفلسفة، لأن الفيلسوف لا يثبت على يقين تامّ في كل أموره، فعنده مطارح كثيرة للشك، ومطارح أخرى لليقين، و آراء أبي العلاء في المرأة وفي الدنيا غير متناقضة، فقد ثبت على مجافاة الدنيا بزخرفها الجاذب، وعلى تجنّب المرأة ومجافاتها، ولم يثبت على أمور أرشدته التجربة إلى غيرها، وذلك لا يخل بمكانة الفيلسوف، على أن الحِكم العميقة التي ساقها عن الموت والبعث وأخلاق الناس جديرة أن ترفعه إلى مستوى لم يصل إليه أحد من شعراء جيله حتى العصر الحديث، مع الفتوحات العلمية والنفسية التي ازدهرت في القرن العشرين، ويكفي أن شعر أبي العلاء لا نظير له في ديوان العرب جميعه؛ شعره الفكري المحلق، لا ما تكلفه من الوصف الحسي والمديح والغزل المصنوع.

وفي مجال الترجمة الذاتية كتب عن الإمام مالك بن أنس كتابين، كتاب تحت عنوان (ترجمة محرّرة)، وكتاب تحت عنوان (تجارب حياة)، ولم أشعر بالرّضا التام عن منهج الأستاذ في الكتابة، إذ أطال في مقدمات يجبرها على أن تقول: إن أحداً لم يكتب للآن ترجمةً صحيحة لعلم من الأعلام، وأنّه يضع المنهج الذي يُقتفى في كتاب التراجم، وحاول الاستعلاء على كثير من الفضلاء؛ من أمثال محمد أبي زهرة، وهو زميله، وأحمد أمين، وهو أستاذه، والعقاد وهو عملاق الفكر المعاصر، وبغير المبالاة بأستاذية إن اعترف بها تلاميذه، فليست كذلك عند زملائه وأساتذته يكون الحديث عن المنهج الأدبي، على أن المؤلف يأتي لحادثة ما من حوادث مالك، فيجبرها على تفسير واحد يبني عليه أموراً كثيرة، وقد يكون لها

(١) (رأي في أبي العلاء) ص ١٢٤.

تفسير آخر يعصف بما بناه وألحف في تقديره .

وينقد الأستاذ بعض المعجبين بالإمام، ويعدّهم من أصحاب المناقب، وليس كل معجب بالإمام من هؤلاء، فقد حاز رضا الشافعي وحسبك به، وليس معنى البحث النفسي أن نبحت عن فُلقة في لفظ عابرٍ لنجعلها مفتاحاً لكلام لا نهاية له، فتلك احتمالات، ولكنها ليست باليقين . . أقول: إنني مع إعجابي بسعة أفق الأستاذ ورعاية تفكيره كنتُ أرجو أن يميل إلى التواضع، وأن يحسن تقدير من بذلوا الجهد كما بذل، وهو بعدُ واحدٌ منهم، لن يزيد، وقد حكم على أن أساس ترجمته لمالك هو الجمع المستقصي لمواد الموضوع، ثم النقد الفاحص لها، يعقبه التفسير المعين لمرامي هذه المرويات، الكاشف عن دلالتها، مع عرضها في صورة مجلوة وضيفة، فهل بلغ الأستاذ ذلك في كل ما تعرّض له؟ .

على أن أحسن أثر في رأيي الخاص، أبدع فيه الأستاذ أمين الخولي كل الإبداع هو ما كتبه عن تأثير الإسلام في إصلاح المسيحية، وهو عمل رائع مخلص لم يسبق إليه سابقٌ من قبله، وقد دُعِمَ بالحجج الرائعة، لذلك سأخصّه بحديث منفرد عقب هذه العجالة، وكم تمنيت أن يطبع هذا النوع الرائع من البحث، ليكون نموذجاً للاحتذاء .

وقد أصدر مجلة (الأدب) - شهرية - سبع سنوات، وكنتُ أحد شعرائها الذين شملهم الأستاذ بعطفه وتوجيهه، وكان يرسل إليّ ملاحظاته الناقدة الموجّهة، فأعجب لا تساع وقته المبارك؛ كيف يسمح له بتوجيه كل من يكتب في مجلّته، وهي محمّدة نادرة تقع موقع الاستثناء بين أصحاب الصحف والمجلات .
فإلى حديثه الشائق عن تأثير الإسلام في الإصلاح المسيحي! .

نظرة في (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية)

هذا البحث الفذ الذي كتبه الأستاذ أمين الخولي يحتاج إلى فصل خاص به، كما سبق أن أوضحت ذلك، وهو بحث أصيل على رقة حجمه، وهو يعطي مثلاً للذين يكتبون مئات الصحفات، وحقها ألا تتجاوز المئة لأنه مبرأ من الحشو والفصول، وكأن الكاتب الكبير قد افترض أن أعضاء المؤتمر سيناقشونه فيما يقوله حرفاً حرفاً لخطر موضوعه، فصاغه صياغة قانونية ملزمة، وقد كان له صداه المدوّي في الدوائر

الدينية شرقاً وغرباً، وقد نشره الأزهر الشريف لعهد الإمام المراغي في جزء خاص، وهو بعدُ لم يُلَقَ في مؤتمر إسلاميٍّ بإحدى الجمعيات الدينية بالقاهرة أو دمشق أو بغداد أو الرياض أو الرباط، بل جَهر الأستاذ ببحثه الجريء في مؤتمر الأديان العالمي السادس حين انعقد بمدينة بروكسل سنة ١٩٣٥م، وجمهرة المتكلمين به والمستمعين من أئمة البحث الديني المقارن، وأكثرهم من أعلام المسيحية وباحثيها الذين كتبوا البحوث الضافية عن تطورها وازدهارها، وكلهم حريص كل الحرص على أن يكون إصلاحها داخلياً من ذاتها، دون أن يلتبس للإسلام أدنى فضل في ذلك الإصلاح.

وإذن؛ فالأستاذ الخولي يجابه الآساد في عرينها بأقوى سلاح أعدّه في معركة الحجاج، ولم يكن من السداجة بحيث يعتمد على الأدلة السطحية بين قوم أوتوا الجدل، ودرسوا التاريخ المقارن للأديان، وترصدوا لكل نبأ يهجن بها معارض حصيف، فجاء البحث نادراً في بابهِ، وإذا كان الأزهر قد طبعه منذ نصف قرن طبعة متواضعة، وأذاعه في حيز محدود، فمن حق الباحثين عن الحقيقة أن يكتبوا عنه في كتبهم الموضوعية، ومن واجب الناشرين أن يرحبوا بإذاعته على أوسع نطاق، وقد حدد الأستاذ الكبير نقاط بحثه في مقدمته الموجزة حيث قال^(١):

«ومنهجي في ذلك الدرس، مرتّب على أن أبحث عن الاتصال المادي بين المسيحية والإسلام في أوروبا، وعن الاتصال المعنوي بين المسيحية والإسلام في أوروبا، وعن آثار ذلك الاتصال في أفكار الإصلاح المسيحي وآراء دعاة، خلال تلك الأزمنة الطويلة».

وقد تكون الخطوتان الأوليان من خطى البحث مما دُون وعُلم، ولكنهما عند الأستاذ الخولي بمثابة القضية الصغرى والقضية الكبرى، اللتين تُسلّمان إلى نتيجة ملزمة في الشكل المنطقي الصريح، لأن أكثر الذين تحدثوا عن صلات الشرق بالغرب فيما قبل عصر النهضة تحدثوا عنها كتاريخ تُسرد أخباره دُون أن تُلتمس آثاره الرائعة على وجهها الدقيق، فقد تضمّن هذا التاريخ من الدلائل البعيدة في تاريخ الفكر الإنساني ما يجب أن يكون موضع دراسةٍ مستأنية بصيرة، بدأ الباحث الكبير

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص ١٦.

بريادةٍ مخلصه في مضمارها، فاهتدى إلى نتيجة صحيحة لا يُماري فيها غير من ينكر حقائق التاريخ.

ففي توضيح الاتصال المادّي بين الدّينين، ذكر الأستاذ مواجهة الإسلام لأوروبا المسيحية منذ توطنه في أسبانيا وجنوبي فرنسا وإيطاليا، وجزر البحر الأبيض المتوسط، ومنذ فتح المسلمون نابلي وجنوه وتغلّبوا على روميّة في القرن التاسع، حتى استنقذها البابا يوحنا واستنجد بملكيّ فرنسا وإيطاليا، وقد سجّل ذلك المستشرق رينومي في كتابه (غارات العرب على فرنسا) وترجم الأمير شكيب أرسلان فُصولاً منه تحت عنوان (تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط)، ثم ما تبع ذلك من حركاتٍ فدائية قوية على حُدود فرنسا وإيطاليا، حيث احتلّت مضائق الألب، وأصبح الطريق بين الدولتين في قبضتها، وقامت معاهدةٌ بين الفدائيين وخصومهم تُحدّد قواعد المرور، وتُثبت السيطرة الإسلامية في قلب أوروبا، دُون أن تقف حدودها عند تخوم الأندلس.

هذا عن المواجهة الإسلامية لأوروبا، أما المواجهة المسيحية للشرق الإسلامي فقد تمّت حين زحف الصليبيون على الشرق الإسلامي، فأقاموا أربع إماراتٍ مسيحيّة في بلاد الإسلام، واتصلوا بالمسلمين اتّصالاً نتج عنه لقاحٌ فكري غير منكور، وفي كلتا المواجهتين في الشرق والغرب بُودلت الأُسرى بين الجانبين، وظهر تأثير المسلمين في النّظم الحرّيّة والسياسيّة واضحاً، بحيث كان (رجار) ملك صقلية قريب الصلة بمستشارين إسلاميين، و(فردريك الثاني) يعيش عيشة شرقية تكادُ تكون عربية.

أمّا تبادل السفراء فأوضحُ من أن يخفى، بحيثُ كان ملوك الإسلام يختارونهم من ذوي الدّراية البصيرة بالفقه الإسلامي، ليصدروا عنه فيما يقولون، ويكفي أن يكون فقيه الشافعية المعظم محمد بن إسماعيل البقال، وشيخ الأشعرية أبو بكر الباقلاني من بين هؤلاء السّفراء الذين تصدّروا للجدل في البلاط المسيحيّ، إذ قامت خصومةٌ جدليّة بين الباقلاني وكبير المطارنة في أمورٍ دينيّة تتعلّق بالمسيح ومريم وعائشة، مما يثبت انتشار الأفكار الإسلامية بين المطارنة والرهبان انتشاراً أفضى إلى الجدل العلمي بين كبيرين من فقهاء الملتين، وكلّ هذا قد وفاه الأستاذ الخولي حقه تمام التّوفية المبتغاة!

أما الاتصال المعنوي بين المسيحية والإسلام، فمجالُ الحديث عنه أولى وأهم، إذ يترتب عليه مباشرةً إيضاحُ الإصلاح الإسلامي للمسيحية، لذلك خصَّه الباحث بصفحاتٍ دسمة مليئة بكلِّ ما هو مقنع صريح، وقد بدأ حديثه بإيضاح الأُمِّية الجاهلية التي اكتنفت شرق أوروبا ونبلاءها ورؤساءها وقوادها وقُضاتها، في القرن التاسع الميلادي، على حين كانت الحضارة الإسلامية ذات أضواءٍ باهرة تأخذ بالألباب، وحسبك أن تعلم أن النبلاء كانوا يوقعون القوانين الهامة بصورة صليب † لعجزهم الشائن عن كتابة أسمائهم، أو رسمها على الأقل، دون إمام بمدلول الرموز الهجائية، وكان أعظم قضية الدولة أمياً يحكم بما يراه دون تسجيل، وقد استمرت هذه الجهالة حقبةً طويلة، إذ حدثنا التاريخ أن رئيس الجيوش الفرنسية في القرن الرابع عشر لا يعرف التوقيع!.

وقد تنزّل الأستاذ الخولي تنزلاً متغاضياً، كي يقنع خصومه حين قال: «وإذا كان يُستكثر القول بأستاذية العرب التامة للغرب في كل شيء، وأن كلَّ العلماء المعروفين من جميع الأمم إلى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر إنما كان كلَّ عملهم هو تقليد العرب، فلا مفرّ من القول بأنّ الثقافة الإسلامية قامت بدور المرشد الأمين»^(١).

ولا مجال لتلخيص ما ذكره الأستاذ في رسالته العميقة من الشواهد المحكمة على أستاذية الإسلام، ولكن أشير إلى رؤوس مسائلهما في نقاط كاشفة ليطرّد الحديث.

وأول هذه النقاط ذات التأثير القوي، ذيوعُ اللغة العربية في أوروبا، إذ كان المتعلّمون من الأوروبيين في البلاد الإسلامية يحرصون على إتقان العربية، ولا نعني رجالَ السياسة والعلم وحدهم، بل نعني معهم رجال اللاهوت من أمثال القسيس هرتموت رئيس دير القديس جالو بفرنسا، والبابا سلفستر الثاني، وفيلسوف النصرانية ألبرت الكبير، وغيرهم، أما ريموندلول مؤسس كلية الرهبان في ميرامار، لدراسة اللغة العربية، فقد حذق العربية ليجعل منها أداة الطعن الممّوه على الإسلام، والتبشير بالمسيحية، وهو بذلك أولُ من أشار بإيجاد كراسيّ للغات الشرقية في جامعات أوروبا، ولا شك أن دراسة اللغة العربية لمبشّري المسيحية بالذات، هي دراسة لتعاليم الإسلام دون خفاء، كي يواجهوه بما يخلقون عليه.

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص ٣٤.

وإذا كانت الفكرة تُدرس لمعارضتها فلن يمنع ذلك التأثير اللاشعوري بحقائقها حين تتشرب إلى النفس تشرباً يدفع إلى مناقضتها نقضاً يتحمّله العقل الواعي، دون أن يتعدّى ذلك إلى أعماق الأعماق في العقل الباطن، هذه الأعماق التي اقتنعت ببساطة الإسلام، فهبّت تُطالب بإصلاح المسيحية على ضوئه، دون أن تهتدي إلى باعثها الأصيل.

وقد جاء دور الحديث عن الاتصال الفلسفي بين الغرب والأمم المسيحية، بعد الحديث عن انتشار اللغة العربية، فأثبت الأستاذ أمين الخولي نقلاً عن المراجع الصحيحة التي كتبها مؤرخو أوروبا أنفسهم، ممن لا يُتصوّر منهم أدنى تحيّر لغرض للإسلام، أثبت تأثر يُوحنا في سكوت، واسكندلر الهاليسي، وألبرت الكبير، والقديس توما الأكويني بفلاسفة الإسلام، من أمثال الغزالي وابن رشد وابن سينا!! وواضح أن من يقرأ مثل الغزالي ويتأثر به إنما يتأثر بالإسلام الواضح عن عالمه الكبير.

وأرى أن أقوى ما أثبته الكاتب في هذا المجال هو حديثه المُقنع عن ترجمة القرآن^(١) إلى اللغات الأوروبية، ابتداءً من القرن الثاني عشر ترجماتٍ متعدّدة، دعا إليها أمثال بطرس الفيزانيلي رئيس دير كولونيا بفرنسا سنة ١١٢٢م، وقام بها روبرت الرايتيني، وهريمان الدالمان وغيرهما، وقد قال الأستاذ الخولي ما نصه^(٢) مستنداً إلى ما كتبه هنري دي كاسترو في كتابه (خواطر وسوانح)^(٣):

«بل نجد أن القرآن نفسه لم يكن يُعرف في أوروبا بتراجمه غير العربية فقط، وإنّما كان يقرؤه قسيسون بالعربية في أوروبا خلال القرن الثالث عشر، على نحو ما ورد في إحدى رسائل القسيس ريكولدوا الإيطالي (المتوفى سنة ١٣٢٠م)».

أقول: إنّما كان ما أثبته الباحث الكبير عن ترجمة القرآن - في رأيي - من أقوى ما يعضد رأيه في إصلاح الإسلام للمسيحية، لأنّ أكثر القائمين بالترجمة رجال اللاهوت، والقرآن صريح صريح في نقض كل ما حاربه مارتن لوتر من سلطة

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص ٤٥.

(٢) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ص ٤٦.

(٣) خواطر وسوانح، ص ١٥٦.

الكنيسة وصكوك الغفران وما إليهما، فإذا أضيف إلى ذلك ما أثبتته الكاتب من ذبوع الترجمات القرآنية والفلسفة الإسلامية في ألمانيا؛ موطن لوثر ومناخ دعوته، فإن أثر القرآن إن لم يصل إليه عن طريق ترجمته المباشرة فقد وصل إليه لا محالة عن أساتذة اللاهوت الذين قاموا بترجمته، ومهما كان الباعث الأول على هذه الترجمة هو التحدي، فإن حقائقه الأولى لا تتلثم بحجاب.

وهنا وقد فرغ الأستاذ الخولي من بيان الاتصال المادي والمعنوي، نجدّه يعقد الفصل الثالث عن نتائج هذا الاتصال، فيتحدث عن آثاره العامة من الغض من سلطة الكنيسة، والحد من سيطرتها على الحياة، ثم عن تحرير العقل ومدى تأثيره بالفلسفة الإسلامية، مبيّناً ما كان من الصراع الحاد بين الكنيسة والحرية العقلية، ثم ينتقل إلى الآثار الخاصة بمبادئ الإصلاح البروتستانتي نفسها، فيذكر أهم أصول الإصلاح ملخصة فيما يلي:

- ١ - رفض السلطة الكنسية، سواء كانت ممثلة في البابا أم في المجمع.
 - ٢ - يكفي للنجاة تصحيح العقيدة، فالنجاة منحة من الله رأساً، لا بواسطة إنسان، إذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس.
 - ٣ - للكتاب المقدس وحده السلطة، دون نظر إلى ما يتعارض معه من آراء المجامع والآباء والتقاليد.
 - ٤ - لكل مسيحي الحق في تفسير الكتاب المقدس دون الرجوع إلى الآباء الكنسيين.
 - ٥ - إنكار الاستحالة الحقيقية التي تعني تحويل الغذاء والخمر إلى جسم المسيح.
 - ٦ - إنكار عبادة الصّور، ورفعها من المعابد!
- وقد شفعَ الباحث كل عنصر من هذه العناصر الستة ببيان رأي الإسلام فيه، بعد أن أسلفَ خلوصَ هذه الآراء الإسلامية إلى بيئة لوثر، بما لا ينكره باحثٌ ينشد الحقيقة دون أي اعتبار سالف.
- ولم يفت الأستاذ أن يُسجل في بحثه قبل أن ينتهي إلى نتيجته الحاسمة ملخصاً دقيقاً للمشروع الإصلاحى، الذي قدمه مارتن لوثر للرأي العام المسيحي، وهو في لبابه صدى لما ذاع من الأفكار الإسلامية، إمّا بترجمة القرآن إلى لغات أوروبا، وإمّا بمعرفة الدارسين من المسيحيين للغة العربية التي قرؤوا بها القرآن قراءة مباشرة، ومن نقاط هذا المشروع الهامة:

١ - إنّ البابا لا يستطيع أن يرفع عن الإنسان قصاص الخطيئة، وإنما يعلن أن الله هو الذي يغفر الخطايا لمن تاب.

٢ - كلّ رسل البابا وأتباعه الذين يتبعون صكوك الغفران يخطئون في قولهم: إنّ العفو البابويّ يمكن أن يحرر الإنسان من الخطيئة، ويؤكد خلاصه.

٣ - القول بأنه في اللّحظة التي ترنّ فيها الدراهم في صندوق المجمع تخرجُ النفس من المطهر قولٌ ليس فيه ذرة من الحق.

٤ - أولئك الذين يعتقدون بخلاصهم من العذاب في الجحيم، لحصولهم على الوعود البابويّة، سيقضون أبديةً تعسةً في جهنم برفقة هؤلاء الذين علّموهم ذلك.

٥ - كلّ مسيحيّ يترك خطاياها، ويتوب عنها توبةً قلبيةً خالصة، تغفر له خطاياها، ويكتب اسمه في سفر الحياة، دون حاجة إلى خطابات توصية من البابا.

٦ - يجب أن يمتنع البابوات من الانغماس في المتع واللذات، وأن يقلّلوا من مظاهر الأبهة والعظمة، إذ من التناقض العجيب أن يدّعي البابا أنّه راعي كنيسة المسيح، وخليفةُ القديس بطرس، بينما يحيا حياة العزّة والأبهة، غير متمثل بالمسيح الذي وُلد فقيراً، وعاش فقيراً.

٧ - تحريم قانون الكنيسة الرومانية الزواج على الكهنة خطأ، لأنّه جعل الكثير من الكهنة يندفعون اندفاعاً مخيفاً إلى العشق والفجور.

٨ - إن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمسيحية، ومن حق كل مسيحي قادر أن يقرأه ويفسّره كما يشاء، ويجب ترجمته إلى اللغات المختلفة، حتى يقرأه الناس على اختلاف لغاتهم.

٩ - لا علاقة للعشاء الرباني بجسم المسيح ودمه، وليس القيام به غير إحياءٍ لذكراه فحسب.

١٠ - عدم اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس، وعدم السجود لها، فذلك أقرب ما يكون إلى الوثنية.

هذه هي أهمّ نواحي الإصلاح المسيحي التي نادى بها مارتن لوتر، وإذا كان القرآن قد عُرف في أوروبا من قبله، وإذا كانت ترجماته قد انتشرت في ألمانيا كغيرها من البلدان، فإن تأثير القرآن في هذه الإصلاحات أظهر من أن يُدَلّ عليه بدليل.

وقد صدر كتاب (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) مُصدّراً بمقدمة رصينة للأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، فقال بعد أن عرض نقاط الكتاب: «إنّ من الممكن جداً أن يكون الإسلام قد أحدث هذا التأثير، كما بيّنه الأستاذ الخولي في كتابه، مع احتمال آخر هو أن يكون الرجوع إلى المسيحية الأولى قد أحدث هذا التأثير، ولكنّ ما الذي لفت النظر إلى الرجوع للمسيحية الأولى، بعد أن شوّعت معالمها، إنه ما قدّم الإسلام من علم ومعرفة، حملت المصلحين إلى الرجوع للأصول الأولى».

فالإسلام سببٌ مباشر في رأي الأستاذ الخولي، وقد يكون سبباً مباشراً لدى الأستاذ الأكبر، مع احتمال أن يكون سبباً غير مباشر، ومؤرخ الأديان من حقّه أن يلحظ الصلة، وأن تقوى عنده سببية ما قدّم الإسلام، ومن يُدرك سياسة الإمام المراغي وتؤدته البعيدة النظر، يعلم أنه يريد أن يقطع القول على كل معارض يُحاول أن ينحّي أثر الإسلام في هذا الإصلاح، فيقول له: قد أكون معك في أنّ المسيحية الأولى ذات الأثر في الإصلاح اللّوثيري، ولكنّ ما الذي دعا الحائرين الشاكّين إلى الرجوع للمسيحية الأولى؟ إنّه ما قرؤوه يقيناً عن الإسلام، وتعاليمه الخاصة بسلطة الله وحده، دون بشر من النّاس!! وهنا يكون الإسلام مصدر التوجيه والإصلاح.



جمال الدين القاسمي

عالم الشام وبخّاتها المستنير

لأول مرة سمعتُ باسم العالم الكبير محمد جمال الدين القاسمي، كان ذلك في الثلاثينات، بين مُدرّسين فاضلين من علماء معهد دميّاط الديني، إذ كان أحدهما ينتقدُ كتب (مصطلح الحديث) ويرأها ذات تعقيد لا تصل به إلى القارئ دون جهد، فقال صاحبه: إنّ لشيخ علماء الشام (محمد جمال الدين القاسمي) كتاباً في هذا المصطلح، جمع فأوعى - وعبارة جمع فأوعى تتردّد كثيراً على ألسنة أهل العلم - فردّ عليه زميله بقوله: لا يهتمني أن يكون الكتاب قد جمع فأوعى، بل يهتمني أن يكون ما جمعه واضحاً مفهوماً يقرؤه المطالع في شوق، ولم أكن في هذه السنّ الصغيرة في حاجة إلى قراءة كتاب في مصطلح الحديث، فلم أشأ أن أبحث عن كتاب القاسمي.

ثم تصفحتُ بعض أعداد مجلة الرسالة، فرأيتُ تعريفاً حافلاً بالمؤلف بصدد الحديث عن كتابه، سطره أمير البيان شكيب أرسلان، وتلاه في العدد الثاني هجومٌ ناقدٌ كتبه الأستاذ محمد كردعلي، ولكلا الكاتبين مقام كبير لدى القراء، وقد جاء في مقال الأستاذ كردعلي ما نصّه^(١)، مخاطباً أمير البيان:

«اليوم تكتبُ ما تكتب عن (قواعد التحديث) - اسم كتاب القاسمي - في فنّ لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير، وجئتُ تُغالي بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين، ولا يستحقُّ هذه العناية والدعاية، وهذه الضجّة، ولكلّ رأيه واجتهاده، أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق، لأنك في غنية عنها، لست محتاجاً إلى مصانعة الناس، ولا نضبت أملك الموضوعات، تحتاجُ

(١) مجلة الرسالة، العدد ١١١، ١٩/٨/١٩٣٥.

لمعالجتها لثورتك شهرة وحسن ذكر، وما إخالك إلا كتبت ما كتبت حين طُلب منك في غير أوقات نشاطك، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك، ومهما كانت منزلة الكتاب وكتبه من نفسك، وما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى إحسانه، وحملة الأقالام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطالعين على مقارضة الثناء، ولم يتعاوذكهم بالنقد الصحيح، والإفراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب، والنقد المفيد عادة نقاد الإفرنج في زماننا، ومن الأمانة للعلم والأدب أن يدل كل كاتب على مواضع الخطأ في كلامه، لا أن نغشه ونغش قراءه فنجسم ما صغر حجمه في العيان، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان».

قرأتُ هذا الكلام، فرأيت هجوماً حاداً على المؤلف والناقد معاً، وأنا أعلم أن الأستاذ محمد كردعلي كثيراً ما يتورط في مهاجمة من لا يستحق الهجوم، وقد أورثه ذلك مضايقات عانى منها الكثير، وقد تصفحت ما تلا هذا النقد من أعداد مجلة الرسالة، لأرى هل عقّب أمير البيان على نقد صديقه، فحمدتُ الله إذ جاء الرد كما أتوقع، إذ كتب شكيب أرسلان رداً موجزاً تحت عنوان (جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه) بدأه بقوله^(١):

«إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله، لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح، وخاض في الحديث خووض من يعلمه، بل بقيتُ واقفاً على الشاطيء، على أنّ أخي محمداً الكردعلي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه، وهو مع ذلك يقول: إنني وإياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر، فإذا كان الأمر كذلك، فما كان أحرأه أن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف، وقد أطنب في وصفه مثل الأستاذ الأكبر محمد رشيد رضا رحمه الله، الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال: (القول ما قالت حذام) وأنا أكثر كلامي في محاسن الأستاذ الكبير الشيخ جمال الدين القاسمي تغمده الله برحمته، فإن كنتُ لسْتُ من علماء الحديث فإني لسْتُ جاهلاً معرفة الرجال، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم، ولولا حسن فراستي ما كان الأستاذ كردعلي عظيماً في عيني، وقد اخترته لإخائي منذ اثنتين وأربعين سنة».

(١) مجلة الرسالة، العدد، ١١٦، ٢٣/٩/١٩٣٥م.

شغفت بعد قراءة رد الأمير إلى أن أعرف الكثير عن مؤلف كتاب (قواعد التحديث) تعبت في مراجعة الدوريات المصرية، لأهتدي إلى مقال كاشف عن حياته، ثم انتهت إلى أن مجلة المنار لابد أن تكون قد ترجمت له حين انتقل إلى جوار ربّه، كعادتها في الحديث عن (وفيات الأعيان) لا سيّما أن القاسمي كان ذا صداقة حميمة للمنار وصاحبها الكبير، وقد وفّقني الله فرأيت تحقيق ما ظننت، إذ كتب صاحب المنار ترجمة حافلة للرجل الكبير، هي المرجع الأول لي، لأنّ الكاتب العلامة قد امتدّ بحديثه إلى حيث لم يترك مجالاً لقائل، وتلك عادته مع أصدقائه الباحثين، فالزعيم الراحل عبد الحميد الزهراوي لم يجد من كتب عنه بإفاضة وإشباع كما كتب صاحب المنار، وعلى ما كتب السيد محمد رشيد رضا سأعتمد كلّ الاعتماد في الحديث عن هذين الفاضلين، رحمهما الله !.

نشأ الأستاذ القاسمي في بيت علم وفضل وحسب، وكان والده من رجال العلم الديني، فتربّى على يده في نشأته الأولى، ثم اتّصل بالأستاذ عبد الرازق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم البخاري، وكلّهم من العلماء المتحرّرين، الذين لا يتقيّدون بمذهب واحد في الفقه، بل يروّون كتب المذاهب المعتمدة، ويختارون من الأحكام ما يروّون معه الدليل الواضح، لذلك كوّنوا جبهة علمية أمام من يتقيّدون بمذهب واحد، بل بكتاب واحد.

من نكد الحظ أن الآخرين كانوا مسموعي الكلمة لدى العامة، ولدى الحُكّام من ولاية الأتراك، فاستطاعوا أن يُغيّروا ضجيجاً حول من يذهبون بنظرهم إلى الأفق الفسيح بعيداً عن التعصب المذهبي، وكان سلاح هؤلاء القاصرين يعتمد على إثارة العامة بكلمات الإلحاد والزندقة، وهو سلاح له تأثيره في حلقات المساجد ذات الأذكار والأوراد، وروّادها من جهلة الصنّاع والعمّال، ولكن إشاعة السوء في هذه الحلقات عن كبار العلماء قد أصابَتْهم بمضايقات كثيرة، فصبّروا عليها وصابروا، وكان الجمال القاسمي في طليعة من أُوذي في هذا السبيل.

وحين ذكر الأستاذ رشيد رضا أساتذة القاسمي، أشار إلى أن الاستعداد الفطري هو العامل الأول في نبوغ النابغ، لأنّ هؤلاء الأساتذة قد رزقوا طلاباً كثيرين غير القاسمي، فلم يستطيعوا جذبهم إلى الصراط القويم في البحث والتأليف، إذ قعدت بهم مواهبهم عن اللحاق بالركب المتوثّب؛ يقول السيد محمد رشيد:

«وإنما كان جمال الدين ذلك الرجل بجوهر نفسه، وقوة استعداده، وكُم من طالب علم سمع مثل ما سمع، ولقي من الشبان والشيخوخ مثل من لقي، فأنكر كل ما خالف، ولم يهدِه ذلك إلى طلب جديد، ولا إلى مراجعة النظر، واستشارة الدليل، فالحق أن الأفراد الذين امتازوا في هذا العصر من أمتنا بالعلم الصحيح، والتصدي للإصلاح إنما امتازوا أولاً بقوة الاستعداد، والميل الفطري إلى الاستقلال، ثم سلوك النظر والاستدلال، فمن كان هكذا نفعه لقاء أهل الاختصاص، فيكون في ذلك كالتحلة في الروض، تجني من ناضر الأزهار ويانع الثمار، أطيب ما فيها».

وما يقوله السيد رشيد رضا مسلّم لا شبهة فيه، فقد يكون في قاعة التدريس مئة طالب، يسمعون الشروح من أفاضل المدرّسين جميعاً، ثم لا ينبغ من المئة غير اثنين أو ثلاثة، أما الباقون فيحفظون، ويمتحنون فيسجلون ما حفظوه فقط! بل قد يوجد من النوابغ من لا يحضر إلى قاعة درس، ثم يُطالع بنفسه فيسبق ويعلو، وتطير بحوثه كلّ مطير..

أما البيئة التي نشأ فيها القاسمي فكانت تقف حجر عثرة ضدّ من يريدون التفقه في الدين، حيث قال السيد رشيد رضا ما فحواه: «إن الفقيه نشأ وفي دمشق الشام أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمام العلماء وألقابهم، والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئاً، فقد فاتهم العلم، ولم يفتهم صرف الأوقات كلّها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده، تبعاً للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده، فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالماً يتصدى للتدريس والتصنيف، ويبيّن حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد، فإذا تصدّى للعلم أحد، أخذوا يكيدون له المكائد، وينصبون حوله الحبال، ويبغونه الفتنة، ويجعلونه في موقف الظنة، فيسعون به إلى الحكام، وهم أنصار كلّ منافق، ويهيجون عليه العوام، وهم أتباع كلّ ناعق، فماذا يعمل العالم المصلح بينهم».

هذا شيء هائل في تصوّره، إذ من المدهش أن تتعصّب فئة أيّاً كانت ضد طالب العلم، وكنت أظن الأمر جرى على اتّساع اللفظ، وجريان القلم دون حبس، حين سطر السيد رشيد رضا هذه المعاني، ولكنّي رأيت أديب دمشق الكبير الأستاذ علي

الطنطاوي يؤكد هذا المعنى بعد عشرين عاماً مضت على كتابة السيد رشيد، إذ يقول الأستاذ الطنطاوي بمجلة الرسالة^(١):

«وإنّ من أظهر الأسباب لركود العلم في الشام في القرن الماضي هو فقدان التشجيع، وذلك الاحتكار العلمي الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم. . . فكثير من هؤلاء إذا سمعوا أن شاباً اشتغل بالعلم من غير بيوته المعروفة، وقَدَّروا فيه النبوغ، وخافوا أن يُزاحمهم على وظائفهم الموروثة، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم، والعدول به إلى التجارة، أوليسَتِ الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ أوليسَ لِلوَلَدِ ولايةُ العهد في وظيفة أبيه، فتَنَحَّدَ إليه الإمامةُ أو الخطابةُ أو التدريسُ عالماً كان أو جاهلاً، فكيفَ إذنَ يزاحمهم عليها أبناء التجار، وهم لا يزاحمون أبناءهم على حوانيتهم، ألا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من العلم الذي يَمْنُ به عليهم هؤلاء العلماء!». .

هذا بعض ما جاء في مقالٍ مبسوط كتبه الأستاذ الكبير علي الطنطاوي بإضافة وإشباع، مما يؤكد حديث صاحب المنار كل التأكيد، فإذا استطاع الأستاذ القاسمي أن يُشرق نجماً ساطعاً في سماء العلم، فكم عانى من صعابٍ حتى ارتقى إلى هذا الأوج، وقد استطاع بعض الحَقَّدة من هؤلاء أن يجدوا في مؤلفاته ما يُشير إلى ضرورة الاجتهاد، وفتح باب التجديد في فروع الفقه، فعَدَّوا ذلك سبباً في أئمة المذاهب، ودعوة إلى الإلحاد والزندقة، وكتبوا عريضة اتهام بذلك، ذهبوا بها إلى المحكمة الشرعية، ودار حوارٌ بينهم وبين القاضي، ثم بين القاضي والمتهم البريء، وقد حُبس في دار الشرطة عدة ساعات حتى يفصل القاضي في موضوعه، وكان القاضي على شيءٍ من العلم، فعرف أن جمال الدين يرجع في أحكامه إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويأخذُ منهما من الأحكام ما يتَّضح له صواب الرأي فيه.

وإذا كان أئمة المذاهب قد اختلفوا في بعض الأحكام، دون أن يكون هذا الاختلافُ مظنةً جهلٍ أو تهجُمٍ أو إلحاد، بل ظلَّ لكلِّ إمامٍ رأيه المؤيَّد بما يراه من الحجج، اعتماداً على ما ثبت له صحَّته من حديث رسول الله، فكيف يكونُ جمال الدين القاسمي متهماً في دينه ومعه الدليل من الكتاب والحديث، لقد كانت غاشيةً أليمةً رانت على نفس الرجل أمداً غير طويل، ثم خرج منها ناضج الرأي موفور

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٠٦، ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥.

الكرامة، وكان أستاذه طاهر الجزائري يشهد له بالصواب، وله مكانته عند ذوي الرأي، فهدأَتُ الريح.

على أن بُعد جمال الدين القاسمي عن المناصب الرسمية - غير الخطابة والتدريس بالمسجد - قد أوجد له فراغاً متسعاً لتنوع التأليف العلمي، وكثرة بحوثه، وقد أحصى له صاحب المنار سبعين مؤلفاً في عُمره القصير نسبياً، وهذا العدد غير مستكثر، لأن أكثر هذه البحوث لا تخرجُ عما يُعرف الآن بالمقالات التي تُنشر في المجلات الدينية في هذا العصر، فإذا أُحصيتُ لعالم فاضل مقالاتٌ بلغت الستين فليستُ بالمستغربة، وقد قال صاحب المنار بعد أن سجّل أسماء هذه المؤلفات^(١): «إن بعض ما ذكرنا رسائلٌ صغيرة مؤلفة من كراسة أو كراستين» ولعله كان يُلقي بعضها على طلابه بالمسجد، فسارعوا إلى تدوينها وإذاعتها، والمكثرون من التأليف في العهود السالفة كانت أكثر كتبهم دُروساً في حلقات العلم بالمسجد، والسيوطيُّ شاهد على ذلك.

ومن بحوث القاسمي الموجزة ما كتبه عمّن حلف بالطلاق ثلاثاً، وما كتبه في ترك عمر لكتابة قول رسول الله، وفي تحديد وقت العشاء، وفي دعوى جواز المرور بين يدي المأموم، فهذه البحوث الصغيرة ليست كتباً، ولكنها مقالات يجوز أن تُنشر الواحدة منها في عددٍ من الأعداد بمجلة دينية، أما الكتبُ الممتازة التي صدرت عن أناة، وشملت موضوعاً متسعاً، فتلك التي تُسمّى بالكتب، وبها سارت شهرة الرجل، وأصبح من أقطاب العلم والتوجيه.

وبعد؛ هل كان جمال القاسمي مُصلحاً كما هو عالم بحاث؟ سؤالٌ توجّه به السيد محمد رشيد رضا، ورّد عليه بالإيجاب، والمصلحون ليسوا كلهم من الثائرين، فقد يكونُ المصلح داعيةً إلى النهوض في مؤلفاته؛ مثل السيد محمد رشيد رضا، والسيد جمال الدين القاسمي، ومحمود شكري الألوسي، ومحمد مصطفى المراغي، فكلّ هؤلاء قد حاربوا التقليد ودعوا إلى النهوض، وفيهم من تقدّم ببرنامج تربويّ كان له دوره في تقدّم التعليم الديني.

ولكنّ هناك مصلحين ثائرين، من أمثال محمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين

(١) مجلة المنار، المجلد السابع عشر، الجزء الثامن ص ٦٣٠.

الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، إذ لم يكتفوا بالتأليف، بل دعوا إلى تغيير الأوضاع، واشتركوا في أعمال ساقنهم مساق الاتهام تارة، والنفي تارة أخرى، وهم بذلك من القادة العظام، ولن يضير ذوو التأليف العلمي المحجوزون بين جدران الدرس وصفحات الكتب ألا يكونوا مثل هؤلاء، فلكل طاقته وعزيمته، وقد كان السيد رشيد رضا موفقاً حين تقدم بهذا السؤال السابق، ثم أجاب عليه بقوله^(١) - مُلَخَّصاً -:

«سيقول كثير من الناس إنك عددت القاسمي من رجال الإصلاح، وإن أسماء كثير من الكتب التي صنفها أو شرحها ليست من الإصلاح في ورد ولا صدر، والجواب أن مفهوم الإصلاح واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان، والمصلح لا يُخلق مُصلحاً بالفعل، بل يُخلق كغيره لا يعلم شيئاً، ويكون الاستعداد للإصلاح كامناً فيه، ثم تظهره التربية والتعليم، ولا يُطلب ممن عاش خمسين سنة ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحواً من سبعين، أن يكون جميع ما كتبه وشرحه إصلاحاً في الدنيا والدين».

والحق أن كل مؤلف ديني صحيح النسبة إلى الدين يُعتبر إصلاحاً للنفوس، ولا ينبغي أن يكون مفهوم الإصلاح مقصوراً على الإصلاح السياسي، وهو ما يعنيه السيد رشيد حين نفى أن تكون كل الكتب ذات وجهة إصلاحية، والإصلاح السياسي يرجع إلى استعداد نفسي قبل أن يرجع إلى تَضَلُّع علمي، فقد يكون من العلماء من هو أكثر معرفة من جمال الدين ومحمد عبده، ولكنه مع ذلك لا يتمتع بمواهب الزعامة القائدة، والدفاع المشتجر في حومة الأخذ والرد، ورسم الخطة إلى النهوض قولاً ثم تنفيذها عملاً.

وقد عرفنا من المصلحين من لم يؤلف كتاباً أصلاً، وهو مصلح يرسم الخطط، ويخطب الناس، ويحارب أوجه الفساد، ويجمع حوله من الأتباع من يعبرون عن آرائه في كتب وأسفار، ثم يدور حول هذه الآراء نقاش لا يزال يتجدد، ولا يقتصر النقاش على أقواله، بل يمتد إلى تطبيقاته العملية، هذا مع صدق النية، وشديد الإخلاص.

(١) مجلة المنار، المجلد ٨، ص ٦٣٠.

يقول الأستاذ خير الدين الزركلي في (الأعلام): «إن العلامة القاسمي حين سافر إلى مصر ثم زار المدينة المنورة، أراد أعداؤه بعد رجوعه أن يتهموه بالمروق، وأنه أحدث مذهباً سمّاه المذهب الجمالي، وأقاموا الدعوى لدى حاكم دمشق، فقام بالتحقيق وظهرت براءته، وأنا أعجب كيف يُتهم عالم بأنه أنشأ مذهباً فقهياً، والمذهبُ الفقهي لا تتضح معالمه إلا إذا درسه التلاميذ، ونقلوا رأي صاحب المذهب، وجاهروا به، وناقشوا المخالفين، ولم يكن للرجل تلاميذٌ يتبعونه في آرائه الفقهية، بل لم يؤلف في فقه الفروع كتاباً متصل الحلقات حتى تتضح حقيقة مذهبه، وقد قالوا: إنه كتب مؤلفاً في العبادات ظلّ مخطوطاً ولم يُطبع، فهل يصلح هذا المخطوط ليكون مذهباً له اسمه وتلاميذه، ويضمّ من الآراء الخطيرة ما يصلح أن يكون موضعاً للاتهام؟».

مهما يكن من شيء فقد رأى القاسمي أن يتفرغ لإكمال تفسير كتاب الله الذي بدأه من قبل، وعالم التفسير لا يُقالُ عنه صاحب مذهب فقهي يكون موضع المؤاخذه في عصر الظلمات، ولم يكن التأليف في شرح كتاب الله عملاً سهلاً لطالبه، فمع انتشار ما أخرجته المطابع من التفاسير القديمة، وما أكثرها، كان زمنُ القاسمي حافلاً باشتهار عدّة كتب تفسيرية راجت بين الناس، إذ سبق الإمام الألوسي بتفسير (روح المعاني) وهو تفسير جيد ألهم صاحبه أن يلّم بخلاصة ما قاله السابقون، حتى قيل: إن من قرأ روح المعاني جاز له أن يكتفي به عما قبله، وللرجل ابتكاراته التي لا شك فيها، ولكنه قبل كل شيء مُفسّر مُطلع جماعة.

والتفسيرُ التّالي لتفسير الألوسي هو تفسير المنار، وقد بدأه الإمام محمد عبده على نحو استقلاليّ يتجه أول ما يتجه إلى علاج الأدواء الاجتماعية والسياسية بما سنّه الله من تشريع، إذ يرى الإمام أنّ الرجوع إلى كتاب الله رجوعٌ إلى النبع الصافي الذي تفرّق في ظلمات الجاهلية فأضاءها، وما زال يتألق على توالي العصور حتى تراكمت على تفسيره حواجز من العلوم المختلفة، دلّت على براعة أصحابها في العلم، ولم تدلّ كثيراً على صدق الاستشفاف، وبُعد الاستنباط؛ فكان تفسير الإمام إضاءة جديدة لقرآنٍ تليد، وتابع السيد رشيد رضا تفسير القرآن على نهج أستاذه، وإن زاد عليه كثرة الاحتجاج بالسنة المطهرة، والرجوع كثيراً إلى أقوال السابقين.

أما التفسير الثالث فتفسيرُ (الجواهر) للأستاذ الحكيم طنطاوي جوهرى، وقد بدأ

بنشره في المجلات الشهرية قَبْلَ أن يجمع في أجزاء مستقلة، فذاعت طريقته، وخُولفت أكثر مما ووفق عليها، لأنّها تتخذ من العلوم الحديثة ميداناً لشرح بعض آيات الكتاب الكونية، وهذا الاتجاه لا يعدم الشَّطط إذا تسرَّع فيه المفسِّر، واستجاب للخاطر الأول دون اتئاد.

وفي هذا المحيط المتنوع لكتب التفسير، بدأ الأستاذ جمال الدين القاسمي في تأليف كتاب (محاسن التأويل)، وقد قال في مقدمته: «واستخرتُ الله في تقرير قواعده، وتفسير مقاصده في كتاب اسمه بعون الله الجليل (محاسن التأويل)، أُودِعَ ما صفا من التحقيقات، وأوشَّحَ بمباحث هي المهمات، وأوضح فيه خزائن الأسرار، وأنقذ فيه نتائج الأفكار، أسوقُ إليه فرائد التفتُّتها من تفاسير السلف الغابر، وفرائد عثرتُ عليها في غضون الدفاتر، وزوائد استنبطتها بفكري القاصر، مما قادني الدليل إليه، وقوي اعتمادي عليه، وسيحمدُ السَّابِغُ في لججه، والسائح في حججه ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان».

والحق أن القاسمي قرأ كثيراً كثيراً في كتب السابقين، ونقل الكثير في تفسيره، حتى أن كثيراً من الآيات جاء شرحها معزواً إلى غيره - وتلك أمانة - دون أن يشترك بتعقيب كاشف، ولكنه تمتع بميزة حسنة، هي البُعد عن مسائل النحو والبلاغة، ونظريات الفلسفة والمنطق، مما نجده لدى أمثال الزمخشري والفخر الرازي، وصحيح أن أي تفسير لا يُمكن أن يستغني عن شذور من مسائل النحو والبلاغة والمنطق، إذا أعوزَ المقام تلك الشذور، وقد جاء القاسمي بها في مناسبتها الملحة، ولكن الإكثار منها كما في تفسير البحر المحيط وتفسير الكشاف، ومن هنا منحاهما تَضَحُّمٌ يكاد يكون ورماً، وقد خلص منه تفسير (محاسن التأويل).

وقد افتتح التفسير بمقدمة حافلة تقع في جزء منفرد، تتحدّث في إسهاب عن أمورٍ جوهرية تتعلق بعلم التفسير، إذ تتضمن الحديث عن نحو معرفة سبب النزول والناسخ والمنسوخ، وقصص الأنبياء، وشيوع الإسرائيليات بها، وجريان القرآن على اللسان العربي، ومعنى التفسير الباطن والتفسير الظاهر، وأيّهما أصحّ وأسلم، والسنة المطهرة ومنزلتها من تفسير القرآن، والمكي والمدني في كتاب الله، والاعتدال في التفسير بين المأثور والرأي، وأسرار التكرير في القرآن، وسبعة

الأحرف التي نزل القرآن بها، ومدار القراءات على صحة النقل، وثمره اختلاف القراءات، وذكر مُلخَصٍ لوجوه التفسير ومراتبه، ومذهب السلف في التفسير، وترجيحه على سواه، وأسانيد الأئمة السبعة في القراءات، وموافقة القراءات للرسم العثماني، وقد جاء ذلك كله في جزء كبير، بلغت صفحاته اثنتين وخمسين وثلاثمائة من الصفحات! وقد يكون ذلك في أكثره نقولاً مختارة من أمثال الشاطبي وابن تيمية والعز بن عبد السلام، وابن القيم، ومحمد عبده وغيرهم.

والحق الذي لا معدل من التصريح به أن النقول في هذه المقدمات قد زادت زيادةً كانت مصدر العجب، بحيث لو طار كل نص إلى أصله ما يكاد يبقى شيء للقاسمي غير تعليقات ضئيلة، ولكنَّ الزمن الذي ظهر فيه الكتاب لأوّل عهده كان في حاجة إلى تلك النقول، لتعذر مصادرها على الكثير، وبدراسة أمثال هذه النقول الشافية نجد أنها لم تُسقَ جزافاً، وإنما خضعت لفحصٍ وتأملٍ واستيعابٍ، ثم ترجيح واختيار، فالقارئ المتعجل يظنّ المفسر قد نقل ما أمامه دون جهد كبير، ولكني أقرر حقيقة عانيتُها بنفسِي؛ وهي أن الباحث يجدُ أمامه رُكاماً من النقول يحار فيما يأخذ ويدع منه، وبكلّ نصّ هنأته ومزايها، فلا بدّ من الترجيح لاختيار ما يكون موضع الاطمئنان.

ثم إن الكتاب قد أُلّف في أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي، أيام كانت هذه البُحوث جديدةً طريفةً يتقبّلها القارئ باشتياق، ولكنّ مضي قرن عليها، أتاح لطلاب الدراسات العليا في كليات الشريعة وأصول الدين أن يبدعوا الرسائل العلمية الشافية، وأن يُبرزوا في هذا الحقل ما يروق القارئ المعاصر، ومحاولة المقارنة بينهم وبين صنيع الأستاذ القاسمي محاولةٌ ظالمة؛ لأنّ الرجل رائدٌ يسيرُ الخطوات الأولى في طريق غير ممهد، وقد مضتْ عدة عُقود متوالية في مضمّار البحث القرآني حتى اعتدل السير، واستقام الطريق، وهنا يُحفظ للرائد مكان الريادة، ولا نطالبه بما يُطالب به اللاحق من ابتكار وتجويد، وليس من المستطاع أن اختار نصوصاً من هذا التفسير لتدلّ عليه، فالتفسير ذائعٌ مشتهر، وقد تعدّدت طبعاته، فليقرأه من يريد.

ويلي كتاب محاسن التأويل كتاب (قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث) لأنه أُلّف في زمنٍ كثير فيه هجوم الاستشراق - وبعض المسلمين أيضاً - على السنة النبوية بدعوى عدم تواتر ثبوتها، وكان في حملة الاستشراق التي قادها (جولدزيهر)

ما يُلقِي الرِيب على سوء القصد، حين يعمد باحثٌ مغرض إلى هدمِ دعامةٍ قوية من دعامات التشريع، ولكنّ بعض الذين يتبعون كل ناعق قد أصاخوا له، ومضوا يفتشون عن أقوالٍ تؤيد منحاه في كُتب التراث، ولم يَسألوا أنفسهم لماذا كانت الأحاديث النبوية تارةً، والقراءات السَّبع تارة أخرى موضع الشك المتواصل لدى أصحاب المباحث الاستشراقية؟ فإن تركوهما فإلى ادّعاءات كاذبة تُلصق بالتصوّف الإسلاميّ إلصاقاً، وإلى إغراقٍ في حديث الزندقة بالعصر العباسي!! .

لقد رأى الشيخ جمال القاسمي هذا التحرّش الاستشراقيّ بالسنة المطهرة، فأصدر كتابه عن مصطلح الحديث؛ ليقف في صفّ هؤلاء الذين يعرفون كيف دُونت أحاديث رسول الله على أصحّ وجوه التدوين.

ومن الغريب أن يظهر كتابٌ يسمّى (مصطلح التاريخ) ألفه مسيحيٌّ فاضل، هو الأستاذ أسد رستم، أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية اللبنانية، ليثبت أن طريقة المحدثين في تدوين الحديث هي أوثق الطرق التي يجب أن تُحتذى في قبول روايات التاريخ أو رفضها، قال ذلك بعد أن درس ما قام به علماء الحديث من جهد في تحقيق التراث النبوي الكريم، إذ صنّفوا الأحاديث درجاتٍ متفاوتة فتحذّثوا عن صفاتٍ ما سمّوه بالحسن الصحيح، أو المسند أو المتصل، أو الموقوف أو المقطوع أو المرفوع، أو المرسل أو المنقطع (خلاف المقطوع) أو المعضل أو المدلس أو الشاذ أو المنكر، ووضّحوا في بيان فاصل كيفية سماع الحديث وتأمله وضبطه، وأنواع الرواية والإجازة والمناولة، والمكاتبه والوصية والوجادة، ورواية الحديث بالمعنى، والتصحيح والتحريف والنقص، والإسناد العالي والإسناد النازل، وأقسام العلو في الإسناد، والمسلسل، وغريب ألفاظ الحديث، إلى ما لو ذهبت استقصيه لملاّت صفحات متوالية.

ولا أنكر أن كُتب الحديث قد حوت ذلك قبل أن يُصدر جمال الدين مؤلفه، ولكنّ أكثر هذه الكتب صُنعت بأسلوب كَرّ يتطلبُ البسط، فاحتاج إلى شُروح لم تصل إلى المراد تَوْأَ دون تلبث، بل ظلّت تدور في إشكالات واعتراضات، لا يصير عليها غير نفرٍ من المتمرسين، ومن هذه الكتب ما جاء رجزاً في ألفية كألّفية ابن مالك، مثل ألفية العراقي وألّفية السيوطي، فاحتاجت إلى شرح ذي عناء، وما جاء من غير الرجز مثل قصيدة الصّبان، فجاء كتاب القاسمي سهل التناول قريب المأخذ،

وقد أخذ عليه الناقدون أنه ذكر بعض ما جاءت به كُتُب المناقب والفضائل، وكُتُب الأوراد والتَّصوف ممَّا لم يترجح ثبوته، والأوَّلَى بمن يتحدث عن مصطلح الحديث أن يُدقِّق في اختيار ما يتمشَّى مع قواعد هذا المصطلح.

وقد طُبعت بعد كتاب الأستاذ كُتُب من التراث كانت لا تزال مخطوطة، ككتاب الإلماع للقاضي عياض، وتدريب الراوي للنواوي، واختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، وكُلُّها جيد مفيد.

والذي أراه في هذا المجال أن يتخفَّف علماء الحديث من كثيرٍ من المصطلحات الحديثية التي سجَّلها الأقدمون، وتداولها من بعدهم التابعون؛ لأنَّ الفروق بين كثيرٍ من هذه المصطلحات قد تكونُ من الضَّالَّة بحيث لا توجب التفرقة الحاسمة، وامتلأ كُتُب الحديث بفيض زاخِرٍ من هذه المصطلحات يُباعَدُ بينها وبين القارىء المثقف، ولكنَّ القارىء المتخصص هو الذي يصبر ويتند حتى يبلغ آخر الشوط في ارتياح.

وقد تعرَّض السيد محمد رشيد رضا في مقدمة الكتاب (وقد كتبها بعد رحيل المؤلِّف بأمد طويل) إلى الموازنة بين كتابه في المصطلح وكتاب أستاذه الشيخ طاهر الجزائري في الموضوع نفسه، فقال: «إنَّ العلامتين الجزائري والقاسميَّ سيَّان في سعة الاطلاع، وحُسن الاختيار، إلا أنَّ الجزائري أكثرُ اطلاعاً على الكُتُب، وولوعاً بالاستقصاء والبحث، والقاسميُّ أشدَّ تحريماً للإصلاح واعتناءً بما ينفع جماهير الناس، فمن ثمَّ كان كتاب الجزائري - وهو أطول - قاصراً على المسائل الخاصة بمصطلح الحديث وكُتُب المحدثين، التي لا ينتفع بها إلا المشتغلون بهذا العلم، أما كتابُ القاسميِّ فسهل في تقسيمه وتفصيل عناوينه، فهو أعم نفعاً».

وقد تتبع الأستاذ الفاضل أنور الجندي - وهو الباحثة الصبور - كلمات مختارة من مقالات الأستاذ القاسمي، ليس لدي مصدرها، ولكنها تدل على اجتهدٍ وريادة وعمق، كما أنَّها تصوِّر مذهبه في الإصلاح الديني، ودعوته إلى التحرير الفكري، والاجتهاد المستقل، وسأنقلُ منها بعض ما يضيء جوانب من فكره اللَّماح، وليت هذه المقالات جُمعت في كتاب خاصٍّ، كما جُمعت بحوثه العلمية، فهي ذاتُ دلالة واضحة على ارتقائه الذهني المتحرِّر.

١- يقول الأستاذ^(١): «إن من محاسن الإسلام انطباق أصوله على نوااميس العمران، ووفاء قواعده بحاجيات كل زمان ومكان، وابتناء أحكامه على جلب المصالح، ودرء المفسدات، وتمييزه برفع الأرصاد والأغلال، وفتحه أبواب اليسر والتيسير، وسدّه مسالك الحرج والتعسير، ومن خصائصه إرشاده لمناهج الاستنباط وموارد التفقه والاستخراج حتى سهل على راسخيه ردّ كل ما ينفع الناس إلى نصّه ومحكمه، أو مُجمله وظاهره، وتطبيقه على سماحته، وتوفيقه على يسره ورحمته.

٢ - لقد قضت حرية العلم والتأليف في عهد السلف ألا يَنخل أحد بفكر، ولا يضمن برأي أو يهمس به همساً بين حيطان الخلوات، بل عليه أن يبث وينشر ويفسّر ويصدع به في المجامع والجوامع، والثبات على تحمل المشاق، والصبر الجميل من الواجبات المحتمة على كل داع إلى الحق، والصدمات التي يجدها البطل المقدم، يجب أن تُقابل بثبات الجأش، وأن تكون باعثةً على تجدد القوى كلما تجددت، ولذلك قرن الله تعالى في كتابه الحكيم التواصي بالحق بالتواصي بالصبر.

٣ - من المعروف في سنن الاجتماع أن كل طائفة قوي شأنها، وكثر سوادها، لا بد أن يُوجد فيها الأصيل والدخيل، والمتطرف والمعتدل، والغالي والمتسامح، وقد وُجد بالاستقراء أن صوت الغالي أقوى صدًى وأعظم استجابة، لأنّ التوسط منزلة الاعتدال، ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر، أما الغلو فمشرب الأكثرية، ورغبة السواد الأعظم، وعليه درجت طوائف الفرق والنحل، ولم تجد سبيلاً لاستتباع الناس لها إلا الغلو بنفسها».

وأختم هذه الشذرات، بهذه النظرة السابقة، لأنها دليل فكر اجتماعي متيقّظ، ولو ترك القاسمي كثرة التأليف التقليدي، واتّجه إلى تقييد مثل هذه الشوارد، لذكر بين المصلحين الاجتماعيين الكبار.

وقد انتقل إلى ساحة الرضوان في سنة ١٩١٤م، وطبول الحرب العالمية الأولى تدق في كل مكان، فلم يفارق عهد الكهولة إلى ما تلاه..



(١) تراجم الأعلام المعاصرين، للأستاذ الفاضل أنور الجندي، ص ٧٦.

حسن البنّا

علم يستغني عن كل وصف

كان من قدرتي مع الإمام الشهيد حسن البنّا أن أكتب عنه كتاباً يجمع كلّ ما قدرتُ عليه من تاريخه وأعماله الباهرة، ثم أسلم الكتاب لإحدى المطابع الموثوق في إدارتها، فأفجع فيها، إذ تعلّلت بأن الكتاب قد سُرق، وهو ما لم يحصل من قبل في تاريخها، وظننتُ أنّها أُجبرت على إغفاله، فتعلّلت بما تعلّلت، ولم أكن أحتفظ بأصل الكتاب، لأنّ شدة شعوري بمعانيه جعلتني أكتبه في سهولة خاطفة، وكأنّي أتحدث مع صديقي، ولا أسجل الحقائق في كتاب، ثم حاولتُ أن أكتب من جديد، فأجدُ فتوراً يثبطني، إذ يخيل إليّ أنّي لا أبلغ بعض ما بلغتُ من قبل، وكان عزائي أن ملحمتي الشعرية عن الإمام الشهيد تكفي لإيضاح مشاعري الصادقة نحو جهاده البطولي، وسألحق أكثرها بهذا المقال ليعرف قارئ الكتاب من هو الرجل العظيم في مرآة أحد مُريديه .

وقد ظهر كتابٌ عن الإمام الشهيد سجّل فيه جامعه الأستاذ المرحوم (جابر رزق) فصولاً صادقة لنفّر من الكتاب، تحدثوا عن الرجل العظيم ببعض ما يشعرون، فعنّ لي أن أقتطف من هذه الفصول ما يعطي فكرة صحيحة عن بعض مواقف الإمام الشهيد، وفي هذا تقصيرٌ مني أشهدُ به، ولكنّه خيرٌ من السكوت، وإذا كانتُ مقدمة الكتاب التي كتبها الأستاذ جابر رزق تُفصّل نواحي هامة من حياته الكريمة، فسأبدأُ بها مُلخصاً نبذاً منها :

١ - وُلد حسن البنّا في (اكتوبر سنة ١٩٠٦) في أسرة مؤمنة ذات جوّ إسلامي خالص، فأبوه عالم فاضل له كُتُبٌ متعددة في التفسير والحديث، وكان يعملُ بيده

ليكسب، إذ كان يصلح الساعات، وقد تعلّم نجله منه علمه وعمله معاً، فدرس على يده كُتب الدين والتاريخ، وألّم بصنّعة العملية لِيُساعدَه في رِزقه، والتحق بالمدرسة الأولية، فمدرسة المعلمين، ثم انتقل به والده إلى القاهرة، ليلتحق بدار العلوم، وفي القاهرة عرف بُعدَ الناس عن تعاليم الإسلام، فصمّم على أن يكون ذا رسالة دينية، تردّ الشاردين إلى جنة الإسلام، وحين عُيّن مدرساً بالإسماعيلية بدأ بإنشاء جمعية الإخوان، في حَقبة قال عنها الأستاذ المرشد^(١):

«كانت مصر يوم نَبَتَتْ هذه الدعوة المحددة لا تملك من أمر نفسها قليلاً أو كثيراً، يحكمها الغاصبون، ويستبدّ بأمرها المستعمرون، ولم يخلُ الجوّ من منازعات حربيّة، وحزازاتٍ سياسية، فلم يشأ الإخوان أن يزجّوا بأنفسهم في هذا الميدان فيزيّدوا الخلاف، فانصرفوا إلى ميدانٍ مثمر هو ميدان تربية الأمة وتبنيه الشعب، وتغيير العُرف العام، وإذاعة مبادئ الحق والجهد والعمل والفضيلة بين الناس، وأعتقد أنهم نجحوا إلى مدى يُحمدون عليه».

وقد انجذب الناس إلى دعوة الإخوان لصراحتها واستقائها من نبع القرآن في وضوح لا يحتمل الشك، وكان الأستاذ يتخذ من السهولة المُيسرة في الخطاب ما يجذب السامع المسلم إلى دعوته، لأنه ليس بعيداً عنها، وهي من صميم قرآنه، فهو يوجز مثلاً مبادئ الجمعية في قوله: «نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة، تنظم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وأنّ الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول العبادات مخطئون، فالإسلامُ عقيدةٌ وعبادة، ووطن وجنسيّة، ودينٌ ودولة، وروحانية وعمل، ومصحفٌ وسيف، والقرآن الكريم ينطق بذلك كله».

ثم يأتي بالحق الصريح في دعوته إلى الحكم الإسلامي دون مواربة فيقول^(٢): «الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون، يجعلُ الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمدُ على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقد قال الخليفة الثالث: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) وقد جعل النبي ﷺ الحكم عُروةً من عُرى الإسلام،

(١) حسن البناء، للأستاذ جابر رزق، ص ١١.

(٢) حسن البناء: ص ١٦.

والحكمُ معدودٌ في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفروع، فالإسلام حكمٌ وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانونٌ وقضاء، لا ينفكُّ واحدٌ منها عن الآخر، والمصلحُ الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يُقرَّر الأحكام، ويرتل التعاليم، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفه أمره، فسيكون صوتُ هذا المصلح صرخةً في واد، ونفخة في رماد».

وفي هذه السطور القليلة تحدّدت رسالة الإخوان بما يجعلها واضحةً للعيان، كما أنها جاهرت بأن الحكم الإسلامي وفق الكتاب والسنة أمرٌ محتوم لا خفاء به ولا التواء، أما طريقة الوصول إلى هذا المأرب فقد وضحتها المرشد العام في خطبه ورسائله ومقالاته، فعرفها الموافق والمخالف، وأصبحت ذات محجةٍ بيضاء.

وطبيعيٌّ أن تتعرض الدعوة لحربِ ضروس من الإنجليز والأحزاب، وأن يُواصل الإمام مسعاه، حتى يكون صاحب القوة العملية في محاربة الإنجليز بالقناة، وفي كفاح اليهود بإسرائيل، ولو صدقت النّيّات لكان ذلك النضال موضع التقدير والإعجاب! ولكنّه اتخذ وسيلة للبطش بالجماعة، ثم لاغتيال الإمام الشهيد، ومن المعروف أن حلّ جماعة الإخوان للمرة الأولى سنة ١٩٤٨ في حياة المرشد العام قد جاء وليد قرارٍ استعماري، حيث اجتمع في ١٠/١١/١٩٤٨ سفراء أمريكا وإنجلترا وفرنسا في فايد، وقرّروا اتخاذ الإجراءات اللازمة بوساطة السفارة البريطانية في القاهرة لحلّ جماعة الإخوان المسلمين، وقامت الوزارة حينئذ بسرعة التنفيذ، إذ صدر قرار النقرashi بذلك في ٨/١٢/١٩٤٨ وأتبعه اغتيال الإمام الشهيد في مؤامرة تنفّست لها الأكباد.

هذا إطارٌ متواضع، يضمُّ خطوطاً رئيسية من سيرة الفقيد، أما الصورةُ المشرقة التي يجب أن يُحيط بها هذا الإطار، فهي خالدةٌ في القلوب قبل أن تخلد في صفحات الجهاد، وقد تحدث عنها الفضلاء حديث الصدق، لا حديث النفاق، لأن بعض الراحلين من زُعماء الكلام المعسول يتخذون أبواقاً يشيدون بباطلهم، ويملؤون الصحف والإذاعات بمفتريات يأبى عدلُ الله أن تستمرّ، إذ تُشرق شمس الحقيقة على ضبابها القاتم فتكسّحه عن العيون، ويعود المتحدّث عنه عارياً ناعلاً

شائهاً أمام المخدوعين به؛ أما الذين تحدّثوا عن الإمام فلم يبلغوا بحديثهم عنه بعض ما يشعرون به من إجلال، وقد تحدّثت قلوبهم قبل أن تتحدّث أفلأهمهم، فجاءت بالصدق الصريح.

يقول قائل منهم^(١): «ليس الداعية إلى الله أداةً ناقلة، كالآلة التي تحمل سلعةً ما من مكان إلى مكان، وليست وظيفته أن ينقل النصوص من الكتاب والسنة إلى آذان الناس، ثم تنتهي بعد ذلك مهمته.

كانت لدى حسن البناء ثروة طائلة من علم النفس، وفنّ التربية، وقواعد الاجتماع، وكان له بصيرة نافذة بطبائع الجمهور، وقيم الأفراد، وميزان المواهب، وهذه بعض الوسائل التي تُعين على الدعوة، وليست كلها، والوسيلة التي تعتبر طليعة غيرها، ولا تؤتي الدعوة إلى الله ثمارها كاملة إذا لم تتوفر لها، هي إلهام الله للداعية أن يتخيّر موضوعه المناسب، وأن يصوغه في الأسلوب الذي يلقي هوى في أفئدة السامعين، ويترك أثره المنشود في نفوسهم وأهوائهم.

إن القذيفة قد تنطلق كاملة العناصر، تامّة القوة، ولكنها تقع بعيدةً عن مرماها، فتذهب هدرًا، وما أكثر الخطباء الذين يُرسلون من أفواههم حكمًا بالغة تنطلق هنا وهناك، كما ينطلق الرصاص الطائش، لا يُصيب هدفًا، ولا يدرك غرضًا، وحسن البناء كان موفقًا في اصطیاد الرجال، وكانت كلماته البارة تأخذ طريقها المستقيم إلى عقولهم فتأسرها، وذلك أمرٌ يرجع إلى فضل الله، أكثر مما يرجع إلى المهارة الخاصة، واقتياد الكلمة من فم القائل إلى شغاف قلب السامع مما يمكن أن يقال فيه: ﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ إِلَهُهُ رَمَيْتَ﴾.

هذا موقف الداعية من سامعيه كما حدّده الأستاذ محمد الغزالي، أما عبقرية الداعية في جذب الأفراد إلى ساحة الجهاد الدائب، والكفاح المثمر، فقد قال عنها الأستاذ سيد قطب^(٢):

«هذا البناء الضخم، الأخوان المسلمون، إنّه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات، إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس استجاش الداعية مشاعرهم

(١) حسن البناء، للأستاذ محمد الغزالي، ص ٥٦.

(٢) حسن البناء، للأستاذ سيد قطب، ص ٥١.

ووجداناتهم، فالتقوا حول عقيدة، إنها عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم، من الأسرة، إلى الشعبة، إلى المنطقة، إلى المركز الإداري، إلى الهيئة التأسيسية، إلى مكتب الإرشاد.

والعبقرية في استخدام طاقة الأفراد، طاقة المجموعات، في نشاط لا يدعُ في نفوسهم، ولا يدعُهم يتلفتون هنا أو هناك يبحثون عما يملؤون به الفراغ، إن مجرد استثارة الوجدان الديني لا يكفي، وإذا قصر الداعية همّه على هذه الاستثارة فإنه سينتهي بالشباب خاصةً إلى نوع من الهوس الديني، الذي لا يبنى شيئاً، وإن مجرد الدراسة العلمية للعقيدة لا يكفي، وإذا قصر الداعية همّه على هذه الدراسة، فإنه ينتهي إلى تجفيف ينباع الروحية التي تكسبُ هذه الدراسة نداوتها وحرارتها وخصوبتها، وإن مجرد استثارة الوجدان والدراسة معاً لا يستغرقان الطاقة، فستبقى هناك طاقة عضلية، وطاقةً عملية، وطاقة فطرية أخرى في الكسب والمتاع والشهرة والعمل والقتال، وقد استطاع حسن البناء أن يفكر في هذا كله، أو أن يلهم هذا كله، فيجعل نشاط الأخ المسلم يمتدّ، وهو يعمل في نطاق الجماعة، إلى هذه المجالات كلها، بحكم نظام الجماعة ذاته، وأن يستنفد الطاقات الفكرية كلها، في أثناء العمل للجماعة، وفي مجال بناء الجماعة استطاع ذلك في نظام الكتائب، وفي نظام المعسكرات، ونظام الشركات الإخوانية، ونظام الدعاة، ونظام الفدائيين الذين شهدت معارك فلسطين، ومعارك القتال نماذج من آثاره، تشهد بعبقرية هذا النظام.

ويمضي حسن البناء إلى جوار ربه، يمضي وقد استكمل البناء من أساسه، يمضي فيكون استشهاده على النحو الذي أريد له، عملية جديدة من عمليات البناء، عملية تعميق للأساس، وتقوية للجدران؛ وما كانت ألف خطبة وخطبة، ولا ألف رسالة للفقيد الشهيد لتُلْهِب الدعوة في نفوس الإخوان كما ألْهِبَتْها قطرات الدم الزكي المهرق».

هذا الاتصال الروحي بالنفوس قد مزج نفس القائد بأنصاره، فأصبحوا يحسّون أنّه والدهم الحنون، يعرف كل شيء من أحوالهم الخاصة، ويناديهم بأسمائهم في

كلّ قرية نائية يحلّ بها، وهذا ما يقرّره الداعية الكبير الأستاذ صالح ع شماوي رحمه الله في قوله^(١):

«لقد كان حسن البناء طاقة بشرية جبارة، طاقةً روحية أضاءت كل قلب مظلم اتصلت به، وأشعلت نور الإيمان في نفس كلّ مؤمن من تيارها السيّال، طاقةً بلغ من قوتها أنّها أحيّت ميّت الآمال في نفوس البائسين، وهوّنت كلّ تضحية في نفوس المؤمنين؛ إذ كان حسن البناء طاقةً علميّة ممتازة كوّنت مدرستها، وخرّجت تلاميذها، وجدّدت معاني الإسلام، وبدّدت كثيراً من الأوهام، وتركت تراثاً خالداً من العلم والمعرفة، وكان حسن البناء طاقةً عاطفية جيّاشة فيّاضة، مرهفة الإحساس رقيقة المشاعر، فكان يحسّ بآلام إخوانه وأتباعه، وإنّ أخفوها في الجوارح وفي حبّات القلوب، وكان يُعِينه على ذلك مع قلبه الرحيم، ذاكرة قوية جبّارة، كان يلتقي بأخ في قرية في إحدى رحلاته، وقد تمضي فترةً طويلة حتى إذا قابله مرّة أخرى سأله عن أسرته وأولاده وعن المريض، وكيف صحته، وعن الطالب فيهم ودراسته، بل سأله عن أدقّ مشكلاته العائلية والمالية، وكأنّ هذا القلب الكبير لم يكن له ما يشغله هذه الفترة، ولم يعرف إلا هذا الأخ، الذي التقى به لقاءً عابراً وسط كتلة من الناس في إحدى القرى».

وهذه الإشارات إلى عمق الصلات الشخصية بين الإمام وأصحابه، ممّا ألمح إليه الأستاذ صالح ع شماوي، وكان من أقرب المقربين إلى نفس الإمام الشهيد، هذه الإشارات قد أكّدها الكاتب الأمريكي (روبير جاكسون) في كتابه (حسن البناء). الرجل القرآني) وقد ترجمه الأستاذ البحّاث أنور الجندي، فدهش القراء لكاتب أمريكي يعلم عن الإمام ما يعلمه الريفي النائي في نجوع الصعيد دون نقص، وقد فضّل ما عناه الأستاذ صالح ع شماوي حين قال^(٢):

«كان قديراً على أن يُحدّث كلّاً بلغته وفي ميدانه وعلى طريقته، وفي حُدود هواه، وعلى الوتر الذي يحس به، وعلى الجُرح الذي يشيره، ويعرف لغات الأزهرين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات

(١) حسن البناء، ص ٦١.

(٢) حسن البناء. الرجل القرآني، ص ٢٠.

الأقاليم في الدلتا والصحراء، وفي مصر العليا والوسطى وتقاليدها؛ بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفُتُوت وأهالي بعض أحياء القاهرة الذين تتمثل فيهم صفات بارزة، وكان في أحاديثه إليهم يروي لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم، بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعي الطريق والقَتلة، وقد ألقى إليهم مرة حديثاً، وهو يستمدّ موضوع حديثه أثناء سياحاته في الأقاليم، وفي كلِّ بلدٍ من مشكلاتها ووقائعها وخلافاتها، ويربطه في لباقةٍ مع دعوته الكبرى فيجيءُ كلامه عجباً يأخذ بالألباب.

كان يقول للفلاحين في الريف: عندنا زَرَعَتان، إحداهما سريعةُ التَّماء كالقثاء، والأخرى طويلة كالقطن؛ لم يعتمد يوماً على الخطابة، ولا تهوئشها ولا إثارة العواطف عن طريق الصياح والهيّاج، ولكنّه يعتمد على الحقائق، وهو يستثير العاطفة بإقناع العقل، ويلهّب الروح بالمعنى لا باللفظ، وبالهدوء لا بالثورة، وبالحجة لا بالتهوئش.

وهذا ما يعرفه كل الناس عنه، حتى خصومه الألداء يحارون في فهم هذه السَّعة المحيطة بشؤون الأفراد والجماعات. والحقيقة أنّ الرجل الكبير أُسْرِيَّ بطبيعته يحبّ الأسرة المسلمة، بل يعدّ المسلمين جميعاً أسرةً واحدة، هو أحدُ أعضائها، فإذا تكلم مع إنسان رأى نفسه مُلزماً بالإصغاء إليه، وتتبع أخباره، وقد يجد ما يدفعه إلى مواساته بالقول الطيب، والعلاج السديد، وهو لا يُظهر معه أنّه مفضلّ عليه، بل يُريه أنّه قسيمه في السَّراء والضَّراء، وذلك بعض ما يفهمه الرجل الكبير من قول الله عز وجل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فالأخوة تدعو إلى كل تعاطف وانجذاب، وهو أمر قرآني، لا سبيل إلى تناسيه.

لقد ارتفع المرشد العام بنفسه عن شهوات الحياة، لأن أكبر متعته له هي إعادةُ الروح الإسلامي للمجتمع، والعمل على إيقاظ الأمنيات الهاجعة في نفوس المسلمين! نَعَمْ الأمنيات الهاجعة، لأنّ كل مسلم إذا رجع إلى أعماقه الدفينة لمس شعوراً نائماً يجب أن يُوقظ، هذا الشعور هو العمل على نهضة الشعوب الإسلامية وإعادتها إلى حظيرة الدين، وقد وضح طريق النجاح في هذا المجال أمام عين المرشد الداعية، فكان ينتقل من توفيقٍ إلى توفيق.

ولم يَر في مصر زعيم بعد سعد زغلول التفتّ حوله العامّة التفاهم حول حسن

البناء، وهذا ما أزعج أعداءه، فظنّوه طالب منصب، وإذن فليُتَّح له هذا المنصب الكبير، وسيرضى به لأنه في رأيهم - مدرّسٌ للغة العربية بإحدى المدارس الابتدائية، وقصارى أمله أن يكون مفتشاً أو ناظر مدرسة ثانوية! فليغروه بما هو أعظم وأرقى، وسيُتطَّع إلى بريق المنصب المنتظر، فيتخلّى عن الشقاء الكارب في رحلاته الممتدة صيفاً إلى أقاصي الصعيد في حرّ اللواح، إنّه بشرٌ، ولا بدّ أنّه سيُليّن تحت بوارق الإغراء.

يقول الأستاذ البهي الخولي مصوراً بعض نواحي الإغراء التي زينها له المغرضون^(١):

«كان الناس يخيّون في غمار الموجة المادية، حين قام حسن البناء في إشراق هالةٍ أخرى لها مبادؤها ومثلها العُليا، هالة الفكرة الإسلامية، يحيا فيها بقلبه، ويحيا فيها بنفسه، ويحيا فيها بوجدانه وشعوره وعصبه، فكانت مبادؤها عنده هي الحق، وما سواها الباطل، وكانت مثلها هي النواميس الطبيعية الأصيلة، وما سواها وهم خادعٌ وسراب لا معوّل عليه، وكانت زهرة الحياة الدنيا تتضاءل وتتقلص أمام عينيه إلى جانب ما يفيض عليه في هالةٍ من سعادة رزق الله، فكان زهده في دنيا المادة، لا يعدّله إلا زهد أهل المادّة فيما لديه من مُثُل رفيعة، وقد عرضت الدنيا نفسها عليه خاطبة، وواتته الظروف، ولكن هيهات أن تروج هذه الأوهام في نفس مشغولة زاخرة بالحقائق النفيسة العليا.

جاءه من يعرض عليه منصباً في فجر الدعوة سنة ١٩٣٢، ليلين عن بعض واجبه في منصب الداعي إلى الله، وكانت نظرة رثاء وإشفاق وتبكيّت دانت لها شخصية الداعي هواناً ودُحوراً وخجلاً، ولو أنّه أجاب ما عُرض عليه لكان لبنية اليوم من مجد المنصب ونعمته ما يحسده عليه الكثيرون، وعرض عليه الإنجليز ذهبهم الوهاج في مستهلّ الحرب الماضية ألوفاً وعشرات الألوف، ومن ورائها خزائن طوع أمره ورهن إشارته، ولكن الرجل المتواضع السهل السمح أذلّ بكبريائه القاسية مَنْ جاء يُساومه في مثله وكرامته، ونكّس القوم رؤوسهم، مدرّكين أن الذهب والفضة لا يُعالجان بما يحسم أمر الشيخ ويخفت صوته إلى الأبد، ولو أنّه ألان لهم الجانب

(١) حسن البناء، ص ٧٥.

ما كشف أحد سرّه، ولما تعرّض لنقمة الناقمين، وغيظ الحاقدين، وكان لبنيه اليوم من الضياع والعمائر ما يسلكهم في أرباب الثروات».

أمّا الذي رفض هذه الأموال، فكان مضرب المثل في الزهد والتشف، يأكل ما يأكله الفقراء في منزله، يزوره الضيف فلا يجد من الطّعام غير طبق الفول وما يشبهه، وهو غذاؤه الفطريّ الذي يقدّمه لنفسه قبل ضيفه دون تصنّع، يقول الأستاذ روبير جاكسون الكاتب الأمريكي حول هذه الظاهرة^(١):

«ولقد علمتُ أنّه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً، فيقصد إلى المسجد، فيصليّ مع الناس، ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام، وأحياناً ينصرف الناس عنه فينأى على حصير المسجد، وقد وضع حقبيته تحت رأسه، والتفّ بعباءته. . . وكان يعيش بعد استقالته من التعليم براتب لا يزيد عن راتبه المدرسيّ، وبين يديه الأموال الضخمة المعروضة من أتباعه، وحوله من العاملين من يصلّ دخله إلى أضعاف ما يحصل عليه، كما كان في بيته مثال البساطة، كنت تلقاه في تلك الحجرة المتواضعة الفراش، ذات السجادة العتيقة، والمكتبة الضخمة، فلا تراه يختلف عن أيّ إنسان عاديّ إلا في ذلك البريق اللامع، الذي تبعثه عيناه والذي لا يقوى الكثيرون على مواجهته، فإذا تحدّث سمعت من الكلمات القليلة المعدودة موجزاً واضحاً للقضايا التي تحويها المجلّدات، وكان مع هذه الثقافة الواسعة الضخمة قديراً على فهم الأشخاص، لا يُفاجئك بالرأي المعارض، ولا يصدّمك بما يخالف مذهبك، وإنّما يحتال عليك حتى يصل إلى قلبك، ويتّصل بك فيما يتّفق معك عليه، ويعذرُك فيما تختلفان فيه».

والناحية الهامة التي أُلْمع إليها الكاتب الأمريكي، هي ثقافة الإمام الشهيد المحيطة، وميزة هذه الثقافة التي تُسعفه في شتى المناسبات أنّها ليست نصوصاً جامدة محفوظة في الذاكرة فحسب، بل لها روحها الحيّ الذي ينفخ فيها الحياة فتستحيل مخلوقات متحركة ذات نبض، وقد يكون بعض هذه النصوص معلوماً لكثير من الناس، ولكنهم لا يبلغون منه معشار ما يبلغه الأستاذ، لأنّه يربط كل نص بالمدلول العام للدعوة الإسلامية، وللخطّ العريض الذي تمثله الشريعة في قانونها

(١) حسن البناء.. الرجل القرآني، روبير جاكسون، ص ١٨.

السمائيّ العادل، وهنا يصير النصّ المعروف وكأنّه على شفّته نصّ جديد! وهذا بعض ما عبر عنه الأستاذ البهي الخولي، وقد لازم الأستاذ وانتقل معه في بعض رحلاته، وأجاد الاستماع الواعي إلى حديثه، فقال عنه صادقاً^(١):

«لقد كان الناس قبل حسن البنا يقرؤون نصوص الدين، ويستمعون لمواعظه، فلا يكادُ يعلّق في نفوسهم منها شيء، فلما جاء بَعَثَ الراكد، وحزّك الهامد، وأثار الأشواق، وعلّق همم العاملين بالأفق الأعلى، ولم يأت حسن البنا بعلم جديد، ولم يكن حسن البنا بأعلم العلماء، إنما كان شأنه غير شأن غيره، كان غيره يعرض الفكرة الإسلامية ما استطاع، أمّا هو فكانت الفكرة الإسلامية تعرض نفسها حيّة سافرة على لسانه، تعرض نفسها على لسانه بياناً جزلاً مفصلاً، وتعرض نفسها في لهجة صوته خشوعاً وحنيناً وروحاً غريباً تطمئن به القلوب، وتعرض نفسها على ملامح وجهه قوةً ناطقة بما يشاء، وتعرض نفسها في نظرات عينيه نظرات نافذة ملهمة، تلهم القلوب والنفوس جميعاً، فإذا نورٌ جديد يشرق في جوانب النفس، وحياةٌ جديدة تنشر ميت القلوب، وإذا الناسُ إزاء الإسلام الحيّ الخالد كأنهم إزاء مُحدّث جديد».

وقد يُفهم من هذا أنّ النصوص التي يستشهد بها الإمام هي التي يلقيها في خطبه وحدها، والحقيقة أنّ الرجل كان مؤهلاً بقراءته إلى أن يُفسّر كتاب الله خُلفاً للسيد محمد رشيد رضا، فقد دفعته همته العلمية إلى أن يُتابع تفسير المنار ابتداءً من سورة الرعد، وهي السورة التي يتبدى بها المفسّر تالياً للسيد رشيد، حيث انتهى صاحب المنار في تفسيره إلى قول الله تعالى في سورة يوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وجاء عالم الشام الأستاذ الشيخ محمد بهجت العطار فأكمل تفسير سورة يوسف إلى نهايتها.

ورأى الأستاذ البنا أن يتبدى بسورة الرعد، فأصدر التفسير في ثلاثة أعداد من مجلة الشهاب، وكان في نيّته أن يستمرّ مكيناً سديداً مُوفّقاً، كما بدأ في ما كتب، ولكن حلّ الجماعة، وتعطيل المجلة وما أعقبه من استشهاد الإمام قد وقف دون

(١) حسن البنا، ص ٧٦.

التّمام، ويُستفاد من ذلك أن الإمام كان جديراً بأن يكون خَلْفاً لصاحب المنار في تفسير كتاب الله عن جدارة، وقد كتب من الصفحات المباركة ما يؤيّد هذا القول عن جدارة مكينة، ولولا ما حصّله من المعارف القرآنية ما طمح لمثل هذه المكانة، فُقُل في رجل يجمع بين جهاد القلب وجهاد الحومة في ساحة النضال التوجيهي، ويُؤتي في الناحيتين خير الثمار .

وأما ثباتُ الإمام تلقاء العواصف، فهو ما عبر عنه الدكتور مصطفى السباعي حين قال^(١):

«لقد كانت كلّ قوى الشر في الأرض تتحدّاه؛ الاستعمار، والملِك، والباشوات، والأزهر، والأحزاب، والفساد والانحلال، ثم جهل الجماهير بمصلحتها، فمشى كالضوء لا يعبأ بالرياح ولا يُبالي بالمعاول، ولا يتراجع أمام العاصفة، وإن كان ينحني لها حتى تأخذ طريقها، ولا ينكص على عقبيه رغم كل تهديد ووعيد، ولا يضعف إيمانه بالنصر، وإنْ أظلمت الدنيا حوله، ولا ينهزم في المعركة مهما تكاثرت القوى وتألبت عليه، وكان مع ذلك كلّ يتّسع صدره لأعدائه كما يتّسع لأصدقائه، ولم يكن يكره أحداً من أعدائه كراهة حقّد، فالرجل العظيم لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً.

ولكنما يكره من أعدائه باطلهم وفسادهم، وافتراءهم وتفتّنتهم في الشر، وإضرارهم بمصالح الشعب، كما كان يكره من بعض أنصاره لجاجهم وقلة تبصّرهم، وتمزّدهم على الحق، وإيذاءهم للدعوة بسلوكهم وأخلاقهم، وما زال بأعدائه نُصحاً وإشفاقاً حتى قتلوه في الظلام وحيداً أعزل مجزّداً من كل قوة وجاه وأنصار؛ قتلوه وهم الأقوياء، وهُو الضعيف، وهم الحاكمون وهو المطارد، وهُم المسلّحون وهو الأعزل، وهم الأشقياء وهو السعيد، ثم أصبحوا مطرودين من رحمة الشعب، وهو مغمور برحمة الله».

هذا ما قاله الدكتور السباعي، وقد عجبت من ذكر كلمة الأزهر، إذ يقرنه بقوى الشر من الملك والأحزاب والباشوات والفساد والانحلال، لأن شباب الأزهر كانوا (وأنا منهم) حينئذ مع الإخوان، وكان من شيوخه أربعة في مكتب الإرشاد، فكيف

(١) حسن البناء، ص ١٠٦.

يأتي السباعي بالأزهر في صفّ أعدائه؟ وأنا أعلم أن السباعي رحمه الله تعلّم في كلية الشريعة الأزهرية، ونال درجة الدكتوراه منها، فهل رأى في الأزهر طيلة تعلّمه إلا خيراً! لنفرض أنّ واحداً أو اثنين ناوؤوا الإمام في بعض الاتجاهات، أفيكون الأزهر جميعه مناوئاً له، ليقرّنه بقوى الفساد والانحلال!! .

وقد أشار الكاتب إلى اغتيال الإمام الشهيد أمام زحوف البغي، وهي محنة تتكرر كثيراً منذ كربلاء، وكم صعدت أرواح الشهداء إلى ربّها شاكية ما لاقته من العذاب، فنالت رضوان الله ومثوبته، وتركت دنيا البغي لأهل البغي، والعجيب أن تقلب الحقائق قلباً مضحكاً، عبّر عنه الأستاذ سعيد رمضان في قوله^(١):

«هذا الإمام الذي قُتل قتلةً ستظل وصمةً في جبين مصر والمصريين، جُوزي بها جزاء سنمار، وأذاع راديو لندن وصحف يوم الإثنين أن تشيع جنازة الشيخ حسن البنا قد اقتصرَتْ على بعض أقاربه في حراسة عشرين جندياً، وبلغ الظلم والافتراء مداه، فزعم مراسل (الدّون) في القاهرة أنّ القاتل يُرَجَّح انتماءؤه للإخوان المسلمين، وأنّه قتل المرشد لأنّه كان قد عزّم على الإفشاء بأسرار الإخوان!! . . . خانتك فطنتك أيها الغرّ الخبيث، فاعترفت بأنّ الإخوان لا يزالون يغارّون على دعوتهم، وأنك لا زال تؤمن أنت ومن دفعك بأنّ الإخوان باقون، ونسيت أن حسن البنا هو دعوة الإخوان».

ولعلّ وصف ما أعقب الجريمة من اضطهاد بشع، وإذلالٍ كرهه قد عبّر عنه الأستاذ الكبير مكرم عبيد باشا، الوزير القبطي، الذي رأى من واجبه أن يحضر تشيع جنازة الإمام، فماذا وجد؟ قال الأستاذ مكرم عبيد^(٢):

«لقد زرتُ منزله إثر موته، فكانت زيارةً لن أنسى ما حييت أثرها الفاجع والدامع، وقد هالني أن أجد قوّة من البوليس تُحاصر الشارع الذي به نزل الفقيد، ولولا أن ضابط البوليس عرفني فسمح لي بالمرور لما تيسّر أن أؤدي واجب العزاء، ولئن نسيت فلن أنسى كيف كان والده الشيخ البار متأثراً بهذه الزيارة، حتى أنّه قصّ علينا والدمع يفيض من عينه كيف منعوا الناس من تشيع الجنازة، ولم يُسمح لغير

(١) حسن البنا، ص ١٢٤ .

(٢) حسن البنا، ص ١٦٤ .

والده بالسير وراء نعشه، كما لم يُسمح للمعزين بالعزاء في منزله، وراح الوالد الكريم يشكرني، ويدعو لي دعواته المباركات، التي ما زلت أتبرك بها، وإني قلت له: إن واجب العزاء هو فرض واجب الأداء، فإذا ما قصرتُ فيه أنا أو أي مصري كان في ذلك تنكُّرٌ لتقاليدنا وأوليات الوفاء».

هذا بعضُ ما قاله الأستاذ الكبير مكرم عبيد، وهو بريءٌ من التعصّب الدينيّ، وما قال ذلك إلا وهو يعلم أن الإمام الشهيد لا يعرف التعصّب مثله! ويرى أن الأمة بقسميها وطنٌ واحد يشترك أهلوه في الآلام والمآل، أقول ذلك رداً على من يتلمّسون الأخطاء للإمام تلمساً شاذاً مريضاً، فيحاولون أن يُلصقوا به التعصّب، لأنه ينادي بشريعة الإسلام، وهي دعوى كاذبة، فنّدها مفكّرٌ فيلسوف محايد، لم ينتسب إلى الإخوان يوماً، ولكنه جهر بشهادة الحق كي يُخرس السنة المبطلين، ذلك هو الأستاذ الدكتور منصور فهمي، أحد الروّاد المعاصرين، حيث قال^(١):

«لقد أخطأ وظلم من توهم أن في دعوة الفقيد ذرّةً من التعصّب المقيت، يتجلّى في معاداة من ليسوا على دينه وعقيدته، وذلك لأنّ الرجل كان رقيق القلب، مهذب النفس، يفهم دينه كما يجب أن يفهم على حقيقته، ويعلم أنّ من الأسس التي قامت عليها دعائم الإسلام أن لا إكراه في الدين، وإني لأعلمُ علم اليقين أن الفقيد الراحل كان أخاً كريماً، وصديقاً للكثيرين من أهل الرأي والفكر ممّن هم على غير دينه، وكان في حلقة الجدل والمباحثة يتخلّى عن رأي بدا له، إزاء رأي صائبٍ جاءه ممن يغيّره في الرأي أو العقيدة، ومثلُ هذه الصفات التي كان يتحلّى بها الفقيد تتنافى مع ما يُلصقه به البعض من تهمٍ قامت على التوهم».

هذه قبساتٌ مما قيل عن الإمام، تؤرّخ باتصالها المتماسك جانباً من سيرته الحافلة، ولعلّها تمهد لقراءة قصيدتي الصادقة عن هذا البطل الخالد، لأنّها تفسّر كثيراً من مراميها الهادفة، وهي زهرةٌ متواضعة أضعتها بين يدي القارئ، ليعرف مدى ما أحسّه نحوه من إجلال وتعظيم..

(١) حسن البناء، ص ١٦٢.

حسن البناء

(تحية في ذكراه)^(١)

- ١ -

ملا الأرض بهجة والسماء
صفحة الأفق حلة سوداء
غمر الأفق واستباح الفضاء
وتعالى فطبّق الأرجاء
ليس يلقون في دجاها اهتداء
مجهدات السرى فضجوا عياء
لك من حولهم يُبِيد الرجاء
صرخات تفتت الأحشاء
سعيهم في الدجى يضيع هباء
أم يكرّون في الطريق وراء
ح وتستأصل الذرى السماء
ل فأصلّته حربها الشعواء
مأ تهاووا على الثرى أنضاء
ب فتزجي إلى الحنيف البلاء
خبثت جوهراً وراقت طلاء
لا ترى باسلاً يرد اعتداء
ساءه أن يُكرّر الإحناء
يا لقوم تعشّقوا الإغضاء
رق روح الحياة إلا ذمّاء
وتباروا في النيل منه امتراء
بل تعاووا لجاجة وافتراء

شعّ في الكون كوكباً وضّاء
شعّ في الكون والغيابُ تكسو
والدجى زاحف كموج شديد
أغرق الأرض في حدادٍ رهيب
وسرى المدلجون في ظلمات
قيّد الحزن خطوهم وثنتهم
يرتجون الضياء والحنسُ الحا
قيّد الحزن خطوهم فتعالت
أين لا أين يذهبون وهذا
أماماً وفي الأمام حتوف
والأعاصيرُ حولهم تحصد الدو
هائجات كأنما غاظها الليد
أين أين الضياء يسعد أقوا
ظلماتُ الإلحاد تطفئ من الغر
شبهاتُ تأصل الحقّ فيها
تطعنُ الدين في الصميم وتمضي
وحماةُ الإسلام يحنون رأساً
ضعفوا عدّة فأغضوا جميعاً
تتهاوى الطّعان في جسدٍ فا
طمسوا الذكر أو أرادوا خداعاً
علم الله لم يصلوا بحق

(١) من ديوان صدى الأيام، للدكتور محمد رجب البيومي.

أذؤب صادفت خلاءً فراححت
لو أتاها الزئير وهو قريب
شبهاتٌ تكاثفت وادلهمت
أئن من يكشف الغشاء عن العيد
ظمئت أنفسٌ إلى النور وضاً
الضياء الضياء يا منقذ الكو
دعوةٌ صادفت قبولاً فشكراً
الإمام الشهيد أرسله الله
شع في الكون كوكباً وضاً

- ٢ -

تملاً السمع ما استطاعت عواء
لرأينا العواء صار بكاء!
ثم أرخت على العيون الغطاء
من ألا كوكب يزيل الغشاء؟
ء فأزجت إلى السماء الدعاء
ن فيالها لما عشقنا الضياء
لك ربّي فقد أجبت النداء
سراجاً يبدد الظلماء
ملاً الأرض بهجة والسماء

صاح بالمدلجين: قد وضع المهـ
دعوةٌ أيقظت نياماً فهبوا
وأصابث من الصدور انشراحاً
مثلما ينعش النمير قلوباً
أبصروا قائداً يسلّ المواضي
ذائداً عن حمى الرسالة يُصلي
ذائداً عن حمى العروبة في عصـ
ياله ساعياً على قدميه!
موغلاً بالكفور يهبط سهلاً
يذرّع الأرض ليس يعبأ بالرمـ
لم يدغ قرية هنالك إلا اختا
يقرأ الذكر والجلالة تكسو
فتخالّ القلوب ذابث وكانث
نبرات تؤجّج الدم ناراً
قد رزحتم يا قوم تحت قيود
أين أين الإسلام؟ أزهقتموه
طمس الغرب هذيه عن عيون

يعُ للسير، فالنساء النجاء
بعد أن أتعبوا الثرى إغفاء
يملاً النفس راحة وهناء
قد تلظّت مع الهجير ظماء
ويعدّ الكتائب الخرساء
شانئها جهنماً حمراء
ر غدا أهلها به غرباء
هادياً يرسم الطريق السواء
ثم يعلو إلى النجوم ارتقاء
ضياءً صيفاً والزمهرير شتاء
ر منها أنصاره الأوفياء
وجهه الطلق رونقاً وبهاء
عن قريب حجارة صماء
كلهيب يسعر الرمضاء
كبلتكم، فصرتم أسراء
وغدوتم من بعده يُماء
أصبحت بعد نوره عمياء

وحباكم حضارة تنفث السد
 قيل عنها: رقصاء ذات بريق
 قيل عنها: ملساء قلت: أيقصي
 برعت في لذائذ تترك العا
 فأجادت خلاعة ومجوناً
 وأراقث من الشراب كؤوساً
 شيدت الانحلال صرحاً مكيناً
 قيل عنها: تمدن ومن الخد
 صرخات إذا علت نادبات
 نبهت أعين الشبيبة للمجد
 كان فيهم تخنث يوقد الحز
 أنقذتهم من السقوط فعاشوا
 نفثت في القلوب سحراً عجيباً
 فإذا الناس مهطعون إليه
 منطلق أثر النبوة هدياً
 أعجز اللسن في المنابر بهراً
 أرايت الغمام طاف على الأر
 سح في المقفر الجديد دُفوقاً
 فإذا الأرض بعد محل جديد
 مدت الظل وارفاً واستطالت
 كلما حام فوقها عندليب
 منظر باهر وطعم شهى

ثم مُيِّداً كحياة رقصاء
 وأرى الغدر يتبع الرقصاء
 سمها عنك أن ترى ملساء
 قل والأعجم المسفّ سواء
 وأزالست حمية وإباء
 أطفأت من سنا العقول الذكاء
 من رأى الانحلال صار بناء؟
 عة أن يتقنوا لها الأسماء
 أرهف الشرق سمعه إصغاء
 ودأنت إلى الهدى من تناءى
 ن ولهو يندي الوجوه حياء
 في الرّبي الخضر سادة شرفاء
 وتمشى تيارها كهرباء
 يتبارون نجدة وفداء
 في زمان لا يبعث الأنبياء
 وتغالى فأفحم الشعراء
 ض فأحيا المهامه الجدياء
 فسقى الأرض واستحثّ النماء
 تتصّبّاك جنّة غناء
 بثمار تسبي النفوس اشتها
 وجدّ الظل والجنى والماء
 وشذى عاطر يزين الفضاء

- ٣ -

هكذا كانت النفوس ياباً
 سمعت منطلق الإمام فرفث
 فهداها إلى الطريق سوياً
 عشقت شرعة الكتاب فما تر

ثم أضحت خميلة فيحاء!
 واستفاضت بشاشة وصفاء
 ومشّت فيه لا تروم انشاء
 غب إلا الحنيفة الغراء

تبذلُّ الروحَ دونها وقليل
ضلَّ من يفصلُ السياسةَ عن ديد
زعموه عبادةً لا نظاماً
إن تبغنا بعض الكتاب وأغضيه
فخذوا الدين جملةً أو دعوه
دعوةً لم تقف بمصرَ ولكن
فارقب الشَّام والعراق وإيرا
وارقب المسلمين في كل صقع
لم يكن ربَّها رسولاً ولكن
سلكت نهجه وخفت كما خف
خاب فأل الإلحاد ماذا دهاه؟
نفث السم حيث ظنَّ فناء
شعَّ مجد الإسلام يشرق نوراً
فإذا المسلمون خلف إمام
قادهم من الصلاة رهبان ليل
ثم بعد الصلاة فُرسان حرب
خلعوا ربقة الجمود وخاضوا
درسوا الاقتصاد فنَّاً وراحوا
شركات تدفق المال منها
تركت أوجه الحرام وسارت
سُحب من السلام تمطر خيراً
قوةً من قوى المهيمن تسطو
زحفن لليهود أسداً غضاباً
في فلسطين كم هوت بحصون
فارقب الأرض إن أردت لتلقى
الأسود الغضاب تخمي حمى الغا
زأرت فالفضاء إعصار جن
فتكت بالعدو فتكاً فلاقى

أن تضيع الأرواح فيها سخاء
من يُقيم السياسة الزهراء
ومضوا يقسمونه أجزاء
نا عن البعض كان هذا غباء
ليكون الإسلام منكم براء
ملأت مسمع الورى أصداء
ن ولييا وتونس الخضراء
تجد الدعوة استطالت سناء
تبعث دعوة الرسول احتذاء
يُزيل الجهالة الجهلاء
بذل الجهد ثم ضاع هباء
ويله قد غدا الفناء بقاء!
فكساً صفحة الوجود رواء
رفّ في ملتقى العيون لواء
تتهاوى دُموعهم أنداء
ألفوا أن يقارعوا الهيجاء
لجج العيش يطفرون فتاء
عملياً يجنون منه الثراء
تمنحُ الرزق مطعماً وكساء
لا تريم المحجة البيضاء
ولدى الروع تمطر الأرزاء
فتدك المعازل السماء
فمشى الذعر في النفوس وجاء
وأراقت على الرمال دماء
جثثاً قد تناثرت أعضاء
ب وتردي الثعالب الدخلاء
مثلما هجت زعزعا نكباء
من فنون الصيال داء عياء

أوشكث أن تفوز لولا رعاغ
 طعنوا الأسد من الظهور وكانوا
 وأتوا مصر لا ليلقوا ثناء
 عبأ الغاصب الدخيل قواه
 ساءه أن يكون من مصر جيل
 كيف هذا، وذو المكانة فيهم
 يعيش الليل قائماً مدلهماً
 وحواليه حفنة من لصوص
 هو من فوقهم إله مطاع
 عقدوا أمرهم وخفّوا إليه
 قيل من حارب الطغاة جهاراً
 قيل: من ألهب الأحاسيس في الشر
 قيل: مَنْ ألب النفوس على الشد
 قيل: من شاد للفضيلة رُكناً
 قيل: من صارع الرذيلة حتى لف
 قيل: من أَلَف القلوب على الحد
 مَنْ هدى المسلمين للذكر فيضاً
 من دها الظالم الغشوم بحزب
 من أعدّ الجموح تزحف للبغ
 من رمى الاحتلال فهو طريح
 حَسَنُ أوقد الضّرام حريقاً
 اقتلوه إذن لنرتاح منه

دبّروها مكيدة سوداء
 من حمى النصر يرقبون ازدهاء
 بل ليلقوا تحوُّشاً وبلاء
 ليبيد الأشاوس البسلاء
 عبقرئ يعلو بها الجوزاء
 يطمسُ النور خشية واتقاء
 ويخافُ الصباح إمّا أضاء
 حذقوا الزور فاغتدوا وزراء
 عبّدوه تملّقا ورياء
 يرسمون الجريمة الشنعاء
 فتواروا عن الورى استخذاء؟
 ق وأذكى الحمية الحمراء؟
 ر فشئت عواصفاً هوجاء؟
 شامخاً يزحم النجوم علاء؟
 ظئت من صراعها الحوباء؟
 قّ ففاضت محبة وإخاء؟
 فتساقوا رحيقه صهباء؟
 كدّرتة فما أحس صفاء؟
 سي فتُرديه من الثرى إرداء؟
 يقرغ السن شاكياً مستاء؟
 طبّق الأفق حين لاقى الهواء
 ثمّ تسري الرياح بعد رخاء!

- ٤ -

دبّروا أمرهم دجىً وتواصوا
 شرّدوا صحبه الكرام فبأثوا
 بذلوا الروح في فلسطين لكن
 ربّما أطلقوا اللصوص وراحوا

أن يكوئوا في بغّهم شركاء
 بين أصفادٍ أسرهم سجناء
 وجدوا غيب السجون جزاء
 يأسرون الأفاضل الأبرياء

حدثٌ مضحكٌ وشرُّ البلايا
 ذاك ما كان من وحوش أطاعوا
 وخَلَا الجو لاغتيالٍ شهيد
 رَصَدوا دونه الفخاخ وطافتُ
 ومشى الهول عاصفاً بإمام
 نبأ صاعق أتاح انفجاراً
 أزعجَ الليل إذ رآه فنَدَّتْ
 صاحَ بالبدر هل رأيتَ فالفا
 وبدا الصبح حالكاً مدلهماً
 لم نجد شمسهُ تلوح فقلنا
 مصرعُ أشعل النفوس كما ألد
 كل قلب به أزيزٌ من الحز
 جاهداً ينشد العزاء وهيها
 رأيتَ البركان هاج على الكو
 حطمَ الراسخ الأشم وثارَتْ
 لهبٌ يبعث الحمام شواظاً
 أفزعَ الخلق فالطيورُ حيارى
 ووحوش الفلاة تعدُّ من الهو
 والبحارُ المَوَارِدُ اللَّجْ ضَجَّتْ
 لم يكن مصرع الإمام سوى البر
 قتلوه وعذبوا كلِّ باك
 تتلاقى العيون لا اللفظ شاك
 جثمَ الصمت بالشفاه فدعها
 تسترُ الدمع خيفة الشرِّ لكن
 فإذا الصبح عاقه لحظاتٍ
 أين عدل السماء يا رب مَنْ ذا
 أين عدل السماء قد كَبَتِ الصم
 أين عدلُ السماء قد زَعَزَعَ الخو

حدثٌ يضحك الورى استهزاء
 في خنى البغي شهوة رَعْناء
 كان منعاه سبّة نكراء
 نذر الموت حوله تتراءى
 شرف الله باسمه الشهداء
 زلزل الأرض وقَعه والسماء
 صرخاتٍ فيه تشقّ الفضاء
 ه كئيباً يذري الدموع دماء
 تتدجّى آفاقه ظلماء!
 أكذاك الحمامُ غال ذُكاء!
 قَيَّتْ في النفط شعلة حمراء
 ن تمادى فأشعل البرحاء
 ت لذي البؤس أن ينال العزاء
 ن فألقى القذائف الهوجاء؟
 حممُ الموت تُمطر الأنحاء
 جاحماً عمق النفوس فناء
 تملأ الأفق ضجة وبكاء
 ل فتلقى من كل صقع بلاء
 لحريقٍ يُؤجج الدُمَاء!
 كان دوى فزلزل الأرجاء
 قام من بعده يصوغ الرثاء
 لا ولا الصدرُ يرسل الصعداء
 فقلوبُ الورى تضج اشتكاء
 فاض قهراً وما استطاع خفاء
 سخ كالعارض الهتون مساء
 غيرُك اليوم يكشف الغماء؟
 ت نفوساً لا تملك الإفضاء؟
 ف قلوباً تمزقت أشلاء؟

أَيْنَ عَدْلُ السَّمَاءِ فَالظُّلْمُ بَاغٍ
أَيْنَ عَدْلُ السَّمَاءِ لَا يَأْسُ لَكُنْ
نَفْدُ الصَّبْرِ مِنَ الْقُلُوبِ فَنَادَتْ
أَسْقِطِ الظَّالِمَ الْأَثِيمَ فَوَلَّى
وَسَرَتْ دَعْوَةُ الشَّهِيدِ كَمَا كَا
تَرْفَعُ الْحَقَّ حِينَ يَخْفِضُ رَأْسًا
تُرْشِدُ النَّاسَ لِلْكِتَابِ وَتُعَلِّي
سَيَقُولُ التَّارِيخُ كَانَ ظِلَامٌ
وَأَتَى الْمُرْشِدُ الشَّهِيدَ لِيَمْحُو
شَعًّا مِنَ الْكُونِ كَوَكْبًا وَضَاءً

يَسْتَحِثُّ الْخَطُوبَ وَالْبَأْسَاءَ؟
رَبِّمَا اسْتَبْطَأَ الْمَرِيضُ الشِّفَاءَ؟
رَبِّهَا مَتَقْنِذَا فَلَئِمَى النَّدَاءَ
يَرْقُبُ الْمَوْتَ ضَحْوَةً وَعِشَاءَ
نَتُّ تَنْيرُ الدَّجَى وَتُرْوِي الظَّمَاءَ
تُدْفَعُ الْبَغْيَ إِذْ يَصُولُ اعْتِدَاءَ
لِذَوِيهِ فِي الْخَافِقِينَ اللَّوَاءَ
حَالِكٌ يَطْمَسُ الْعَيُونَ عِمَاءَ
عَنْ حُمَى النِّيلِ ظِلْمَةٌ طَخِيَاءَ
مَلَأَ الْأَرْضَ بِهَجَّةٍ وَالسَّمَاءَ

* * *

حسن القاياتي

وبعض نواحي الإبداع في بيانه

لا أدري لماذا سكّت مؤرخو الأدب المعاصر عن الشاعر الكبير والناشر المبدع الأستاذ حسن القاياتي؛ حيث لم أجد له كلمة واحدة في رثائه، غير خطبة تأبينية، التي ألقاها المغفور له الدكتور منصور فهمي في ردهة مجمع اللغة العربية، جرياً على سنن المجمع في تأبين راحليه! وقد كان السيد القاياتي - رحمه الله - ذا أتباع ومريدين يؤمّون ساحته ناهلين من أدبه منتفعين بجاهه، وفيهم من له اليوم في دولة القلم صيت ونباهة! فكيف سكتوا جميعاً عن الرجل! وقد كان في مدى نصف قرن من حياته الأدبية شاعراً مرموقاً، وكاتباً لامعاً، تجري الجرائد اليومية صباحية ومسائية بنفثات قلمه! أفلا يكون نصيبه من الوداع مقالات يخطّها تلاميذه ومريدوه! أم أن الجحود اللثيم قد ضنّ عليه حتى بكلمات الوداع، وهي تساق لدينا سوقاً لكل من صحب القلم ممن أجاد أو لم يُجد! لقد كان السيد القاياتي ينكر على الناس أن يجحدوا إمارته الشعرية في مصر إذ يقول:

إنني لأضخم من في مصر قافية
لاتجحدوني هذا أيها العجم

فماذا يكون شعوره النفسي في عالم الغيب حين يرى تلاميذه باستثناء صديقنا الشاعر الأستاذ محمد مصطفى البسيوني، قد ضنّوا عليه بكلمات الوداع، وإنها لأهون شيء يقال!

لقد كان السيد نسيج وحده في صياغته البيانية، إذ كان يحتشد للفظ وللمعنى شعراً ونثراً أعظم احتشاد، فهو يعلن الثورة على المعاني المطروقة والتراكيب الذائعة، ويجلس إلى نفسه ليزاوج بين معنى سوي ولفظ أنيق! وقد كان مجدداً حقيقياً في عالم الشعر العربي، إذا نظرنا إلى التجديد باعتباره إضافة جديدة إلى

طريف المعاني ومبتكر الأحاسيس! وقد كان شعره من التركيز والدقة بحيث يوجز المعنى الكبير في لمحات خاطفة، لا يدركها إلا طراز من هواة الإيجاز البياني اللامح، ومن هنا كان أكثر شعره مجفواً لدى العامة، أما صيارفة الأدب فيعرفون أن معدن القياياتي من أنفس المعادن، وأنه كالماس ندره وغلاء، فإذا رأوا شعره أكبوا على تحليله وارتشافه، فالرجل من هذه الناحية نسيج وحده دون نزاع.

وكيلا يظن بنا القارئ مبالغة أو تحيزاً فإننا ننقل عن أديب العربية الجهير الأستاذ عبد العزيز البشري بعض الحديث عن القياياتي! لأن الناس - أكثر الناس - قد ألفوا أن يعترفوا بالأديب العظيم إذا زكاه أديب عظيم مثله، أما أن يقوم كاتب متواضع بإبداء رأيه الحسن في أديب كبير، فهذا ما تُلتمس له الأسباب البعيدة في التأويل.

قال فقيد الأدب المطراب الأستاذ عبد العزيز البشري^(١): «لو تهياً للبيان أن يتمثل خلقاً لما جمع بيانُ السيد حسن القياياتي إلا على صورة صاحبه، وفي مثل شكله ودلّه سواءً بسواء، ولو لم يكن قدر لي أن أرى السيد حسناً ثم رأيته بعد أن نهلتُ من بيانه، لخيّل إليّ أن أتهدى وحدي إلى هذا الإنسان صاحب هذا البيان.

عرفت السيد من صدر أيام الطلب في الأزهر، وسرعان ما امتد بيننا حبل المودة فكان من يوم منجمه - وصل الله في عمره - يرسل الكلام ويقرض الشعر، إذ شعره وإذ نثره صورة صادقة حق الصدق لسلاسة نفسه وجزالة طبعه، وحلاوة خلقه، بل إنك لتحس في بيانه بالحياء الذي تحسه فيه نفسه، وهذه المزية، ولك أن تدعوها الموهبة، إنما تنشأ في أصلها بالفطرة، وتنجم مع الطبع، ما يجدي في خلقها تفكير ولا تهذيب، على أنها تزيد وتستحصد بعد ذلك بطول التمرين والتدريب حتى ما يجد صاحبها فكاً من صدق التعبير عما يحيك في نفسه من نزعات الإحساس، وكذلك السيد حسن القياياتي.

ولعل مما أبلغ السيد حسناً هذه المنزلة أنه نشأ في بيت حسب، فهو يأنف من أن يُرائي الناس ويبادلهم بما لا يراه حقاً، وأن الله تعالى بسط له في الرزق، فهو غني عن ترصّي الناس بالحق وبالباطل، طلباً للمنزلة فيهم، والتماساً للمعروف عندهم، هذا إلى أنه رقيق الحس، مهذب العاطفة، جميل منزع النفس، ومن كان له كل هذا

(١) مجلة الأزهر، ٢٠/٣٦٠.

فهو أجلُّ محلاً من أن يكذب على عواطفه، ويفتري على ما يجول في صدره من نوازع الوجدان.

يدلك على هذا من بيان السيد إن كنت محتاجاً فيه إلى بيان، أنك تراه يتغزل وأكثر شعره في الغزل، فيطلع عليك بأرقّ الكلام وأعذبه، حتى ليخيل إليك أنه لا يقول شعراً، ولكنه ينفث سحراً، ومع هذا لا ترى في نسيبه عنفاً ولا عريضة، على نحو ما يصنع متكلفو الغزل من الشعراء، ذلك بأنه ترجم عن حسه فحسب، فلم يتكلف، ولم يتعمّل لاصطياد المعاني النائية، ولم يتعمد المبالغات النابية ليزين بها نظم القريض، وإذا كنت ممن يعرفون السيد القياتي، وما أوتي من وداعة الطبع، وارتياح النفس آمنت من فورك بصحة هذا الكلام.

هذا بعض كلام البشري عن السيد، ومنه علم أن أكثر شعره في الغزل، ونحن في هذا المضممار لا نريد أن نلّم بدراسة هذا الأكثر الكثير من أدب القياتي، إنما نعمد إلى بعض آثاره الأدبية ثراً وشعراً في الإصلاح الديني، وهو مما احتفل به الأديب الكبير. كما أنه ممّا يلتئم مع خطة هذا الكتاب.

أذكر أن السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - قد دعا شعراء العربية بمصر في مطلع هذا القرن إلى النظم الاجتماعي في مناحي الإصلاح الديني، فاستجاب إليه فريق ممن يحسنون القول، وكان أحمد الكاشف، ومحمد عبد المطلب، وأحمد محرم، في طليعة من نادوا في قصائدهم بالثورة على الجمود العقلي، والتزمت الفكري، فتحدثوا كثيراً عن أدواء المجتمع المريض في الشرق، وقد حذا حذوهم محاكاة وتقليداً بعض من ظنوا الشعر مجالاً للحكم والمواعظ تساق سوقاً دون أن تتشع بأفواف الخيال، أو تتوهج بحرارة العاطفة، فكان هؤلاء - دون أولئك السابقين - خطباء منابر يضعون خطبهم في تفعيلات العروض، وبذلك تفقد تأثيرها، وتموت حين تولد.

لم يكن السيد ممّن ارتضى مذهب أولئك وهؤلاء، فهو إذ ينعى على الكاشف ومحرم وعبد المطلب من رجال الطبقة الأولى قرب المعنى، وسطحية الغرض، وإن اهتموا كثيراً بفصاحة العبارة، وجمال اللفظ، ورنين القافية، وصدق العاطفة، إنما يسلق بالسنة حداد مقلديهم من ذوي النصح الإرشادي والوعظ العروضي، نائياً بأسلوبه عن الفريقين، وسالكاً نهجاً آخر من البيان، هو نهج الطرافة والابتكار في

إيجاز وتركيز، حتى لتجيء المقطوعة الواحدة من مقطوعاته الموجزة ذات رصيد حافل من الأفكار والصور، وهذا هو التجديد الحقيقي، كما كان يعنيه ويتعمده في ثقة وإتقان.

ونحن نعلم أن بيت القاياتي بمصر الوسطى بيت علم ودين وتصوف وسياسة، وكان الناشئ من أبنائه يأخذ مكان الصدارة في قومه، واثباً إلى المجد في ظل حسب موروث، وبيت مقصود، تؤمّه الوفود، ويسعى إليه القاصدون، ولأمر ما كان كثير من شيوخه رجال تصوف، يجتمع حولهم المريدون من كل حذب، ولهؤلاء تقاليد مرسومة في إحياء المواسم الدينية، وإقامة الذكريات الإسلامية، وقد يختلط صحيحها القوي بمريضها الضعيف، ولو لم يكن السيد حسن القاياتي من ذوي الرسائل الحافلة لأغضى عن بعض النقائص الملحوظة لدى شيوخ الطرق ومتصدري المواسم، ومقيمي الحلقات والأذكار، ومنشدي القصائد والتواشيح، ولسكت قليلاً على احتيال ذوي الأغراض، ممن يتكسبون بالدين، ويتباهون بالمشيخة.

ولكن السيد القاياتي كان حرباً على المفاصد أي حرب، وقد نظر إلى دراويش الطرق وأدعياء التصوف نظرات نافذة، فراعته أن يكون شيخ الطريق مخدر قوم بتفسير الأحلام، وبما يدعيه من العلم اللدني، وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ثم تفد الوفود إلى قطب الأقطاب من أنأى الأماكن وأدناها، وهو يتصيد أقواتها، ويعتصر دماءها، دون حياء، ثم ينظر السيد إلى الأضرحة وقد ملئت صناديقها بالنذور، فكم سَحَتَتْ أرملة محتاجة لدى ضريح الإمامين في القرافة، وكم من جاهل أكل الزكاة، ثم تقدّم إلى الضريح ببعض ما يكتنز، إذ كانت الموتى تُزار لخشيتها، ورَبُّها الحيّ غير مخشيّ، من هؤلاء الجهلة الأغرار، أنهم ليرؤن الرفاعي يصيد ثعباناً فيؤلّهونه ويكبّون على يديه رشفاً وتقبيلاً، وإنهم ليصلّون للناس دون الإله، فيطلبون الري من السراب؛ خواطرٌ حية صادقة هتف بها السيد في قوله:

الشرعُ في القوم بينه ويهدمه	غاورُ تأنّق في الحُلُم المناميّ
أزرى على العلم، والدنيا مثقفةٌ	علامةُ الناس بالعلم اللدنيّ
قُطِبُ من الرشَد أذنّى ما يُؤم له	من السماحة في القطب الشماليّ
لا أظلمُ الجود، كم سحتوت أرملة	لدى الإمامين والقبر الحسينيّ

يُعطي لدى كل قبر كلُّ مكتنز
عهدٌ تُزار به الموتى لخشيتهَا
بنو الحياة حُلاها كيف نطلبها
باسم الولاية كم شيخ مراشفة
الغربُ يضحك والإسلامُ يخجله
صاد الرفاعي ثعباناً فألَّهه
هيهات لَنْ يؤمن الأشياخ أو يصلوا
إذا تشكَّيت للمَناع لاعجبة

بابُ الزكاة لديه غير مرضي
وربك الحيّ فيه غيرُ مخشي
بكلِّ غادٍ على الموتى خرافي
على يديّ كل سبّاك وسبكي
من شيخه قُبلةً في كفّ سوقي
يا آل موسى هنيئاً بالرفاعي
دون الأناسي خلاق الأناسي
سُقيت رِيّاً من الماء السرابي

هؤلاء هم رجالُ الطرق في بعض ما حكاه السيد، أما رجالُ الفتوى من علماء الإسلام، فمنهم من يتغضب لا لدينه، بل لطلب الرياسة والجاه! وإنّ منهم من يظنّ نفسه مصدر التحليل والتحريم، إذ يلف عمامته الكبيرة على رأسه! تلك التي لو رآها (إبليس) لاعتَمَ! فتراه كزملائه يُصدر الفتاوى، كأنها زورات البغي من عصر البغاء، تُباع للناس لتزيد الغُرم، وتمنح مفتيها الغُنى! لقطاتٌ حية نابضة تمرّ بك سريعة لامحة، ولكنّ صداها يجلجل في نفسك تاركاً دويّاً يتصل رنينه، وقد تستعيدها على مهل، لتتأمل ما بالإطار من ملامح وشيات، تعرفُها معرفة جيدة بينك وبين نفسك، دون أن تجد من جلاها في معرضها البياني هذا الجلاء المفتن البديع! وأيّ معرض بياني أصقلُ رواء، وأنصح صفحة من قول السيد في هؤلاء:

تَغَضَّب لا للدين بعضُ رُواية
لقد عُبدت من الشرق حيناً عمائمٌ
كأنّ الأيادي فوقها ثغر لائم
هو الدين إن شاءوا يكنّ ضنكُ حكمه
فتاوى كزورات البغي مباحة
لأية جدوى يغمز الدين مارق
تَكَرَّت الأخلاق حتّى لَقَلَّما
تهدُّ إلى السوءات لا تدعُ الهدى

تَغَضَّب للإجلال أو طلب النعمى
لو أن إبليساً قد رآهنّ لأعتما
صحيفة زُور كان توقيعها حتما
فلاة وإن شاءوا يكنّ رجبهُ سَمّاً
تريدُ بها غُزماً فتأخذها غنما
أباح فلا حلاً يراعي ولا حُزماً
صنعت جميلاً لا تُجازى به شتما
وغضُّ عن المخزاة لا تدعُ الحلما

وكم عطف السيد في قصيده الديني، على الأزهر الشريف، عطف الناقد الناصح فتساءل عن رجل الدين العصري، الذي يترك أحاجي الحواشي، ومعمّيات

الشروح، ويلجأ إلى الواضح الناصع من القول، وحيّا العصريّ الطريف الذي يعشقه معارضه دون أن يتفهّم حقيقة ميوله العميقة، لأنّه لا يرضى حتّى لدى الموت لنفسه قبراً غير عصريّ! ثم ندّد بمن ينوّحون كما تسمعت للنوح الحماميّ على الإسلام خائفين عليه من وثبات التجديد، فليس الإسلام بالصرّح الزجاجي حتّى يتحطّم دون ثبات! وإنما دين الإسلام تؤيّد ثقافة العصر، وتحوطه فلسفة العقل، دون أن يُخشى عليه من معمعان النظر والترجيح! :

واهأله أزهرأ لو أن عالمه	مَشَى إلى الدين في الرأي الأمامي
العلمُ يفتنُ وضاحاً فطلبه	بالأزهريّ مقيماً في الأحاجي
حيّ الجديد فما يرضى معارضه	حتّى لدى الموت قبراً غير عصري
في معهد العلم أبناء أبوتهم	في معهد الدين ألغوا كل فكري
ياربّ دمع على الإسلام متهم	كما تسمّعت للنوح الحمامي
خافوا على الدين من علم وفلسفة	ما أنت يا دين بالصرّح الزجاجي
إنّ الحنيفيّة الغراء يشغفها	لبّ الثقافيّ في هذي الحنفي
العلمُ أجمع فيه الخير أجمعه	كالنحل ماذيّة رفث بماذي!

ولكل أديب وثباتٌ يشتطّ بها نحو مبالغةٍ لا تُرضي بعض الأذواق! وقد كان للقائاتي وثباته الخطيرة في مجال البحث الأدبي يعرفها قراءه، ويدافع عنها من يقع لديهم القبول، أما شطحاته الشعرية فأنا شخصياً لا أستنكرها على شطحها الجامع، لأنّ الشاعر حين ينذب الخيال في خاطرة سريعة، لا يغيب عنه ما ندركه من الشطط، ولكنّه ككلّ إنسان له مرقاه ومنحدره، تسنحُ له الخاطرة الطريفة فيتصيدها لطرافتها الخالبة، متغاضياً عن مبالغتها المغرقة، وله من طرافتها شافعٌ لدى من يُدركون نوازع الضعف لدى كل إنسان. ومن هذه المبالغات المغرقة قول الشاعر الكبير:

إلى كم تقاضى المصبيات مكانها	لدي وقد عفت المناغاة والرثما
أبيّ لو أن الماء يُسقى بوصمة	تبدلتُ منه خوف وصمته سمّا
أصدّ وقد همّ الجمال ولو قنى	أخي يوسف صبري لصدّ وما همّا

فالمقارنة بينه وبين يوسف عليه السلام غيرُ جائزة لدى الحصفاء من ذوي التفكير المتشدّد، ولكن الشاعر يتنحّى عن حصافته قليلاً، ليصطاد خاطرة سنحت له من سباحات إلهامه .

وقارئه الناقد لا يغفل عن شطحاته الجانحة، ولكنه يغتفرها دون مؤاخذه، لأنها في أهون أمورها سبحة شاعر، لا حكمة حصيف، ونحن في هذا النطاق المتسامح نروي بعض ما قاله السيد القاياتي في حسناء فقيرة تتسول:

تروح سليباً من حلي وإنما تؤزر بالحسن البديع وترتدي
وتغدو على جوع وإن جمالها ليأكل من شتى قلوب وأكبد
وكيف دعت من تجتديه بسيد وعبد لدى إحسانها كل سيد
وإن امرأ لم يعط الله وحده وأعطى لهذا الوجه غير مفند

هذه بعض خطرات حسن القاياتي الشعرية، أما خطراته الثرية فسنجتزئ منها بخطبة دينية صاغها الأديب الكبير أنموذجاً لأدب المنابر، وهاك حديثها.

- ٢ -

إذا ذكر للبارودي فضله على الشعر العربي في تجديد ديباجته، فقد غمط فضل عبد الله فكري في تجديد النثر الفني إذ تزعم مدرسة ترجع بإنتاجها إلى الطبع في تفويقها البديعي، حتى استطاعت أن تستنّ منهج الخوارزمي والبديع والصابي، بعد أن كان النثر الفني قبل هذه المدرسة تطبيقات ركيزة على الجناس والتورية والطباق، وقد بسطت هذه القضية في مقال طويل بمجلة الأفلام العراقية، ولكني أقول الآن: إن مدرسة عبد الله فكري قد تخرّج فيها المويلحي، وحفني ناصف، وتوفيق البكري، وحسن القاياتي؛ فإذا عرضنا الآن أنموذجاً من نثره الديني، فإلى هذه المدرسة يرجع، وعن قوسها ينزع.

أراد السيد القاياتي أن يضع عظةً للمنبر تكون في رأيه أنموذجاً فنياً لخطبة الجمعة، إذ شاهد من ركافة الكثرة الكثيرة من الخطباء ما راعه، فجنح إلى أدبه ليخطّ مقامةً منبرية ذات حلى ورنين، وهي بعد لم تُنشر في كتاب، ولم تُطبع في مجلة، ولكنها وزعت كمنشور منفرد على بعض الخطباء، وأسلوبها الأدبي يُنبئ عن مذهب الأديب في تعبيره الثري وهو مذهب المقامة البديعة المتطورة ذات الحلى والتغريد، وهي بعد قطعة أدبية فنية تمثّل مدرسة خاصة، ولكنها في رأينا أبعد ما تكون عن صلاحيتها لمنبر الجمعة، وإن افتتن بها أناس.

وستزفّها إلى القارىء بقليل من التصرف، ليستمتع بنمطٍ معهود في القرن

الخامس من البيان، وليسمع دعوة إصلاح صارخة من شيخ فتان، قال السيد:

(حمداً لله، لا جحداً، وشكراً لا نُكراً، وشهادة لك أن لا إله غيرك، وصلواتك على نبيك محمد الذي ابتعثته صورةً للهدى، حجةً للنهي، وعلى عترته الطيبين وصحابته الأكرمين طليعة الهداة، وملح الحياة).

أما بعد؛ فأين يذهب بكم أيها المسلمون عن الدين، وسنة الهادين؟ وكيف أنستم مقتل الفضيلة وسطوة الرذيلة، وتألفكم ضنّ الزمان بالإحسان، وقعدت بكم جفوة الأمل عن العمل؟.

لستم أيها المسلمون على شيء من الدين والفضل، حتى تُقيموا الشورى والعدل، فإن الناس بغير العدالة فوضى، ودُون المشورة مرضى.

واحرّ قلباه! وإنا لله، فيم أنتم، ولستم من العاملين، من أحاديث شتى بإلحاد وإيمان، وإساءة وإحسان، وسمير بعرف ونكر، وعفة وعهر، وكيف المباهاة من جهرة ونجوى بالتقوى، والمحاضرة بمجدٍ تليد، ونقدٍ وتفنيدي؟.

واكبدي! وماذا بقي اليوم للمسلمين من عمل البر، وسعي الحر، ما أنتم أيها المسلمون وذاك، ولستم هناك، ليس لنا من الدين أكثر من مواريث، بأحاديث، وبيت قاضي يفيض بطاعة ونشوز، ويجوز ولا يجوز، ويفهق بأقضية عدة في نفقة وعدة، وشقاقٍ في الطلاق، خاصتنا العلمية وما خاصتنا! ما شئت من طماعية، وخيفة على وظيفة، وتقديس للتدريس، وعامتنا، ما عامتنا! كم اعترت بخمرٍ وقمر، ورقص وزمر، والله الأمر، لا تسل عن الحقوق، فلا حقوق، وسل عن العقوق والفسوق، ناهيك من كل فم يُسبح، ويد تذبج، وقالة حرة، وفعلة مُرّة، وحسبك كلّ لعب ماجنة، تخطر في زيّ مريب، إلى حبيب تتعطر وتتخطر، والقلوب تنفطر، وتتمائل وتتأود، والصدور تتوقد، وتبسم، والقلوب تنضرم، سيرة تلك شائنة لكل فاتنة، وخطة كم كشفت عن قبر، لكل بكر، بعض الطغيان، وحسب العدوان، فإنه لسيان، من يتعدى حدود ما يُعطاه، ومن يتعدى حدود الله، وشبيهان من يشهد الزور، ومن يشهد الفجور، ومن يُوقد الفتنة في بلدٍ وأهل، والفتنة أشد من القتل.

ضلالاً لكم، يا دعاة الغشّ والمروق، في السوق، لقد أحلّ الله البيع وحرم

الربا، فحرمتم بخديعتكم البيع الحميد، وحلّلتُم الربا المبيد، فيا للمسلمين من طهر يُدَنَس، ودَنَس يُقدَّس.

حسبكم إكبارٌ للتوافه والصغائر، وإصغارٌ للكبائر والنواقر، فكم مفتعل زببية صلاة، هي عنده قُزْبَةٌ كفتح مكّة، وأخذ عكّة، ومتصدّق بكسرة مُغتَصَبَة، كأنّها فكّ رقبة، أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة، وكم عاهر من الحُجاج، أفتك من الحجاج، وباذلٍ للزكاة بقتل العُفّة، وربّ مغرق في المظالم والمائم، صائم، هيهات، إنه لا يلتقي الصلاح والصلاح، ولا يجتمع القبح والجمال، والذلة والجلال.

هيهات لما تدعون، أيّها المسلمون، العُهر سَرَي جهوري، والبرّ خفي سري، أتحسبون أنكم تؤمنون، ولستم تُحسنون، مالكم تبغون الصواب بخطّة التباب، وتطلبون بغير المآب الثواب، تنفقون المال في كلّ آفة، ولا تنفقونه في الثقافة، ومقالة نبيكم السيد الأمين: «اطلبوا العلم ولو بالصّين»، هؤلاء أبنائنا الجاهلون، يتساقطون من الجهالات في الطّرقات، من وليدة أو وليد، فتك به الجهل والمرض، فهو مطرَحُ ذابل، كفراخ المزابل! يتقلّب في الغفلات والأوصاب، على التراب، ويدل على الموت كلّ غيل، من التدجيل، ولكم أيها المصلّون المثل الأعلى والشرف الأعلى.

الوفاق الوفاق يا جماعة المسلمين، في الدين، والإيلاف لا الخلاف، ولا تتّبعا السبل فتفرق بكم عن سبيله، وتشطّ بكم في تأويله.

لا تُنكر لكم الفضل، والرأي الجزل، أنكم كلّما اشتجر رأيان في مسألة أو شيخان في بَسْملة، هل تُتلى أو تلغى، وفي سورة هل تسرّ فلا تجهر أو تشهر، نهض حزب إلى حزب، وأوقد الطعن والضّرب، حسداً من عند أنفسكم، وبغياً لا هدياً، للتفاصح لا للتناصح، وسيد الناس جميعاً محمد بن عبد الله يقول: «قاتل الله الحسد بدأ بصاحبه فقتله!».

إنّ الفضيلة جوهر والتقاليدُ عرض، فلا تغضبوا لشيءٍ من التقاليد إنّ سلم لكم الجواهر والغرض، وهلك العرض.

ليس الدين وهو عزّ الحياتين، في إقامة فرض، وإفساد في الأرض، وليس الدين

في إتيان الكبائر وإجلال الصغائر؛ من عمامة تُكَبَّر، وثوب يقصَّر، ولا هو في لحيّة تعفى، وشارب يُخفى .

هذا المال في أيديكم مالُ الله، أمانةٌ عندكم، أو عاريةٌ تسترد، ليس لأحد، والناسُ عيالُ الله، أحَبُّهم إليه أبَرُّهم بعياله، وأبذلهم لماله، والمتّقون في أموالهم حقٌّ معلوم، للسائل والمحروم . . شدَّ ما تؤدّي إليكم أفواهُ السكك بنين وبنات، من البائسين والبائسات، ربّما درجُوا في حجر النعمة، ومهد الرحمة، وكانوا لذويهم قرّة عيون، لولا المنون، وحبّات قلوب وأكباد، صرعهم البؤس أو كاد، أخلّق بهؤلاء، أن تندى لهم يدٌ وجبين، ويتعطف قلب فيلّين ! .

فلذات أكباد، في ضيعة وكساد، تُبيّتهم البأساء، تحت السماء، يفترشون التراب، ويلتحفون السراب، إن طعموا - وقلما طعموا - فكسرةٌ بائسة يلتقطونها من كُناسة، كأنّها ماسة، أو لقمةٌ مزجاة، وقشرةٌ ملقاة، فإن مُدت إلى أحدكم يدُ طفل أو طفلةٌ من هؤلاء، فلا عليه أن يحتسبها يد وليدته العزّى، أو نجله المفدى، وما أشبه يد الطفل الغرير، بيد ابنك الصغير، فلا تلتقِ تلك اليد بالرد، والبنان الغض بالرفض .

إنه لخليقٌ أن تفضّ خنمُ الدموع بالصدقات، أو توزّع القلوب حبّات، وفي أبناء الطرق التعساء من كل مسكين مضيع، كَسَدَ فقعد، وابتأس فالتمس، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، وقد سبق المحسنون .

بدّلنا الله معشر المسلمين من هذه الحياة، دميعةً مجتواة، حياة عزّة سامية باقية، وردّنا إلى مَرْفِهٍ كريم من العيش، هو أنبلُّ وأجدى، وخير مردّأ .

قال نبينا محمد بن عبد الله صلوات الله عليه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، أو كما قال .

هذه عظّة الجمعة كما خطبها السيد، وكما ضربها مثلاً جيداً للبيان المنبري، وقد قال عنها في مقدمته التمهيدية: «وهي خطبةٌ تخيّرت أن أصنعها جزلة الأسلوب، متينة الصياغة، قصيرة السجع، على الطراز البديعي، لما فيه من الطلاوة وحلاوة الفواصل ومُوسيقى القوافي، فإنه كالشعر أخاذ للقلوب دعاءً للعظات، إذ أنّ خطبة الجمعة يجب أن تكون آيةً في البيان صورةً لسحر البلاغة إكباراً لموقف النبي

صلوات الله عليه، ولتشيع الإبانة في الناس، وتذيع الفصاحة، لا كما يصنع بعض خطبائنا اليوم حين يتقدمون بالعامي المبتذل والسوقي الممتنع».

هذا قول السيد في منجاءه، ولكنا في معرض النقد الأدبي، لا نجد عظة السيد تصلح أن تكون أنموذجاً يُحتذى في بابها، فهي منقودة من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع معاً.

أما من ناحية الشكل، فإن جزالة الأسلوب، ومتانة الصياغة، وحلاوة الفواصل وموسيقى القوافي ليست مما يخاطب به جمهور المصلين، وأكثرهم من العامة الذين يلتمسون المعنى من أقرب طريق، فإن خفي عليهم معنى غامض، جرّ وراءه ما يترتب عليه من المعنى الواضح، وأصبحت الخطبة شلاء تفقد صلاحيتها الهادفة إذ شذت عما يقتضيه الحال، ومراعاة المقتضى الملائم هي الركن الأول من بلاغة الكلام!.

وإذا كان السيد يعيب على بعض الخطباء المعاصرين في القرى والريف عاميتهم المبتذلة وسوقيتهم الممتعة، فلن يكون علاج ذلك بالجزالة العالية، والرصانة القوية والجمال المقفاة، فتعلوا بما نسوق على الأذهان الكليّة، ونكون بذلك قد استشفينا من داء بداء، وتحوّلنا من النقيض إلى النقيض دون أن نلجأ إلى الوسط وهو خير الأمور من منطلق السداد! فعظة السيد من ناحية الشكل تواجه بالاعتراض كلّ الاعتراض، حين نجعلها أنموذجاً لخطبة المنبر، أما إذا نحوّنا بها منحي المقامة البديعية المتطورة فذلك موضعها في مجال التقييم، وللمقامة عُشاقها في كل عصر مهما تحيّقها المشتطون من النقد.

أما من ناحية الموضوع فعظة السيد القايّاتي تجدّ الاعتراض القويّ أيضاً، لأنها لم تعالج موضوعاً واحداً، تُحلّل عناصره وتُشرح بواعثه، وتسوق في التدليل عليه ما يُقنع العقل من البرهان، ويُرضي العاطفة من القرآن والحديث، بل اشتملت على أغراض متناثرة من التباكي على الفضيلة، والدعوة إلى الإحسان، والنعي على العامة والخاصة، بما يقترفون من الفسوق والعقوق، والغش والخداع، وأكل الربا ولعب الميسر، وشرب الخمر، وبما يلمس من ألوان التبرج والابتذال، وينجم من الشجار والخلاف، والاعتصام بالمظاهر الجوفاء، والشح بالمال والجاه!.

أقول: إن الخطبة قد حشدت أغراضاً متناثرة، لا تتأتّى بها موعظة هادفة، وهذا

بعضُ ما نُؤاخذ به كثيراً من خطباء المنابر، حين يحشدون في نصف ساعة أوامر تدعو إلى الصلاة والزكاة والحج والأمانة والصدق والوفاء، ونواهي تزرع عن الغش والكذب والزنا والربا والميسر والخمر، مع آيات وأحاديث تُساق دون تمهيد موجّه، أو رابط محكم، والسامع - جاهلاً وعالماً - يمتعض مما يتكرر في كل خطبة، لأنه لا يجد الجديد!

على أن السيد قد أرخى لبيانه العنان، فأطال في غير مطال، إذ ألمّ بحديث الفواتن المتبرجات في مثل قوله: «وحسبك كل لعوب ماجنة، تخطر في زِيّ مريب إلى حبيب، تتعطر وتخطر، والقلوب تتفطر، وتتمايل وتتأود، والصدور تتوقد، وتبسم، والقلوب تتضرم»، فهذا وصف إن قيل في رسالة أدبية، أو قصيدة شعرية أو مقالة اجتماعية، أو قصّة عاطفية، فما يبعد عن موضعه! أما أن يقال بهذا التحليل الكاشف على منبر في حديث الجمعة، فما أظنه مما يحسن إذ ذاك، وفي استطاعة الخطيب المنبري أن يصف المتبرجات بما يغض المستمعين في التبرج، ولكن على غير هذا المنهج البعيد!

على أننا - مع ما ألحقناه بالخطبة من نقد موضوعي - أردنا أن نعرض قبل كل شيء على القارئ نموذجاً أدبياً لإنشاء السيد القاياتي، ليعرف به مكانه من مدرسة الشعر المنثور، التي برع من أعلامها المويلحي والبكري وناصر، وغيرهم! ولئن وُجّه إليها الاعتراض كخطبة منبرية، فإنها تسلم من النقد كتحفّة فنية، تنحو منحى المقامة في التعبير الأدبي، وهي بعد إذا لم تُقنع سامعها على المنبر، فقد أرضت قارئها في الصحيفة! وإذ لم يذكر بها القاياتي خطيباً مرغوباً، فقد ذكر بها السيد أدبياً موهوباً! وهو الأديب كل الأديب! ولنا عودة إلى أدبه في غير هذا المكان.



الدكتور زكي علي الداعية الإسلامي المهاجر

- ١ -

تحتاجُ المكتبة الإسلامية إلى سِفَرٍ قِيمٍ، يرصد تاريخ نَفَرٍ من المجاهدين المهاجرين في سبيل الله، حين آثروا الغربة عن الوطن العزيز، وفيه الأهلُ والمنصب والرخاء، إلى ديار الغرب في أوروبا والأمريكيتين، لينشروا الحقائق الصادقة عن الإسلام بين قوم أعدوا المدارس والمؤتمرات والجامعات لتشويه محاسنه وإظلام وجهه، رحل هؤلاء تاركين الأهل والمنصب والثراء، إلى حيثُ العملُ الشاق، والجهد المرهق، والرزق الشحيح الذي يدفع إلى الصوم أحياناً، حين لا يجد المجاهد المهاجر ما يأكل.

هؤلاء في حاجةٍ إلى سِفَرٍ ناصع يسجّل أعمالهم الشريفة، لتكون أمثلةً صادقة للقدوة المناضلة، والإيمان الحافز، وهم أولى بذلك من نَفَرٍ يتمتعون بالمغريات من الطيّبات في بلادهم، ولا يعملون عملاً إلا إذا أجروا عليه من مال الدولة، ثم هم يسعون إلى تخليد آثارهم المحدودة في كُتُب يطالعها الناس، فلا يجدون ما يبهر، ولكنها تُكرَّر وتتوالى طبعتها، حتى تُحدث نوعاً من التأثير الملحّ الدائم الطرق، ولكن عند من؟ عند من يُصدّقون كل حرف مكتوب! .

أقولُ ذلك وفي ذهني سيرةُ المهاجر المناضل الدكتور زكي علي، وقد كان طبيباً، ينتظر الغد المأمول في بلده، ثم سافر ليتّم تعليمه في بعثة أوروبية، ولكنه وجد الإسلام محاطاً بعداوات وإحْنٍ، فحيثما قرأ أو سمع لا يجدُ غير الافتراء والإرجاف، أفجوزُ له أن يسكت عما يسمع، وأن يرى نَفَرًا من المسلمين يزاملونه في الاغتراب، وفيهم من يصدّق بل من يصفق، وفيهم من لا يكثرُ، وكأن الأمر لا يعني كيانه الحيوي في أشرف مناحيه؟ .

لن يكون الدكتور زكي علي من هؤلاء ولا من أولئك، ولكنه سيكون من نفرٍ استحبوا الشقاء على الراحة، والعذاب على النعيم، إذ دقت ساعة العمل تدعوه أن يحقّ الحقّ، وإذا كان قد درس من الطب ما يكفي، وإذا كان قد نال في تخصصه درجة عالية، فليس بعد دينه شيءٌ يحرص عليه! وعليه أن يكتفي بما حصل في مهنته لينتقل من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، في غير جلبة أو ضجيج.

لقد كانت الصحف العربيّة تتحدّث عنه بين الفترة والفترة، حديث من ألف الكتب الإسلاميّة، وعقد المؤتمرات الشرقيّة، وبنى المساجد الجامعة في عواصم الغرب، فتدفعُ بي إلى تتبّع آثار الرجل.

ومن توفيق الله لي أنّي راسلت بعض من أعرفهم في موطن إقامته بسويسرا، فأخذ يُواليني بمجموعةٍ من المقالات تُعرّف به، وبمجموعة من الكتب ألفها مُتحدّثاً عن مزايا دينه، وراداً شبهات المرجفين، وبعده صُور له في مؤتمرات متكرّرة، حتى احتلّ الرجل في نفسي منزلة أي منزلة، فدفعني الشوق إلى مراسلته، وأنا أتهيّب ذلك، ضناً بوقته أن يضيع في غير الأهم الأولى، ولكنّ نعمة الله قد غمرتني بالحسنى حين توالث رسائله إليّ تباعاً فشفت غليلاً، وأسعدتني بقراءتها، فكنت أعيدها مثني وثلاث ورباع، وأقرأها لأستفيد الجديد كلما قرأت، وكان يُخيّل إليّ أنني أحادثه، وأني أراه رأي العين بجسمه دماً ولحماً، حين أقرأ ما يكتب إليّ، حتى ليتحقق معي قول الشاعر بالنسبة إليه:

يمثلك الشوق الشديد لناظري فأتطرق إجلالاً كأنك حاضري

وفيما أرسل إليّ قبل أن أتشرّف بمراسلته كُتِبَ عن رابطة الثقافة الإسلاميّة (بفينا) - وقد أسّسها الدكتور زكي قبل أن يرحل إلى جنيف - وبه نبذة عن أعمال الرابطة التي تأسست في ١١/١٠/١٩٣٢م، وكلمة عن حياة رئيسها المؤسس الدكتور زكي علي، جاء فيها:

«وُلد الدكتور زكي علي ببلدة إنشاص البصل بمديرية الشرقية، في أوائل سنة ١٩٠٥م، ونشأ نشأةً دينيّةً، إذ تلقّى دراسته الأولى والابتدائيّة والثانوية بالزقازيق والقاهرة، ولما قامت الحركة الوطنية المصريّة في مارس سنة ١٩١٩م وهو بالمدرسة الخديوية انضمّ إلى الشباب العامل في صفوفها، ونُشرت له أول مقالة وطنية في جريدة النظام، تحت عنوان (في سبيل الاستقلال) ثم التحق بمدرسة الطب

المصرية، ونال منها إجازة الطب في يناير سنة ١٩٢٧م، وعُيّن بعد ذلك طبيباً بمستشفى القصر العيني، وكان معروفاً في محيطه، لأنّه دأب على نشر مقالاته في الصحف وهو في سنّ الخامسة عشرة حتى التحق بالقصر، دون أن ينقطع عن تدبّيج مقالاته.

وفي سنة ١٩٢٨م انتقل طبيباً لشركة الزيوت الإنجليزية (شل) بالگردقة على البحر الأحمر، وهناك ساءتْه حالة الظلم الصارخ، الذي يعانيه العمال المصريون من تسلّط الشركة، فعمل على ردّ حقوقهم، وكتب المذكرات المطالبة بإنصافهم، حتى ضاق به القائمون بالأمر، فقرّروا استبعاده إلى وظيفته بالقصر العيني، فافتتح عيادة له بالقاهرة، وحنّ إلى موطنه بالشرقية، ففتح عيادةً أخرى ببردين قرب مسقط رأسه، وكان يحدّد لها أياماً من الأسبوع.

ومع جُده الموزع بين العيادتين، لم يترك البحث العلمي، فألّف رسالة في سنة ١٩٣١م، تحت عنوان: (الطب العربي وتأثيره في أوروبا) ونشرها بمصر، ثم سافر إلى فرنسا في نوفمبر سنة ١٩٣١م للتخصّص في فرع دقيق من فروع الطب، فانتخب عضواً في جمعية تاريخ الطب الفرنسية، ونشر عدة رسائل باللغات الأجنبية في باريس وفيّنا وبرلين عن الطب العربي، ورأى من الأولى والأهم أن يتحدّث عن الإسلام في قوم ينكرون له كل فضل، فأخذ ينتقل في عواصم أوروبا، ليجتمع بالمسلمين النازحين والمقيمين متحدّثاً عن وجوب العمل الدائب لإيضاح رسالة الإسلام، ومُلقياً عدة محاضرات عن ماضي الدين وحاضره، وأمام ما يتطلبه الجهاد الشاق من عمل، ترك مهنة الطب حين ضحّى بوظيفته التي بُعث لتثبيتها علمياً بدرجة علمية أرقى من باريس وعكف على الجهاد، فبدأ بتأسيس الرّابطة في فيّنا، ودعا إلى عرض قضايا الأمة العربية في مصر والشام والعراق والمغرب، عاملاً على التحرر النهائي من الاستعمار الأوروبي.

هذا ما جاء في الكتيّب الصغير، وقد أُلّف سنة ١٩٣٢م، أي قبل أن ينتقل إلى سويسرا ليستقرّ بها، مُناضلاً مكافحاً، إذ رأى ضوء الحرية بهذا البلد المحايد أشدّ سطوعاً، وأهدأ مراقبةً وسؤالاً، فأثّرهُ واجتباها.

أما انتقاله إلى سويسرا فقد كان باقتراح الأمير شكيب أرسلان زعيم المجاهدين في أوروبا، إذ لمس من نشاطه الإسلامي ما دعاه إلى مُجاورته في جنيف، وحَسناً

فعل، فإن نشاط الدكتور العلمي بهذا الوطن قد واكب نشاطه العملي، حيثُ نظر فوجد هجمات التبشير تغزو المسلمين في ديارهم، حتّى في مصر موطن الأزهر والعروبة والإسلام، كما قرأ أن المسلمين في تناقص مستمر، قرأ ذلك لمبشّر كاذب نشر إحصائية مخطئة، فدعاهُ ذلك إلى البحث عن أحوال المسلمين في شتّى ربوع البسيطة، وأن يثبت بالدليل العلمي والإحصاء الرسمي؛ أن المسلمين في ازدياد، لا في نقصان؛ لذلك عمل على تأليف كتاب (الإسلام في العالم) ليُثبت بالإحصاء الدقيق كذب هذا الافتراء، وكان للكتاب صدئٌ مجلجل في العالم كله، وبخاصّة في مصر والهند، حيثُ أفردت المقالات الوافية لتحليله والإشادة به.

وقد تحدث المؤلفُ في صدر الكتاب عن شيء من سيرته، حيثُ أعلن أنه حين ابتعث إلى أوروبا لم يكنْ له مقصد غير دراسة الطب، لكنّه اكتشف جهلاً مطبقاً عن الإسلام في كلّ مكان قصده بالغرب، وتشويهاً متعمداً لكل حقائقه التي ينطق بها القرآن صريحاً دون لبس، ثم تهجّماً فاحشاً على الرسول الأكرم محمد ﷺ، لذلك وجد من الضروري أولاً الإلمام الموجز الدقيق بحياة النبي الكريم، كما فعل سير أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، حيثُ مهّد لكتابه ببحث في سيرة الرسول، لا يتمّ الحديث عن الإسلام إلا به.

وفائدةُ ذلك أن يربط القارئ المحايّد بين سيرة نبي الإسلام وما جاء به من تعاليم، ليراه صادقاً كلّ الصدق في اتباع ما جاء بالقرآن، لأنّ بعض الدّاعين إلى الفضائل ينادون بها في إلحاح، وهم في أعمالهم يُخالفونها كل المخالفة، ومثلُ هؤلاء يخفقون في نشاطهم القولي لأنهم مراؤون، فإذا أشبع الحديث عن نبي الإسلام تعرّض للإسلام من حيث هو نظام اجتماعيّ، يربط بين الطبقات ويوحد بينها، ومعمّده في ذلك القرآن الكريم، لأنّه الأساس الأول للبناء الإسلامي الوطيد، من حيثُ أنه قانون راسخ لدين اجتماعي مدنيّ متحضر خلقي تشريعيّ سياسيّ، وهو المسيطر على المُسلم الحقيقي في كل اتجاهاته، يراه قبلته التي لا يحيد عنها.

وهكذا كان توضيحُ الإسلام عن طريق الإسلام صدمةً للذين افتروا على الدين الكاذب في أوروبا، فجعلوه دين نزقٍ وشهوات، بل جعلوه دينَ تثليث في بعض

كتاباتهم، ليقولوا: إنه نقلُ التثليث عن المسيحية، ولا أدلّ على البهتانِ من هذا الافتراء.

وقد أشبع الكلام عن الجزية والخراج، ليردّ على من قالوا بأن الدين الإسلامي يستبيحُ أموال الناس، لأنّ الجزية في قدرها المحدود فرضت نظير ما يقوم به المسلمون من الدفاع عن من يلوذون بهم، فإذا دافعوا مع المسلمين في معركة ما سقطت عنهم، وتاريخُ الإسلام في صدر الفتوح شاهدٌ على ذلك! ولهذا اتّسعت صحف الكتاب لمواقف خالدة من سير القادة في أطراد النمو الإسلامي؛ حتى جاءت عصور الضّعف، وتعرّض الإسلام لإعصار رهيب من ناحية المشرق، حيث هجم التتار والمغول على الحضارة الإسلامية، يُريدونها بربريةً متوحشة، وحين هجم الصليبيون من الغرب لينقلوا عن الإسلام حضارته التي أعوزتهم في حياتهم القاسية، ثم انتبه الغرب على صوت الإسلام بالأندلس، والاختلاط بالمسلمين في الحرب الصليبية، فبدأت دورة نهضته حين بدأ النهوض الإسلامي في الانتكاس.

ويلي ذلك حديثٌ عن الإسلام في أوروبا، ومن يتحدّث عن ذلك غيرُ خبير ذكي كالدكتور زكي علي؟ إذ لمس وشاهد عن عيان لا عن قراءة وإخبار، محللاً ما رآه من دواعي التهجم، ومقرراً قواعد الإسلام الأصيلة في ضرورة الارتباط بين السياسة والدين، ليتعاونوا معاً في ميادين الحياة؛ وأهمّها ميدان الاستقلال السياسي، والاستقلال الاقتصادي!

ولعمري كيف استطاع الدكتور أن ينهض بهذه البحوث الدقيقة، وقراءاته الإسلامية لم تتجاوزُ سنوات تُعد على الأصابع!

إنّ الحافز المستفز قد جعل أيامه الأولى في فينّا وجنيف عملاً متواصلاً بالنهار، وقراءةً دائبةً بالليل، حتى اهتدى إلى صخرة صلبة من يقينه الإيماني، وإدراكه العلمي، ولم يكن المؤلف مهاجماً منقراً في كتابه، بل كان داعية وفاق ووثام، حين تساءل في ختام بحثه قائلاً: هل يمكن إيجاد التعاون بين الإسلام والغرب؟ وقد أجاب على السؤال بالإيجاب متفائلاً! كان ذلك منذ ستين عاماً وأكثر، ومرورُ هذه الحقبة بشرونها الكثيرة تجعلني في ظنّ عكسيّ لهذا التفاؤل، فقد عُقدتُ عدة مؤتمرات بين أعلام المسيحية والإسلام على فترات متوالية، وكلّها تدعو إلى السلام والوفاق، وما ينصرم الحفل حتى يُشعل الغربُ دسائسه، وكأنّ هذه المؤتمرات

شعارٌ لتنفيذ المؤامرات، وقد ضجَّ الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود، فرفض حضور هذه المؤتمرات التي تقرر ما يُسرَّعُ الغرب إلى نقضه دون وفاء.

كما كتب الكاتب الباحثة الأستاذ محمد لطفي جمعة عن هذا الكتاب القيم بحثاً ضافياً في مجلة (الرابطة العربية) (مايو سنة ١٩٣٨) في فصلين متعاقبين، لخصهما الأستاذ الباحثة أنور الجندي في كتابه (مفكرون وأدباء) تلخيصاً دقيقاً، وقد قال فيه^(١):

«إنه لم يضع كاتبٌ حديثٌ ولا قديم بلغه غير لغته كتاباً على النمط العالي كما صنع الدكتور زكي علي، نزيلٌ جنيف وخادم العلم والوطن والملة، وإذا كان هذا الرجل الفذ لا يزال في منتصف العقد الرابع كما علمنا من بعض عارفيه الثقات، فلا يعلم إلا الله ما يصل إليه بعد عشرين عاماً من الدرس والتنقيب والتأليف، فهو يمتاز قبل كل شيء بالصدق والأمانة في النقل، كما يظهر ذلك في الفضلَيْن اللذين عقدهما لحضارة الإسلام، ولتوسُّع الإسلام، وامتداده ونفوذه، ويمتازُ بخلة ثانية نفيسة هي قدرته على سرعة الإلمام بحقائق العلم، ووقائع التاريخ، وسهولة هضمها، وصياغتها في أفضل قالب وأبلغه وأوضحه، وقد دلَّ بكتابه في الإسلام على قدرة في التأليف بالإنجليزية بدرجة أسلوبه العربي الرائع».

وقول الأستاذ محمد لطفي جمعة: «ولا يعلم إلا الله ما يصل إليه بعد عشرين عاماً» يتضمَّن ظناً حسناً تحقق فعلاً، إذ توالى بحوثه العلمية الرائدة في مجال التذكير بفضل الإسلام على الحضارة، وفي مجال كشف القناع عن الخداع الاستشراقي الذي يلبس مسوح العلم وهو من النزاهة بمكان بعيد، وقد كان حرصه التام على اكتمال الحقائق العلمية يدفعه إلى الرجوع إلى ما كُتب من قبل في التاريخ العلمي الإسلامي، ليكمل النقص، ويزيد فيما يقدِّم الصورة الصحيحة بعد مزيد الاطلاع، أذكرُ أنه ألقى محاضرة في مدريد عن (الطبَّ العربي وتأثيره في مدينة أوروبا) كانت مُقنعة لمن سمعها، ولكنها لم تتضمَّن كلَّ ما يقال، فاضطر إلى مُعاودة البحث من جديد، وأصدر كتاباً حافلاً عن الموضوع ذاته، يتضمَّن المحاضرة، وما أضيف إليها مما أثمره الاطلاع الفاحص الدقيق.

(١) مفكرون وأدباء، للأستاذ أنور الجندي، ص ١٠٦.

وقد بدأ ببحث موجز عن هجرة الطائفة النسطورية تحت وطأة الاضطهاد البيزنطي إلى فارس، وإقامتها في (جند يسابور) حيث أنشأ النازحون مدرسة تعدّ ينبوع الأول للطب العربي، إذ وفد إليها بعض أطباء العرب، ثم تابع الباحث كلامه عن اتصال العرب باليونان منذ عهد خالد بن يزيد الأموي، حتى جاء العصر العباسي فاحتضن النسطوريين، وفتح الباب الواسع لترجمة آثار اليونان، ومن بينها الكتب الطبية، وقد ضاعت أكثر الأصول التي تُرجمت عن اليونانية، ولم تبق إلا الترجمة العربية...

وهكذا امتدّ الحديث عن الجهد العربي بإفاضة شافية، بحيث كان الدكتور زكي علي سابقاً لكثير ممن اقتفى آثاره في هذا المجال، وهم باحثون فضلاء.

-٢-

ومما يؤسف حقاً أن الدكتور زكي علي كان يرسل الجرائد المصرية ببعض الأنباء التي تخص المحيط الإسلامي، راجياً أن تكون موضع الدراسة من المهتمين بقضايا العالم الإسلامي، فلا تنشر الجرائد ما يبعثه إلا في النادر، وهي تغصّ بأخبار المطربين، ومن تسميهم النجوم في كل بقاع الأرض، وقد كانت جريدتا اللواء والمؤيد في أوائل هذا القرن تفسحان صفحة يومية تحمل أخبار العالم الإسلامي، ولها قراؤها الذين يتهافتون على مطالعتها مستزידين.

ثم في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى أخذ الحديث عن بلاد الإسلام في هذه الجرائد يتضاءل وينكمش، بل رأينا الأستاذ سلامة موسى يكتب متعجباً من عقلية مصطفى كامل، الذي كان يُعنى بهوم المسلمين في الهند واليابان، ويستنكر أن يُشغل القارئ المصري نفسه بتتبع أنباء أخيه في العقيدة والدين!

في هذا الجو العابس ضاعت مقالات الدكتور زكي علي ومن ينهج نهجه، ولكن أفراداً يعدّون على الأصابع قد احتفلوا بنشاطه، وتحدّثوا عنه مكبرين، وفي طليعة هؤلاء الأستاذ الدكتور مختار الوكيل، إذ كانت له بالدكتور صحبة في سويسرا، وشهد نشاطه الجَمّ، فأعجب به، ووالى الحديث عنه، وتحت يدي مقال نشره بجريدة الأخبار، قال فيه تعليقاً على كلمة للأستاذ أحمد أبو الفتح بشأن المجاهد

المهاجر زكي علي، قال فيها أبو الفتح^(١):

«أرى من الواجب أن أذكر ما يقوم به العالم الجليل الدكتور زكي علي، الذي يُقيم في جنيف منذ أكثر من أربعين سنة، وقد آثر هيئة التقشف، فهجر مزاوله الطب، ليكرّس نفسه للرد على كل سؤال حول الإسلام، وللتصدي لكل تشويه، وذلك بنشر الحقائق في الصحف المختلفة».

قال ذلك الأستاذ أحمد أبو الفتح، فكان مدعاة للدكتور الوكيل أن يقول من مقال رائع، بعد أن عرض لذكرياته معه في سويسرا: «لاشك أن للدكتور زكي علي فضلاً على الحركة العربية والإسلامية في رُبوع سويسرا^(٢) والنمسا وألمانيا وفرنسا، وغيرها من البلاد الأوروبية، فهو كما قال الأستاذ أبو الفتح ينشرُ المقالات والأبحاث الطوال شارحاً حقيقة الفكر الإسلامي، وكان يدرّس الآداب واللغة العربية في جامعة جنيف، وأفادت منه أجيال من رجالات سويسرا في هذا المجال، وكثير منهم تبخّر في دراسة الفكر الإسلامي، واهتدى على يديه إلى الطريق المستقيم.

ولعلّ كثيراً من الناس لا يعرفون الكثير عنه، ولهم العذر لأنّه لا يسعى للشهرة، بل هو من أحرص الناس على الكتمان، وعيش الخشوع والاعتكاف والصوم، ومثل ذلك نادرٌ في هذا الزمان، ومع ذلك فإن آراءه قد انتشرت بين الشباب في سويسرا وغيرها من بلدان أوروبا، ومؤلفاته كذلك، وأشهرها كتاب من أعظم ما أصدرته المطابع في أوروبا في العهد الأخير، كتب باللغة الفرنسية سنة ١٩٧٣م، تحت عنوان (هذه هي الشعوب البيضاء)».

أمّا عيشة التقشف فظهر بوضوح في مسكنه الذي يتكوّن من حجرة استقبال للزائرين، وغرفة مطبخ هي أيضاً مكتبته التي تجمع كلّ ما يقتنيه، كما أخبرني في بعض رسائله، وقد عرضتُ عليه أن يأذن لي بأن أتحدث مع الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الأزهر حينئذ، كي يقوم بطبع مؤلفاته في سلسلة مجمع البحوث الإسلامية فيصله بعضٌ ما يُساعده، ولكنّه أبى وحذّرني قائلاً أنّه يأخذ معاشاً

(١) جريدة الأخبار، ٢٤/١٢/١٩٧٨م.

(٢) جريدة الأخبار، ١٤/١/١٩٧٩م.

متواضعاً من الدولة السويسرية تبلغه حاجته ببعض التدبير، وهو به قنوع.

وقد قال إن ممّا يكاد يتبرّم به أن القسس الذي يحضرون لمناقشته في أفكاره الإسلامية، لا ينتقلون من فكرة إلى فكرة، بل يشغلهم أمر واحد يظلّون يطيلون الحديث عنه مُكرّراً في السؤال، فاضطرّ إلى التكرار في الجواب على ضجر، وكنتُ أفهمهم ضيقي بذلك فيتضحكون، وكأنّهم يصرون على الحديث في غير ما يجدي، ويتساءل الدكتور: ولماذا إذن يأتون؟ وقد قال له بعض القسس: إنه جعل من أفكار الدكتور بعض عظاته في يوم الأحد، فقلتُ خيراً، ولكن لم أر ما يدلّ.

هذا وقد وقع تحت يدي عددٌ قديم من مجلة (فتى العرب) التي كانت تصدر يومية في دمشق، وقد صدر بتاريخ (١٤/٥/١٩٣٤)، فوجدتُ به مقالاً تحت عنوان (رابطة الثقافة الإسلامية في فينا)، يقول فيه كاتبه الأستاذ إحسان سامي حقّي من أدباء الشام المجيدين متحدثاً عن (رابطة الثقافة الإسلامية) التي أنشأها الدكتور:

«لقد رفض الدكتور زكي علي الرجوع إلى مصر مؤثراً الخدمة الدينية لعقيدته، ومثابراً على توضيح تعاليم الإسلام، فدخل في هذا الدين الحنيف على يده كثير من الخلق، ولجُمعيّته مكتبٌ وبهو للمحاضرات مرّة في كل أسبوع، حيث يجتمع له لديه كثير من مختلف الطبقات والشعوب.

ورغم ما يقاسيه الدكتور من شظف العيش وخشونته في تلك الأصقاع، إذ ليس له فيها من معين، ولا يُساعده أحد من الخارج، فإنّه لا يزال مثابراً على جده ونشاطه، ولا أغالي إذا قلتُ: إنني لم أجذ رجلاً يتحمّل ما يتحمّله هذا الشاب في سبيل الخدمة العامة، وليس الخبر كالعيان، وقد علمتُ أنه قضى يوم عيد الفطر، ولم يتناول فيه سوى الخبز الجاف، ومع ذلك فقد كان في هذا اليوم يستقبل المهنيين برابطة الثقافة، ويظهر البشاشة والسرور».

وفي مجلّة الصرخة التي كانت تصدر بالقاهرة بالعدد ٢١ الصادر في ١٩٣٦/٣/٣٠ مقالٌ لزعيم مصر الفتاة الأستاذ أحمد حسين، تحت عنوان (الدكتور زكي علي، أحبّوه يا جنود مصر الفتاة وكرّموه، فإنه مجاهد في سبيل الله والوطن) تحدّث فيه الكاتب الزعيم عن الرجل المجاهد بمثل ما تحدّث سابقوه، وقد قال في ختامه: «هو يكتب ويحاضر، وقد يمضي عليه اليوم واليومان بدون طعام إلا من

كتاب يتصفّحه، ولقد تتمزق ثيابه فيعيد حياكتها بيده، وإني لأدعوه أن يعود إلى مصر كي يأخذ نصيبه معنا في الجهاد».

وقد وصلت الدعوة للدكتور، ولكنّه أثر أن يظل قائماً على ثغره من ثغور الإسلام، يكافح الأعداء بمفرده، ولو كان يطمع في الرفاهية لعاد إلى مصر، وفتح عيادته من جديد، وله اسمه الذي لم يغب عن عارفيه!

ولعلّ أقل ما يجب علينا نحوه بعد أن انتقل إلى جوار ربه، أن نُترجم مؤلفاته، وأن يبدأ كل مؤلف بكلمة عن جهاده، وخطوات دفاعه المستبسل، فذلك كلّ تكريمٍ لنا لا له، تكريم لنا لأننا نقدّم المثل الرائع لكفاح العقيدة والانتصار على الشهوات.

وقد كان زكي عليّ على وعي تام بما ينسجه الاستشراق من أوهام التفرقة بين الشعوب الإسلامية، تحت ستار البحث العلمي المستوعب، فقد حلا لبعض الدكاترة الفارسيّين أن يُلقِي محاضرات عن تاريخ الطبّ والحكمة في الإسلام بإحدى المدرجات العلمية في جامعة سويسرا، فسارع الدكتور إلى استماع ما يقولُ مستبشراً، لأنّ المتحدث مسلم، والموضوعُ عن الطب في الإسلام، ولكنه صُدم حين وجد المحاضر ينسبُ كلّ تقدّم علمي في الطب والهندسة والفلك إلى المسلمين الفارسيّين وحدهم، ويذكرُ أسماء الخوارزمي والرازي والفارابي وابن سينا وسواهم.

فقام الدكتور زكي ليردّ على المحاضر، وقال في بدء حديثه: أنا مسلم أولاً، وأحبّ كل فارسي يدين بالإسلام في القديم والحديث، ولكنّ محاولة قصر العلم على وطن دون وطن يرفضها الواقع الصريح لتاريخ العلم، وأنا حين كتبتُ كتابي عن الطب العربي لم يجُلْ بذهني أن ابن سينا والرازي غريبان عنيّ، والغزاليّ عندي مثلاً كالشافعي، لأنّ الإسلام هو القلادة العظمى لكل من ينتمي إليه، ثم أسهب في هذا المنحى إسهاباً، حفز الدكتور المحاضر إلى تهنئة المعقب بروحه السامية، ووعده أن يسير في نهجه العلمي فيما يأتي من بحوثه، سيّر من لا يفرق بين فارسي وعربي.

وبمناسبة ذكر ابن سينا لقد فوجيء الدكتور زكي علي بحملة طائشة على العرب حين سمح الأتراك لأنفسهم أن يمحو كلّ لفظ عربي من لغتهم، وأن يشوّهوا تاريخ العلماء من غير الترك، عرباً أم فرساً أم هنوداً، وقد كتبوا مؤلفات عن ابن سينا تجعله تركياً لا فارسياً، وتلك نعمة مريضة من ناحية السلوك الخُلقي، كما أنّها تحدّد

للحقيقة العلمية، فكتب الدكتور زكي علي بحثاً مستفيضاً عن ابن سينا، يدحض الاتجاه التركي، وسارع بنشره في مجلة الرسالة قائلاً في مقدمته^(١):

«في سنة ١٩٣٢ خطر لكاتب هذه السطور بينما كان يقوم ببعض الأبحاث في معهد تاريخ الطب بفيينا أن يُحيي ذكرى طبيب الإسلام الأشهر (ابن سينا) في الوقت المناسب بنشر بعض الرسائل العلمية عن حياته في إحدى المجلات الطبية، وجرى بيني وبين الأستاذ (ماكس نويبرجر) - وهو من أشهر علماء تاريخ الطب - حديث في هذا الشأن، فلفت نظري إلى رسالة لأحد الأطباء من الأتراك الكماليين، حاول فيها أن ينسب ابن سينا إلى العنصر التركي، تمشياً مع نكرة الجنس التي تغلغلت في تركيا الكمالية، وشوّهت في كثير من الأحيان وجه الحقائق العلمية، تبريراً لغاية قومية.

وقد نشرت الرسالة في أحد أعدادها في الصيف الماضي نبأ مؤداه أن جامعة استنبول احتفلت بإحياء ذكرى ابن سينا أنبغ طبيب في الإسلام، ولما كان ابن سينا فارسي الأصل فقد أراد الكماليون بعملهم هذا تجريده من فارسيته وإقامة الدعوى الباطلة على أنه من الجنس التركي، وفي هذا افتيات على التاريخ والعلم، لا تبرّره العصبية الجنسية».

ومضى المقال يعرض حياة الطبيب الفيلسوف ذا كراً مولده ونشأته وتنقلاته، ليكشف الادّعاء التركي الزائف، ثم خصّ نبوغه الطبي باستيعاب شافٍ يُفصح عن مآثره، عارضاً خلاصة دقيقة لما اهتدى إليه من العلاج المبتكر، مُشيراً إلى طائفة من كتبه التي نُقلت إلى اللاتينية بأوروبا.

وأنا أعجب لمن يفخرون بهولاًكو وتيمورلنك وجنكيزخان، ويختلقون لهم مزايا منتحلة غير البطولة، وكلّهم شرير طاغية، ثم يُحاربون أسماء أبي بكر وعمر وصلاح الدين وخالد بن الوليد!

أما الشجاعة كلّ الشجاعة فهي مهاجمة الليث المتحفّز في عرينه دون مبالاة، وهذا ما فعله الدكتور زكي علي حين كتب مؤلفه الرائع (الشعوب البيضاء) لأنه أعلن بوضوح أن التدين في أوروبا المسيحية كاذب، وأن الفرد منهم يذهب إلى الكنيسة كلّ أحد، ولكنه لا ينفذ شيئاً من تعاليم المسيح، وقد قامت مذابح الحربين

(١) مجلة الرسالة، العدد ٢٤٧، ٢٨/٣/١٩٣٨ م.

العالميتين في أوروبا وفقاً لضراوة متوحشة، جعلت الأوروبي المسيحي مفترساً ضارياً، يأكل لحم أخيه، ولا يغني هذا القول عن قراءة الكتاب بأسلوبه الحار، ونفسه المشتعل، وسأنقل منه ما يدل على قوة منطقته، وإلمامه بالواقع الأوروبي الأسود، حين يسرد مآسيه، وهم هناك يحاولون تجميله بادعاء حضارة متقدمة، وهذه الحضارة هي التي سببت الخراب للعالم جميعه، وثار عليها الأحرار من الأوروبيين قبل أن ينتبه الشرقيون إلى نكباتها الفواح.

يقول الدكتور زكي ما ترجمته: «لقد بدأت منذ إقامتي في جنيف أراقب تطوّر العالم جميعه، وبخاصة العالم الغربي، فشهدت وأنا في (فيينا) مولد النازية في ألمانيا، كما راقبت نشاط الفاشية في إيطاليا، ودرست الحركة الشيوعية في روسيا، وعلاقة أوروبا بغيرها من الدول خارج هذه القارة؛ فرأيت الشعوب البيضاء تكنّ العداء الخالص للشعوب الملونة، وما احتربت فيما بينها إلا لبيتلغ المنتصر في حربه هذه الشعوب المظلومة، بعد أن يكون قد نحى الشعوب المنهزمة عما يُريده من الغنائم والأسلاب، وهذا ما قصده البلاد الرأسمالية في أوروبا حين خافت نفوذ ألمانيا وأشياعها، واعتبرته مهدداً مناطق نفوذها.

أما ادعاء هذه الشعوب تمسكها بالمسيحية فباطل لا ينهض له دليل صحيح، لأنّ الإيمان الحقيقي بالله يجب أن يبقى راسخاً في النفس، ولكن المسيحي الأوروبي يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، فيؤدّي صلاةً رسمية لا تتصل بمشاعره، لأنها لا تنهائه عن المنكر حين يقترف المظالم في حق الشعوب المجاورة، فضلاً عن الشعوب النائية، وإذن فالعاطفة الدينية التي يدعو إليها المسيح لا وجود لها عند المنتسبين إلى المسيحية في أوروبا جميعها.

وإذا كان التقدم الصناعي قد اكتمل عند الغرب، وتطوّر تطوراً هائلاً، فإنّ الذي يرقب هذا التطور يجده في مدّه الاستثماري قد أصبح إلهاً يُعبد، يُضحى في سبيله بكل تعاليم الأديان، فالعلم الصناعي هو الإله المعبود اليوم هناك، إذ تحول المسيح لديهم إلى عقل إلكتروني، فأصبح المصنع هو الكنيسة، نعم إن الكنيسة مفتوحة الأبواب، ولرجالها احترامهم الخالص بين الأفراد، ولكن أين تعاليم المسيح!!».

كما أوضح المؤلف بما لا يدع أدنى خفاء أنّه يقصد بالشعوب البيضاء بلاد أوروبا

وأمریکا جميعها، لأنّ رأسمالية انجلترا وفرنسا وأمريكا لا تختلف في ابتزازها عن النازية والشيوعية والفاشية، ويزداد الخطر في العالم الشيوعي ضراوة، لأنه يجاهرُ بالكفر الصريح!

وقد كان المؤلف متفائلاً حين قال في مقدمة كتابه، بعد أن وضح ما شهده لدى القوم من جهلٍ بحقائق الإسلام، وقيام الأفكار الخاطئة عنه في الأذهان هناك، وكأنها حق لا محيد عنه، يقول المؤلف: «وبوصفي وطنياً (أوروبياً) آليت على نفسي أن أساهم في أوروبا بقلمي ولساني مكافحاً في سبيل الحرية والاستقلال بوطني».

وأنا أشهدُ أن الرجل قد كافح كفاحاً مميّناً في نصرته الحرية والدعوة إلى المساواة، واحترام الإنسانية، فبذل في ذلك جهد الجبارة! ولكن هل وُجد من يسمعُ من أولي التنفيذ؟ إن المتعاطفين معه أفراد يُسرّونه بالقول حين يزورونه، والقول وحده لا يكفي.

ومن أجمل ما بعث به إليّ الدكتور زكي علي، من صور الرسائل التي تلقّاها من المشجعين العاطفيين، خطابٌ أرسله إليه شاعر البادية الشيخ محمد عبد المطلب -رحمه الله- حين قرأ كتابه عن الطب العربي، وهو قطعةٌ من النثر البليغ، بُدئت بمقطوعة شعرية رائعة، لم ينشرها القائمون على طبع ديوانه بعد وفاته، وقد كتبها قبل شهرٍ واحد من رحيله، وفيها يقول:

زكيّ اتئذ في طِلاب العُلا	فإنك أدركتها من كَثب
سموتَ إلى المكرمات الكبار	سموّ الزمان إذا ما غلب
وبوأت أسلافك السابقين	بالعلم فوق مدار الشهب

والطريفُ أن الدكتور الفاضل كتب يعرّفني بالشاعر تعريفاً كاشفاً، كأنّ مثله في نبوغه وسبقه يخفى مكانه لدي، وقارئ هذه السطور يجد حديثاً وافياً عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ١٨٠ وما بعدها) فليرجع إليه إن أراد..

* * *

شبلي النعماني علامة الهند ومصلحها العظيم

مما يغيظ النفس أن نجد نفرأ من كتاب التراجم، لا هم لهم إلا تصيّد الأخطاء لمن يتحدثون عنه، ثم لا يحاولون تبرير ما يتّضح فيه وجهٌ صالحٌ للحكم، بل لا يزالون يُعيدون ويُبدئون فيما يتوهمونه من الخطأ، وكأن الدنيا لا تستقر على حال إلا إذا كان هؤلاء الفضلاء من المصلحين أولي نقص!

وقد ناقشني بعض منهم في بعض ما كتبت عن أمثال هؤلاء، فأبنتُ له وجه الصواب في سرد المحاسن، وتسجيل المساوىء مع بيان ملابساتها، ولكنه عَنفٌ بي في القول، وبالع في تشدّده مبلغاً عجبت له! ومثل هؤلاء ليسوا قلةً للأسف، ولكنهم كثرةٌ يحبّون أن يلصقوا المثالب بكرام الناس.

وقد يؤلف فاضلٌ كتاباً ممتازاً فيخطيء في رأي، وأيُّ الناس لم يُخطيء! فيترك الناقد صفحات الكتاب المشرقة ويسلّط الأنظار على خطأ وقع فيه من لا يجلّ عن الخطأ، ويزيد فيعلن لطلّابه في محاضراته أنّ فلاناً هذا مُلحدٌ، أو صنّعة استعمار! وأنّ قراءة كتبه مما لا يجوز! هذا شيءٌ مؤلم حقاً لمستَه كثيراً في حياتي التعليميّة، وكنتُ أعجب لأستاذٍ ينهى طلّابه عن قراءة كتب ممتازة! ويصطنع من الحميّة ما يدلّ على أنّه أدري بنقائص هذه الكتب، وهو عند الناس جميعاً أقلُّ من أن يحكم على فاضلٍ من هؤلاء الكبار! وفي الطلاب أغراؤ يصدّقون الأستاذ لمكانته الوظيفيّة بينهم، ودرجته العلمية التي تسبق اسمه، فيعكفون على قراءة كُتب متأخّرة لا تنهض بقارئها للصواب، متأثرين بما سمعوه! أليس ذلك صدأً عن سبيل الله؟!

أقول ذلك متذكّراً نقاشاً دار بيني وبين أحد هؤلاء عن مقالٍ قرأته للأستاذ الكبير محمد عبد الله عنان خاصّاً بكتاب لشبلي النعماني عن الفاروق عمر بن الخطاب، وسأشير إليه فيما بعد، وفيه ثناءٌ مستطابٌ على المؤلّف، وأنا أعرفُ سلفاً منزلة

الشيخ شبلي النعماني في الإبداع العلمي، كما أعرف أن الأستاذ محمد عبد الله عنان يقتصد دائماً في المديح، ولا يُلقى التقريظ جزافاً، ففوجئتُ بمن يصيحُ في وجهي! شبلي النعماني كان مُدرّساً بمدرسة عليكرة التي أنشأها السيد أحمد خان، وهما موضعُ اتهام من عارفيهم في الهند! وسألتُ المتحدث هل تعرفُ شيئاً عن مؤلفات الشيخ شبلي؟ وهل قرأت كلَّ ما قيل عن السيد أحمد خان، ما بين مؤيدٍ ومعارض! فلم يزد صاحبي على الضجيج المستفز، واتضح أنه لا يعرف غير اسميهما، وغير أنهما اشتركا في مدرسة تعلّم دُروسها بالّلغة الإنجليزية، وتترك لغة الإسلام! هذا كل ما قال.

على أن الأمر ليس أمر هذا المتشنج وحده، ولكنه أمر نفر قرؤوا عن السيد أحمد خان ما خالفَ وجهة أنظارهم، وليس في ذلك شيء؟ فمن منا لا يختلف مع آراء سواه؟ ثم جَسَموا ما قرؤوه وضخّموه، فإذا الرجلُ مارق، وإذا الرجلُ صنّعة الإنجليز! وإذا كان قد أسسَ (جامعة عليكرة الإسلامية) فالجامعة استعمارية، وإذا كان الشيخ العلامة شبلي النعماني قد عدّ من أساتذها حيناً من الزمن، فهو من طراز هؤلاء المنحرفين!!

في ربيع الثاني من سنة ١٣٥٠ هـ حضر إلى القاهرة الأستاذ الداعية «فخر الدين أحمد» من الهند ليلقي في نادي جمعية الشبان المسلمين محاضرةً عن جامعة (عليكرة) بسطتْ جهود هذه الجامعة بسطاً أميناً. وقد قال الأستاذ في محاضرته^(١):

«إن عظمة (عليكرة) تقومُ على شيئين، الأول أنها أعطت الهند المثل العليا في التربية، التي لا بدّ منها لمن يريد أن يعيش، والثاني وهو أهمها أنه لولا (عليكرة) لما كان في الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم، قد يكون بها مسلمون، ولكن لا يابهُ أحدٌ بهم، ولا يقوم لهم في شؤون الهند وزن».

وهذا كلام قد يبدو غريباً، وتزول غرابته حين يعلم القارئ أن المسلمين قبل الاحتلال الإنجليزي قد كان في أيديهم السلطان، فظنّوا أنهم ليسوا في حاجة إلى تعلّم العلوم التي تجلب اليسار وتُدّر الرزق، لأنّ القوة بأيديهم فما يحول دون تملكهم شيء، أما غير المسلمين فقد تعلّموا، ومارسوا وسائل العيش، واتخذ منهم

(١) المتقى من محاضرات جمعية الشبان، ٢/٢٩٣.

المحتلّ أعواناً في المناصب، ونظر المسلمون فألمهم أن يفقدوا الحكم، ثم تضيّع من أيديهم من بعده إدارات البلاد في مرافقها المختلفة لعدم إحاطتهم بأقلّ وسائل المعرفة، وهناك قام السيد أحمد خان وهو من بيت مجدّ، كان أبوه رئيس وزراء وكان جدّه رئيس وزراء، وله همة عالية، وفكر ثاقب، نظر به إلى الداء الأول فوجده أمة المسلمين، إذ لم يحرصوا على التعليم من قبل!

وهنا شمّر مع نفرٍ من ذوي الرأي داعين إلى إنشاء أول مدرسة، ولو في كوخ، وجعلت حركته التربوية تمتدّ حتى صارت المدرسة كليّة، ثم جامعة، وكان موضع الخلاف أنّه اختار اللغة الانجليزية للتعليم، ولم يختار الأردية لغة قومه لقصورها عن أداء كثير من العلوم الحديثة، وقد بدأت الدراسة باثني عشر طالباً ثم أخذت تتسع حتى بلغ طلابها سنة ١٣٥٠ هـ (٢٢٠٠) طالب.

وقد سافر السيد أحمد خان إلى إنجلترا، وشاهد نظم التعليم في جامعتي أكسفورد وكمبردج، واقتبس من نظامهما ما ساعد على ارتقاء التعليم بالجامعة، وساعده في تطبيق الخطة والقيام بالتدريس أعلام من المسلمين والمستشرقين منهم العلامة شبلي النعماني، والدكتور نظير أحمد، وخوجه أطفاف حسين علي، وكلّهم علّم في مادته؛ أما المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد فقد انتفع بزملائه الأساتذة في تأليف كتابه الذائع (الدعوة إلى الإسلام) كما أشار في مقدمته، وهو محاضرات ألقاها على الطلاب، وقد ترجمت إلى العربية في الثلاثينات!.

فإذا كان السيد أحمد خان قد هادن الإنجليز كيلا يقفوا في طريقه التعليمي، فيعوقوا ازدهار الجامعة، فتلك حصافة مفكر، ينظر إلى المسألة من أبعاد كثيرة! وقد قال الدكتور أحمد أمين في كتاب زعماء الإصلاح^(١): «إنه يُشبه في ذلك الإمام محمد عبده حين نادى بإصلاح التعليم عن طريق التربية، مؤثراً عدم الاحتكاك بالمستعمرين». وقد حاول الدكتور محمد البهي أن ينقض ذلك، فما جاء برّد قاطع^(٢)، لأنّ الموقف هو الموقف، ولست في هذا المجال أحبّد مُهادنة المستعمر المحتل، ولكنني أوازن بين أمرين؛ انزواء وجهل، أم انطلاق وتعليم!.

(١) زعماء الإصلاح، للدكتور أحمد، أمين ص ١٢٣.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، للدكتور محمد البهي، ص ١٥٩.

عرفنا كيف دعت الحاجة إلى إنشاء جامعة عليكرة، وكيف قام السيد أحمد خان بأعبائها، وكيف كان الشيخ شبلي النعماني من كبار أساتذتها! وفي ساحاتها الفسيحة ألقى دروسه العلمية بالعربية والأوردية، إذ اختصّ بالجانب الإسلامي، أمّا ما يسمّى بالعلوم الحديثة، فقد كانت الإنجليزية أداتها، وبإتقان هذه اللغة زاحم المسلمون الهندوك في تولية المناصب، وإن كان هوى الإنجليز مع الهنادكة، لأنّهم أسلّسوا قياداً من المسلمين.

على أنّ رسالة الشيخ شبلي بجامعة عليكرة لم تستمرّ إلى آخر المدى، إذ رأى النعماني أن يستقلّ بمدرسة خاصة بعد وفاة السيد أحمد خان، تعكف على دراسة التراث الإسلامي بلغته العربية، حين أنشأ مدرسة مستقلة لهذا الغرض، ولعلّ الأستاذ محمد إسماعيل الندوي قد وضع المسار التعليمي للمسلمين في هذه الحقبة حين قال^(١):

«لقد وجدت في الهند في منتصف القرن التاسع عشر مدرستان، الأولى مدرسة المحافظة على التراث الديني، وكان يتزعم هذه المدرسة الشيخ محمد قاسم، وكان مركزها دار العلوم بديوبند، والمدرسة الثانية مدرسة التجديد وتطوير الفكر الإسلامي، وكان يتزعمها السيد أحمد خان، ومركزها جامعة عليكرة، وقد زادت الفجوة بين هاتين المدرستين اتساعاً وعمقاً بمرور الأيام، واشتدّت الحاجة إلى إنشاء مدرسة ثالثة، وهي مدرسة توفيقية، وزعيم هذه المدرسة معاصر السيد أحمد خان وزميله، محمد شبلي النعماني.

إن شبلي رافق السيد أحمد خان في جميع نشاطه، وحركاته، كما كان رفيقاً له في كلية المحمّدية، ولكن شبلي كان يختلف عنه ببعض نزعاته، فقد كان يؤمن بالتمسك بالتراث الفكري، الذي خلفه أسلافنا، مثل ابن حزم والغزالي وابن تيمية، والشاه ولي الله الدهلوي، وكان يحبّ الوثبات الحديثة في حدود الشريعة، ولذلك كتب عن رجال الفكر والدين وأظهر بطولتهم، وأهدى هذه التحفة للجيل الناشئ».

ثم قال الأستاذ الندوي: «وكذلك لم يتفق شبلي مع السيد أحمد خان في مسالمة الإنجليز، بل كان ينتمي في نزعة السياسية إلى العلماء الأبرار الذين قاموا

(١) مجلة الأزهر: ربيع الأول، سنة ١٣٨١هـ، ص ٣٢٧.

بالثورة الأولى والثانية لطرد الإنجليز من الهند، وانتسب إلى حزب المؤتمر».

بعد هذه المقدمة ذات الإلمام السريع بتيّار الحركة العلمية للمسلمين في القرن الماضي وأوائل هذا القرن، أعمد إلى ذرّو من سيرة الشيخ شبلي النعماني فأقول:

أشار السيد محمد رشيد رضا في ترجمة الشيخ النعماني^(١) إلى أن الشيخ كان تلميذ همّته، حيث لم يجلس طويلاً أمام علماء عصره، ولكنه شدا المقررات الابتدائية متعلّماً، ثم ترك نفسه للتحصيل، فبلغ بجهد الشخصي مبلغاً كبيراً، ودعاه هذا إلى التحرّر من تحفّظات كثير من علماء عصره، لأنّ غالبيّتهم كانت تتّجه في التأليف إلى نقولٍ مُكرّرة، حيث يضعون الشروح والحواشي، ولا يقدرّون على الكتابة المتحرّرة ذات القول المطرّد المستوعب، وهذه الطريقة لا تزيد في المحصول العلمي شيئاً، وإنما تضيف المكرّر إلى المكرر.

أمّا الشيخ شبلي فقد اتّجه إلى التحرير المطلق في المسائل، إذ يفتّرع الموضوع افتراعاً بعد أن يدرسه دراسةً مستفيضة، وهُنا تجتمع لديه العناصرُ ليؤلّف منها كيّاناً مستقلاً، وساعده على ذلك إتقانه اللغة العربية، وبصره بأسلوبها السائغ المطرّد، وحسن الذوق في تأليف المنشور والمنظوم، وليس الشيخ النعماني بواحد في اكتفائه العلمي ببعض التوجيهات الأولى وانفراذه بالتحصيل، فلدينا الأستاذان الكبيران محمد فريد وجدي، وعباس محمود العقاد، قد بلغا الغاية كلّ الغاية فيما أبدعاه من فصولٍ علمية ودينية وتاريخيّة، وهما لا يرجعان في شيء من ذلك كلّهُ إلّا لاجتهادهما الشخصي، وكذلك علامة العرب وحجة الأدب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، حتى ليجوز لهؤلاء جميعاً أن يتمثلوا بقول القائل:

علّمت نفسي بنفسي وهي ناشئة أنا المدرس والتلميذ من صغري

ولعلّ الذي أمدّ أفقه في سبّحه العلمي الطويل، هو المشاركة في استيفاء علوم العصر، إذ كان ذا مشاركةٍ طيبة في العلوم الكونيّة من رياضية واجتماعية كما قال صاحب المنار^(٢)، وهذه المشاركة مع فائدها التخصصية تتيح لدارسها انفساحاً في النظر، واتّساعاً في منهجه العام، إذ تنطلق به من حجراتٍ ضيقة إلى فضاء فسيح،

(١) مجلة المنار: المجلد ١٨، ١/٧٩.

(٢) مجلة المنار: المجلد ١٨، ١/٨٠.

ولكنّ لكل شيء آفته، وآفة هذه الرّحابة أن يقوم من مخالفٍ منهجه من ينكر عليه شمول اطلاعه، وينبزه بالفساد (ويرميه بالكفر والإلحاد)^(١)، وتلك الكارثة حقاً، لا لأنّ قول هذا القائل حق، بل لأنّ نفرأ من الأغرار ينخدعون بهذه التهم فيصدّون عن مؤلفاتٍ قيّمة كانت جديرةً أن تنتقل بعقولهم من مكان إلى مكان.

وقد سمعنا في مصر من بعض من بلغوا مبلغاً كبيراً في المناصب الأزهرية، ولكنهم لم يبلغوا هذا المبلغ في الكتابة العلمية، سمعناه يقول: «لقد عاقني عن أطراد أسلوبٍ وتدقّقه، بحيث أخشى أن أكتب مقالاً في صحيفة أنّني في عهد الطلب صدّقت الحملة المغرضة على أسلوب الأستاذ الإمام محمد عبده، فلم أحاول الاستفادة من تصديّهِ للمناقشات الدينية بينه وبين الخصوم، وعكفت على كتب الحواشي وحدها، ومضى الزمان فلم أجد في نفسي دافعاً لمعالجة أفكارٍ تفد إلى ذهني، إذ لا أستطيع صياغتها على نحو مقبول. وهذا اعترافٌ شجاع، يجب ألا يفقد مدلوله عند الناشئين».

هذا وقد نشرت مجلة المنار ترجمة ثانية للرجل الكبير بقلم أحد أتباعه (الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواني)^(٢)، أضاف بها الكثير إلى ترجمة سابقة أشرنا إليها من قبل، وقد قال فيها: «إن الرجل الكبير ولد سنة ١٨٥٧، وإنه تربّى على درس خاصٍ قام به أستاذه محمد الفاروق، الذي كان ماهراً في العلوم والآداب والهندية، ثم دخل الخدمة الحكومية زمناً قليلاً، ثم آثر أن يتركها ليكون معلماً في جامعة (عليكرة) وارتحل إلى حيدر أباد بعد وفاة السيّد أحمد خان، حيث أسّس بها جمعية علمية، وألّف بضعة كُتب مفيدة، ووضع مشروعاً لكلية علمية تُقام بهذه المدينة، وقد اشتهرت هذه البلدة بالاهتمام بطبع الكتب التراثية في علوم التفسير والحديث والتاريخ الإسلامي حتى سامت عواصم العلم في البلاد العربية، ومازلنا إلى الآن نبحث عن مصادر هامة في كتب الحديث بالذات فنهتدي إليها في مطبوعات حيدر أباد.

ولم يدم طويلاً بها، إذ سافر إلى (لكهنؤ) ليصير عضواً كبيراً في ندوة العلماء

(١) مجلة المنار: المجلد ١٨، ٨٠/١.

(٢) مجلة المنار، مجلد ١٨ جـ ٢.

هناك، وتخرّج على يديه أفذاذ من الفضلاء منهم مولانا أبو الكلام آزاد، والسيد سليمان الندوي، وعبد الماجد الدربايادي وعبد الباري الندوي، والأولان شهيران في العالم الإسلامي، ولكن الآخرين قد باهى بهما من كتبوا عن الرجل، فهما إذن كبيران جليلان، وإن لم أقرأ لهما شيئاً، وفضل هذه الندوة قد امتدّ بعد رحيل الشيخ، إذ أنجبت من الفضلاء من تردد ذكرهم في محافل العلم ومنهم شيخنا أبو الحسن الندوي، والأستاذ مسعود الندوي، والأستاذ أبو الليث الندوي».

ولعلّ النزعة التأليفية لدى تلاميذه قد كانت بوحى منه، إذ لم ينقطع عن التأليف نشرأ في المجلات العلمية وانفراداً بالكتب المستقلة، وكان يبرح موطنه إلى العالم الإسلامي في شتى أقطاره بحثاً عن مصادر تفيده في التأليف الجديّ المبتكر.

وحين عزم على كتابة مؤلّفه الرائع (عمر بن الخطاب)، قام بسياحة علمية إلى مصر واستانبول والشام، إذ رأى من الأمانة العلمية ألا يكتفي بما هو موجود في الهند، وقد أثرت هذه الرحلات ذات الأصقاع المختلفة مناخاً وهواءً في صحته، فظلّ يعاني عقابيل المرض، حتى لحق بربه، وكتاب الفاروق لم يُترجم إلى العربية، ولكنّ الباحث الأستاذ محمد عبد الله عنان خصّه بفصل جيّد قال فيه تحت عنوان (كتاب جديد بالإنجليزية عن حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب)^(١):

«صدر أخيراً بالإنجليزية كتابٌ عن حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة الهندي شبلي النعماني الذي قضى أعواماً طويلة في حياته باحثاً منقّباً في عواصم العالم الإسلامي عن المصادر والوثائق التي تتعلق بحياة أمير المؤمنين عمر، وقد اشتهر العلامة شبلي بين علماء الهند المسلمين، وأواخر القرن الماضي، بتبحّره في العلوم الإسلامية، وفي تاريخ السيرة النبوية، وفي تاريخ العصر الأوّل من الإسلام، وقد وضع تاريخه عن حياة الفاروق باللغة الأردية، ونقله إلى اللغة الإنجليزية العلامة السيد ظفر علي خان، ونُشرت الترجمة الإنجليزية بعناية السيد أشرف ناشر الكتب الإسلامية بـلاهور.

وقد أتيح لي أن أقرأ هذا المؤلّف الجديد عن حياة الفاروق، فوجدتُ أنّه من أقيم وأمتع ما كُتب في موضوعه، وهو يتناول حياة عمر منذ نشأته الأولى في الجاهلية،

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٥، ٢٦/٣/١٩٤٠.

ثم اعتناقه الإسلام، وما خاضه إلى جانب الرسول ﷺ من الحوادث والوقائع، حتى وفاته عليه السلام، ثم حياته بعد ذلك حتى وليّ الخلافة بعد وفاة أبي بكر، وتتبع المؤلف غزوات الفاروق وفتوحاته بعناية، فيصِفُ لنا فتح العراق وفارس والشام وأرمينية، وأذربيجان ومصر، وغيرها من الفتوحات العظيمة التي قامت عليها الإمبراطورية الإسلامية، ويفيض في بعض المواقع إفاضةً ممتعة، فهو يصفُ لنا مثلاً وقائع القادسية وجالولاء، واليرموك وغيرها من المواقع العظيمة وحركات الجيوش فيها وصفاً دقيقاً شائقاً، ثم يتتبع إلى جانب الفتوحات أعمال الفاروق وسيرته حتى مقتله سنة ٢٣ هـ.

ويمتاز بحث العلامة شبلي بنوع خاص من الدقة في تمحيص الروايات والنصوص، وهو محدثٌ بارع يُبدي مثل هذه الدقة في استعراض الأحاديث التي هي في الواقع من أهم مصادره، ومع أن الكتاب يمتازُ بروحه الإسلامية؛ فإنه يمتاز في الوقت نفسه بأسلوبه التقدي المحدث، وحسن العرض والترتيب.

أما أسلوب السيد ظفر علي خان في الترجمة الإنجليزية فيمتازُ بقوة وسلامته، ويرتفع في بعض الأحيان إلى أبدع الأساليب الأدبية والتاريخية الإنجليزية، ويقعُ الكتاب في نيف وثلاثمئة صفحة، قد طُبِعَ طبعاً متقناً، لا يقلّ في جماله وجودته عن أجود الطبعات الإنجليزية المعروفة، وجُلِّدَ تجليداً حسناً وضمّت إليه خريطة جامعة عن الفتوحات الإسلامية.

وكم كانت اللغة العربية في حاجةٍ إلى ترجمة هذا الكتاب؛ لأن اعتماد المؤلف على الروايات الصحيحة متنناً وإسناداً يجعل كتابه مصدراً لا يتطرق إليه الشك، ومن توفيق الله عز وجل أن يُترجم الكتاب إلى الإنجليزية في وقتٍ جرؤ فيه من يقول عن الفاروق عمر أنه الفاتح المستعمر، وأن الإسلام لم يكن لديه خطة في افتتاح الممالك المجاورة لولا اتجاه عمر إلى ذلك منفرداً به، وهو قولٌ وإيه مضحك تنقضه سيرة رسول الله التطبيقية، وأقوال القرآن التشريعية، ومع ذلك يجد من يُردّده، ونحن نعذر الذين في قلوبهم مرض من أعداء الإسلام في أوروبا حين يستجيبون إلى أحقادهم فيسّطرون ما يعتقدون ضلاله، ولكن ما عذر نفر من كتّاب العرب ينقلون الضلال عن هؤلاء!.

وإذا كانت مؤلفات الشيخ النعماني التاريخية قد بلغت حدّ الروعة، فلأنها

جمعتُ بين الاتجاه السلفي في تتبُّع الروايات الصحيحة والاتجاه المعاصر، في نقد كلِّ ما يُروى نقداً علمياً ينتهي إلى حقائق تُعتبر بعد تمحيصها الدقيق من قبيل المسلّمات .

وكان اتصال الشيخ شبلي ببعض أساتذة الاستشراق بجامعة عليكرة، دافعه إلى تعلم اللغة الفرنسية، فقرأ بها كثيراً عن فلسفة الثقافة الأوروبية، ونهضتها الراهنة، وأخذ يوازن بين العلوم القديمة في كُتب التراث؛ مثل علوم المنطق والفلسفة والفُلك، وما تطورت إليه هذه العلوم في العصر الأخير، فرأى الفرق شاسعاً، ومن هنا أخذ يكتب في الصحف الأوردية عن ضرورة تطور هذه العلوم بعد المدد الذي اتّصل بها في علوم الغرب، كما نادى بضرورة تدريس اللغة العربية تدریساً حياً يجعل دارسها يفهم أسرار البلاغة القرآنية، ويقرأ كُتب الجاحظ وابن قتيبة وابن حزم وابن خلدون قراءةً يتعدُّ بها عن أسلوب المتون والحواشي .

أما تدريسُ علوم الاجتماع والاقتصاد والنفس، فلا بد منه، ولا تسَلَّ عن المعارضة الصاخبة التي واجهته في دعوته الإصلاحية، وأعادَتْ له الاتهام السابق بالإلحاد حين كان زميلاً للسيد أحمد خان في عليكرة، وقد رأى أن يُفحم خصومه بأنه شرقيٌّ لا غربي، فسافر سنة ١٨٩١م إلى مصر والأستانة، وقابل علي باشا مبارك، ومحمد عبده، ليأخذ مناهج دار العلوم بمصر، وقد أُعجب بها كل الإعجاب، وكتب في مذكراته ما يفيد بأنها المثل الذي يُحتذى، لأنها تُدرّس القديم بأسلوب الحديث، وكان صريحاً حين انتقد طريقة التدريس بالأزهر كما لحظها عن كُتب في زيارته تلك .

كما دعا بعد رُجوعه إلى الهند إلى إنشاء مدرسة تُماثل دار العلوم بالقاهرة، تأخذُ الصّالح من مدرستي ديوبند وجامعة عليكرة، فتكون وسطاً بينهما، وإذا كانت جامعة عليكرة مهتمةً بالعلوم الحديثة، ومدرسة ديوبند مهتمة بكتب التراث ذات التأليف الحشوي، فإنّ الجمع بين الثقافتين في مدرسة جديدة يقضي على كل تقهقر، وقد وافقت جمعية العلماء على اقتراح الشيخ، وعلى المنهج الذي وضعه مقتدياً بمنهج دار العلوم المصرية، فنجحت الدار الجديدة في أداء رسالتها نجاحاً باهراً، وأصبحت نتيجتها العلمية دليلاً على خطأ معارضيه .

ولم يشأ أن يترك التأليف العلمي في غمرة تنفيذ برنامجه العلمي عملياً بدار

العلوم، بل رأى أن يكتب سيرة رسول الله ﷺ على النمط الدقيق الذي كتب به سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنه تأوّه أسفاً حين ذكر أن علّة رجله تمنعه، وقد ضُربت بالرّصاص خطأ، حين أرادت زوجة ابنه إصلاح البندقية، فقفزت الرصاصة إلى (قدمه) وعاقته عن المسير بعد انتزاعها إلاّ بجهد، هذه العلّة القاسية تمنعه أن يزور المكتبات الإسلامية في تركيا ومصر والشام على نحو ما فعل من قبل، لتأتي الدراسة على وجهها الأكمل، وقد أعلن في الجرائد عجزه عن إتمام مراده.

وهنا تقدمت السيدة العظيمة أميرة بهويال لتحقيق رجائه بأن ترصد مبلغاً كبيراً لمن يُسافر نيابةً عنه لينسخ ما يريد من الكتب، ويحضرها إليه في مقرّه دون احتياج إلى سفر، وتلك همة مشكورة من هذه الأميرة ذات الإحسان الجَمّ، وقد فرح الشيخ بذلك، وأخذ يبحث في جهد جاهد مدّة ثلاث سنوات كانت هي الأخيرة من حياته، ولقي ربّه دون أن يبلغ الكتاب تمامه، وإنما هو أوراقٌ تُسوّد وتتراكم دون مراجعة.

ولا أدري كيف أغفلت ندوة العلماء، وكان روحها المتوثب هذه المسودات، فلم يقم فاضل من فضلائها بجمعها وتنقيحها، على وجهٍ يتيح الانتفاع بها، وإذا كان الموت قد حال دون الانتهاء من البحث على وجه المنشود، فلم لم يُنشر ما كتبه الشيخ، ويأتي من يخلفه في كتابة الباقي أو ينشر دون تكملة، فيكون بنقصه القهري أذعى للترحم عليه والأسف على رحيله قبل التمام..

وهنا لا بُدّ لي من كلمةٍ منصفة للرجل، ولمن نقده أيضاً، لأنّ الحق فوق كل اعتبار، ذلك أنه قرأ كتاب تاريخ التمدن الإسلامي الذي أخرجه المؤرخ الكبير جورج زيدان فشنّ عليه حملةً قاسية، إذ رآه غافلاً عن أمور كثيرة أوردته مورد الخطأ وبخاصة فيما ذكره عن خلفاء العصر الأموي، فاتهمه بسوء النية، وقُبِح الغرض، والولوع بالدسّ.

وهذا في رأيي مجافاة للواقع، فهذا الاتهام يُوجّه إلى مؤرّخ حاقِدٍ مثل الأب لامانس الكاثوليكي الذي اضطرم غيظاً على الإسلام في كل سطر كتبه، ومهاجمته مع أمثاله فرض محتوم لا مرية فيه، ولكنّ جورج زيدان قد سجّل من محاسن الإسلام الشيء الكثير، وقد يكونُ أخطأ في فهم أمور كثيرة، وعلينا أن نصححها دون الولوع بكشف السرائر التي لا يعلمها غير الله!

وقد وقفت كثيراً عند قول الشيخ شبلي النعماني عن زيدان: «إن المؤلف حرّفته

تأليفُ الكتب مكتسباً بها، وهو يعرف حق المعرفة أنه لو انتقد الخلفاء الراشدين ونال منهم تصريحاً كَسَدَ سَوْقه، وخابثَ صفقته، فدبّرَ لذلك حيلاً لا يكاد يفطن لها اللبيب، فعمد إلى رؤوس المثالب، ونسبها إليهم بأنواع الاحتيال، فتارةً في ثنيات الكلام، وتارة بإيرادها عرضاً مع عدم الاعتناء بها، وتارة يذكرها مُحْتَالاً لها عذراً.

وهذا إذا صحَّ فالواجب أن نُصحح الخطأ بعيداً عن الانتقاص والتجريح، لأنَّ من كُتِبَ المسلمين من يقعون في كثير من هذه الأخطاء، بل في أسوأ من هذه الأخطاء، وموقف الناقد منهم هو التصويب! وقد قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤]. فإذا كان الأمر بالغفران ينتظم المشركين والماديين ممن لا يرجون أيام الله، أفلا ينتظم كاتباً من أهل الكتاب يؤمن برب العالمين! أقول ذلك وأنا أعلم أنَّ من يخالفني أكثر ممن يوافقني، ولكني أؤكد ما أعتقد أنه الحق، إذ في كتاب تاريخ التمدن الإسلامي صحائف كثيرة أظهرت عظمة الإسلام ومجده العظيم، ولا يسطرها إلا من يحتفل بها في حيدة وإنصاف.

إن العلامة الكبير شبلي النعماني علّم من أعلام الإسلام في هذا العصر، وهو عالمٌ عامل، أي جمع بين العلم والإصلاح على نحو دفع بقومه إلى الأمام، وكشف عنهم بعض ما ران عليهم من أسباب الجمود، فله جزاؤه الموفور، ومكانه الملحوظ بين العاملين العالمين..



الأمير الهندي صديق حسن خان العلامة المفترى عليه

شكا السيد أبو الحسن الندوي في بعض مقالاته من أن العالم العربي لا يعرف تاريخ المسلمين في الهند، على حين أن الهنود المسلمين يعرفون من تاريخ العرب الشيء الكثير، وهذا حقٌّ من ناحية العمل السياسي، أما النشاط العلمي الذي قام به أساتذة الهنود فذائعٌ مشتهر، وكتبهم في القديم والحديث تملأ المكاتب العربية، حتى قال السيد رشيد رضا: «إن الحديث الشريف لم يُخدم في بلد إسلامي، كما خُدم في الهند، إذ من عُلمائهم حُفَاطُ بَرَّة يُعيدون سيرة أسلافهم الماضين، والأمير صديق حسن خان في طليعة المؤلفين الهنود الذين راجت كتبهم في الأقطار العربية، وتعددت طبعتها لسرعة نفادها من السوق، وهي من الكثرة الوفيرة بحيث أخذت تستوقف بعض الدارسين، وللأمير خُصومه السياسيون الذين لم يستطيعوا أن ينالوا منه سياسياً، فرأوا أن يشككوا في تأليفه الكثيرة، بالظن الواهم لا باليقين الجازم، لأن سبل هذه المؤلفات في رأيهم لا يمكن أن يصدر عن رجل واحد، مهما بذل من الوقت ليلاً ونهاراً ما يستنفده في التحرير والتسطير.

والأميرُ صديق حسن خان ليس واحداً في هذا الباب، فقد قرأنا كثيراً عن مؤلفات السيوطي المتعددة في القديم، وعن مؤلفات علي مبارك في الحديث، حيث ذهب بعض الكتّابين إلى أن السيوطي كان ينقل مؤلفات سواه، ويقدمها باسمه، والسيوطي لم يكن يعيش في عصر خالٍ من زملاء كبار يُشاركونه العلم والتأليف والأطلاع، وقد وقفوا على ما وقف عليه من المؤلفات، ولكنهم - باستثناء السخاوي - لم يُحاولوا أن يزموه بالسرقة العلمية، وقد يكون من طبيعة التأليف في ذلك العصر أن يُختصر الكتاب، ويُنسب إلى من اختصره، وأن يُزاد عليه ويُنسب إلى من جاء بالزيادة، وهو عملٌ متفقٌ على مشروعيته إذ ذاك، إذ لم تكن المطبعة حينئذ

في حيزِ الوجود، فكان من نفع القارئ أن يجد من اختصر له المَطْوَل ليُغني عن أصله .

أمّا علي مبارك فقد كان مشغولاً بعدّة أعمال إدارية عويصة لا تكادُ تُبقي له وقتاً يؤلّف فيه موسوعةً كبيرة كالخُطط التوفيقية ، ولذلك كان الشكُّ في تأليفها وارداً عند قوم، وقد نُسوا أنّ الأصل العلمي منقولٌ عن المقرّزي ، وأنّ لجنة ألفت لتتبع الآثار كانت تُرسلُ بطاقاتٍ إلى المؤلف تحوي معلوماتٍ مُستقاة من الكتابة على جُدران المساجد أو الأسبلة أو المدارس وغيرها ، وبهذه البطاقات استطاع الرجل أن ينهض بالعبء ، وهو بعدُ كان ذا أرقٍ شديد لا يكاد ينام إلا غراراً ، فاتسع ليله الأطول لما يتسع له النهار من أعمال التصنيف . . .» .

ونرجعُ إلى العلامة صديق حسن خان فنذكر أنه ولد سنة ١٨٣٢م في أسرة ذات ثراء ، وكان والده مشغولاً بقراءة الكتب وجمعها ، وكان له مبخّرٌ خاص ، يأخذ المخطوطات ويعرضها في الشمس أمداً طويلاً ، كي تنجو من التلف المنتظر ، فلفت هذا المشهد الطفل الصغير ، وجعل منذ نشأته يرقب هذا العمل في شغفٍ ، حتّى إذا بلغ سن التعلّم دفع إليه والده من اختص بتعليمه وتثقيفه في دهلي ، وأحبّ التلميذُ الناشئ العلم ، وشاهد مجلس والده في المنزل حافلاً بمناقشات العلماء ، وحوار الزائرين ، فتطلّع إلى أن يكون أحد هؤلاء المستنيرين ، ثم سافر إلى بهوبال فزرق حظّاً وافراً في كسب العيش ، وطارث له شهرةٌ بالمهارة والكياسة والنبوغ ، فصار وزيراً يُدير الأمر ، ثمّ نائباً عن الأميرة الحاكمة ، وقد لاقت من وفائه وأمانته ما جعلها تختاره زوجاً لها بعد رحيل قرينها ، فصار نائبها الرسمي ولُقّب «بنواب عالي الجاه» أمير الملك بهادر .

ولم يزدْ عمله السياسيّ إلا رغبةً في التأليف المطّرد ، إذ جعل تسويد الصحف شغله الشاغل ، حتّى ترك نيفاً وستين مؤلفاً بالعربية والفارسية والهندية ، وهذه الكثرة هي التي أوحت إلى خصومه أن يُشكّوا في تفوّده بالعمل ، فزعموا أن له شركاء يأخذون الأجر الماديّ ليعضفوا إليه ما يصنّفون .

وإذا تتبّعنا مصدر هذه الشبهة فإننا لا نجد من زملائه العلماء ، ومخالطيه من المؤلفين ، وهم في عصره كثيرون ، ولو علّموا شيئاً من هذا الاغتصاب ما سكتوا عنه ، فالهندُ واسعةُ الأنحاء ، وتستطيعُ التُّهمةُ أن تُجلجل في ربوعها لتصل إلى مقرّه

بهبوبال، ولكنَّ المصدر الأول هو الأميرة سلطان جهان بيكم بنت الأمير الراحل، فقد خافت أن تلد الزوجة من يرثُ الإمارة من أبناء صديق حسن خان، فظَلَّت تُنَاصِبُهُ العدا، والرجلُ يتحمَّل نفورها عن كياسة حازمة كيلا يغضب الأسرة، وهو يعلمُ أنَّ ما تُذيعه بلسان حاشيتها لا يصدِّقه أحدٌ ممن يجالسونه في محافل العلم، ويرجعون إليه في دقائق الغوامض فيجدون لديه ما عند العالم المتبحر من أجوبة ذات سداد.

ثم إن الأمير صديق خان قد رحل إلى جوار ربِّه دون أن يُنجب وارثاً، وكان من المتوقع أن يهدأ غضب الأميرة عليه، ولكنه استمرَّ في احتدام، حتَّى نفَسَتْ عن صدرها في كتابٍ أصدرته بعد واحدٍ وعشرين عاماً من رحيله قالت فيه: «يعرف القارئ بأنَّ الأمير صديق حسن خان كان رجلاً خاملاً تافهاً!! قبل أن يأتي إلى بهوبال، ولكنه بعد مدَّة من الزمن صار رجلاً معروفاً ممتازاً ومُماثلاً لأمرء البلاد...» ثم قالت: «ولا أشك في أنه كان ذكياً ذا علم جم».

وقد لَقَطَ الكولونيل «ادورد فنديك» هذه العبارة، ففهم منها ما أرادت الأميرة أن توميء إليه، ولعلُّه حاول بذلك إرضاءها، فقال في كتابه (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) وقد صدر بعد كتابِ الأميرة بخمس سنوات:

«أصلُّه من عوامِّ الناس إلا أنَّه توصَّل إلى ملكة بهوبال في إقليم الدكن بالهند، وتزوَّج منها، وتسمَّى نائباً عنها، فعندما اغتنى بالمال جمع إليه العلماء، وأرسل فابتاع الكتب المخطوطة من كلِّ جهة، وجمع مكتبة كبيرة، وكلَّف من حوَّله من العلماء بالتأليف، ثم أخذ مصنِّفاتهم ونسبها لنفسه، بل كان يختارُ الكتب القديمة التي لم تكن منها سوى النسخة الواحدة، ويُغيِّر العنوان، ويبدِّله باسم آخر، ويضعُ على الصَّحيفة الأولى اسمه مع ألقاب الفخر... ومع ذلك له مصنِّفاتٌ حسنة منها تفسيره الذي سماه (فتح البيان في مقاصد القرآن)».

ونستطيعُ أن نلمسَ شطط ما تقدَّم، فإنَّ النسخة إذا كانت واحدةً، فإمَّا أن يكون مؤلِّفها هندياً أو غير هندي، فإنَّ كان هندياً فسيذيعُ خبرُ هذا الغصب، ولنْ يسكت عليه ناقد، وإن لم يكن هندياً فمن أدري صديق حسن خان أن النسخة الوحيدة بالهند لَيْسَ لها أصلٌ آخر في غير الهند، فتعظَّم الكارثة حين يتحدث الناس عن سرقة علمية لأمر عظيم، وإذا كان الكولونيل قد جزم بأنَّ تفسير القرآن المسمَّى (فتح البيان في مقاصد القرآن) من تأليف الأمير، وهو تفسيرٌ مشتهر يحتلُّ الصدارة بين كتب التفسير

في عصره، أفيعجز مؤلف هذا العمل المفيد أن يكتب نظائره؟ وإذا كان قادراً على التأليف العلمي فلم يُدَلَّ نفسه لمن دونه في المنصب حين يطلب أن يؤلف له كتاباً!! ثم إن الطابع العام للتأليف العلمي في عصر الأمير هو طابع الجمع والحشد، فهل يُعجزه أن يقرأ ويلخص! .

لقد كتب الباحث الفاضل الدكتور محمد اجتباء الندوي من علماء ندوة العلوم الهندية مقالاً بمجلة رابطة العالم الإسلامي^(١) يُفند فيه هذا الافتراء الظاهر، وكان مما أكدّه أن الأمير تولّى مناصب كبيرة في بهوبال قبل أن يتزوج من الأميرة، وكان يتقاضى راتباً كبيراً، ومُنح ضيعة من الأميرة السابقة سكندر جهان بيكم لقاء خدماته الكثيرة، فلما اتسع مورد رزقه دعا العلماء إلى حضرته لتزّاد بهم الإمارة .

وقد ألّف الأمير ثلاثمئة كتاب (هكذا قال) فهل كانت كلّها غير معروفة المؤلف حتى يسهل انتحالها، وهل عجز قراء العربية والفارسية والهندية أن يكتشفوا أثراً واحداً من ثلاثمئة كتاب متّحل، وكيف يجمع علماء الأماكن النائية على نسبة ما كتبه المؤلف إليه، ولا يُوجد بينهم عالمٌ واحد يقدم دليل السرقة في كتاب من ثلاثمئة كتاب! على أن أصدقاء الأمير ومجالسيه من كبار العلماء لهم مؤلفاتهم، وليس بينها وبين مؤلفات الأمير شبه في التحرير، فهل كانوا جميعاً يخفون أساليبهم حين يكتبون غير ما يُمهرونه بأسمائهم وكيف يتحقق ذلك! .

ويقول الدكتور اجتباء الندوي مُوضحاً:

«وأما العلماء الذين أشار إليهم - الكولونيل - فمؤلفاتهم لا تزال تُقرأ وتُدرس وتُطالع، وهي موجودة الآن، ونرى بينها وبين مؤلفات الأمير فرقاً بيّناً من حيث الأسلوب وطراز الإنشاء، وطريق الاستدلال، والإحاطة ونقد الآراء، فكلّ ما كتبه الشيخ محمد بشير السّهواني أو الشيخ ذو الفقار البهوبالي وغيرهما من العلماء يختلف اختلافاً عما كتبه الأمير صديق حسن، ويمكن لكل باحث أن يعرف ذلك بسهولة» .

وقد قدّم الدكتور الندوي حجةً قاطعة حين ذكر أن كثيراً من مؤلفي الهنود المعاصرين قد كتبوا مؤلفات ذات عدد كبير، ولم يشكّ أحد في نسبتها إليهم، فقد

(١) مجلة الرابطة: شوال ١٣٨٩هـ، ص ٤٠ .

ألف الشيخ الرّباني الكبير مولانا أشرف علي التهانوي تسعمئة وعشرة كُتب، ما بين صغيرٍ وكبير، وألف الشيخ الفاضل عبد الحي اللكنوي مئة وعشرة، منها ستة وثمانون كتاباً باللغة العربية، وقد رُزق عمراً أقلّ بكثير من عمر الأمير، إذ توفي في التاسعة والثلاثين من عمره، مع هذا التّاج المتنوّع، كما نقل الدكتور عن شاهد عيان بقصر الأمير قوله :

«إنّ الأمير صديق حسن خان، كان يُؤلف جزءاً واحداً كلّ يوم، وإن ذهب إلى أحدٍ في مناسبة أو حفلة وتأخّر الطعام فإنه ينتحي ويستغلّ بالتأليف في المكان نفسه».

أيّ ولوعٍ هذا!

وفي هذا الدفاع ما يُبرّره، بل ما يجعله مقنعاً، لأننا شاهدنا مثل هذا السيل من المؤلفات لدى باحثين فاضلين في مصر، لا يزالان ينعمان بالحياة، هما الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (عميد كلية اللغة العربية الأسبق بجامعة الأزهر)، والأستاذ البحّاث الشهير أنور الجندي، فكلاهما زادت مؤلفاته عن ثلاثمئة كتاب! ولكل منهما عمله الرسمي، هذا في الصحافة، وذلك في جامعة الأزهر، ولم يمنعهما ذلك عن إتمام ما نراه رأي العيان، وأنا أعلم جيّداً أن المسألة ليست مسألة كمّ عدديّ، ولكني أمثّل لحالة حاول أن يشك فيها مرتاب مغرض بحاليتين نراهما عن يقين.

على أن الأمير قد توقّع ما سيتردّد حول كثرة مؤلفاته، فذكر في كتابه (رياض المرتاض) فهرساً خاصاً ببعض مؤلفاته، ومقدار تأليفها الزّمني؛ نقله هنا كما دوّنه:

١ - كتاب (أبجد العلوم) باللغة العربية، مدة تأليفه أربعة أشهر، وطبع ببهوبال.

٢ - كتاب (إتحاف التّبالء) باللغة الفارسية، مدة تأليفه شهر واحد، وطبع بكانبور.

٣ - كتاب (التاج المكلّل) باللغة العربية، مدة تأليفه شهر وعشرة أيام، وطبع ببهوبال.

٤ - كتاب (رحلة الصديق) باللغة العربية، مدة تأليفه أسبوع واحد، وطبع بكانبور.

- ٥ - كتاب (الروضة النديّة) باللغة العربية، مدة تأليفه خمسة عشر يوماً، وطبع بمصر.
- ٦ - كتاب (مسك الختام) باللغة الفارسية، مدة تأليفه شهران، وطبع بكانبور.
- ٧ - كتاب (فتح البيان) ١٠ أجزاء، باللغة العربية، مدة تأليفه سنة واحدة، وطبع بالقسطنطينية.
- ٨ - كتاب (البلغة) باللغة العربية مدة تأليفه ٢٢ يوماً، وطبع بالقسطنطينية.
- ٩ - كتاب (حصول المأمول) باللغة العربية، مدة تأليفه ٢٦ يوماً، وطبع بالقسطنطينية.
- ١٠ - كتاب (ذخر المحب) باللغة العربية، مدة تأليفه ١٢ يوماً، وطبع بيهوبال.
- ولهذا الاعتراف مدلوله الواضح في الحكم على آثار المؤلف، ما ذكر منها في هذا البيان وما لم يذكُرهُ مكتفياً بما ذكر، فقد حرصتُ على تسجيل هذه الأوقات الزمنية التي سجّلها المؤلف الكبير على نفسه، لأقول: إنّ هذه السرعة الطائفة التي نطق بها هذا الفهرس الغريب في بابهِ؛ تدلّ على أن خطّ النسخ المباشر من كُتب التراث كان له التّصيب الأوفر عند التدوين، وإلا فماذا يقول القائلُ في تفسير لكتاب الله يقع في أحد عشر جزءاً إذا حجم كبير، يُكتبُ كلّهُ بأجزائه في عام واحد!
- لقد كان صديق حسن خان في عصره مسبقاً بالألوسي في تفسيره، وطبيعيٌّ أن تفسيره الكبير قد وصل إليه، ورأى مدى ما فيه من المعاناة، لا سيّما أن الشهاب الألوسي قد ذكر ما يدلّ على أنه سلخ خمسة عشر عاماً في تصنيف التفسير، فليته سأل نفسه: ماذا أصنعُ بعد ظهور هذا التفسير؟ ألديّ من جديدٍ أقوله؟ ولكنّ مفهوم التّأليف عند الرجل لا يلتفتُ إلى تطلّب الجديد، ولعلّه رأى أن يضع خلاصةً متسرّعة تُسعف القارئ الهندي على أيّ نحوٍ ما، فكان هذا التعجّل السريع.
- وأكادُ أجزمُ أنّ الذين قد ألفوا من علماء الهند بعده في تفسير القرآن قد انتفعوا بصنيعه انتفاعاً سلبياً، حيثُ آثروا التّؤدة ليأتوا بالجديد، فقد كتب العلامة محمد أنور شاه الكشميري كتاباً تحت عنوان (مشكلات القرآن) جعله تفسيراً تحليلياً لمئة وتسعين آية من القرآن، تصحُّ أن تكون موضع الإيضاح والتعليق، فجعل يشرحُ كل آية وفق ما يهتدي إليه تفكيره، وينقلُ عن السابقين مخالفاً تارةً ومؤيداً تارةً، فكانت

روح المفسّر تطلّ على القارىء في كل سطر من سطره، وهذا أبلغ ردّ على من ينقلون، فيطيلون دون جدوى .

وهذا الذي صدمني في تصفّح تفسير صديق خان، وجدتُ شبيهاً له في كتاب آخر، حيث طالعت كتابه (فتح العلام) وقد جعله صديق خان شرحاً لكتاب (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) فرأيتُه يكاد يكون مأخوذاً من كتاب (سُبُل السلام) لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، وهو بهذه الحالة لا بدّ أن يكون قد كُتب في شهرٍ واحد على الأكثر .

قد يقول قائل : إنك تنتقد الرجل مُكرّراً مستشهداً، وقد بدأت مقالك بالدفاع عنه، وتبرئته من السطو، وأنا أقول : إن الجهة منفكة، لأنّ الرجل لم يَسْطُ مُنكراً صنيع سابقه، ولم يوعز لأحد أن يؤلف باسمه، ولكنه شاء أن يلخّص ويوجز، وهو مذهب ارتضاه هو لنفسه، وفرقٌ بين السطو والتلخيص، لأنّ العصور الأخيرة إلى عهد المؤلف كانت ترى في التلخيص نوعاً من التيسير، بشرط أن يُشير الملخّص إلى الأصل، وهذا ما يفعله صديق خان، وكنا نطمعُ منه أن يرتفع إلى أعلى من هذا المستوى، وذلك متاحٌ له إذا اطمأن .

وسأترك الكلام عن التفسير لأجعل حديثي هنا عن مقدمته فقط، وإنما اخترت هذا الكتاب بالذات، لأنّ الذين اتهموا المؤلف ظالمين بالسرقة، قد اعترفوا بأنّ كتاب (فتح البيان) من تأليفه، ولم يخالف في ذلك الكولونيل «ادورد فنديك»، حين قرّر أن له مصنفاتٍ حسنة منها تفسيره الذي سمّاه (فتح البيان في مقاصد القرآن) والكولونيل ليس أهلاً للحكم على تفسيرٍ لكتاب الله، أمفيدٌ أم غير مفيد، ولكنه تهجّم مشتطاً، ثم اعترفَ بجودة القليل ! فليكنْ ما اعترف به مجالاً للنقد والتحليل .

بدأ مؤلف التفسير كتابه بمقدمة وافية هي أهمّ ما جاء به، إذ جمعتُ نصوصاً متفرقة كثيرة، حول الفرق بين التفسير والتأويل، ولماذا تُفسر القرآن الكريم، وما الشروط التي يجب تحقّقها في المفسّر، والفرق بين التفسير بالرأي، والتفسير بالمأثور .

أما الذي دفع المؤلف إلى كتابة تفسيره فقد عبّر عنه قائلاً : «من المفسرين من اقتصر في تفسيره على مجرّد الرواية، كجلال الدين السيوطي في الدّر المنثور،

ومنهم من اكتفى بمجرد الدراية، ووجه نظره إلى مقتضى اللغة العربية وقواعدها، وهم الأكثرون، ومنهم من جمع بين الرأيين».

أقول: وهذا كلامٌ يقال كثيراً، وقد نسي قائلوه أن الرواية لا تخلو من رأي، وأن الدراية تعتمد على الرواية في إثبات تأويلها، لذلك كان الجمع بين الاثنين واضحاً في كل تفسير، وأماناً مثلاً لذلك تفسيرُ ابن جرير الطبري، فقد ذهب الكاتبون إلى اعتماده على المأثور حين رأوا فيضاً من الروايات تتدافع، ولم يلتفتوا إلى ما يقوم به المفسر الكبير من الترجيح بين الروايات الكثيرة، ولو لم يفعل ذلك ما كان صاحب التفسير المشار إليه بالبنان.

وقد اعترف المؤلف أن من أحسن التفاسير في رأيه تفسير الشوكاني اليمني المسمّى بفتح القدير، إذ جمع بين الناحيتين في وضوح، لذلك يعلن المؤلف أنه أراد بتفسيره أن يجمع بين الرواية والدراية. وكانت عوائق السياسة، وتزاحم الأعمال في إمارة بهوبال، تقف حائلاً دون هذه الرغبة أمداً طويلاً، حتى استطاع أن يجد من الوقت ما سمح له بالتأليف، بعد أن ألح عليه الملحون وأظهروا الفقر إلى تفسير يكتبه، فصعد بالأمر، مؤكداً أن تفسيره قد اشتمل على الثابت الصحيح من التفسير المرفوع إلى النبي ﷺ، والثابت الصحيح من التفسير المروي عن الصحابة، ومن تبعهم بإحسان.

وكثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ولكن ذلك لا يلزم المفسر إهمال ما يستفاد من العلوم التي تُبين دقائق اللغة وأسرارها كعلم المعاني والبيان، كما لا يتيسر أن نرى في كل نص قرآني تفسيراً ثابتاً عن السلف، وهذا مسلمٌ به؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب الواضحة، فكان العرب يسمعونهُ دون حاجة إلى شرح يُنتظر من صحابي، إنما يقول الصحابي ما يراه حين يغمض معنى لفظ، أو يشبه معنى بما قبله، وذلك محصور في آيات محدودة تولى العلماء دراستها، ونقلوا أقوالاً معتمدة لأمثال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وعائشة وابن عمر، وغيرهم، وإذا كان الوقوف عند المأثور لا يكفي فلا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاختصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا ما احتذاه المؤلف.

وأحبُّ أن أقول: إن من يذهبون إلى تاريخ التفسير القرآني، هم الذين عقدوا

أبواباً مستقلة للتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وكأنّ الفواصل بينهما قائمة تمنع التمازج، وهذا هو الذي جعل أكثر الكتاب من العلماء يذهب بمفسرٍ إلى ناحية خاصة، قد لا تكون هي المسيطرة على تأليفه، وكتابُ فتح القدير الذي أثنى عليه المؤلف مثالٌ حيٌّ لما ينبغي في مقدمته، وكان عليه أن يطيل التأمل فيه، وفيما كتب من قبله وبعده، ليأتي بما يُرضي قارئ التفسير المستوعب، ولكن أقوى الأقوياء من العلماء لا يستطيع أن يفعل ذلك إذا قدر لنفسه أن ينتهي من التفسير في عام واحد.

ثم اتجه المؤلف إلى الحديث عن أنواع التفسير المجهولة والمتداولة، وقد يستغرب القارئ الحديث عن شيء غير متداول وغير معروف، ولكن المؤلف حدّده بما استأثر الله بعلمه من أسرار كتابه ومعرفة حقائقه وصفاته.

ولي مع هذا الاتجاه وقفة، فقد أنزل الله كتابه ليفهم وليُشرح، وتولّى الرسول شرح ما لم يفهمه العرب، تأكيداً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. فقولُ المفسرين: «الله أعلم بمراده» لا يجوز أن يكون موضع اتساع، وقد اشتهر ذلك في الحديث عن الحروف المقطّعة أوائل السور، فالأولى أن نقف عندها في هذا المجال، ولكنّ قوماً ينقلون عن بعض السابقين تحفظهم في شرح بعض الآيات، ويعدّون ذلك احترازاً وتقيّة، وقد يكون المسؤول غير عالم فعليه أن يخطأ وأن يتحرّز، ولكنه يفرض على غيره ألا يفسّر، هيبةً لكلام الله! وهذه مغالاة تنافي المعقول المطرد، لأن كتاب الله لا بدّ أن يُفهم، وأن يُعنى بفهمه أهل الذّكر.

وقد مال المؤلف إلى الفرق بين التفسير والتأويل، وهما بمعنى واحد عند قوم، وعند آخرين ما يفيد الفرق، إذ أن التفسير في رأيهم ما لا يدرك إلا بالنص كأسباب النزول، والتأويل وهو ما يمكن إدراكه بالقواعد العربية، وقد كانت كلمة التأويل معروفةً بمعناها العلمي قبل أن تنشأ علوم اللغة العربية، إذ دعا رسول الله لبعض الصحابة أن يفهمه الله القرآن ويرزقه التأويل، فمحاولة حجزها في نطاق علوم اللسان لا تجدُ الدليل المقنع.

ثم أحسن المؤلف صنعا حين شنّ الغارة على من يُتخمون شروحهم بعلوم اللغة واللسان والمنطق، فقال عن بعض هؤلاء: «ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه

من الفن، واقتصر فيه على ما تمهّر فيه، كأنّ القرآن أنزل لأجل هذا العلم بخاصة، مع أنّ فيه تبيان كل شيء.

فالنحويّ تراه ليس له إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة، كالزجاج والواحي وأبي حيان، والإخباري ليس له شغلٌ إلا بالقصص واستيفائها، وأنباء من سلف وغبر صحيحة كانت هذه الأنباء، أو باطلة، كالثعلبي، والفقيه يكاد يسرد أحكام الفقه جميعاً، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تتعلق بالآية أصلاً، والجواب عن أدلة المخالفين، كالقرطبي وصاحب المظهر، وصاحب العلوم العقلية، خصوصاً فخر الدين الرازي، قد ملأ تفسيره بأقوال الفلاسفة والحكماء، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر منه العجب، فقد قال أبو حيان الغرناطي في تفسيره (البحر): جمع الرازي في تفسيره أشياء كثيرة، لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: (فيه كل شيء إلا التفسير).

وقد قرأتُ بعض صفحات متوالية من التفسير (فتح البيان) فخيّل إليّ أنني أسير في أرضٍ مطروقة أعرف ما بها قبل أن أنتهي إلى غايتها، وقد يسأل سائل: إذا كان الرجل الكبير لم يأت بالجديد في مؤلفاته، فلماذا تعتبره من أعلام النهضة الإسلامية في الهند؟ والإجابة على ذلك هي أنّ الرجل كان قطباً لحركة علمية انتشرت في عهده، فقد شجّع المؤلفين وصادقهم، وعمل على نشر مؤلفاتهم، وانتقلت الحركة العلمية من إمارته إلى إماراتٍ مجاورة، فأحدثت تقدماً علمياً، ونحن نُعظم المأمون العباسي، لا لأنه مؤلف فهو لم يُؤلّف شيئاً، ولكنّه ساعد على نشر الثقافة، وشجّع الأدباء والعلماء، وعقد مجالس البحث والنظر، وإن تورّط في أمورٍ ما كان له أن يرتطم بها، كموقفه من قضية خلق القرآن مثلاً، وبهذا المقياس المأمونيّ يكون الرجل الكبير باعث نهضة في موطنه، وذا أثر ملموس في التقدّم الفكري!

ولكنّا مع ذلك كلّه نريد بعد تتبع سيرته ومؤلفاته أن نسأل سؤالاً مهماً؛ تتعيّن الإجابة عليه؛ هو: أمّن الأولى للمؤلف أن يُكثر من التأليف دون إضافة؟ أم أنّ الإضافة هي الداعي للتأليف، ولو لم يكثر المؤلف بل اقتصر على بضعة كُتب، تكون مرجعاً شافياً للدارسين؟ أو نقول السؤال بصيغة أخرى، فنسأل: أكان خيراً

للأمير صديق حسن خان أن يُبدع في نتاجه العلمي القليل، أم يكونُ عطاؤه هكذا
زاخراً مسهباً دون تجديد؟ .

إن الإجابة في رأيي واضحة، فنحن نعرف في تراثنا العلمي أناساً اشتهروا بكتاب
واحد أو بكتابين، وظلت أسماؤهم تتردد، كما نعرف أناساً آخرين كتبوا كثيراً دون
أن تذيع أسماؤهم بين الدارسين . .

* * *

طه الراوي

أديب العراق وعالمه

- ١ -

يقول الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن الأستاذ طه الراوي^(١):

«والله ما ذكر في مجلس من معارفه إلا اجتمعت القلوب على حبه، والألسن على مدحه، وما ذكرته عند من يعرفه في مصر والشام بله العراق إلا كان الجواب ثناءً عليه وإعجاباً بعلمه وأدبه، وإكباراً لخلقته.

عرفتُ الأستاذ الكريم - أوسع الله له في رحمته وأجزل لآله وإخوانه وتلاميذه الصبر والعزاء - منذ عشر سنين، ولقيته في بغداد والقاهرة والقدس، وفي مدائن من سورية ولبنان، وراسلته على البعد، وجالسته طويلاً، وتحادثنا في العلم والأدب والسياسة والاجتماع والأخلاق وفي أمور شتى، فما عرفته إلا ذكياً عالماً أديباً فاضلاً، لا يتكلم في موضوع إلا أفاض فيه إفاضة المحيط بأطرافه، المتمكن منه، المتثبت فيه، وكم قلتُ في حضوره وفي غيبته اعترافاً بالحق: (ما يجلس أحد إلى الأستاذ إلا استفاد من فلسفته)، وأشهد أنني ما حضرت مجلساً له في داره أو في غير داره إلا فرحتُ بمجلسه، وأنست به وهو يصرفُ الكلام في شجونه، وينقل الحديث في معارفه الواسعة، وتجاربه الجمّة.

هذا بعضُ ما قاله الدكتور عزام، وقد أفاض في مثله الأستاذ الدكتور زكي مبارك على صفحات جريدة البلاغ، وحدّثنا بما يشبهه الأستاذ أحمد حسن الزيات في ندوة الرسالة، وكلّهم ممن بُعثوا إلى العراق أساتذةً للأدب في دار المعلمين العالية، وكان الأستاذ الراوي يزاُمهم في التدريس، فأنسوا به، وأنس بهم، وكم لاقوا من زملاء

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٩٦، ٤/١١/١٩٤٦م.

غيره في بغداد وغير بغداد!! ولكن هتافهم بذكره على البعد يُنبئ عن ذخيرة غالية من الفضل والعلم والأدب، تجتمع في سيرة الأستاذ الراوي، ويُعجب بها الكبار من الباحثين مادحين مقدرين.

أظهر ما اتصف به الأستاذ الراوي أن اسمه صار صفة له، فهو راويةٌ ممتاز لذخائر الشعر العربي في القديم والحديث، مع اطلاع شامل على أمهات كتب التراث، وحافظة قوية تسجل ما قرأ وما سمع، والأديب الراوية ممتع حقاً في مجلسه؛ لأن الشاهد لديه حاضر لا يتأخر.

وقد عرفنا في الجيل الماضي نفرأ من كبار الرواة، من أمثال الشيخ أحمد أمين الشنيطي، وسيد علي المرصفي، وأحمد الزين، وقد جالست الأخير وصحبته، فرأيت طوفاناً من التراث الشعري، تزدحم به حافظته، فهو يروي للمغمورين أكثر مما يروي للمشهورين، ويعرض من فرائدهم البديعة ما يدهش ويروع، كذلك كان الأستاذ طه الراوي، وقد تحدث عنه تلميذه وصديقه الأستاذ جمال الألوسي، فأبرز هذه الناحية من آثاره الأدبية، وجلاها أجمل تجلية، حيث قال من مقال ضاف نشرته مجلة الكاتب المصري تحت عنوان (الأستاذ طه الراوي صنعة الرواية)^(١):

«قد قصرتُ بحثي على صفة فذة انفرد بها من بين أقرانه، وله فيها فضلُ السبق على جميع أبناء المدرسة الحديثة والقديمة في بغداد، تلك الصفة هي الرواية، ولَسْنَا نقصدُ معنى الكلمة من جهة نسبتها إلى مسقط رأسه، وإنما نريد معناها الاصطلاحي، لأنّ الذين حصلوا على المعارف كثيرون، ولكن ندر منهم من كانت له براعةٌ فقيداً في الرواية، أو كانت له قدرةٌ على عرضها، وإفادة الناس بما حصل من دراسات وقراءات، سلّ أيّ طالب جلس إليه وهو يُلقي درسه من منبره، يخبرك الخبر اليقين كيف كان يحقق بحثه، ويفصّل موضوعه ويدعمه بالشواهد، فهو مُحَدِّث بارع يبعث في طلابه ورواد ندوته ما شاء من أريحية، اسمع إليه يروي من منتخل الشعر، ومُصَفّي النثر، ومهذّب الأخبار، تعرف بين برديه الأصمعي أو حماداً أو ابن قتيبة وأضرابهم، فله في عنق أبناء هذا الجيل دينٌ - أيّ دين - في توجيههم الأدبي، إذ غرس في نفوسنا الميل إلى آداب اللغة وتذوق المصنّف من شعرها».

(١) مجلة (الكاتب المصري)، يناير، سنة ١٩٤٧.

هذا بعضُ ما أفاض فيه الأستاذ الألوسي من مقال طويل ، وموضعُ العبرة فيه أننا نأسف الآن لقلة من نجدُ من الرواة الكبار أمثال الأستاذ الراوي .

وما انحدر الشعر إلى ما نرى من الركاسة والإسفاف في هذا العهد إلا لفقد الرواة ممن كانوا يحفظون الشعر الرائع ، ويُشِرون إليه في مراجعته ، فينهلُ منه الشداة ، بل إنَّ النهضة الشعرية المعاصرة لم تقم إلا بسبب الرواية للأدب القديم ، فقد حرص زعيم الشعراء في هذا العصر محمود سامي البارودي على اختيار موسوعة أدبية من رائع الشعر العربي في العصر العباسي ، تقعُ في أربعة أجزاء كبار ، وقدمها لطلاب الأدب ، فكانت بسيلها الدافق مصدر الرّي والهناء ، وعلى مائدتها الشهية تثقف شوقي وحافظ ومحرم والجارم ، وكلّ من جاء بعد البارودي من نوابغ شعراء العصر ، وقد قال في مختارات البارودي إسماعيلُ صبري قصيدة مادحة ، بدأها بقوله ، وهو الشاعر البصير :

يا رائد الشعر لا تقرب مناهله إلا وراء دليل صادق النظر

فإذا كان الراوي قد جدّد عهد الرواية في بغداد ، فلهُ أطيبُ الأثر في إبداع شعراء العراق من تلاميذه ، إذ وجّههم إلى النهج السليم في اختيار الأسلوب الرائق ، وكانت دروسه بدار المعلمين العالية معرضاً رائعاً لإنشاء الروائع الغالية من شعر الفحول . أكثر هذا القول راجياً أن يظهر من عشاق التراث من يُعيدون عهد الرواية ، ليرتفعوا بالنّظم المعاصر إلى ذروة الإبداع ، وأنت تسأل : لماذا لا يروي أحد أشعار هؤلاء الفارغين ، بل لماذا لا يستمعُ إليهم أحد؟ فتجد الجواب في ركاسة التعبير ، وهلهلة الكلام دون إفصاح . .

تتلمذ الراوي منذ نشأته على دروس علامة العراق الأستاذ محمود شكري الألوسي^(١) ، والألوسي يمثّل طبقة من حملة العلم في شتى فروعهِ الدينيّة واللسانيّة ، فهو بحرٌ زاخر بما يروي من علوم ، وطالبه يحتديه في اتجاهه حين لا يفرق بين مادّة ومادّة ، فدروس الصرف والنحو والبلاغة في مسجده تؤازر دروس التفسير والفقه والحديث ، ومن هنا كان طالب العربية هو طالب الشريعة ، لا يميّز فرعاً عن فرع ،

(١) له ترجمة ستأتي بعد .

إلا أنَّ الميل الشخصي بعد استيفاء الفروع المختلفة ينزِعُ بصاحبه إلى وجهة يرتضيها.

وكذلك نزَعَ الراوي إلى علوم الأدب واللغة حين انتسب إلى دار العلوم ببغداد، ثم التحق بكلية الحقوق، وكانت حديثة العهد، فدرس القانون دراسة لم تُصرفه عن التبحر في اللغة العربية وآدابها، ثم تلقَّفته المناصبُ الإدارية رشحاً من الزمن فعُين مدير المطبوعات العربية في مديرية الدعاية العامة، ثم سكرتيراً لمجلس الأعيان (الشيوخ) فأبدى مهارة في تطبيق المواد القانونية، مما دلَّ على حذقه وقوة استدلاله، لذلك رشحه المسؤولون للتدريس بكلية الحقوق، وهي مطمحُ الأنظار حينئذٍ، لأنه يخرج الصفوة ممن يتولَّون قيادة المناصب الرفيعة في البلاد، ولكنه ظلَّ يدافع هذا الأمر، إذ يريد أن يكون أستاذاً للغة العربية التي تشربها تشرباً، وجرث آدابها في نفسه مجرى النفس، فأجيب إلى رغبته، حيث عُيِّن أستاذاً للغة العربية في دار المعلمين العالية ببغداد.

ويقولُ الدكتور مبارك: إنه كان حريصاً على أن يكون في طليعة الممتازين من الأساتذة، كما كان مضرب المثل في إخائه الودّي لكلِّ أستاذ بغداديّ أو عربيٍّ، بل كان يرى نفسه مُضيفاً لكلِّ منتدب للتدريس بالعراق من أبناء الأقطار العربية الشقيقة، وكان يحرص على الإلمام بكلِّ ما يقوله الأساتذة الزائرون عن طريق مُراجعة محاضراتهم التي يُدَوِّنُها الطلاب أثناء الدرس، فإذا سمحت له فرصةٌ لإبداء الرأي المخالف ترقَّق في نقاشٍ علميٍّ أخويٍّ مع الأستاذ، ليصلا معاً إلى نتيجة مُرضية.

لقد ألقى الدكتور زكي مبارك محاضرات متوالية عن الشريف الرضي جمعه في كتابٍ ذي جزئين، ولاحظ الأستاذ الراوي أنَّ المبارك قد مال إلى تصديق ما يُروى من أنَّ الشريف المرتضى طرد أبا العلاء من مجلسه لإعجابه بالمتنبي، ففحص المسألة من شتى وجوها، وقال للدكتور مبارك ما خلاصته: إنه يستبعد حدوث ذلك من الشريف، وقد رثى أبو العلاء والده في قصيدة جيدة، ومدح أولاده مدحاً ممتازاً، فإن كانت حادثة الطرد وقعت قبل الرثاء فمن المستبعد أن يرثي أبو العلاء والد المرتضى ويمدح المرتضى بعد فعلته، وإن وقعت بعد الرثاء فمن المستبعد أن يقف منه الشريف المرتضى هذا الموقف، وقد استحسّن زكي مبارك رأي الراوي

وأشاد به^(١)، وهذا مثلٌ واحد يعطي انطباعاً خاصاً بمتابعة الأستاذ لدروس زملائه مستفيداً ومفيداً، وله أمثال.

وحين كان قائماً على مديرية المعارف بالعراق، اختلطت آراء كثيرة في طرق التربية الخاصة باللغة العربية، حيث قام نفر من العائدين من أوروبا بالثورة على المناهج التقليدية في النحو والصرف والبلاغة، وكتبوا خططاً مبتكرة لمناهج لا تلتزم التدرُّج النحوي المعروف في كتب السلف، وأخذوا ينشرون آراءهم في الصحف، ليضمنوا لهم رأياً عاماً يشد أزهرهم فيما يريدون، وهذه طفولة ما كان أحراهم بالابتعاد عنها، لأنَّ المسائل التربويَّة الدقيقة هي مجالُ النقاش بين المتخصِّصين، وليس للرأي العام دخل بها، ولكنَّ الأستاذ الراوي شاء أن يُحاضر في هذا الاتجاه، فأعلن عن ندوةٍ يحضرها المهتمون بالأمر وحدهم، وأخذ يبسط رأيه في أن يكون التأليف في النحو تابعاً لما يسمى (بالدائرة المتسعة) بمعنى أن يدرس المبتدئ الأبواب الأصلية في النحو دراسةً مختصرة في السنة الأولى، ثم يدرس هذه الأبواب نفسها في السنة الثانية مع بعض التوسُّع، على أن يتدرَّج في التوسع كلما تقدَّمت السنوات الدراسية، وهنا يتمُّ الطالب دراسة النحو تدريجياً دون أن يفاجأ بنمطٍ لا يألُفه المدرسون فيضِلُّون سبيل الشرح.

وهذه الطريقةُ عينها كانت طريقة الدراسة بالأزهر، حيث يبتدئ الطالبُ بشرح الأجرومية، ثم شرح الأزهرية، ثم شرح قطر الندى، وفي السنة الرابعة يصلُ إلى شرح شذور الذهب، وقد استوفى جميع الأبواب، وكانت كتب المدارس المصرية مثل النحو الواضح، وقواعد اللغة العربية، وغيرهما مما قدَّمه الأستاذ ليسير التأليف النحوي في العراق على نهجه، فألفت كتبٌ على هذا النمط.

وحين انتشرت حركة التيسير النحوي في مصر كان لها صداها عند الأستاذ، فأخذ يناقش مضمونها، وهو حريصٌ كل الحرص على نهج السلف في الشرح والتبويب، مع تيسير الأمثلة وتوضيحها والبعد عن التعريفات الغامضة ذات المحترزات.

ولعل القارئ قد فهم مما أذكره أنَّ الأستاذ الراوي كان عالماً جامعاً، وكانت

(١) عبقرية الشريف الرضي ١/١٦٥.

مزيته في الاستيعاب والجمع، ثم في الإلقاء المبسّط لما استوعب، وهذا ما أشار إليه مؤرخه الأستاذ ناصر الحاكي حين قال عنه^(١):

«لم يكن للراوي في كل العلوم التي ساغها وهضمها رأي يُعرف به أو نحوّه إليه ينتسب، ولم تكن شهرته تنصبّ على نهوضه بما ثقّف، إنّما على مدى اطلاعه وحفظه وروايته، فقد كان حفاظةً، لا أغالي إذا قلت: إنه لا مثيل له في هذا العصر، ويعرف عنه ذلك كثير من أساتذة اللغة العربية، الذين ارتادوا مجلسه، فما زلتُ أذكره وهو يردد نُصوصاً متتابعة طويلةً من أمالي القاضي، وكامل المبرّد، وحماسة أبي تمام، ومغني اللبيب؛ ولا عجب فهو كما حدثنا قد حفظ كتب الأدب الأربعة المعروفة، وأمّهات الدواوين الشعرية في صباه دون أن يخرم منها حرفاً، وكان يسلك في مطالعته طريقة الدرس، فكثيراً ما رأيته يحتاج في نقطة، فيدعم رأيه بالنصوص من كتب عديدة، وأذكرُ مناقشة نحوية دارت بينه وبين الأستاذ إبراهيم مصطفى ذات مرّة، فكان لا يبدي رأياً إلّا ومعه النص من كتاب».

وقد يظنّ بعض القراء أن هذا التحصيل المستوعب مما يُطاق، وأنّ قيمته العلمية محدودة بالقياس إلى من يبتكرون ويخطّثون أكثر ما علموه من كتب السابقين، ولكنّ الواقع أنّ هذا الاستيعاب الممتد، أحدُ وسائل الاطمئنان العلمي، وهو الذي يقوم ما يجدر من الآراء، ويدفعُ بها نحو الصواب، وأنا لا أنكر مزية التجديد إذا اعتمد على النظر الثاقب، ولكنّ المجدّد يحتاج إلى محافظٍ يأمنُ معه من العثار!

وهكذا كان الرّاوي واقياً حافظاً، وقد اعتاد الناس أن ينبهروا بالجديد، ويعدّون صاحبه أكثر جدوى ممن يتبع ولا يُبدع؛ وأنا أرى في مجال النحو بالذات أنّ المحافظين قد أفادوا النحو أكثر من المجدّدين، ولك أن تذكر ابن مضاء القرطبي مجدداً نحويّاً، وتذكر ابن مالك صاحب الألفية نحويّاً محافظاً، وتظرّ بعد ذلك أيّ الرجلين قد انتفع الناس بكتبه ومؤلفاته، وقد مضت قرونٌ على مؤلفات ابن مالك وشروخها المتعدّدة موضعُ الدرس والتحصيل، وابن مالك عالم راويةٌ حافظ مستنبط، وهذا ما سدّد خطاه فيما كتب ونظم من المتون.

ومن خُلق الأستاذ أنه لم يكن يُنزل مؤلفاته منزلها الحقيقي، فيُسارع إلى طبعها

(١) مجلة الثقافة، العدد ٤١٥، ١٠/١٢/١٩٤٦.

وإذاعتها، فقد كتب مؤلفاً عن العلوم العربية نشر منه عدة مقالات في مجلة المجمع العلمي بدمشق، وأملى على طلابه قدرأ كبيراً من صفحاته، ولم يشأ أن يجمعه في كتاب خاص، وهذا خلُقٌ أعرفه لدى كثير من الفضلاء، إذ يُحاسبون أنفسهم على الجديد فيما يسطرونه، فإذا لم يجدوا ما يروقهم - مع وجوده فعلاً - نكصوا عن إذاعة ما أمْلوه.

لقد كان الأستاذ الدكتور منصور فهمي أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب عدّة سنوات، وفي كلّ عام يُملّي على طلابه فصولاً منسّقة في قضايا الفلسفة، ولا يُجيز لنفسه أن يطبعها كما يفعل زملاؤه، وقد سأله محرر مجلة المعرفة عن رغبة القراء في الاطلاع على دروسه الجامعيّة أسوةً بزملائه الكبار، فذكر لصاحب المعرفة أنّه في دروس الفلسفة لم يأت بجديد يُحسب له، إذ هو عالّةٌ على ما كتب الفرنسيّون في هذه المادّة، لذلك لا يستسيغ أن يجمع هذه المحاضرات في كتاب مطبوع، ولكنّ غير منصور فهمي، وغير طه الراوي قد جمع ما أخذ عن غيره، وأصدره باسمه في عدّة كتب، ضمت له الشهرة وامتداد الصيت! لأنّ الأخلاق تتفاوت، ولكلّ وجهته التي يستريح لها. وقد أقولُ معقباً على موقف الراوي: إن ما نشره في مجلة المجمع العلمي وسواه مما سأخصّه ببعض التعليق نقدّمه للقارئ باحثاً مجتهداً، وإن نظرتّه المُشفقة إلى آثاره هي دليلٌ حساسية مرهفة، أو هي صوفيّة زاهدة ترى الانزواء خيراً من الانطلاق، والصّمت أحسن من الضجيج.

وقد علّل الأستاذ ناصر الحاتي قلة مطبوعات الأستاذ باشتغاله بالمناصب الإدارية، وقيامه حقّ القيام بأعباء الوظيفة، وهو تعليلٌ محتمل، لأنّ الأعمال الإدارية عند الرجل العادل ذي الضمير اليقظ تأكلُ جلّ وقته، وتشغلُ يومه الأطول في اللقاءات وإصدار القرارات وكتابة اللوائح، وهذا جهدٌ صارف عن كل إنتاج أدبي لمن يرفع حق الوظيفة على وجهها الأصيل.

-٢-

قد تكون في مجلسي من مجالس الأدب والسمر، فيدور البحث حول مسألة علميّة، يشترك في تحليلها المجتمعون، وتعجب حين تجدُ من لا يلمّ إلا بالقليل من موضوع النقاش يتصدّر للحديث ولا يكادُ ينقطع كلامه على ما يحمل من الأخطاء،

في حين ترى العالم المتمكن من هذه المسألة وغيرها صامتاً يسمع ، ولا يتكلم إلا مضطراً حين يُسأل ويُنتظر منه جواب السؤال ، وما نراه في المجالس الأدبية نجده في المقالات العلمية بالمجلات ، فكثيراً ما يتعرض للنقاش من ليس أهلاً له ، على حين يصمت صاحب الرأي الصائب .

والأستاذ الراوي من الطراز الأخير ، فقد تحدث عارفوه بأنه كان يقرأ بحوثه وبحوث غيره العلمية في ندوته الأدبية التي تنعقد ، في منزله مساء كل سبت ، ويُناقش عناصرها مناقشة من يخطيء ويصوّب عن دراية وثبّت ، ثم لا يدلي بدلوه في الحوار على صفحات المجلات التي تنشر ما يُقال ، إلا إذا اضطر اضطراراً ، لذلك نجد بحوثه العلمية المنشورة في المجلات رصينة هادفة لا تعالج إلا ما يدور حوله النظر العلمي ، وهو فيما يكتب باحثاً في مجلة أو محاضراً في مجمع لا يميل إلى الإسهاب المطيل في غير طائل ، بل يعمد إلى صُلب الموضوع ، فيمتع القارئ بزبدته دون لغو ، وفي الكتاب من يسهب إسهاباً عُرف به ، حتى إنك لتقرأ مقاله الطويل ، فتقفز مُجتازاً عدة أسطر في كل عمود مما كتب ، ولا تكاد تفقد شيئاً مما قال .

لقد ظهرَ في لبنان قاموسٌ لغويّ يرتب حروف الكلمات وفق النطق ، ولا يُبالي بحروف الزيادة أو حُرُوف الأصل ، فيكتبُ مثلاً «استفهم» في حرف الألف ، وصاحب هذا المعجم يرى في عمله تيسيراً على القارئ ، ولكنَّ ما قام به لم يصادف قبول الأستاذ الراوي ، فتعرّض لكتابة نقدٍ هادف لهذا الاتجاه ، ولم يُشر إلى اسم القاموس المنقود ، ولكنه كتب بحثه في مجلة الكاتب المصريّ تحت عنوان (رأي في ترتيب المعجم العربي الحديث) ، بدأه بحديثٍ علمي عن ترتيب المعاجم اللغوية في التراث وطريقتها المختلفين في جمع الكلمات وتدوينها ، مع ضرب الأمثلة الموضحة ، والاستشهاد بنقول شافية تبدي وجهات النظر المختلفة ، ثم هدَف إلى ما يريده من موضع النقد للقاموس اللبناني ، فقال^(١) :

«ولهذا رأى بعضهم أن تُوضع المعاجم على أسلوب تكون العبرة فيه بحروف الكلمة كلّها سواء في ذلك الأصلية والزائدة ، فتوضع كلمة (تتري) مثلاً في باب التاء

(١) مجلة الكاتب المصري ، فبراير سنة ١٩٤٧ ، نشر بعد رحيله رحمه الله .

والتاء وما يثلثهما، وكلمة (أتقى) في باب الهمزة والتاء وما يثلثهما، وهكذا كما فعل واضعو معاجم البلدان، فإنك إذا راجعت مُعْجَم ياقوت في كلمة (أسورة) مثلاً، تجدُها في باب الهمزة والسين وما يليهما، وإذا طلبتَ هذه الكلمة في «الصحاح» وجدتها في فصل السّين من باب الرّاء، وإذا طلبتها في «المصباح» وجدتها في باب السين والواو وما يثلثهما . . .» ثم قال الأستاذ بعد أمثلة أخرى :

«ونحن نرى أن هذا الرأي - على ما فيه من ظاهر جذاب - غير سديد، لأننا لو سلطنا في وضع معاجم اللغة هذا المسلك لجاءتْ ضخمة جداً كثيرة التكرار، مضطربة الترتيب والتبويب، وذلك لما في لغتنا العزيزة من الوفرة في المشتقات والتنوع في المصادر والجموع، فإذا أردنا أن نأخذ مثلاً على ذلك؛ ما اشتقّ من مادة خرج وما يتصل بها، كان علينا أن نثبت كلّ واحدة من الكلمات الآتية في موضع يختلف عن مواضع أخواتها (خرج، يخرج، خرجاً، مخرجاً، مخارج، خارج، خراج، خوارج، أخرج، إخراج، استخرج، يستخرج، استخراج، المستخرج، أخارج).

وكلّ كلمة تذكر في موضع تحتاج إلى تفسير قائم بنفسه، وفي هذا ما فيه من التطويل الذي لا طائل تحته، فإذا أخذنا بهذا الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرّق المصادر في مواضع شتى، مع أنها في الترتيب التقليدي تُجمع في موضع واحد، وكذلك القول في الجموع . . .»

ومضى الباحث يضرب الأمثلة الدالة على وجهته بإشباع حتّى انتهى إلى قوله : «أما القولُ بأن الكثيرين من الذين يحتاجون إلى مراجعة المعاجم لا يهتدون إلى أصل الكلمة، فهو من المغالاة بمكان، لأنّ الذي لا يُميّز بين الأصول والزيادات، ولو على سبيل الإجمال، لا يحتاج إلى مراجعة المعاجم».

وإذا كنْتُ أوافق الأستاذ في كل ما كتبه عن هذه الطريقة، فإنّني أخالفه في رأي آخر، كتبه في مجلة المستمع العربي اللندنية حيثُ سمع تهجماً على ابن خلدون لما ذكره عن العرب في المقدمة، فكتب بهذه المجلة فصلاً تحت عنوان (العرب والأعراب والفرق بينهما)، بدأه بحديث شاف عن اشتقاق المادّة، وما دار حوله من نقاش، حتّى إذا أشبع هذه الناحية قال: «وقد كان الناس في القرن الثامن الهجري وما بعدها يُطلقون اسم العرب، ولا يريدون به إلّا الأعراب خاصة، فجرى ابنُ

خلدون في مقدمته على عُرف زمانه، ولذلك اختلط على الناس فهم كلامه، فاختلفوا في مُرادِه، فمنهم من قال: إنه لا يُريد بهذه الكلمة إلا المتنقلين من أهل البوادي خاصّة، ومنهم من قال: إنّها كلمة مطلقة، فيجب إجراؤها على إطلاقها، فهو يُريد بهم هذا الجيل من الناس حضرهم وبدوهم.

وقد أطنب الكتاب في هذا الموضوع وأسهبوا، مع أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح، فإن أسلوب ابن خلدون يدلّ على أنه جاري عُرف زمانه في إطلاق لفظ العرب على الأعراب خاصة، ولا يزالُ هذا العرف شائعاً عند العامة من عرب هذا العصر في العراق والشام ومصر وغيرها، فلا يفهمون من لفظ العرب إلا البدو والقبائل التي تقطن الأرياف، وبعض الناس يظن أن العرب والأعراب لفظان مترادفان لا يتميز أحدهما عن الآخر، وهو تخليط جرّ إليه قلة الاطلاع وقصر الباع».

هذا ما قاله الأستاذ الراوي، وإليه ذهب الأستاذ ساطع الحصري والأستاذ محمد جميل بيهم، وغيرهما من كبار الباحثين، وقد كتبتُ فصلاً تحت عنوان (العرب في مقدمة ابن خلدون) ألمعت فيه إلى قول ابن خلدون بنصه المسهب مشفوعاً بآراء هؤلاء الأفاضل؛ الراوي والحصري وبيهم، وقلت في الرد عليهم^(١):

«والحقيقة أن تأويل العرب بالأعراب ظلم سافر، متكلّف لا يحتمله السياق، فالَّذين فتحوا الممالك - وقد ادّعى ابن خلدون أنّهم إذا فتحوا الممالك خربوها - هم العرب، والَّذين اختطّوا البصرة والكوفة والقيروان - وقد ذكرهم ابن خلدون أيضاً - هم العرب، لا الأعراب، كما أنّ الذين تولوا الجباية والخراج، وعبروا أفريقيا والمغرب، من الذين عناهم ابن خلدون عرب تغلبت كثرتهم الكاثرة على من اندمج فيهم من بعض الأعراب، وإذا كان جميع هؤلاء أعراباً فليس لدينا عرب البتّة، فكيف تتجاهل الواقع...» وقد أفضتُ في هذا المنحى بما يتعذر نقله.

هذا عن رأيه في العرب والأعراب، وهو يذكرني بمقال له جيد، كتبه تحت عنوان (وهم شائع، موشحة ابن زهر، لا موشحة ابن المعتز) حيثُ كتب باحثٌ في تاريخ الأدب العباسي يُعلنُ أنّ الموشحات من اختراع ابن المعتز، وقد سبق بها

(١) نظرات أدبية، للدكتور محمد رجب البيومي ٨٢/٤.

الأندلسيين، استناداً إلى رواية ضعيفة وردت في كتب بعض المتأخرين، وموشحة ابن زهر التي نسبت إلى ابن المعتز هي الموشحة الذائعة المشتهرة، ومطلعها:
أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
يقول الأستاذ طه الراوي بعد أن أكد نسبة الموشحة لابن زهر ذاكراً مصادرهما في كتب التراث^(١):

«ولا أدري أي شيطان سَوَّل لبعض المتأخرين أن ينسب هذه الموشحة إلى عبدالله بن المعتز، فتبعه على هذا الخطأ جماعة من المعاصرين الذين أخرجوا للناس مجاميع أدبية، فجزموا بنسبة هذه الموشحة لابن المعتز، مع أن ابن المعتز نفسه لا يعرف شيئاً عن هذه الموشحات، ولا عهد لأهل زمانه بشيء منها، ثم نقل الأستاذ الراوي عن ابن خلدون ما يؤكد نسبة الموشحات إلى الأندلسيين متابعاً نشأتها وتسلسلها.

ولكن أقوى دليل قدمه الأستاذ الراوي في هذا المجال قوله: «ولا أدري كيف يسوغُ لمتأدب أن ينسب إبداع هذه الموشحة إلى ابن المعتز، وابن المعتز لم يُشْرُ ولم يُومِءْ إلى هذا الضرب من ضروب الشعر في كتابه الذي ألفه في البديع، ولو كان لهذا النوع أثر في زمانه لفسح له الصدر من كتابه، ولأوسع فيه الشرح والإيضاح والتنويع والتفريع، ولكان من المتعذر أن يخفى على أساطين المؤرخين من أضراب ابن خلدون والمقري».

وتلك حجة بالغة، لأن كتاب البديع لابن المعتز قد جمع كل جديد من ضروب البيان الشعري والتثري في عصره، فكيف يسكت المؤلف عن مذهب بديعي جديد قد قال فيه، وإذا كان قد نظم هذه القصيدة وشاعت في عصره، فلم لم يُحاكِها شاعرٌ من بعده من أدباء العصر العباسي، وابن المعتز علّم لا نكرة، أيكُونُ قد جاء بها فصارت هَمَلًا لا يلتفت إليها أحد؟!!

أذكر أن أستاذنا الشيخ عبد الجواد رمضان قد ذهب في مذكرته عن الأدب الأندلسي إلى أن هذه الموشحة أشبه بشعر ابن المعتز، وقد بحثت كثيراً عن وجه

(١) مجلة الرسالة، العدد ٤٥٩، ٣٠/٤/١٩٤٢.

الشبه الذي أُلْمِعَ إليه أستاذنا فلم أجده، ورددت عليه في حينه بما أميل إليه^(١). .
ويذكرني تحقيقه الأدبي عن هذه الموشحة ببحثن جديدين ألقاهما الأستاذ في مناسبة الاحتفال بشاعري العربية الكبيرين؛ أبي الطيب المتنبي، وأبي العلاء المعري لمروؤ ألف عام على رحيلهما، إذ أقام المجمع العلمي العربي بدمشق احتفالين أدبيين للشاعرين، دعا إليهما أساطين الباحثين في الشرق العربي، فألقى الأستاذ الراوي في احتفال المتنبي بحثاً عن الفخر في شعره، كما ألقى بعد عشرة أعوام في احتفال المعري بحثاً عن عوامل الخلود في شعر المعري، واختيار هذين الموضوعين موفق؛ لأنَّ الباحثين من قبل تحدّثوا عن الفخر في شعر المتنبي، فلم يبلوروا القول في نُقْطَةٍ محدّدة هي السرّ الحقيقي لهذا الفخر الشائع في ديوان الشاعر الكبير، ولكنَّ الراوي أنصف الفخر باعتباره غرضاً من أغراض الشعر العربي في عصوره المتقدّمة، كما أنصف الفاخر الشامخ وهو المتنبي، فقال عن الفخر^(٢):

«ويرى المخلفون الرعايد أنَّ الفخر ضرب من ضروب العجرفة الفارغة والجبروت الكاذب، وتلك خديعة طبايعهم الخاملة، وسجية نفوسهم الخائفة المستخذية التي تستمرىء الهون، وتقع بالدون، أمّا النفوس المجبولة من طينة الشرف فتأبى إلا مساماة النجوم، ذلك لأنَّ الله برأها حرّة فلا تلين للذلة، ولا تدين بالقلّة، والعربي مجبول على الإباء والأنفة، مفطورٌ على العزة وسموِّ الهمة، والطموح إلي معالي الأمور، وبهذه السّجاياء أحرز ما أحرز في ماضي الزمان من عظمة الشّأن، وبسطة السلطان».

هذا عن الفخر، أما الشاعر الفاخر، فقد قرّر المحاضر أن المتنبي خلّق مشغوفاً بالرياسة طامحاً للملك، وقد جرّب الثورة الحمراء في مُقْتَبَلِ عمره فأخفق، فعاد ممتطياً صهوة البيان، ليبلغ عن طريق الشعر ما عجز أن يناله عن طريق الثورة. ثم أفاضَ الباحث في الاستشهاد بما يؤكد منحاه من شعر المتنبي، وتلك عادته التي تدفعه إلى الاحتفاء بقول القائل، ودّرّسه واستشفاف مراميه، حتّى لِيَنخُلَ الديوان نَخْلاً دون اكتفاء ببعض عن بعض، وقد قال: «إنَّ هيام أبي الطيب بالمجد والسلطان سرٌّ من أسرار نفسه المجبولة على التّعالي، وهذا الهيام هو مصدر هذا الفخر».

(١) كتاب الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ١٠٩.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ١٦٩، ٢٨/٩/١٩٣٦.

أما محاضراته عن سر الخلود في شعر أبي العلاء، فقد بدأها متسائلاً عن السبب في شغف الناس بشعر أبي العلاء في جميع العصور التي تلت وجوده، وهيامهم بروايته، ومع اعترافه بجودة الألفاظ، وقوة الخيال، فقد قدّم استشهادات كثيرة من الشعر العلائي، تدل على أنّ السرّ في الخلود ليس في جودة الألفاظ وقوة الخيال وحدهما، ولكنه يكمن في حديثه الفلسفي عن النفس والاجتماع، وموقف الإنسان في الحياة، وما يعترضه من شرور، وما يتجاذبه من عوامل الارتفاع والانخفاض، وإذن فأبو العلاء كما يقول الراوي^(١):

«ولسنا نريد استقصاء آراء أبي العلاء في الإنسان وما يحيط به من العوارض، وإنّما نريد أن نشير إلى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً، واتّخذ له موضوعات حية باقية، فجاء شعره جامعاً بين الابتكار في الموضوع، وبين العمق في التفكير، والصراحة في التعبير، والبراعة في التصوير، وإن شعرأ يجمع هذه العناصر الحية لجديراً بالبقاء ما بقيت أغراضه وموضوعاته حية ماثلة، وما بقي الفن الذي أبرزه حياً ماثلاً، وكلّ شعر يجمع بين حيوية الموضوع وعمق التفكير وصراحة التعبير فإنه خليق بالعيش الطويل».

ولعلّي أشير إلى أبرز خصائص الراوي في بحوثه، وهي الإيجاز غير المخلّ، فهو يحرص على أن يقدم أفكاره - كما قلت من قبل - محدّدة مركزة، وأذكر أنّه ألقي محاضرات بدار المعلمين العالية عن الخليل بن أحمد، ولم يشأ أن ينشرها جميعها، بل اختصرها في مقالين نُشرا بمجلة الرسالة^(٢)، وقد جمعا خلاصة ما يقال عن الخليل.

وكُتّاب التراجم التاريخية يحسنون للقراء حين يعمدون إلى اللّباب الخالص من القول، فيسطرونه في جلاء ووضوح، وقد عهدنا نفرأ من الباحثين يشغفون بالحجم العددي، فيكثرون في غير جدوى، فلو كتب أحدهم عن الخليل بن أحمد، لكتب مئة صفحة قبل أن يدخل في صميم الموضوع، حين يتحدّث عن العصر العباسي وقيام الدولة الجديدة، وعلماء العصر من قبل الخليل، ومن شاركوا في النهضة

(١) مجلة الثقافة، العدد ٣٢٦، ٢٧/٣/١٩٤٥.

(٢) مجلة الرسالة، العددان ٥٢٣، ٥٢٤.

العلمية، وبذلك يخرج الكتاب عن حديث إنسان إلى حديث عصر معروف مشتهر،
وليس بالجديد ما قاله أمثال هذا المسهب المطيل .

لقد كان الراوي بتواضعه وإخلاصه وحسن توجيهاته العلمية، ومحبته لتلاميذه
الكثيرين، ووفائه لزملائه وإخوانه مثلاً يُحتذى علماً وعملاً، فرأيت أن أتناوله
بالحديث، لما لمست من خلاله الطيبات .

* * *

عبد الحميد جودة السحّار

في قصصه الإسلامي

لا أدري لماذا يُهضم إبداع عبد الحميد جودة السحّار، فلا تُفرد له المقالات الناقدة، مع أنه ترك من القصص الفني ثروة ممتازة ذاتُ عدد موفور، وقد تعدّدت طبعاَتُ مؤلفاته، فدلّ ذلك على أن القراء قد أقبلوا عليها مستمتعين، لقد كتب في الحقل الإسلامي ما لم يكتبه غيره من المبدعين، باستثناء الفنان المبدع الأستاذ علي أحمد باكثير، وكلا الرجلين مظلومٌ لدى النقاد، لا شيء سوى التزامهما بالأدب الإسلامي بمَعْنَيْهِ؛ الفني والخلقي.

ومن نكد النقد أن يتصدّره في هذا الزمان من يضيق ذرعاً بهذا الاتجاه. وقد كتب كاتبٌ من هؤلاء زاعماً أن رواية (والإسلاماه) التي هام بها الجمهور قراءةً وتمثيلاً خُطبةً منبريةً، والخطبُ المنبرية رائعةٌ في مجالها التعبيري، لأنها تؤدي دوراً هاماً في التربية والثقيف، واختيارها في مجال التهوين والاستخفاف يُوحى ببُغضٍ متأزم نحوها، ولكن الناقدين المتعاليين لا يجدون غيرها في مجال التشبيه.

وقد كتب عبد الحميد السحّار رواياتٍ كثيرة في غير التاريخ الإسلامي، وأثنى عليها المنصفون من النقاد ثناءً ممتازاً، فإذا كان اللونُ الديني لا يعجب هؤلاء المُشحيين عن أدبه، فلماذا غفلوا عن قصصه الأخرى التي تصوّر مجتمعنا الحديث، بعيدةً عن تاريخ الإسلام؟! أَيْكونُ في الإشادة بها تذكير بإنتاجه الحافل، وهم لا يريدون له أن يذيع! هذا ما أراه في تحليل هذا الصمت المريب.

لقد بدتْ أمارات التفوق الفني في أولّيات عبد الحميد جودة السحّار، وقد اعترف أن قصّته الأولى عن (أحمس) ليست تحوز تقديره، إذ كتبها على عجل، فظهر له في بعض نواحيها ما يستأهلُ النقد، ولكنّه بعد قصّة (أحمس) قد واصل الخطو الموفق، فبدتْ ثماره ناضرةً مشتهاةً، وصارت حديث المنصفين من النقاد،

وفي طليعتهم الناقد الجادّ الصارم الأستاذ سيد قطب الذي حمل لواء النقد الفني في مجلتي الرسالة والثقافة أمداً غير قصير، وكان لصوته النقدي صدًى يهابه كبار الكتاب فضلاً عن شبابهم، وحين قرأ المجموعة القصصية الأولى (في الوظيفة) وقد صدرت تاليةً لقصة (أحمس) قابلها بتزحيب مُهَيَّء على صفحات مجلة الرسالة، إذ كتب عنها فصلاً نقدياً، قال فيه عن المؤلف^(١):

«إنه ذو عين لَمَاحَة تسجل الحركة الحسيّة، كما تسجّل الحركة النفسيّة، ثم تُغلّف اللَّمحة الموسومة بروح السخرية، وتمزجها بعنصر الفكاهة، حتى يخيّل إليك أنه ينظر إلى الدنيا كما ينظر إلى ملهاة كبيرة، تأخذ عينه فيها لمحات التناقض، وتأخذ حسّه فيها مواضع السخرية، وتأخذ نفسه فيها مواطن الدعابة! ولعله أن يكون قد بالغ في إبراز مواضع السخرية، ومواطن التشويه المضحك في هذه الصور. . ولكنّ الذي لا مرأى فيه أنه وُفّق في تصوير جو الدواوين، وفي تشخيص روح الوظيفة، فهذا الجو هو جو الغش والخداع والتهافت والتهالك والرياء والجبن، والنفاق والوقية».

ثم استشهد سيد قطب بصورة محسوسة رسمها المؤلف لبعض الكُتل البشرية التي تتزاحم على الترام، وهي على بساطتها صادقة كاملة، فيها عنصر الفكاهة، وروح الدعابة، وهي جزء من صورة يسجّل فيه ذهاب العمّال إلى الورشة، قال السّحار:

«تكدّست أكواُم البشر في داخل الترام وعلى جانبيه، ومن خلفه ومن قُدّامه، واختلطت الأذرع والسيقان حتى أصبح من المستحيل أن تقع العين على هيئة إنسان، فهذه ذراعٌ، وهذا رأسٌ، وهذا خصرٌ؛ أمّا لمن هذا الرأس، ولمن هذه الذراع، وأين صاحبُ هذا الخصر، أو هذه الساق، فهذا ما لا يفتن إليه إنسان، وكثيراً ما يُخيّل للناظر إلى الكتل البشرية المترصّة على سلّم الترام، أن للجسم الواحد رأسين، أو للرأس الواحد جسمين، وأن أغلب الواقفين على سلّم الترام ينافسون البهلوان، فهذا واضعٌ طرف قدمه على حافة السلم، وقابضٌ على قائم الترام بإصبع، وهذا

(١) مجلة الرسالة، العدد - ٦٠٣ - ٢٢/١/١٩٤٥ م.

متعلق في عنق آخر متعلق بسروال ثالث، وهكذا» ومضى سيد قطب في استشهاده بمثل هذا النمط:

«إنّ الذي يرسم هذه الصور في مطلع حياته الفنية قصّاصٌ موهوب، وهذا السيّل الدافق من الإبداع الفني كيف يُحسب عليه، ولا يُحسب له؟ أنا أعلم أن من النقاد من لا يُرحبون بالعودة إلى التاريخ الماضي، وقد عبّر عن وجهة نظرهم الدكتور غالي شكري، حين قال عن السحار^(١): «إنّه يستشعر خوفاً كبيراً على جُعبَةِ القيم القديمة من المثاليات والأديان والسماويات، ويُحسّ خطورةً عظُمى على هذه كلها من قبل التطور الجاري في النظام الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، إنهم ينظرون إلى تلك القيم باعتبار أنها مبادئ خالدة خارج الزمان والمكان، لا تخضع للتطورات المادية في حوادث البشر، وهم يُكترسون أنفسهم في الحفاظ عليها دون أن يتبينوا تفاصيل هذا التطور، وكيفية شموله الأخلاقي».

والكاتبُ الناقد يعرف أن لدينا ثوابت ومتغيرات، فليس كل شيء ثابتاً في الحياة ثبوتاً أبدياً، وليس كل شيء متغيراً في الحياة تغيراً متواصلاً، والعقائد والرسائل والمثاليات من الثوابت التي تشرئبُ إليها النفوس، لتقتبس من نورها في غياهب الظلام، فتطورُ النظم الاقتصادية والاجتماعية لا يتعارض مع المثاليات إذا سار في الاتجاه الإنساني الصحيح، إنما يكونُ هذا التطور اقتصادياً واجتماعياً موضع نقد إذا اتجه إلى الأنانية والاستغلال، واللعب بالأهواء، وراء نظريات خادعة تطبق على الفقراء ولا يتفقد بها الرؤساء! فإذا أخلص السحار لمثاليات الأديان، فهو منسجم مع نفسه، إذ يرى في نفسه شوقاً إلى الارتفاع، وبُعداً عن جواذب الهبوط، وفي الأدب الأوروبي قصص تتحدث عن عشرات القديسين والأنبياء، لاقت قبول النقاد وترُجمت إلى عدة لغات، ولم يقل أحد: إنها تقف أمام التطور الجاري في النظام الاقتصادي، بل قالوا: إنها نسيم يهب منعشاً في ساعات الهجير..

ومن حظ القارئ مع السحار أنه كتب مؤلفاً تحدث فيه عن تجربته الفنية، فكشف كثيراً من الحقائق المجهولة، كما كتب ما يشبه الترجمة لحياته، فأرانا كيف

(١) التيار الإسلامي في قصص السحار، للدكتور صفوت زايد، ص ٨٧؛ نقلاً عن كتاب (أزمة الجنس في القصة العربية) للدكتور غالي شكري، ص ٢١٦ وما بعدها.

نشأ في أسرة دينية ملتزمة، وكيف كان والده يجتمع برفاقه المتعبدين في المنزل مساء، ليقروا صفحات من كتب التاريخ الإسلامي، فكان يستمع هو وأخواه إلى ما يُقال في شوق، وكيف نمت بذرة الفن في نفسه مع أخويه حين أقدموا على طبع مجلة تحمل إنتاجهم الأدبي طبعاً ساذجاً يتفق مع مقدرتهم المادية، كما تتفق موضوعات المجلة مع طموح طلبة صغار يحملون بالمجد، هذه النشأة التي فصلها الكاتب بما لا مزيد عليه تُعطي انطباعاً صادقاً للإخلاص التام في التزامه الديني، فهي مقدمة لنتيجة لا مفرَّ منها.

وقد كان في حياة السحار ما قد يبعده عن اتجاهه الفني، لأنه زاول من الأعمال المادية ما يُنبئ عن عالم الفن والإبداع، إذ كان بعد تخرجه من كلية التجارة يُزاول أعمالاً اقتصادية تزدهم فيها الأرقام والإحصائيات، إذ عمل مديراً لإدارة الاستيراد والتصدير، ومستشاراً لوزارة التجارة بالمملكة العربية السعودية، ومديراً لقطاع النقل والتجارة بالمؤسسة الاقتصادية، ورئيساً لمجلس إدارة الشركة العامة للتجارة الداخلية، وعضواً بمجلس إدارة المؤسسة الاقتصادية، ومديراً عاماً لمؤسسة الحراريات، ثم رئيساً لمجلس إدارتها، ورئيساً لمجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للسينما والمسرح والموسيقى، وهذه الوظائف كلها باستثناء الوظيفة الأخيرة بعيدة عن اتجاهه الفني، ولم تُلَفَّ القاصّ إلى العكوف على مجتمعاتها، فيصوّر أحداثها في قصص لا بسها ورأها رأي العيان، ولكن الأديب - كل أديب - له عالمه الحر الذي يعيش فيه بوجوده مستقلاً عما حوله.

وقد عاش عبد الحميد أجمل أيام حياته في آفاق النبوة، وطار بروحه إلى مرابع رسول الله ﷺ في مكة والمدينة وبدر وأحد وخيبر، ثم مصاحباً لرحلات الصحابة في فتوحاتهم الماجدة، على امتداد العالم الإسلامي الفسيح، ثم هو لم ينسَ مجتمعه المصري، وكيف ينسَاهُ، وله إحساسه اللاقط، وشعوره المرهف، وحنينه إلى إنفاذ البائسين من وهدة الحرمان والفاقة، وسقطات الجريمة، ونزوات الغريزة.

ولو اقتصر السحار على ما كتبه عن مجتمعه الخاص لكان فناً من طراز الأساتذة: يوسف جوهر، وأمين يوسف غراب، ومحمود البدوي، وغيرهم من المبدعين؛ ولكنه كان ذا جناح ضخم يحلق به في عالمه الفسيح، حلق به من الأفق

المصري الحاضر، ثم امتدت أمامه الآفاق إلى الماضي السعيد في عهد النبوة والصحابة ومن اتبعهم بإحسان! وصاحبُ الإنتاج الغزير المتواصل لابد أن توجه النقدات الكثيرة إلى ما يبدع من ثمار متواصلة؛ لأنه يعمل دائماً، ويعرض ما يعمل، فلا بد أن يسمع كلمة النقد، وكلمة التقريظ، ولكن ما نال الرجل من الناحيتين بالنسبة إلى تركته الغزيرة قليل يسير.

على أن الذين تحدثوا عنه قد راعهم كثرة نتاجه الفني، وتصفّحوه على عجل، ليبرموا رأياً سريعاً عنه، دون اطلاع شامل، وأهم ما ووجه به عبد الحميد السحر من النقد هو غلبة العنصر التاريخي على العنصر الفني فيما كتب من القصص الديني، وكان الأولى أن يقال: غلبة العنصر التاريخي على العنصر الفني في بعض ما كتب فحسب؛ لأن الفترة الأولى من حياته الأدبية قد كانت منتظمة السير دون تعجل، فأتاحت له أن يزوج بين العنصرين على نحو بديع.

وهذا واضح فيما نشره بالمجلات الأدبية والكتب المستقلة، قبل أن يظهر فيضه الغزير في عشرين جزءاً تحت عنوان (محمد رسول الله والذين معه)، صدر الجزء الأول سنة ١٩٦٥، وانتهى الجزء الأخير سنة ١٩٧٠، أي أنه في مدى خمس سنوات فحسب، أجهد نفسه في عمل فني تاريخي متصل، وهو عبء لا بد أن يلقي من الصعاب ما ينوء به أي كاتب، بالنسبة إلى حجمه الكبير وقصر زمنه المحدود، ولن يقول قائل: كان على المؤلف أن يطيل الفترة ليستطيع أن يخلو إلى نفسه مصوراً محلاً مبتكراً، لأن التأليف الفني في كثير من أحواله اضطراري لا اختياري، فالشاعر أو القاص يتلبسه شعورٌ جيّاش يُتيح له شتى الخواطر، فيرى نفسه مندفعاً إلى تصوير إحياءاته، وكأن سائقاً يسوقه صائحاً به، ولائماً مستحثاً إذا ونى؛ هذا الشعور الجيّاش ظلّ ملابساً عبد الحميد طيلة خمس سنوات يصل الليل بالنهار حتى فرغ من تدوين عشرين جزءاً.

وليس الفن وحده داعيه الأوّل إلى العمل، فهناك - في هذه الحالة بالذات - ما هو أقوى من الفن، وهو الحبّ الخالص لرسول الله ﷺ، والكرام من نبعته الطاهرة في الغابرين، والممتدة إلى القادمين، ولن يذوق حلاوة هذا الإيمان غير مؤمن صادق، وليس معنى هذا أن التاريخ قد أخفت بريق الفن، فلا يلوح منه غير بَرَق في غيم، ولكن معناه أن ما كان ينتظر من الفن لدى كاتب كبير كالسحر، كان

أقلّ مما كان، وهو مع ذلك قد قدّم صفحات من التاريخ الصادق في أبهى معارض البيان.

على أن الاتجاه إلى القصص الإسلامي قد واكب الاتجاه إلى القصص الاجتماعي في زمن واحد لدى السحّار، ففي بواكير نشاطه الأدبي كانت القصّة الدينيّة تتجاوز مع القصّة الاجتماعية فيما يدعه الأستاذ السحّار، لقد كتب القصص المجموعة في كتاب (همزات الشياطين) متناثرة في الصحف، ثم جمعها في جزء صادف إعجاب الناقلين، وخصّه الأستاذ سيد قطب بثناء نُشر في كتاب (كتب وشخصيات)، قال فيه^(١):

«من هذه المجموعة قصّة طويلة بعنوان (وسوسة الشيطان)، تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة، وهي الأقصوصة الرئيسية في المجموعة. . وهذه الأقصوصة هي التي فاجأتني مفاجأة تامة، جعلتني أعاود النظر في كل ما قرأته للمؤلف، لعلّي أكون قد أخطأت تقديره في أول الأمر، ثم عُدّت بعد هذا كله مقتنعاً أنها وثبة واسعة ومفاجأة كاملة، وقادتني هذه المفاجأة إلى أن أراجع كلّ ما تحويه المكتبة العربية في هذا الباب، فوجدت هذه الأقصوصة تقف وحدها منفردة بين هذا الحشد من الأقاصيص، ذلك حين نستثني أقصوصة (قنديل أم هاشم)»، ثم راجع قطب القصص المترجمة، فوجدها أيضاً «تقف رافعة الرأس مع أعظم ما أعجبت به من هذه المجموعة»، وهذا ثناء لا يقال في غير عمل ممتاز.

وفي هذه الآونة كتب السحّار أقصوصتين دينيتين نشرهما بمجلة الكتاب^(٢)، إحداهما تحت عنوان (خطيئة ودم)، والأخرى تحت عنوان (بلقيس ملكة سبأ)؛ أما الأولى فكانت متواضعة غاية التواضع، لأنّها جمعت حادثين مختلفين في فضل واحد، حادث خلقة آدم وحواء وسجود الملائكة لآدم، وحادث مقتل هابيل على يد قابيل؛ فتحولت القصة إلى سرد معروف لا تتخلله البوارق.

أما قصة (بلقيس ملكة سبأ)، فقد واكب الفن الإبداعي الحادث التاريخي مواكبة تشهد للسحّار بما ينتظره من مستقبل، إذ بُدئت الأقصوصة بوصفٍ رائع لحالات

(١) مجلة الكتاب، يونيه، سنة ١٩٤٧م.

(٢) مجلة الكتاب، نوفمبر، سنة ١٩٤٧م.

نفوسٍ فزعة تخافُ نقمة جبار عنيد، وتسلسل الحديث يُصوّر اتصال بلقيس بالملك حتى خدعته، وعملت على مصرعه انتقاماً لأبيها الذي غصب ملكه، أما حديث العقاب مع الهدهد فهذا ما لم أقرأه من قبل، ولا أدري أُسبِق به القاص أم لم يُسبِق، وهو حديث حواري منسجم، ولا تسل عن إبداع السحار حين وصف المشهد الرائع للقاء سليمان - عليه الصلاة والسلام - ضيفته الزائرة، وما أعد لها من مشاهد تحار في وصفها الألباب، وفي ذلك إيماضاتٌ نفسية تشي عن أحاسيس متطلّعة؛ أما مشاعر بلقيس إزاء ما أحسّت به نحو الصرح الممرد من قوارير؛ فمما دعاها إلى أن تقول للرب: إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين! إني أعتبر هذه الأقصوصة بدء الاتجاه الفني الجادّ إلى قصص الأنبياء، إذ كان نجاحه في تصويرها مشجعاً له أن يرتاد ما ارتاده من عوالم فسيحة في هذا النطاق.

قبل أن أكتب ما أعنيه عن فن السحار أعلن أنه باحثٌ مجتهد كتب عن القصة وتأليفها الأدبي ملاحظات جيدة سجّلها في كتابه (القصة من خلال تجاربي الذاتية) حين دعاه معهد الدراسات العربية للقاء محاضرات عن القصة توضّح تجاربه الخاصة بها، مستشهداً ببعض آثاره حين يتحدث عن مصطلحات القصة الفنية، فأبدى ملاحظات ذكية عن الفكرة في القصة، وعن الأسلوب مُريداً به التعبير، وعن الواقعية، وعن الأسلوب الفني والحوار، والحبكة مفككة ومتماسكة، وطريقة عرض الحوادث، والمنولوج الداخلي؛ والذي يتحدث عن ذلك كله في وضوح وتركيز أستاذ متمكن لا بدّ أنه قرأ كثيراً في أصول هذا الفن، ولم يكن مجرد مؤلف موهوب يكتب القصة وفق ما تهدي إليه موهبته، ومن أبدع ما كتبه ما حكاه عن الواقعية في القصة، وعن جوها المناسب، وعن الصراع في القصة..

فالسحار حين ينتهج نهجاً خاصاً في قصصه إنما يعرف أي طريق يسلك، ويحيط خبراً بما تجنّب من طرق يفتأها سواه، لذلك كان من الضروري قبل أن نؤاخذه على نمط لا نرتضيه أن نفترض أنه يعلم النمط المقابل، وإنما اختار ما ننقده لمرجّحات ثبتت لديه، وأظهر ما يهمننا الحديث عنه في هذا المجال، موقفه من أحداث التاريخ، إذ ذهب بعض الذين حلّلوا أسلوبه الأدبي إلى أنه يُعنى بتقديم التاريخ للقارئ بالدرجة الأولى، ومعنى ذلك أنه صار مؤرخاً قبل أن يكون قصّاصاً، مع أنه

يقول عن نفسه بصدد حديثه عن (قصة أميرة قرطبة)^(١):

«إنني التزمتُ بأحداث التاريخ في هذه القصة، فلم أضف شخصيةً واحدة غير تاريخية، ولكنني حاولت أن أنفخ الحياة في التاريخ، وأن أحافظ على أوضاع القصة الصحيحة، وأن أصوّر الشخصيات بانفعالاتها وإحساساتها، وقوتها وضعفها، وأن أفسّر سلوك الشخصيات، وتفاعلها بعضها مع البعض، والصراع الناشب بين جنبات القصر على السلطة الفعلية، وألقيت الأضواء على دهاء ابن عامر، ذلك الذي بدأ حياته يحزّر للناس شكواهم في حانوت متواضع، أمام قصر الزهراء، وكيف استغلّ كل الشخصيات العظيمة في عصره، وضرب هذا بذاك، وانتهاز كل فرصة لتحقيق حلمه، حتى أصبح المنصور بن أبي عامر أشهر من استولى على السلطة في الأندلس».

فالسّحار لم يُضف شخصية خيالية في قصة أميرة قرطبة، وقد وُفق في رأيه إلى تصوير الواقع على أحسن ما يودّ، ولكننا نعلم أن حظّه من التوفيق سيكون أوفى وأوفر لو أضاف شخصيات خيالية إلى عمله الفني؛ لأنّ المؤلف في حاجة إلى إيضاح بعض المعاني الغامضة التي تظلم الشخصية الحقيقية لو نُسبت إليها، وهي لم تنسب في واقع الأمر، كما أنّه في حاجة إلى أن يُبرز صديقاً يناجي البطل ويطلّع على سرّه، فيرتاد أماكن مجهولة في نفسه، أو أن يُبرز عدوّاً خيالياً يُجسّم مأخذه، ويعدها عليه في حرية، ما أظنها تتاح لرجل واقعي نعرف من صفحات التاريخ ما قال، فالعمل في هذه القصة لا يخرج عن تنظيم أدبي لكتاب تاريخي، لدى المؤلف نصوصه ووقائعه، فسردها في سياق روائي، وكان الأولى أن يكون للرواية جوّها الفسيح، مناجاة وتحليلاً، وآمالاً وأحلاماً، وآلاماً وشكوى!

ذكر الأستاذ السّحار في حديثه عن تجربته الفنية أنه انتفع بآثار الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد أبو حديد في ميدان القصة انتفاعاً جيّداً، وجميع قصص أبي حديد تجمع بين الشخصيات الحقيقية والشخصيات الخيالية، وما بلغ الروائي الكبير هذا الأوج المشرق في صدارته الأدبية إلا بقصصه الحيّاشة بالحياة، الجامعة بين الحقيقة والخيال، فقصة (زنوبيا) مثلاً - وهي في رأيي أقوى ما كتب الأستاذ محمد

(١) القصة من خلال تجاربي الذاتية، ص ٦٨.

فريد أبو حديد - قد بلغت حد الروعة فيما كتبه الأستاذ على لسان الخياليين الذين لا وجود لهم في الواقع التاريخي، مثل الفيلسوف (لونجين)، إذ أن كل ما جاء على لسانه يصوّر معاني إنسانية خالدة يحسّها الرجل المرهف أمام المرأة المثقفة ذات الجلالة الملكية، وكم تنقص (زنوبيا) قدراً فنياً لو خلت من (لونجين) وأمثاله من مبتكرات الخيال.

ولا أطيل في هذا المجال، بل يكفي أن أستهبد بموقف تاريخي سرده الأستاذ السحار في قصته عن محمد رسول الله، وهو مشهد احتضاره الشريف حين همّ بأن يلتحق بالرفيق الأعلى، فقد نقل الأستاذ المشهد من صفحات التاريخ دون إضافة، وكان المشهد مؤثراً لا لِمَا سطره الكاتب، ولكن لعظم تأثير موضوعه الشجّي في نفس كل مسلم، بمعنى لو أن خطيباً منبرياً نقله من الطبري نقلاً لأجرى الدموع، وكان على السحار أن يُضيف من مشاعره الخاصة ما يُعطي الجديد للقارئ، لأنّ قارئ المشهد التاريخي في القصة لا يريد أن يقرأ المشهد التاريخي كما هو معلوم لديه، وكما قرأه عشرات المرات، ولكنه يريد أن يرى فيضاً من الأحاسيس المؤمنة تعبّر عن وجدانه الحبيس، وهذا ما أغفله السحار!

وقد دافع السحار عن اللغة العربية، حين اختارها مجالاً للحوار، مُهملاً من يذهبون إلى الحوار العامي بدعوى أنه يُمثل الواقع، وهي دعوى كاذبة، لأنّ الكاتب المجيد يخلق الجوّ الروائي الذي يجعل حوار اللغة الفصحى طبيعياً لا نشاز فيه، وأهون ردّ على من يتجهون إلى الحوار العامي باعتباره في رأيهم مُعبّراً عن الواقعية الملموسة أن نقول لهم: إننا حين ننقل مسرحية لشكسبير مثلاً، ونُترجم حوارها إلى اللغة العربية أيُمكن أن يقول قائل ذو عقل: يجب أن يكون الحوار بالإنجليزية، ليصدق النقل الواقعي! كذلك نترجم ما قاله العامي إلى لغة الأدب ترجمة تتسق مع الجو العام للقصة فتؤدّي دورها، دون أن يحدث الانتقال من العربية إلى العامية عند الحوار نشازاً تنفر منه الأذان.

يقول الأستاذ السحار^(١) - بعد أن تحدث عن تجربة له في الحوار العامي، سطرها في قصة أم العروسة -: «ولم أعاود بعدها كتابة الحوار بالعامية، لأنّي

(١) القصة من خلال تجاربي الذاتية، ص ٢١.

أحسست أن العامية لا تُحلّق أبداً، وبعد أن جبْتُ البلاد العربيّة كلها وجدت أن العامية تختلف في المعنى من بلد إلى آخر، وقد تختلف من إقليم إلى إقليم، وقد لا تُفهم إطلاقاً خارج نطاقها المحليّ . . . ولو سلمنا جدلاً بأنّ واقعية الأسلوب تحتم استعمال العامية، فإنّ التضحية بهذه الواقعية، ضررها أقلّ بكثير من التضحية بالحوار كله إذا ما كُتِبَ بعاميّة محلية لا تُفهم خارج حدودها، وقد قاسيْتُ من هذه التجربة عندما قرأت بعض الأقاصيص العراقية المكتوبة باللّغة الدارجة المحلية، ولم أفهم منها شيئاً.

وبعد؛ أفكراني ظلمت المؤلف حين أخذت عليه شحوب الفن في بعض صور السيرة النبوية التي كتبها في أجزاءه المتعدّدة! . . . يخيل إليّ أنّ كاتب سيرة رسول الله ﷺ بالذات يمشي على الشوك وهو مقيد، لأنّ إجلاله لنبية يمنعه أن يستفيض في تحليل نفسي لمشاعر قد لا يكون لها نصيبها من الواقع الصحيح؛ لأنّ الشخصية المقدّسة ذات الجلال الغامر لا يبلغُ إنسانٌ ما مدى تفكيرها وتصوّرها بالغاً ما بلغ .

وقد ألزم توفيق الحكيم نفسه في كتاب (محمد) أن يتقيد بالنص التاريخي دُونَ أن يأتي بحوارٍ لا أصل له، لأنّ المقام مقام الرسالة، وإذا كان هذا شعور توفيق الحكيم، فإنّ توهج هذا الشعور واشتعاله بنفس السحّار أقوى وأشدّ.

وإذن فلم تكن العجلة وحدها في مدى السنين الخمس هي التي حالت دون الانطلاق الفنيّ، بل كان تهيبّ الموقف واستشعارُ ما قد يحدث من الخطأ من بواعث هذا التهيبّ، وما نقوله عن رسول الله قد نقوله عن بعض صحابته، من أمثال أبي بكر وعمر، وخديجة وعائشة وعليّ والحسن والحسين وفاطمة، وسعد بن أبي وقاص، وأبي ذر الغفاري .

وقد كتب السحّار قصته عن أبي ذر في وقتٍ كانت الاشتراكية ذات غلاف خادع، كانت سراباً يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجد غير الحُرقة في الصدر واللهاث في اللسان، وقد صدّق السحّار الكلام النظريّ الخادع، ونسي التطبيق الوحشيّ المستغل، حيث تحوّلت الاشتراكية قيصريّة على يد ستالين ومن تبعوه، ولو كتب السحّار كتابه عن أبي ذر بعد أن زال كلّ غشاء عن الاشتراكية، لَلَفَظَ هذا الاسم، واستبدل به أي لفظ آخر، كالتراحم أو التكافل أو المساواة، ونحن لا نلومه إذ كان الموقف لم يتضح لعينه! وكل ما فعل أبو ذر أنّه نادى بتطبيق آيات القرآن،

فليكن الحديث عن قرآنية أبي ذر أو عن إسلاميته، لنضعه موضعه الصحيح .

وأمام الضيق المتأزم الذي كان يقيد السحار في تأليف مشاهد السيرة نراه يلجأ إلى رُتوش خارجية تقرب العمل من القصة الفنية، فيصف الطبيعة، وسكون البادية، وسير الإبل، وحركات القيام والسجود والركوع في الصلاة، وصفاً أدبياً يجعل القارئ عائشاً في رحاب الفن، وأمثلة لذلك بما افتتح به مقدمات الحديبية، حيث يقول: «أنفاس المدينة تسبيح، شهيقها وحي السماء، وزفيرها شكر وحمد لله رب العالمين، وسمعها قرآن مجيد، وبصرها ابتهاج لبديع السماوات والأرض العزيز الحكيم، وفؤادها أنوار قدسية أضاءها نور النور، وروحها طاهرة تحررت من دنس الأرض، فصارت مجتحة قادرة على أن تسمو فتصل بروح الروح، وعزيمتها ماضية، زادها مضاء أنها توكلت على الحي الذي لا يموت .

ورأى عليه الصلاة والسلام في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه مع الطائفين، وفي السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر، خرج إلى المسجد منطلق الوجه، تغمره سعادة عارمة، فدخول مكة والطواف بالبيت العتيق، وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه وأماني المهاجرين من أصحابه» .

والكاتب الإسلامي لا يقف حديثه الديني عند الشخصيات الإسلامية ذات التاريخ الذائع وحدها، بل يُظهر إسلاميته في كل أثر يكتبه، فقد يكتب في الاقتصاد أو الاجتماع أو شؤون السياسة، أو وصف مغامرات اللهو، وهو في ذلك كله يصنّدر عن وحي إسلامي خالص، إذ يؤيد مواقف الفضيلة، ويحارب مهاوي الرذيلة، لا بالوعظ التقريري، بل بتصوير الاندفاعات البشرية ورصد تياراتها، والحكم عليها في ضوء ما يعتقده من مبادئ .

وقد تكونُ القصة - كما هو الغالب في شتى الأعمال الروائية - صراعاً بين أمواج النور وغياهب الظلام، لأن قُوى الشر دائمة الحضور في المجتمع الإنساني، لا تكاد تنقطع عن بثّ سمومها فيه، وأمامها هواتفُ الخير الصادرة من نفوس طاهرة تُحاول أن تحبس ما يتدفق من طوفان الشرور، وهنا تسيطر روح الفضيلة على نفس الكاتب، فهو يرسم مواقف الرذيلة كما هي في المجتمع على قسوتها الصارمة، وقد يبلغ في هذا الرسم ليعطي ما يريد من انطباع مضاد لهذه المواقف، ثم يتدرّج

بالأحداث شيئاً فشيئاً نحو الخير، حتى تنتصر جهود المنافحين عنه، ويأتي الحل النهائي طبيعياً دون تكلف.

والذين ينقدون النهايات السعيدة ويعدونها افتعلاً غير حقيقي، يجهلون أن الكاتب الأصيل مصلح اجتماعي، وأنه يرسم خطاً للإصلاح، كما يضع القانوني مواد الحكم، ووفق هذه الخطط الإصلاحية يتم دوره البنائي في المجتمع، فإذا استعصى عليه أن يجد من الاستجابة ما كان يأمله، فمثله مثل واضع القوانين حين يجد من عصابات الإجرام من تعمل على مخالفتها، ولن يؤاخذ هذا القانوني بانقراضه، لأن قانونه لم يلتزم به المجرم السفك، كذلك صاحب الإرشاد الإصلاحي لا يؤاخذ إذا كانت آماله في الإصلاح قد نشزت في مسارها على يد هوة الفساد! ثم إن مد الزمن لا ينقطع، وإذا انتصر الشر في موقف، فسينتصر الخير في موقف قادم، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

ومن الحسن أن أستشهد بقصة اجتماعية، هي من أشهر قصص السخار (الحصاد) لأنها قصة معاصرة تتحدث عن حقبة من تاريخ مصر كثر فيها الفساد، فساد الرشوة والسلطة والألقاب والإقطاع، فهي في أحداثها جملة مأساة أليمة، تصم المجتمع بأقبح الصفات، ولكن أشخاص القصة لا يسرون جميعاً في اتجاه واحد، فإذا كان الباشا وولده وزوجته من أنصار الأثرة والأنانية، فهناك اتجاه آخر يرعى الأمانة والشرف والكفاح، وبئينة تمثل الاتجاه الأول، وإلهام أختها تمثل الاتجاه الثاني، وزوجا الأختين في اتجاه مضاد، لأن زوج الفاضلة فاضل، وزوج الآثمة آثم.

وهكذا شاء الكاتب أن يصدق قول المتنبي (شبه الشيء منجذب إليه)، هذه القصة تنتسب فيما ينتسب إلى الإنتاج الإسلامي، لأنها تصوّر عاقبة البغي كأفدح ما يكون العقاب، كما ترسم صوراً للفضيلة المكافحة للقناعة، حين ترضى بمجهودها المتواضع في قناعة، لا تتطلع إلى مال الغير احتيلاً واقتناصاً، وتكون السعادة المنزلية هي الجزاء الأوفى لهذا السلوك الشريف ولهذه القناعة الراضية.

والسخار رجلٌ مثل وأخلاق، لذلك كان اتجاه قلمه إلى نصرته الفضائل، صدى لما يتردد بين جوانبه، لا سيما أن الجو الفني في عصره كان يمتلئ بكتّاب الإغراء، ومصوري سقوط القيم، وكأنهم يحبذون هذا السقوط، وقد أقبل المراهقون على

قراءة هذه الآثار المخزية، كما أقبل المنتجون على تحويلها إلى أفلام سينمائية ذات ربح جزيل، وإذا سُمع صوتُ لناقد ملتزم جابهه هؤلاء بمثل قول أبي العلاء: هذي طباعُ الناس معروضة فوافقوا العالم أو فارقوا ولو صدق هذا البيت، ما قام إصلاحٌ في الكون، وما بعث الله أنبياءه مبشرين ومنذرين..

لم يكن من شأني في هذه العجالة أن أحلل آثار السّحار جميعها، فذلك ما لايسمح به المجال، ولكنّ ما أريده هو أن أضمّ السّحار وأمثاله إلى جماعة الداعين إلى نهضة الفضائل الإسلامية، والالتزام بالسلوك الإنساني في اتجاهه الصحيح، مستنكراً أن تؤلّف الكتب الكثيرة عن معاكسي اتجاهاتهم، ثم لا يتفرغُ إلى الإشادة بهم نفر يعرفون رسالة الكلمة في مضمار الحياة، ويقدّرون للمناضل في سبيل الارتقاء الإنساني كفاحه المشهود، ومن المُطمئن للنفس أن جيلاً قد نشأ في العالم الإسلامي متطلّعاً إلى قيم دينه، حريصاً على الارتقاء والصعود..



عبد الحميد الزهراوي المصلح الكاتب الشهيد

يقول أحمد شوقي :

فناول وأترغ يا زمان فإنما نديمك سقراط الذي ابتلع السمّا
أكرّر هذا البيت، حين أسمعُ عن نبأ مصلح مجاهد تقدّم بالنصيحة لمعشره،
وجاهد ما استطاع الجهاد بماله وقلمه ولسانه ورحلاته، ليحقّق آمال قومه في الحرية
والعزة والاستقلال، ثم تُلَفَّق له التهم، ويُسرّع الأوشاب إلى مهاجمته إرضاء لخسّة
من ظلموه، فيسيلُ دمه ناطقاً بأفدح مظالم الإنسانية، وقد نجا اللصوص والقتلةُ
والزناة من أذى عقاب، ومنهم من صار رئيس القوم، وكأنّه بعصيانه لربه ودينه أهلُّ
لأن ينال أحسنَ الجزاء في الحياة.

أجل، كم أكرّر هذا البيت حين أسمعُ في عمري الطويل أنباءً عن شهداء لقوا
الشهادة على أيدي الفجرة، لأنّهم نصروا العدل وحاربوا الظلم، كما أكرّره حين أقرأ
صحف التاريخ من لدن سقراط إلى الآن، ماراً بسير البررة الأطهار من علماء
الإسلام، الذين تحدثتُ عنهم في كتابي (علماء في وجه الطغيان) وأضيفُ إلى
هؤلاء اليوم حديثي عن الشهيد العربيّ العالم المصلح عبد الحميد الزهراوي، حين
صعدت روحه من أعلى المشنقة، لتقتصر المسافة إلى الملاء الأعلى عند عزيز
مقتدر.

ومن حظ عبد الحميد الزهراوي أنّه حين نال الشهادة على يد جمال السفاح
أجمعت الأمة الإسلامية على التنديد بما لاقى من بغي، ولم يجزؤ كاتب منافق أن
يُبَرّر هذه الفعلة النكراء، لأنّ الوصوليين في كل زمان يُسارعون إلى طمس الحقائق
التماساً لمأرب دنيوي حقير، فيكيلون الاتهام للشهيد المظلوم، وهم يعرفون
براءته، ولكنّ صوت الحق لا يجدُ سبيلاً إلى أسماعهم الضالة، ومنهم من لا يكتفي

بالمقال، بل ينشرُ الكتابَ الآفك في تمجيد القتلة والسفاحين، لينال الخطوة المرتقبة، ولو علم أنه مُبعث نفورٍ عام في نفوس الكثرة الكاثرة لاستطاع أن يُواري قليلاً من سوءته، بل أجزمُ أنه يعلمُ، ولكنه يلقي الناس (بوجهٍ كالبغي رمى النقاباً) كما قال أمير الشعراء .

ولعلَّ أصدق ما قيل عن الرجل ما قالته مجلة المنار في منعه، حيث صدَّقهُ السيد محمد رشيد رضا وُصفه إذ قال^(١):

«هذا الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين، لا يكاد يلزُّ به في مجموعة مزاياه قرين، ما عرفت بلاده كنهه، ولا قدرته قدره، كما عرف الجمهور ذلك عنه في أواخر حياته، إذ كان أحد أشرف البلاد المُصرفين لخدمة الأُمَّة بكفاءة واستعداد، من معرفة المصلحة، وفصاحة اللسان، وقوة الحجة، وجرأة الجنان، وما كان لعقل الجمهور أن يُدرك من قبل كنهه المزايا والفضائل، التي كان بها الزهراوي في حقيقة جوهره من الحكماء الربانيين، والفلاسفة الاجتماعيين، وإن قضت عليه الأيام بالانتظام في سلك السياسيين، تلك الفضائل التي عرفها له كلُّ من عرفه من العقلاء المنصفين، وهي استقلال الرأي وصدق القول، وقوة الإرادة، والإخلاص في العمل، وإيثار الحق على الهوى، وتوجيهُ الهم والهمة إلى المصالح العامة، وترجيحُها عند التعارض على المنافع الخاصة، بل لا نعلمُ عنه أنه اشتغل في طورٍ من أطوار حياته للمنافع الخاصة، وإنما نعلم عنه أنه بدأ حياته العلمية منذ بلوغ الرشد بإنشاء جريدة (المنبر) السرية، فتعلّق بالسياسة من ذلك الحين».

أجل، ما كاد يشبَّ عبد الحميد عن الطوق، وقد ولد في حمص وتعلم المبادئ الأولى في كُتّاب المدينة، ثم بعث به والده إلى الأستانة، فتربّى في مدارسها وشاهد من أنواع المعرفة ما صادف تربةً خصيبة في نفسه، فأينعُ الثمر في مدى سير، وكانت جريدة (العروة الوثقى) التي أنشأها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في المنفى بباريس، موقظةً أذهان النشء إلى ضرورة الجهاد السياسي والديني معاً؛ السياسي بمناوأة من يعوقون سبيل الحرية بطغيانهم الباطش، والديني بمعرفة

(١) مجلة المنار، مجلد ١٩، ٣/١٦٩.

الأصول الحقيقية للسعادة الإنسانية، بالتزام ما جاء به الإسلام من شريعة العدل والحرية والإخاء والمساواة .

هذه الجريدة لم يكن صدّاها مقصوراً على استيعابها واعتناق أفكارها، بل كان دافعاً إلى محاكاتها، فظهرت جرائد فدائية تستر عن عيون الظلمة، مكملة رسالة (العروة الوثقى)، ومن هذه الجرائد مجلة (المنبر) التي كان يكتبها بيده، ويوزّعها على أصدقائه، ليقرؤوا ما بها، على أن يعملوا على نشرها بترويجها بين العامة قارئاً بعد قارئ، لتكون الصحيفة الواحدة بديلاً عن عشرين صحيفة، وفي هذا ما يدلُّ على أن روحاً جديداً قد بُعث، وأن نفوساً أخرى تتطلّع إلى العمل تحت قيادة مجلة مستنيرة، وهذا في سورية حيث لم يستطع الكواكبي والمغربي والزهراوي أن يُصدروا الصحف تحت بصر الوالي التركي وسمعه، وله جواسيسه المنتشرون في كلّ مكان، فلجؤوا إلى السرية في إصدار النشرات الناقدة الواعية .

أمّا في مصر فقد كانت مجلة المنار امتداداً صريحاً معلناً للعروة الوثقى، وقد باركها الأستاذ الإمام منذ العدد الأول فعُرِفَتْ به، وأصبحت ميداناً لأفكاره، وبهذا استطاع منشئها السيد محمد رشيد رضا أن يأمن على نفسه في ظلّ الإمام، وأن يجد المطبعة التي تطبع، والشركات التي توزع، والجمهور الذي يقرأ، فيتيقّظ .

تحدثتُ عن مجلة المنار لأذكر أن صداقةً وطيدة نشأت بين صاحبها منذ اليقظة الأولى وبين السيد عبد الحميد الزهراوي، إذ تلاقت أفكارهما الإصلاحية تلاقياً يؤكد أصالة الجذور الناشئة في تربة (العروة الوثقى)، وأستاذية الأستاذ الإمام، وقد نشر الزهراوي بمجلة المنار، رسائل إصلاحية تحت عنوان (الفقه والتصوف) وهي تدلُّ على منحى المنار إذ تنتقدُ الجمود المستحكم في تناول المسائل الفقهية، حين تلتزم الأكثرية بما جاء في كتب المذهب الواحد، لا في مراجعه الضافية المستنيرة، بل في مُتون المتأخرين وحواشيه المعقّدة، وهي مسألة أثّرت من قبل، وتهيأتُ الأذهان إذ ذاك لمناقشتها؛ هذا عن الفقه .

أما التصوف فقد كان مدلوله لدى العامة في مصر والشام هو الأذكار العالية الصوت، والمسير جماعاتٍ تحت البيارق والأعلام، وإقامة الموالد حول الأضرحة، والتبرّك بمقابر الأولياء، وكل ذلك بعيدٌ عن التصوف الحقيقي، وما كادت (المنار) تظهر بمقالات الزهراوي حتى أفزعته صيحات الجامدين من بني

قومه، وسعوا به إلى الوالي في دمشق، فقبض عليه، وأرسله إلى الأستانة ليُحاكَمَ على ما اقترف، وكان لهذا الاندفاع الباغي صدها في مصر، فتحدثت عنه الصحف منددة، وكتب الأستاذ الإمام محمد عبده مشيراً إلى هذا العدوان الجائر في مقال نشره في كتاب (الإسلام والنصرانية)، تحت عنوان (الإسلام اليوم، والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام)^(١)، وقد نشره فُصولاً في مجلة المنار:

«ألم نسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالاً في الاجتهاد والتقليد، ذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة، ومقالاً بين فيه رأيه في مذهب الصوفية، وقال: إنه ليس مما انتفع به الإسلام، بل قد يكون مما رُزِيَ به، أو ما يقرب من هذا، وهو قولٌ قال به جمهور أهل السنة من قبله، فلما طُبِعَ مقالُهُ في مصر تحت اسمه، هاج عليه حملةُ العمام، وسكنة الأتواب العباب، وقالوا: إنه مرق من الدين، وجاء بالإفك المبين، ثم رُفِعَ أمره إلى الوالي، وقبض عليه، وألقاه في السجن، فرفع شكواه إلى عاصمة الملك، وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة، ليثبت براءته مما اختلق عليه، بين يدي عادل لا يجور، ومهيمن على الحق لا يحيف، فأجيب طلبه، لكن لم ينفعه ذلك كله، فقد صدر الأمر بسجنه هناك، ولم يُعَفَ عنه إلا بعد أشهر، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين، ولا ينكره القارئ والكاتب، ولا الآكل والشارب».

وقد علّق السيد محمد رشيد في هامش الكتاب بقوله: «هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوي الشهير - رحمه الله - ومقالاه في الفقه والتصوف نُشِرَا بالمنار، وطُبِعَا على حِدَةٍ، وقد وشى به بعضُ حسّاده في دمشق إلى والي الشام فاعتقله، وكان السبب الحقيقي لاعتقاله مقالة له في الخلافة، نُشرت في (المقطم)».

وفي تعليق (المنار) إشارة إلى مقالة أخرى للشباب الناهض عن الخلافة نشرها في (المقطم)، وهي مقالة لا تتحدث عن خليفة بعينه، ولكنها توضح مركز الخليفة في الإسلام، وكيف يتولى الأمر، وكيف يقوم على تنفيذ شريعة الله، وكيف يُحاسب إذا أخطأ، ويعزل إذا تعمد الخطأ، وهي مقالة لا يسيغها من يقولون: إن الخليفة ظلّ الله في الأرض، لا بمعنى أنه يقوم على تنفيذ شريعته، بل يحكم بما يشاء كما يشاء، ومن أعجب العجب أن يُتلى كتاب الله بين المسلمين في كل وقت، وأن يرسم الخطة

(١) الإسلام والنصرانية، ص ١٣٤، ط. الثالثة.

العادلة للحكم، ثم تُذاعُ بين المسلمين أراجيفٌ دامسة تنسب إلى الإسلام وهو منها براء.

لقد كان من السهل أن يتطامن الزهراوي قليلاً، فلا يُواصل مقالاته التجديدية، ولا يناوئ سياسة الأستانة، وبذلك يعيشُ مستريحاً مما يزعجه من القلاقل، ولكنه لم يكن يفكر في نفسه، وظهر ذلك في اتجاهين:

الأول الاتجاه العلمي، إذ لم يحرصُ على جمع مقالاته الكثيرة التي نشرها بالمنار والجريدة والمؤيد، وهي مقالات ذات طابعٍ إصلاحي، ولو جُمعت في كتاب خاص لاستطاع الجمهور الأدبي أن يسبر غور الكاتب علمياً. وكم رأينا من أناس يكتبون المكرر المعاد، ثم يُباهون بجمعه في طبعات تتوالى، ولهم حيلُهم البالغة في هذا النطاق، كما يُؤسفنا أن نرى في الواجهة المقابلة من تركوا آثارهم الممتعة الهادفة دون جمع، فلم يعرف عنها الجيل التالي شيئاً، وأذكر أن الكاتب البليغ الأستاذ محمد الههباوي قد ترك أكثر من ألف مقالة كانت حديث الناس في العشرينيات والثلاثينيات، ثم لم يُقدر لها أن تُجمع في أجزاء، فذهبت كما ذهبت آثار الزهراوي العلمية، على أن المتخصصين في البحث الكادح لا يعيهم أن يتتبعوا الدوريات في شتى مظانها، ليقفوا على هذه الآثار، وهم - كما أعلم - قليل قليل.

إن الزهراوي كان من عزة النفس بحيث لم يسمح لنفسه أن يكون لساناً لغيره، فرأى أن يشتغل بالتجارة بالأستانة، لتكون مصدر رزقه، فلا يُملِي عليه أحدٌ اتجاهًا خاصاً في القول لا يؤمن به، ولكنَّ العالم المصلح لا يجيد أساليب التجارة، فخرس رأس المال، وأوصد باب متجره، واضطرَّ إلى أن يعمل محرراً في جريدة المعلومات وهي ذات طابعٍ إصلاحي. ودفعته الجرة إلى الحديث عن مسائل شائكة أزعجت المسؤولين، فأمرُوا برجوعه إلى دمشق الشام ليكون تحت الرقابة السياسية، وأن يتقاضى راتباً قدره خمسمئة قرش شهرياً دون أن يعمل، لأنَّه إذا سُمح له بالعمل فيما يجيد من أعمال الصحافة أو الخطابة في المساجد، أو التدريس في المعاهد؛ فسيواصل نشر تعاليمه، وهم يريدونها أن تُقبر في صدره دون إعلان.

وقد خالف الزهراوي ما أمر به من السكوت عن الكتابة، فأصدر رسالةً تتحدث عن الإمامة وشروطها، وهي تكرارٌ لما تحدّث به من قبل في (المنار)، والكاتب الداعية لا يلام إذا طرق موضوعاً تحدث عنه من قبل، لأنَّه ينبغي الإصلاح لأبناء دينه

في أولى المسائل الدينية بالحديث، وإذا ذهب الصدى بمرور الأيام، فلا بد أن يُعاد الطَّرْق المُلَحَّ للحديد حتى يُخَدِّث تأثيره، وطبيعيُّ أن يتجهَّم له حاسدوه، فقد أرق مضاجعهم حين تحدث عن واقعهم العلمي الجديب، وحين وصم تفكيرهم بالجمود، إنه الآن لا يتحدث عنهم فحسب، بل يتحدث عن الحكم في الأستانة، وكيف يمضي بعيداً عما سنَّه الله، والأمرُ بذلك يعني الوالي في دمشق، ولا بد أن يقوم بعملٍ حاسم.

وكان الوالي ناظم باشا ذا فكر معتدل، وقد قرأ ما كتبه الزهراوي، فوجده مؤيداً بالصريح من آيات الكتاب وأحاديث الرسول، ومواقف الصدر الأول من أصحاب محمد ﷺ، فرأى أن يجمع الشاكين لمناقشته، والشاكون لا يعرفون شيئاً من قضايا الحكم في الإسلام، وأكثر ما يلمّون به في دُروسهم العامة بالمساجد هو مسائل العبادات، من طهارة وصلاة وصيام وحج وزكاة، فإذا خرجوا عن هذا النطاق تخبّطوا في بيدااء مجهل، وقد فاجأهم الزهراوي بصريح المحكم من آيات الكتاب، فما استطاعوا ردّاً، وقد أمر الوالي بحبسه مكرماً كيلا يسيئه خصومه.

ولكنّ الشكوى وصلت إلى الأستانة من الذين لم يروا عقاباً صارماً كما يتوقعون، ولم يجذ ناظم باشا بداً من أن يكتب إلى الأستانة بما قام به من حبس الزهراوي بعد أن ناقشه علماء دمشق، فجاء الأمر بطلبه شخصياً إلى مقر السلطان، فسافر ووجد من الخلاء من استطاعوا تبرئة ساحته أمام الصدر الأعظم، فصدر الأمر بالعفو عنه، ورجوعه ثانية إلى حمص ليظل بها سجيناً كالطير في القفص..

ولم يرقِ الزهراوي أن يبقى تحت المراقبة بين مواطنيه، وفيهم من لا ينظرُ إلى جهاده نظرة المقدّر المعجب، بل من يعدّه خرقاً وتهوراً ينقصان من قدره، ففرّ مستخفياً إلى مصر، واستطاع بكفاءته الأدبية أن يكون محرراً بجريدة (المؤيد)، إذ لمس الشيخ علي يوسف صاحب الجريدة في مقالاته توثباً ناهضاً يرتفع بمستوى الجريدة، فعقد له راتباً شهرياً جاوز قدر ما يأخذه المحررون في المؤيد، وانتقل من المؤيد إلى (الجريدة) التي كان يقوم على تحريرها أحمد لطفي السيد، فوجد المجال أرحب من مجال المؤيد، لأن صاحب المؤيد كان يرعى شعور السلطان، فلا يسمح إلا بالنقد المقتنع، أما لطفي السيد فقد كان لا يعبأ بما يعبأ به صاحب المؤيد، إذ لم يكن هواه مع الأتراك، وإن سالم الإنجليز!!.

وفي هذه المدة ظهر كتاب (خديجة أم المؤمنين)، وهو أول كتاب معاصر في سيرة السيدة العظيمة، وقد كُتب ليكون نموذجاً تقرؤه المرأة المسلمة، فتعرف موقعها وسط التيارات المتضاربة، والحملات الدائرة حول ما كتبه قاسم أمين في تحرير المرأة.

والحق أن المؤلف قد أحسن تقديم المثال الحي للمرأة المسلمة بما كتبه عن الزوجة الأولى لرسول الله ﷺ، إذ رسم صورة المرأة المثالية في الإسلام زوجاً وأماً وصاحبة رسالة كبرى، وكان في نية الأستاذ الزهراوي أن يُواصل الحديث عن أمهات المؤمنين، ووعد بتأليف كتاب عن (عائشة أم المؤمنين)، ولكن هموم السياسة لم تتركه، إذ جدّ من الأحداث في تركيا، ما جعله يعجل بالرحيل من مصر إلى الأستانة، حين تمّ الانقلاب العثماني، وأعلن الدستور في تركيا.

وجاءته الأنباء بأن مواطنيه في حمص يُجمعون على اختياره نائباً عنهم في مجلس المبعوثين، فأسرع إلى حمص لياشر حركة الانتخاب، وقد أسفرت عن فوزه، وكان مع زميل فاضل عن حماة هو الأستاذ خالد البرازي، وهو يتفق معه في مذهبه الإصلاح، فكان صوتهما من أعلى الأصوات في المجلس، وطار له صيت بين المناضلين في العالم العربي، وحرصت الجرائد المصرية على أن تنشر آراءه البرلمانية، أما صُحف الشام فقد كانت تخضع لرقابة صارمة لم تُتَح لآرائه أن تنشر في ملئه! ولكن المسافرين المترددين بين الشام والأستانة كانوا يحملون من الصحف عربية وتركية ما ينطق بنضال الزهراوي، فهو مثل رائع للنائب اليقظ، وإذا أَرْضَى أهل الإنصاف بشجاعته، فقد غصّت به صدور، وتحرق قلوب.

ومن الشجاعة الفائقة للرجل الكبير حقاً بآرائه ومواقفه، هو دعوته إلى اللامركزية في المجلس، ليكون للعرب وغيرهم من الطوائف استقلالهم الذاتي في بلادهم بعيداً عن المركزية في الأستانة، ذاكرًا أن هذا مما يفيد الأتراك والعرب معاً، ففائدته للأتراك واضحة في التخفيف من أعباء الحكم في بلاد أهلها يدرون عنها ما لا يدريه القادم من بعيد، وفائدته للعرب أنهم يعرفون مواضع الاحتياج للإصلاح، وبؤر الفساد في المجتمع، وتطلّعات النفوس الصادقة دُون زيف خادع، وطبيعي أن تُعارض هذه الآراء بعنف، ولكن من يعتقد أن الحق معه، لا تزيده المعارضة إلا إصراراً فوق إصرار.

لم تكن الأحوال هادئة في مجلس المبعوثين، لأن أعداء الدستور كانوا يناوئون المجلس في الخارج، ثم قرّروا اقتحامه علناً، بحجة الثورة على القرارات الدستورية، واندفع الرصاص في كل اتجاه، فسقط بعض الأعضاء صرعى، وقفز الكثيرون من النوافذ، ولكنّ شجاعة الزهراوي دفعته مع بضعة أشخاص إلى اختراق صفوف العسكر في مغامرة لا يعرفون نهايتها، وأمكنهم الاتصال بالمسؤولين، فكان هذا الاندفاع الجريء حديث الخاصة والعامة بعد هدوء العاصفة.

وقد رأى عبد الحميد أن تياراً كبيراً في المجلس يحاول أن يهضم حقوق العرب، إذ يدعو إلى تترك البلاد المنتمية للخلافة في شتّى الربوع، فشن الحملات الجريئة على هذا الاتجاه في جريدة الحضارة التي يُدير تحريرها، وقد تأسس الحزب الحرّ لمعارضة المندفعين، وامتزج مع حزب الائتلاف الذي يميل إلى مبادئه، ليقف الجميع أمام حزب الاتحاد والترقي صاحب الدعوة العنصرية المتعصبة، وكأنّ عبد الحميد كان يعرف حرج موقفه في الأستانة أمام تيارٍ قوي يملك السلطة والنفوذ، فلم يقابل خصومه باللهجة الناقدة العنيفة كما كانوا يفعلون في جرائدهم وخطبهم، بل كان يردّ بكل هدوء متّزن، حتى حار فيه القوم لا يعرفون مبرراً لإسكاته على احتدام غيظهم مما يُبدي من النقدرات.

ثم شبّت حرب طرابلس الغرب فكانت صدمة للاتحاديين، إذ أوقفتهم أمام خطر لا يقدرّون على تلافيه، ورآها الزهراوي سبباً لإثارة الحماسة في نفوس الأعضاء بالمجلس، فألقى خطاباً نارياً ختمه بالبكاء لشدة انفعاله، وقد قال فيما قال إنه لا يبكي على طرابلس وحدها، بل يبكي على كلّ بلاد الخلافة، إذ بدأ الزحف الغاشم يتنقّص هيبتها، وكأنّ العدو يعتقد أنّنا عاجزون عن الدفاع! وقد أثارت خطبته الحاضرين، ودفعتهم إلى تأييده، فأصبحت جريدته لساناً لحال الشعب في تركيا، وازدحم منزله بالوفود الزائرة في اجتماعات لا تنقطع، وسطع نجمه سطوعاً جعل له من التأثير ما خشي منه الاتحاديون، فبادروا بإنهاء المجلس المنعقد قبل أن يحين الموعد المحدد لفضّ جلساته، ليتخلّصوا من الزهراوي ومن شايعه.

وبدأت انتخابات جديدة تقدّم لها نائباً عن حمص، وله من مواطنيه كل تأييد، ولكنّ الوالي التركي صمّم على إسقاطه تنفيذاً لأمر الاتحاديّين، وكان في ذلك ما يدعو إلى الحذر، ولكن شجاعته دفعت به إلى العودة إلى الأستانة، ليعلن رأيه

في جريدة الحضارة، وهي مجازفة خطيرة، لأنّ نُذِر الشرّ قد لاحت في أفقه، وأشفق أصدقاؤه في العالم العربي على حياته، فكتبوا يستدعون، وقد تريت ليوازن بين الإقامة والعودة، إذ كان ذا أمل في أن يجذب لرأيه أنصاراً من الاتحاديين، يُشاركونه الدعوة إلى اللامركزية، فلما يئس من تحقيق هدفه، رجع إلى مصر، وكانت القاهرة مجمّعاً للغاضبين الناقمين على سياسة التتريك من أبناء العرب جميعاً.

وعُقدت عدة اجتماعات، تقرّر بعدها أن يُسافر الزهراوي إلى باريس، ليكون رئيساً لمؤتمر سياسي يطالب الحكومة التركية بحقّ العرب في إدارة بلادهم، ونقلت صحف فرنسا كلّ ما قيل من الاقتراحات البناءة دون حذف، كما نشرت خطاب الزهراوي في افتتاح المؤتمر، فأحدث دويّاً عاصفاً في الأستانة؛ ولأهميّة هذا الخطاب، نقل فقرات منه، تعطي دلالتها الصريحة على التصميم الحازم، دون تراجع أو نكوص^(١):

«إنّ الفلك دائرٌ، وبدورانه يكبر الصغير، ويهرم الكبير، وتحوّل الأحوال كلها، ولا يبقى شيءٌ على حاله أبداً، فالإنسان في الحقيقة رهْنُ الحوادث، وتحولات الأحوال كلها، ولكن كما يتخذ الإنسان التدابير عند وقوع الوقائع الطبيعية كهبوب الريح، كذلك يستطيع بقدر الطاقة البشرية أن يتّخذ التدابير بناءً على الحوادث البشرية، كانتباه الأفكار مثلاً أو كرقادها، فالشيء الذي يُقال عنه: «سياسة» هو ممارسة النظر في الحوادث من كلّ جهاتها، ليكون التصرف فيها على حسبها.

وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم، وكان الناس يسلّمون لهم بهذه الدعوى، وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحاكم يقولون: نحن لا نفهم في السياسة، وهم غافلون عن أنهم بقولهم هذا يوقعون صكّ الانحراف، بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما، أمّا الغرب فقد تخلّص من هذا العيب، الذي كان البشر المتحضرون مُشتركين فيه، وأمّا الشرق فلم يتخلّص منه، ولا يزال فيه كثيرون يجهلون أن للشعوب حقّ مناقشة الحكومات، ولكن يظهر أنّه قد حان للشرق أن يمضي في المسائل السياسية مشية

(١) نقلاً عن كتاب (تراجم الأعلام المعاصرين) للأستاذ أنور الجندي، ص ٢١٣، ببعض التلخيص.

أخيه الغرب اليوم فيقتدي به ، ومهما أردنا فيجب أن نقول : إن على الشرق أن يحتاط فيما يريد أخذه من الغرب ، ومن حقنا أن تكون لنا تربيةً سياسية ، لأنه قد جرّب غيرنا ، وصحّت نتيجة تلك التجارب عندنا ، وهي أن الجماعات الذين لا تربية سياسية عندهم لا تثبت لهم مصالح عامة .

إن العرب كانوا قد ألفوا الترك ، وهؤلاء قد ألفوا العرب ، وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً ، لكن كما مزجت بينهم السياسة فرّقت بينهم السياسة ، وقد وجدنا (اللامركزية) من خير الوسائل لظهور أثر الاشتراك خارج العاصمة ، (يريد الاشتراك في سياسة البلاد) ومعلوم أن الذين يميلون إلى هذه الفكرة من الترك أيضاً ليسوا قليلين ، لكننا آملون أن يكونوا قد زادوا في هذه الأيام زيادةً عظيمة ، والذي نريد الآن تنميته وتربيته في القلوب هو الميل إلى التآلف ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً» .

هذه خلاصة ما جاء في كلمة الزهراوي بالمؤتمر ، وهي تتضمن الإجماع الذي انعقد عليه الرأي في حزب اللامركزية بمصر ، وقد اختار الحزب عبد الحميد رئيساً للمؤتمر ، لأنه من أبلغ من يقنع بمنطقة ، ويصد الهجوم ببراهينه .

وأظن القارئ يعلم أن حزب اللامركزية المصري كان يضم خيار النابهين من أبناء الشام ، وقد أسندت رياسته للكاتب المؤرخ رفيق العظم على نحو ما سبقت الإشارة إليه في ترجمته ، وكانت قضية الحكم الدستوري المعتمد على اللامركزية هي محور جهاده ، إذ ليس من المعقول أن يظلّ الحكم في القرن العشرين مقصوراً على أقلية لا يمثلون الرأي العام ، ولهذا الاتجاه مثل سابق أكدّه مدحت باشا ، الذي يُسمّى بأبي الدستور العثماني ، وأصبح من يومها أملاً ينتشر بين المثقفين العرب ، وقد أظهر الاتحاديون في مبدأ أمرهم تعاطفاً مع هذا الاتجاه ، ولكنه كان تعاطفاً كاذباً لكسب الوقت فقط ، وهذا ما لحظه أعضاء الحزب اللامركزي في مصر .

وما انتقده الزهراوي في تركيا نفسها ، محاولاً أن يستميل إليه نفرّاً من الأحرار هناك ، ولم يكن الاتحاديون يتوقعون انعقاد مؤتمر بباريس يدعو إلى اللامركزية ، إذ ظلّوا الأمر سيقصر على مقالات تُنشر في جرائد مصر ، ويضيع صداها في الريح ، ولكنهم فوجئوا بصحف باريس تنشر أنباء المؤتمر في الصفحات الأولى ، وتدير أسئلة سياسية مع رئيس المؤتمر تُقابل بالاحتفاء ، وينتقل الصدى إلى صحف الدول الأخرى في أوروبا ، وقد فكّر الأتراك في أن يُظهروا الترحيب بالمؤتمر ، وأرسلوا

سفيرهم لاستدعاء الزهراوي إلى الأستانة، ليتفقوا معه على حلّ سياسي يُرضيه، فلم يطمئنّ إلى رسالة السفير.

وجاء بعده مدحت شكري أحد أقطاب الاتحاديين إلى باريس ليعلن للزهراوي أنّ القوم قد صمموا على تنفيذ ما جاء بالمؤتمر، وما عليه إلّا أن يُسافر ليُبدى من الاقتراحات ما سيكون محلّ التنفيذ، وقد حلف مدحت شكري أغلظ الأيمان المؤكّدة لدعواه، وبادر القوم بتعيينه عضواً في مجلس الأعيان ليُشرف على إنجاز الوعد، ووقف الأمر عند تعيينه بالمجلس، وكأنّه كان هدفاً يسعى إليه، وكانت بعض الصحف العربية قد هاجمته لقبوله التعيين، ووصفته بأنه كان يعمل لنفسه، وقد قبض الثمن، ولكنّ زملاءه في حزب اللامركزية قد دافعوا عنه، وأعلنوا أنه خُدع في القوم على ما به من حصافة!

ولعلّ أيمان مدحت شكري المغلّظة هي التي مالت بالزهراوي إلى الرحلة هناك، إذ لم يتوهم أن رجلاً في مثل مكانته السياسية، ووجهته في جماعة الاتحاد، يجرؤ على أن يكذب، ويؤيد كذبه بالأيمان المغلّظة، وانتظر الزهراوي صابراً فلم ير بارقة أمل، فكَرَّرَ راجعاً إلى دمشق، وقد أعلنت الحرب العالمية الأولى، وأخذ الأتراك جانب الألمان ضد الحلفاء، وهي فرصة انتهزها الزهراوي وزملاؤه، ليطالبوا بالحكم الاستقلالي على أن يكونوا في صف الأتراك.

وكان جمال باشا السفّاح قد عُيِّنَ قائداً عاماً للجبهة الحربيّة في بلاد العرب، ومركزه القيادي في سورية، ولو كان ذا حنكةٍ سياسية لاسترضى العرب، ولكنه تجبّر ونادى برفض الاستجابة إلى أيّ دعوة سياسية، وأعلن أنّ سياسة التتريك لا بدّ أن تنفذ في البلاد العربية التي تقع في حوزة الخلافة.

وصادف أن جاء غليوم الثاني إلى دمشق، وهو امبراطور ألمانيا، فرأى أن يسترضي العرب بالشام، فخطب خطبة رنانة أشاد فيها بمجد العرب، ونوّه ببطولة صلاح الدين، والامبراطور الألماني لم يزد عن أن اعترف بالحقيقة، لأنّ مؤرخي أوروبا قد كتبوا عن بطولة صلاح الدين ما لا يمكن إنكاره.

وهنا قام جمال باشا يُعلن في غضب ليس له ما يبرّره أن صلاح الدين لم يكن بطلاً مثل السلطان سليم؛ فتحدّى بذلك الشعور العربي العام، ووُزّعت النشرات السريّة التي تُعلن خطأه، ثم رأى أن يجتمع برؤوس القوم في دمشق، فلمس إصراراً

على الحرية، واستماتة في الدفاع عن حق العرب في أن يُحكموا بدستور ديمقراطي.

والمسألة لم تخرج عن رغبة صادقة أعلنها القوم دون أن يدبروا مؤامرة، أو يشتركوا في عمل عدائي، ولكن إعلان هذه الرغبة كان الدافع إلى تقديمهم إلى محاكمة عسكرية، أمام مجلس يأتمر بمشيئة الطاغية، فصدر الحكم الصاعق بإعدام نخبة مختارة من صفوة الصفوة، من بينهم عبد الحميد الزهراوي، وعمر الجزائري، وشفيق المؤيد، ورشدي الشمعة، وشكري العسلي، وعبد الوهاب بك، ومحمد الحمصاني، وعبد الغني العريسي، وسليم الجزائري، وقد علقت جثثهم فوق المشانق بضعة أيام، فكان هذا الجرم الفادح أبلغ دليل على الجبروت الظالم.

وقد نظم الزهاوي شاعر العراق قصيدةً حادة هي أقوى ما قيل في هذه المأساة، أذكرُ منها في وصف هؤلاء الشهداء المصلوبين:

كأن وجوه القوم فوق جذوعهم	نجومُ سماء في الصباح أُول
لقد ركبوا كُور المطايا يحثهم	إلى الموت من وادي الحياة رحيل
فيالك من رزءٍ حمدتُ له اليكا	وقبّحت فيه الصبر وهو جميل
هوت أمهم ماذا بهم يوم صلبوا	على غير ذنب كي يُقال ذحول
سوى أنّهم قد طالبوا لبلادهم	بأمرٍ إليهم فخره سيؤول
فما ردّ عنهم بالشفاعة عصبة	ولا ذبّ عنهم بالسلاح قبيل
قد اسودّ ليل الظلم حتى كأنه	ستارٌ على الأرض الفضاء سديل
سيذهب هذا الجيل نضو شقائه	ويأتي سعيداً بالسلامة جيلٌ

وهنا أشير إلى ملاحظة هامة؛ هي أنّ الذين تحدثوا عن مصرع هؤلاء الأبطال قد وقفوا بالاعتداء الباغي عند جمال باشا السفاح وحده، وكأنّه كان مُنفصلاً عن الاتحاديين في تركيا، حين قام بتنفيذ هذا الجرم الشنيع، مع أنه ليس من المعقول أن يرتكب هذا الجرم الشنيع بعيداً عن مشورة من سلّموه القيادة العامة في الأستانة، وإذن فالجرم مشترك لا ينحصر في سفّاح واحد، بل في عصبة من السفاحين، ولعلّي أستند فيما أقرره الآن إلى ما قاله الأستاذ نسيب سعيد، حيث قرر هذه الحقيقة في وضوح كاشف، إذ قال:

«لا تلحقُ تبعة ما جرى في ذلك العهد الدموي جمالاً وحده، بل تشملُ أقطاب

الاتحاديين الذي كانوا يسيطرون على البلاد العثمانية، وفي مقدّمهم أنور باشا وزير الحربيّة ووكيل القائد العام والدكتاتور الحقيقي، فقد كان مصدر كلّ سلطة في الدولة، وقد استمدّ نفوذه من سيطرته على الجيش، ولو أراد لوضع حدّاً لتلك الأعمال».

ولعلّ الهزيمة التي مُني بها هؤلاء الأشاوس جميعاً حين أعلنوا الحرب هوساً ورعونة دُونَ موجب ضروري، فلاقوا أسوأ المصير، هذه الهزيمة تذكرنا بقول الشاعر العربي:

أسدٌ علي وفي الحروب نعمة رعناء تنفر من صفير الصافر
لقد كان الزهراوي يرعى حقوق الصداقة، ويراها أخوة ثانية، «إذ رب أخ لم تلده أمك»، كما يقول المثل، ويضيق صدره حين يتلقّى من أحد أصدقائه المخلصين عتاباً على أمرٍ تختلف فيه وجهات النظر، فإنه حينئذٍ يخاف على المودة العريقة أن تخيم السحب في أفقها فتحجب لآلاءها الساطع.

وأشيرُ إلى حادث أخويّ له دلالته، فقد كان زملاؤه السوريون في مصر لا يثقونَ بجماعة الاتحاد والترقي عند توليها زمام الأمر في الأستانة، ويُجاهرون بذلك في صحف مصر التي لا سلطان للاتحاديين عليها، وكان الزهراوي حينئذٍ عضواً بمجلس المبعوثين في سنته الأولى، وقد سمع وعوداً خلافة من زعماء الاتحاديين، تُفيد أنهم سيمنحون الشام استقلاله السياسي، فرأى أن يسير معهم، ليعرف غاية ما يريدون، وكتب إلى السيد محمد رشيد رضا يدعوه إلى مسالمة القوم، لأنهم ينوون استقلال البلاد العربية، ورشيد رضا ورفيق العظم وغيرهما من أعضاء حزب اللامركزية يعرفون أن القوم خادعون، وأنهم يُنيمون الزهراوي بمعسول الحديث، فكتب صاحب المنار إليه خطاباً مسهباً يشرح وجهة نظره، وقد قال فيما قال: «أظنّ هواء السفور قد أعجبكم!» فكان لهذه العبارة وقع مؤلم في نفس الزهراوي، وكتب إلى السيد رشيد رضا يقول:

«في كتابكم كلمة لا أكرم عنكم أنها كسرت قلبي، ولو كتبتها لكانت خيانة للإخاء النظيف الصافي، ذلكم أنكم بنيتم على نظرية إغراقي بحسن الظن بالقوم أنّ هواء الأستانة طمس على عقلي وقلبي، وأخوكم يا عزيزي قد عرفتموه سنين (في مصر) وعرفتموه في الأستانة نفسها، ولولا ذلك لرجعتُ إلى نفسي لأرى تغلغل أثر

اليسفور فيها، وأنا أتحدث أمامكم بما من الله تعالى به؛ من حمل حدّتكم القلمية هذه على ما يُشبهها من حدّتكم اللسانية التي آنس بها أنسي بحلمكم الدّال على كرم قلوبكم".

وقد رجع السيد رشيد إلى صفائه بعد خطاب صاحبه، وأعلن أن ثقته فيه لا تُحدّ، وحين استشهد أفرد ثلاثين صفحة من المنار لراثته، كتب بعضها بقلمه، وبعضها الآخر بقلم أحد عارفيه، على أن ختام حياته الفاجع كان أبلغ من كل تأبين..



الدكتور عبد الرحمن شهنندر

الزعيم السوري المناضل

- ١ -

حين تقرأ بعض الذكريات الخاصة بالثورة العربيّة لنفر من الذين لابسوا هذه الثورة، وقاموا ببعض المواقف أثناءها تجدُ من التناقض والاضطراب ما تتوقّعه، لأنّ كاتب هذه المذكرات يُعبّر عن وجهة نظره الشخصية، ويحاول أن يبرر أعماله وحدها، وفي سبيل ذلك يتهجّم على المخالف بما يملك من تبرير، ولو أُتيح لهذا المخالف أن يكتب مذكرات مماثلة لرأينا هذا الصنيع بذاته، إذ قلّما يحايد الكاتب في تعليقه للأحداث، لذلك جاء بهذه المذكرات عن الزعيم عبد الرحمن شهنندر ما يتضارب ويتناقض.

والكلمة الحقيقيّة ليست لهؤلاء الكتاب، ولكنها لمؤرخ نزيه لا علاقة له شخصية بالأحداث، ولكنّه يصوّر الواقع في ضوء ما يملكه من الوثائق والأخبار والأسانيد، وأنا أدعو إلى اليقظة التامة في قراءة المذكرات الشخصية، لا لأنّ كتابها يُحرّفون ويشوّهون، بل لأنهم يلتزمون وجهة خاصة لا بدّ أن تقرن بوجهات مماثلة، وقد تفيد هذه المذكرات في تفسير بعض الأحداث، ولكنها لا تحكم وحدها على الأحداث.

كان الزعيم عبد الرحمن شهنندر معروف المكانة من يوم أن تخرّج طبيباً إلى يوم لقي ربه شهيداً، وله أدواره الحاسمة في القضية العربيّة، كما كان إلى ذلك مفكراً عربياً صاحب رأي وبيان، كان يُسهم مع فريق من كبار الأدباء في تحرير المقالات التوجيهيّة بأرقى المجالات العلميّة، وقد عرفه الجيل التابع للثورة العربيّة مفكراً قبل أن يعرفه سياسياً، إذ كانت مجلات المقتطف والهلal والمعرفة وصحف العالم العربيّ اليومية تمتلئ بمقالاته وأحاديثه.

والسياسيُّ المفكّر يخضع لما لا يخضع له السياسي الذي لا يطيل التفكير في الأسباب والنتائج، لأنّ الأول لا يقدم على عملٍ ما إلا إذا وازن وحلل، ورصد النتائج المتوقعة، وقد يلزم الحذر في كثير من المواقف متوقعاً طروء أحداثٍ تقف أمام وجهته العملية، أما سواه فيرى الرأي ولا يُمعن كثيراً في البحث عن نتائجه متى اتضح له فكرةٌ تغلبت على منطقته، وهنا كان أمثالُ هذا المصمّم المتعجل ممن يصلون إلى نتائج سريعة في تصرفاتهم، وقد تكون صائبة، وقد تكون مخطئة، ولكنهم لا يتمهلون!

ولكي أقدم للقارئ صورةً مجملّة من كفاح عبد الرحمن ونشاطه، أنقل ما رواه صاحب الأعلام عنه، فقد كان صديقه، وزامله في ملابسته لبعض الأحداث، وفي إيجازه الصائب ما يرسم خطوات حياته على نحو دقيق.

قال الأستاذ خير الدين الزركلي في المجلد الثالث من الأعلام^(١):

«عبد الرحمن صالح بن شهبندر (١٨٨٢ - ١٩٤٠) طبيبٌ خطيب من أهل دمشق، مات والده وعُمره ست سنوات، فربّته أمه، وتخرّج بالجامعة الأمريكية ببيروت طبيباً سنة ١٩٠٤، وكان ممن دخل في جمعية الاتحاد والترقي بعد الدستور العثماني، فلما اتجهت سياستها إلى تتركّك العناصر ناوأها.

ونشبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فتواري مُنفلتاً من دمشق إلى العراق فمصر، وأقام في القاهرة إلى ما بعد الحرب، وعاد إلى سورية سنة ١٩١٩، وعين وزيراً للخارجية فيها سنة ١٩٢٠، واحتلها الفرنسيون بعد وقعة ميسلون في السنة نفسها، فغادرها إلى مصر، فأقام نحو عام، ورجع إلى الشام فاشترك في حفلة للمستتر (كرين) الأمريكي، فاعتقله الفرنسيون في جزيرة أرواد سنتين وبضعة أشهر، وأطلق فشارك في إنشاء حزب الشعب، وثارث سورية سنة ١٩٢٥، وهمّ الفرنسيون بالقبض عليه، ففر إلى جبل الدروز، ومنه إلى شرق الأردن، ثم إلى القاهرة سنة ١٩٢٧م، واختلف فيها مع أكثر العاملين لاستقلال سورية من أصدقائه الأقدمين، فتناولت الصّحف موقفه؛ له وعليه.

وانصرف إلى الاشتغال بالطبّ زمناً، ثم أراد الاستقرار في دمشق فعاد إليها سنة

(١) الأعلام: ٣٠٨/٣.

١٩٣٧، فبينما كان في عيادته قبيل الظهر سنة ١٩٤٠ دخل عليه ثلاثة أشخاص فقتلوه، واعتقلوا وأعدموا.

وكان يُحسن الترجمة عن الإنجليزية، ونقل عنها إلى العربية كتاب (السياسة الدولية)، وكتب مقالات في مجلتي المقتطف والهلال، جمع بعضها في كتاب سمّاه (القضايا العربية الكبرى)، وكان قد حاول قرض الشعر في صباه، فنشر له المستشرق الألماني (كامبفير) في مجموعته بعض ما نظم، وليس بشاعر، وله مذكرات.

تلك خلاصة دقيقة كتبها الأستاذ الزركلي عن صديقه، ولن نفهم مدلولها السياسي على نحو واضح، إلا إذا تتبعنا مسيرة الثورة العربية منذ نشأتها الأولى، حيث غمّرت أحداثها الرجل المكافح، وما زال صاحب توجيه حتى لقي ربه، وتاريخ الرجل السياسي جزء من تاريخ قومه، فلننظر.

حين أتمّ عبد الرحمن دراسته اختار أن يعمل طبيباً في دمشق، وكان الحكم الحميديّ إذ ذاك يُهمّل كثيراً من المرافق الهامة، ولا يختار من الولاة من يعملون على الإصلاح الداخلي قدر ما يعملون على الاحتفاظ بمناصبهم، لذلك بدأت حركات النقد السياسيّ في كُتُب تظهر خارج البلاد مثل كتاب (أم القرى)، وكتاب (طبائع الاستبداد)، للسيد عبد الرحمن الكواكبي، وكتاب (يقظة العرب)، وغيره..

وكان القائمون في سورية بالدعوة إلى التقدّم الحضاري لا يُفكّرون في الانفصال عن الدولة العثمانية، لأنّ الإسلام يجمع المسلمين جميعاً في ظل الخلافة، بل يفكّرون في تحقيق العدالة، ولما قام الاتحاديون في تركيا بإعلان الدستور، فرحت البلاد العربية المنضمة للخلافة بما تمّ، إذ لمس أبنائها من الأقوال المعسولة ما جعلهم يعتقدون أن الدستور سيعمّ الأقطار جميعاً، ولا يقتصر على تركيا وحدها، وفعلاً أتيحت حرّيات النشر والمقالات والاجتماعات والخطب في أندية الشام وصحفه، لأن إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ قد كفّل هذه الحرية للإعلام الممتد، فصدرت صحف عربية في بغداد ودمشق وبيروت والقدس والبصرة، بل وفي الأستانة نفسها، تدعو إلى إعطاء الاستقلال التام للبلاد العربية، فكوّنت رأياً عاماً يجمع على النهضة الاستقلالية.

وكان الشهبندر من الذين تصدّروا للكتابة في هذا المجال، فعُرف بدعوته للحرية

والاستقلال، وكان يظنّ خيراً بالوعود التي أطلقها الاتحاديون، ولكنّ مُرور الأيام أتى بما يُثبت العكس تماماً، وقد قال الشهبندر بصدد ذلك ما يُفصح عن الوضع السياسي الدقيق لهذه الفترة الملتهبة من تاريخ الحركة العربية^(١):

«كان شعورُ أحرار العرب عامّة مع الدولة العثمانية، ولكنْ أخذتِ الأنباء تتسرّب بأن الاتحاديين في الأستانة يدبرون للعرب الشرّ، فكنا نكدّب تلك الإشاعات ونعدّها من باب الاختلاقات التي يُروّجها أعداء الحرية، إلى أن حدثت لي الحادثة الآتية التي أنزلت في نفسي الشكوك، لأنّها كانت من مصدر رسمي، وهي أن موظّفاً قضائياً كبيراً من أصدق رجالات العرب هو المرحوم كامل بك الصلح، نقلته الحكومة من مناستر إلى دمشق، فلما مرّ على الأستانة ليقابل وزير العدل ويتلقّى منه التعليمات الجديدة، قال له: إنّك ذاهب الآن إلى رئاسة محكمة الاستئناف في الشام، فاجعل المحاكمات من الآن بالتركية، لأنّا قررنا تترك العناصر.

هذا ما قصّه عليّ سراً رجلٌ نزيه من أنزه رجالنا، فجاء شهادة قطعية على عزم الاتحاديين على سلوك مسلك عُنصري جديد مع العرب، ليس محكوماً عليه بالفشل فقط، بل محفوظاً بالأخطار.

إنّ هذه الجملة التي نقلها إليّ القاضي الجليل، كانت فاتحة عصرٍ جديد في حياتي نقلتني من ذلك الانمحاء في القوميات العثمانية المتناكرة، إلى تأمين قوميّتي العربية في الجامعة العثمانية، وكان الاتحاديون كلّما خطّوا في هذا المضمار باعاً، خطت العناصر الأخرى ذراعاً إلى أن حلّت كارثة الحرب العالمية، فظنّ العاملون في جمعية الاتحاد والترقي أنّ ساعة الانتقام قد دنت، فارتكبوا تلك الموبقات والجرائم التي تقشعّر منها الأبدان في سورية وسائر المناطق العربية.

وهذا التحوّل الذي فتح عيني على الخطر المحدق بالأمة العربية، فسّرنا تلك المسيرة القوية الجديدة، أمّا الذين لعبوا هذه اللعبة العنصرية الخطيرة من الاتحاديين فقد نالوا جزاءهم على أيدي الحكومة العثمانية وغيرها.

نأخذُ من هذا أن الرابطة الإسلامية كانت تعمّ العرب جميعاً، وأنّ شعورهم نحو الدولة العثمانية لم يزعزعه إلّا الاضطهاد العربي، والاستعلاء التركي، وهما اللذان

(١) تراجم الأعلام المعاصرين، للأستاذ أنور الجندي، ص ٢١٧.

دفعاً قادة العرب إلى الثورة على الأتراك، وفي طليعتهم عبد الرحمن شهنندر، والمشهودُ المؤكد أن العرب انضموا إلى الأتراك في مبدأ الحرب العالمية، وجعلوا أنفسهم خضماً سافراً لخصوم الأتراك، وكان عليهم مكافأة هذا الشعور بما يُنميهِ، وقد ظهرت بوادر قاسية تدل على الجفاء، فقابلوها بصبر واحتمال، يقول الأستاذ نسيب سعيد^(١):

«ولا يسعُ المؤرخ التزيه إلا التّنويه بإخلاص العرب للدولة، وإذا اضطروا إلى الاتصال بأعدائها بعد ذلك وتعاونوا معهم على هدمها أو القضاء عليها، فالذنبُ ذنب الترك أنفسهم، قبل أن يكون ذنب العرب، والتّبعة لاحقة بهم وحدهم، فلو جزّوا العرب على إخلاصهم بإخلاص، وصافحوا اليد الممتدة إليهم، وتغاضوا عن كلّ حادث في الماضي، وهو ما يحدث عند الشدائد، وأيّ شدة أعظم من تلك الحرب، لو حصل ذلك لما وقع ما وقع، ولما كان ما كان».

وقع عبد الرحمن في صراع بينه وبين نفسه، لأنّه في صميمه يكره الاستعمار إنجليزيّاً كان أو فرنسيّاً، كما رأى من غدر الأتراك بعد إعدام الشهداء في دمشق ما لا يحتمل، بل كاد يكونُ بين القتلَى لولا شفاعة والي دمشق، وكان على صلة طيّبة به، ثم فُوجئ بإعلان الثورة العربية في الطائف في خريف سنة ١٩١٥، وقد تمّ التحالف بين الحسين بن علي، والإنجليز الذين وعدّوه بالاستقلال، وأظهروا من الاحتفاء والمودة ما جعله يطمئن إلى وعودهم.

لقد تأزم الموقف أمام الشهنندر، ولم يستطع أن يُرجّح كفة على أخرى، فاضطرّ إلى اعتزال السياسة وقتاً، وعجل بمغادرة الشام إلى حيث لا يدري أين يتّجه، إذ فرّ إلى العراق فراعته بطش الاحتلال الإنجليزي هناك، وبعد مكابدة فرّ إلى الهند، فرأى الوضع السياسي فيها كالوضع في العراق تماماً، بل إنّ للحاكم الإنجليزي سلطةً إذ ذاك فوق سلطة حاكم بغداد، وكلّ ذلك يعصف بهدوئه النفسي.

وأخيراً صمّم على الرحيل إلى مصر فهي أقرب إلى أحاسيسه، وما زال بها حتى شهر نيسان سنة ١٩١٩، فقرأ أنّ الحكومة البريطانية قد قدّمت للحسين بن علي عهداً على أن كلّ بلد عربي يفتحه جيشُ العرب يصيرُ مستقلاً، فشبت حماسه الوطنية

(١) الرسالة، العدد ٤٧٨ - ٣١/٨/١٩٤٢.

تدفعه إلى تأييد الثورة العربية، وجاء إلى سورية ليكون وزيراً للخارجية في الحكومة
الفيصلية، وهو منصب أهل له إخلاصه، وكفاحه المعترف به منذ تخرج من الجامعة
الأمريكية ببيروت.

وقد صبر طويلاً أمام محاولات السياسة الاستعمارية التي تُبدي أكثر مما تبطن
كسباً للوقت، حتى إذا أُمنِت على نفسها كلّ الأمان بانتهاء محادثات الصلح،
وتقسيم البلاد العربيّة بين إنجلترا وفرنسا، زحف الجيش الفرنسي واحتلّ دمشق بعد
واقعة ميسلون سنة ١٩٢٠، وخابت الآمال المعقودة على الحلفاء، واستقال
الشهبندر بسقوط الوزارة، وظلّ متردداً بين القاهرة ودمشق، لأمر سياسيّة تغنيه.

وقد فطن له الفرنسيون فبادروا باعتقاله حين زار دمشق، ونفوه إلى جزيرة أرواد،
ولكنّه في منفاه لم يُعَدَم وسائل الاتصال بيّنه وبين الوطنيين، فهبّ النفوس إلى إنشاء
حزب الشعب في دمشق ليقف في وجه الاستعمار المستبد، وفعلاً أخذ الحزب
مظهره السياسي، وبدأ نشاطه داعياً إلى طرد الاحتلال، وانضمت الصفوف
المحتشدة إلى قاداته حتى وقعت ثورة سنة ١٩٢٥، وكان الشهبندر في طليعة
الثائرين، إذ خرج من منفاه قبل عامين ليقود العاصفة الناقمة، واستطاع بعد موقعة
ميسلون أن يظلّ مخفياً بدمشق في منزل لا يعرفه أحد، حتى فرّ ليلاً إلى جبل الدروز
وقد استقبله سلطان الأطرش استقبالاً كريماً، وجعله موضع استشاراته السياسية.

ولكنّ بعض الدروز لم يرتاحوا كثيراً لصلته بسلطان الأطرش، فظلّوا يهيجون
المشاعر نحوه، وأحسنّ بذلك عن يقين، فرحل إلى شرق الأردن، لا ليقيم بها، فهو
يعلم أن سياسته لا تتفق مع سياسة الأمير عبد الله، والحق أن الأمير قد استقبله
حذراً، فعرف أن إقامته بالأردن لا تزيد على أيام، وفعلاً بارحها إلى مصر لتصبح
مقرّاً هادئاً له.

وللرجل خصومته الذين تحدّث عنهم فيما كتب من مقالات عن الثورة السوريّة،
فلم يسكتوا عنه، وردّوا بما يصمه بالفرار والعجز، وطال الجدل لا ليتنهي إلى رأي
فاصل، بل ليترك الحكم لمؤرّخ محايد، كما ألمعنا من قبل في صدر هذا المقال.

لم أشز إلى إسهام عبد الرحمن شهبندر في إحياء النهضة التعليمية بسورية، كما
أشرتُ إلى صورٍ من كفاحه السياسي، والحق أن العمل على نشر التعليم لا تقلّ
أهميته عن العمل على الوعي السياسي، بل إن الوعي السياسي في أكثر أموره يكون

نتيجةً للوعي التعليمي، وما حُوربت المدارسُ الوطنية من القوى الاستعمارية إلا لأنها تُربّي الأجيال الناهضة على الحرية والكرامة والاستقلال.

وقد كان التعليم في سورية عقب تخرّج عبد الرحمن من الجامعة الأمريكية في حاجة إلى نهضة؛ لأنّ المتخرجين من الجامعة الأمريكية ببغروت كانوا يُتقنون الإنجليزية، والمتخرجين من الجامعة اليسوعية كانوا يتقنون الفرنسية، وللأتراك مدارسٌ خاصّة تعلم التركية وحدها.

أمّا العربية فكانت تُدرّس تطوعاً في المساجد على النمط الأزهري، والمبتدئون يتعلمون المبادئ الأولى في الكتابيب، ابتداءً من حروف الهجاء وانتهاء بحفظ القرآن الكريم حفظاً سردياً دون فهم، ولا شيء بعد ذلك، فدعا النّابّهون إلى إنشاء المدارس الخاصة بتعليم اللغة العربية، وقاد الدعوة إلى ذلك شيخ علماء الشام طاهر الجزائري.

ورأى الشهبندر أن يكتب فصولاً في الجرائد المصرية تتحدّث عن أهمية التعليم العربي في سورية، وضرورته الملحة إذ ذاك، وأخذ يزور المدارس التي أنشأها الحكومة لهذا الغرض، واقترح عليه الشيخ طاهر أن يُلقّي دروساً تربوية على المدرّسين بهذه المدارس تُنبّههم إلى ضرورة الاعتناء بثقافة الطفل، ومراعاة قدراته العقلية، ونشاطه الجسمي، كما اقترح عليه الشيخ طاهر أن يُلقّي دروساً خاصة بتعليم الجغرافيا والحساب والصحة والتاريخ على من يقومون بهذه الدروس من المعلمين، فأجاب الاقتراح في سرور.

ونميلُ إلى أن هذا الاتجاه الفكري الذي لزم الطبيب الناشئ منذ تخرجه قد كان باعته على الاهتمام بثقافة عصره، فحفزه على الاطلاع على ما تخرجه المكتبات الإنجليزية من كُتب الفلسفة والتربية والاجتماع والتاريخ، وكان ذلك مصدر وحيٍ دافق في عقله وشعوره، وقد قرأ عدّة دواوين من الشعر العربي، وأخذ يزاوّل نظم القصائد، حتى اجتمع له ما يقرب من ديوانٍ قدّمه إلى بعض مستشرقى الألمان، فكتبوا عنه، واستشهدوا ببعض مختاراته. ولم يقف في يدي شيءٌ من قصائد هذا الديوان لأحكم عليه، بل لم أقرأ في صحيفة ما قصيدة للشاعر فأستطيع أن أعرف اتجاهه، وقد قال الأستاذ خير الدين الزركلي - وهو شاعر أديبٌ -: إن قصائد عبد الرحمن لم تكن ذات مُستوى. وإخاله قد صدق، ولن يعيب الرجل المفكر ألا يكون

شاعراً، فالشعرُ بابٌ واحد من عدة أبواب . .

- ٢ -

يقول الأستاذ خليل مطران في حديثه عن (محمود سامي البارودي)^(١):

«خرجنا نمشي وراء نعشه المحفوف بالإجلال، فلا نرى بين الجمهور إلا كل مهتَزَّ العطف للشعر، والجميع قد نسوا منه الوزير رب الدولة، والفارس صاحب الصولة، وإنما بكوا ذلك الخلق الجليل في الخلق الجميل، وذكروا الشاعر، وكان أول عبرة اعتبرنا بها لدى سير المشهد، أن أثبتَّ الدول للرجل دولة العلم، لا دولة الحكم، وأن أوفى الصحب أشياع الفكر، لا أشياع النهي والأمر».

ذكرتُ قول خليل مطران الصادق، حين مرَّ بخاطري حديثُ عبد الرحمن شهبندر، فقد كان الرجل وزيراً خطيراً، ومُسيِّراً للأمور السياسية في أحلك ظروف الأمة العربية، ولكنه لا يُذكر بإسهاب في تاريخ بلده، كما تُذكر آراؤه ومقالاته وخواطره مترددة في آثار الدارسين، فدلَّ ذلك على أن أثبتَّ الدول للرجل دولة العلم لا دولة الحكم، وهكذا كان فكر الرجل مصباحاً يضيء بعد احتجاجه، ومن عظمة هذا الفكر أنه لا يُحدَّ في حيِّز ضيق، بل يمتد إلى سماوات فسيحة، يرفرف فيها بجناحه، فهو يكتبُ في التاريخ، وذلك متوقعٌ لأنه أحد صانعي التاريخ، كما يكتب في الفلسفة والنقد والاجتماع والأدب، ولم يكن هذا متوقعاً من سياسي طبيب.

وأظهر ما يتضح في فكر عبد الرحمن سعة محيطه، فقد يُملَى عليه الموضوع، وفي ظنِّ من اقترحه أن الكاتب سيقف عند حيِّز خاص بموضوع الاقتراح، ولكنه يفاجأ باتساع الأفق العلمي اتساعاً لا ينتظر إلا من فيلسوف محيط بالكليات لتندرج تحتها ما يلمسه من الجزئيات.

لقد أرادتُ مجلة المقتطف في المناسبة الأليمة لرحيل الشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم أن تُفرد صفحات متوالية من عدد ديسمبر، سنة ١٩٣٢، للحديث عن الراحلين العزیزین، وعهدت لنفرٍ من كبار الكتاب بالحديث عنهما،

(١) خليل مطران، أروع ماكتب، ص ٥٧.

ومن بينهم عبد الرحمن شهبندر، فرأى أن يترك المناسبة الطارئة إلى موضوع أفسح وأشمل، وكتب بحثاً^(١) اجتماعياً أدبياً رائعاً تحت عنوان (مكانة الشعر بين الأمم)، وهو في صميمه خلاصة جيدة لاطلاعات عميقة النفاذ على أصول ثابتة من قضايا علم الاجتماع، هذه الاطلاعات لم تُسَقِّ مساق البحث الأكاديمي الجاف، ولكنها تعظرت بعبير الشعر، فجاء البحث العلمي ساطعاً بالنور، فياضاً بالحكمة.

بدأ الكاتب بحثه بشذراتٍ عن منزلة الكلمة في التاريخ، وصلتها بالفكرة المجردة، ولماذا علّم الله آدم الأسماء واختصه بذلك عن سائر الكائنات، ومن الكلمة تدرّج إلى صلة الشعر بها، باعتباره فناً لا يؤدي بغير الكلمة، وسبّح بخياله إلى العهود الأولى، حين كان الغناء تنفيساً عن العاطفة، ومدعاة البواعث الحافزة للاجتماع في الأفراح والأتراح، أما القصيدة الأولى، وكيف وُجدت في التاريخ، فنحن نعلم أن كل ما قيل في هذا النطاق متخيّل مُفترض، وهو أقرب إلى الواقع، ولكنه ليس به على وجه التحديد، وقد قيل في هذا المجال من الاحتمالات المفروضة ما قد يتناقض أكثر مما يتوافق.

ولكنّ الكاتب انتهى إلى ما هو أقرب إلى التخيل الصحيح، وهو أنّ المشاعر الإنسانية - والألم أحد عناصرها القوية - كانت الباعث على الشعر، وبقوة هذه المشاعر يعلو الشعر، على حين تنخفض حين تهوي وتضعف، وكل ذلك تمهيداً لرسالة الشعر العربي منذ عرفه الجاهلي القديم إلى أن ترنم به شوقي وحافظ إبراهيم.

ولم ينس الكاتب جهاده السياسي، فتحدث عن أثر الشعر في الثورات، وهتافه بالحرية والعدالة والمساواة، حتى الشعر العامي الذي ينطق به الأمي الساذج، وحيث وصل الباحث إلى تأكيد رسالة الشعر فإنّه مهد الطريق للحديث عن رسالة الشاعرين الراحلين، ليتبع حديثه من يخصهما بالنقد والتحليل!

هذا مثلٌ من البحث العلمي، أعقبه بمثل آخر، هو ما كتبه الباحث تحت عنوان (هل التاريخ علم)، وقد يظن القارئ أن هذا البحث قد كتبه شهبندر بعيداً عن تأثره الذاتي، ولكن الحقيقة أنه كتبه بعد معاناة فكرية أُتيحت له حين قرأ فصولاً من

(١) المقتطف، ديسمبر سنة ١٩٣٢م.

التاريخ عن فترة زمنية شاهدها، وكان بعض أبطالها، وعرف دوافع أحداثها، ومقدمات نتائجها معرفة الخبير المدرك.

ثم رأى من المؤرخين من يكتب عن هذه الفترة فيطالع القراء بغير ما كان، وكأنه حق لا مرية فيه، ولم يشأ أن يتخذ من نفسه مثلاً لتأكيد ما يريد، كيلاً يتعرض إلى ردود متتالية يضيغ معها جوهر البحث الدقيق، فضرب المثل بالسلطان عبد الحميد، إذ قرّر أن نقرأ من الكتاب جعلوه في مؤلفاتهم رسول الرحمة الإلهية الذي تفضلت به لإنقاذ البشر من برائن الظلم وأنياب الشر، كما أنّ نقرأ من الكتاب جعلوه سوط عذاب أرسل للقضاء على الأرواح والأبدان والعقول جميعاً، ولكل أدلته ووقائعه التي يؤكد بها دون شك، لذلك أراد الباحث أن يؤكد أن أكثر الباحثين الذين يعالجون مسائل التاريخ ليسوا بأهل لهذه المعالجة؛ لأن التاريخ في صميمه ليس علماً رياضياً له قوانينه المنضبطة، ولكنه مع ذلك لا ينقاد إلا لأصحاب البصائر الناقدة، البعيدة عن التعصب.

يقول الدكتور^(١): «دروس التاريخ على هذا النمط من جمع الحقائق وتنظيمها وعرضها للنقد وتصفيتهما من آثار التعصب الذميم، قد أتى بكثير من الثمرات الياينة في تنوير الأذهان، ورفع المستوى التهذيبي، وخوّلنا في بعض الأحيان وضع الدساتير العلمية الصادقة، كقولنا: متى كان الشعب مستاءً مستنكراً، واستطاع زعماءه أن يزرعوا في قلبه الأمل بالإصلاح العاجل، فإنه يثور في وجه حكومته عند أول فرصة سانحة».

وهذا القول مقبولٌ تتحتم الإصاخة له، لأنّ المحاولة التي يتلاعب بها من يتنكرون لوقائع التاريخ، باعتبارها غير متحققة بالدليل، يريدون أن يعصفوا بمثل رفيعة من عظماء التاريخ، وفي طليعتهم الأنبياء والمصلحون، لتكون الدنيا في رأيهم مصدر شر لا ينتهي، وإن كنا لا ننكر وقوع الخطأ كثيراً في سرد الأحداث، وطريقة الاستنتاج، ولكن الخطأ يقع في غير التاريخ من فروع العلم، ولم يقل أحد: إن هذا الخطأ كافٍ لمحو ما اهتدى إليه العلم من نتائج.

وقد نصح الباحث علماء التاريخ أن يبتعدوا عن الإسهاب في أحوال الشخصيات

(١) مجلة المعرفة، فبراير سنة ١٩٣٣، ص ١١٩٦.

الحاكمة، والانتقال إلى وصف الحالات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية للجماعات في الأمم، لأن التاريخ في صميمه تاريخ أمم لا أفراد، كما وضح العلاقة الأكيدة بين علم الاجتماع والتاريخ حين قرر أن يتوطد قدم التاريخ بعلم الاجتماع، وأن يرتبط بنتائجه، والمؤرخ يعلل الطريقة الاجتماعية التي سار المجتمع بمقتضاها في الماضي، أما الاجتماعي فيعلل الطريقة التي ينطق بها المجتمع في حاضره، والقول بأن عالم الاجتماع لا يلتفت إلا إلى الحاضر فحسب - وهو ما كثره الكاتب - موضع اعتراض، إذ لا بد أن تمتد نظرة الاجتماعي إلى ما قبل عصره، ليقارن ويعلل ويرجح.

وقد استوقفني مقالٌ للدكتور شهندر تحت عنوان (جمال البطولة في الحرب)^(١)، بدأه مقررًا أن الجمال إذا اجتمع مع السمو والعظمة فهو الجلال بعينه، ومن النادر أن تكون البطولة في الحرب جميلة فقط، بل هي جميلة وجليلة في آن واحد، هكذا قال الكاتب، وأقف من هذا القول موقف المتسائل عن الجمال في معمعة القتال، وحومة الدماء والأشلاء، إن الحرب إذا كانت في سبيل الدفاع عن الحق فهي ذات جلال حقاً، ولكن الحرب أياً كان هدفها النزيه ليست بذات جمال، وقول الكاتب كل جليل جميل موضع ملاحظة، فللحريق رهبة وجلال كما للطوفان، ولكن الجمال للروض والنهر والزهر والغدير، فالقول أن الحرب ذات جمال ليس على إطلاقه.

وقد استشهد ببطولة يوسف بك العظمة شهيد معركة ميسلون، وعدّها مصدر جمال وجلال، أما الجلالُ فما أروعُه حين تقدّم البطل لمنازلة أعدائه، وليس معه من الذخيرة معشار ما لديهم، ولكنّه رأى الشرف يقتضيه أن يُنازل بكل ما يملك، وأن يحوز الشهادة ليثبت لأبناء وطنه أنّ دمه لن يذهب هدرًا، فلا بد أن يجيء من يثار له حين تكتمل له العدة، هُنا الجلالُ في أرقى مظاهره، أما الجمالُ فهو ما قاله الكاتب عن يوسف العظمة حين وصفه بأنه كان شاباً معتدل القامة، متناسب الأعضاء، صبيح الوجه، وهذه الصفاتُ تكونُ في الناس، ولا تستلزم أن يكون الموصوف بها بطلاً، إنما البطلُ هو ذو الجلال لا الجمال! ولعلّ الكاتب معي حين قال في مقدمة بحثه:

(١) الهلال، المجلد الرابع والأربعين ٦/١ وما بعدها.

«لا توصف بالجلال الأكمةُ مهما كانت متناسبةً وجذابةً، ولا البركةُ مهما كانت لألاءةً صافيةً، ولا الغزالُ مهما كان أغيد وضاحاً، إنما يُوصف بالجلال الجبلُ الشامخ والبحر الزاخر والأسدُ الغضنفر». والبطل المحارب جبلٌ لا يتزعزع، وأسد واثب، فهو إذن جليل لا جميل، لذلك أقول: ولعل الكاتب معي.

وإذا كان الرجل السياسي صاحب الفكرة المتغلغلة في أعماقه لا يستطيع أن يكتبها دون نشرٍ متى أتاحت له الفرصة، فإنَّ عبد الرحمن كان ينتهز المناسبات الطارئة للحديث عن أمانيه السياسية، وأكبرُ هذه الأمانى هي الوحدة العربية، حين كانت غائبة عن الوعي المصري إلا لدى الخاصة، مثل عبد الرحمن عزام وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد القادر حمزة.

ولكنَّ الشهبندر لا يكتفي بما سجّله في صحف سورية، لأنَّها اعتنقت هذه الوحدة قبل غيرها من دول الأمة العربيّة، بل أراد أن يفتح مجال الحديث عنها في مصر، وطاب له هذا الحديث حين انطلقت فتنةٌ من الكتاب تزعم أن مصر غربيّة، وأنَّها تمتّ إلى دُول حوض البحر الأبيض المتوسط أكثر مما تمتّ إلى آسيا. وهي سطحيةٌ مضحكة، وأصحابها يستشعرون أنهم متعسفون، ولكن التعسف كان في تلك الأيام مرضاً حبيباً إلى المدنفين؛ في هذا الأفق أخذ عبد الرحمن يدعو إلى الوحدة العربيّة بالحاح، فيكتب ما يصلح أن يكون ردّاً على أصحاب فكرة حوض البحر الأبيض المتوسط حين يقول^(١):

«إن هذه الأقطار - أقطار الأمة العربية - حسبك منها أن تذكر اسمها فقط لتعلم أنَّها أقطار تجمعُ بينها أواصر اللّغة والعقيدة والتاريخ والشيء الكثير من لحمه النسب، وهي تعلم أن ماضيها متشابك، ومستقبلها يدور حول مركز واحد، إن هذه الجبهة العربية التي تستقلّ بالنصف الجنوبي من البحر المتوسط هي الممرّ الطبيعي لکنوز آسيا وأفريقيا إلى أوروبا، وهي نفسها تفيض بالخيرات والبركات، ففيها منابعُ الزيت - قبل أن يظهر البترول بعشر سنوات - ومنابت القطن وحقول الحبوب، وبساتين الثمار، وحدائق الأزهار، وهي وارثةُ الإمبراطوريات القديمة، وفي ظلها الوارف تم الاتصال بين الثقافات الحالية والمدنية الحاضرة، فإذا قُدِّر لأهلها أن

(١) الهلال، نوفمبر، سنة ١٩٣٦.

يحصلوا أولاً على حريتهم الوضعية، ثم على تعاونهم الشامل، فإن قسطاس السياسة العالمية يُصبح بيدهم، لأنهم يتحكمون حينئذ في حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن تحكم فيه تحكم في العالم إجمالاً».

والمخذلون كثيرون، وفيهم من يزعم أن الشرق شرق والغرب غرب، لا بالمعنى الجغرافي، بل بمعنى أن الشرق هو الشرق المتأخر دائماً، والغرب هو الغرب المتقدم دائماً، وتلك دعوى تنخر في الأمة كما ينخر السوس في الخشب الهش، وهؤلاء يحتاجون إلى من يُريهم رأي العين أن التأخر ليس ضربة لازب على شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، فللزم من دوراته المتكررة صعوداً وهبوطاً.

وقد كتب عبد الرحمن شهنذر مقالاً تحت عنوان: (هل يُتاح للشرق أن يستعيد مجده)^(١)، ذكر في مطلعته أن الحديث عن مجد الشرق القديم لا يكفي في النهوض المرتقب، لأن هذا النهوض قائم الآن على امتلاك أسلحة الفتك والتدمير، وما دام الشرق متأخراً في هذا المضمار، فعليه أن يتقدم بجداً، ولا يلتفت إلى من ذهب إلى أن التأخر قدرٌ مكتوب على الشرقيين، وإن أشد المتعصبين لسخافات الجنس الآري وتفوقه على الجنس السامي مرغمون الآن على الاعتراف بنهوض بعض الأمم الشرقية كاليابان وتركيا.

وهنا أخذ الكاتب يلخص في إيجاز غابر اليابان في القديم، وحاضرها المشرق في الحديث، وهي بعد لا تمثل أرقى الأمم الشرقية، ولكنها بلغت ما لم تبلغه كثير من دول أوروبا، وأصبحت بعد الحرب العالمية الأولى إحدى الدول الخمس العظمى القابضة على ناصية الدنيا بأجمعها، حتى اضطرّ كهنة الأجناس في أوروبا أن يعيدوا النظر في نظريتهم الآرية من جديد.

أما تركيا الذين كنا نفتخر عليها بلغتنا المتقدمة، وحضارتنا الراسخة فقد قضت على كل أسباب التخلف، وطردت الامتيازات الأجنبية، وأصبحت سيّدة في سياستها دون منازع! وقد برهن اليابانيون والأتراك لضعفاء الإيمان منا على أن في طاقنا أن نستعيد المجد الغابر، فليس هناك ما يسمّى بالمستحيل.

وفي حديثي عن الأستاذ عبد الرحمن عزام - من قبل - يجد قارئ هذا الكتاب

(١) الهلال، نوفمبر سنة ١٩٣٣.

حديثاً ينسجم مع هذا الاتجاه في مغزاه، ويختلف عنه في الأمثلة التاريخية التي تدل على أن التقدم المنشود له نظائر تؤكد وقوعه عن قريب .

ولا أتركُ القلم دون أن أشير إلى مقالٍ صادق كتبه الدكتور عبد الرحمن شهنندر عن زعيم الثورة العربيّة (الحسين بن علي)، فقد أنصف فيه الرجل بما شهدته عن عيان، حين شارك في أحداث الثورة العربية مشاركةً فعّالة، إذ كان لسانها الخارجي مع نظرائه من وزراء خارجية أوروبا، وقد كثر الهجوم على الرجل المكافح تمشيّاً مع قول القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل
إذ أن عصبة الاتحاديين ظلمت العرب، وقتلت زعماءهم، وساقَتْ جنودهم إلى المجازر الحربيّة للتخلص منهم، دون أن تكون هناك حاجة للجبهة التي سيقوا إليها، وملأت السجون بآلاف الأبرياء، فهبّ الرجل لنصرة ذويه، وعقد محالفات كان فيها صادقاً، وكان حلفاؤه كاذبين خائنين، وقد أعلن الحسين الثورة دفاعاً عن قومه وبني وطنه، يقول عبد الرحمن^(١) :

«ولما سيق رجالا العرب إلى المشانق أفواجاً وراء أفواج، نفخ في الصور فبعث الهمم من مراقدها، وغضب غضبةً هاشمية، فصاح بين أسوار مكة صيحةً ارتعدت لها الفرائص، واسودّت لها وجوه السفّاحين، ثم مشينا على الصراط متكئين على رماحنا وسيوفنا وبنادقنا من غير تثاقل حتى دخلنا الشام جنة الله في أرضه» .

والبحثُ بمقاليه جدير بالنظر، لأن عشرات الكتب قد سوّدت وجوهاً بيضاً، جرياً وراء دعايات كاذبة، أو طمعاً في جاه زائف، ولكلّ بطلٍ أخطأه، ولكنّ هناك فرقاً بين خطأ المعتدل، وخطأ المنحرف، لأن الأعمال بالنيات ! .

هذا بعضُ ما يقال عن عبد الرحمن شهنندر، أكتبته مطمئناً مستريحاً، لأنني انتفعت بآثاره العلمية، وأعجبت بمواقفه الشجاعة، فهو مثلٌ يُحتذى .

* * *

(١) مجلة المعرفة، عددا أغسطس وسبتمبر، سنة ١٩٣١ م .

عبد السلام المويلحي

بطل نسيه كاتبو التاريخ

-١-

نعرف الأديب الكبير رائد فنّ القصة في العالم العربي الأستاذ محمد المويلحي، ونعرف ما بأخلاقه من ترفع وشمم ومروءة، وقد قرأتُ جميع ما عثرتُ عليه من آثاره البارة في الأدب والنقد، فوقفْتُ على نبوغ يسبق عصره، وسلوكٍ يعجب كلَّ أبيّ غيور.

وقد قرأتُ فيما قرأت رسالةً أدبيةً كتبها إلى عمه السيد عبد السلام المويلحي يقول فيها: «أهديك أعزَّ شيءٍ عندي بعدك، وأنفسَ حاجةٍ لدي بعد نفسك، وهي نفسي تتصرّف فيها كما أردت، وتضعُها موضعَ القبول إن شئت، وتحتفلُ بها احتفالاً جزيلاً، بعد أن صقلتُها الحوادث والتقلّبات، وهذبْتُها يدُ العلوم واللغات، فصارتْ جديرةً بعنايتك، وأهلاً لرعايتك، وإني على يقين أن مما يزيدُها رعايةً منك، ويجعلُ لها حظّاً لديك أنها ليستْ نفس محمد الذي كان بمصر يلعب به دُمُ الشباب، فيحيدُ في سيره عن الصواب، ويجورُ به عن خطّ ترسمُه يدُ حكمتك أحياناً». إلى آخر ما ينحُو هذا المنحى من رسالة تعترف بالتقصير، اعتراف تلميذ غيور أمام أستاذ قدير!.

قرأتُ هذه الرسالة وأنا أعرف شمم المويلحي وإبائه، وأعلمُ أنّه كان يترفع عن مواقف تجلبُ له العظمة والجاه لوحني رأسه للعاصفة دقائق معدودات! فمن هذا الذي يلقي إليه يد السّلم عن طوع، ومن هذا الذي يُريد أن يكون أستاذاً له يهديه إلى الصواب، لا في سنّ الشبيبة بل في سنّ الكهولة بعد أن عركَ الزمن، وبلاّ الأحداث؟!.

سؤالاً حيرني، لأنني لم أكن على خُبْرٍ بأحوالِ المُرسَل إليه (عبد السلام المويلحي) من قبل، وهو عمُّه شقيقُ أبيه، ولو كتب المويلحي رسالته هذه إلى والده إبراهيم المويلحي ما كانت مُستغربةً منه، فالوالدُ زعيمٌ شهير من زعماء الأدب والسياسة في عصره، وقد دوّن تاريخ الأدب المعاصر آثاراً من فضله! ولكنَّ العمّ المشار إليه، لا يكاد يذكرُه أحدٌ الآن، ولا بدَّ أنه كان ذا مقام عالٍ أدباً وخُلُقاً، وقد آن أن نبحت عنه .

إن كثيراً من المغمورين قد طمس التاريخُ ذكرهم دون أن يجري في تدوينه الأحداث، وذكره الأبطال على قاعدة مأمونة، فكُم من صغار تردّد ذكرهم وعلا صيتهم دون أن تحمل أعمالهم وأقوالهم عناصر البقاء، وكم من كبار عُرفوا بالشمم والكرامة والاستقامة غفل عنهم التاريخ؛ لأنهم لم يهتموا بوسائل الشهرة الكاذبة، ورأوا نفوسهم أعلى قدرأ، وأسمى منزلةً من أن يلجؤوا إلى احتيالٍ خادع يجعلهم في بؤرة الضوء أمام الناس، نعرفُ هذا مشاهدةً فيمن خَبَرنا من الناس اليوم من أولئك وهؤلاء! فلا غرابة أن سار الأمر على اطراده المتحيّف، فاحتفل التاريخ بأناسٍ دون أناس؛ احتفل كثيراً بالذيول، وغفل عن الرؤوس والأعلام.

نشأ عبد السلام المويلحي مزاملاً أخاه إبراهيم نشأةً مثقفةً مهذبة، حتى أصبحا من رجال العصر في عهد إسماعيل، وقد تربّى عبد السلام في الأزهر الشريف تربيةً دينيةً ظهر أثرها في اتجاهه الخلقي، وبيانه الأدبي، إذ قدّر له أن يحفظ كتاب الله، ويقرأ تفسيره مع علوم اللّغة والشريعة على علماء العصر في هذا المعهد الخالد، ومن شيوخه الأساتذة الأشموني والسقا والعروس والبحراوي، وكلّهم علّم في فنّه الذي يُزاول تدريسه .

وكان عجباً من العجب أن يبرع عبدُ السلام في العلم براعةً ظهر أثرها فيما كتب بعد من مقالات، ثم لا ينصرف إلى الأدب والفكر كما انصرف أخوه إبراهيم، بل يتّجه إلى التجارة في الحرير فيكونُ شيخَ التّجار بمصر لعهد، وأن تزدهر تجارة المنسوجات المحليّة والمستوردة بفضل همته، حتى يكون شيخ التّجار جميعاً، أو رئيس الغرفة التجارية باصطلاح اليوم، وقد جرى المألّ في يده، فلم يخبسه عن سائل أو قاصد، حتى استعان ذوو قرباه بجاهه وثرائه، فما ضنّ عليهم بشيء، وكأنّه رأى في وظائف الدولة حينئذ باباً للخُضوع والاستسلام، فأنف أن يكون مزوّساً

لمن يعتقد أنه يملك عليه قوت عياله، ورأى أن يضرب المثل للطلاب الذين نشأ بينهم في ألا يقتصروا على الفئات من مُعطيات هزيلة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل عليهم أن يحصلوا العلم لذات العلم، على أن يكون العملُ مجالَ رزقهم الطبيعي.

وأنا أعرفُ أن صاحب العمل المتعلّم يفوقُ زميله الذي لم يُرزق حظه من التعليم إدارةً وانتباهاً، فإذا قام مستقلاً بكسبه فإنه سيفيد ويستفيد، لهذا أقدمُ عبدُ السلام على العمل الحر حتى صار كبير التجار في القاهرة؛ وكبير التجار في القاهرة هو كبيرهم في مصر جميعها من الإسكندرية إلى الصعيد.

تألف مجلس شورى النواب ليكون نموذجاً أمام أوروبا، حيثُ عبّر عن رغبات الشعب، كما تُعبّر برلمانات الغرب، ولكنّ ما يُرادُ به غير ذلك، فهو في رأي الخديوي إسماعيل واجهةٌ مشرّفةٌ في الخارج، وفي الداخل مَسْرُحٌ يملك ستارته في يده رفْعاً ونزولاً، وكان من الذين انتهت إليهم عضوية المجلس طائفةٌ من كبار التجار، رُعي في اختيارهم أنّهم لا يملكون القدرة على النقاش في أمور السياسة والاقتصاد، وسيفرّحون بعضويتهم التي سيؤثرونها مغتبتين، ولذلك سيكونون أداة تنفيذ لا تشريع.

ولكنّ ما حسبه لم يتحقق، إذ كان في طليعة هؤلاء عبد السلام المويلحي الذي درس بالأزهر، وخبر الجو السياسيّ قارئاً في الصحف، ومُدركاً معاني الحرية والاستقلال، وقد قرأ عن البرلمانات الأوروبية، ففهم رسالتها الحقيقية فهماً حاول تطبيقه في مجلس مصر، وجذب إليه نفراً ممن اقتنعوا برأيه، فأصبحوا قوة عاملة، ظهر تأثيرها القويّ حين تحدّثت الوزارة، وعملت على إسقاطها.

وقد بدأ عبدُ السلام نشاطه القانونيّ حين وجدَ وزارة «نوبار» تضمّ أعضاء من الأجانب، هم أصحابُ الأمر الفعلي في الوزارة، ومن هؤلاء ألفَ الوزارة ما يسمّى بلجنة التحقيق، وأعضاؤها ثلاثة منهم مصري واحد هو (رياض باشا)، وفرنسي هو (دي بلينير) ناظر الأشغال، وإنجليزي هو (ريفرسن ويلسن) ناظر المالية، وقد خولت اللجنة لنفسها سلطةً غير معقولة، إذ كان من مهمتها وضعُ مشروعات القوانين المالية للبلاد، إذ أصدر الخديوي مرسوماً بذلك في ٦ يناير سنة ١٨٧٩، ومعنى ذلك أن تبقى اللجنة صاحبة الأمر الفعلي في تشريع البلاد إلى مدى متّسع لم

تُحدّد له مُدّة معقولة، وهذا افتياتٌ صارخ على أعضاء الحكومة من المصريين .

وقد بدأت اللجنة فأقصت كثيراً من الموظفين المواطنين، وعيّنت مكانهم جيشاً من الأجانب في الوظائف الهامة، بدعوى أنّهم أخبر وأعرف، وحددت لهم من المرتبات الجزافية ما تنوء به ميزانية دولة مدينة، إلى حدّ جعل الأجانب يتحكمون في شؤونها استخلاصاً لأموالهم التي اقترضها إسماعيل، ولم يكن ذلك كلّ بعيداً عن أذهان الواعين من أعضاء المجلس، فتقدّم محمود بك العطار وعبد السلام المويلحي باعتراضٍ جريء على إغفال مجلس النواب في المزسوم الصادر بتأليف اللجنة، مع أنّ اختصاصاتها جميعها لا تكون إلّا بعد موافقة نواب الأمة عليها، والمسألة تتعلّق بالوطن، ونواب البلاد هم لسان الوطنيين لا سواهم .

وفوجيء نوبار بقوة الاعتراض، ولم يكن في ذهنه أنّ النواب الأحرار يفهمون رسالتهم البرلمانية على وجهها الصحيح، فأدلى ببيانٍ لولبيّ يقول فيه : إن المسألة مسألة أساسية من صميم رسالة الحكومة، ولا يمكنُ الإجابة عنها الآن دون تفكير ومشاورة بمجلس النظار، وهذه إرادة وليّ التعم .

وهنا واجهه عبد السلام المويلحي محتجاً بقوله^(١) : من حيث أن المسألة أساسية، فهي إذن من أهم حقوق مجلس النواب، ونحن نرجو من الحضرة الخديوية ومجلس النظار أن يكون للمجلس دوره الأساسي الذي أنشئ من أجله، فقال نوبار إنه مشغولٌ بترتيب النظام القضائي، وليس لديه فراغٌ لبحث هذه المسألة، فهاجمه المويلحي مفنداً تهريبه، وظهرت جريدة الوطن وجريدة التجارة تحمّلان مناقشات المجلس مع رئيس النظار، وتشدّدان الحملة على من صاروا لعبة في يدي الوزير الإنجليزي والوزير الفرنسي، وأولهم رئيس النظار «نوبار» .

ومما ساعد على تأريث التذمر العام أن الخديوي إسماعيل بعد أن أصدر مرسوماً بتأليف لجنة التحقيق، تأمل فوجد نفسه مقصياً عن إدارة شؤون الحكومة، وقد اعتاد أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً، فرأى أنّه مع المواطنين في خندق واحد أمام سيطرة الأجانب، وضاعف من الأزمة أنّ الحكومة أحالت ألفين وخمسمئة ضابط إلى الإيداع، فقامت ثورةٌ علنية هاجمت نوبار وريفرس وفيغان، واعتقلتهم في مكان

(١) عصر إسماعيل، للرافعي ١٨٤/٢ .

ضيق ينذر بالويل، واتّصل الخبر بالخدوي فجاء ليتشقى في وزرائه ورئسهم، وليسترضي الثائرين من الضباط، ولم يكن بدّ من سقوط الوزارة مدحورة مهينة، وكان لكلمات عبد السلام المويلحي في البرلمان ولمقالاته في الجرائد صدّى بعيد بين القراء.

ثم خلع إسماعيل، وجاء بعده ولده توفيق، وكان صديقاً لجمال الدين الأفغاني وعبد السلام المويلحي، إذ أظهر كثيراً من التعاطف مع المطالبين بالحرية والاستقلال، وانتقد والده في أمور يراها سبباً من أسباب المحنة السياسية المستعصية، فكانت ولايته للعرش مصدر فرح مبدئي في الشارع المصري.

ولكنّ مُستشاريه استطاعوا أن يميلوا به من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال منذ تولى شؤون الحكم، فأفهموه أنّ جمال الدين الأفغاني وتلاميذه من أمثال المويلحي ومحمد عبده واللّقاني وأديب إسحاق، هم مصدر الخطر بما يكتبون ويذيعون، ففوجئ جمال الدين بأمر عالٍ يُطالبه بمغادرة البلاد، وفوجئ أعوانه بالتضييق عليهم، فحاول عبد السلام المويلحي أن يقنع توفيق بسلامة اتجاهه، وبأنّه كان موافقاً على الحركة الوطنية قبل أن يلي الأمر، وأنّه ما كتب مقالاته السياسية في الجرائد الوطنيّة إلاّ بتعصيده، إذ لم يُحاول الاعتراض عليها، وكأنّه فاجأ توفيق بما قد نسيه، فرجع إلى الجرائد المشار إليها ليرى مقالات المويلحي مجلجلة تطالب والده - إسماعيل - بتحقيق المطالب الدستورية، وتعدّ السكوت عنها مصدر فوضى وفساد، كما رجع إلى ما كتبه في عهده القريب بجريدة التجارة؛ مُطالباً إياه أن يضع قوانين الحكم الدستوري موضع التنفيذ حيث يقول^(١):

«مولاي، قد ورد في أمركم السامي إلى دولة رئيس مجلس النظار ما يُشعر برغبة جلالتك في أن يكون الوزراء مسؤولين، ولَسْنَمَت الرغبة، ولكنّ ما هي هذه المسؤولية؟ ومن هو السائل؟ وما هي القوانين المبيّنة لوظائف الوزراء، المظهرة لعلاقاتهم، المعيّنة لتكاليفهم، المحدّدة لواجباتهم، المعرّفة حقوقهم، وعند أيّ حد تقف سطوتهم، وفي أيّ الأحوال يكونون مذنبين؟ فإنه حيث لا توجد تلك القوانين، فلا وجود للواجبات ولا للحقوق، وبالإضافة فلا وجود للمسؤولية،

(١) جريدة التجارة، ١٨٧٩/٧/٢٤، نقلاً عن كتاب (أسرة المويلحي)، ص ١١٩.

فلابدّ والحال هذه أن يكون مجلس الشيوخ والنواب هو السائل، وأن تضع حكومتنا قانوناً لهذه المسائل، فليتفضل مولاي بالأول، وليتكرم بالثاني، حقق الله فيه آمال أمتّه».

هذا ما واجه به المويلحي توفيق في أوائل حكمه، وكأته أراد أن يكون الطّوق متواصلاً، ليحدث أثره الرنان في سمع توفيق، فكتب بعد أربعة أيام مقالاً بجريدة التجارة يقول فيه^(١):

«مولاي، إن مسؤولية الوزراء تستلزم بحكم الضرورة مسؤولية مَنْ دُونهم، لأنّ الأمر الصادر من الوزير لا يصلُ مكانه المعين حتى يمرّ بألف يدٍ، فإن كانت واحدة من هذه الأيدي شلاءً، أو سيئة القصد، أمكن لها تعطيلُ حركة الآلة الإدارية بجملتها، وبناءً عليه فمسؤولية الوزير تستلزم مسؤولية رئيس القلم، وهكذا من أول متوظفٍ إلى آخر مأمور، فليتفضل مولاي بقانون يُحدد حقوق المتوظفين جميعاً، ويعين واجباتهم وتكاليفهم لتعرف ماهية المسؤولية، ويحصل الانتظام في الهيئة الإدارية».

هذه الأقوال الجريئة أحدثت أثراً سيئاً في نفس توفيق، لأنّه لم ينسَ أن كاتبها هو الذي أعلن الاحتجاج الصارخ على رياض باشا ناظر الداخلية، حين أراد فضّ مجلس النواب لينجو من مراقبته، ولأهمية هذا الموقف الخطير، وأثره السياسي البعيد المدى، في تاريخ البلاد، سأخصّه ببحثٍ منفرد عقب هذا الفصل، إذ لا تكفي الإشارة العابرة إليه دون أن أجלוّه بذكر مقدّماته التي أدت إليه، وإذا كان الوطنيون جميعاً لم ينسوا لعبد السلام المويلحي ورفاقه الأبطال دورهم الحاسم في ردّ الاعتداء على حقوق نواب البلاد، فإنّ توفيق باشا كان أولّ الذاكرين له، إذ يخشى أن يتكرر في مواجهته شخصياً، لا في مواجهة وزير داخلية كما كان الأمر مع رياض، فحين تابع المويلحي مقالاته النارية في جريدة التجارة علم أنه منه أمام ليث غضوب.

ثم جاءت وزارة شريف باشا وهو وطنيٌّ لا يُنكر دوره الشريف في خدمة مصر، وقد أصرَّ على إعداد دستور جديد لمجلس شورى النواب، فانتُخبت لجنة لوضع

(١) جريدة التجارة، ١٨٧٩/٧/٢٨، نقلاً عن كتاب (أسرة المويلحي) ص ١١٩.

الدستور، وكان عبد السلام المويلحي عماد اللجنة ورأسها المدير، وهو متفاهم لكل آراء رئيس الوزراء وعامل على تحقيقها، ولكن رجال الجيش قد عارضوا بعض هذه الآراء، فأخرج شريف، وقدم استقالته، وتبعه المويلحي فاستقال من رئاسة اللجنة، ولكنه بقي عضواً في المجلس، ولم يشأ أن يسهم في الأمور السياسية حينئذ، بل اتجه إلى ناحية هامة هي الدعوة إلى إنشاء بنك قومي، وإلى تعميم التعليم الابتدائي، وكتب مقالات عدة تدعو إلى هذين المشروعين، ومما قاله في هذا الصدد^(١):

«قد مرَّ بالناس ألوْفُ السنين، وأهلُ الفضل والأدب، وذوُّ الرياسة والسياسة يخطبون، ويكتبون في وجوب التعليم، ولزوم نشر المعارف بين أفراد الأمم على اختلاف مراتبهم، فالتصدي لبيان هذا الأمر لا بدَّ له من نقل ما تقرَّر، إذ صار من المعلومات البديهية عند الخاصة والعامة أنَّ العلم من الضروريات للإنسان، كما أن الغذاء والماء من ضروريات وجوده الحسي، فإن لم يُحصَل من العلم شيءٌ مات الوجود العاقل منه، وبقي الحيوان الذي هو كالآلة الصماء بيد الأهواء».

وهذا كلامٌ نعدّه الآن مفروغاً من تقريره، بل نُعجب لترداده، ولكنَّ الزمن الذي قيل فيه كان يستدعي الإلحاح على تقريره، إذ كانت نسبة الأمية في مصر حينئذ فوق الخمس والتسعين في المئة، وقد شكَّلت لجنةً بالمجلس رأسها وزير المعارف عبد الله فكري، للعمل على النهضة التعليمية، ووضعت برنامجاً خاصاً بالمدارس والمدرسين والمواد التي يجب تدريسها، وكان المعول على طلاب الأزهر في القيام بالتدريس، عن طريق امتحانٍ تعقده نظارة المعارف، أمّا المدارس فقد شرع في بنائها على نحو متواضع، بحيث كانت المدرسة لا تزيد عن حجرتين، ولم تكن تُسمّى بالمدرسة بل بالكتاب، إلّا عدة مدارس محدودة بالقاهرة والإسكندرية!

ولم يجد المشروع الخاص بإنشاء البنك القومي من يعمل على تنفيذه، لانصراف الهمم السياسية إلى محاربة الاحتلال الذي بدتْ تُذره؛ إذ تلبدت السماء بالغيوم، وانتهتْ بحدوث الثورة العراقية وإخفاقها، وكأَنَّ عبد السلام المويلحي كان يُدرك ما سينتهي إليه الأمر من ضياع الاستقلال، فسافر إلى الشام لأعماله التجارية حين

(١) أسرة المويلحي، ص ١٠٩.

عزّ عليه أن يجد من يستمع لرأيه، ثم عاد ليجد اسمه عضواً جديداً فيما يُسمّى بمجلس شورى القوانين، فبادر برفض هذه العضوية في ظل الاحتلال، وكتب يقول^(١):

«إنني أرى أولى بي أن أُصدرَ جريدةً يمكنني أن أخدم بها بلدي، أكثر من عضويتي في مجلس اختصاصاته مبتورة، وقانونه يحرم إعادة الرأي في موضوع يُعرض، في حين أتّي إذا أُصدرتُ جريدة فإنّ أيّ موضوع يعرض لي أكتب فيه مرّة، وثانية وثالثة، فالجريدة أفضل من المجلس بقيوده، أما الذي يصح انتخابه حقيقةً لهذا المجلس فهو دولة شريف باشا أو دولة رياض باشا، فهما أقدر مني مع وجود الاحتلال على السعي في توسيع اختصاصات المجلس، بما لهما من النفوذ عند المحتلين ودوائر الحكومة».

وكان سكوت المويلحي عن مناهضة الاحتلال لم يرق أستاذه جمال الدين الأفغاني، فكتب إليه خطاباً نارياً يقول فيه^(٢):

«صديقي ورفيقي، إن الجبانة قد قضت علي بترك الأحباء، لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف تبدّلت جبلّتك وتغيّرت طبيعتك، وتبدّلت لطبعك، وكيف تنازلت إلى مرتبة لا يرضى بها حرٌّ مثلك، لا تُرسل جواباً، ولا ترد خطاباً، ولا تسأل عن أصدقائك، وقد تساوى عندك موتهم وحياتهم».

هذه اللهجة القاسية غير مستغربة من البطل الثائر جمال الدين الأفغاني، فقد كان يُخاطب الرؤساء والسلطين بأقوى مما كتب، وقد أراد أن يبعث الهمّة في نفس صديقه، ولم تكن نفس المويلحي في حاجةٍ إلى من يبعث شواظها المستكن في طواياها، ولكنه يعرف أن الاحتلال مسيطرٌ على البريد، ولا يمكن أن يصل من مصر خطابٌ إلى جمال الدين دون أن تعوقه العوائق، كما أنه لا يدري ماذا يقول له؟ أيقول: إن الاحتلال قد أصبح كل شيء في البلاد، وأنّ الوزراء قد أصبحوا آلة مرنة في أيدي الاحتلال، وأن أبطال الحرية قد لاقوا التعذيب تارةً والنفي إلى أقاصي الدنيا تارة! لا شك أن جمال الدين يعلم ذلك، وفي المنفيين من اتصل به في باريس

(١) أسرة المويلحي، ص ١٠٤.

(٢) مجلة كل شيء والعالم، ١٨/٥/١٩٣٢ عن كتاب (أسرة المويلحي).

كالأستاذ الإمام محمد عبده، وطبيعي أنه شرح له ما يوجب الأسى، ويستدر الدموع! لذلك لم يردّ على أستاذه، ولكن خطابه كان قوي التأثير.

لقد ظل المويلحي في عصر الاحتلال كأسدٍ في قفص، ينهض فتعوقه القضبان، ويزأُر فلا يستجيب أحدٌ لزيّره، حتى لقي ربه في ديسمبر سنة ١٩١٠م، فشيّعته الصحف الوطنية بما يليقُ به من التمجيد، ورثاه كبار الشعراء، وفي طليعتهم أحمد شوقي، إذ قال فيه من قصيدة باكية^(١):

مضى المُعطي، وما تدري يده	ومن يأسُو الجراح ومن يبُلُّ
ومن وزن الزمان فتى وشيخاً	إذا الفتيان قبل الشيب ضلّوا
وقورٌ في الحوادث لا يُيالي	سيوف البغي تُغمد أو تسل
وأقطعُ من سيوف الهند حداً	لسانٌ لا يهاب ولا يزل
كبيرٌ في المواقف لا جهولٌ	بآداب الخطاب ولا مخلٌ
بكاك الناس أحباباً وأهلاً	بأحسنَ ما وفى للخلّ خلٌ
وذاقتُ فقد خادماً بلاد	له في جيدها منن وفضل
تعقّل في محبتها فتياً	وأخلص في المحبة وهو كهل

وقد حان أن يتصفح القارئ حديث الصيحة المدوية في مجلس النواب، ليعرف تفصيل ما أوجزه الإجمال من قبل.

-٢-

المويلحي في مجلس النواب

اضطر الخديوي إسماعيل اضطراراً كما قلت من قبل أن يُنشئ مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦، ليظهر أمام الغرب في صورة الحاكم العصري المسؤول أمام رعيته، فيسهل عليه أن يقترض الأموال الطائلة وأن يسير بالأمور في مصر كما يشاء، وقد حيكت حول هذا المجلس الناشئ أراجيف مُغرصة تُضائل من مكانة أعضائه، وتهوي بهم إلى وهدة التخبّط والجهل والجمود، فمن زاعم أنّ شريف باشا وزير

(١) جريدة اللواء، ١٨/١٢/١٩١٠، ولم تنشر بالشوقيات.

الداخلية أراد أن يفهم الأعضاء أن مجالس أوربا النيابية تنقسم دائماً إلى حزبين: حزب يعضد الحكومة وآخر يقاومها، فعلى حضراتهم أن يكونوا كذلك، بحيث يجلس مؤيدو الحكومة على مقاعد اليمين، وذوو المعارضة على مقاعد اليسار! ولكن النواب تسابقوا جميعاً إلى مقاعد اليمين قائلين: نحن عبيد أفندينا، فكيف نعارض حكومته! .

ومن زاعم أن بعض النواب قد قال: إذا كان أحدنا لا يستطيع أن يردّ على مدير الإقليم في أمر ما مهما كان جائراً، فكيف نجسر على مقاومة إرادة أفندينا، وهو يملك أعناقنا ويتحكم في أعمارنا! ومن زاعم أن انتخاب هؤلاء الأعضاء كان جبراً محتوماً عليهم، إذ لجؤوا إلى الشفاعات الضارعة كي يخرجوا من تبعة هذا الأمر الخطير، فما استطاعوا الإفلات لحظهم البئس، وكأنهم يُساقون فيه إلى مأساة تندر بالشر الكارث. . إلى آخر ما سطره «ماك كون» و«الليدي رف جوردون» و«مالورتي» وغيرهم من المؤرخين، ونُقل إلينا مترجماً في كتب مأجورة تسبّح بحمد إسماعيل وتؤيد وزراء الاستعمار.

ويكفي للردّ على هذه الأراجيف أن نقول: إن أعضاء هذا المجلس كانوا شوكة دامية في جنب الاستعمار وقذاة اليمة في عين إسماعيل، إذ أسقطوا الوزارة الجائرة، وقهروا الحكومة المستبدة، وأدّوا دورهم البطولي كما تؤديه أرقى برلمانات أوروبا حين أوقعوا الهزيمة بالمتجبرين!! ولن يقال في مجلس يفعل ذلك: إنه دُمى تتحرك على المقاعد دون تفكير! .

أما كيف قام المجلس بعمله الحاسم في إسقاط وزارة الأمير توفيق، فهذا ما نخصه ببعض التفصيل فنقول: حين أُلّفت من الأجانب لجنة التحقيق العامة، لم يكن من همها معالجة الأمور المالية على نحو يضمنُ تسديد الدين المصري لأصحابه، بل رأت أن يمتدّ نشاطها الاستعماري إلى سياسة مصر وشؤونها الخاصة، وقد افترضت أن مجلس النواب شيءٌ صوري لا تأثير له في توجيه السياسة القومية، ولكنّ مبادئ جمال الدين قد أفهمت أعضاء هذا المجلس رسالتهم الدستورية في رقابة الحكومة وتقرير مسؤوليتها أمام البرلمان، فأرسل المجلس إلى السير ريفرس ولسن وزير المالية يدعّوه ليناقشه فيما يُبرمه من الأمور الاقتصادية، ولكنه لم يعبأ قيد شعرة بما طلب منه، بل هزّ رأسه هزة العابث المستهزئ.

وانطلق النواب يزأرون بالنقد اللائم، ويوجهون حملاتهم داخل البرلمان وخارجه على صفحات الجرائد وفي ندوة بيت البكري، حتى ضاقت الوزارة ذرعاً بما يشنها من تجريح، وعزم إسماعيل أن يصدر أمره بحلّ المجلس، وأعد المرسوم فحمله ناظر الداخلية مصطفى رياض، ليعلن به انفضاض البرلمان وانتهاء الأمر - كما يتخيل - من أسير طريق .

ولو كان لدى الوزارة بأعضائها الأجانب ورئيسها ولي العهد محمد توفيق ونظارها الغافلين بعضُ السّعة في التدبير؛ لعلموا أن أعضاء البرلمان يضمّون قوّة عاصفة ستقف في وجه الطغيان وتجادله الحجاج، وبذلك يأخذون للموقف أهبة فلا يبيءون بخذلان فاضح يبدّد آمالهم في الهواء، ويتركهم مذعورين على صيحات الأباة المجاهدين .

لقد تقدم مصطفى رياض ناظر الداخلية إلى ساحة المجلس ليقول :

أقدّم لحضراتكم شكر الحكومة على ما أبداه المجلس من النشاط في نظر المسائل التي عرضت عليه، وأتلّو على أسماعكم الأمر العالي الصادر من مولاي . ثم تلاّ مرسوماً بحلّ المجلس نظراً لانتهاؤ مدته المقررة، وظنّ أن الأمر قد انتهى بهذه السهولة، فهمّ بترك المنصة، ولكنّه فوجئ بعبد السلام المويلحي يصيح : لا أدري معنى لشكر الحكومة، فإننا لم نقمّ بعمل إلّا الآن يكون له شبه فائدة تعود على البلاد؟ فما هي المآثر التي ستركها وراءنا، لتشكرنا الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفضّ المجلس ! .

جلجلت كلمة المستحيل في سمع رياض جلجلة الرعد، فثار غيظه الساخط واندفع يقول مهدداً: ماذا تقول حضرتك : مستحيل فض المجلس! كيف يكون فض المجلس مستحيلاً بعد أمر خديونا العظيم، أفاهم أنت مسؤولية ما تقول؟ .

فأجاب المويلحي بكل ثقة: نعم أنا فاهم! وفاهم جيداً ما قلته، وأقدّر مسؤوليته دون إنكار! فأخذ رياض بما حسبه جرأة منكرة وصاح بالنواب: هل توافقون على هذا الكلام، ما أظن أنكم توافقون؟ .

ولكنّ الأصوات الجريئة ترتفع بالموافقة، فقائلٌ هذا رأي الجميع، وهاتف: أنا

أوافق بقلبي قبل لساني، وصائح: أوافق المويلحي بك على ما قاله وما سيقوله مقدماً.

فغلى الغيظ في نفس رياض، وقال منفجراً: إذن أنتم جميعاً عصاة. ولكن المويلحي يراجعه قائلاً: لا تغضب يا باشا، لقد ظهر لك موافقة إخواني لأقوالي وهم جميعاً يعرفون مسؤولية ما يقولون، ثم يناقش أمر إسماعيل بحل المجلس مناقشة دستورية، فيعلن أنه مبني على مغالطة فاضحة، لأن الحكومة تستند في حل المجلس إلى مضي ثلاث سنوات من بدء انعقاده، مع أنه لم ينعقد إلا بتاريخ ٢٦ ديمسبر سنة ١٨٧٨، فلم يمتض عليه غير عام وثلاثة أشهر فحسب! فكيف أصبحت هذه المدة ثلاثة سنوات!.

لو أنّ رياض كان يفكر بعقل معتدل لتراجع عن موقفه، وبحث عن تبرير آخر لحل البرلمان، ولكنه أثر اللجاج، فصاح بالمويلحي: حساب غريب يا حضرة النائب! إن مدة انعقاد المجلس هي بدء النطق الكريم الذي صدر من مولانا الخديوي المعظم في حفلة طنطا، واحسب حضرتك تجد أن المدة فاتت بكثير!.

ردّ متهافت كاذب، يبعثُ على السخرية والتهكم! وقد قابله المويلحي بما يتطلبه من اشمئزاز واستهزاء فقال ساخراً: ما هذا الكلام يا عطوفة الباشا، مالنا وحفلة طنطا الآن، وما مقدار رسميتها في تقدير القانون، عزومة شرفها سمو الجناب العالي، وتناول الطعام مع المدعويين هناك، وقيل فيها خطب وكلام، ولم يدوّن حرف مما قيل بطريقة رسمية أو غير رسمية يفيد أن كلام سموه كان أمراً عالياً له قيمة القانون، ويؤثر في قيمة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة، أليس هذا كلاماً غريباً من عطوفتكم لا مّا كما تدّعون!.

وتندّر عضو ثان، فصاح: اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها، وخلو زكايب الهم مقفولة، كما يقول المثل العامي!.

أُخرج ناظر الداخلية، وكبّا به ضيق تفكيره فقال مغيظاً: «يعني حضراتكم تقلّدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم! يعني حضراتكم الآن بعمائمكم وجبيكم مثل نواب أمريكا وأوروبا!.

وما كاد يتم عبارته حتى جابهه أحمد العديسي وعبد الشهيد بطرس وأحمد

الصوفاني بعبارات جارحة دمغته بالوقاحة والانحطاط، ومهدت السبيل لعبد السلام المويلحي، فألقى دفاعاً كريماً عن نفسه وعن زملائه ومواطنيه، ثم صاح بالباشا:

أرأيت عاقبة تسرعك في الكلام وعدم ضبطك لعواطفك! اعلم أن المسألة ليست مسألة زِيٍّ وثياب، بل المسألة مسألة عقول تفهم جيداً رغائب الأمة التي أنابتهم عنها، واعلم يا باشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعوراً بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات من الأمم الأخرى التي هي في الواقع أقل منا مالاً وعمراً، أليس من العيب أن تجمع بالأمس أصحاب الجرائد لتقول لهم عن نواب أمتك أنهم جهلاء وهمج! إننا جميعاً قرأنا في الأزهر الشريف - وفي غيره - المعقول جميعه من علوم البلاغة والجدل والفلسفة والأصول والمنطق، وكذلك قرأنا المنقول من التفسير والحديث والفقه والتوحيد، فماذا قرأت وتعلمت أنت من كل ذلك! .

فصاح الشيخ الصباحي أحد علماء الأزهر متهمكماً: تعلم عطوفة الباشا في أورطة المغروزة! فخرج رياض منسحباً، وهو يشتم ويسب صائحاً: أنتم عُصاة! أنتم ثوار! .

ثم أعلن النواب اعتصامهم بالمجلس، وجعلوا الجلسة منعقدة ليل نهار! وهو قرارٌ عجيب لا سابقة له في التاريخ العالمي! فكان ثلث الأعضاء يبقى بالتناوب ويمضي الآخرون لمزاولة أعمالهم ثم يعودون، وكانت رجّة هائلة أسقطت الوزارة مرغمةً، وتألّفت وزارة وطنية برياسة الرجل الحازم شريف وكان أول قرار أصدرته أن أمرت باستبقاء المجلس حتى تنتهي مدته القانونية!! .

ولعلّ من أكبر مزايا هذه الوزارة أنها تخلصت من الوزيرين الأجنيبين، وقادت البلاد وجهة دستورية لائقة، إذ أضرت على أن يكون مجلس الوزراء مسؤولاً مسؤولية فعلية أمام مجلس شورى النواب واستصدرت قراراً لا يقبل التأويل من إسماعيل بذلك! بل إن شريفاً قد رفض مبدأ قبول الوزارة قبل أن ينص إسماعيل على مسؤولية وزارته أمام البرلمان في خطاب التكليف بالرياسة! وبذلك أصبح شريف أبا الدستور في مصر، وكان الأداة الأولى في تنفيذ آراء جمال الدين .

ويستطيع من يقرأ محاضر هذا المجلس الأبي أن يلمس إباء أعضائه وإصرارهم الأكيد على التمسك بحقوقهم في محاسبة الوزارة وتقرير مسؤوليتها أمام النواب،

كما يستطيع من يقرأ صُحف هذا العهد أن يطالع مقالات أفذاذ منهم عن الحقوق المقررة في دول العالم لنواب الأمم وألسنة الشعوب! وأناسٌ كهؤلاء لا يعقل أن يكونوا كما تُصوّرهم الأراجيف يُحاذرون أن يجلسوا في مقاعد اليسار كيلا يُحسبوا من معارضي إسماعيل! .

ومهما قيل عن أثر الحركة الباسلة التي قام بها جمال الدين في شحذ الهمم وتنوير الأذهان، فإنّ الرجل العظيم قد وجد الأرض الخصبة الجيدة فغرس بها بذور الإصلاح والتوجيه، فاتتْ أكلها ضعفين، ولو كانت الأرض كما أراد أن يتحدث عنها المرجفون سبخة لا تنبت، ما تهيأ للنفوس أن تجتمع على ضرورة التخلص من الحكم الفردي من الداخل مع ما يسانده من حيل المستعمرين ومكائد الدائنين! .

على أن حب الحرية مما يجري في النفوس الأصلية مجرى الدم في العروق، فإذا نهض بمواجهة الاستبداد أناسٌ كعبد السلام المويلحي وزملائه ممّن فُطروا على الكرامة، ودرسوا في الأزهر تعاليم الإسلام في المساواة والحرية والإخاء، فذلك مما يتوقع حدوثه دون أن يكون في حيز المحال، كما شاءت أوهام المغرضين! .



عبد العزيز الثعالبي

زعيم تونس ولسان النهضة في الشمال الأفريقي

هُمَا تُونِسِيَّان عَظِيمَان؛ اشتركا في الاسم والثقافة والجهاد والزعامة، وذاقا مرارة النفي والتشريد، وقاما بالرحلات المتعددة إلى شتّى ربوع الشرق والغرب دفاعاً عن مَبْدَأٍ يعتنقانه، هما عبد العزيز جاويز وعبد العزيز الثعالبي، وقد وُلِدَ الأول في مصر، إذ نَزَحَتْ إليها أُسْرَتُهُ قَبْلَ مولده، أما الثاني فمولده بتونس، تربّى بمعهد الزيتونة الديني وحَمَلَ شِعْلَةَ الجهاد حتّى لقي ربه، وهو لا يَنيّ ينزل كل أرض، ويتحدث عن شجون المسلمين في كل موطن، حتّى ليصدق في رثائه ما قاله شوقي في رثاء عبد العزيز جاويز من قبل:

لقد نسي القوم أمس القريب	فهل لأحاديثه من معيد
يقولون ما لأبي ناصر	وللثُرك ما شأنه والهنود
وفيم تحمّل همّ القريب	من المسلمين وهم البعيد
فقلت وما ضرّكم أن يقو	م من المسلمين إمام رشيد؟
أستكثرون لهم واحداً	وليّ القديم نصير الجديد
يشدّ عرا الدين في داره	ويدعو إلى الله أهل الجحود
وللقوم حتّى وراء القفار	دعاة تغني ورسّل تشيد

وأنا أكرر هذه الأبيات في صدر الحديث عن عبد العزيز الثعالبي بعد أن ذكرتها في بحثي عن عبد العزيز جاويز^(١)، لا شغفاً بتكرار شعر شوقي، بل خفراً لهمم المسلمين، وأملأ أن يعلموا أنهم جميعاً كالجسد الواحد إذا شكا منه عضو تداعى بالشكوى جميع الأعضاء.

(١) النهضة الإسلامية جـ (١).

كان الثعالبي كجاويز يرفضان الحواجز السياسية المصطنعة بين ممالك الإسلام وبلاده، ويرونها حُدوداً وهمية أُقيمت لمصلحة نفرٍ من الرؤساء لا لمصلحة الشعوب، فالإسلام وطنُ المسلم أياً كان موطنه، فإذا حلَّ في بلد إسلامي فهي بلده وإن لم يَطأها من قبل، وقد كان هذا المعنى متعارفاً قبل عصور الاستعمار، كان مُتعارفاً في عهود الخلافة المتنوعة من عباسية وفاطمية وأندلسية، فأبناء الإسلام في هذه الخلافات يرحلون إلى كل مكان، دونَ أن يعوقهم حاجز سياسيّ، وقد يخرج الرّاحل من بلده إلى بلد آخر، ولا يشعرُ أنه اغترب، بل يوافيه أجله في بلده الثاني قريح العين؛ وإخوانه هنا هم إخوانه هناك. وكُتِبَ الرحلات الكثيرة في الماضي مليئة بشواهد رائعة من هذه المعاني، وهي متداولةٌ مشتهرة، نقرؤها فلا نلفُ لهذا المعنى، لأنّ الحاضر قد ضرب على الماضي غطاءً كثيفاً فجعله أجنبيّاً عنا، وهو ماضينا العزيز.

يذكرونَ أن عبد العزيز الثعالبي ولد في تونس سنة ١٨٧٣م في أسرة عريقة في الفضل، ثم تعلّم بمدرسة باب سويقة الابتدائية، وانتقل إلى جامع الزيتونة فنال شهادته النهائية، وخرج إلى الحياة لينضمّ إلى أول حزب تحريري قام في تونس لمكافحة الاستعمار، وقد أنشأ عدة صحف وطنية تُقاوم المحتل الغاصب، وقد صُودرت واحدة بعد الأخرى، وصُيِّق عليه في الاستمتاع بحريته، حين أُلِفَ الحزب الوطني منادياً بتحرير العالم العربي كله، وإقامة الوحدة بين أقطاره، ثم عزم على السفر إلى الخارج لينشر دعوته تلك في ربوع العالم الإسلامي، ففهم الفرنسيون قصده، وحالوا دون سفره حتى استطاع أن يخرج مستخفياً، ويبدأ رحلاته المتتابة.

إن جامع الزيتونة قد علّم عشرات الطلاب من رفقاء عبد العزيز الثعالبي، وفيهم من خاصم الاستعمار ونادى بمحاربته، ولكن عبد العزيز هو الذي قام بتأليف أول حزب وطني يُنادي بطرد الاحتلال، وكان سابقاً لزمانه بأكثر من نصف قرن حين جعل من مبادئ الحزب تحرير العالم العربي جميعه، وقيام الوحدة بين أقطاره، وهو اتجاه غير متوقع من شابّ عاش في بلد مُحْتَلّ، فكان أكبر همّ رفقائه أن يُنادوا باستقلال موطنهم.

أما أن تتسع الآمال بعبد العزيز، حتى يجعل من مبادئ حزبه الناشئ طرد المستعمر من كل أصقاع العالم العربي، والدعوة للوحدة العربية، فهذا ما يدل على

سبقٍ فكريّ مستغرب في زمنه، لأن الخلافة قائمةٌ، والدعوة إلى الوحدة في ظلّها مما يُسبّب مصاعب جمة، ينهض بها دعاة الأتراك في تونس نفسها، فيكونون مع الاستعمار في مناوأة الشّاب الطامح.

وقد قدّر الثعالبي ذلك فرأى أن تونس أضيّق من أن تتّسع لآماله، وصمّم على الرحلة إلى شتّى الأماكن، فزار ليبيا ومصر والجزائر والمغرب الأقصى، وعقد صداقات قوية مع زعماء الفكر في هذه البلاد، ولا شكّ أن المخلصين من هؤلاء قد رَحّبوا بمبادئه الممتازة، ولكنهم أشفقوا على الأمل الطامح الممتد، أن يعوق اتّساعه الفسيح دون تحقيق المأرب المتواضع، وهو استقلالُ كل قطر عربي، وخلاصه من الاستعمار قبل أن يهتف بالوحدة الجامعة.

وقد جالَ الثعالبي جَولته الأولى، وزار عاصمة الخلافة ليبلغ المسؤولين أنّه يدعو إلى الوحدة العربية في نطاق الخلافة الإسلامية، وهي دعوةٌ لم تصادف هوى لدى القوم، ولكنه جاهر بها، وكأنّهم رأوها خيالاً لا ينهض على ساقين، فتركوه يقول ما يشاء! ثم رأى أن يرجع إلى تونس ليصدر صحيفته الوطنية شارحاً ما شاهده في رحلاته خارج البلاد، وداعياً إلى إذكاء الحمية في النفوس على نحو يأبى صغار الاستعمار، وهُنا رأت الحكومة الفرنسية في باريس أنها أمام خصم عنيد، فأوحّت إلى عُملائها في تونس أن يُسارعوا بإرهاب الزعيم المتحمّس، وقد ألصقت به تُهمٌ لم تُحكم حبالها على وجه يُقنِعُ قضاة الفرنسيين أنفسهم، وأحدث اعتقاله ضجةً عامة في أرجاء تونس، وخافت سلطة الاحتلال أن يمتد الغضبُ من أجله بحيث يصعب تلافيه، فأطلقته وأوقفت جريدته السياسية.

وكانت نعمةً من الله لمثله، إذ منحته الهدوء ليؤلّف كتاباً سمّاه (روح القرآن) كتبه بالعربية، ونقله إلى الفرنسية، وكان الهدف من ترجمته إلى لغة المحتل أن يُقنِع الفرنسيين في أوروبا أن الإسلام دين حضاري، وأنه بريء من افتراءات خصومه التي تُذاع في أوروبا على نحو واسع، وكان للكتاب صدهاء، فدفعه نجاحه العلمي إلى أن يُصدر صحيفة باللغة الفرنسية تنطق بآمال التونسيين خاصّة، والمسلمين عامة، وتحمل في نفقات ذبوعها ما أرهقه وأثقل ديونه، ولكنه كان يرى ذلك ضرورةً مفروضة على كل مكافح!

لقد ساءه أن تحتل إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١، فعمل على جمع المعونات المالية،

ونادى بضرورة الإسهام في القتال الدائر بـطرابلس، وكأتمأ رأى المستعمر الفرنسي أنّ هذا النشاط لا يحمل بُغْضَ المستعمر الإيطالي وحده في ليبيا، بل يدعو إلى الثورة داخل البلاد، فحاول إغراء الثعالبي بمنصب كبير في بلده، ولكنه رفض العرض هازئاً، فقبض عليه الفرنسيون، وطرده من البلاد، وكان ذلك عودةً لنشاطه المعهود في الأمم المجاورة في الشرق، والدول المستعمرة في الغرب.

ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، فكان دماراً أوروبا الشامل بكوارثها أقوى دليل في يد الثعالبي على فساد الحضارة الأوروبية، وكأنّ هذه المجزرة البشرية المُرِيعَة قد أمدّتْه بأقوى البراهين التي لا تُنْقَضُ، إذ جعلتْ مَنْ كانوا يتزعمون قيادة الشعوب في ركب المدنية وُحُوشاً بين أدغال! وهنا ركن المفكر الحكيم إلى قلمه ليشرح مصائب الشرق والغرب معاً، مصائب الشرق في التفرّق والجمود، ومصائب الغرب في العدوان والانتهاب!.

وإذا كنتُ أُعْنِي دائماً بعرض أفكار من أتحدث عنه، فإنّي أجد فيما كتبه الثعالبي في هذا المجال نِدّاً عظيماً لأمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، لأنّ هؤلاء المخلصين قد عرفوا مكانَ الضعف في تخلف الشرق، ودواعي الابتزاز في تسلط الغرب، ووضعوا الأدوية الشافية لعلل الشرق المستعصية، وقد اتفقت أفكارهم اتفاق آمالهم الطامحة، وهمومهم المشتركة، وليس اتفاق النقل والاحتذاء، فلكلّ منهم خاطره المستقل، ونظره السديد.

وبعض المجاهدين لا يتعمقون في أحاديثهم الوطنية، بل يكتفون بالتعبير عن مشاعر الجماهير، فالسامعُ يُعجب بهم عاطفياً لأنهم يعبرون عن مشاعره، فإن زادوا شيئاً فمما يسهل تصوّره للنظرة الأولى، ولكن الثعالبي ليس من هذا الطراز، فالرجلُ بحثاً مشغوفٌ بدراسات مختلفة من تاريخية وسياسية واجتماعية وتشريعية، وقد ظهر أثرها في نظراته التوجيهية، فهو في أكثر أحاديثه أستاذٌ دقيق النظرة، واسع المدى، وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بما يهتف به، فزاد هذا الاعتقاد أحاديثه توهجاً وبريقاً.

ولعلّ أهم ما شغل ذهنه من الموضوعات السياسية: ما بالشرق من مرض قعد به عن النهوض، وكلّ سياسي مجاهد من زعماء الإصلاح قد أطال النظر في هذا المرض مُعللاً مستطباً، ولكن قلّ منهم من اهتدى إلى ما اهتدى إليه الثعالبي، حين

قرّر أن هذا الضعف قد تسلسل من عصور ماضية، وكلّ عصر يزداّد عن سابقه فتوراً وجموداً، وعلةُ العلل في ذلك هي جهلُ المسلم بثقافة دينه السياسية، فكلّ ناشئ يعرف الكثير من أحكام العبادات والمعاملات، ولكنه لا يعرف شيئاً عن مركز الحاكم في الإسلام، ومتى يكون أمره مطاعاً، ومن الذين ينتخبونه، وما الظروف والأسباب لعزله وتنحيته، وتلك أمور هامة لو فهمت على وجهها الصحيح ما استطاع المغتصبون للسلطة أن يظهروا بمظهر الشرعيين الملتزمين.

هذا إلى ما جوّزه المأجورون من الفقهاء حين أباحوا إمامة المغتصب الذي يتولى الأمر بالرهبة والعدوان، فوجدت الحكومات الظالمة، وتسلطت على الرقاب، وهي دخيلةٌ زائفة، فكان تسلطها سبباً لاختلال الأمن، إذ جمعت حولها الوصوليتين والهتافين، ممّن يؤيدون كلّ حاكم لبيتزوا الجاه والمنصب من لدنه.

وحين ظهر الشقاق بين الخلفاء في عهود الطغيان، لم يجد القانون الإسلامي من يذب عنه، ويُعيده في الناحية الدستورية إلى نصّ الكتاب الحكيم، فقُدت الهيمنة الروحية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهي هيمنةٌ ضرورية لردع الطغاة، وإنّ معظم ما أصاب المسلمين من البلاء هو فقدُ الرياسة الدينية الصحيحة، فاستطاع الاستعمار أن يأتي بقوانين تتشعّ بالعدالة ظاهراً وهي في مضمونها خيرٌ، مما يسته الظلمة من قوانين بعيدة عن روح الإسلام؛ يقول الأستاذ الثعالبي^(١) - ببعض التصرف:

«ليس الدين قوة مسلحة، تُرهق الناس وتستدعي الخلاف، ولكنه دينٌ عقل وعمل وتسامح، وقد وُجد ضالون مضللون في كل عصر يتنكبون مصادر العلل، ومناشئ الأدواء، ويتهجمون على الدين إذ يطعنونه في الصميم، ثم يلحقون به ما أصابهم من جمود وانحطاط، مع أنّ الدين في نشأته الأولى قد قلب نظام العالم، وأوجد إخاءً بشرياً رحيماً وارف الظلال، ودينٌ كهذا لا يُعقل أن يكون مصدر انحطاط، ولكنّ الانحطاط جاء من إهمال تعاليمه.

كما أنّ فقد الرقابة على المؤلفات العلميّة، والكتب المدرسية قد أوجد في هذه الكتب دسائس وأراجيف دُسّت على الإسلام، فكانت كالسوس الذي يأكل اللحم،

(١) مجلة المعرفة - يوليو ١٩٣١م.

وينخر العظم، وليس من وسيلة لتنبيه الناس غير مؤتمر جامع للمسلمين ينظر في شؤونهم العامة». ويقول الأستاذ عبد العزيز الثعالبي إنه دعا إلى ذلك منذ ثلاثين عاماً في جريدة (المؤيد)، ولم يستمع إليه أحد.

وحين رأى الثعالبي محاولة بعض المثقفين الارتقاء في أحضان الثقافة الغربية دون رجوع إلى أصولنا الراسخة في مقرراتنا الدينية التي لا خلاف عليها، استمع إلى ما يقال، ثم كتب عدة مقالات تبين الوجهة الصحيحة للترقي الحضاري، ومحو آثار التخلف الإسلامي مقارناً بالسبق الأوروبي، ولم تنقُضه قوة الحجة حين أكد أن المسلمين لا ينقصهم العلم بحياة الأمم، ولا الإحاطة بأسباب ترقّيها، خصوصاً بعدما اشتهرت في العالم الإسلامي قواعد علمي الاجتماع والنفس، ودوّنت أحداث الانقلابات الأوروبية المعاصرة، وإنّما ينقصهم أن يعرفوا قابليّة الأمم واستعدادها لتلقّي ما يتناسب مع حالاتها وأوضاعها.

فليس من الحكمة أن نرسم في معالجة أدواء الأمم الإسلامية اليوم كلّ الخطط التي جرت عليها أوروبا في نهضتها، لأنّ ظروفنا غير ظروفها، والموانع التي تعوقنا غير الموانع التي تعترض تقدمها، فقد كانت النهضة الأوروبية التي بدأت في القرن الخامس عشر تسير في منهجها، وليس عليها رقيب من الأمم التي تنافسها، ولم تطوّق بشرائع ظالمة يُملّيها عليها أعداؤها وخصومها، كما هو حاصل في البلاد الإسلامية اليوم، وكانت أمم أوروبا سليمة من كل تدخل أجنبي، ومن دعايات ذيول المستعمرين، وهي أنكى فتكاً في نفوس الشبيبة من دعايات المستعمرين أنفسهم، وهذا هو السرّ في إخفاق النهضة الإصلاحية في البلاد الإسلامية، لأنّ محاولة احتذاء الغرب في كل وسائل نهضته لا تأتي هنا بالثمرة المرجوة.

وهذا الكلام يؤكده الثعالبي قبل أن تنفش غيوم الاستعمار السياسي عن دول الإسلام، فهو يرى الخطر الجاثم في كل قطر إسلامي هادفاً إلى عرقلة حركات الإصلاح ذات المنزع الإسلامي، وقد هتف الثعالبي بآرائه حين كان ركّب متواصل السير في الصحف العربية يدعو إلى احتذاء كل شيء أوروبي، ويقول: إن الحضارة الغربية هي العلاج بخيرها وشرها، وأعجب شيء أن يعترف القائلون بوجود الشر في حضارة أوروبا، ثم تدعو أعلامهم إلى احتذائه، فأيّ شطط يفوق هذا الشطط.

وإذا كان عبد الرحمن الكواكبي قد عقد مؤتمراً خيالياً في أم القرى يجمع

الشعوب الإسلامية، ويتحدّث ممثل كل دولة عن همومها الموعلة في التعقيد، فإنّ الثعالبي نادى بسرعة بقيام هذا المؤتمر الإسلامي عملياً لا خيالياً، فأعلن أن الإصلاح لا يتمّ بمقالات مُتفرقة تُنشر في الصحف، فلا يقرؤها غيرُ نفر قليل من قطرٍ واحد، هو الذي تذيع فيه الجريدة، إنما الإصلاحُ بدعوةٍ ممثّلين مستنيرين من كل بلد إسلامي إلى مؤتمر عام، واقترح أن يكونَ المؤتمر في بلدٍ محايد كسويسرا أو النرويج، ليأمنَ شرَّ الهيمنة الاستعمارية ومحاولة توجيهه وجهة مخطئة إذ ذاك، وإنّما اختارَ قطراً أوروبياً لا شرقياً، لما يتبعُ ذلك من انجذاب مراسلي الصحف وشركات الأنباء إليه، فتكونُ الدعاية العالمية له وسيلةً من وسائل النجاح، على أن يُحدّد المؤتمر في ختام موعد انعقاده المؤتمر التالي ومكانه في مدى لا يقل عن عامين، ليرى المؤتمرون ما تمّ في هذه المُدة من تنفيذ لقرارات المؤتمر الأول.

هذه الدعوة الملحة إلى عقد مؤتمر إسلامي لم تجد التنفيذ الذي رَسَم الثعالبي خطوطه بإحكام، بل عُقدت مؤتمرات أخرى، لا لتبحث مشكلات العالم الإسلامي بعامة، بل لينحصر البحث في جزئية خاصة، كقضية الخلافة وغيرها، ولم تأتِ هذه المؤتمرات بنتيجة حاسمة، بل كانتُ مصدراً من مصادر الخلاف، وهذا ما تخوَّف منه الثعالبي حين دعا إلى عقد المؤتمر في دولة أوروبية محايدة، وإلى أن يكون المؤتمرون مستقلّي النظر، بعيدين عن تمثيل حكوماتهم الرسمية، لأنّ المبعوث الموفد من جهةٍ رسميةٍ إنّما جاء لينطق بلسانها الخاص، دُونَ نظر إلى الصالح العام.

وقد أكّد الثعالبي أنّ من الخير أن تكون أعمال المؤتمر تحتَ سمع أوروبا وبصرها، لتعرفَ قوة الأمم الإسلامية مجتمعة، ثم لا تستطيعُ دولة استعمارية أن تحرّف القرارات، أو تفسّرها وفق ما تشاء، وإذا تمّ ذلك فإن خطوات العلاج لكافة أدواء المسلمين ستبدأ السير في الطريق الصحيح، إذ تُكشف الموانع، وتُحدد الوسائل وتوضح الغايات . .

يقول أبو الطيب المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جلاً أن يُسمى!
وقولُ المتنبي: «ما أبتغي جلاً أن يُسمى»، ليسَ جديراً به، فهو لا يبتغي غير مآربٍ شخصي يعودُ عليه بالحظوة والجاه والمُلْك، كما عبّر عن ذلك في قصائد كثيرة؛ أمّا رحلات الثعالبي وانتقاله من بلدة إلى بلدة في شتى ربُوع الإسلام دُونَ

يأسٍ فلِغايةٍ أسمى وأجل، هذه الغايةُ هي يقظةُ الأمة الإسلامية، وخلوصُها مما ران عليها من جمود، وهو في كل مكان ينزلُ به يُلقِي المحاضرات الضافية ذات النظر البعيد.

وقد تنبأ بعد الحرب العالمية الأولى بانهيار المدنية الأوروبية، لأنها لا ترعى العدالة، ولا تنظر إلى العالم بالمقياس الخلقي، فالأُمم التي انتصرت في الحرب قد انقلبت على حلفائها في الشرق بعد أن وعدتهم الوعود، ومدّت لهم في الأمان، وقد اتخذت من الحديد والنار سلاحاً في قهر الأمم المغلوبة على أمرها، كما أن الدول المنهزمة في أوروبا شعرت بالحق والحسد، فعزمت على أن تثار لنفسها، ولن يكون ذلك دون حرب جديدة تأتي على الأخضر واليابس، هذا ما تنبأ به الثعالبى عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتقسيم الدول بين المنتصرين تقسيم الأسلاب والغنائم.

وقد نادى به حين كانت الجرائد اليومية في الشرق تتمدح بارتقاء الحضارة الأوروبية، وتراها أعظم نموذج يُحتذى، وقد اندفع هؤلاء يصمون الثعالبى ومن تبعه في دربه المستقيم بالرجعية وقصر النظر، ناسين أن من مفكري أوروبا أنفسهم من نعى الحضارة الأوروبية، وجعلها كالنار تأكل بعضها حتى لا تبقي غير الرماد، وقد تُرجم ما قاله هؤلاء المفكرون، وتنبأ فريق من الفضلاء، غير أنه لم يُعجب الهائمين بمدينة الغرب، لا لأنهم يجهلون نقائصها الواضحة، بل لأنهم مُرتزقة متنفعون.

لقد تنقل الثعالبى في ربوع الإسلام، فزار الهند وأندونيسيا والحجاز ونجد واليمن، والعراق ومصر، ولا يدري أحد غير الله كم كابد من مشقات مادية في سبيل هذا الترحال، إذ لم يكن وراءه حزبٌ يمدّه بالمال، ولم يكن وارث عقار كبير يقوم بنفقاته، ولكنها صُباباتٌ من تراث والده (عبد الرحمن الثعالبى) أخذ المجاهد الكبير يعتصرها اعتصاراً ليبلغ بها بعض ما يُريد، ومن لطف الله بهؤلاء القمم أن زعماء البلاد يعرفون جهادهم الشاق، وينزلونهم أكرم منزل حيث يحلون، وسأتحدث في هذه العاجلة عن رحلة الثعالبى إلى فلسطين وإلى العراق وإلى مصر ببعض الإيجاز، ليعرف القراء طرفاً من جهاده الحافل، ونشاطه المرير.

زار الثعالبى فلسطين في حقبتين متواليتين، فصلت بينهما زيارته للعراق،

وإمامات متفرقة بمصر والهند والحجاز، ففي الحقبة الأولى كان الانتداب الإنجليزي يمهّد لقيام دولة إسرائيل، استجابة لوعده بلفور، وكان المجلس الإسلامي الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسيني يستقطب كلّ مفكر إسلامي، ليعاون بفكره وتديره في مطاردة الباغين، فما إن حضر الثعالبي إلى القدس، حتى كان المستشار الأول للحاج محمد أمين الحسيني، وقد ألقى محاضرات دينية وسياسية بين الشبيبة الفلسطينية تدعو إلى التحرّر القومي، والعزة الإسلامية، وتُصوّر الواقع السياسي كما هو، حفزاً للهمم، وقد كان الأستاذ عجاج نويهض من أقرب خلصائه، نظراً لاتصاله الدائم بالحاج أمين، فعرف أيّ مجاهد هو؟ وتحدّث عن تأثير خطابه الحماسية، ومقالاته السياسية، فكان مما قال - ببعض التصرف^(١):

«وجه الثعالبي يُوزّع على أمة من الناس ناسوتاً جذاباً يجعلك تؤمن بأنّ النفوس الخيرة المفطورة على عزّ السجايا إنما تُضيء عن طريق المحيّا، لا يُسرّع في كلامه، وإنّما لكلامه صراعٌ من الحق الذي يحركه، وقد يغضب غضب الناصر للحق متى واجه باطلاً، ولو بقي يتكلم ساعة، فكأنّه من حيثُ نشاط عقله وجنانه لم يزل في البداية، والغالبُ عليه في حديثه هو الأدلّة العقلية الفلسفية، والرجل العادي إذا سمعه طرب له لما يدهش من سلاسة هذه المعاني المبسطة المسوقة بانسجام، الواضحة في نبر لا يحتمل التأويل، والرجل المثقف (والثقافة مراتب ودرجات ومستويات) يظلّ يعلو بثقافته في الاستيعاب من الثعالبي، حتى يصل إلى الأفق العالي، إذ لا بد من محطات استراحة معه، وهذا أهمّ ما شاهدته فيه، وهو يفسّر نقاطاً من التاريخ الإسلامي».

وقد استطاع الثعالبي أن يلفت الأنظار إلى تاريخ المغرب العربي في الحديث والقديم، فألقى عدة محاضرات عن الفتح الإسلامي للمغرب بمعناه العام، وتحدّث عن أبطال الفاتحين منذ عقبة بن نافع إلى أن أتمّ الله نوره في هذه البلاد، وهو في كل حديث يمزج روائع الماضي بأحلام الحاضر وأمانيه، وقد وصفته الصحف حينئذ بأنه ابن خلدون الجديد.

أما الزيارة الثانية فكانت سنة ١٩٣١ حين انعقد مؤتمر إسلامي خاص بمأساة

(١) مجلة الأديب: سبتمبر، سنة ١٩٧٤م.

فلسطين، وقد شهدته زعماء الإسلام في العالم كله، وقد هبّت على المؤتمر زعازع تعصف بمهمته الأولى، إذ اعتبرته بعض الدول مناهضاً لسياستها، وقد طار الحاج أمين إلى مصر ليبدّد هذا الوهم، وكان ترتيب المؤتمر من بدئه إلى نهايته وفق اقتراحات عبد العزيز الثعالبي، وطبيعيّ أن تحيطه المكاييد الصهيونية بدواهيها الشريرة، وقد أخذ الثعالبي على عاتقه أن يفضح هذه المكاييد، وكانت صلّاته الشخصية بزعماء العالم الإسلامي مما جعلته موضع الثقة فيما يُدّيه من ملاحظات، وقد اعترفت بذلك اللجنة التنفيذية للمؤتمر، ومن أعضائها أمين الحسيني، وشكري القوتلي، ورياض الصلح، ومحمد علي علوبة، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم من كبار المجتمعين، والحديث عن ملحقات هذا المؤتمر وعواقبه ممّا يطول .

أما زيارة الثعالبي للعراق فكانت مصدر عطاء ثقافي ممتد، لأنّ الملك فيصل الأول كان على صلة به قبل أن يعتلي عرش العراق، وقد رأى فيه نصيراً قوياً لليقظة العربية والصحة الإسلامية، فأرسل يستدعيه سنة ١٩٢٥ من الهند، ليكون أستاذاً بأحد المعاهد العالية ببغداد من الوجهة الرسميّة، وليمدّ الأندية العلمية بنشاطه المتصل، فتكون محاضراته مبعث يقظة فكرية تنتظر من مثله .

وشرعان ما لبّى الثعالبي الدعوة، واتّجه إلى بغداد ماراً بإمارات الخليج العربي، إذ كان من همه أن يزور كل إمارة (محميّة) ليعلّم ما هي عليه من الوعي السياسي، والتطلع الحضاري، وفي القوم من يعرف مكانه القيادي، فكانوا يستقبلونه استقبال العالم المجاهد المصلح، حتى قضى أرباً من حاجته المتطلعة، فاتجه إلى بغداد، وكان القوم على علم بمقدمه، فأعدّوا حفلة رائعة لاستقباله، وأقيمت بدار سينما رويال أكرم حفلة استقبال حضرها الوزراء والأعيان والكتّاب، وفي مقدمة المحتفلين شاعرا العراق الكبيران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي، وقد جلجلت قصيدة الرصافي في المحفل، إذ تحدّث عن الصلات الحميمة بين بغداد وتونس، وتذكّر الماضي الزاهر، وحنّ إليه راجياً أن يعود، وقال عن الثعالبي فيما قال:

تغرّب ضارباً في الأرض يبغي	مدى من دونه خرط القتاد
وكان طوافه شرقاً وغرباً	لغير تكسّب أو لارتفاد
ولكن ساح لاستنهاض قوم	حكوا بجمودهم صفة الجماد

يَغَار على العروبة أن يراها مهذّدة المصالح بالفساد وليس من شأن الثعالبي أن يخلد إلى الراحة، وأن يقعد دون عمل لأنه ضيفٌ وافد، فرأى أن يُسند إليه بالعراق ما يمكنه من أداء نفعٍ مؤكد، ورأى الملك تصميمه فبادر بتعيينه أستاذاً للفلسفة الإسلامية في جامعة آل البيت التي أنشئت منذ عام، وقد جعل المحاضر من كلماته موضوعاتٍ حيوية، يتحدث عن العلل والأمراض التي أوهنت المسلمين وجعلتهم شيعاً ومذاهب، وامتدّ حديثه إلى ما سبق الفلسفة الإسلامية من فلسفاتٍ هندية وصينية وإغريقية، ليربط ذلك كله بما جاء به الإسلام من حكمة متكاملة لا تنتمي إلى جهدٍ سالف، وامتدّ نشاطه الثقافي بجامعة آل البيت خمس سنوات كانت باعثة نشاطٍ ثقافي لا مثيل له.

وأذكر أن الدكتور زكي مبارك قد باهى في بعض محاضراته ببغداد بأنّه أولٌ من شغل الفكر العراقي ببحوثه التي يُلقِيها على الطلّاب، على نحوٍ لم يُعرف من قبلُ لمبعوث وافدٍ من أساتذة الأقطار العربية، فاعتزّضته الصحف مسجّلة فضل الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وقالت فيما تحدّثت به عن الزعيم التونسي: إنّهُ مصلح مفكر ذو رسالة، أمّا الدكتور فمُدرّسٌ أديب فحسب.

ومن مساعي الثعالبي الحميدة أنّه جعل يؤلّف بين المتنافرين من حملة القلم، فيدعوهم إلى الصفاء قائلاً: إنهم يحاربون في جبهة واحدة هي جبهة الهداية ضد الضلالة، فلا يجوز أن يكون خلافهم مصدر خصام، وأنّه يسعد كل السعادة حين يرى تلاميذه يعارضونه في قاعة الدرس أو على صفحات الجرائد، لأنّه يرى ثمرة غرسه تنمو وتزدهر، كما عقد حفلاً أديباً للمصالحة بين الزهاوي والرصافي، وكان سعاة الشر قد أججوا بينهما ناراً تلتهب، فسعى إلى إطفائها حتى توارت.

ومن مسعاه الحميد أيضاً ما أقنع به الملك فيصل من ضرورة العطف على الرّصافي، وتقريبه، وإزالة ما في صدره من وحشة، وفعلًا استجاب الملك لرجاء صديقه، واصطحب الزعيم التونسي صديقه الشاعر العراقي إلى قصر جلالة الملك، فلافطه فيصل وشفى صدره، وقال له: إني أعتبرك من الآن أحد أفراد أسرتي، فانبهر الشاعر بما سمع، وقال: يا سيدي هذا شرفٌ عظيم من جلالتك، ورجع الزائران سعيدين موفقين.

وقد اختيرت بعثةٌ علمية من طلاب العراق ألّفت من ثمانية عشر طالباً للسفر إلى

مصر، لتلقي العلم في جامعتها، ورأى الملك أن يكون الثعالبي مراقباً للبعثة في القاهرة، ولعله أراد أن يُريحه من جهده العلمي المتواصل، فسافر الثعالبي مع الطلاب، ليستأنف بالقاهرة عهداً كان له بها من قبل، وقد استُقبل في القاهرة، بمثل ما استُقبل به في بغداد من قبل، إذ أقامت له جمعية الشبان المسلمين حفلة تكريم رائعة خطب فيها كبار القوم وفي مقدمتهم رئيس الجمعية الدكتور عبد الحميد سعيد.

وقد وعد الثعالبي مستمعيه أن يُحاضرهم في الأسبوع المقبل، فارتقبوا المحاضرة على شوق، وكان موضوعها الإجابة عن هذا السؤال الجائر؟ هل انتصر الإسلام بالسيف؟ وهو سؤالٌ أُرُجف به كتاب أوروبيون، ودونوه في كثير مما ألفوه، ومع أن الإمام محمد عبده ومن تلاه قد بددوا هذا الإفك، فقد رأى الثعالبي أن حديث هذه الفرية لا يزال يتردد، وألقى محاضرة ضافية نقلت خلاصتها في مجلة الشبان المسلمين.

وقد أقيمت حفلات كثيرة لتكريم الزعيم التونسي، منها حفلة شيخ العروبة أحمد زكي باشا، وحفلةٌ ساهرة أقامها وحيد بك الأيوبي، وصفتها مجلة (النهضة النسائية) فقال^(١): إن المصريين كافة والشرق عامة يعرفون الأستاذ الثعالبي ويعلمون قدره، وهو من رجال الوطنية الصادقة، ومن أهل الأدب الكبير، وقد انتهز الكاتب الكبير السيد وحيد الأيوبي وجوده بمصر فدعاه إلى حفلة كبرى، أخذ خطبائها يُعدّدون مناقبه، ثم كانت خاتمة الحفل كلمة هادفة ألقاها الكاتب، ونشرت المجلة خلاصة الكلمة، وقد ذكر فيها:

«إنّ العالم جميعه يُعاني أزمة كبرى، ولكن أزمة الشرق أفدح وأعظم من أزمات الأمم جميعها، وإذا كانت بعضُ ممالك أوروبا قد استفادت من الحرب الماضية، فإننا نحن الشرقيين قد دفعنا ثمن هذه الحرب، وضاعَتْ فرصةُ الإفادة منها، أو التعلّم من دروسها، وقد مضى عهد الحروب الحمراء ذات الدماء، وأصبح الغرب يستعمرُ الشرق الآن بالعلم والتفوق الصناعي، لا بالسيف والخنجر كما كان الاستعمار من قبل، فالحربُ الحقيقيّة التي يجب أن نخوض غمارها الآن هي حربُ

(١) مجلة النهضة النسائية، يناير، سنة ١٩٣١، ص ٨.

التقدم العلمي، وقد عاشت الحضارة في ظلّ الإسلام، ونشأت وترعرعت في جنباته، وقد آوى الإسلام أدياناً ومعتقدات كثيرة دون أن يتعرّض لها بسوء، أما حضارة أوروبا الآن فلا تتحمل أن تطبق الإسلام أو أن تسمع مآثره من مآثره، ولا تذكر المسلمين بغير الذّلة والهوان، فلا سبيل إلى أن ننْجُو من براثنهم إلا إذا تسلّخنا بما تسلّحوا به من التقدم العلمي، فتتعادل القُوى لدى النزال».

وقد أفاض الثعالبي في هذه المعاني، واستدعت تعقيبات كثيرة أفضت إلى اتفاق تام في الوسائل والغايات.

على أن الرجل في القاهرة كان يُبدي رأيه في الأحداث العالمية في أحاديث تنشرها الصحف، أو محاضراتٍ تهرع إليها الجموع، فكان هو الزعيم العربي الأول الذي تبوأ الصدارة التوجيهية في المنتديات الإسلامية، والسامعون يتلهفون على محاضراته، ويسألون عنه إذا اعتذر لسبب من الأسباب.

وقد أدلى برأيه فيما أُثير من قضايا البغاء والتبشير، والظهير البربري، وترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، وغيرها من القضايا التي عاصرت وجوده في مصر، وقد امتازت آراؤه بالتؤدة، ومحاولة الرجوع إلى الجذور الأصيلة، واستشفاف ما سيكون من النتائج بعد فحص المقدمات.

ومن أهمّ ما أوضحه من القضايا حديث النهضة التركية المعاصرة، حيث أسهبت الصحف اليومية في تعداد مزاياها، وجعلتها النموذج المحتذى لمن يريد النهوض بمعشره، كما قام بعضُ الكاتبين بتوجيه أخطاء الخلافة العثمانية إلى طبيعة الإسلام نفسه، وعدّه الحجر النّاهض عثرةً في طريق التقدم، وهو تخرّصٌ لا زلنا نسمعه من قوم يخافون من شريعة الإسلام لشيء واحد هو أنّها تقفُ حاجزاً دون شهواتهم المريضة، فتقيمُ الحدّ الزّادع على الزّاني وشارب الخمر والسارق.

وأعرف كاتباً شهير الاسم لم يمدح مسلماً قط إلا مصطفى كمال، لا لشيء إلا لأنه نبذ تعاليم دينه وجعل أمته تابعة لأوروبا بعد أن كانت رأساً بين الأمم، وذات مهابة تنخفض لها الرؤوس، وقد أُتيت تركيا من ثوار الجيش بما لم تُوت به من الخُلفاء والسلّاطين، إذ كانوا أصحاب الهزائم المتكررة التي أدّت إلى الهوان في الحرب العالمية الأولى، وقد انضمت تركيا لألمانيا بتصميم هؤلاء الثوار، حين لم يكن لخليفة المسلمين رأيٌ يسمع!

كل ذلك وعاه الثعالبي وعرفه حق المعرفة، وعبر عنه في ندوة جمعت من يهيمون بمصطفى كمال، ويتشاقون بأعماله، فوجهوا بقول الثعالبي^(١): «إن النهضة التركية فيها الشيء الكبير من الإغراء والفتنة للذين يتهافتون على تقليد كل جديد مهما كان أثره، ولكنها ليست في نفس الأمر نهضة شعبية بالمعنى الصحيح، بل هي نزوة دكتاتورية في أمة أنهكتها الحروب الداخلية والخارجية، فطبتعت البلاد بحضارة لا تمت إليها بصلة، ولا تتجانس مع ماضيها، وليس من الحصافة في الرأي أن نحكم على هذه النهضة أو لها قبل مضيّ عهد التجربة، ويلزم لهذا المضيّ جيلان كاملان، جيلٌ للتلقين والامتصاص، وجيلٌ للفحص والاختبار، وفي حُسبان العقل أن الثورة الصاخبة على الماضي بكلّ ما احتواه من خير وشر، لا تدعو إلى التفاؤل، فربّما تبقى إلى أمد ما بقي الجند الحافظ لها شاكي السلاح».

وقد كتب الثعالبي في أكثر صحف العالم العربي بالشام والعراق ومصر والمغرب وتونس، غير مقالاته بالفرنسية في الصحف الباريسية، ولا يُعقل أن يقدر باحث على تتبع آثاره العلمية في هذه الممالك المترامية إلا أن يختص باحث في بلد واحد بتتبع ما نُشر به، فيجتمع من ذلك كله مجلّد ضخم من المحاضرات والأحاديث والتعقيبات.



(١) تراجع الأعلام المعاصرين، للأستاذ أنور الجندي، ص ٢٤٨.

عبد الفتاح أبو غدة من بقايا السلف الصالح

-١-

لا زلت أذكر ما دار في ندوة لواء الإسلام المنعقدة لتأبين الإمام الأكبر محمد الخضر حسين، حيث قال أحد المتحدثين: إنَّ الخضر بقيّة السلف الصالح، فاعترض الأستاذ محمد أبو زهرة قائلاً: إن معنى ذلك أن السلف الصالح قد انتهى بموت الأستاذ الخضر، وما زال في المسلمين من يسير على منواله، فالأوّلَى أن نقول: إنّه من بقايا السلف الصالح، وهذا حقٌّ؛ فبقايا السلف الصالح لا يزالون يُرسلون الضوء الثاقب في ظلام الحياة، ومن هؤلاء الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، حيثُ امتلأ وجدانه بحبِّ الأطهار من مُتقدّمي السلف، فسار على آثارهم، وجَدَد ما تقادم من عهودهم، وهناك وجهٌ للشبه بينه وبين الإمام الخضر حسين، هو التمكن من علوم اللسان والشرعة معاً على نحوٍ متساوٍ، فهما يقولان في كلّ علمٍ ما يقوله المتخصّص في موادّه، حتى ليظنُّ من يقرأ لهما في موضوع ما أن الواحد منهما قد جعله هدفه الأوّل في التحصيل، وقد كان هذا النمط شائعاً من قبل، ولكنّه نادر جداً هذه الأيام! أيام الماجستير والدكتوراه!.

وقد حاولتُ أن أكتب عن الشيخ أبي غدة منذ أمد، ولكنّ فهرس مؤلفاته المدوّن في أواخر مؤلفاته، كان يصدّني عن الكتابة حتى أستطيع أن أدرس هذا الفيض الزاخر من النتاج المتشعب.

وقد مضت الأيام فلم أبلُغ ما أريد، ثم جَاءتني مسودةُ كتاب للأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد تحملُ عنوان (إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح) فوقفتُ على جُهدٍ حافِل في تتبّع حياة الرجل العلمية، حيثُ انتظمت المسودة عدة أبواب، فيتحدث الباب الأول منها عن أسماء الشيوخ الذين وجّهوا الشيخ وجهته

العلمية، وقد بلغوا مئةً وثمانين عالماً من شتى ربوع الإسلام في مكة والمدينة وحلب، والإحساء واستانبول وبغداد، وحضرموت وحماة وحمص ودمشق، ودير الزور وطرابلس وفلسطين، ومصر والمغرب واليمن والهند، وهو عملٌ يذكّرنا بصنيع القاضي عياض، حين أفرَدَ كتاباً فخماً لشيخ أستاذه أبي علي الصّدي.

غير أنّ الأستاذ محمد بن عبد الله لم يَقِفْ عند الأساتذة كما فعل القاضي، ولم يَقِفْ عند التلاميذ كما فعل ابنُ الأَبار في معجمه عن أصحاب القاضي الصّدي، بل تحدّث عن الكتب الحديثية العشرة وأسانيدها التي دَرَسَهَا أبو عُدة، كما جاوز حدَّ الأمل حين تحدّث عن أسانيد شيوخ الأستاذ من أمثال العطار، ورحمة الله الهندي، والأشموني، والبشري، وطاهر الجزائري، وبخيت المطيعي، والدّجوي، والشريف السنوسي، وبدر الدين الحسني، وراغب الطباخ، والكوثري، والخضر حسين، والغلاييني، وجمال القاسمي، وجميل الشطي، والغماري، وعبد الحي الكتّاني، وحبيب الله الشنقيطي، والطاهر ابن عاشور.

وقد بلغت صفحاتُ هذا الباب أكثرَ من مئة صفحة من القطع الكبير، وتوالى الحديث في الباب التالي عَنْ كُتُب الأَسانيد، وهو بابٌ يصلح أن يكون كتاباً برأسه، لما تضمّن من ذخائر علمية يصعبُ جَمْعُها في مصدرٍ واحد.

وقد كنت أتمنّى أن أكون ذا قدمٍ راسخة في هذا المجال، فأكتبَ عن هذا المؤلّف كتابة العالم البصير، ولكنّ ثقافتِي المتواضعة تحوّلُ دُون تحقيق ما أريد، فأكتفي بأنّ أحيي التلميذ الموسوعيّ النشيط على طول دأبه، وسعة صبره، ودقّة استيعابه، وأنّ أهتئ الأستاذ بتلاميذه الذين ترعرعتْ غراسُهم في رَوْضته، فقرّ بهم عيناً، حين حفظوا له مكانه الفسيح في جامعة العلم، واقتدوا به في مضمارِ التّأليف، ومنازع السلوك القويم..

أقول: لقد قرأتُ ما كتبه الأستاذ محمد بن عبد الله الرشيد، فوجدته قد أحدث ما يعجز عن إتمامه عشراتٌ من ذوي سنّه، وحسبُه أن قدّم لمن يريد كتابة تاريخ مفصلٍ للشيخ عناصر البحث، وموادّ الفصول، إذ هيّأ الأدوات الكافية لإقامة صرح شامخ! وبقيت الخطوة التالية داعيةً من يريدُ أن يقيم البناء إلى أعلى مستوياته، وعندّه ما يلزم من أدوات المعمار، ومساحة الأرض، وخضب المكان، ولعلّي أسهمُ بشدورٍ يسيرةٍ تكون بمثابة ضوئٍ هادية في ممتد السبيل.

أول ما سمعتُ عن الأستاذ أبي غدة في مُفتتح الأربعينيات، حيث كان طالباً بكلية الشريعة، وله زملائه ودُّ علمي يجعلهم يتحدثون عنه مكبرين، إذ كان ذا صلة طيبة بأساتذته، وثبتُّهم المُدوّن في «إمداد الفتاح» يدلّ على أنّه لم يُغادر أحداً من ذوي المَثالة فيهم، على اختلاف منازعهم العلمية، من مُجدِّ متوثّب، إلى محافظ متشدّد، وتلك هي ميزة الطالب الطُلعة الذي يرد الأندية والمحافل ليأخذ من كلّ متحدث ما يروقه دون أن يتعصّب لأحد، فهو يذكرُّ من أساتذته الأعلام الفضلاء: مصطفى صبري، ومحمود شلتوت، والكوثري، ومحمد المدني، والخضر حسين، وأحمد شاکر؛ وبين هؤلاء من الاختلاف الفقهيّ ما قد يضطر الناشئ المتسرّع إلى الانحياز إلى فريق دون فريق، بل إلى التعصّب الحادّ على فريقٍ يخالف مشرباً أستاذٍ أثّر له، فيكون حرباً على المخالف.

ولكنّ عبد الفتاح رُزق انفساحاً في النظر، واتساعاً في الأفق لم يجذّ معهما داعياً إلى التعصّب لأستاذٍ دون أستاذ، وقد أصاب، لأنّ الأيام أثبتت أنّ لكلّ إمام وجهة صائبة، فإذا كان الأستاذ الكوثري مثلاً قد تشدّد فيما كتبه في مؤلّفه (الإشفاق في أحكام الطلاق)، وقام كتاب مجلة الإسلام بتأييده المطلق، فإنّ مناظره الأستاذ أحمد شاکر كان أكثر درايةً منه بأحوال المجتمع المصري، حيث كان قاضياً شرعياً يلمسُ مصائب العامة، حيث يحلفُ بائعُ السمك والخضار، وأجيرُ الأرض، وعاملُ المصنع، باليمين المُعلّق عامداً ليُطلق زوجته ذات الأولاد الستّة، ويتزوج بأخرى لتُنجب سلسلةً أخرى دون أدنى رعايةٍ لشؤون الأسرة التي فرضها الإسلام.

وقد لمس الإمام المراغي والأستاذ أحمد شاکر ومن سار على دربهم هذه المآسي، فحاولوا أن يصدّوا تيارَ الطلاق بالتزام بعض النصوص المحترمة في مذاهب فقهية ذات اعتبار، وأصبح الشُّوق من العوامّ يجدون القيود دون تشريد الأطفال، وهذا ما لم يعرفه الإمام الكوثري حين اشتط في مُهاجمة ذوي التيسير، ولكنّ ما لم يعرفه الكوثري قد عَرَفَه تلميذه أبو غدة، فصادقَ ذوي الفقه جميعاً، وانتفع بآرائهم المختلفة، فكان رأساً في قضاياها العلمية ومُجتهداً في نواحيه الثقافية، وتلك عبرةٌ لمن يعتبر من ذوي التصلّب في غير ميدان.

بزغ نجمُ أبي غدة في الأوساط الأزهرية، ثم انتقل إلى الأوساط الأدبية، حين بدأ يرسل نقداً علميةً موجزةً على صفحات مجلات الأدب، تدلُّ على بصر

وسداد، لقد كان الأستاذ الكبير محمد كرد علي وثيق الصلة بالعلامة أحمد تيمور، حيث كان يؤم منزله الليالي ذوات العدد، قارئاً في مكتبته الحافلة، ولكنه كالأستاذ أحمد أمين وقع في خطأ جوهريّ يتعلّق بسيرة أحمد تيمور فيما كتبه عنه، ولم يلتفت إلى تصحيحه غير الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، إذ كتب في مجلة الرسالة^(١) تعليقاً موجزاً يضع الحق في نصابه، وكان فيما قاله الباحث الشاب الواعد ما يلي:

«ذكر الأستاذان أحمد أمين بك ومحمد كرد علي بك في كتاب ذكرى أحمد تيمور الذي ظهر حديثاً في ص ٣٠، وص ٧٧ أن العلامة أحمد تيمور باشا كان في جملة أساتذته الشيخ نصر الهوريني، وأنا أعلم أن وفاة الشيخ نصر الهوريني كانت سنة ١٢٩١هـ، كما ذكره العلامة تيمور في كتابه (تصحيح القاموس) ص ٤٢، والأستاذ الزركلي في الأعلام، والعلامة تيمور ولد سنة ١٢٨٨هـ، فتكون سنّه ثلاث سنوات عند وفاة الشيخ الهوريني، وممتنع أن يكون الباشا تيمور في هذه السنّ صديقاً للهوريني أو تلميذاً له، فذكره في معارف أحمد تيمور خطأ، وجلّ من لا يُخطئ».

نقلْتُ هذا التعليق الموجز بنصّه، ليدلّ على منحى الأستاذ العلمي، منذ حمل أمانة القلم في عهده الباكر، فهو أولاً: يميلُ إلى الأدب النفسيّ في تخطيطه ذوي الرأي، فيكتفي بإيضاح الخطأ دون تزئيد أو تهجم، وهو ثانياً: يذكر رأيه مؤيداً بالمصدر التاريخي الذي لا يقبل الدفع، وهو ثالثاً يلتزم بالإيجاز الدقيق في تصحيح الأخطاء، وهذه السمات الثلاث قد ظلّت ديدنه في كل ما أثر عنه من تصويب ونقاش.

وقد لفتني هذا التعليق وأنا طالبٌ بالقسم الثانوي إلى معدن الشيخ، وأتيح لي أن أسأل عنه أصدقائي الفضلاء الأساتذة عمر عودة الخطيب، وعبد الرحمن الباشا، وصبحي الصالح، حين جمعتنا الدراسة بعد أعوام في القاهرة، وكان لي بهم وُدّ أكيد لا يزالُ راسخاً في النفس، وكَمّ جزعت على رحيل من رحل منهم، واستشهاد من استشهد، وإنا لله.

على أن أقوى مصدر عرّفني بالأستاذ بعد أن رأيته في مشاهد كثيرة مع الأستاذ

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٥٨ - ١١/٢/١٩٤٦.

الكوثري، هو السيد زكي مجاهد صاحبُ المكتبة العلمية بالصنادقية، وخان جعفر، إذ أُتيح لي أن أشهد مجلس الشَّاب عبد الفتاح أبي غدة في مكتبته المتواضعة، وأن أعرف ما بينهما من الود، فجعلتُ أستمعُ إلى حديثِ حافلٍ عن الشيخ وإخلاصه لأستاذه، وأدبه في مجال النقاش، كان من الخير أن أدونه في حينه، ولكنَّ ما فاتني من تدوين هذا الحديث لم يحرمني من الاطلاع على ترجمة موجزة كتبها الأستاذ زكي محمد مجاهد، في كتابه (الأخبارُ التاريخية في السيرة الزكية) عن الشيخ أبي غدة قال فيها^(١):

«الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الحلبي، الحنفي المذهب، وُلد في مدينة حلب بسورية، ونشأ بها، وتربَّى وتلقَّى العلوم الشرعية والأدبية على كبار علماء حلب ودمشق، ثم سافر إلى القاهرة، والتحق بالجامعة الأزهرية، ونال شهادة القسم العالي، وفي أيام إقامته بمصر تعرَّف على كثيرٍ من علماء العصر، وأخذ عنهم العلوم الشرعية، ومنهم شيخنا المرحوم محمد زاهد الكوثري، إذ حضر كثيراً من دروسه، ومجالسه، وصار من كبار تلاميذه.

ولما عاد إلى وطنه اشتغل بالعلم والتدريس في المدارس، ثم في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وسافر إلى المملكة العربية السعودية، وعُيِّن أستاذاً في كلية الشريعة بجامعة الرياض (كذا). وقد تعرَّف به أثناء طلبه للعلم بالأزهر، وبيننا مودةٌ وصداقةٌ علمية وأدبية، وهو دائمُ الزيارة لنا في مكتبتي بخان جعفر، كلما زار القاهرة، ومن المساعدين في نشر كتابي (الأعلام الشرقية) ومن مصادره التاريخية، وهو من العلماء المشتغلين بالعلم ونشره، والتأليف فيه، وتحقيق الكتب العلمية والدينية، وجمع الكتب في جميع العلوم».

هذه الترجمة الموجزة التي كتبها الورَّاقُ المطلعة الأستاذ زكي مجاهد، تُقدِّم خلاصةً لأرشيف حكوميٍّ يُوضع في سجلِّ الشيخ، وقد فات صاحبها أن يتحدث عن جهاد الداعية في وطنه، حين كان بطلاً من أبطال حرية الرأي في دمشق وحلب، وحين جلَّجلَ صوته في المجلس النيابي داعياً إلى تطبيق شريعة الإسلام، وهي صحائفُ خالدةٌ طاهرةٌ، لم تُدوَّن للآن على وجهها الصحيح، ولكنَّ ذوي الإنصاف

(١) الأخبار التاريخية في السيرة الزكية، ص ١١٧، ١١٨، ط. أولى.

يعرفونها حقّ المعرفة، ويذكرون صاحبها ذكراً مضمخاً بالعير .

وقد أتيت لي أن أسعد بقاء الأستاذ في فترات قصيرة حين كنت مبعوثاً للأزهر في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود، وكانت تلاصقُ كلية الشريعة التي يعمل بها الأستاذ، فكُنّا نتلاقى تلاقياً عابراً في ساحة الجامعة، وفي مكتبتها، وقد لمستُ من فضله وعلمه ما بهرني حقاً، وإذا كانتُ كُتُبُه الشهيرة تنطقُ بعلمه، فإنّ سلوكه العلمي واتجاهه الخلقي في حاجةٍ إلى تسجيل، حيثُ استطاع الرجل العلامة أن يكون واسطة عقدٍ لكوكبة من أولي الفضل أساتذةً وطلاباً، يردُّون مكتبته، ويسمعون توجيهاته، ويتسبون إليه في مجال البحث والتنقيب، وهي مسؤوليةٌ كبرى تُلقَى على عاتقه خارج الميدان الجامعي، إذ لا ينتسبُ إليه في هذا المجال إلا الباحث الحقيقي لا الطالب الرسمي .

ومع هذه الحفاوة البالغة بعلم الأستاذ وفضله، فأنا أعلم أنّه لاقى صعوباتٍ جمة من نفرٍ لا يروقه أن يتحدّث تلميذٌ عن أستاذه، وإذنُ فحديثُ أبي غدة عن الكوثري وسُغيه في نشر مؤلفاته جريمةٌ يجبُ أن تكون موضع الملامة لدى هؤلاء، وكنتُ قد عارضتُ بعضَ آراء شيخنا الكوثري في مقالٍ لي، فجاءني مَنْ يمدحُ المقال، ويقول: إنه صَدْمَةٌ للشيخ أبي غدة، فصرختُ في وجهه، وقلت يا أستاذ: أنت لا تعرف الإمام الكوثري ولا الأستاذ عبد الفتاح، فهما في مُستوى لا أرقى إليه، ولا أحسبك تدركه! قال: ولم خالفتَ الكوثري! قلتُ: مخالفة التلميذ لأستاذه في مجلسِ الدرس، وهو يعرف أنّه ينهل من حياضه، ويقتبسُ من نوره. فخرج الناقد المتعجّل غاضباً.

وهنا أدركت أن الشيخ أبا غدة يُلاقي بلاءً أيّ بلاء من أذعياء المعرفة، فحرصتُ على أن أشيد به في كلّ مجلس، وهو لا يعلم هذا، لأنّي أنشد الحق دُونَ اهتمام بعمره أو زيد، ولكن الأرواح جنودٌ مجتدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف؛ فقد أدرك الرجل بإلهامه البصير ما أكنّه له من حبٍّ، فكنت أتلقّى سلامه على البعد شاكرًا، وأبادله مثله صامتًا، وهو مذهبٌ خاصٌّ بنفَرٍ من الناس تتعارفُ لديهم الأرواح، ولا تتلاقى الأشباح .

وقد كانتُ أنباؤه العلمية تَفدُّ إليّ، فكان أعجبُ ما أعجب من أمره هو صبره الملحّ الدائب، على الرحلة الطويلة المستمرة إلى شتّى بلاد الإسلام شرقاً وغرباً، مع

ما يتحمّله المسافر من وعثاء الطريق، ووحشة العشير، ولكن حب المعرفة دفعه إلى تحمل الصعاب رائحاً غادياً، وقد سهّل الله العسير فصادق من ذوي الفضل في هذه الربوع الشاسعة من لا يجتمعون لعالم واحد إلا في الندرة النادرة، وقرأ من نفائس المخطوطات عربية ودينية ما عزّ على غيره أن يسمع باسمه، فضلاً عن أن يقرأ صحيفة منه.

وأذكر أنّه روى عن علماء الهند من التحف العلمية ما كنت غير متصوّر لوجوده، كما تحدّث عن أئمة هناك، لم تصل إليّ أسماؤهم فضلاً عن مؤلفاتهم، وبسبب ما كتب عن هؤلاء أخذتُ أحاول التعرّف إليهم، وأجمع ما أستطيع جمعه من أخبارهم، وهيهات أن أصل إلى بعض ما يعلمه الرجل الكبير عن هؤلاء الكرام..

-٢-

وما زلتُ أذكر قول صديقي الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح منذ ثلاثين عاماً عن الشيخ أبي غدة بأنه من كبار شيوخ الحديث في هذا العصر، وقد كان هذا منذ زمن بعيد، فماذا يقول عنه الآن! وقد بلغتُ مؤلفاته في الحديث وحده ثلاثين مؤلفاً، وهي مؤلفات لا تجمع وتُحشد كيفما اتفق، ولكنها تهدف إلى جلاء الغامض تارة وإلى تصويب الخطأ تارة، وإلى إضافة الجديد تارة ثالثة، بحيث يسدُّ كل كتاب مسداً ضرورياً لا مفر منه.

وقد طالعتُ قائمة مؤلفات الأستاذ في خاتمة (تحقيق اسمي الصحيحين، واسم جامع الترمذي)، فوجدتها تجمع أكثر من خمسين كتاباً، كلّها مما يفيد الدارس البصير، فضلاً عن المتصفح العجول، ففيها كتب ضافية، عن الجرح والتعديل، وعن تمييز الفتاوى عن الأحكام للإمام القرافي (وهو كتابٌ نادرةٌ في موضوعه واتجاهه)، وعن فقه أهل العراق، وعن مسألة خلق القرآن، وعن فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، وعن منهج السلف في السؤال عن العلم، بل إنها ضمّت مؤلفات عن الأدب والخط؛ مثل شرح قصيدة أبي الفتح البستي، والترقيم وعلاماته في اللغة العربية، وتصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وهذا غيضٌ من فيض.

وسأحاول أن ألمّ الإمامة موجزةً ببعض كتبه في الحديث ليدلّ المذكورُ على المطوي، فأشير أولاً إلى كتابه (لمحات من تاريخ السنّة وعلوم الحديث)، لأنّه كتابٌ يفيد المثقّف والمتخصص معاً لقرب تناوله، وسهولة سياقه، سهولة لا تبخسُ حقَّ المضمون المقرر من قضايا العلم، إذ تحدث المؤلف في نصاعة شفافة عن مقام السنّة المطهرة من كتاب الله، وموقعها من الشرع الحنيف، وهو حديثٌ كرّره الأستاذ في أكثر من كتاب، لأنّ الحملة الكاذبة على حُجّة السنّة منذ بزغ قزنها الشيطاني في أوائل هذا القرن على يد المستشرق المجري (جولدزيهر)، قد وجد من الأذنان من حاول تقرير باطله مضخماً، حتى اقتنع بعضُ القراء بهذه المحاولة عن قُصور فهم، فقام من سُدنة الحديث من أقروا الحق، وفي طليعتهم السيد محمد رشيد رضا، وجمال الدين القاسمي، وهما من جيل الأساتذة الذي ينتمي علماء هذا الجيل إلى مشيختهم النافعة، وجاء جيلُ الأستاذ عبد الفتاح فكفى وشفى، والأستاذ في طليعة هؤلاء البررة بما سجّل ودحض.

وقد اقتضاهُ الموقف أن يتعرّض في كتابه السالف إلى تمحيص طائفةٍ من الأحاديث الضعيفة مبيّناً وهنها الركيك، وإلى الخلوص لأهم أسباب الوضع في الحديث ونتائجه، منتهياً إلى حديثٍ شافٍ عن الإسناد، وتاريخ الرواة والرجال، ونقد الرواة وبيان حالهم، وعلم الجرح والتعديل، وعلم مصطلح الحديث، وأمارات الحديث الموضوع!

أقول: لو استطاع كاتبو العلوم الإسلاميّة أن يلتزموا هذا الوضوح السافر فيما يعالجون من قضايا العلم في كتبهم الذائعة، لوُجِدَ لدينا جيلٌ حصين من الشبيبة الإسلاميّة لا تخترق صدورهم سهامُ المغرضين، وإذا كنتُ حمدت وضوحَ هذا السُفر القيم، فإنّي أحمد دقّة كتابين آخرين في هذا المجال هما كتابُ (الإسناد من الدين)، وكتاب (تحقيق اسمي الصحيحين، واسم جامع الترمذي)، لأنّهما أضافا الجديد حقاً فيما عالجاه من معضلات.

فالكتابُ الأول يتحدث حديثاً علمياً عن مكانة الإسناد من الدين، وأنّه خصيصةٌ خُصت بها الأمة المحمدية، وعن تسامح العلماء في أمر الإسناد بعد تدوين العلوم ورسوخها، وعن تحريفاتٍ غير مقصودةٍ وقعت في كلام بعض الأئمة، وكان جميلاً أن ينتقل المؤلف إلى حديثٍ أدبيٍّ عن اهتمام اللغويين بالسّماع والإسناد، ناقداً

أبا منصور الأزهري في نقله عن الكتب دون رواية شفوية، أما ما أبدع فيه كل الإبداع فهو حديثه عن ألوان من التحريف اللفظي لأئمة كبار، فقد تتبع مؤلفات شهيرة لأعلام كبار، ليرصد ما وقعوا فيه من خطأ لا يسلم منه بشر.

أما ما آخذه على المؤلف فهو امتداد حديثه المسهب عن تفسير كلمة ابن المبارك: «لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل له: مَنْ حدّثك، بقي». إذ أخطأ بعض الأئمة في فهم معنى كلمة (بقي) وكان تصحيح الخطأ ميسوراً في عدّة سطور، ولكن المؤلف امتدّ بالقول امتداداً رحيباً دون موجب، والمسألة بعد ليست مما يُقال فيها «قضية ولا أبا حسن لها» فهي أهون بكثير..

أما كتاب (تحقيق اسمي الصحيحين، واسم جامع الترمذي) فهو من أقوم ما كتب في المجال النقدي، لأنّ مقام هذه الكتب الجليلة لا يسمح أن يكون بها ما يحتاج إلى نقد، وقد تساهل الأستاذ أحمد شاكر في وصف جامع الترمذي بالصحيح، وهو تساهل يحتاج إلى تعقيب، فرجع الدارس إلى مخطوطات شتى للكتب الثلاثة ليأتي البيوت من أبوابها، فكان دقيقاً دقيقاً.

ولا أنسى في هذا المجال النقدي حديثه عن سنن الدارقطني، وما قاله كبار المحدثين بشأنها، إذ جمعت هذه السنن أحاديث شتى من ضعيفة وموضوعة، ومكانة مؤلفها لدى العامة تسترّ هذه الموضوعات، فاحتاج الأمر إلى جُلجلة عالية تقرّغ الأسماع، وهذا ما قام به الأستاذ مستنداً إلى أقوال صريحة لأمثال ابن تيمية، والحافظ ابن عبد الهادي، والحافظ الزيلعي، والبدر العيني، والحافظ الذهبي، ولسنا نقدح في نيّة الدارقطني، فهو من كبار الأئمة في الإسلام، ولكننا نقول: إنه أخطأ حين روى الضعيف والمنكر، والموضوع والمعلول والغريب، وكان له في الاتّناد البصير ما يحول دون الجموح.

وقد آن أن أترك مجال الحديث إلى سواه، وكُتب الأستاذ في فروع العلم متشعبة موفورة، وسأتحدث عن مختارات منها تنتمي إلى الحقل التربوي، لأنّ الشيخ مُربّ فاضل، قبل أن يكون عالماً متخصصاً، وقد حمل إجازة التدريس في علمي النفس والتربية من قسم التخصص بالأزهر، فرأى أن يتحدّث عن تربية النشء المسلم حديث العالم النّاهل من تراث الأجداد، لا حديث أصحاب النظريات الأوروبية ممن يترجمون ولا يفهمون، فلننظر ما صنع؟!.

وأوّل ما أختاره في مجال التربية الإسلامية الرشيدة كتاب (صفحات من صبر العلماء) وهو كتابٌ لو لم يكنْ لمؤلفه غيره للكفاه مجداً وتقديراً، لأنه نَمَّ عن اطلاع غزير، وذوقٍ رقيق، وسموّ في الاختيار، وبراعة في التعبير، وإيجاز هوالبلاغة بعينها، فإنَّ إيراد الوقائع المدهشة لا يحتاج إلى تعليق يذهب ببريقها السّاطع، وهذا ما عناه المؤلف حين قال: «واقصرتُ في هذه الصفحات على إيراد الأخبار والوقائع دون تحليل أو تعليق عليها، إذ هي ناطقة بذاتها لا تحتاجُ إلى شرح وبيان» وهذه الطريقة أحَبّها كلّ التحبيد، لأنَّ شغف بعض الثّرارين بالإسهاب المطيل يُطفئُ الجذوة التي اتّقدت من روعة الحدث.

وأذكرُ أني قرأتُ من قبل كتاب (من أخلاق العلماء) للأستاذ محمد سليمان، فوجدته يحوي أكثر من خمسمئة وستين نادرةً من نواذر العلم والخلق والترفع والزهد والشجاعة الأدبية، فكانتُ بإيجازها اللّامع مصدر إشعاع باهرٍ يأخذ النفس، قبل أن يبهر العين، وتمنّيت أن يحذو حذوه عالم من طرازه، فجاء كتابُ عبد الفتاح فوق أمنية المتمنّي، وقد حُلّيتْ هوامشه بحواشٍ نادرة ممتازة، يندرُ وقوعها إلّا على يد لؤلؤيّ غواص، هذه الحواشي الثمينة ذكرتني بكلمة الخوارزمي التي أهداها الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي إلى الأمير شكيب أرسلان بعد أن قرأ حواشيه في بعض كتبه، هي قولُ الخوارزمي؛ حين سأله عائده في مرضه الأخير: ماذا تشتهي؟ فقال: «أشتهي أن أقرأ حواشي الكتب» وقد طرب الأمير الأرسلايّ لعبارة الخوارزمي طرباً بعثه إلى أن يكتب للأستاذ النشاشيبي قائلاً: «لو أنجذتني بجيشٍ مجرّ، ومالٍ دثّر، ما أحسستُ فضل تلك النجدة كما أحسستُ بها عند قراءة كتابك»^(١).

وليس هذا الكتاب وحده الذي حظي بأمثال هذه الحواشي، فأكثر كتب أبي غدة ذاتُ حواشٍ وشروح، ولا أنسى أن أذكر على سبيل المثال حواشيه العجيبة الساطعة المسهبة على كتاب الحارث المحاسبي، فقد فاقت كلّ تقدير، ولولا حبيّ للمحاسبي لقلت: إنّها ارتفعت بقوله إلى أرقى السماوات!.

ولعلّ كاتباً مبدعاً يعمد إلى كل قصّة موجزة ذكرها المؤلف، فيتخذ منها سبباً

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٥٩، ١٨/٢/١٩٤٦م.

لإبداع فني في رواية أو قصّة تثير الأحاسيس، لأنّ بذرة التأثير فيما جمعه أبو غدة مهية لأن تنمو وتزهر، وتورق وتثمر حتى تصبح دوحة يانعة، بإلهام فنانٍ مقتدر، وأضربُ المثل بقصّة بقي بن مخلّد، التي رواها المؤلف القدير في صفحة ٥٨ وما بعدها من الطبعة الثالثة، فقد قرأها الأستاذ الكبير علي الطنطاوي في مصدرها الأول، وكتب عنها قصّة رائعة في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ منذ أكثر من نصف قرن، فأين تلاميذُ الطنطاوي ليغوصوا على هذه الفرائد في بحر الأستاذ أبي غدة، فيبلغوا بها حدّ الروعة في عالم الفنون! أين أين؟.

ولم يستطع المؤلف أن يكتّم مواجده الكريمة، حين تثور عليه هذه المواجد!! وكيف يكتُمها وهو يصطلي بجمرها اللاهب بين أضلاعه، ويحتاجُ إلى تنفيسٍ يلطّف ما يلذعه من أوار، فهو حين يذكرُ جهود السابقين في طلب العلم بالماضي يتذكّر ما يراه في الحاضر من قصورٍ فادح، فتلتأّع مشاعره التباعاً يدفعه إلى أن يعقب بمثل قوله (ص ١٠٩):

«فوازن رعاك الله بين هذه الدراسة التي أثمرتها الرحلات، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم، يدرسون فيها أربع سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسةً صحفية فردية، لا حضور ولا استماع، ولا مناقشة ولا اقتناع، ولا تطاعم في الأخلاق، ولا تأسي، ويتسقطون المباحث المظنونة للسؤال من مقرراتهم المختصرة، ثم يسعون إلى تلخيص تلك المقررات، ثم يسعون إلى إسقاط البحوث غير الهامة من المقروءات (والهامة أيضاً وهذا الغالب) بتلطفهم وتملّقهم لبعض الأساتذة، فيجدون لديهم ما يسرهم، وإن كان يضُرهم».

ومضى الأستاذ في حديث عن الجامعيين ذوي الألقاب الفخمة فقط، دون أصالة ما، فيوجع أمثالي من الذين يعرفون ما يعرف في هذا المجال، وأستميحه عذراً إذا قلت: إنهم يعرفون أكثر مما يعرف من هذه البلايا، ولا أريد أن أسقط البترول في موقد الجمر فأزيد الالتهاب، ولكّني أهتف بقول من قال:

فأصبحتُ أخفي في ضلوعي أنّي مكّمة مَنْ لي بها لو أطيلها!
فيا ويح نفسي، كيف ترضى مقامها ولا الدار مغناها ولا الجيل جيّلها
وللأستاذ أنفاسٌ حارة في صفحات أخرى يجدها القارئ في (١٢١، ١٣٨،

١٩٧) وغيرها، كما يجد نبضاً ثائراً في غير هذا الكتاب، مثل كتاب (الإسناد من الدين) ص ١٢٣ وغيرها، ولو جُمعت هذه النقذات الصائبة في موضع واحد لكانت بركاناً يرمي بالشواظ .

وعزیز علیّ أن أترك هذا الكتاب دون أن أوفيه حقه، كما تركت الحديث عن كتاب (قيمة الزمن عند العلماء) لضيق المقام، ولكنتي لم أستطع مقاومة الإغراء الذي يدفعني بعنفٍ إلى الإلمام بحديثٍ موجز عن كتابه النادر (العلماء العزّاب الذين أثروا العلم على الزواج) وهو كتاب يجذب كل قارئٍ إلى محتواه، ولو تُرجم إلى بعض اللغات لأحدث من الدهشة ما يبهر كل قارئٍ، ولا أدري لماذا لم يذكر العالم العَلَم جمال الدين الأفغاني، وهو مؤلفٌ وناقذٌ مع زعامته الثورية، ولماذا لم يذكر ترجمة أبي العلاء المعري، ومؤلفاته العلمية الغزيرة تجعله من العلماء الأصلاء قبل أن يكون شاعراً، وعباس محمود العقاد؟ وهل يخفى القمر، كيف تركه وهو كاتب الكتاب وعَلَم العلماء؟ أما حافظ إبراهيم فقد يكون شاعراً فحسب، فيُلتمس العذر لإهماله مع أنّه مؤلف (ليالي سطّيح) ومترجم (البؤساء) وبعض كتب الاقتصاد! .

لقد اشترط أبو غدة أن يكون من يتحدث عنهم (ص ١٤) من أكابر رجال العلم والأدب والمؤرخين، وهؤلاء من الأكابر حقاً، أما مؤاخذه أبي العلاء ببيتٍ من الشعر قاله في ساعةٍ ما، مُتَابِعَةً لِمَنْطِقِ ابن خَلْكَان فَمِمَّا لا أراه يستقيم، فقد كان المعريّ أزهدّ زاهد في عصره، وقد ترامى الرؤساء على أعتاب محبسه، فما حقّ لهم رجاء في الانتفاع بسلطانهم! وهذا كلامٌ يحتاج إلى بسطٍ ليس هذا موضعه! ومن أعظم ما في الكتاب تحقيقاته الهامشيّة، التي قد تطولُ وتمتد، وفي كل سطر بل في كلّ كلمة، بل في كل حرف مجالٌ رائع للنظر الدقيق، ومن ألطف الأمور أنّه يعتذر عن الإطالة الدسمة المنتقاة، فيقول ص (٧٩): «معدرةٌ عن الإطالة في تصويب هذه الكلمة» مع أن هذا التصويب قد عصّف بآراءٍ تداولها الناس، وكادت تكون من المقرّرات .

ومما انفرد به هذا الكتاب تراجمه الدّقيقة لنفرٍ من المعاصرين كالشيخ خليل الخالدي، وبشير الغزي، وسعيد النورسي، ومحمد الكافي؛ وليتني قرأتُ هذا الكتاب من قبل، لأنني عانيتُ معاناةً صعبة في ترجمة الأستاذ شكري الألوسي، وسعيد التّورسي قبل أن أعلم شيئاً مما كتب أستاذنا أبو غدة، ومن عادتي ألاّ أضيف

شيئاً إلى ما كتبت من قبل، وهي عادةٌ مُستحكمة لا حيلة لي فيها، وموضعُ النقد بها لا يخفى، ولو كنتُ أعتبرُ لا عتبرتُ بالمؤلف الكبير أبي غدة، حين يطبع الكتاب عدّة طبعات، وفي كلّ طبعة يزيدُ ويزيد، حتى يكون الفارقُ بين الطبعة الأولى والرابعة فرق ما بين الطفل والكهل، وهو توفيقُ إلهيٍّ أمدّه الله به، ولم.!! ولا أجدُ في مجال التربية أروعَ من هذا الكتاب وسابقه، وقد شغلني لبّأه عن الإشادة بالمقدمة العلمية الرائعة التي فصل فيها الشيخ بين العزوبة والزواج، فكان في حديثه الدقيق يقظاً حذراً، وكأنه يمشي على الصراط، وقد اجتازه إلى الحُسنى بإبداع وإقناع..

وأختم البحث بكلمة عن كتاب (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم)، ولعلّه آخر ما صدر عن الأستاذ مطبوعاً كما أظنّ، وهو كتابٌ جيّد في بابهِ، لأنّه اشتمل على أساليب التعليم النبوية مُستمدة من كتب السنة، سواءً كانت هذه التعاليم أقوالاً أو أفعالاً، وهذه النصوصُ أساسٌ لبناء يجب أن يتعهده المربون بأساليب البحث النظري في فصولٍ مستقلة، تجري مجرى البحث المنهجي مقدّمةً وعرضاً وخاتمة، فقد قدّم لهم المصنف عناصر التربية النبويّة في أحاديث أحسن توثيقها والتعليق عليها.

وأقولُ: التعليق عليها، لأنّ الشيخ لكثرة قراءاته قد كان سريع الاستشهاد بما يُناسب اعتراضاً وجواباً، وإجمالاً وتفصيلاً، وقد يُسهب في النقل من كتب التراث الإسلامي لأعلام المربيّين، من أمثال الماوردي وابن حزم والغزالي، ثم يستشعرُ الإطالة فيحاول أن يعتذر، وذلك أدب نفسيّ ألحظه في كثيرٍ من حواشيه.

وقد طربت طرباً شديداً لتعليقٍ نادرٍ صادفني حين قرأت ما كتبه عن حديث رسول الله في رواية مُسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «والَّذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتى يحبّ لجاره أو لأخيه ما يحبّ لنفسه» فعلق المؤلف بهذا القول النادر^(١):

«قال العلماء: المراد بالأخ في قوله: (حتى يُحب لأخيه) عمومُ الأخوة، حتى يشمل الكافر والمسلم فيحبّ لأخيه الكافر ما يحبّ لنفسه من دخوله في الإسلام. كما يحب لأخيه المسلم دوام الإسلام» وأنا أرى أن المحبّة لا تقفُ عند الدخول

(١) الرسول المعلم، ص ١٦٧.

في الإسلام فحسب، بل تتجهُ إلى كل خير يُصيب الإنسان - أياً كان - ما دام لا يُصيب أحداً ما بسوء .

لقد كتبتُ هذا البحث مُعجلاً، وكأنّ سائقاً يدفعني، وهذا ما لا حيلة لي فيه، إذ في بعض الأحيان أمسك القلم فلا أتلّثُ حتى أفرغ ممّا يملأ خاطري، ولو تمهلْتُ لتمّ الأمر على أحسن ممّا كان، لذلك أرجو أن أعود إلى قراءة آثار أبي غدة مرة ثانية، فقد تنفحني بالجديد، راجياً ما رجاه الطغرائي حين قال :

لعلّ إمامةً بالجزع ثانية يهب منها نسيم البرء من عللي
وعلى الله قصد السبيل .

* * *

علي أحمد باكثير أديب متعدّد المواهب

-١-

منذ طفولة علي أحمد باكثير الأولى وهو يبدأ رحلاتٍ متنوعة في ديار العروبة والإسلام، فكأنّ القدر قد هياّ له أن يتنقل من مكان إلى مكان، من أندونيسيا إلى حضرموت إلى سنغافورة إلى جاوة إلى عدن إلى الصومال إلى الحجاز، إلى مصر التي استقر بها إلى أن لقي ربّه، كأنّ القدر قد هياّ له هذه الرحلات المتنوعة ليَجعله مواطناً إسلامياً لا مواطناً إقليمياً، ففي كلّ مكان ألقى به عصا الترحال لم يكن يشعر بما شعر به المتنبي حين قال :

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان
بلّ كان يشعر بأنّه يلقي أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان، وهذا الشعور ذو أثر فعال في نتاجه الأدبي، فقد جاءت مؤلفاته جميعها تنطقُ بإسلاميته الصادقة، وإذا كان قد هتَف بالوحدة العربية فلأنّها في رأيه الخطوة الأولى للوحدة الإسلامية، وهذا النهجُ الإسلامي في فيضه الزاخر هو الذي ألّب عليه الماركسيّين في مصر حين كانت لهم السيطرة فحاربوا أدبه، وعاقوا تمثيله على المسرح على نحو ممتد.

ولكنّ القراء في العالم العربيّ جميعه قد هتفوا به، ولهجوا بقراءته، وعشقوا مبادئه النبيلة، حتى تعدّدت طبعاتُ بعض رواياته فبلغت عشر طبعات، مثل رواية «وإسلاماه»، ومعنى هذا أنّ الحق لا بدّ أن ينتصر، وأنّ التأييد الحقيقي تأييدُ القارئ لا تأييد الدولة، إذ لا يستطيع حاكمٌ ما أن يفرض كتاباً على الناس لمدة تطول، قد تُدقّ الطبول لهذا المفروض ردحاً من الوقت، فإذا زال العهد المرخَّب به زال بزواله! أما علي أحمد باكثير فذو أدبٍ خالد ستقرؤه الأجيال المقبلة، كما قرأه هذا الجيل في شوقٍ وإعجاب، لأنّه يُعبر عن عقيدة وينطق عن إيمان.

ولد الشاعر الفنّان بأندونسيا حيثُ كان والده يزاول بعض الأعمالِ التّجارية الرابعة، ثم لما بلغ الثامنة من عمره سنة ١٩١٨ بعثَ به إلى مسقط رأسه بحضرموت ليتلقّى العربيّة على أبنائها الخلّص، وكانت الدراسة حينئذ شبيهةً بالدراسة الأزهرية التي تهتمّ بعلوم الشريعة واللّغة، فحفظ الناشئُ المجتهد كتابَ الله، وتعلّم دروس العربيّة في مدى قصير، ثم أحسّ بنفسه ميلاً إلى الأدب، فأكبّ على دواوين الشعراء يحفظ ويتذوّق وينهل، وكان المتنبيّ شاعره الأوّل، فحفظ ديوانه، ودفعه الشّغف بالشعر إلى دواوين نظراء المتنبي من شعراء العربيّة، منذُ امرئ القيس حتى أحمد شوقي.

ويقولُ في مجال الحديث عن حياته الأدبيّة؛ إنّ المتنبي وشوقي هما اللذان ملكا فؤاده بجوّد ما قالاه، أما أثرُ المتنبي فواضح في قوة بيانه، وارتفاع مشاعره إلى مستوى العزة والكرامة، وأما أثرُ شوقي فقد قرأ مسرحياته الشعرية، فشاهد ما لم يألّف، وعرف أنّ للشعر رسالةً جديدةً غير رسالة القصيدة الغنائيّة، وقد دفعه إعجابه بهذه المسرحيات إلى أن يكتبَ مسرحيّة (همام) على منوالها، وقد قال عنها إنه ألّفها احتذاءً بما نظم شوقي في مجنون ليلي وعنترة وغيرهما، فلم تكنْ له دراسة ما عن الفن المسرحي، ولكنه قلّد وحاكّى، وإذا كان باكثير فيما بعد قد نظّم بعضَ مسرحياته عن طريق الشعر المرسل فهو لم ينسَ حبّه القديم لمسرحيات شوقي ذات الإلهام الموحى.

تركّ علي باكثير حضرموت إلى عدن، ولقي بها طائفة من الشعراء والأدباء كانوا عونهُ النفسي في مجتمعه الجديد، وله ديوان مخطرطُ سماه (العذنيات) جمعَ به ما قال من شعر الصّبا، ولم يشأ أن يطبعه لأنّ التجارب الشعرية الأولى طلّ يتقاطر، وليست غيثاً ينهل.

وقد رأينا من قدّم لنا بواكيره الأدبيّة فكانت عبثاً على القارئ. ثمّ رحل إلى الصومال واستقرّ في (جيبوتي) زمناً لم يطل، لأنه انتقل إلى (أديس أبابا) ودعا إلى تأسيس مدرسةٍ عربيّة إسلامية ببلاد الحبشة، فلاقتْ دعوتُهُ قبولا جعلها موضع التنفيذ، ثم شاء أن يحجّ بيت الله، فارتاحث نفسه إلى ربوع الإسلام ومشرق نوره، فأثر المقام بالطائف.

وكان شعره قد قوي واستخصد، فأصدر مجموعةً شعرية قدّمها بعض الفضلاء

من أدباء الطائف، ثم جمَعَ ما قاله في الحجاز في ديوان سمّاه (الحجاز) لم يُطبع أيضاً، ولكنّ أصدقاءه بعد رحيله أخذوا ينشرون كثيراً من قصائده في مجلات المنهل والفيصل والمجلة العربية وغيرها، وهذا وفاءً لشاعرٍ عشق الحجاز وهام به .

وقد زار والده في أندونيسيا لفترة لم تطل، ثم قدم إلى مصر بعد أن نال ما يُعادل الشهادة الثانوية، وبها التحق بكلية الآداب، فصار من نابهي طلابها، وبعضُ من كتبوا عنه يتصاوّلون حول الثانوية التي نالها، إذ لا يحزمون بالمدرسة التي منحتُه إياها! ولا يهتمّون ذلك لأننا نجزم أنّه لم يلتحق بكلية الآداب إلا بإجازةٍ معادلة، وهذا يكفي .

عاد إلى مصر والتحق بكلية الآداب، وكان الظن به أن يلتحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب، هذا القسم الذي يضم حينئذ طه حسين، وأحمد أمين، وأمين الخولي وعبد الوهاب عزام، من أصحاب الأقلام القائدة، والصيت المتردّد في جنبات الأفطار العربيّة، ولكته أثر الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزيّة، وأكبر أساتذته من الإنجليز، وقد قال بصدد ذلك إنه أراد أن يتعلّم لغة شكسبير، وأن يدرس المسرح الإنجليزي ليمدّ أفكاره بتيّار عصريّ يُساعده على الارتقاء بالشعر المسرحي الذي يُريد أن ينشئه، وفعلاً بدأ ينشر ترجمات شعرية لبعض قصائد شكسبير نشرها بمجلة الرسالة، وهي يومئذٍ المجلة الأدبية الأولى في مصر، فلفتت إليه الأنظار خارج الكلية .

أما داخل الكلية فقد جدّت مناسبةٌ أدبيّة شهيرة هي مناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر المتنبي في كلية الآداب احتفالاً كبيراً على مدى أسبوع، تحدّث فيه الأساتذة عن المتنبي حديثاً مدروساً ممتازاً، ثم سمح للطلاب أن يحتفلوا بالمتنبي كما احتفل الأساتذة، فشارك علي أحمد باكثير بقصيدة كانت أحسن ما قيل من الشعر، وقد قالها على لسان المتنبي، ففاجأ المستمعين بنمط بارع من القول، والقصيدة إذا دلّت على تمكّنه الشعري فإنّها دلّت على اتجاهه العربيّ، لقد كان حديث القومية العربية في مصر حينئذٍ خافتاً لا يتجه إليه إلا قلةٌ من الكتّاب، ولكنّ باكثير متشبعٌ بروح العروبة قبل أن يأتي إلى مصر، وقد شاء أن يعلن هذه الروح حين قال على لسان المتنبي :

تناهت سُلالاتُ الجبابرة الألى بنوا هيكل الدنيا إلى هيكلٍ فرد

تقومُ عليه أمةٌ عربية رسالتها هذي الشعوب إلى الرشد
إذا هتفت مصرُ بلحن جهادها تعالى صداه في العراق وفي نجد
وخفت له في حضرموت مهللٌ وجلجل في آفاق تونس كالرعد
رأيتُ بلاد الضاد عقداً منضداً ولكن مصر فيه واسطة العقد
وقد يُستغرب أن تكون كلية الآداب راعية هذا الاتجاه، وفي أساتذتها يوم ذاك
من يضيّقون بهذا الصوت .

ولكننا نعلم أن رافداً آخر في مصر أمدّ الأستاذ باكثر بما شجّعه في ثباته،
وضاعف إيمانه بالعروبة والإسلام، هذا الرّافد هو مجلة الفتح التي كان يصدرها
المجاهد الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب، حيث احتضنت فكرة العروبة في
نطاق الإسلام احتضاناً جذب إليه الشّبيبة المصرية الواعية، وكان علي أحمد باكثر
من شعراء مجلة الفتح، وعلى صفحاتها مدى سنواتٍ متعددة نُشرَ قصائده عن
فلسطين والاحتلال الفرنسي في المغرب والشام، والاحتلال الإنجليزي في مصر
وفلسطين، وعن المواسم الدينيّة؛ وما كانت تُعنّ حادثةً سياسية في وطن إسلامي إلا
كتب فيها محبّ الدين وتابعه رهط من حواريه، لذلك كان الأستاذ عبد المنعم
خلاف يقول: «إنّ (الفتح) جامعة لا مجلة، جامعة لها أساتذتها وطلابها ودروسها
ومقالاتها». وهذا واقع ملموس .

ظلّ باكثر متّجهاً إلى الشعر وحده، يعتقد أنه ميدانه الأوّل الذي سيشرق نجمه
في آفاه، ولكنّ حادثاً أدبياً استطاع أن يميل بفنه الأدبي إلى القصّة، فقد تبرعت
السيدة قوت القلوب الدمرداشيه بمبلغ خمسين جنيهاً سنة ١٩٤٠ جائزة أدبيّة لأحسن
قصّة في مسابقة، عن طريق لجنة التّأليف والترجمة والنشر، فعزم علي أحمد باكثر
على أن يُجرب حظّه في هذا المضمار، وتقدّم بقصّة (سلامة القس) ففازت بالجائزة
الأولى، ونُشرت القصّة تباعاً بمجلة الثقافة، ابتداء من العدد (١٢٧) الصادر بتاريخ
١٩٤١/٦/٣، وقالت في تقديمها: «وسيرى القارئ من طرافة موضوع القصّة،
وبراعة أسلوب الكاتب، وحسن توفيقه، ما يمتعّه ويسرّه» .

كان فوزُ الكاتب بهذه الجائزة، ثمّ إسراعُ مجلة الثقافة إلى نشرها في أجزاء
متتابعة، مُوجّهاً لقلمه إلى ارتياد هذا الفنّ الجميل، ولي كلمة أقولها، فأذكر أنّ
الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كان الموجّه الحقيقيّ لباكثر في ارتياد القصّة

الإسلامية، لأنه كتب عدة قصص تاريخية بأسلوبه البياني الرائع، ثمجد الآداب الخلقية والفضائل الدينية في أسلوب جبارٍ قاهر لا يبلغ مداه غيرُ الرافعي .

وإذا كانت القصةُ في أدب الرافعي لا تتقيد بما تتقيد به القصة المتعارفة بين الأدباء، حيث يشقُّ الرافعي لنفسه طريقاً ارتاده سابقاً، واختار مذهبه الفني مستقلاً عن كل ما يقال عن شرائط هذا العمل الفني، حتى لا يحسبه الكثيرون كاتبَ قصة؛ إذا كان الرافعي قد اتجه هذا الاتجاه فإنه فتح عيون الكاتبين على كنزٍ دفين من كنوز الأدب العربي، فاتجهوا إلى مورده ناهلين، وفي طليعتهم علي أحمد باكثير .

وقصة (سلامة) بالذات قد كتبها الرافعي من قبل في مجلة الرسالة وأعاد نشرها في وحي القلم، كما كتب قصة (عز الدين بن عبد السلام)، التي كانت أصلاً لقصة (وإسلاماه) التي أبدع باكثير في صياغتها، وإذن فالرافعي أستاذُ كتاب القصة التاريخية ذات المشرب الإسلامي في مصر، يشهد بذلك سبقه التاريخي، وذووع آثاره بين القراء، إذ كان كاتب مجلة الرسالة الأول في أعظم سنواتها الذهبية، وللكتاب الرائد نبلُ الهدف، وسموُ الغاية، وشرفُ الارتقاء بالعواطف والأحاسيس، وهذا ما التزمه باكثير في كل ما كتب، وأضرب المثل لذلك ببعض آثاره، فأتحدث عن قصته الأولى :

نشأت سلامة جاريةً في كنف رجل ثري، ترعى له الغنم في بطاح مكة، وصادف أن زارتُ جميلةً المغنية داراً من دُور الكبار في مكة صادحةً شادية، فسمعتها سلامة وحذقت فنّها حتى برعت فيه، وضاقَ بها سيدها لورعه وتحزّزه عن الغناء، فباعها لابن سهيل صاحب جميلة المغنية، وأخذت مكائتها في الشّدو والتطريب، وصادف أن مرّ بمنزل ابن سهيل عبدُ الرحمن بن عمار، وهو شابٌّ ورع عابد حتى لقّبه معشره بالقسّ، فاستمع إلى غنائها يرتفع خارج المنزل، فوقفَ مشدوهاً لا يريم، وكثّر الذهاب إلى الاستماع، فعرف ابنُ سهيل أمره، وسرّه أن يُسحر بصوت سلامة أنقى الأتقياء في مكة، فدعاه وأقسم، ومالت إليه سلامة وشعرت نحوه بما شعر بها، ثم خلّت به فلم يكن بينهما غير حديث الخشية من الله، والخوف من جهنم إذا اقترفا إثمًا مع هوى مبرّح، ووجد عاصف .

وهذا ما دفع الرافعي إلى علاج القصة، وما دفع باكثير إلى متابعتها، إذ أحسنا وصف لواعج الشوق، وخشوع القلب، وطهر النفس بما يبعث العقّة النقية في

النفوس ، وقد دُهِش المؤلف لما لاقته قصّته الثرية من حظوة لم يكن يتوقعها ، وكان قد نظم من قبل قصّة تاريخية عن طريق الشعر المرسل كانت مجال أخذٍ وردٍّ بين النقاد ، وقصّة شعرية أُخرى عن (نفرتيني) ، ثم رأى إعجاب القراء بما كتب عن سلامة ، فأثر أن يكون اتجاهه في القصّة فيما بعد هو اتجاهه الثري المنطلق في سلامة .

وهذه إلهامه إلى اختيار موضوع رائع أشد انجذاباً للقارئ المسلم من موضوع سلامة ، ذلك هو موضوع الغزو التتري في موقعة (عين جالوت) ، وكان الرافي رحمه الله قد كتَب فصلاً بديعاً عن العز بن عبد السلام بطل المعركة الروحي الذي عباً الأمة لتقف صفّاً واحداً أمام الغزاة ، فأتاح لباكثير أن ينتقل بموضوع الرافي إلى مدى أرحب فيما كتبه في قصته الرائعة وإسلاماه ! ولأهمية هذه الرواية الخالدة أقف عندها قليلاً .

تعددت البطولات الرائعة في صفحات (وإسلاماه) فمواقف قطز الباسلة لا يجهلها قراء التاريخ ، ولكنّ قراءة التاريخ في صُحفه الرسمية لا تُذكي هذه الحماسة الملتهبة في الصدور ، ولا تُشعل القارئ حميّة كما أشعلت وإسلاماه مشاعر القراء ، وقد بلغ المؤلف حد الروعة حين صوّر البطل الخالد في الموقف المتأزم يرمي بنفسه في الهول وهو يصيح : وإسلاماه ، فينقلب الميزان ، وينتصر المسلمون ! .

وموقف العز بن عبد السلام الجريّ الفذ ، الذي كان سلطان العلماء والحكام معاً ، وقد استعدّ للسير مع الجيش بعد أن أمر الحُكّام أن يتبرّعوا بذهبهم قبل أن يسألوا الشعب ما ليس عنده ، وبعد أن واجه الطّغاة في أحلك المواقف ، وأشدّها رهبة ، فما وهن أو استكان !

وموقف الحبّ الرفيع المتسامي بين قطز وجُلنار ، حبّ إذا لهج كتاب القصة بتسطير نظائره ، فإنهم يخلقون جيلاً أبيضاً شريفاً ! والكاتب في هذا المنحى يعزف على الوتر الطهور الذي عزف عليه من قبل في قصّة سلامة القس ، وقد كانت ريشة باكثير مُبدعة وهي ترسّم لوحات اللقاء ، وتُصوّر الدنيا في عيني الحبيبين ، وقد صارت جنة تجري من تحتها الأنهار .

أما شخصيات الصف الثاني فلا يقلّون إمتاعاً وروعة في تصوير باكثير لهم ، فسلامة الهندي خادمٌ وفيّ حمل الطفلين الصغيرين في أزمتهما الكابته ، وأنقذهما

من ذل الإِسار، وغانم المقدسي له مُثله العالية التي تحرص عليها زوجته الصالحة اقتداءً به، والخادُم الفقير على الفراش لا تمنعه ضآلة رزقه أن يبذل ما استطاع، ولو ملك الدنيا لجاد بها! .

إننا ندعو إلى إحياء مثل هذه المواقف! وهي مشاهدُ تعمُرُ بها صفحات التاريخ، ولا يخرعُها المؤلف اختراعاً، ولكنها في حاجة إلى أقلام قوية تلمس مواضع القوة لتبرزها جيّاشة متوثبة، وتدرُّك لحظات الضعف فتعبّر عنها في عطف يُقدّر ما جُبِل عليه الإنسان من تردد وحيرة وارتيابك، حتى تشمله رحمة الله فينهض بعد العثار؛ أليست تلك صفحات أخلاقٍ وتربية قبل أن تكونَ صفحات أدب وتاريخ؟ .

لقد أحدثت رواية (والإسلاماه) فوقَ ما أحدثته رواية (سلامة القس) في نفوس القراء من انجذاب شائق، وكانتا مرقاةً لدرجات عالية صعد عليها المؤلف في براعة وإتقان .

-٢-

كان الأستاذ علي أحمد باكثير كاتباً ذا رسالة، وهو مثقف دارس مستنير، يعرف أن نفرأ من الناقدين ربّما يأخذون عليه اهتمامه بالفكرة الإصلاحية حين يعالجُ مسائل التاريخ والقومية العربية، ويرون في ذلك ما ينأى به عن الفن الأدبي، وإن اتّخذ القصة طريقاً لإبداعه، وقد واجه هؤلاء بما ذكره في كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية) حيث كتب تحت عنوان (الكاتب الداعية) خلاصة رأيه في هؤلاء، فقال تحت عنوان (الكاتب الداعية)^(١):

«ويسوقنا الحديث إلى الكلام على النزعة الإصلاحية أو الدعوة للفكرة خاصة كمنبع للإلهام المسرحي، ويمكننا أن نصوغ السؤال على الوجه الآتي: هل يصلح أن يكون الكاتب المسرحي داعيةً لفكرة خاصة؟ وهل يمكنُ لمثل هذا الكاتب الداعية الذي يستوحى موضوعاته من حماسه المتوقدة لهذه الفكرة أن يُنتج مسرحيات تعتبر أعمالاً فنية؟ .

والجوابُ على هذا السؤال بالإيجاب، ويكفي لإثبات ذلك أن كثيراً من الأعمال الفنية المعدودة قد كتَبها أصحابها ليبشّروا بفكرة خاصة استحوذت على قلوبهم،

(١) فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، ص ٣٦.

واضطرمّت بها نفوسهم فنّفسوا عنها بتلك الأعمال المسرحية الجيّدة، هذا (برناردشو) مُعظم مسرحياته من هذا القبيل، وقد اعترفَ غير مرّة أنّه إنّما اتجه إلى المسرح لثقته بأنّ المسرح أداة فعّالة، ومنبرٌ ممتاز للتعبير عن آرائه والتبشير بها، ومثله في ذلك (هنريك ابسن) و(جون جالزورني) و(جان بول سارتر)، فهؤلاء وكثيرٌ غيرهم قد كتبوا مسرحيات ناجحةً كلها مستوحاة من حماستهم المتوقدة للإصلاح الاجتماعي والسياسي، سواء كان قومياً أم عالمياً، ولم يعُنها أو يُقلّل من قيمتها الفنيّة أنّها كانت مسرحيات هادفة أو قائمة على دعوة من الدعوات، ولكن ينبغي لمثل هذا الكاتب المسرحي ألا ينسى - وهو يلتهب حماسة للدعوة التي يدعو إليها - أن المسرحية عملٌ فني قبل كل شيء، فيجب ألاّ يجور على قيمتها بحالٍ من الأحوال، بل ينبغي أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية، وأن يدرك أنّ ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التي ينطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهده».

هذا ما قرّره باكثير، ولكنه خالفه من الناحية الفنيّة في بعض ما كتب، فقصة (شجاع) التي تتحدث عن فترة حُرْجة من فترات العالم العربي في عهد الحروب الصليبية كان ميدانها الصراع الملحّ بين ولدٍ شريف مخلص شجاع هو (كامل بن شاور) وبين والدٍ غادرٍ مآكر تأمر مع الصليبيين على دينه ووطنه، حين أخذ يُمهّد لهم الاستيلاء على أماكن عربيّة كي يعينوه على خصمه (ضرغام) ومثل هذا الموقف لم يتحمّله الابنُ الشريف، فوقف في وجه أبيه، والفكرة قوية ذات حرارة تشدّ الأبصار وتجذب الأسماع، وقد بسطها المؤلف بسطاً شافياً وافياً، ولكنه - وهذا موضع النقد - قد نسي في كثيرٍ من الصفحات أنّه قصّاص لا مؤرخ، فكان يأتي بأحداث التاريخ المدوّنة وكأنّه يكتب مذكراتٍ عن حوادث واقعية لا مجال للفن بها.

وقد كانت هذه القصة مقرّرة على طلاب المدارس الثانوية في وقتٍ ما، وكُنْتُ أقومُ بتدريسها في مدرسة المنصورة الثانوية، فكان الطلاب يسألونني عن صفحاتٍ معينة يُخيّل إليهم أنها أُقحمت إقحاماً، وكُنْتُ معهم في تردّد هذا السؤال، ولكنّي قلتُ لهم: إنّ المؤلف الغيور في هذه القصة بالذات قد ضحّى بفنيّة القصة، وهو يعلم تماماً أنه يخالف ما هو مرسومٌ مؤكد، لأنّ النزاع اليهودي العربي مسيطرٌ اليوم على الساحة السياسية، كما كان النزاعُ بين الصليبيين والمسلمين مسيطراً في عهد

كامل بن شاور، فأراد أن يذكر من أحداث التاريخ ما يعطي الأمل للنفوس، لأن النزاع قد انتهى في الرواية باندحار الغادر، وانتصار المسلمين، وإن ذهب ضحيته (كامل بن شاور) البطل الشجاع في مؤامرة خسيصة دُبرت أمثالها من قبله لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وهم صفوة الصفوة من المسلمين، ولكن ذلك كله لا يُجيز أن تقتحم عبارات المؤرخين أسلوب القصّاص، وهذا غير معهود في الكثرة الكاثرة من نتاج القصّاص الكبير.

وبعد ما كتبه بكثير عن موقف الكاتب الداعية من الأحداث التاريخية، كتَبَ خواطره عن (المسرحية والقومية العربية) فقال ما يُفصح عن اتجاهه لبُعْث هذه القومية، وذكر أنه يَعُدُّها النبع الأول لإلهامه، وقوميةٌ بكثير ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإسلام، فهو الدائرة الواسعة التي تشملها وترعاها، وهي تدور في فلكه إذا سارت في اتجاهها الصحيح، ولكن الكاتب قال بعد ذلك ما فحواه^(١) إنه كتَبَ عن إخناتون ليحارب أعداء القومية العربية، وعَلَّل ذلك الرأي الخالص بقوله:

إنّ أنصار الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام، والسبئية في اليمن، والبابلية في العراق، يُشيدون بالعهد القديم على أنّه منفصلٌ عن العهد الحاضر، ويعدّون صراعاً بين الحضارات القديمة وحضارة اليوم، ليتجنّوا على الواقع العربي. فرأى أن يعكس عليهم ظُنُونهم بأن يُضيف هذه الحضارات القديمة إلى رصيد الأمة العربية، دون حاجز يَمْنَع الاتصال بين القديم والحديث، فتُصبح الأمة العربية وارثة هذه الحضارات جميعها وبهذا الوعي للتاريخ القديم كتَبَ مسرحية (إخناتون).

ومسرحية (إخناتون) كتَبها المؤلف بطريقة الشعر المرسل الذي لا يعرف القافية، وهي تجربةٌ أثنى عليها الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في مقالٍ ناقد بجريدة (البلاغ)، ووقفَ أمامها كثيرٌ من النقاد صامتين، مع أنها لوَنٌ جديد كان يتطلب النقد والدفاع، وليس للمؤلف حيلةٌ في هذا الصمت، وقد أخذتُ عليه أنه تجافى كثيراً عن حقائق التاريخ في هذه الفترة؛ لأنّ أخلاق إخناتون التي دونها مؤرّخوه لم تكن بالتّي تجعله رسولاً كما شاءت الرواية أن تقول، والمؤرخون يقولون عنه: إنه أولٌ من دَعَا إلى التوحيد في مصر، وبناءً على ذلك جعله بكثير رسولاً يبشّر بدين جديد.

(١) فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، ص ٣٨.

وقد كتبتُ مقالاً بمجلة (الهلال) أوضح فيه خطأ ما ادعاه المؤرخون من أن إخناتون أول داعية للتوحيد في مصر، لأنّ التوحيد قد عُرِف منذ خلق الله آدم، وإذا كانتِ الظلمات قد رانتْ عليه في بعض الحقب، فقد جاء يوسف عليه السلام إلى مصر قبل إخناتون بأمِدٍ طويل وأعلن التوحيد، فقال لصاحبي السجن: ﴿أَذْيَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. ثم أدّى رسالته إلى الشعب كلّهُ، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم حين قال على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، أقول ذلك لأنني أعرفُ عُمق دراسة باكثير الدينيّة والتاريخيّة، وطبيعيّ أن يكون القرآن مرجعه الأول!.

هذا وقد تعرّض بعضُ الناقدين إلى موازنةٍ ظالمة بين (شهرزاد) لتوفيق الحكيم، (وشهرزاد) لعلّي أحمد باكثير.

ولا أحد ينكرُ سبقَ الأستاذ توفيق الحكيم وريادته للفنّ المسرحي في الأدب العربي، وتضلّعه في التأليف المسرحي تضلعاً حازَ به قصب السبق، ولكنّ الموازنة بين المسرحيّتين في الميزان العادل تُعطي باكثير جانب التفوق، لأنّ توفيق الحكيم جعلَ من شهرزاد الشهيرة بين القراء بعفتها ودفاعها عن الفضيلة، وحرصها على بنات جنسها، جعلها تهوى عبداً أسود قبيح الصورة قويّ العضلات، وتتغفّل الحراس كلّ ليلة لتذهب إليه حاملّة عارها.

ورأى توفيق إثارةً للتشويق من غير بابه الطبيعيّ أن يكونَ قمرُ الدين وزيرَ شهریار مُغرماً بشهرزاد، وهي تعرف حبّه العذري وغرامه الشريف فتتهكّم به، وتراه غير أهل للرجولة، ولكنّه يحرص على شرفه وتدرّكه العقّة في مجلسها فيرتبك ويترّعش، ثم تكونُ نهايته أن يقتل نفسه منتحراً.

أما نهاية شهریار عند الحكيم فأغربُ وأعجبُ، فقد وقف على خيانة زوجته ورآها رأى العين، ولم يفعل شيئاً!! ذلك الذي كان يقتل كلّ يوم فتاة بريئة انتقاماً من زوجة خائنة، ولا ذنب للضحية إلا أنّها من بنات جنسها، وظلّ كذلك حتى مضت به شهرزاد إلى مسلكٍ غير مسلك الدماء ورفعته إلى المستوى الخلقيّ اللائق بمن في مثل منصبه! أفترلّ (شهرزاد الحكيم) أمام عيني شهریار ثم لا يصنع شيئاً ما! حتى

العبد لم يلتق أي جزاء! إنَّ هذا افتعالٌ لا تُعقل أسبابه مهما ادَّعى المحلّلون أنَّ الحياة طافحةٌ بالشرِّ، وأنَّ توفيق الحكيم أرادَ أن يُبرز هذا الشرَّ في إحدى صُوره، فكانت شهرزاد هي مرآةُ الدُّنس الآثم الذي لا تخلو منه الحياة!.

أمَّا (شهرزاد باكثير) فقد سارت مسيراً طبيعياً، وبدأ شهریار في تصرّفه طبيعياً، ولتظهر أفعال شهرزاد منطقيةً بينه وبين نفسه، فقد رأى باكثير بعد تفكيرٍ جادٍ في شخصية شهریار أنَّ يُعلّل مقتلَه للزوجة الأولى بأنّه لانهماكه الجسدي أدركه الضّعف الجنسي، ولحظت ذلك زوجته فلم ترأف به، فانتقم منها بدعوى الخيانة ليُعطي مبرراً للقتل، وإذا كان يحنّ إلى المرأة مع عجزه الجنسي فإنّه - في منطق باكثير - كان يخشى افتضاحه بين الناس إذا نقلت الزوجة الجديدة خبره، فأثر أن يقتلها بعد ليلةٍ من الزفاف لتذهب بسرّه إلى القبر.

وجاءت شهرزاد فخلبته بقصصها، ولم تمكّنه من الاتصال بها، فلم تقف على سرّه في اعتقاده هو، وجعل يمهّلها لسمع بقية القصة في الليلة التالية، وهو عذّر يُمهّد به دوام وصالها مع عدم افتضاح أمره، وقد فهمت شهرزاد بحاستها الذكية ما يعنيه شهریار، فأظهرت أنّها طوع أمره، وأن استبقاءها لتكمل القصة لا شيء آخر، وهكذا قرأ باكثير القصة في ألف ليلة وليلة، وقدم لها تفسيراً منطقياً لا شذوذ فيه.

أمّا شهرزاد الحكيم فقد قالَ عنها الأستاذ (دريني خشيّه) في مقال تحليليٍّ بارع متسائلاً^(١): «ما تلك الصورةُ الشاحبة التي يُخبّئها صاحب شهرزاد للمرأة في مُخيلته؟ لقد مسخ الصورة الساذجة غير المعقدة، الصورة العلوية التي ابتدعها العبقري الأوّل، الذي ابتكر فكرة ألف ليلة وليلة، فجعلها صورةً شائهةً قبيحةً فاجرة، لا يمكن أن تمثل إلا امرأة المواخير التي تتجر بعرضها كما تتجر بأعراض الناس».

فليت شعري أي الصّورتين لشهرزاد أقربُ إلى منطق الأشياء، صورة شهرزاد في مرآة الحكيم أم صورة شهرزاد في مرآة باكثير، ولماذا نُحاول أن نُرضي أناساً على حساب أناس؟.

(١) مجلة الرسالة، العدد (٥٠٩)، ٥/٤/١٩٤٣ م.

إن اشتغال بكثير بالقصة التاريخية لم يُنسه واقعَه السياسي المعاصر، فقد أُلّف مسرحيات شتى تُصوّر الحقبة الحرجة التي عاشها بين الناس، فوصف المجتمع وصفاً رائعاً، ولو عكف دارسٌ على قراءة نتاجه الخاص به، دُون النتاج التاريخي لعدّه روائياً ممتازاً، ولكنّ الرجل كانَ شديد الاعتزاز بفنّه الأدبي، فلم يَسمح لنفسه أن يتملّق فريقاً من النقاد ليتحدّثوا عنه، أو أن يَجاُمَل حاكماً لعدّه من أنصاره فيفتح له أبواب الشهرة والذيع، سينمائياً ومسرحيّاً وتأليفياً، ولولا أن نجّاه في المسابقات الأدبية المتكررة قد لفت إليه بعض الأنظار، لما نال أدنى حظ.

لقد كانت مُشكلات العصر سياسياً واجتماعياً تُورّقه وتضنيه، فيكتبُ في الموضوع الواحد لينفّس عن أحاسيسه، ثم يشعر أن بقيةً من الأوار الحبيس ما زالت تشتعل، فيعيد الكتابة المسرحية في الموضوع ذاته دُون سأم، وأمثلةٌ هنا بمأساة فلسطين، فقد كَتَبَ عنها أكثر من رواية حافلة، كتب الرواية الأولى تحت عنوان (شيلوك الجديد) ويقولُ بصدها إنه قرأ ذات يوم أن الزعيم الصهيوني (جأبو تنسكي) خَطَبَ مرة في مجلس العموم البريطاني، فضرب المنضدة بيده، وهو يقول: أعطونا رطل اللحم، لن ننزلَ أبداً عن رطل اللحم! مشيراً بذلك إلى الوطن القومي، الذي تضمّنه وعد بلفور.

فقال بكثير في نفسه^(١): لقد وجدتُ الضّالة التي أنشدُها، فهذه الجملةُ حجةٌ على الصهيونية لا لها، وسأأخذها الفكرة الأساسية لمسرحيتي، وكانتِ الفكرة هي أن فلسطين العربية لا يُمكن أن يُقتطع منها وطن قوميٍّ لليهود، دون أن يسيل الدم من الشرق العربي كله، ومثلُ ذلك مثلُ رطل اللحم الذي اشترطه شيلوك اليهودي في رواية (تاجر البندقية) لشكسبير، اشترطه على التاجر البُنْدُقيّ أنطونيو، فإنّه لا يمكن أن يَقتطعه شيلوك من جسم انطونيو دون أن يسيل الدم منه فيموت، فكما استحال تنفيذ هذا الشرط المخالف للقوانين الإنسانية، مع أن أنطونيو نفسه قد رضي به ووقع على صكّ العقد الذي بيّنه وبين شيلوك، فكذلك يستحيل تنفيذُ وعد بلفور، لا لمخالفته للقوانين الإنسانية فقط فيما يترتّب عليه من حُكم بالموت على شعبٍ بأكمله، بل لأنّ الذي أعطى ذلك الوعد لا يملك إعطاءه - وهو بلفور - بخلاف

(١) فن المسرحية من خلال تجاربي، ص ٤٤.

أنطونيو الذي كان يملك أن يكتب الصك على نفسه .

أما الرواية التالية التي تحدّث فيها باكثير عن فلسطين؛ فهي مسرحية (أوديب ملكاً) ولا أكتّم القارئ أنني قرأت هذه المسرحية، ولم أدرك أنها تتحدّث عن مأساة فلسطين حتى قرأت ما كتبه باكثير عنها بعد سنوات حين ذكر تحليلاً للوقائع والأشخاص ينطق بمأساة العرب، وقد قرأت التحليل مندهشاً، لأنّه لم يكن من الواضح بحيث أرتاح إليه، ولكنّ الكاتب قد صمّم مسرحيته وفق الرمز المختار من الأدب اليوناني، وقد لاقاها القارئ فلم يُدرك مرماه حتى أفصح عنه، والرمز الذي يحوج إلى إفصاح من المؤلف نفسه، لا بد أن يكون موضع نظر .

ولعلّ مما وُفق إليه باكثير هو إحكام الصلة في مسرحياته بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية، لأنّه في صميم اعتقاده من ناحية أولى لا يرضى بغير الفصحى بديلاً، ومن جهة ثانية يرى في الفصحى ألفاظاً كثيرة سلسة سهلة تصلح أن تكون موضعاً للنص، حيث ينطقُ بها العامة، وكأنّها من لغتهم، مع أنّها من صميم اللغة الفصحى، فعليه أن يتخذ أسلوبه من هذه الألفاظ التي يفهمها العاميّ دون عنت! وهي طريقة سبق أن دعا إليها الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في مقالات عدة، بل قدّم سجلاً من ألفاظ العاميّة هو في واقع أمره من اللغة الفصيحة، ليكون فيه ما يوضّح وجهة نظره، ويخيّل إليّ أن اللغو المغرّض كان أحد العوامل التي أدت إلى اتساع الجدل في هذه المسألة، لأنّ أبناء الشعب يسمعون الإذاعات المختلفة باللغة العربية الفصحى، ولا يجهلون من معانيها شيئاً ما، وأكثرهم أميّون، بل أقول: إن أكثرهم يسمع كتاب الله فيفرح بما يفهمه منه ويتذوقه، فكيف تقوم الحرب الكلامية بين طائفتين مختلفتي الاتجاه، ليطول الصراع في غير ميدان! ثم أليس من العجب أن يبدأ اللّجاج في أول القرن العشرين ويكاد ينتهي القرن، ونحن نبدي ونعيد؟ .

لم أكن أريد الاستيعاب الشامل في حديثي عن باكثير، ولكن رأيت أن أشير بإيجاز إلى مكانه الجهير بين أعلام النهضة الأدبيّة ليعلم من لم يكن يعلم أن الأديب الكبير قصاصٌ مبدع، وناقدٌ بارع، وشاعر رقيق، وآثاره الكثيرة بين أيدينا شاهدة على ما أقول .



الخوجه كمال الدين سفير الإسلام في أوروبا

لا أزال أذكر الروعة التي ملكتني عند قراءة كتاب (المثل الأعلى في الأنبياء) بقلم المجاهد الإسلامي الكبير الحاج خوجه كمال الدين! إنَّ الكتاب يتحدث عن رسول الله ﷺ، وكان من المنتظر أن أَلَمَ بكثيرٍ من حقائقه قبل أن أتصفحه، فالموضوعُ كثيرُ المراجع، وقد قرأتُ آلاف الصفحات عنه، ولكنِّي فوجئت بتحليلٍ مقارنة لا عهد لي به في التأليف عن رسول الله، كما رأيتُ من أَلَمِية الاستشفاف، وروعة الاستنتاج، وبسطة التحليل، وغزارة الموضوعات ما جعلني حائراً لا أدري كيف تجمّع ذلك كله في هذا الكتاب الفذّ.

وبادئ ذي بدء أذكرُ أن نفرأ ممن يكرهون الخير للمسلمين يصدّون الناسَ عن الكتبِ الرائعة الممتازة باتّهامات كاذبة لا أصل لها، فحين أَلَفَ الدكتور محمد حسين هيكَل كتابه (حياة محمد) وقد كان فتحاً رائعاً في الدراسات النبوية، رأينا من يقول: إنَّ الكتاب فرنسي الأصل، وقد ترجمه الدكتور هيكَل عن المستشرق الفرنسي (در منجم) وراجتِ الفِرْية مع وضوح كذبها، لأنَّ مثلَ الباحث الفرنسي لا يملك الرصيد الضخم من نُور الإيمان الذي تجلّى في (حياة محمد). ومَرّت الأيام، وتُرجم كتاب المستشرق إلى اللغة العربية، ترجمه الأستاذ عادل زعيتر، فما رأينا أذنى شَبهٍ بينه وبين كتاب هيكَل إلّا في الاسم فقط (حياة محمد).

كذلك انبهرَ الحاقدون بأنار الأستاذ خوجه كمال الدين، فلم يستطيعوا أن يَنقُدوا شيئاً من حقائقها الناصعة، ولكنهم ذهبوا يتّهمونه بالقاديانية ليصدّوا عن قراءة الكتاب، مع أنَّ الأستاذ يردّ على معتقد القاديانية في كتابه، ويُنكر أن يكون معنى عبارة خاتم النبیین كما يَفْتَرُون، ومَعَ أنَّ آثاره المتعدّدة لا تَقَرِّبه من القاديانيين في شيء.

وقد أنكر السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار هذه الفرية وقال^(١): «إن آثاره العلمية، ومجلته الإسلامية التي أصدرها منذ سنين لا تحمل هذا الاتجاه في سطر واحد». والسيد محمد رشيد رضا مُخلصٌ في دينه، وما كان يتستر على خطأ، أمّا الدعاية الكاذبة فأهمُّ أغراضها سقوط كتاب هو من أعظم الكتب في موضوعه، سقوطه كذباً ونميمة، بعد أن عجز الحاسدون عن إسقاطه بحثاً وتفنيداً.

أقول: إني بعد أن تشبعتُ بقراءة هذا الكتاب الممتاز حقّاً، طَفِقْتُ أبحث عن تاريخ حياته وعن بعض مؤلفاته التي تُرجمت إلى اللغة العربية، فلم أكدُ أعر على شيء، ثم تذكرتُ أنه فارق الحياة في ديسمبر، سنة ١٩٣٢م، فتعقبتُ المجلّات المصرية في هذا الحين لأعرف ما قالت عنه، فلم أجد غير مجلّة المنار، إذ نشرت كلمة أمانة عنه بالجزء الثاني من المجلد الثالث والثلاثين، حملت خلاصة موجزة عن حياته الحافلة، ولكنها لم تشفِ غليلَ قارئ متطلّع يريد أن يعرف الكثير.

ثم من الله عليّ فقرأتُ ترجمة حافلة عنه بمجلة الرسالة (السنة التاسعة عشرة بالمجلد الأول) وقد توالى في ثلاثة أعداد، إذ كتب ترجمة الرجل العظيم مسلّم بولنديّ هو الأستاذ (أرسلان بوهدانووكر) أستاذ التاريخ الإسلامي في بلده، وقام الأستاذ (علي محمد سرطاوي) بترجمة ما كتب الأستاذ أرسلان إلى العربية في أسلوب مشرق منير، والحقّ أنني فرحتُ بالمقالات الثلاث فرحاً لا يوصف، إذ قضت حاجة في نفسي كنتُ شديد البحث عن قضائها، وأفضل ما أقدمه للقارئ في هذا الكتاب عن الدعاية الإسلاميّ الكبير أن أقوم بتلخيص ما نشره الأستاذ الفاضل علي محمد سرطاوي مُترجماً، فهو جمّ غزير، والتعليق عليه لا يُقدّم جديداً، لأنه بحقائقه الرائعة يغني عن كل تعليق.

وُلد الحاج خوجه كمال الدين سنة ١٨٧٠م في البنجاب في أسرة كشميرية ذات مكانة مرموقة في المجتمع الهندي، فجده شاعرٌ كبير، تولى رئاسة القضاء زمناً في بلده، وأخوه جمال الدين من كبار رجال التربية والتعليم في عصره، وقد ساعد على مَحَوِ الأُميّة بين المسلمين في كشمير وإمارة جابو، أما كمال الدين فقد تعلّم في كلية (فورمان) المسيحية، ولها الفضل في أنها أرشدته إلى خلاصة تعاليم الكتاب

(١) مجلة المنار، المجلد ٣٣، ٣٨/٢.

المقدّس، فوعاها جيّداً، وكانت سلاحه الباتر في مناقشات دينيّة دارت بينه وبين كبار رجال الكنيسة في إنجلترا.

وقد حصل على درجته الجامعية في علم الاقتصاد، ونال وسام الشرف، حيث عُيّن أستاذاً للتاريخ والاقتصاد في الكلية الإسلامية بلاهور، وصار مديراً للكلية بعد أربع سنوات، ثم حصل على ليسانس الحقوق، فصار من أشهر المحامين، وتوافد عليه المتقاضون من كلّ صوب.

ولكنّه مع هذا النجاح الماديّ الرائع كان مؤزّقاً بشجون أمته الإسلامية في شتّى ربوع العالم، فأخذ أولاً يطوف في أرجاء الهند، ليُلقي المحاضرات الكاشفة عن تعاليم الإسلام، وازدادت شهرته حتى أصبح يُشار إليه بالبنان داعيةً ومحامياً، ولكنه لا يبغي الربح الماديّ، بل يسعى إلى نُصرة الإسلام من أوج عال، ففكّر في الارتحال إلى إنجلترا وهي يومئذ سيّدة العالم، ومالكة المستعمرات الكبرى، وأكثر هذه المستعمرات إسلاميّة تجمع طوائف كثيرة من المسلمين، وقد انتقل إلى إنجلترا سنة ١٩١٢، وهي ابتداءً لعصرٍ مظلم نزلت به حُطوبٌ دامية للأمة الإسلامية؛ فطرابلس قد احتلّها الطليان، كما هُزمت اليونانُ تركيا، وشدّت فرنسا قبضتها على الشمال الأفريقي، وإنجلترا على مصر والهند، وتوالّت بحوث الاستشراق تندّد بضعف المسلمين، وترجع بالسبب إلى دينهم الجامد المتأخّر - كما يقولون - وذيول الاستعمار في بلاد الإسلام قد فتنوا بحضارة الغرب، ورأوا فيها السبيل الأوحد للنجاة.

لذلك صمّم كمال الدين على أن يكون سفير الإسلام في إنجلترا، وعلى أن يوطّد صلته بالمسلمين في شتّى دول أوروبا، ولم يدّر بذهنه أنّه يقدّم على مجهولٍ لا يعرف غايته، وأنه فقد الثراء والجاه والاسم في بلده؛ إذ رحل عنها مهاجراً إلى لندن، يقول الأستاذ أرسلان بوهدانوكر - مُلخصاً^(١) -:

«كان العالم الإسلامي إذ ذاك في حاجةٍ إلى سفيرٍ في تلك القارة لا يمثل أمةً أو بلداً، وإنما يمثل ما في روح الإسلام من مثلي إنسانية لا يعرفها الناس هناك، لم يكن هناك مناصٌّ من إثارة عظمة الإسلام وأمجاده في نفوس المسلمين أولاً، وقد امتلأت

(١) الرسالة، السنة التاسعة عشرة، ص ٤٧٦.

ضمائرهم بمرکبات النقص، فهُرَعُوا إلى جامعات الغرب يتتلمذون على الحضارة الأوروبية، فراحوا تحت تأثيرها يتحلّلون من كل ما يفرض عليهم الدين الإسلامي من واجبات، وما ينهاهم عنه من محظورات، لذلك كانت من الضروريّ مقاومة هذه الأمور الخطيرة في المكان الذي تنتشر فيه، وباللغة التي تنتشر بها، وأصبح من الضروري أيضاً أن يفهم المسلمون الخطر الذي يتوارى وراء ماديّة الغرب، والميل إلى التحلل من كل ما يمتّ إلى الإنسانية بصلة، كذلك أصبح من الضروري أن يُقام في أوروبا الغربية مركزٌ يجتمع فيه المسلمون للصلاة، دون أن تحوّل بينهم الفوارق القومية أو الطائفية».

لقد كان طريق الرجل في حياته الجديدة بالمجتمع الغربي مليئاً بالأشواك، وقد هَضَمَ الثقافة الأوروبية في شتّى دُولها دون أن يقتصِرَ على ثقافة إنجلترا، وجعل يُحاضر عن الفلسفات الغربية مقارنةً بتعاليم الإسلام، وكان يتحمّل من الأعباء في الرحلة والكتابة والخطابة والمناظرة ما أدّى إلى إجهادٍ جسمي عاجلهُ بالداء قبل أوانه الطبيعي، ولكنه لم يترك القلم من يده، وهو مُستلقٍ على الفراش مستندٌ إلى حائط السرير يُدوّن المقال الأخير لمجلّته في جلد صابر، وحين وصلَ إلى إنجلترا أخذَ يشترك في اجتماعات الجمعيات اللاهوتية مناقشاً، وهي مهمّةٌ ليست سهلة، لأنّها جماعاتٌ شديدةُ اللدّد على الإسلام، ولها ما أخذها التي تخدع بها الأغرار، وقد انتصر على مُنافسيه في أدب حيّ، ولفظ عفّ، وحين ذاع صيته أخذ يُفكر في نشر الإسلام في بريطانيا جميعها لا في لندن وحدها.

وقد أسعده الحظّ حين علِمَ بوجود مسجد في ضاحية (وكنج) فعمل على الاستيلاء عليه ليكونَ مركزاً للتجمّع الإسلامي، وكان المسجد وليدَ رغبةٍ من صاحبة العظمة أميرة بيهوبال الهندية، إذ عملت على بنائه من مالها الخاص، ثم أدركه الإهمال فال إلى الخراب، وكأنّه مقبرةٌ كبيرةٌ مهجورة، فعمل كمال الدين مع صديقه الشيخ أحمد نور على حيازته بعد أن دفع ثمنه لورثة بعض المستشرقين ممّن ادّعوا ملكيته، بتنازل من الأميرة، ثم صار الأستاذ إماماً له عقبٌ تسلمه، وسكن بجواره ليكون أقرب الناس إليه، فكان مصدرَ إشعاع إسلامي مضيء، ولا تكاد تمرّ ليلة دون اجتماعات ثقافية تتحدث عن هموم العالم الإسلامي!.

ولكن هل قنع كمال الدين بهذا اللّور على أهميته، إنّه رأى أن الخطبَ

والمحاضرات ذات مجال محدود، وأنَّ الموقف يتطلب إنشاء مجلة إسلامية تصلُ إلى بلاد المسلمين جميعاً؛ لتكونَ ذات صدى بعيد، فأُسِّس مجلة إسلامية سمَّاها (إسلامك ريفيو) ولاقت انتشاراً واسعاً في كل مكان حتَّى في الشمال الشرقي من التركستان الصينية، ولم يكتفِ بهذه المجلة التي تصدر باللُّغة الإنجليزية، بل أصدر جوارها مجلة باللُّغة الأوردية لتكونَ ذائعة في الهند، وظلَّ يشرف على إصدارها حتى لقي ربه كريماً عزيزاً.

يقولُ الدكتور يميني رئيس الجمعية الإسلامية في بُورما من خطابٍ ألقاه في مسجد وكنج عن خوجه كمال الدين^(١):

«لقد جذبت محاضراته المتعددة قلوبَ مُستمعيه، وراح صداها ينتشرُ في أجزاء الجزيرة البريطانية، إذ طُبعت في كتيبات صغيرة». وبجهوده العظيمة اعتنقَ الإسلام أكثر من ألف رجل وامرأة من الإنجليز، ومن بين هؤلاء اللورد (هدلي)^(٢) صاحب المكانة العليا في موطنه، وقد كتبتُ عنه ترجمة ضافية يراها القارئ في الجزء الأول من هذا الكتاب، ومنذُ اعتنق اللورد هدلي الإسلامَ شرعَ في تأسيس الجمعية الإسلامية ببريطانيا، ففتحت أبوابها للمسلمين من أنحاء الأرض، واختير اللورد هدلي رئيساً لها حتى لقي ربه سنة ١٩٣٥، وقد توثقت الصلة الحميمة بين الرجلين الكبيرين، وحجاً معاً بيت الله الحرام سنة ١٩٢٥، فقُوبلا في العالم العربي بأسمى مظاهر الترحيب، وكان احتفالُ الإسكندرية بلقائهما مظهراً لأسمى المشاعر الأخوية في الإسلام.

والذين تحدّثوا عن خوجه كمال الدين من الإنجليز قالوا في انبهار: لو نجح هذا الرجل في دعوته بين الشعوب البدائية في أفريقيا لعدَّ عمله جليلاً مع سهولته حينئذٍ، أما أن يَنجح في لندن، وفي وسطِ مثقف يعتقدُ أن الإسلام لا شيء بالنسبة إلى المسيحية، فيجذب المثقفين إلى رأيه، ومن عارضوه لم يقدروا على نقده، أما أن يحدث ذلك في لندن فهذا دليلٌ مقدرةٍ خارقة. وأقول أنا: ليست مقدرةً خارقةً فقط بل يُضاف إليها الإيمانُ العظيم!

(١) الرسالة، السنة التاسعة عشرة، ص ٤٧٦.

(٢) النهضة الإسلامية: ١٠٧/١.

وَمِنْ كُتِبَهِ الَّتِي أَلْفَهَا غَيْرَ الْمِائَاتِ مِنْ مَقَالَاتِهِ : (الهند في الميزان)، (البيت المقسّم)، (مصادر الديانة المسيحيّة)، (محمد المثل الأعلى للأنبياء)، (نحو الإسلام)، (إنجيل العمل)؛ وقد زادت هذه المؤلفات على مئة كتاب. ولولا الإخلاصُ المشتعل ذو الحميّة المتقدّمة ما استطاع أن يسطر هذا الكمّ الهائل من المؤلفات، لأنّ اجتماعاته بالمسجد، ومحاضراته بالأماكن العامة كانت تملأ فراغاً كبيراً من حياته! ولكنّه يجعلُ من نقاط الاجتماعات بُدوراً لبحوثٍ شافية تردّ على اعتراضاتٍ متردّدة، وهكذا بارك الله في عمره فزّرع وحصد.

ولكلّ داعية معاصر أن يأخذَ من سلوك كمال الدين في الدعوة عبرةً واعية، إذ كان يحارب الانقسام الطائفي بين المسلمين، فلا يسمحُ بترديد التّزعات بين الطوائف المختلفة من سنّيين وشيعة وغيرهما، إذ جعلَ يصرّحُ بأنه إذا كان الدينُ واحداً فلنتوجّه بالنقد إلى خصومه، أمّا أن يقفَ مسلماً أمام مسلّم وكأنه عدوٌّ لدود، فهذه هزيمةٌ منكّرة للجانبين ولا تخصّ جانباً بعينه.

وتلك نظرة أوْدُ لو وعاهها من يتصارعون في جدل شاق حول الفرعيات في الفقه والتّشريع، ومَنْ يزعمون أن رأيهم الصحيح وما سواه باطل يجبُ محاربتُه! هذه النظرة يجب أن تَسود بيننا من الآن، فقد تأخّر ميعادُها تأخّراً أليماً، إذ جعلت بأس المسلمين بينهم شديداً، وهم في صميم أحوالهم ضعفاء، وعدوهم الجاثم على صدورهم جبارٌ عنيد!.

لمسَ كمال الدين نجاحَ دعوته في المحيط الإنجليزي، وعرف عن يقين أن بعض العقول تفتّح على الحق متى أشرق نُوره أمامها دُون لَبْس، فرأى أن يمتدّ بنشاطه إلى أوروبا جميعها، وكانت مجلّته تمهّد له طريقَ الوصول إلى عواصم هذه الدول، فنَهَضَ إلى زيارة فرنسا وألمانيا وبلجيكا عدّة مرات، ثم تأمّل في نشاطه مبدئياً، فوجد أنّ مسجد (وكنج) كان مصدرَ الإشعاع الحقيقي في إنجلترا، ولا بدّ من مثله في عواصم الدول المختلفة، فعمل على تشييد مسجد ببرلين وآخر بفرنسا، وقد تلكّأت حكومة فرنسا أوّل الأمر، ثم رأت أن إنجلترا وألمانيا لم تُمانعا في إنشاء المسجد، وهما في نظر الرأي العام داعيتا الحرية فبادرت بالاستجابة.

وظلّ التعاونُ بين المساجد الإسلاميّة ممتداً إلى أبعد خطواته بتأثير كمال الدين وزياراته المتتابة، ولم يغفل عن الدعوة في الشرق، فامتدّ نشاطه إلى دُول في آسيا

وأفريقيا، لأنّ مجلة (إسلامك ريفيو) كانت واسعة الانتشار في البلاد الإسلامية، وإذا كانت رحلة الحج قد مهّدت له سُبُل الاتصال بالدّول العربية، فقد امتدّ به العزم إلى رحلة شاقّة قَطَعَهَا إلى سنغافورة وأندونيسيا، وقد استُقبل بهذه البلاد استقبالا حارّاً، وعقد أمانيّ كثيرة على انتشار الإسلام شرقاً وغرباً، حين رأى الإقبال المتزايد على محاضراته وكتبه.

ومن المؤسف أن نشاطه العلمي وكفاحه الديني قد عَجَلَ بضغفه الجسمي، ولأحت له نُذِر الخاتمة فترك إنجلترا إلى مسقط رأسه في بلاد الهند، ولكنّه لم يترك الأمر فَوْضَى من بعده، فألّف مجلس أمناء لرعاية المسجد، ووقف جميع ما يملك - وتقدّر قيمته بمئة وخمسين ألف روبية - على الجمعية الإسلامية في (وكنج)، وجعل لهذه الجمعية كلّ الحقوق المتعلقة بطبع مؤلّفاته أو ترجمتها، وكذلك أسند لها العمل على استمرار مجلة (إسلامك ريفيو).

أما خاتمة حياته، فقد تحدّث عنها الأستاذ أرسلان بوهدانوكر قائلاً^(١):

«لقد زاد عليه المرض فانحطّت قواه، وراح يعاني آلاماً مبرّحة من أمراض صدرية احتملها بصبر عجيب وجلدٍ نادر مدّة خمس سنوات، ورغمًا من تعاليم الأطباء المشدّدة بوجوب الإخلاد إلى السكينة، فإنه لم يَزَخْ دقيقة واحدة، مع عدم استطاعته حمل القلم إلا بضُعوبة، إذ كان يُملّي البحوث الضافية، والمقالات الرائعة عن الإسلام، وقبل وفاته بساعات في مدينة لاهور بالباكستان في الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٣٢م، الموافق أول رمضان سنة ١٣٥١ أملى آخر فقرة من تعليقه على القرآن الكريم، وقد نُشر ذلك التعليق في عدد مجلة (إسلامك ريفيو) الصادر في إبريل سنة ١٩٣٣م، فحتّى في النفس الأخير من هذه الحياة المجيدة كان المريض يعمل جاهداً في سبيل الإسلام، وكان يذكّر مسجد (وكنج) في آخر لحظاته متمنياً له الازدهار، وحين شاع نبأ وفاته في إنجلترا هرع أصدقاؤه للتعزية في فقدّه، حتى خصومّه الذين حاربوه بالقلم عرفوا فيه مناضلاً أميناً فأسفوا لرحيله، وتلقّت أسرته وإمامة المسجد سيلاً من الرسائل التي تفيض بالحزن عليه، وتنطق بالخسارة الفادحة التي أصابت المسلمين في فقدّه.

(١) مجلة الرسالة، السنة التاسعة عشرة، ص ٥٠٤.

هذا في إنجلترا، أمّا في لاهور فقد احتشدت الجموع من المسلمين في قاعة الكلية الإسلامية لتأبينه، ورأس الاجتماع السير شهاب الدين صاحبه، وتوالى الخطباء يعدّدون مآثره الرائعة، وفي السابع عشر من مارس سنة ١٩٣٣ جرى احتفالاً بافتتاح المكتبة التذكارية، وقاعة المطالعة الملحقة بها، وقد أُطلق عليهما اسمهُ الكريم، وأقيم لهما بناءٌ ضخم ذو رونق جمالي، وألحقتاً بمسجد (بيجام شاند) في البنغال، كما احتفلت البلاد الإسلامية بتأبينه، ودوّنت خلاصة هذه الاحتفالات في عددٍ تذكاري من مجلة (إسلامك ريفيو) بدئى بمقال افتتاحي حزين، تحدّث عن موت جندي الإسلام العظيم (خوجه كمال الدين) ورجا كاتب المقال أن تُصبح كلُّ نقطة دم من جسم الراحل ينبوعاً دافقاً يتّصل بالنفوس لتسير سيره وتنحو منحاه.

وقد قال المحامي الإنجليزي الشهير (مستر بكتال) عنه: «لقد وُلد بالفطرة مُحارباً من الطراز النادر، في سبيل القضية التي وقف عليها حياته، ولم يعرف الهزيمة أبداً، كانت الابتسامة لا تفارقُ شفّته، وكان لا يرى غير الناحية المشرّقة من الأشياء والناس، سائراً في طريقه قُدماً لا يلتفت ورائه، يُقابل كلَّ خبيّة أو فشل بإعادة آية من كلام الله، وكان وفياً في صداقته إلى أبعد حدود الوفاء، ليقاً كريم السجايا، يزن كل شيء، إذ كان متّزناً جداً».

أما اللّورد هُدلي الذي أسلم على يده فقد أثّنه تأبيناً حاراً قال فيه: «نحن نبكي اليوم لفقد مسلم لا نظير له في العصر الحديث الذي نعيشُ فيه، لقد ترك ورائه مثلاً جميلاً لحياة طاهرة قضاها في منفعة الآخرين، لأنّ روح الإسلام قد أشرقت على جوانب تلك الشخصية العظيمة، فغدث فوق الأرض نموذجاً رائعاً في حياتها اليومية، وفي خشوعها نحو الخالق، لقد تلاقى في شخصيته النادرة قلبٌ رحيم، وعقلٌ عبقرى، لا أدكر أنّي سمعته مرّة يتفوّه بكلمة تمسّ شعور إنسان، وأولئك الذين كانت الظروف تُسعدني بتقدّمه إليهم، لم يلمسوا في سلوكه أو حديثه أي شيء من التعصب، لقد واثّني الظروف فاطلعتُ على طريقته في تفسير كلام الله، وكيف كانت حياته صورة حيّة لتلك المعاني الإلهية».

ولا بد أن نأخذ عبرة صادقة من حديث اللورد هُدلي عن صديقه، فقد تحدّث عن أخلاقه المثالية التي حتمت عليه ألا يذكر أحداً ما بنقيصة مهما خاصم فكره، لأنّ روح الإسلام قد أشرقت على جوانب شخصيته فغمرتُها بالتور، والذين عرفوه

من خصومه وجَدوه نقيّاً طاهراً بعيداً عن التعصب، فهو صورةٌ حيّة للمعاني الإلهية المذكورة في القرآن الكريم، وإذا تمثّل مسلمٌ أخلاق القرآن وسار في ضوئها فهو موضع المهابة والتبجيل . .

وهذا المعنى قد أكّدته مجلة المنار المصرية حين نشرت مقالاً عن الراحل الكريم بقلم (خوجه عبد الغني) سكرتير الجمعية الإسلامية بـلاهور، قال فيه^(١):

«كان الخوجه كمال الدين ذا شخصيّة فذّة، وكان خطيباً مُفوّهاً يقف في الجماهير ساعاتٍ بطلّعتَه المهيبة، فلا يشعرون خلالها بملل أو سآمة، وكانت صفاته الممتازة تحبّيه إلى جميع عارفيه وروّاد مجلسه، ولا يُبالغ إذا قلنا: إنه قد انتقل إلى الدار الآخرة تاركاً كلّ من اتصل به أصدقاء، ليسَ بينهم عدُوٌّ واحد، ولم يكنْ يقولُ بشيءٍ من الفوارق بين الفرق الإسلامية، بل كانت كلّها في نظره سواء، وكانَ جلُّ مراده، وأهمّ مقاصده، أن يعود الإسلام إلى ما كان عليه في عصر النبوة من البساطة والتّقاء، ولعلّ هذا القصد كانَ سرّاً نجاحه، وثمرّة جهاده، فهدى الله تعالى به وحده إلى الإسلام ما يَنيفُ على ألفِ نسمة من الإنجليز رجالاً ونساءً، منهم اللورد هدلي الشهير».

أكثرُ من هذه النقول لأؤكّد العبرة المأخوذة من كفاح الرجل، إذ أثبت أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن يقترن العلم بالسلوك، بل إنّ السّلك الأمثل يُعطي انطباعاً لا يُعطيه العلم، فأنت تعاشرُ الرجل الذي لا يتعمّق في ثقافة ولا يتخصّص في مادة، فإذا وجدت أخلاقه ذات حُسن وسماحة فإنك تُسرّع إلى صداقته، وتعتدّه بسلوكه الخلقي مأموناً أميناً بالنسبة إليك، فتُفضي إليه بسرّك غير هيّاب، وتستمعُ نصيحته في إذعان، لأنك تعرف معدنه الخلقي .

وقد تعاشرُ مَنْ أكثر من التّأليف وامتلاءً من العلم فتلمس من سلوكه ما ينقبضُ له صدرك، فلا ترتاحُ إلى مجلسه، بل ينتقلُ هذا الشعور إلى مؤلّفاته فتقرؤها في ألمٍ وامتناع، بل قد تحاول تجتنبها مهما امتلأت بالفوائد والمسائل، ومن التوفيق الحبيب أن كمال الدين خوجه قد اكتملَ علماً وعملاً، فأثاره العلمية آياتٌ ناطقة بفضله، ومشاعرُ إخوانه الكثيرين نحوه آياتٌ أخرى ناطقةً بمثاليته الرائعة .

(١) مجلة المنار، المجلد (٣٣)، جزء ٢/ ١٤٠ .

أما إيمانه بالجهاد في سبيل دينه ، فحسبك منه أنه كان يُملي على عواده آراءه بعد أن أقعده المرض في سريره عاجزاً عن أن يُحرّك القلم ، وكان له في مُصابه بجسمه ما يدفعه إلى الراحة ، لولا أن الروح لدى هؤلاء المثاليين أقوى من الجسم ، فهي تتركه مريضاً بجسمه لتبحث عن حل آخر يُتيح لها أن تنشر أفكارها ، وإذا عجز القلم ، فلا يزال اللسان يُملي ، ولا يزال الصديق الزائر يكتب ويسجل . وإذا كان رسول الله قد قال : «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم» فما ظنك بمن أسلم على يده الآلاف من النابيين .

لقد ذكرتُ في مطلع حديثي هذا مكانة كتاب (المثل الأعلى في الأنبياء) في نفسي ، وفي نفس كل قارئ ينشد الحقيقة لوجه الحقيقة ، وقد آن أن أسلط الضوء على بعض أفكاره ، داعياً إلى إعادة طبعه وسرعة ذبوعه ، فمثله بين المؤلفات نادرٌ عزيز .

ظهر هذا الكتاب في موسمه ، لأنّ كُتّباً مُغرِضة تناولت بالموازنة محمد ﷺ وعيسى عليه السلام لتسلب نبيّ الإسلام فضائله ، وترفع بالسيد المسيح إلى مقام الألوهية ، فاضطرّ المؤلف إلى أن يفصل بين الكاتبين بالمنطق الجازم ، وقد يلحظ القارئ أن حديث عيسى عليه السلام قد شمل صفحات كثيرة من الكتاب ، وهو ما لا بدّ منه لمن يتعرّض إلى محو أراجيف ألصقت بنبي الإسلام دون بحث ؛ على أن الهدف الأصلي من الكتاب ليس الموازنة لذات الموازنة ، بل لإثبات حقيقة صادقة ، وهي أن النبي ﷺ هو المثل الأعلى للأنبياء ، إذ جمع الله فيه ما تفرّق في سائر الأنبياء من الكمالات ، وقد قال اللورد هدلي في تقديم الكتاب : «إنّ الذين يزعمون نبيّ الإسلام بالنقد قد غاب عنهم أن الحقائق التاريخية الخاصة برسول الله ، هي من الشهرة والثبوت بحيث لا يتسنّى منها اختلاق شيء جديد» . ومعنى هذا أن المؤلف لم يخترع ما نسبته إلى الرسول من عنده ، وهو باهرٌ رائع حقاً ، ولكنه مُدَوّن مُتداول ، وجهده ينحصر في تنسيقه وفق المنهج التأليفي ، ليؤدّي دوره في إدحاض أباطيل من هاجموا نبيّ الإسلام دون حق .

وتأكيد اللورد على ثبوت الحقائق النبوية هو أبلغ ردّ على بدعة ظهرت بين الكتاب الأوروبيين تقول : إن صورة الرسول فيما يكتبه مؤرخو اليوم من المسلمين قد استُعيرت من المسيحية ، فهم حين رأوا أوصاف العظمة التي سجّلها المؤرخون

المسلمون نَقْلًا عن التاريخ الصحيح بهَزَنَهم بلألائها الساحر، فكانوا - كما قال المؤلف - يَجْهَرُونَ بأنَّ هذه الصورة البالغة الرُوعة لا يُمكنُ أن يكون مصدرها الإسلام، ثم بدا لهم أن حُجَّتَهم داحضة فنكَّسُوا رؤوسهم ولاذوا بأذيال دَعْوَى جديدة، فقالوا: هذا إسلامٌ جديد! ومحمدٌ جديد، يقول المؤلف^(١):

«ولو أنهم تأملوا الصُورة التي جلَّونا فيها مناقب النبي ﷺ ونشَرناها في المجلة الإسلامية لبان لهم أنَّها صورة إسلامية لا شُبْهة فيها، ولكنَّ يظهر أنَّها نَفَذَتْ إلى أعماقِ قُلُوبهم بدليل قولهم أننا نُحاول أن نَسْتَدَلَّ على أن محمداً ﷺ هو المثلُّ الأعلى للإنسانية من الوجهة الخَلْقِيَّة، وأنا لجأنا في تصويره إلى صُورةٍ جديدة استُعيرت من المسيحية».

وما دام هذا الرأي سائداً بهذا الإضرار فإنَّ مجال الموازنة بين النبي الكريم وعيسى عليه السلام لا مفرَّ منه، ففي الفصل الأول من الكتاب حديثٌ رائع تحت عنوان (الإله المتجسّد لا يصح أن يكون مثلاً أعلى للبشر) وهو حُكْمٌ بدهي؛ لأنَّ الرسول قدوةٌ لأتباعه فلزم أن يكون بشراً مثلهم، فإذا كان المسيح إلهاً فقد ارتفع عن البشرية في زعمهم، ومثله بهذا الوضع لا يكون قدوةٌ للإنسان، إذ كيف يتسم الإنسان بصفات الله، وهو أقوى الأقوياء؟! ومن المحال أن يصير الناس آلهةً مثله، لأنهم بشر، ومثلهم العليا وأمانيتهم الحالمة من جنس ما يحلم به البشر، يقول المؤلف في ختام حديثه، بعد أن أفرغ الجهد في إيضاح هذه القضية^(٢):

«يتضح لنا أنه لا سبيل إلى أن يكون الإله المتجسّد مثلاً أعلى للبشر، وأتى يكون ذلك ولا وجهَ للشبه بينه وبين البشر في الاستعدادات والقوى، والمثلُّ الأعلى هو جماعُ المحاسن والكمالات التي تُوجد عادةً في مختلف الأفراد مجرّدةً من شوائب النقص، بحيثُ يتكوّن منها مثالٌ من الجنس، ولا شكَّ أن الإله المتجسّد لا يمتُّ بصلة ما إلى جنس البشر؛ إذ أنّه بطّبعه وماهيّته يختلفُ عنهم، ولذلك لا يمكن أن يكون مثالَ الكمال أو الجمال أو الجلال، وهذا منطقٌ لا يُمكن أن ينازع فيه ذو نظر مستقل».

(١) المثل الأعلى للأنبياء، ترجمة الأستاذ أمين محمود الشريف، ص ١٤.

(٢) المثل الأعلى للأنبياء، ص ٣٤.

وإذا كانت القدوة تستلزم إحاطة بسيرة المقتدى به وأقواله، فإن المؤلف ينصّ على أن أنبياء الله (دون محمد) قد غابت تفاصيل حياتهم عن التاريخ، بل إن أقوال المسيح ذات تضارب، وما سجّل من أفعاله لا يبيّن المراد من هذه الأقوال، إننا لا نعرف من سيرة الأنبياء ما يُصوّر معيشتهم وتجاربهم اليومية، وهنا يظهر فضل النبي ﷺ لأنّ سجلّ أقواله وأفعاله كاملٌ غير منقوص، وسُنَّه القولية والفعلية يتمّ بعضها بعضاً، فكلُّ ما يعرض للإنسان مما دقّ وجلّ يتجلّى في مرآة حياته، ولا أستطيع أن أقول: إنّ غيره من الأنبياء لم يؤدّ رسالته كاملة - هكذا يقول المؤلف - فلا بدّ أنّه أداها كما أرسل بها، ولكن مؤرّخي الأنبياء لم يقوموا بحقّهم، وإذن فنحن - لولا ما أثر عن محمد رسول الله ﷺ - ما كنّا نستطيع أن نفهم قدر النبوة على وجهها الصحيح. والباب الثاني يعالج هذه القضية بإسهاب مستفيض.

أما الباب الثالث فخاصّ ببيان حالة العالم قبل البعثة المحمدية، وكلّ ما به جديّد من حيث شموله، فقد تحدّث عن حالة القُسطنطينية في عهد جُسْتِنْيَان، وعن فارس وما بها من قاذورات دنيئة لم أكنّ أعرفها قبل قراءتي هذا الكتاب، وكذلك تحدّث عن حالة الهند، ومما قرّره المؤلف أن الوقت الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ كان أشدّ الأوقات ظلاماً واكفهراراً؛ فقد جاء موسى في عهد فرعون، ومصر ذات ثقافة وحضارة ولها باعٌ طويل في العلوم، وجاء عيسى والحضارة الرومانية مُزدهرة، ولكنّ محمداً جاء والعرب أسوأ حالاً من كل مجتمع شاهده الأنبياء، وذلك إجمالاً تكفّلت صفحات الكتاب بتفصيله على نحو مقنع سديد.

وتتابعت الفصول تتحدّث عن المثل الأعلى للدعوة، وعن المثل الأعلى للشخصية، وعن المثل الأعلى للأخلاق، وعن المثل الأعلى للنجاح، وعن المثل الأعلى بين معلّمي الأديان، وعن المثل الأعلى للبيان، وعن المثل الأعلى للقدوة الحسنة، ثم ختم الكتاب بفصل رائع عن محمد ﷺ معدن الفضائل كلها، وهذه الفصول من التماسك والانسجام بحيث لا يجوز أن تُقطع حلقة من سلسلتها المتماسكة، كيلا يبدو اختلال النسق النضيد.

وأجمل ما في الكتاب مقارناته التاريخية الملموسة، تقرأها فيخيل إليك أنك لم

تعلم مضمونها من قبل ، مع أنّها قد تواردت عليك كثيراً من مطالعاتك ، فهو يقول مثلاً^(١) :

«كلّنا نعلم أن موسى عليه السلام أنقذ بني إسرائيل من ربقة المصريين بمعجزة ، ولكنّ محمداً ﷺ دافع عن المدينة بعصاية صغيرة ضدّ العدو الذي كان يبلغ جيشه عشرة آلاف رجلٍ أو يزيدون (يوم الخندق) دافع بخططٍ حربيّة جريئة يستطيع أيّ قائد حربي أن يفخر بتطبيقها في الحرب والإفادة منها ، ولكنّ موسى عليه السلام على كلّ ما أتى به من المعجزات لم يستطع أن يبتّ في قومه روح الشجاعة التي بثّها محمد ﷺ في قومه ، وكان عيسى عليه السلام دائم الشكوى من عدم إيمان تلاميذه ، على كثرة ما شاهدوه من المعجزات التي أتى بها ، ولكنّ النبي ﷺ كان يضمّ حوله طائفة من المؤمنين فريدة في بابها» .

أو يقول^(٢) :

«كان من فوائد غزوات الرسول أنّها أتاحَتْ للنبي ﷺ فرصة الدخول مع الأعداء في معاهدات الصلح ، وكشفتْ لنا عن موقفه إزاء هذه المعاهدات ، وبرهنتْ على أنّه لا يعدّها قصاصات ورق ، بل يعدّها وثائق مقدّسة ، ولو أنّ أوروبا اقتدتْ به في هذا الشأن لنجا العالم من الشرور التي تعرّض لها ، ومعروفٌ أنّه ليس في حياة عيسى عليه السلام ما يستضيء به الأوروبيون في هذا الشأن ، ولتجدنّهم أحرص الناس على خرق المعاهدات منهم على تنفيذها» .

أو يقول^(٣) - ببعض التلخيص - :

«إنّ محمداً ﷺ دأبّ على تمجيد غيره من الأنبياء ، ودفع عنهم ما ألصقه بهم مُنتَقِصُوهم ، ولكنّ المبشّر المسيحي يحاول أن يرفع نبيّه بالخط من قدر غيره ، فبينما تراه يؤمن بنبوة كثير من أنبياء إسرائيل ، إذا به يعدد ما اقترفوا من ذنوب وآثام ، ولكنّ خاتم الأنبياء جاء ليبرئ هؤلاء الكرام مما نُسب إليهم ، فصّرّح بصدق إبراهيم ويوسف وقد غمزهما الكتاب المقدّس ، ونزّه لوطاً عما نُسب إليه من السوء ، وقد

(١) المثل الأعلى للأنبياء ، ص ٨٨ .

(٢) المثل الأعلى للأنبياء ، ص ١١٠ .

(٣) المثل الأعلى للأنبياء ، ص ١٥٥ .

محا القرآنُ بكلمة واحدة ما عُلق في أذهان اليهود من المسيح، إذ سَمِيَ عيسى روح الله، ونَزَّه أخلاق مريم عن كل عيب!». .

هذه نظراتٌ نافذة أوحى بها عقل دائب الجَوْلان، وروح يغمره الإيمان، ونظر مترامي الأبعاد.

* * *

محمد أحمد جاد المولى

المربي المحاضر البحاثة

- ١ -

لهذا الرجل فضلٌ كبير على أبناء جيلي من طلاب الثقافة الإسلامية الميسرة، فقد كان يتزعم كوكبةً من خيار المدرّسين ينهضون بتأليف الكتب المدرسية في فروع اللغة العربية ودروس الدين الإسلامي، وكنا - نحن طلاب الأزهر - نلمس في كتب الأزهر صعوباتٍ جمّة في التأليف، لأن كثيراً منها من كتب التراث وقد كتبها مؤلفوها في زمانٍ سالف، فكنا نستعين بكتب الوزارة في تفهّم بعض ما يتعسر، وكانت هذه الكتب في فروع اللغة والدين تصدر باسم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك، المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف، ومعه نفرٌ من زملائه وتلاميذه، ومن هذه الكتب كتاب قواعد اللغة العربية بأجزائه الأربعة، وكتاب أدب الإسلام بأجزائه الثلاثة وغيرها.

ولم يقف نفع الطلاب به عند الكتب المدرسية، فقد فوجئنا لأول مرة بكتاب تحت عنوان (قصص القرآن)، يُقدّم قصص الذكر الحكيم بأسلوب أدبي رائع لا ينزل عن مستوى كبار الأدباء في أسلوبه، وقد تصدر أسماء مؤلفيه الأستاذ محمد جاد المولى، فكان مورداً عذبا للطلاب فكرة وأسلوباً وتوجيهاً، ثم تلاه كتاب قصص العرب في أربعة أجزاء كبار لمؤلفي كتاب قصص القرآن، وقد جمع خلاصة ما في كتب التراث أدباً وتاريخاً من قصص ممتازة، ومن هذا الكتاب عرفنا كتب الأغاني والكمال والأمالى وزهر الآداب، والحيوان والبيان والتبيين والمكافأة، إلى ما لا أستطيع حصره، حيث يذكر الكتاب مصدر كل قصّة.

وبهذه الكتب الحافلة اتسعت ثقافة أبناء جيلي اتساعاً ما كان يُتاح لهم على هذا

الشمول لولا هذه الكتب، ثم تلا ذلك كتاب أيام العرب بجزءيه، وكتاب مهذب رحلة ابن بطوطة، وكتاب المطالعة التوجيهية وغيرها، هذا إلى مقالات هادفة تنشرها المجلات العلمية بقلم الأستاذ جاد المولى، فترك صداها التوجيهي في نفوس الشباب، إذ تدور جميعها حول الأخلاق الفاضلة تحليلاً واستشهاداً.

وأذكر أنني فوجئت بنعي الرجل المربي الأديب، وأنا في معهد الزقازيق الثانوي طالباً، فتذكرت ما قرأت من هذه الكتب التي أشرت إليها، ووجدت أثر الرجل في تكويني العقلي، لا يقل عن أثر الكبار من أعلام القلم في مصر، فشعرت بأسف على فواته وبكيته بقصيدة نشرتها مجلة الإخوان المسلمين عند رحيله، وقد قلت فيها:

حنّ لليث عرينه	ما عسى يُجدي حنيه
كلما ظنّ لقاء	عاجلاً خابت ظنونه
كم غدا يسأل عنه	أين ساقته منونه
فإذا لم يلف رداً	شافياً سالت شؤونه
أيها الغائب عزاء	فارق الخدن خدينه
ليس بعد اليوم عود	للذي شطّلت سفينه
وسطا الموت عليه	ويله، شلت يمينه

* * *

سامر الفصحى رهيب	يبعث الشجو سكونه
خيّم الحزن عليه	قد نأى عنه قطينه
كلما حذقت فيه	هاج من حزني كمينه
كان قبل اليوم روضاً	ضاحكاً تجري عيونه
فغدا الروض يباباً	أئن من كان يزينه

* * *

يا نصير الدين قم فالد	ين قد سالت شؤونه
كنت تحميه فمن ذا	بعدك اليوم يصونه
بيبان مستفيض	يمحق الريب يقينه
خلق عال تجلّت	فيه تقواه ودينه
شيم الأملاك فيه	هل ترى عيباً يشينه

من رعى حقّ المعالي هكذا الموت يخونه

* * *

ففي سبيل الله طيّرُ صادقٌ غابت لحونه
ففي سبيل الله نهّرُ دافقٌ غاضٌ معينه
ففي سبيل الله دوحُ باسقٌ جفّت غصونه
بعد ما متّع عيني أضبححت لا تستيئنه

هذه خواطر شعرية أذكرها لا لجودتها الفنية، فهي لم تبلغ شيئاً في هذا المجال، ولكن لتصور عاطفة صادقة نحو أستاذ انتفع بأثاره جيلٌ متشعب في المدارس والمعاهد، وقد كفت الناشئة إلى تتبع آثاره التي استقلّ بتأليفها، وهي آثارٌ تدل على تمكّن قدير، وإخلاص تام للحقيقة العلمية بعيداً عن الضجيج الصاخب.

فقد كان من تواضعه الجسم يكتب في كثير من المجالات الإقليمية التي لا تتجاوز في انتشارها محافظةً واحدة، مع أنّ أمهات الصحف والمجلات كالهلال والأهرام تسابقن إلى نشر مقالاته، وهو تواضعٌ أعرفه لدى نفر من الصفوة، كما أعرف نقيضه لدى نفر آخر لا يحبّون أن يظهروا في غير الأفق العالي، وفيهم من يشترط أن تكون مقالته هي (الافتتاحية) مع أن القارئ الناضج - وهو ميزان الحكم - لا يحفل إلا بجودة الموضوع.

تخرّج سنة ١٩٠٦ في دار العلوم، ولم يلبث بالتدريس الابتدائي غير عام واحد انتقل بعده مبعوثاً إلى إنجلترا، وبعد فترة عيّن مدرساً للغة العربية بجامعة إكسفورد وعاد سنة ١٩١٣، ليزاول أعمال الترجمة بجهاتٍ مختلفة، كان من أهمها الديوان السلطاني، ولوظيفته تلك نال رتبة البكوية، ثم آنس من نفسه ميلاً إلى حقل التعليم، فأجيب رغبته، وصار مفتشاً للغة العربية حتى خاتمة حياته سنة ١٩٤٤، باستثناء فترة يسيرة قام فيها مراقباً لمجمع اللغة العربية، وكان عمله بالوزارة لا يحول دون انتدابه للتدريس بالجامعة ومناقشة رسائل الدكتوراه بها.

أمّا انطلاقه إلى المجتمع الثقافي العام فقد تمّ على أثمر وجوه في الجمعيات الإسلامية، إذ دأب على إلقاء المحاضرات العلمية في جمعيات الهداية الإسلامية ومكّارم الأخلاق والشبان المسلمين، وكانت محاضراته تدور حول القضايا الأخلاقية التي وهبها نشاطه المتّصل، وكأنّه رأى التيار الغزبي يموج بمعارضات

شديدة للمأثور من أخلاق المجتمع الإسلامي، فشاء أن يردّ الجامحين إلى مستقرّ مطمئن.

وكان أكثر توفيقاً من زملائه المحاضرين الذين يشاركونه اتجاهه الإصلاحية، لأنّه درس الأخلاق في مصادرها الأوروبية دراسةً وافية، وعرف من أعلامها البارزين في الغرب من يستهوون الشبيبة بصيتهم المدوّي، فجعلَ يُوازن في محاضراته بين ما يقوله هؤلاء، وما سطره علماء الإسلام موازنة الرزين الهادئ، الذي يقصد نفع السّامعين دون انحيازٍ إلى فريق، لأنّ من اختارهم من رجال السلوك الإنسانيّ في أوروبا كانوا من ذوي الاتزان الأمثل، فأضافوا يقيناً إلى يقين من نعلمهم من أمثال ابن حزم وابن مسكويه والماوردي والغزالي من أئمة الباحثين في مُعضلات السلوك البشري، هذا إلى المدد الزاخر من آيات الكتاب وأحاديث النبوة وأقوال السلف، وكلّها كانت موضع اهتمام المحاضر الكبير.

وكأنّه لم يقنع بجمعياتٍ شهيرة تُرحّب باتجاهه، فأنشأ جمعية سماها «جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية» وجعلها منبراً ذائعاً لنشر ما يريد من الأفكار، وقد أيّده في اتجاهه نفرٌ من شباب الأزهر ودار العلوم، كان في طليعتهم الأستاذ المرحوم حسين سامي بدوي المدرّس بالمعهد الأزهري، حيث رأس تحرير المجلة، وجعل يُقدّم المحاضرات الأسبوعية ويعقّب عليها.

ولأول مرّة انتقلَ الوعظ الخلقيّ في مصر من مجال إلى مجال، حيث كان أكثر الواعظين يتحدّثون عن الجزئيات المشتهرة، إذ يفيضون في محاضراتٍ عن الصبر والإخلاص والأمانة والمساواة والحرية، مستندين إلى مأثور القول من الذكر الحكيم، أمّا الأستاذ محمد جاد المولى فقد اخترع قضايا كلّية تتحدث عن مشكلات الخير والشر والمسؤولية والجزاء، والواجب والحق، والعرف والتقاليد، وكلّ ذلك كان نواةً لموسوعته القيّمة التي أصدرها تحت عنوان (الخلق الكامل) في أربعة أجزاء كبار، وسألُ بحديثها عن قريب.

عُرف الأستاذ جاد المولى بمحاضراته الأخلاقية، التي ملأت نوادي القاهرة، وزاحمت محاضرات قاعة (يُورْت) التذكارية والجمعية الجغرافية الملكية، وأكثر ما يدور بهما دعوة إلى التغريب في مظهره البرّاق، لا في جوهره الهادف إلى الرقي الصناعي، وكان من توفيق الأستاذ أنّه في سجاياه النفسية يُتبع القول بالفعل، فهو

حليمٌ واسع الصدر، منزّه اللسان عن الدس والوقية، محافظٌ على أداء ما يلتزم به، وقد كان لا يعدُّ مدرّساً بالنقل من مكانٍ إلى مكانٍ حتى يتأكّد من تحقيق الوعد، قائلًا: إن الكلمة شرف والتزام.

هذا الهدوء الخلقي السّمح لم يجعل له عدوّاً منافساً في دوائر عمله التعليمي، بل كان موضع الحكم بين المتنازعين، ولم تُعرف له حدّة في النقاش إلّا في موقفين كانا موضع الاستغراب ممّن عرفوا هدوء الرجل ووقاره، أما الموقف الأوّل ففي مناقشة رسالة الدكتوراه التي تقدّم بها الدكتور زكي مبارك للجامعة المصرية القديمة تحت عنوان (الأخلاق عند الغزالي)، وكان في زكي مبارك الشاب حينئذ طموح واعتداد بالنفس، أوحيا إليه أن يشن الحملة على آراء مُعتدلة للإمام الغزالي، وأن يرميه بصفاتٍ أقلّها الجهل، وموضوع الأخلاق هو موضوعُ جاد المولى الذي قرأ عنه عشرات المؤلفات، فهو مكيّنٌ في بابه، كما أن صلته بآراء الغزالي صلةُ المريد المحبّ، إذ كان يعدّه قمّةً عالية من قمم الفكر الإسلامي. وحين شاهد الاعتداء المتطاوّل على آراء حجة الإسلام، بادر بتخطئة الباحث وناقشه مناقشةً استدعت ردوداً متسرّعة من الطالب، ثار من أجلها الجموعُ، وفيهم بعضُ الكبار من أساتذة الأزهر وعلماؤه! وكان يوماً عاصفاً، تحدّث عنه الأستاذ محمد جاد المولى في المقدمة التي كتبها لرسالة التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك فقال^(١):

«ولما اطلعتُ على رسالته التي تقدّم بها لامتحان الدكتوراه في تلك الأيام، وهي (الأخلاق عند الغزالي) رأيت فيها ما صدّق ظنيّ به، رأيته يتهجّم على حجة الإسلام، ويقسو عليه، فلم أجذّ بدأً من أن أتشدّد في حسابه لأعجم عوده، وأسبر غوره، ولكنّ امتحانات الدكتوراه علنيّة يحضرها من يشاء، وكان في الحاضرين يومئذ صاحبُ الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان، وجمهور من أفاضل العلماء بالأزهر الشريف؛ فلما أخذتُ في محاسبة الدكتور زكي مبارك على ما صنع في نقد الغزالي، تكشّفت جوانب آثار فضيلة العالم الجليل اللبان، فتدخّل وتدخّل معه جماعة من جلة العلماء، وكاد الجمهور يموجّ من الغيظ، لولا حكمة رئيس اللجنة يومئذ - وهو حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور منصور فهمي بك - لاضطرب النظام وانفرط عقد الامتحان».

(١) مقدمة كتاب، (التصوف الإسلامي)، ٦/١.

وقد اقترح الأستاذ جاد المولى أن يُنصَّ في محضر الجلسة على أن اللجنة ليست مسؤولة عما في الرسالة من الشطط والجموح، ولكن رئيس اللجنة أقنع الأستاذ بأن من المفهوم أن امتحان الدكتوراه هو محاولة عقلية، يخطئ فيها الطالب ويصيب، وأن الرسالة لن تخرج من النقاش إلا ممحّصة، وبذلك أحدث النقاش والرد هذا الصيال الذي لم يكن من طبيعة الأستاذ. ولكن الحق حق!.

أما الموقف الثاني فهو موقف الأستاذ جاد المولى في مؤتمر المستشرقين المنعقد بأكسفورد في أغسطس ١٩٢٨، حيث سافر ممثلاً لوزارة المعارف، وتقدّم ببحثه عن القرآن الكريم وأثره في اللغة والدين والاجتماع، وقد اختار هذا الموضوع متعمداً ليردّ على باحث تقدّم من قبل في هذا المؤتمر بمحاضرة كانت مصدر شطط كبير، إذ نظرت إلى هذه المسائل نظرة استشراقية، لم تعتمد على الحقائق المدوّنة في كتب التراث، ولم تجد المحاضرة حينئذ من يعصف بأوهامها غير أحد الفضلاء من علماء تونس، وكان عضواً بالمؤتمر، وحين نشرت الصحف خلاصات لما دار حول هذه المحاضرة صمّم الأستاذ جاد المولى أن يكون موضوعه هو موضوع المحاضرة ذاتها ليعصف بكل أوهامها، وقد ألقى بحثه باللغة الإنجليزية في حيدة بالغة، إذ نأى عن عبارات النقد اللاذع، فكان سلوكه الخلقيّ معادلاً لنجاحه المنهجي، ودار تعقيب جادّ حول محاضرة الأستاذ، فتقبّله بصدر رحب، وأجاب بما أكّد صوابه، ورفع قدره.

وما دُمنّا نتحدّث عن منحى الأستاذ الخلقي، فقد أخذ عليه بعض الكتاب، عند تقرّظه للجزء الثاني من كتاب (الخلق الكامل) أنّه كان ينزّه الأستاذ عن أن يذكر ما كتبه الصحف من التقرّظ الخاص بالجزء الأوّل في ملحق بالجزء الثاني، ويرى في ذلك ما يخفّض من وقار المؤلف الكبير، ولست مع الناقد في اتجاهه، لأنّ الموضوع دقيق، فهو يعرض آراء الأخلاقيين من رجال الغرب مقارنةً بآراء علماء الإسلام، وقد يظنّ من يقف على الشاطئ دون فحص دقيق أن المؤلف يتحامل على خصوم مذهبه، وأنّه يتعصّب لوجهة خاصة، فذكر هذه التقرّيزات التي كتبها علماء أثبات مما يعصف بهذا الظن.

وأذكر أن العلامة الكبير السيد محمد رشيد رضا في الطبعة الثالثة لكتابه (الوحي المحمدي) أفرّد خمسين صفحة لذكر ما كتبه الثّقاد خاصّاً بكتابه، وكلّهم مقرّظ

مادح، وقد قال في تعليل ذلك^(١): «إن المراد إعلام القراء من غير المسلمين أنه كتاب قد اتفق على الشهادة له العلماء والأدباء والكتاب من جميع الطبقات بما هو صريح في تفضيله على جميع الكتب في موضوعه». والسيد رشيد بمكانته العالية في العالم الإسلامي ليس بحاجة إلى تنويه، ولكنه هدف إلى غرض صحيح.

-٢-

يلتزم الأستاذ جاد المولى وجه الدقة فيما يكتبه في المجلات الأدبية الذائعة، إذ لا يميل إلى الإسهاب المستطيل في غير جدوى، بل يكتب كتابه العالم المتشد الذي يحاسب نفسه على كل حرف يخطه، ومن هنا كان المقال الواحد بقلمه كافياً لإشباع رغبات علمية لا يقوم بتحقيقها غيره في أكثر من مقال، وأصحاب المجلات يعرفون عنه ذلك، فيعرضون عليه رؤوس الموضوعات الشائكة التي لا يُحاول غيره الخوض فيها، ولكنه يتحدث فيما عُرض عليه حديث الواثق المطمئن، مهما خالف نزعة المجلة التي دَعته إلى بحث الموضوع.

أذكر أن مجلة (الهلال) أصدرت عدداً خاصاً عن التطور في المجتمع المصري خلال مئة عام، وخصته بالحديث عن التطور الخلقي في هذا الأمد، وكان الظن لدى المجلة أن الأستاذ سيمدح ما وصل إليه المجتمع من رُقْي في قرن كامل، مدحاً لا يتخلله الاعتراض، ولكن الكاتب لم يشأ أن يجاري التيار السائد حينئذ، حين ينادي بفصل الأخلاق الاجتماعية عن رقابة الدين كما في المجتمعات الأوروبية، بل رأى أن هذا الفصل هو علة الفوضى الاجتماعية فيما نشاهده من أحداث. وقال في صراحة حميدة^(٢):

«وعندي أن أكبر آية للتطور الخلقي في مصر، هو تطوّر النظرة إلى الأخلاق، وتحول الرأي فيها، فلقد كان أسلافنا القدامى ينظرون إلى الأخلاق على أنها جانب من الدين وبضعة منه، فكانت تحلّ فيهم محلّ الإيمان، وتقعُ موقع العقيدة، فإن صَفَرَت أعمالهم منها، عمرت قلوبهم بها، وإن فاتهم أن يتخلّقوها، لم يفهم أن يطووا جنوبهم لها على احترام وتجلّة، فمهما يعدل عن مكارمهم عادل منهم فهو

(١) الوحي المحمدي، ط٣، ص ٣٦٠.

(٢) مجلة الهلال، سنة ١٩٣٦، ص ٦١٤.

جدّ عليهم أنه باغ، وأن عمله حَاطٌ، إن لم يكن له إلى التوبة مساع، وحقاً لقد تكفل الدين بالخلقيات أيّما تكفل، فإذا الأخلاق قُسم من دستور الدين، وإذا هي داخلّة في أوامره ونواهيه، فكانت الأخلاق بذلك واجبة الاتباع، من أنّها شأن ديني وأمرّ سماويّ تدين له العقول بالتسليم، والقلوب باليقين.

أما في يومنا هذا فالنظرة إلى الأخلاق نظرةً إلى قضايا اجتماعية تخضع لمقتضيات العصر، وتقلّبات الزمن واختلاف الأحوال، وبذلك لانت الأخلاق للجدل والنقاش، وهفت بها الأقلام ذات اليمين وذات الشمال، فمضى الكتاب يؤوّلون الفضيلة، ويختلفون في التأويل، ويتجادون القول في الحياء والعفاف بين الجرح والتعديل، فإذا الأخلاق أشتات آراء، وأضغاث أهواء، وناهيك بما لهذه النظرة من الأثر البالغ في تقدير الأخلاق ووزنها، فقد نصلت عنها صبغة التمجيد التي نفضها عليها اتصالها بالدين وقده.

وفي هذا النطاق تحدّث الكاتب عن تطوّر المرأة من الحجاب إلى التبرّج الشائن، وعدّد بلايا الاختلاط والمجانسة في الحفلات الصاخبة والمسارح المثيرة، وكلها مما يأباه الدين، ولم تكن نظرة الأستاذ إلى ارتباط الأخلاق بقواعد الدين وارتكازها على دعائمه الثابتة بالنظرة العارضة، بل كانت هدفاً من أهدافه التي يسعى إلى تقريرها بأقصى ما يملك من برهان.

وكتاب (الخلق الكامل) بأجزائه الأربعة، لا يترك الحديث عن خلق إنساني دون أن يؤصّله بمقرّرات الشريعة الملزمة، وأدلتها من الكتاب والحديث، فهو في حديثه المقارن عن أثر الدين والقوانين الوضعية في المحيط الاجتماعي لفت النظر إلى أنّ القوانين الوضعية لا تقوم برّدعها الصادع عن الجريمة إلّا إذا علّم المجرم، وقام الشهود بإدانته، وهذا ما يجعل المجرم يفلت في أحيان كثيرة من العقاب حيث لا يوجد الشاهد، أمّا الشرع الإسلامي فيجرّم المتهم، ويعلن مسؤوليته أمام الله إذا استطاع أن ينجو من مساءلة القانون، ويكون ذلك الوعيد السماوي مما يؤرّقه ويضنيه، فيلاقي من قلقه النفسي ما فاته من العذاب الجسمي، وقد افتتح المؤلف الجزء الأول من كتابه منوهاً بعلم الأخلاق ومؤكّداً ارتباطه بالدين حيث قال^(١):

(١) الخلق الكامل: ٨٤/١.

«من تأمل مقاصد الأوامر والنواهي الدينية، وتغلغل في أسرارها، عرف أنها ترمي إلى عرض واحد هو طهارة النفس، وكمالها الإنساني الذي تسعد به في الدنيا والآخرة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣] تجد أن فلاح الإنسان منوطٌ بسلامة عقيدته، وصلاح أعماله، ومكانة أخلاقه».

ثم تحدث عن هدفه من الكتاب قائلاً^(١): «وقد أخذنا أنفسنا بأن نجمع في كتابنا هذا من الآراء الخلقية بين ما ارتضاه فلاسفة الغرب في بحوثهم، وذهب إليه حكماء الشرق في مؤلفاتهم، مستضيئين في ذلك بنبراس من كتاب الله تعالى، ومسترشدين بسنة رسوله ﷺ، وما كان لنا أن نحيد عن ذلك في أحدث كتاب يبحث في فلسفة الخلق، ويصف أقوم الطريق إلى تكوينه وتركيبته، لأن فلاسفة الغرب، وإن كان يرجع إليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل لم يُبينوا مناهجها، ولم يضعوا لها حداً فاصلاً بين ما يُحقق الفضيلة وما لا يحققها، فإنهم لم يذكروا متعلق العقدة، ولا عن أي شيء تكون، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقفه ومقداره، أما الدين الإسلامي فقد بين ذلك غاية البيان وفصله أحسن التفصيل».

ولكي نضرب المثل للقارئ بما يصور اتجاه المؤلف في كتابه التوجيهي السديد، نشير إلى ما ذكره تحت عنوان (الخلق)، فقد بدأ بما عرّف به ابن مسكويه الخلق في كتابه تهذيب الأخلاق، وثنى بما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء، وانتقل إلى ما قاله المحذثون من علماء الفرنجة في إيجاز غير مخل، وتلا ذلك الحديث عن نزعات النفس البشرية أهي إلى الخير أم إلى الشر، فأتى بآراء سقراط، وفلوطين، واليسوعيين، وروسو، وابن مسكويه، وجالينوس وأرسطو، والغزالي، وابن خلدون والإمام علي.

وأخذ على المؤلف الفاضل عدم الترتيب في ذكر هذه الآراء، إذ كان عليه أن يفصل بين من قالوا بالنزعة إلى الشر فيجعلهم في فصل خاص، ومن قالوا بالنزعة إلى الخير فيجعلهم في فصل آخر، كما كان عليه أن يُراعي الترتيب الزمني في سرد أقوال هؤلاء، فلا يقدم فلوطين على أرسطو، ولا ابن خلدون على الإمام علي،

(١) الخلق الكامل: ٦/١.

وهو مع ذلك قد شفع الباب بخلاصة آراء المتقدمين من علماء الإسلام خاصة -
كابن مسكويه والغزالي وابن خلدون - مؤيدة بنصوص قرآنية شافية .

وقد نقل رأي الإمام محمد عبده القائل في بسط مفيد : « إنَّ الإنسان لا يحتاج إلى تكلف في فعل الخير » . وهو قول يحتاج إلى تعقيب ، لأنَّ الإنسان الذي لا يحتاج إلى تكلف في فعل الخير هو المطبوع على الفضيلة لأمر حاق به تتعلق بوراثته وبيئته واطلاعه وتهذيبه ، وقليل ما نجد هذا الطراز من الناس ، أمَّا الأكثرية فتتكلف الخير ويقوم بينها وبين النزوع إليه صراع متأزَّم حتى تنتهي إليه أو إلى ضده ، لذلك قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٥] فإذا كانت منزلة الخير لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من الذين صبروا ، فهل كل الناس كذلك ؟ أو هل الكثير منهم كذلك ؟ لا بالتأكيد .

إنَّ كتاب (الخلق الكامل) بأجزائه الأربعة الكبار موسوعة رائعة ، قال الأستاذ محمد كرد علي عنها^(١) : « إنها قد استوفت شروط التأليف الجيد ، وإنَّ الكاتب قد تمكَّن من موضوعه تمكناً تاماً جعله ذا بسط وإشباع » . وهذا حق لا شك فيه ، ولكني رأيت في أجزاء الكتاب ما يكاد يعصف بوحدته العضوية الملتزمة ، لأنَّه يكرِّر بعض الفصول في مختلف الأجزاء ، دون أن يجمع الموضوع الواحد في حديث واحد ، ولا أجد تعليلاً لذلك غير أن المؤلف بعد أن يُصدر الجزء الأول مثلاً يجد أثناء الدراسة الخاصة بالأجزاء التالية ما يستحقُّ أن يُضاف إلى ما كتبه من قبل ، فيُسارع بتسجيله ، وهذا غير الأولى في منهج التأليف ، إذ كان عليه قبل أن يبدأ في الكتابة أن يستوعب كلَّ ما قيل في موضوعه ، ثم يرتب الفهرس العام ترتيباً دقيقاً لا يسمح بتكرار موضوع قيل من قبل .

نعم إنَّ المكرَّر قد جاء بزيادة علمية ليست فيما سبق ، ولكن البحث المتدَّ يُلزم صاحبه أن يضع كل عنصر في حيِّزه الخاص ، وأقول تبريراً للمؤلف : إنه في مبدأ أمره كما أظنَّ كان لا يعلم أن الكتاب سيأخذ هذا الحجم الفسيح ، بل كتب الجزء الأوَّل على أنَّه كاف مستوعب ، ثم عنَّ له أن يضيف ما اهتدى إليه بعد البحث ،

(١) مجلَّة الرسالة ، السنة الثالثة ، ١٩٣٥ م .

فتوالت الأبواب وحَدَّث التكرار، و يقيني أنَّ الرجل الكبير لو تنفَّسَ به العمر،
وأشرفَ على الطبعة الثانية لموسوعته لقامَ بما يلزم من التعديل، ولكنَّ الطبعة الثانية
ظهرت في بيروت بعد رحيله من ثلاثين عاماً، والناشرون هم الناشرون.

وليس الأستاذ وحده هو الذي اختصَّ بما نلحظه من التكرار، فغيره من كبار
الباحثين يجنح إلى ما جنح إليه، وهو غير الأولى دون نزاع.

وقد أراد المؤلف بعد أن شرح أصول الأخلاق الفاضلة ومزاياها العلمية، وعظيم
جدواها في الحياة أن يتجاوز النظريات العلمية إلى التطبيق الواقعي، فاختار إنساناً
اكتملت فيه الفضائل الإنسانية ليكون نموذجاً بشرياً حياً للإنسان، لأنَّ الكلام النظري
بقواعده وتعاريفه ومحترزاته لا يبلغ من النفس مبلغ تأثرها بكائن حيٍّ يعيشُ كما
يعيش الناس، ويُعاني ما يعانون، ثم ترتفع به فضائله عن الرذائل الخسيسة، فتجسَّم
الفضائل تجسماً لا شك فيه.

أراد المؤلف أن يختار هذا النموذج الحيّ، وقد تصفَّح ما استطاع تصفَّحه من
سير الأقدمين والمحدثين، فكان رسولُ الله ﷺ المثل الكامل الذي يعنيه، ولم يدفعه
إلى هذا الاختيار إيمانٌ تسليميٌّ سابق دُون برهنة وتعليل، ولكنه درس حياة الرسول
في جميع أطوار تقلُّباته، ورأى من مواقفه المثالية ما جعله يؤمن بارتقائه السَّامق،
ومن السهل أن نقول: إن محمداً ﷺ هو المثل الكامل، ولكن ليس من السهل أن
نُفرد كتاباً ممتازاً يتحدث عن هذا المثل العظيم حديث من يلمحُ السجايا الحميدة،
والصفات النبيلة فيحلِّلها تحليل الدارس البصير، وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه:

«لقد طالعتُ ما أدَّى إليه البحث من المثل الكاملة التي صوّرتها البشرية جيلاً بعد
جيل، فألفيتها مظهراً لبيئة الحكماء الذين تمثّلوها، وأنها على الدوام في تدرُّج
وتحوّل وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان، وتحقيقاً للأماني التي تجولُ في صدور بني
الإنسان، وأنَّ أحداً منهم لا يصلح لذلك أن يكون هداية عامّة لبني الإنسان جميعهم
على اختلافِ زمانهم ومكانهم، ولَمَّا كانت سيرة محمد ﷺ من مولده إلى مماته ثابتة
ثبوتاً لا مرية فيه، فجميعُ أعماله مدوّنة، وحياته ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة
بإنهاض بني الإنسان، من تثقيف عقولهم، وتقويم أخلاقهم وإصلاح شؤونهم
.. كان هو المثل الكامل».

والمؤلف لم يبالغ في شيء، فنحن نعرف أن كاتباً أمريكياً كبيراً اختار مئة من

عظماء العالم ساعدوا على ارتقاء البشرية، فكان محمد ﷺ أول هؤلاء، وتلاه صف من العظماء ومن بينهم بعض الأنبياء، ولم يقل أحد: إن الكاتب الأمريكي المسيحي قد حابى محمداً وجسم فضائله، حتى نقول ذلك حين نجد الأستاذ جاد المولى يعدّ رسول الله المثل الكامل للإنسانية عن حق لا مرية فيه، لذلك جاء كتابه سيرة نبوية من ناحية، وبحثاً خلقياً من ناحية ثانية، فهو سيرة للرسول لا كالسير التي تراعي تاريخ الحياة طفولة وصبا وشباباً وكهولة، بل سيرة باعتبار ما تضمنت من المواقف الإنسانية الرائعة التي ساقها المؤلف في سبط مؤلف، لتتطرق بمزاياها الفريدة داعية أبناء الإنسانية إلى احتذائها إن أرادوا سبيل الفلاح، وهو بحث خلقي، لأن تجسيد الفضائل النبوية التي تبرز صور الجهاد والصبر والتسامح والعفو والمحبة وإغاثة للهِيف والتماس الأعذار، والأخذ بالتي هي أحسن، وما لا أستطيع إحصاءه من باهر هذه الصفات.

هذا التجسيد الحيّ الشاخص بمواقفه البطولية النادرة درس خلقي رائع التوجيه، وبحث تربوي يشرّب بنفس قارئه إلى مطارح الرجولة النادرة، والمروءة الشماء، ومن مزايا هذا الكتاب أنه لا يغفل التعليق الموجّه، فحين يتغلب الرسول على شدة قاساها ومحنة كابدها، ثم ينتصر في النهاية عليها، لا يدع المؤلف مكان العبرة في ذلك فيقول^(١):

«إن الأخلاق إذا تعاونت الشدائد والأهوال سبكتها، وأخرجت منها خلقاً قوياً ثابتاً، وكان مثلها مثل الذهب المصقّى، فالشدائد تظهر ما هو كامن في الإنسان، فإما أن تجعل منه خلقاً عظيماً يظل مدى الدهر نبزاً يستضاء به، وإما أن تقضي عليه فتجعله أثراً بعد عين، من أجل ذلك وجب على من يطمحون إلى الظفر وبلوغ المقاصد العظيمة أن يعدّوا أنفسهم لركوب متن الأهوال، واحتمال الشدائد، ويتخذوا من هذا النبي أسوة في ثباته وسائر أخلاقه».

ولا يؤخذ على الكتاب غير ما تحدّث به عن القرآن^(٢)، وما جاء به من الحُجج الدامغة والتعاليم الرائعة، وما سننه الإسلام من الشرائع العالية، فكل ذلك بمنأى

(١) المثل الكامل: ص ٤٦.

(٢) السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين، للدكتور محمد رجب البيومي: ص ٧٦.

عن شخصية المثل الكامل، إذ هو متّصل بمن أرسل محمداً لإنقاذ البشرية، فمكانه الأصيل في كتاب يتحدّث عن تعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن، وأوضحها نبي الإسلام، لا في كتاب يتحدّث عن سجايا رسول الله!.

على أنّ المعيار الخلقي لدى المؤلف كان موضع الترجيح في تحليل من يتناول من شخصيات التاريخ، إذ يرى أنّ الخلق إذا رسخ وقامت شواهدة يمنع أن يُوصم بما لا يتلاءم مع منحاه، فقد كتّب مؤلفاً قيماً تحت عنوان (إنصاف عثمان بن عفان).

ولم تكن أقوال المؤرّخين المتعارضة هي وحدها مجال النظر لديه، بل نظر إلى الخلق الراسخ في طبيعة عثمان على مدى سبعين عاماً، قبل أن يكون أمير المؤمنين، فهو في هذا المدى المتطاوّل كان سمحاً مُنصفاً جواداً حياً مؤثراً على نفسه، وكان بصفاته الباهرة أحد المبشرين بالجنة، وأحد الذين اصطفاهم رسول الله لنسبه، إذ تزوّج كريمته عن تقدير نبويّ، وقال له رسول الله ﷺ: «لو كان لدينا ثلاثة لأعطيناها». كما جاء بأكثر ما يملك في ساعة العسرة، وصاحب هذه الطباع النبيلة لا ينقلب بعد هذا الزمن المتطاوّل ذاتياً، يؤثر قوماً على قوم دون وجهة معقولة، وإنّما كان خلطاؤه الأقربون هم الذين زيقوا له بعض الحقائق، فصدّقهم لحسن ظنه، أما هو فالمعدن الخلقي لديه في رأي الأستاذ جاء المولى جديراً أن يعصمه في مختتم حياته كما عصمه من قبل.

والمؤلف بهذه النظرة يقدّم آراء يجب أن تكون موضع النقاش لدى من لا يكتفون بالظواهر العارضة بل يلجّون إلى الأعماق مستبطين.

لقد كان محمد أحمد جاد المولى صاحب خلق قبل أن يكون باحثاً في علم الأخلاق، وبذلك وصل إلى سلام نفسيّ عزّ على الكثيرين.



الإمام الأكبر محمد الأحمدى الظواهري

- ١ -

نعرف أن ثورةً أزهريةً قامت في وجه شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهري، أدت إلى استقالته، وقد أصبح قادة الثورة من الطلاب ذوي مناصب عالية فيما بعد، ومنهم من وصل إلى الوزارة، فأخذوا يتحدثون عن جهادهم الثوري بما يُبرز زعامتهم الغالبة، وهم في حديثهم لا يُنصفون الحق قدر ما يُجملون مواقفهم، ومن هؤلاء الأستاذ أحمد حسن الباقوري، حيث بالغ في نقد الأستاذ الظواهري مبالغةً دفعت أحد أبناء الشيخ إلى الرد عليه في مجلة المصور.

وكنْتُ أقرأ ما كتبه الأستاذ الباقوري وشيئته فأحسُّ مبالغة واضحة، ولكني أتمهل فلا أكتب رأيي حتى تجتمع بين يديّ خيوط البحث المنصف، ثم أُتيح لي أن أقرأ ما قاله الأستاذ الكبير محمد متولي الشعراوي عن هذه الثورة، وكان أحد الطلاب المناهضين لشيخ الأزهر، فوجدته يقول^(١):

«هذه الحركة -والحق يُقال- قد خُدِّعنا فيها، قالوا لنا: إن الشيخ الظواهري يعمل على توظيف العالم الذي تخرَّج في الأزهر بعد سبع عشرة سنة بثلاثة جنيهاً، وكان هذا مرتب المدرس الإلزامي، فكيف يحدث ذلك؟ وقمنا وتظاهرنّا مطالبين بإعادة الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر، وكان ذلك ضدَّ الإرادة الملكية، وكان معهد الزقازيق الثانوي الأزهرى أول المعاهد الذي خرج طلابه يتظاهرون ويحتجون، ويطالبون بإبعاد الشيخ الظواهري عن الأزهر، ثم تبَيَّنَ لنا الحقيقة بعد ذلك، وهي أنَّ الميزانية التي كانت مرصودة لتوظيف الخريجين الجدد في هذه السنة

(١) الشعراوي الذي لا نعرفه (كتاب اليوم) أحاديث الشعراوي مع (سعيد أبو العينين) ص ٣٦.

ليست كافية لتوظيفهم جميعاً بالمرتّب المعتاد، فأراد أن يُتيحَ لهم جميعاً فرص العمل بمكافأةٍ شهرية قدرها ثلاثة جنيهاً لكل واحد منهم حتى لا يتعطل أحد، وذلك لحين توفير الميزانية الكافية لتعديل الرواتب، وهذا ما حدث فعلاً بعد ذلك، وقد استجابت الدولة، وتم تعديل الرواتب».

هذا ما قاله الشيخ الشعراوي، وقد دَفَعني قوله: «إننا خُدعنا في ثورتنا على الشيخ» إلى أن أبحث الأمر ببعض التؤدة، ولستُ في ذلك أسعى لتبرير أيّ خطأ تسرّع فيه الشيخ، فهو بشرٌ يخطئ ويصيب، ولكنّي أحاول أن أتبيّن موقفه على حقيقته، ولا يغضّ هذا من مكانة منافسه الإمام المراغي، فكلاهما ذو فضل بارز، ولن يضيق فاضلٌ من أئمة الأزهر بفضل أخيه، وكما قيل: «يكره الفضل أن تضيق الصدور».

نشأ الأحمدي في بيئة علمية صوفية، إذ كان والده شيخاً للجامع الأحمدي بطنطا، وله شعبية كبيرة بين العلماء والعامّة معاً، وكان يميلُ إلى التصوف متخذاً إياه سبيل المعرفة الحقيقية للعلم، فتأثّر ولَدُهُ به في اتّجاهه الصوفي، ولكنه في منحاه العلمي سلكَ سبيلَ تلاميذ الإمام محمد عبده، فكان يُواظب على دروسه، ويُعنى باللباب من مسائل العلم، ولأمرٍ ما كان الإمامُ يعيب على شيوخ الأزهر بُعدهم عن الاطلاع العصري المستوعب، ويدعو تلاميذه إلى قراءة كتبٍ حديثة تُضاف إلى الكتب المتداولة، فأصاخ الطالب لهذه الدعوة، وجمع بين الحديث والقديم في استيعابه.

وشاءت الظروف أن يكون امتحانه في العالمية أمام لجنة يرأسها الإمام، فتخوّف الطالبُ حذراً أن يخسبه الأستاذ الإمام متأثراً بالشيوخ المعارضين لحركة الإصلاح، وأبوه في مقدّماتهم.

وقد تحدّث عن مشاعره الوجلة في مذكراته التي طُبعت تحت عنوان (السياسة والأزهر)، فقال إنه تهيّب الموقف قبل أن يلج حُجرة الامتحان، وكان من عادة الطلاب أن يبدؤوا بتقيل أيدي الأساتذة قبل الجلوس، فما كاد يلمس يد الأستاذ الإمام حتى نزعها منه مكتفياً بلمس أصابعه، ثم فاجأه بأن قال له: سمّاك والدك الأحمدي نسبةً لأحمد البدوي، وسنرى ما سيكون شأنُ هذا الرجل معك!.

قال الشيخ^(١): «كان لهذه العبارة مصحوبةً بخطف يده مني أثناء محاولة تقبيلها أثرٌ سيئٌ في نفسي، فانقبض صدري، واسودَّت الدنيا في عيني، ولمّا طُلب مني أن أبتدئ الكلام تأخّرتُ برهة، ثم تماسكتُ وأجبتُ بطريقةٍ غير طريقةٍ زملائي، إذ عمدتُ إلى جوهر الموضوع دون تعلُّقٍ بالحواشي الزائدة، وأيقنتُ أنني حزتُ قبول الإمام، ولكن لم يظهر على وجهه ما يدلّ على سروره، فشقّ ذلك على نفسي، وصمّمتُ أن أنتزعَ منه الإعجاب، فخطر لي أن أعاود الكلام مرّةً أخرى في الموضوع نفسه، فعندئذٍ قال الشيخ: لماذا تريد استئناف الكلام، لقد تكلمتُ كلاماً طيباً جيّداً، وعالجتُ البحث علاجاً رائعاً، والأحسنُ أن تنتقل إلى موضوع آخر؛ فكانتُ عبارة الإمام هذه كأنّها البلمس الشافي، فاندفعتُ أجيب بالطريقة التي اخترتها، فقال الشيخ: إنّ ترتيب بحوثك وطريقة العرض مما يُعجب ويروق، وسأخذُ معك في ترتيب الأبحاث طريقاً جديداً.

وأخذ يقلّب أوضاع المسائل، ويخرج من علم إلى علم، حتى طال النقاش بضع ساعات على غير المألوف، وحتّى أزهقتُ إرهاقاً جسمانياً وعقليّاً، فطلبتُ في نفسي شربة ماء، ولكنني سكّتُ مهابةً للشيخ، ثم غلبني الظمأ، فطلبتُ من الشيخ أن يأمر لي بشربة ماء، فقال الشيخ: أنت تستحق (شربات) لآ ماء، فقد أحسنتَ كل الإحسان، وأرسل في طلب كُوبٍ كبير من (الخرنوب) لأشرب مع أعضاء اللجنة على حسابه، ثم قال: لقد فتح الله عليك يا أحمدي، والله إنك أعلم من أبيك، ولو كان عندي فوق الدرجة الأولى لأعطيتك إياها، فكانتُ عبارته هذه حديث الناس في الأزهر، وأصبحتُ من أسباب سعادتي».

هذا ما كان من أمر الأحمدي مع الإمام محمد عبده في امتحان العالمية، وفيه دليلٌ على نبوغ الطالب وحسن استعداده، وفي رضا الإمام عن طريقته في الإجابة، وبعده عن طريقة زملائه التقليدية ما يدلّ على سعة أفق، باعثها القراءة الممتدة خارج المحيط الأزهر، وقد عيّن الطالب مدرّساً بالقسم العالي بالمعهد الأحمدي لفوره، وهو تعيينٌ مستغرب، إذ تقضي العادة أن يدرّس المعلّم الناشئ في القسم الابتدائي، ليقرأ الدروس الأولى في العلوم مع طلابه المبتدئين، أمّا أن يدرّس في

(١) السياسة والأزهر (مذكرات الشيخ الظواهري)، مطبعة الاعتماد.

القسم العالي فيقرأ كُتب المنطق والأصول والتوحيد، مما قد يهاؤه الراسخون من ذوي الأسنان، وأما أن يوفَّق في التدريس ويظفر بتقدير المستمعين فهذا ما يدلّ على تفوّق ملحوظ.

كان من أعجب ما فُوجئ به الجمهور من آثار العالم الشاب محمد الأحمدى الظواهري أنه ألّف كتاب (العلم والعلماء ونظام التعليم) في الرابعة والعشرين من عمره عَقِبَ تخرّجه، وهو كتابٌ لا يفقد بريقه الأخاذ مهما تطاول عليه الزمن، لأنّه صرخة عالية في وجه الجمود التعليمي بالأزهر، ولو كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده في مكانته الرفيعة بالعالم الإسلامي ما عُدَّ غريباً عنه أسلوباً وتفكيراً واتجهاً ورسماً لخطوات الإصلاح.

وقراءة الكتاب تدلّ على أنّ الشاب الناشئ قد أحاط بأدواء العالم الإسلامي بعمامة ومصر بخاصة، إحاطة المتألّم المتأوّه الذي يرى خطوات الانحدار السريع تهوي بالتعليم الديني إلى الهاوية، وأهله في الأزهر راضون عن انحداره، واقفون بالمرصاد لكل من يحاول أن يسير في طريق الأستاذ الإمام طالباً للإصلاح.

وأظرف ما في الموضوع أنّ كتاب (العلم والعلماء) يُعارض معارضة تامة اتجاه والد الأحمدى، وهو الشيخ إبراهيم الظواهري شيخ علماء المعهد الأحمدى، إذ كان في طليعة من يتمسّكون بالقديم المتوارث من نفايات الكتُب الخالية من الابتكار، فكانت شجاعة الابن أنّه نَشَرَ عن بيئته الخاصة والبيئة العامة معاً، في صلابة لا تعرف التراجع، نَشَرَ عن هذه البيئة وهو يعلم أنّ الخديوي يقف بالمرصاد لكلّ داعية للإصلاح على مذهب الإمام! وأقول: على مذهب الإمام، لأنّ الأفكار التي جاء بها الأحمدى قد توافقت في أكثرها مع اتجاه الإمام، ولم تمنعه خصومة معشره للإمام أن يجهر في الكتاب بتأييده حيث يقول^(١):

«هاهو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده واحدٌ منا، انظر لماذا علّا دُون أمثاله؟ ولماذا وصّل إلى أن صارَ صاحب الرأي الأعلى في سائر الشؤن الأزهرية، وصاحب الاحترام والمكانة والكلمة المسموعة عند أكثر أهل الطبقة العالية، حتى أمكنه أن يسود أكثر الذين يُبغضونه من العلماء.

(١) العلم والعلماء، ط ٢ سنة ١٩٥٥، ص ٢٧.

لقد كان في أول قدومه للأزهر كآحاد الطلاب، أشيُّ جاء بالصدفة، أم أن هذا نتيجة العمل والاجتهاد؟ لا ريب أن هذا كان نتيجة التفوذ المكتسب من قوة العقل، وحسن البيان وإتقان العمل، فجعل ذلك له مكانة عند الطبقة العليا، وتلك المكانة أكسبته نفوذاً آخر وجعلت تأثيره أقوى، وقد تمكّن بهذا وذاك من أن يرأس العلماء، وأن تكون له كلمة التصرف، حتى على شيوخه ومن يغضونه، وأن ينشر مبادئه ويدعو الناس إليها، ويلبّي دعوته كثير من الناس، وهو لو دعا إليها في بدء نشأته ما اجتمع إليه أكثر المجتمعين حوله الآن .

وإذن فما هذه الغلبة الهائلة، والصولة العظمى والتأثير الكبير؟ حتى كاد الناس يحترمونه أكثر من شيخ الأزهر نفسه، وهم يعتقدون أنه الأمر الناهي، وأن كل شيء صادر عنه ومنسوب إليه، لا شك أن هذا كله إنما جاء بقوة نفوذه وتأثيره، وهكذا تكون الرجال .

هذا الإعجاب المُفرط، يدلّ على أن العالم الشاب قد درس حياة الإمام، ووقف على مؤلفاته ومنهجه الإصلاحية، حتى صار ذا قدرة على تأليف منهج للعلم والعلماء في سنّ مبكرة! هذا المنهج هو ما خطّه في كتابه المشار إليه، وقد بدأه بمقدمة جامعة تتساءل عن سبب قصور الأمة الإسلامية وشقائها، راداً ذلك إلى قصور التعاليم الإسلامية عن النهوض بها، لأنّ التعاليم الإسلامية عاجزة عن النهوض، بل لأنها لم تُدرَس على وجهها الصحيح، وأول أسباب القصور قصور العلماء أنفسهم عن درجة التوجيه الصالح، لأنّ العالم لا يكون عالماً إلّا إذا كان كاملاً في علمه، كاملاً في إرشاده، كاملاً في أخلاقه، كاملاً في تعبده، كاملاً في ملكاته ووجدانه، كاملاً في نفوذه وتأثيره، كاملاً في التنوير العام؛ وهي فصول تتابعت عناصرها في الكتاب .

والكمال في العلم هو ما اتّسع له فراغ كبير من الكتاب، إذ تحدث المؤلف عن علم المباحكات اللفظية، وعلم المسائل الفكرية بإفاضة وإسهاب، ويندرج في هذا السياق كمال التعليم، لأنه ثمرة العلم الحقيقي؛، أما الكمال في الإرشاد فهو الصيحة العالية التي صرخ الأحمدي بها مُنبهاً إلى أنّ الإرشاد الديني لعهد لا يعرفه الأزهر أصلاً، فكان من ذلك ضعف الشعور الديني، وانتهاك حرمة الشرع، حتى فيما يرجع إلى مصالح الحياة الدنيا، بل كان من نتائج ذلك ضياع حرمة العلماء

وانكماش أمر الدين، حتى كاد يعدُّ من الأحوال الشخصية، أو الأمور الاستحسانية التي تختلف باختلاف المشارب والأذواق.

أما الكمالُ الأخلاقي فقد تحدّث عنه العالم الشاب بما يجبُ أن نسمعه الآن، لأنَّ القدوة الخلقية في المحيط الإسلامي تكاد تكون مفقودةً، والعالم أحوج إلى الكمال الخلفي منه إلى الكمال العلمي، إذ لا فائدة من الثاني مع فقد الأول، وليس أقبح من أن ينال العالم أرقى شهادات الأزهر بصفحات من العلوم يحفظها، وهو خواء من الكمال الخلفي، بعيدٌ عن النهج الإسلامي، لذلك دعا الأحمدى إلى دراية وافية للأخلاق الإسلامية في دروس مستقلة! وهذا ما ندعو إليه الآن في المعاهد الدينية والمدارس المدنية، لأنَّ الأخلاق الإسلامية في هذه وتلك تُدرس عرضاً عند تفسير بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكأنّها ليست مقصودة لذاتها.

ومن الواجب أن تكونَ دراسة الأخلاق مادةً مستقلة يقوم بها نفرٌ من ذوي الأخلاق، وأن تكون مستندة إلى النصّ الصريح من كتاب الله وحديث الرسول وعمل السلف الصالح، وأن يقوم بهذا التدريس من تشهد لهم إدارة عملهم بحسن السيرة، واستقامة السلوك، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه، أما الكمال في العبادة، والكمال في الملكات والوجدان، والكمال في النفوذ والتأثير، فما أبدع ما كتبه الأستاذ في ذلك، ونحن في حاجةٍ إلى إعادة طبع ما سطره في هذا النطاق، لأنَّ الحاجة ضرورية الآن إلى احتذائه بعد أن تعاونت وسائل الإعلام المختلفة على إضعاف صوت الدين، وعملت على فقد تأثيره لحاجة في نفس يعقوب.

وما كتبه الشاب عن الكمال في تعمير القلب بالنور الإلهي، والقرب من حضرة الحق، ترّف كمالي لا يشربُ إليه في رأيي غير الخاصة من ذوي النفوس الراقية، ومثاليته الرفيعة لا تمنعُ المناداة به والدعوة إلى مقاربتة! وأما ما جاء عن حالة العلماء في عصر الرجل فلا يبعد كثيراً عن حالتهم الآن، ولم تصلح أمورهم عن ذي قبل إلا في التقدّم الماديّ الخاص بالرواتب والدرجات المالية، وبقي التقدّم الفكري، والسبقُ الإصلاحي، والنتاج الفكري المستقلّ المُنبئ عن الشخصية الواعية! بقي ذلك لنعمل على تحقيقه على قدر المستطاع.

فإذا انتقلنا إلى نقد العلوم التي تُدرس بالأزهر، فإننا نجدُ صدق النظرة في تشريح هذه الدروس، وقد راعنا أن نلمس القصور الشائن فيما حكاها الشاب الناشئ

عن حالة هذه المقرّرات، فدُرّوس التفسير ودروس الحديث لا تُؤدّي ثمرتها، إذ أنّ النصّ وهو الأصل الذي يدور حوله التحليل لا يهتمّ بفهم مضمونه قدر ما يهتمّ بتخريجات نحويّة وبلاغيّة تُلقِي ستاراً كثيفاً على تفهّم المعنى المراد، وعلم التوحيد بانتمائه إلى قضايا بائدة لا تلمسُ معضلات العصر، لا يُفيد طالب الهداية في تثبيت عقيدته.

والذين يؤرّخون لتطوّر البلاغة المعاصرة عليهم أن يلتفتوا إلى توجيه الأحمدي الجديد في تدريس هذه المادة، وأقول: الجديد؛ لأنني لم أر من قبله من جمع بين دراسة التصوّف والبلاغة في مفهوم نقديّ رائع، فالمتصوّف لا يُدرك معاني الوجدان الصوفي بالمصطلحات العلمية، إذ لا بدّ من ذوق صوفي يرتفع به إلى استشفاف حقائق الوجود ليصلَ منها إلى خالق الوجود، والبلاغي لا بدّ له من ذوق أدبي ينفذ به إلى إدراك أسرار البيان الأدبي، ولن تنفع اصطلاحات المقررات البلاغية في فهم النص الأدبي دون هذا الذوق، يقول الأستاذ الناقد^(١):

«إنّ مبنَى هذين العلمين (التصوّف والبلاغة) ليسَ على التعقّل والتصور أو التصديق، بل المعوّل عليه فيهما ذلك النوع من الإدراك المسمّى بالوجدان أو الشعور الباطني الذي لا يحصلُ إلّا بالتحقّق بتلك المعاني، فهما في ذلك كالْعَسَل لا يُدرك طعمه إلّا بمذاقه، والبلاغة الوصفية لا تُجدي شيئاً دون العملية، إذ ليست هي من العلوم التي يحصل الكمال بمعرفتها فقط، بل هي من العلوم الصناعية، وغايتها هي الملكة التي تنشأ عنها هذه الآثار، وما لم توجد الملكة فلا بلاغة».

هكذا سار الأحمدي في تتبّع كل العلوم، ونظراته نقدية ذاتية لم يزجج فيها إلى باحث سابق، ومن المضحك أن تُجمع نسخُ الكتاب وتُحرق بعد طبعه، لأنّ ولي الأمر لم يرضَ عنه حينئذ، ولأنّ شيوخ الحواشي قد ضجّوا من تأثيره!! وإني أدعو باحثي اليوم إلى دراسة هذا الكتاب ليأخذَ وضعه الطبيعي في حركة الإصلاح العلمي، إذ مكانه من هذه الحركة مكانُ الأسس الثابتة في باطن الأرض من الجدران الناهضة فوقها.

ولو خُلس الأحمدي من الأعمال الإدارية في حياته وتفرّغ لمثل هذه البحوث،

(١) العلم والعلماء: ص ١١١.

لكانَ من أعلام التّزويين في هذا العصر، ولكن المناصب ذات أعباء ثقّال، وقد حالت بينه وبين هذا النّبع الرائق من الفكر المستقل الحيّ، وعزاؤنا أن بقيَ هذا الكتاب الرائع من ألمع آثاره الجياد.

- ٢ -

من شأن كلّ ذي منهج إصلاحيّ أن يبادر بتنفيذه متى أمكنته الفرصة، وقد أتيح للشّيخ الأحمدى أن يكون شيخاً لمعهد طنطا بأقسامه الابتدائية والثّانوية والعالية، فبادر إلى تقديم مقترحات لمجلس الأزهر العالى تُحقّق بعض ما يُريد، فلم يجد غير المعارضة، ولكنه لم ينكل عن غايته، فعمل في دائرة اختصاصه على إنشاء جماعات علمية بالمعهد، فمنها جمعية علم التوحيد، ومهمّتها دراسة الشُّبه العصرية الخاصّة بالعقيدة والرّد عليها، وجمعية الوعظ الخطابي، ومهمّتها تمرينُ الطلاب على الوعظ المركز الذي يمسّ مشكلات الجمهور، ويكون الموضوع في محاضراته مُحدّداً لا ينتقل إلى موضوع آخر، كما كان سائداً في ذلك الوقت، ومنها إنشاء مكتبة للجامع الأحمدى، تشمل جميع المخطوطات التي استطاع جمعها من المساجد وبيوت الكبراء، مع إنشاء نادٍ علميّ يقضي فيه الطّلاب أوقات فراغهم، ويكون موضعاً للمحاضرات الأسبوعية، التي يقوم بإلقائها المتخصّصون في شتى العلوم!

هذه الإنشاءات الباهرة في معهدٍ تقليديّ كانت مجال الدهشة لدى القائمين على الأزهر بمجلسه في القاهرة، وقد رأى المجلس حينئذٍ أن يقصّ من أجنحة المعهد الأحمدى، فشاء أن يحذف القسم العالى منه، كما يحذف القسم العالى من معهد الإسكندرية، لتكون الدراسة العالية بالقاهرة وحدها.

وقد أدرك الأحمدى عواقب هذا الحذف، فعمل على مقاومته، وأعدّ مذكرة ضافية نشرتها مجلة الأزهر أخيراً في عدي ربيع الأول وربع الثّاني من ١٤١١ هـ، بعد أكثر من خمس وستين عاماً، وفيها أوضح أن إلغاء القسم العالى بالأقاليم مفسّدة لا مصلحة، إذ يعوق التحاق العاجزين عن السُّكنى بالقاهرة، فينقطعون عن العلم، كما يقضي على التنافس بين الأقسام المتماثلة فينقطع الحافز على الاجتهاد، وإذا احتاج قسماً طنطا والإسكندرية إلى رعاية علمية فلنكمل هذه الرعاية بمدهما بأسبابها المنشودة، لا بمخو القسمين دون مبرّر.

كما أن جداول الامتحان في السنوات الثلاثة الأخيرة تَبَتُّ تقدّم القسمين على القسم القاهري في النسبة المئوية بأكثر من عشرين في المئة، ولذلك دلالة الواضحة، والبلاد مع ذلك كلّه مقبلة على نهضة علمية كبيرة، إذ ظهرت الجامعة المصرية والمدارس العليا المتعددة، فكيف يُقَصُّ جناح الأزهر وحده! . . .

ومذكرة الأستاذ مستفيضة شافية، وكان فيها الإقناع كل الإقناع لو سارت الأمور على وجهها الصحيح، ولكن أعداء الاتساع الإقليمي قد تمكّنوا من تحقيق مآربهم، وها قد مرّت الأيام، ورأينا كليّات الأزهر الدينية العليا تغمُر الأقاليم، في الإسكندرية والقاهرة وطنطا والمنصورة، والزقازيق وشين الكوم وأسيوط وقنا، وجرجا وأسوان ودمياط، مما يثبت بُعد نظر الأحمدى وسلامة منحاها.

وبهذا العمل الدائب تعرّض الرجل لخصومات ووشايات، باعدت بينه وبين ولاية الأمور حيناً من الزمن، ثم انجلى الغيم عن براءته وإخلاصه، فأصبح عضواً بارزاً في المؤتمرات السياسية ذات الطابع الديني، كالمؤتمر الخاص بالخلافة الإسلامية المنعقد بالقاهرة سنة ١٩٢٦، والمؤتمر الخاص بمستقبل الأماكن المقدسة في السعودية، حين خشيت بعض الدول من سيطرة مذهب خاص، فعمل الأحمدى على جمع الكلمة، وكسب لمصر وزناً ثقيلاً في ترجيح كفة الاعتدال.

وهذا ما جعل الملك فؤاد يخصّه باهتمام خاص، وقد رشّحه لمشيخة الأزهر قبل أن يتولاها الإمام المراغي في الفترة الأولى، ولكن سياسة أقوى من جهده قد حالت دون ذلك، فقام الإمام المراغي بأعباء المشيخة، والملك غير راضٍ عنه، حتى حانت فرصته لاستقالته، فأسند المشيخة إلى الإمام الطواهري، وهنا تلاحقت الأحداث على نحوٍ يُوجب الإفصاح، ولن أعرّض للتيارات السياسية بين القصر والأحزاب والإنجليز، مما كان له دوره الهام في تقلّب الأمور، فهذا مكانه التاريخ السياسي للبلاد، ولكنّي أجتزئ بما كان من إصلاح جوهرى، تمّ على يدي الإمامين الكبيرين، مُراعياً حقهما الناصع في إصدار الحكم الصائب، وفق ما اهتمت إليه من أسباب.

يحاول بعض من تزعموا الطلاب في الثورة على الشيخ الطواهري، ثم كان لهم شأنٌ سياسيٌّ في الدولة بعد فترةٍ طويلة، أن يُجسّموا بطولاتهم وفق ما يتصورون لا كما هي في الواقع، ومن وسائل هذا التجسيم أن ينخسوا الطواهري كلّ فضل، وأن

يعدّوه رجل جُمود وعدواً للإصلاح، وقد تکرّرت أقوالهم في ذلك حتى أصبحت من قبيل المسلمات لدى من لا يعرفون مجريات الأمور، والواقعُ المشاهد أنّ الظواهريّ كان كالمراغي تماماً من رجال الإصلاح الديني الحافظ على النهوض، ولكليهما موقفه المشهود، وليس في تاريخ أحدهما ما يُوصمهما بمناوأة الإصلاح، وهذا بالنسبة للإمام المراغي مُسلّمٌ معترفٌ به، ولكنه بالنسبة للإمام الظواهري يحتاج إلى أن نردّ على من زيفوا الحقائق، بالدليل الصريح.

إنّ الذي يدرس القانون الذي قدّمه الأستاذ الظواهري لإصلاح الأزهر، وقام على تنفيذه، يجده في جوهره الأصيل متّفقاً مع قانون الأستاذ المراغي في أكثر اتجاهاته، فبمقتضاه أنشئت في الجامع الأزهر ثلاثُ كليات للغة العربية والشرعة الإسلامية وأصول الدين، مما كان حدثاً جديداً في تاريخ الأزهر، كما أنشئت مع هذه الكليات الثلاث أقسامٌ للتخصّص في التربية والوعظ والإرشاد، وهو أرقى هذه الأقسام، أما الأقسام الابتدائية والثانوية بالأزهر فقد جعلت منهاجها قريبةً من مناهج وزارة المعارف، مع مزيد اهتمام بدراسة علوم اللغة والدين، واختيار أساتذة من رجال الوزارة لتدريس العلوم الحديثة بها، مع عدم تبعيّة الأزهر لوزارة المعارف واستقلاله بالسياسة التوجيهية.

وقد قام الشيخ الظواهري على تنفيذ مواد القانون فافتتحت الكليات في عهده، وحضّر جلالة الملك فؤاد افتتاح كل كلية في مشهد حافل، وزار قاعات المحاضرات، ليستمع إلى دروس ممتازة لا تقتصر على المواد الأزهرية وحدها، بل تشمل موادّ التربية وعلم النفس والفلسفة والاجتماع، وبتدقيق بالغ اختار الشيخ الأكبر أساتذة كباراً من هيئة التدريس بكلّيتي الآداب والحقوق، لتدريس ما يحتاج إليه الطلاب من موادّ جديدة، تطلب التخصّص الدقيق، وواضح أن التنفيذ العملي جهدٌ كبير يفوق جهد التقنين التشريعي، لأنّ المنقذ يصادف من الصعوبات أثناء التطبيق ما قد يندّ عن ذهن المشرّع، وقد صادف الظواهري بعض هذه الصعوبات وعمل على تذليلها.

ومن سوء الحظّ أنّ الأزمة المالية التي شملت العالم جميعه في مفتتح الثلاثينيات قد خنّقت وزارة مصر، فاضطربت أحوالها المالية، وكثر العاطلون من خريجي الأزهر والجامعة والمدارس العليا، ولم يجد الشيخ الظواهري سميعاً من وزارة

المالية، التي صمّت أذنّها عن رغبات الشيخ المالية، وقد قلت: إنه اضطرّ إلى تعيين عشرة مدرسين بدل ثلاثة، ليكفّل المعيشة لعدد أكبر حتى تستقيم الأمور مالياً، فيعود إليهم حقّهم الطبيعي.

ولم يفهم الأزهريون حقيقة الوضع المتأزّم، فأعلنوا الثورة على النحو الذي أشار إليه الأستاذ محمد متولي الشعراوي فيما نقلته عنه في صدر هذا المقال، وحين هاج طلابُ المعاهد في الأقاليم، وزملاؤهم في القاهرة، بحثَ الأستاذ عن مصدر الشغب، فرأى علماء كثيرين يكتبون ضدّه في الجرائد المناوئة للوزارة، ويزعمون أنّ الرجل الكبير ضالّع مع حكومة إسماعيل صدقي المكروهة شعبياً، فأسقطوا النقط في اللهب كي يزيد اشتعالاً.

وهنا أقدم الشيخ على فصل نَفَر من الأساتذة ظنّهم يقودون الثورة، وهذا مكمنُ الخطأ في اتجاهه، إذ كانَ عليه أن يتنّذ ويعفو، كما أنّه تورّط في فصل سبعين عالماً من قُدامى المدرّسين الذين تقدّمت بهم السنّ، ولا يقدرّون على أداء الواجب العلمي، وكان ذلك بتوجيه الوزارة التي رفضت أن تمدّ الأزهر بما يتطلّب من رواتب هيئة التدريس على نحو يكفل الطمأنينة للجميع، هذان هما موضع الاعتراض على الشيخ، وقد أفصح الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، وهو مؤرّخ محايد، عن وجهة نظره في هذا السلوك فقال^(١):

«وكانَ من عوامل الثورة أن اقترنَ عهده - الظواهري - بضائقة مالية شديدة في مصر، فكانَ لها أثرها في التقتير على أهل الأزهر، وفي أنّ خرّيجيه لم يجدوا لهم وظائف في المعاهد الدينيّة ولا غيرها، وكانت الحكومة تضنّ عليهم بوظائفها، ولا تقدّر الشهادات التي يحملونها، وقد ألجأهم هذا إلى أن يرضوا بالدّون في سبيل العيش، حتى إنّ حامل شهادة التخصّص كان يقبل وظيفة التدريس في المعاهد الدينيّة بثلاثة جنيّات، بل كان يقبلها من غير شيء، ويتنظر إلى أن يجودوا عليه بذلك المرتّب.

وقد سكّت الشيخ الأحمدى على هذا كله، ولم يكنْ عنده من قوّة النفوذ في الوزارة ما يحملها على إنصاف أهل الأزهر، فأخذوا يُوازنون بينه وبين الشيخ

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر، للأستاذ عبد المتعال الصعيدي: ص ١٢٩، ط ٢.

المراغي، ونسوا في هذا عقيدة الشيخ المراغي^(١) في الإصلاح، لأنَّ أمر العيش عندهم أهمُّ من هذه العقيدة، فثاروا على الشيخ الأحمدى تلك الثورة العنيفة، وكانوا طوائف شتى، بَعْضُها يعمل للشيخ المراغي، وبعضها يعمل لغيره من شيوخ الأزهر». هذه خلاصة ما يقال في أمر الثورة على الشيخ، ولا أزيد.

فإذا تركنا جهد الشيخ في الإصلاح الأزهرى إلى نشاطه خارج الأزهر، فإننا نشيرُ إلى مواقف حازمة للأزهر في عهده كانت ذات صدى بعيد في العالم الإسلامى، ومن أبرز هذه المواقف تصدّي الشيخ الأحمدى لحركة التبشير في مصر، إذ عاونت البعثات الأجنبية التابعة لوزارات الخارجية في أوروبا على قيام حركة تبشيرية، شملت عواصم هامة من عواصم الدولة.

وقد لمسَ الشيخ بذور هذه الحركة حين كان شيخاً لمعهد أسىوط الدينى، فجمعَ أعيان المدينة في حشدٍ عام وشرَحَ لهم واجبهـم نحو عقيدتهم الدينيّة، وأشارَ بفتح المدارس الإسلامية لتحفيظ القرآن، وإنشاء الجمعيات الدينيّة للتوعية الإسلامية بالمحاضرات الأسبوعية، وكان جهده في هذا النطاق فيصلاً حاسماً دون امتداد التبشير المسيحيّ في وسطٍ يميّز بالحساسيّة الدقيقة بين عنصري الأمة.

ثمَّ جَدَّت في عهد مشيخته أحداثٌ أخرى ببورسعيد، إذ انتشر المبشرون المسيحيّون في المدينة يشكّكون في تعاليم الإسلام، ويعبثون رسلهم إلى العواصم المجاورة، فطالبَ شيخُ الأزهر بسنّ تشريع يمنع نشاط المبشرين، كما كَوّن من هيئة كبار العلماء لجنةً لبحث الموضوع من الناحية العلمية، بأن تَجْمع كُتُب التبشير التي يروّجها هؤلاء، وتدرّسها دارسةً فاحصة، ثم يقوم أعضاء اللجنة بالردِّ عليها في كُتُب موجزة سهلة التناول، ليتداولها العامة دون جهد.

وقد لمسَ الشيخ الأكبر تجاوباً من الجموع، فدعا إلى اكتتاب عام لبناء الملاجئ والمساجد، وحيطة النشر بأساليب التوجيه، عن طريق الإرشاد الدينى في المجتمعات والأندية، وبدأ التبّرع بمئتي جُنيّه، لتتلوها تَبَرّعات هيئة كبار العلماء، حتى إنّ بعض أعيان الصعيد تبرّع بعشرة آلاف من الجنيهات، وهو مبلغ ضخّم في

(١) هذا سهو من الأستاذ الصعيدي، والصواب «عقيدة الشيخ الظواهري في الإصلاح» كما يقتضى السياق.

هذا العهد، فشكره الشيخ، والتمس من جلالة الملك أن ينعم عليه بالباشوية حصاً لزملائه من الأثرياء على الاقتداء به، فوافق الملك على مطلب الأستاذ.

وفي خارج مصر قامت فرنسا في المغرب الأقصى بما يسمّى (الظهير البربري) لفصل البزير عن العرب ديانةً ولُغةً، فاتصل الشيخ الأكبر بوزير الخارجية المصرية ليلبّغه احتجاج الأزهر على هذا العدوان الصارخ على الإسلام، وأعلن أن المسلمين في كل مكان يؤيدون الشعب البربري في تمسّكه بدينه، وأن كل محاولة لزعزعة العقيدة الإسلامية بأقصى الغرب ستجدُ الاستنكار الشديد، ونشرت الصحف العربية والإسلامية بيان الشيخ، فكان عامل اضطراب في السياسة الفرنسية، إذ أحدث أثره في البربر، فرفضوا هذا الاتجاه الماكر، وقد كان مغلفاً بعبارات ظاهرها العطف وباطنها العسف.

كما كان إعدام الشهيد الليبي عمر المختار، على أيدي الاستعمار الإيطالي، باعث غضبٍ ملتهب في الشعب المصري، وحين أرادت جمعية الشبان المسلمين إقامة حفلة كبرى لتأبينه حالت وزارة الداخلية دون ذلك، فأصدر الإمام الظواهري بياناً باستنكار المحاكمة الظالمة، وأبلغه سفارة إيطاليا، وطلب من وزير الخارجية المصري أن يُبلغ زميله الإيطالي هذا الاستنكار، هذا عن الأحداث الصارخة؛ أمّا الأحداث الخافتة نسبياً فما كانت تغيبُ عن يقظة شيخ الأزهر، فقد وصل إلى علمه اختلاف العلماء في (جأوه) حول بعض النقول الفقهية مما أدى إلى تصادم تُخشى مغبته، فأرسل خطاباً يدعو إلى التثام الشمل^(١)، ونبذ مسائل الخلاف، خاتماً إياه بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد كان من أهداف الشيخ الأكبر التوجيهية إنشاء مجلة علمية تنطق باسم الأزهر الشريف، لتكون مصدراً للمعارف الصحيحة، ومحزرة بأقلام كبار العلماء بالأزهر، وقد تحقّق ما سعى إليه، فاختار للمجلة اسم (نور الإسلام) ووالث صدورها شهرياً، وما زالت تصدر إلى اليوم، ولكن تحت عنوان (مجلة الأزهر) إذ شاء الأستاذ المراغي بعد عودته إلى الأزهر أن يكون اسمها أقرب دلالة على مصدرها، فاقترح الاسم الجديد.

(١) السياسة والأزهر: ص ٣٢٠.

وكانتِ المجلة ذات أهداف علمية، ففسحت حيزاً كبيراً لمقالات التفسير والحديث والفتاوى الدينية، والبحوث الفقهية والاجتماعية، ولكنها أضافت إلى هذه الأبواب أبواباً أخرى، تتحدث عن المسلمين في شتى بقاع الأرض، وتعالج بعض المسائل العلمية المكتشفة حديثاً في العالم الغربي، ليصل القارئ المسلم إلى ما يجهل من حقائق العلم الحديث، وبها قسمٌ خاص باللغة الإنجليزية، يتحدث عن بعض النواحي الإسلامية فقهاً وتشريعاً وأخلاقاً، ليلم القارئ الأجنبي بمحصول علمي من مصدر موثوق به، ثم شرعت المجلة في ترجمة أحاديث البخاري فزادت انتشاراً في بقاع كثيرة.

وكانتِ المجلة تُواجه مشكلات العصر ببحوث تحليلية كاشفة على نحو ما كتب عن التعليم الديني في مدارس الحكومة، وضلالة فصل الدين عن السياسة، وسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، والمسلمون في أوروبا الغربية والشرقية، والجاليات الإسلامية في الأطراف النائية، وكل ذلك في عهدِها الأول أيام الأستاذ الظواهري، وقد تطوّرت المجلة إلى أرقى وأكمل، وما زالت للآن تحمل رسالتها في جدّ وإخلاص.

وإذا كان الكاتبون من أبناء الأزهر لم ينصفوا الأحمدي، ولم يكتبوا عنه بما يجب أن يشتهر من فضله، فإن الأستاذ الدكتور عثمان أمين قد وفاه حقه في مقال نشره بالأهرام بمناسبة ذكره الخامسة، قال فيه: (إن مرجع اهتمامه بالشيخ يرجع إلى ما قرأه عنه لأحد المستشرقين في النسخة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، تعريفاً بكتاب له عنوان (العلم والعلماء) نشره سنة ١٩٠٤ إذ ذكر «أن روح الإخلاص والصفاء التي تظهر في هذا الكتاب تعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين، ومن العجيب في هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الإسلامية، والإحساس بفائدة ما يأتي من المصادر الأخرى، إذ يرى المؤلف أن يأخذ المسلمون لا عن أوروبا فحسب، بل عن الصين واليابان أيضاً، ويرى أن من بين المواد الضرورية دراسة الدعوة إلى الإسلام، وعقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الإسلامية، ثم يعين وسائل الثقافة التي تتطلبها لجان العلماء، وإخراج دائرة معارف، ونشر التعليم الجامعي بين الأفراد»).

هذا ما قاله كاتبُ دائرة المعارف عن كتاب ألفه الشاب الناشئ عند تخوّجه،

فأحرقت كثير من نسخه عدواناً وبغياً، حتى كاد ينساه الدارسون! لولا أن نَجَل الشيخ بَادِر بطبعه تخليداً لذكرى أبيه .

وقد يكون من المناسب أن أختم حديثي عنه بما قاله الأستاذ علي عبد العظيم في خاتمة ترجمته إياه في الجزء الثاني من كتاب (مشيخة الأزهر)، حيث قال: «وقد أجمع عارفوه على الإشادة بذكائه، وقدروا له مكانه ومكانته في تاريخ الإصلاح، حيث قرّروا أن أكثر ما استُحدث في الأزهر من منشآت، وما تمّ فيه من إصلاح كان له فيه أثر بارز، وحسبه أن استطاع أن يُدخل في الدراسة علوماً جديدة، لم يكن للأزهر بها عهد قبله، مثل اللغات الأجنبية، والاقتصاد السياسي، والقانون الدولي، وعلم النفس، ولو أنه سألَمَ وهادَنَ الثائرين عليه وأخذهم بالحسنى ما أُوْجِدَ للناقدين إليه سبيلاً»^(١). ولكن كيف؟ .



(١) مشيخة الأزهر، تأليف الأستاذ علي عبد العظيم: ٦٩/٢ .

الدكتور محمد توفيق صدقي

الطبيب الباحث عن الحقيقة

-١-

لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الباحث النشيط الدؤوب، حتى تلقيت خطاباً من صديقي الدكتور عبد الكريم جرمانوس أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بودابست، يسألني فيه عن تاريخ الدكتور محمد توفيق صدقي، ويقول إنه قرأ مقالاً للدكتور أحمد أمين أشار فيه إلى آراء خاصّة له في الاستشهاد بالحديث النبوي، ويودّ أن يعرف كثيراً عن حياته العلميّة. وقد واصلتُ البحث فاهتديت إلى حديثٍ عنه في كتاب (الإسلام والتجديد في مصر) للدكتور تشارلز آدمس احتلّ حيزاً مناسباً، فأسرعت بالكتابة إلى الدكتور جرمانوس ليرجع إلى هذا المصدر.

وحين قرأتُ ما كتبه الدكتور تشارلز آدمس وجدته يعتمد اعتماداً كلياً على ما جاء بمجلة المنار التي كان يصدرها السيد محمد رشيد رضا، واهتديتُ بأرقام المصادر وتاريخها إلى قراءة الكثير عن الدكتور محمد توفيق صدقي، فوقفتُ مما قرأتُ على نشاطٍ باحثٍ مجتهد، سعى للوصول إلى الحقيقة قارئاً ودارساً وناقداً، حتى استطاع أن يرسو على صخرةٍ صلبة من اليقين، ولم يكن وصوله للحقيقة كافياً لاقتناعه الخاص، إذ رأى أن يُطالع القراء بخطوات كفاحه، وأن يعرض عليهم ما اهتدى إليه من النتائج العلمية في محيط البحث الديني، وبذلك ترك أثراً علمية ممتازة، لها دلالتها العميقة خلقياً وفكرياً، كما سيّضح في هذا المقال.

يقول الدكتور تشارلز آدمس في كتابه المشار إليه^(١) - ببعض التصرف -:

(١) الإسلام والتجديد في مصر: ص ٢٣٢.

«كان هذا الرجل الدكتور محمد توفيق صدقي (١٨٨١ - ١٩٢٠) طبيباً في سجن طرة القريبة من القاهرة، وعندما درسَ الطب وهو طالبٌ اتجه إلى دراسة دينيةٍ عُني بها عناية عظيمة، إذ كان يقرأ ما يكتبه المبشرون المسيحيون من الجدل في دين الإسلام، فتشوّز في نفسه شبهاتٌ كثيرة، ثم ينتقل إلى مجلة المنار فيرتاحُ إلى ما بها من بحوث تَهْدِي إلى الخلاص من هذه الشبهات، وأفضى به هذا إلى الإقبال على نوع من القراءة والدرس تحت إرشاد السيد محمد رشيد رضا، وانتهى به الأمر إلى التسليم تسليمًا لا مثيل له بدين الإسلام، كما صوّره الشيخ محمد عبده».

هذه السطور الموجزة تشتمل على قصّة بديعة ليست من بنات الخيال، ولكنها من وقائع الحياة الملموسة، إذ حكّاها السيد محمد رشيد رضا في مجلّته^(١) بعد رحيل الطبيب الكريم، ليسجّل خطوات الاهتداء إلى الحقيقة في طريق شاقّ قطعه الدكتور صدقي حائرًا يريد الاطمئنان، وما زال يجدُّ ويكدح حتى صار من يقينه في جُنةٍ سابغة من الإيمان، أمّا كيفَ سار خطواته الهادية، فهذا ما نسجّله تاريخاً حيّاً، وعبرة هادية.

كان الطالبُ محمد توفيق صدقي مُحافظاً على قراءة مجلة المنار، فقد كان تلميذاً بالمدرسة الخديوية الثانوية، وقد بعثت بحوث المجلة في نفسه ما يكمنُ فيها من الاستعداد للبحث والنظر والاستدلال في العلم والدين، وكان زميلُهُ ورفيقه الطالب (عبده إبراهيم) يشاركهُ البحث الديني، وهو قبضيٌّ لم يهتد بعدُ إلى الإسلام، ولكنه ذو شكٍّ يريد أن يطمئن.

وقد اندفع محمد توفيق إلى كتابة خلاصات علميةٍ بمجلة المنار تحت عنوان (الدين في نظر العقل الصحيح) وكانَ باعُثُهُ على تدوينها هو ما حاقَ به من الشبهات التي تتردّد في المحيط العام، ولهذه الشبهاتِ مصدران دائبان؛ هما دعاةُ التبشير في المدارس المصرية من المدرّسين الإنجليز، وموادّ الدراسة التي تهتمّ بنظريات الإلحاد.

وقد شغلت هذه الشبهات ذهنَ الطالبين المتطلّعين إلى معرفة الحقيقة، فكانا يرجعان إلى السيد محمد رشيد رضا بشكوكهما وما انتهيا إليه من البحث، كما كانا

(١) مجلة المنار، المجلد ٢١، ٤٨٦/٩ وما بعدها.

يقرأ أن كلَّ ما يفيد في مجال النظر والاستدلال قراءة من يبحث عن الحق بعيداً عن الشبهات، فما انتهى من دراسة الطبِّ إلّا وقد اقتنع الدكتور صدقي بإسلامه عن يقين، واعتنق زميله الدكتور عبده إبراهيم الإسلام عن ثقة (وهو والد الباحث الإسلامي الدكتور عيسى عبده إبراهيم الأستاذ في كلية التجارة، وصاحب المؤلفات الجليلة في شؤون الاقتصاد الإسلامي رحمه الله).

وإذا كان الدكتور عبده لم يكتب مقالاتٍ تُشابه مقالات زميله فقد أنجَبَ من أدّى الرسالة الإسلامية في بعض وجوها العلمية أكملّ أداء، على أنّه كان يشارك الدكتور صدقي في كلِّ ما يكتب مشاركة المؤيّد المحبّد، وقد قرأ السيد رشيد رضا بحوث الدكتور صدقي، ونشرها متفرّقة في أعداد مجلة المنار، ومجموعةً في مطبعة المنار، ويقولُ عنها: «إنّ أكثرَ بحوثها في المسائل الاعتقادية مقتبسٌ من رسالة التوحيد للأستاذ الإمام، ومن مقالات تنحو نحوها نُشرت بمجلة المنار». هذا ما قاله صاحب المنار في حياتهما، وقد نشره في سنة ١٣٢٣ هجرية، وأعاد نشره بعد رحيل الدكتور محمد توفيق صدقي، ثم عَقَبَ عليه فقال^(١) - ببعض التلخيص والاختصار -:

«بدأ ذاك التلميذان بحثهما فيما عرضَ لهما من الشبهات، ثم جعلاً من وقتهما مواعيدَ معيّنة للبحث في كل أصل ممّا اشتبها فيه، فبدأ في مسألة وجود الخالق وتوحيده وصفاته، وكانا يرجعان إلَيَّ فيما يشكل عليهما فهمه، وبعد أن صحَّ إيمانُهما - نظراً واستدلالاً - بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، بقيَ لهما شبهاتٌ مشكلة في بعض آيات القرآن، زالت بالتدرّج، وأذكرُ أنّ المرحوم عبده إبراهيم جاءني مرّةً ومعه المصحف الشريف، فأشارَ إلى بعض آيات استشكل عليه فهمُها، ففسّرتها بما يزيل استشكله، وهنا قال بصوت مؤثّر منبعث من أعماق قلبه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». وقد شرعَ بعد اطمئنانه للإسلام في حفظ القرآن الكريم، وتزوَّج فتاة مسلمة، ورزق منها النسل الصالح».

أما الشبهاتُ التي زالت من نفس الدكتور محمد توفيق صدقي، واطمأنَّ إلى الخلاص منها عن تيقنٍ تسنده الأدلّة الواضحة، فقد جُمعت في كتاب (الدين في نظر

(١) مجلة المنار، المجلد ٢١، ٤٨٨/٩.

العقل الصحيح) بعد أن نُشرت بمجلة المنار، وسأشيرُ إلى الأهم من بنودها، وقد يلحظ قارئُ اليوم في سنة ١٤١٧ هـ أن الحديث عن هذه الشبهات قد فات أوانه، لأنّ ما ظهر من البحوث الدنيّة على مدى ثمانين عاماً قد جعلَ هذه الأوهام هباءً منثوراً لا مُحصّل من ورائه، ولكنّه العصر الحرج الذي عاش فيه الطالبُ المتيقّظ، فالطبيبُ المتخرج كان يُجوّف هذه الشبهات ويضخّمها، لأن بعض الصحف التي تنتمي إلى العلم ظاهراً أخذت تنشر أقوال الملاحدة، في الألوهية والنبوة مما يتعلق بالدين عامة، وفي الإسلام والقرآن ورسول الله مما يخصّ المسلمين وحدهم مع مباحاةٍ بالنظريات العلمية؛ مثل نظرية التطور وغيرها، واتخاذها وسيلةً لزعزعة العقيدة في نفوس الشبيبة، فكانَ كتابُ الدكتور صدقي ذا رسالة هامة، لأنه يجابه الطوفان.

وفي رأيي أنّ دراسة هذا الكتاب لا ترجعُ إلى حقائقه العلمية - وهي في ذاتها صحيحة لا شك فيها - قدر ما ترجع إلى تصوير الجوّ الإلحادي في المدارس الثانوية والمدارس العليا إذ ذاك، وأنّ هذه الشُّبه قد ألحّت على ذهن الطالب في المدرسة الخديوية الثانوية، وفي مدرسة الطب العالية، والقائمون بترويج هذه الشُّبه مدرّسون أجانب، لم يقدّروا رسالتهم المنهجية في تدريس موادّ خاصة قدر ما اهتموا بنشر بذور الإلحاد بين الطلاب، والطالبُ في المدرسة الثانوية والعالية لا يملكُ من وسائل الدفاع العلمي ما يجعله ندّاً لأستاذٍ له مظهره الفكريّ، وله مباحاته بجنسه وموطنه، بلّ له تعالیه عمّن سهّلوا له سبل العيش، إذ جاء من بلده مرتزقاً لا يقدرُ رسالة العلم تقديرها الصحيح، فتحفظ له مكانة الهادي المفيد.

ولولا وجودُ (المؤيّد) و(اللواء) من الصحف اليومية و(المنار) و(الهداية الإسلامية) من المجلّات الشهرية لتفاقم الخطر، ومن لُطف الله أن يوجد للفكر الإسلامي الصحيح إذ ذاك مدرسة يتزعمها الأستاذ الإمام محمد عبده، وفيه إلهام كثيرٌ من المثقّفين المدنيّين، لأنّ درس التفسير الذي كان يقومُ به الشيخ محمد عبده لم يكن مقصوراً على الأزهرين وحدهم، بل كان طلاب المعرفة من الكبار يهرعون إليه مغتبطين، وهذا الدرسُ يعالج كلّ مشكلات العصر في ضوء كتاب الله، فيُلقي بالضوء النافذ في العقول لتعرف اتجاهها السديد.

بدأ الدكتور صدقي كتابه (الدين في نظر العقل الصحيح) بحديثٍ عن المذهب

المادي، فقال إنه قرأ في إحدى المجلّات العربية مقالةً عن المذهب الماديّ وأثره في نشأة الإنسان ومصيره، كانت مثار ريبٍ في نفوس الشباب، وبأمثالها تتزعزعُ العقيدة الدينيّة، ويراهما من يقرأ هذا البحث كأنّها ضرب من أساطير الأوّلين: «فتحرّكت نفسي للكتابة عن هذا الموضوع بعد إعمالي الفكر، وإجالة النظر في أطرافه، وجعلتُ اعتمادي على البراهين الصحيحة التي تنتهي إلى البدهيات، بحيث لا نجد فرقاً بينها وبين البراهين الرياضيّة، لتكون أعظم مؤثراً في القلوب، وليعلم القارئ أن حجج الدين أقوى من شبه الماديّين».

ولإيضاح هذه الحقيقة بدأ المؤلف بفضلٍ عن المادة وتركيبها، وتحدّث عن (الجوهر الفرد) حديثاً كان مجال الخلاف في عصره، إذ جدّت آراء أخرى تشكّ في حقيقة ما يُسمّى بالجوهر الفرد، وقد مهّد بذلك ليقرّر حدوث المادّة وعدم قدمها، وانتقل إلى الحديث عن واجب الوجود وأحكامه، وهو حديث يجمع بين آراء علماء الكلام، ونظريات العلم الحديث، ولما كان الماديون ينكرون حقيقة الروح ووقوع البعث، فقد كَسَرَ الفصل التّالي على هذين الموضوعين، فبدأ بذكر ما قرّره المذهب المادي عن فناء الروح بفناء الجسم، وأن بقاءها مرتبطٌ ببقائه ليُعْفَى على هذا الرأي بالدليل الحسيّ الملموس، وقضيّة البعث الأخرى تكون قريبة الوقوع إذا تأكّدت الروح كعنصر مستقلٍّ عن الجسم، وهذا إجمالٌ تقدّم به الباحث، ليفصّله في مقالات أخرى نشرها مستقلة.

والماديّون إذا أنكروا الخالق والروح، فمن الطبيعي أن ينكروا (النّبوة)، ورسالتها إصلاح الأرض بقانون السماء، على يد مَنْ يصطفيه الله من الأنبياء والرسل، ولما كان محمّدٌ ﷺ خاتم النبيّين، فقد جعل المؤلف من حقائق سيرته الثابتة ما يقرّر حدوث النّبوة بالدليل المشاهد.

وقد أحاط المؤلف بشبهات الغربيّين حول نبوة محمد ﷺ ليردّها شبهةً شبهةً، وقد قلتُ: إنّ هذه الشبهات بعد مرور ثمانين عاماً أصبحت موضع الضّعف الهزيل، حتى كَرَّ عليها المدافعون بحججهم الدامغة، وللمؤلف فضل البدء في هذا المجال، وإن احتدّى ما جاء في رسالة التوحيد للأستاذ الإمام، وحديث المؤلف عن ثبوت النّبوة لرسول الله مقنّعٌ ملزم، لأنّه لم يعتمد على النص القرآني الذي يُنكره المعاند، بل اعتمد على المنطق العقلي الذي لا يستطيع إنكاره.

وأقوى ما جاء به في هذا المجال تفنيده لدعوى أن الرسول ﷺ قد أخذ تعاليمه من أهل الكتاب، حيث وازن بين آراء أهل الكتاب في الألوهية وما جاء به الإسلام، ليتجلى الفرق الواضح بين مذهبين متباعدين! ثم كيف يعترف القرآن بأن أهل الكتاب يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به، ثم يتلقى عنهم رسول الله ما لديهم من أنباء الرسالة والوحي! وفي ختام البحث تلخيص شديد لأقوى حقائقه، وكأن المؤلف قد خاف على النتيجة أن تغرق في المحيط الجدلي.

وبعد أن تحدّث الكاتب عن العقيدة الإلهية، وعن الروح والبعث والنبوة، جاء الحديث عن هداية الإسلام منسجماً مع ما قبله، بل حلقة في سلسلة متناسقة لا انفصام بها، وقد ابتدأه بدعوة الإسلام إلى التوحيد راداً على من زعم من المستشرقين - خطأ - أن الإله في الإسلام قاسٍ جبارٌ يُخَوِّف عباده، فأبان وجه الزيف متعجباً أن يصدر ذلك من أناسٍ يعلمون أن كل سورة من سور القرآن تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم.

أما مبادئ الإسلام في إصلاح الكون والعالم، فقد بسطها المؤلف متحدّثاً عن المساواة، ومنزلة العقل من الإيمان، وحديث العقل يتطلب محو الشبهة التي حاكها المغرضون، من دعواهم بأن الانقياد المستسلم طبيعة من يؤمن بهذا الدين، مع أن الانقياد لا يأتي إلّا بعد وضوح البرهان، والاطمئنان إلى الدليل، ولا يكون الانقياد في هذه الحالة استسلاماً المضطر، بل إذعان المقتنع لما يؤمن ويحب.

أما الحرية الصحيحة في الإسلام، فقد بسطها الدكتور صدقي في حديثه عن (عدم الإكراه في الدين) حيث قال الله عز وجل: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَن تَكْفُرُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقد أمر المسلمون بالقتال لأنهم ظلموا، فهو قتالٌ لدرء الظلم وأمن الفتنة وحماية الدعوة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّا بِاللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقد تعرّض المؤلف إلى مقارنات هامة بين المسيح عليه السلام، ومحمد ﷺ، والقرآن الكريم قد حفظ للسيد المسيح مقامه الجليل الذي يكبره كل مسلم، ولكن نفراً من المبشرين فتحوا باب المقارنة الظالمة بين الرسولين الكريمين، ليتحيقوا

جانب رسول الإسلام افتراءً وظلماً، فكان من الحتم أن يردّ المؤلف على هذه المفترّيات، والعجيبُ أن يكون الذي يدفع هذه الشبهات الظالمة مُتَعَصِّباً عند قوم، ولا يكونُ الذي يُثير الشبهات عامداً مبتدئاً متعصباً، ولكثرة ما رمى المستشرقون مدافعي الإسلام بالتعصب، سهّل لدى بعض النفوس الضعيفة أن يُغمضوا عيونهم عن هذه الأراجيف، فلا يهتّموا بالدفاع عن الحقيقة كيلا يكونوا متعصبين، وهو الهوان بعينه، وأي هوان؟.

وقد كانت قضية المرأة الشغل الشاغل للكتاب في مطلع هذا القرن، بعد أن نشر الأستاذ قاسم أمين كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) فلغَطَّ قومٌ في حديثٍ عن الإسلام والمرأة لا يعتمد على أساس، ودار من النقاش ما امتلأت به الصحف والكتب والمجلّات، لذلك كتب الدكتور محمد توفيق صدقي فصلاً عن إصلاح المرأة في ظلّ تعاليم الإسلام، أشار إلى حالتها في المجتمعات الإنسانية شرقاً وغرباً قبل أن يأتي الإسلام، وعالج قضايا التعدد والطلاق في إيجاز شامل.

ثم تابع أحاديثه عن الرّق وموقف الإسلام منه، وعن الرفق بالضعفاء من الأيتام وأبناء السبيل، وكان من المتوقع أن ينتهي الكتاب عند هذا الحد، وفقاً لعنوانه، ولكنه ختمه ببحث ضافٍ عن شبهات المادّيين في القرآن، وهي شبهات لا يقولها الماديّون وحدهم، بل يقولها نفرٌ من المبشرين ممن يتبعون اليهودية والنصرانية، وهذا ما يعرفه المؤلف حين كتب فصلاً لاحقاً تحت عنوان (شبهات النصاري في القرآن) وأكثره نقاطٌ تتعلّق بالسامريّ وهاروت وماروت، والجوديّ، وأخت هارون التي تحدثت عنها سورة مريم، والسحر، وآزر والد إبراهيم عليه السلام، ومسألة النسخ في القرآن، وقد جُمعت هذه الشبهات من نشراتٍ مطبوعة كانت تُفرّق في الأماكن العامة برعاية جماعاتٍ مغرضة لتثير الضجيج.

وهذا العملُ في طريقته البدائية يدلّ على مستوى عقليّ منخفض، لأنّ الذي يريد أن يجادلَ موضحاً ما يعتقد، لا يكتُبُ رأياً في ورقة يوزّعها على الجمهور، بل يفرّد كتاباً حافلاً بالحجج، وسيجد من يرد عليه بكتاب مماثل، فتتكشف الحقائق لمن يتتبّع المعركة في صيالتها الفكري، وقد اتّضح فساد هذا الاتجاه لمن قاموا به، فأوقفوا هذه النشرات باحثين عن مجال آخر.

كانت فكرة صائبةً لصاحب المنار عَجَل بتنفيذها، وهي إنشاء دار للدعوة الإسلامية، تُسمّى دار الدعوة والإرشاد، وقد أراد بها تخريج طائفةٍ من طلاب الدراسة الدينية يجمعون بين الثقافة المعاصرة، والثقافة الدينية المبنوثة في كُتب التراث، لأنّ أكثر طلاب الأزهر في العقد الثاني من هذا القرن يقتصرون على كُتب التراث وحدها، ولا بدّ أن يعرف عالم الدين المعاصر ما يصطرع حوله من الآراء العلمية، التي تُزاحم المقرّرات الدينية، وفيها ما يتعارض معها.

يقول الأستاذ محمد كرد علي في حديثه عن الدار^(١): «وإذا وُقِّت هذه الدارُ إلى تطبيق العلوم والفنون التي تدرس فيها حقّ التطبيق يجيء من متخرّجها طلاب يشبهون دعاة الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس في علمهم واستعدادهم، ومن غرض المدرسة في باب تربية الأخلاق؛ أن يعرف الطالب الفرق بين زماننا وزمان القرون الأولى، في الحاجة إلى سعة الثروة وتوقّف حاجة الأمة عليها، وكون الزهد الصحيح لا ينافي تحصيل الثروة».

وإذن فللدار جانبٌ ثقافيٌّ يرعى التطوّر الفكري في العالم المتمدّن، ويقرّنه بمقرّرات الإسلام البالغة قدرها الكبير في مسيرة التطوّر الحميد ذي الأصول الصحيحة، وجانبٌ خلقيّ يصحّح المفاهيم المخطئة التي اقترنت بالإسلام؛ كالانعزالية والزهد وعدم الاكتراث بالثروة، مع أنها مما يساعد على ازدهار البيئة الإسلامية، وإذا كان مدرسو الثقافة التراثية كثيرين، فإنّ مدرسي العلوم المعاصرة من الذين يجمعون بين الثقافتين قليلون. وكان الدكتور محمد توفيق صدقي هو الذي تولّى تدريس الثقافة المعاصرة مقارنةً بتوجيهات الإسلام، فألقى عدة محاضرات، نشر بعضها في أمّهات الصحف، وأملّى بعضها الآخر على الطلاب، وإخاله لم يُقدّم على طبع جميع ما ألقاه من الدروس، لما رأى من الحاجة إلى ضرورة التنقيح.

وقد عرفنا من طلاب هذه الدار من يحتفظ بما أملاه الدكتور محمد توفيق صدقي، ويعده فتحاً جديداً في الفكر الإنساني، والذي يُعظّم جهده الدكتور في هذا

(١) غرائب الغرب، جـ (١)، للأستاذ محمد كرد علي.

النطاق أنه أُلقيَ دروسه المتوالية في مدى ثلاث سنوات تبرّعاً ووفاءً للالتزام النفسيّ تمسّك به، والذين كتبوا في المسائل الكونية بعد ذلك في ضوء النصوص القرآنية قد اغترفوا من معين المحاضرات التي ألقاها الدكتور في هذا المجال، كما نُشر الجزء الأول والجزء الثاني من دروس سنن الكائنات في مجلة المنار مع مقالات أخرى تتحدث عن خوارق العادات، وحجاب المرأة في الإسلام، وعالمُ السماوات والأرض، والقربين والضحايا في الأعياد، وهي بحوثٌ كانت جديدة في أوانها، وتُعتبر أصلاً لما جاء بعدها، وقد نالت تقدير القراء!.

أقول: نالت تقدير القراء؛ لأنّ بحثين آخرين كتبهما الدكتور صدقي قُوبلا بمعارضةٍ شديدة، هُما بحثه عن أبوة آدم للبشر، وبحثه عن مكانة السنة من التشريع، أمّا بحثه عن أوليّة آدم فقد كان مسبقاً فيه بما ذكره الأستاذ الإمام في تفسيره، وقد خالفه صاحب المنار، إذ نصّ على أنّ مذهبه هو مذهبُ جمهور السلف الصالح فلا يحدد عنه، أما المؤولون فيهدفون - في غير المسائل القطعية - إلى تقريب المسائل من الذهن المعاصر، وكلٌّ منهم مجتهدٌ وله أجره إن أخطأ وإن أصاب، وأمّا بحثه عن مكانة السنة من التشريع فقد قال عنه صاحب المنار ما نصّه^(١):

«أكبر شذوذٍ وقع للمترجم رحمه الله، وحاول إثباته والدفاع عنه هو ما عرض له من كون السنة ليست أصلاً من أصول الدين». وقد كان هذا الرأي وليد فترةٍ قصيرة لم يلبث أن عاد بعدها إلى البحث المطمئن، ليعدلّ عن رأيه، وقد نشر السيد محمد رشيد رضا مقالَ الدكتور وعقبَ عليه بقوله: «نحن ندعو علماء الأزهر وغيرهم إلى بيان الحق في هذه المسألة بالدلائل، ودفع ما عرض من الشبهات، لأنّ الدفاع عن الإسلام يكون بإقناع المتعلّمين ودفع ما يعرض لهم من الشبهات».

وقد تلقّى صاحب المنار ردوداً حاسمة من أمثال الأستاذين طه البشري وصالح اليافعي، وأولهما أزهريّ مصري، والثاني عالم هندي، ففسّح المجال لنشرها، وقرأها الدكتور محمد توفيق صدقي، فصادت منه ارتياحاً، وبادر بكتابة مقالٍ تحت عنوان: (إنصافٌ واعتراف) قال فيه^(٢): «اعترفُ بخطئي هذا على رؤوس الأشهاد،

(١) المنار المجلّد ٢١، ٩/٤٩١.

(٢) المنار، المجلّد العاشر، ص ١٤٠.

وأستغفر الله مما قلته أو كتبت في ذلك، وأسأله الصيانة من الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى، وأصرّح بأن اعتقادي الذي ظهر لي بعد البحث هو أن الإسلام هو القرآن وما أجمع عليه السلف والخلف من المسلمين، عملاً واعتقاداً، وبعبارة أخرى أن أصلي الإسلام اللذين بُني عليهما هما الكتاب والسنة النبوية».

والذي يهمنا بعد هذه الجولة اليسيرة أن نفرّر ما يأتي :

١ - أن الكاتب الدكتور محمد توفيق صدقي حين رأى رأياً من الآراء لم يشأ أن يكتمه عن القراء، بل عرضه في وضوح عرضاً مؤيداً بما رآه من الحجج .

٢ - أن صاحب المنار قد كان مخالفاً لاتجاه الكاتب، ولكنه نشر ما كتبه، ودعا علماء الأزهر والباحثين في المسائل الدينية أن يسارعوا بالرد على ما جاء في هذا البحث، لتظهر الحقيقة بعد الحوار .

٣ - أن الدكتور محمد توفيق صدقي قرأ كل ما وُجّه إليه من نقد، ولم يسمح لنفسه بالسكوت عن خطأ وقع فيه، فبادر بإعلان خطئه، واعتقاده الجازم بأن السنة المشرفة كالقرآن الكريم أصل ثابت من أصول التشريع .

وأنا أعذر الدكتور في خطئه، فقد قرأ كثيراً من البحوث المهاجمة للسنة، فأورثته شكاً لم يستطع السكوت عليه، كما رأى في الأحاديث الموضوعة ما يبعد بها عن الصواب، وقد ردّتها العامة كقول ثابت لا مرية فيه، فاندفع لإبداء رأيه طالباً للرأي فيما كتب، وحين تبددت شكوكه جاهر بما ثبت عليه من اليقين .

أما معركة ألوهية المسيح؛ فقد كان ما نشره المبشرون عن الرسول الإله مسبباً في بلبلة شديدة بين القارئ في مصر، وأكثرهم مسلمون، وفيما قالوه حديثاً عن الصلب والفداء يخالف صريح القرآن، وقد سكّت القائلون على الدين عن تبديد ما يُذاع، ولم يسكت الدكتور صدقي، فقرأ ودرس ثم كتب مقالاته الضافية، فأحدث دويلاً شديداً، وقد قال الأستاذ الدكتور تشارلز آدمس تعليقاً على هذا الموضوع في كتابه عن الإسلام والتجديد في مصر^(١) :

«لقد سخر الدكتور صدقي قلمه في ميدان آخر، هو ميدان الجدَل ضد

(١) الإسلام والتجديد في مصر: ص ٢٣٤ .

المسيحية، فظهرت له مقالات كثيرة في المجلدين الرابع عشر والسادس عشر من مجلة المنار، ثم طبع بعض هذه المقالات على انفراد، وكان بعضها مرّاً لا ذعاً حتى أثار - كما يقول المنار - ثائرة الهيئات التبشيرية. فاحتجّت عليها لدى السلطات، ومنع الدكتور صدقي من أن يكتب أمثال هذه المقالات. وأعلن المنار بعد هذا أنه سيّبع في مقالاته خطة أكثر مسالمة.

وقد تناول الدكتور صدقي في إحدى مقالاته الكلام عن عقيدة الصلب والفداء، وهو يمثل الرأي الإسلامي، الذي يقول: إن يهوذا الإسخريوطي صُلب بدل المسيح، ويؤيد الدكتور صدقي هذا الرأي بعبارات أخذها من الإنجيل المنسوب إلى (برنابا) ومن أقوال بعض الفرق من المسيحيين الأولين أمثال السيرنثيين، والكربوكراتين، وبسط الكلام في أدلة الأنجيل وفنّدها. إلى أن قال الدكتور تشارلز آدمس:

«وقد ذكر الدكتور صدقي أنّ هناك تحريفات في النصوص، مثل التضارب في تحديد الساعة التي وقع فيها الصلب، وأخذ يتبسّط على هذا النمط في التدليل على أنّ العقيدة النصرانية عقيدة خاطئة، ولا يقبلها العقل، وأن نصوص الإنجيل التي تركز عليه تلك العقيدة فيها تحريفات وشكوك».

انتهى ما قاله صاحب (الإسلام والتجديد في مصر)، وقد أشار إلى احتجاج الهيئات التبشيرية لدى السلطات بإجمالٍ فضّله السيد محمد رشيد رضا حين قال^(١): «وقد هاجت بعض مقالات هذه الرسالة المبشرين، فتوسّلوا إلى اللورد كُتشنر، بأن يوعز إلى الحكومة المصرية بإلغاء المنار، ومنع صدوره منعاً أبدياً، ومحاكمة منشئه والدكتور محمد توفيق صدقي، وقد كلّمني في ذلك النائب العمومي في ذلك العهد، عبد الخالق ثروت باشا، وعهد إليّ بأن أقابل رئيس الوزراء محمد سعيد باشا أنا وصاحب الترجمة، فقابلناه وتكلّمنا في هذه المسألة، فنّهى المترجم أن يعود إلى مثل تلك المقالة المستنكرة في شدة طعنها، وكلّمنا في وجوب تخفيف لهجة المنار».

ومما عاد بالخير على السّنة من جرّاء هذه المباحث أن التفت الدارسون إلى

(١) المنار، مجلد ٢١ جزء ٩.

مكانتها العالية، حيث دأب نفر من المتأخرين على العكوف على كتب الفقه وحدها، فهي بمتونها وحواشيها وتقاريرها مَصْدَرُهُم الأوحد، وفي ذلك تحجير للواسع، لأنَّ الأحكام الفقهية مأخوذة من القرآن والسنة، فلا بدَّ أن تكون كتب الحديث كثيرة التداول.

وقد أصبحت قراءة البخاري ومسلم والموطأ في السهرات الدينية نمطاً شائعاً بين أهل العلم في العشرينيات والثلاثينيات، وكان الأساتذة محمد إبراهيم السمالوطي، ومحمد حبيب الله الشنقيطي، ومنصور علي ناصف، ويوسف الدجوي ممن يُقرأ عليهم كتب الحديث في ليالات مشتهرة، يحضرها كبار العلماء في المنازل أو في المساجد، ويتبع ذلك نقاش في المتون والأسانيد.

وقد جدَّ بعد ثلاثين عاماً مَنْ حاول التّخفيف من أهمية السنّة قصوراً وجهاً، فكانت مجلّات المنار إحدى المراجع الهادمة لرأيه، ثم أنشئت أقساماً خاصة بالحديث الشريف في كليات الشريعة وأصول الدين والدعوة بالأزهر الشريف، فتخرّجت أجيالٌ عامرة بحبّ السنّة، مليئةٌ بالتعمق في أصولها ومصادرها، وطُبعت المخطوطات التي كانت مجفوة من قبل فأدت إلى فيض غزير.

لقد انتقل توفيق صدقي إلى جوار ربه بعد عمر قصير نسبياً، ولكنّه في هذا العمر المبارك بفيضه العلمي قد كان علماً من أعلام الإسلام، ولساناً من ألسنته المبيّنة، فرحمه الله قدر ما قدّم من عطاء، ومهّد من عرفان.



محمد رضا الشبيبي الشاعر العالم المصلح

- ١ -

ما ذكرتُ الشاعر الباحث العلامة الأستاذ محمد رضا الشبيبي، شيخ العراق علماً وأدباً وفضلاً إلا ذكرتُ الشريف الرضي، إذ كانَ للرجلين الكبيرين من المواهب والسمائل والمزايا ما يسلكهما في قرن واحد، فكلاهما ذو شرف علويّ يصعد به إلى أسمى ذروات النسب، وكلاهما شاعرٌ شريف المعنى، طاهر الغرض، كريم الاتجاه، وكلاهما بخّاثه مؤلّف يصدر البحوث العلمية ذات الطابع الذاتي المنفرد، وكان للشريف الرضي أخوه الشريف المرتضى يُقاسمه الفضل علماً وشعراً وأصاله، وللشبيبي أخوه الباقر يُقاسمه النبوغ شعراً ووطنية وغيره على مقدّسات التاريخ وحرمة العروبة والإسلام.

ولكن الشبيبي ينفرد عن الشريف بولّعه التام بالهدوء، والبعد عن الضجيج وإذاعة المفآخر العلويّة، إذ كانت له رصانةٌ مطمئنة تدفع به إلى الزهد عن الأضواء، والبُعد عن مجاليّ الفخر والمباهاة! كان في رياسته العلمية والسياسية والإصلاحية يجلسُ على الحشية المتواضعة فوق الحصيرة الممتدة، ومن حوله مراجعُه وكتبه، وطلّاب العلم من تلاميذ النجف الأشرف يحقّون به أستاذاً يُسأل فيجيب علماً، ويُسأل فينفخ مآلاً، وله هيئةٌ تمنع اللّجاج لدى النظر العلمي، ورحمة لا تمنع الإلحاف في الطلب لذي المأرب الماديّ.

وقد أحسن الشاعر اللبناني الأستاذ محمد علي الحوماني وصّفه منذُ نصف قرن، وهو في سن الكهولة، فقال عنه^(١):

(١) مجلة الرسالة، العدد ٢٨٥، ١٩/١٢/١٩٣٨ م.

«في الكوادة من ضواحي بغداد، وعلى شاطئ دجلة بيتٌ متواضع يسكنه الشاعر العراقي الكبير الشيخ محمد رضا الشبيبي وزير معارف العراق، وهو في مُنتهى دور الكهولة، ويؤشك أن ينهد إلى الخمسين، يُعمل عقله فيما يُجيب أو يقترح، تتخلل جملة في القول فتراتٌ تنمّ على ذلك، رزينٌ كل الرزانة وهو يحدث، ويميل في شعره إلى الإصلاح الأخلاقي في المجتمع، لا يحب أن يجامل، ولا أن يظهر أمام زائره بمظهر العزّ المكسوب، يزيد التألم خدّيه وما أحدق بعينه - وهو يتكلم - تجعّداً، يبدو لك من ورائه، ومن خلال ابتساماته الضئيلة سرٌّ عميق في نفسه، يبعثه البؤس والشقاء مما يكابد في قومه.

وإن لم يرقّه حديث جلسائه، ولم يستطع مغادرة المجلس تشاغل بمطالعة الصحف، وقد يشيح بوجهه وهو يتكلم كأنما قد ذكر أمراً نسيه، ثم يُمعن في التشاغل، حتى إذا لفته إليك أدبُ المجالسة، عاد مُقبلاً عليك تقرأ في وجهه الاعتذار لك، لا يستقرّ به المجلس أكثر من بضع دقائق، وإذا لفته الزهر المُحدق بالمجلس رأيته على ما فيه من رزانة يَسْتَحِفُّه النظر، فيهمم مع نسيم دجلة الليل».

وفي حديث الحوماني مجال للنظر، فقد ذكر أن الشاعر الكبير يتشاغل بمطالعة الصحف في مجلسه حين لا يروقه حديث جلسائه، وهي سمةٌ من سمات النبل، لا من سمات الجفاء، لأننا نعرف كثيراً من الزائرين لا يرعون أدبَ المجالس، فيشتطون في أحاديث قد تنقل إلى الخارج، ويقال: إنها كانت في مجلس رضا الشبيبي، وكان في العقاد جرأة بالغة على من يتجهون بالأحاديث وجهة سيئة، فيعقب عليهم معارضاً مُفحماً، ويسكتون في تخاذل، ولكن طبيعة رضا الأنيس في مجلسه، غير طبيعة العقاد المتشدد في ندوته!

وأشفعُ ما قاله الأستاذ الحوماني بما قاله باحث آخر عن الشبيبي؛ هو الدكتور حسين علي محفوظ، وقد كان من رواد ندوته، وله به وبأسرته خِلاطٌ ومجاذبةٌ صار بهما مؤرخاً صادقاً لهذا البيت الكريم، حيث قال^(١):

«كنتُ - ولا أنفك - أُنّاب مجعّمه، وأختلفُ إلى مجلسه، وأترّد إلى داره، وبيته ببغداد مجمع الفضلاء من أحلاف العلم، وعشاق الفضل، وأكابر البلد

(١) مجلة الرسالة، العدد ٨٦٤، ٢٣/١/١٩٥٠ م.

وأشرف الأئمة، كان أبوه (الجواد) - رحمه الله عليه - من أشياخ الكتاب وفحول الشعراء، تُعبّر عن مقامه المحمود في صناعة الكتابة مقاماته التي يغنو لها البديع، ولا يُطاولها الحريري، وتدلّ على مرتبته في القريض أشعاره التي لا يقاوبها القدامى حرّ لفظ، ولا يُضارعها المحدثون دقيق معنى، وكان أجداده من كبار العلماء وأئمة المحدثين، لا تزال آثارهم تدلّ على علو محلّهم، وتنمّ على جلال شأنهم، يذكر اسم الله تعالى في مساجدهم، ويسبح بحمده في الغدوّ والآصال، وكانت مدارسهم تغصّ بالمتفقيّين، ينفرون من كل جانب، ويفدون من كل فج.

وقد شابَه (الرضا) أباه، وورث أجداده، إلا أنه أحاط بأقطار الفضل، وطوّف في مناكب العلم، وجمع الكمال فأوعى، تفقّه بالنجف عند طائفة من العلماء، وأدبه فريق من شيوخ الأدباء، وقد درس المنطق فعُدّ من أفراده، وأخذ الحكمة فصار من أشياخها، وسمع اللّغة فقيّد أوابدها وعقل شواردها، وكتابه (المأنوس من لغة القاموس) أمانة كماله في هذا السبيل، رأيتُه حافلاً بعلم جمّ، وفضل غزير، وأدب طري، ومناقب يُزيّن بها اثنان، تواضع العلماء، وأناة الوزراء، وهو شاعرٌ مجيد، وديوانه المطبوع نبذ مختارة من مجموع كبير يحتوي على بدائع بدائنه وعيون غرره.

كفانا الدكتور حسين علي محفوظ الإلمام بنشأته التعليميّة، ونموّه الثقافيّ، وبقي أن نتحدّث عنه في مجاله المتشعّبة شاعراً وسياسياً ومصلحاً ومؤلفاً، وهي مجالاتٌ تحتاج إلى إسهاب، ولكننا نضع العناصر الموجزة لمن يريد أن يتّسع فيفيض، وهذه العناصر مُتداخلة وليست مستقلة، ففي الشعر مثلاً حديثٌ عن السياسة والإصلاح، وفي التّأليف حديثٌ عن الشعر والسياسة، فالكلّ سواء.

وأقفُ بعض الوقت عند شاعريته، فأعلنُ أنّ اتجاهه المترصّن كانَ ضرورياً في عصره، لأن زعيمِي الشعر العراقي في مطلع هذا القرن، جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي سلّكا في نظمهما سلوكُ الثائر المتحفّز، وصاحبُ الثورة يستشعرُ في أعماقه أنّه قائد يفتحُ المجاهيل، لذلك نلمسُ ليهما شططاً لا يعرف الاتّاد، ولستُ أعني بشططهما ما قالاهُ في السياسة المعادية للاستعمار والأتراك، فالشبيبيُّ قد نظم في مجال السياسة ما يدلّ على وطنية حارّة، وعروية صادقة، ولم يشتهز ما قاله في هذا المجال كما اشتهر ما قال الزهاوي والرصافي، لأنّه لا يعرف الاندفاع

الخطابي في شعره، ولكنّه شاعر مفكّر يحتاج قارئه إلى الرويّة المتّدة، وما يضيره ذلك في شيء، فأبو تمام كان معاصراً للبحثري، وأنت تقرأ شعر البحثري تفهمه لأول مرة، وتقرأ شعر أبي تمام فتحتاج كثيراً إلى التلبّث كي تدرك ما تحت الأغوار من معان، ولم يقل أحد: إن سيّورة شعر البحثري كانت من بواعث تبريزه على غيره؛ بل عُرف لأبي تمام نبوغه وعمقه ودقّته. . إنّما أريد بالشطط الذي أنسبه إلى الزهاوي والرصافي معاً (وهو في الزهاوي أبرز وأوضح) هو ما حاول أن يتفلسف به تفلسفاً لا يصل إلى اليقين، بل يضرب في مجاهل الشك.

فالزهاوي قد جعل قضية البعث الأخروي من شغله الشاغل في نظم الشعر، وكم أخذ يبدئ ويُعيد متسائلاً عن الروح، ما مصيرها بعد الموت أخالدة أم بائدة؟! دون أن يقف على صخرة صلبة من اليقين. وقد جراه الرصافي في ذلك مجارة لا تدلّ على عمق النظرة أو سعة الشمول لدى الاثنين معاً، بل تدلّ على ظنون قد تجول في نفس كل إنسان، ولا يختصّ بها شاعرٌ رائد؛ وهذا بعض ما كان من تأثيرهما لدى الشبيبة الشاعرة، إذ رأينا سيلاً من التساؤل عن عالم الغيب، قد نصّحت به دواوين الشّباب، وقد شمع كل شاب من هؤلاء الأغرار بتساؤل المتكرّر، وعدّه مجال سبق فكريّ ودليل نبوغ فلسفي، ورئي من صغار النقاد من يرحّب بهذا الاتجاه، ويجعله مصدر استقلالٍ في الرأي، وعمق في التأمل.

ولا أدري كيف يكون الشاعر الشاب ابن العشرين أو الثلاثين فيلسوفاً مفكّراً، لأنّه تساءل عن مصير الروح، وأعلن أنّه لا يدري أتخلد أم تبید متأثراً بالزهاوي الذي لا يستقرّ عند رأي، والرصافي الذي تابعه في بعض سبحانه؛ فقد ظلّ الأوّل يكرّر شكّه وحيرته في أكثر شعره، فمرة يصرّح بما يقول به الماديّون من فناء الروح مع الجسم، لأنّهما شيء واحد، ومرة يتشكّك في الأمر، فلا يدري أيقول بالفناء أم البقاء، وليته وقف عند حدّ الروح، بل اتجه بالشكّ إلى وجود فاطر السماوات والأرض، فتخبّط في ليل حالك لا اعتداء به، ولأستشهد بنموذج ممّا قاله في خاتمة حياته، لأنّه لا يخرج عن نغمته المتكرّرة في كثير من صفحات الديوان، كأن يقول تحت عنوان (الشك لا يهدي):

رأيتُ الهدى في الشك والشك لا يهدي كأني بالظلماء قد كنت أستهدي
فطوّراً أقول: الروح كالجسم هالك وطوّراً أقول الهلك منه على بُعد

فِيالِكَ مِنْ شَكِّ يَبْرُحُ بِي وَلَا
أَفْقَدَ جِسْمِي وَحَدَّهُ عِنْدَ مِيتَتِي
أَرْوَحُ وَجِسْمٌ أَمْ هُوَ الْجِسْمُ وَحَدَهُ
أَعَذِّبُ رُوحِي بِالَّذِي أَنَا فَاكِرُ

والقصيدةُ وقد زادتْ أبياتها عن خمسين بيتاً، تدور هذا المدار الحائر المضطرب، وهي نمط من الحيرة تراه في أكثر ما قال الزهاوي.

أما الرصافي فعزّ عليه أن يسبقه أستاذه في هذا المجال، وأن يُسمّى عند قوم بالشاعر الفيلسوف! لأنه تشكّك وتحير، والمسألة بسيطة حينئذ فليتشكّك هو، ولينح منحي الزهاوي حين يقول:

مَتَى تُطْلَقَ الْأَيَّامُ حَرِيَّةَ الْفِكْرِ
أَرَأَيْتَ إِذَا رُمْنَا بِيَانِ حَقِيقَةٍ
لَعَلَّ حَيَاةَ الْمَرْءِ لَيْلٌ سَتَنْجَلِي
فَإِنْ كَانَ ذَا حَقًّا فَإِنْ حَيَاتِنَا
وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الرُّوحَ تَبْقَى فَهَلْ لَهَا
وَهَلْ تَعْرِفُ الْجَثْمَانِ بَعْدَ عُرُوجِهَا

يقول الدكتور (بدوي طبانه) في التعليق على أمثال هذه الشطحات^(١): «ويظهر أنّ الرصافي قد رأى في هذه الأقوال شيئاً من الطرافة استهواؤه، فأخذ يعرضها هذا العرض، ويكرّر هذا التكرار بتجاهل العارف، ولكنه لم يفصح عن النكتة التي يرمي إليها». وأرى أنه أفصح لأن قوله في مطلع القصيدة:

أَرَأَيْتَ إِذَا رُمْنَا بِيَانِ حَقِيقَةٍ
عُزِينَا - مَعَاذَ اللَّهِ - فِيهَا إِلَى الْكُفْرِ
هذا القول يُغني عن كل تعليق.

أما ما نادى به الشاعران من ضرورة حرية المرأة، وتمزيق الحجاب، والدعوة إلى السفور الصارخ، فقد تورّطاً فيه إلى ما لم يقبله قاسم أمين، لأن المصلح الهادي في مصر لم يدع إلى مغالاة ركبتها من جاء بعده، ونُسبت إليه ظُلماً؛ وأذكر أنّ

(١) معروف الرصافي، للدكتور بدوي طبانه، ص ٢٠٦، ط. ثانية.

الزهاوي قد اختارَ لأول عددٍ صدر من مجلة الرسالة^(١) قصيده (تباشير الانقلاب) قال في مطلعها:

من بعد ما انتظرتِ حجاباً ثارت فمزّقت الحجاباً
كان الحجاب يسومها خسفاً ويرهقها عذاباً
وقال الأستاذ الزيات في صدر الصفحة: (نُعاب الشاعر في رقة ولطف على أن يختار للعدد الأول هذه القصيدة).

كما أذكر أن الرصافي أبعد عنه في الشوط حين قال في المرأة:
لم أرَ بين الناس ذا مظلّمه أحقّ بالرحمة من مُسلمه
منقوصة حتى بميراثها محجوبة حتى عن المكرمة
هذا بعض ما هتف به الشاعران الكيران، وكان من لطف الله بقرء الشعر في بغداد أن يكونَ محمد رضا الشبيبي العاقل المتّمد مصدرَ بعث شعري رزين، يعرفُ رسالة الشعر العالية في تقديس القيم ورعاية العقيدة، وصون المحارم، فقال من الشعر الاجتماعي ما جذبَ الانتباه إلى ضرب عالٍ من الفن المتحرر النزيه، تابّعه فيه أخوه باقر الشبيبي ونفر من طلاب الأدب في النجف الأشرف.

وقد كتب الشبيبي مقالاتٍ نقدية عن رسالة الشعر، تحدّث فيها عن المهام العالية التي يقوم بها صاحب هذه الموهبة، إذا عرفَ أنه يصدر عن روح سامية ترتفعُ بالعواطف بعيداً عن نزوات الغرائز، وشطحات السقوط.

ثم أُتيح له أن يكتب مقدمة نقدية لكتاب (معروف الرصافي: حياته وبيئته وشعره) الذي أصدره صديقنا البَحّاثُ الجليل الدكتور بدوي طبانه، فكشفَ عن ملاحظات العصر الراهن، وما طرأ في دور الانتقال من نزعاتٍ فكرية تصدم الراسخ المتيقن من الشرائع والعقائد والتقاليد، هذه المقدمة الهادفة تقومُ مقام مجلد ضخم مليء بالحجج المناوئة لذوي الشطط، وقد حاول قوم نقدها، فصدمهم الواقع الناطق بحقيقة النزق الفكري المتعجّل، ومن الخير للقارئ العربي الغيور أن يقف على بعض ما قال الشبيبي في هذا المجال؛ ومنه قوله:

«لا مناصّ للشعوب الفتية الناهضة في عصور التحوّل والانتقال، بين المحافظة

(١) الرسالة، العدد الأول، ١٥/١/١٩٣٣.

على مقومات حياتها، ومشخصات وجودها وشعائر معتقداتها إلى غير ذلك من أخلاق وأوضاع صالحة، فقد ثبت على الأغلب أن الطفرة غير مأمونة، ولها ماله من عواقب وخيمة، استساغ الرصافي ما استساغ من آراء تلك البيئة الثائرة على علاقتها، وجاهر بما جاهر به من شك وارتباب، في بعض الأصول الاعتقادية، التي لا مجال للشك فيها عند جمهور المسلمين، وكان رائده حرية القول والرأي والاعتقاد، وهو يدين بهذه الحرية، ويقدّسها التقديس كله، بل كان الرصافي ومثله الزهاوي يريان في الجهر بآرائهما من هذا القبيل ضرباً من الجرأة والإقدام، ويعتقدان في الصّمت نوعاً من الجبن والرياء، إلى هذا ونحوه مما أسخط عليهما رهطاً من رجال العلم والدين، وأحفظ كثيراً من الأدباء المعروفين بأصالة الرأي والالتزان، في غير قطر من هذه الأقطار العربية.

غير أنّ الناظر في ديوان الرصافي يجد فيه إلى جنب ذلك أقوالاً تدعو إلى الرفق في مقاضاته، والتأني في مؤاخذته، وفي هذه الأقوال ما يدلّ على الإيمان واليقين وتنزيه الباري (جل اسمه) فضلاً عن الإقرار ببروبيته ووحدانيته، وعلى هذا لنا أن نعد الرصافي ممن خلط الحسنة بالسيئة في أدبه، وقد رضي لنفسه تخطي الحدود، ولم يعرف ليناً أو هوادة في نقده وسخريته وهجوه المقذع، فكان كالريح إذا هاجت عالية نكباء تأتي على ما مرّت به من رطب ويابس، أو هو كالحجر الصلد في اندفاعه من شواحق القنن، تهشيماً لما يقع فوقه، وتحطيماً لمن يقف في طريقه.

وشعره طافح بالعبث والمجون، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية، ولا بدّع فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع، ويخاطبون به العقول، ولا شأن لهم بمخاطبة القلوب، ولا بمناجاة المثل العليا، وليس من الحكمة - فيما أرى - نسج من ينسجون في الآداب الرفيعة، والفنون السامية على هذا المنوال، فالحكمة هي الاعتدال والقصد، وتجنّب الإفراط والتفريط.

هذا بعض ما قاله رضا الشيبني في المقدمة، وقد أنصف الرجل الرصافي فيما يدعو إلى الإنصاف، إذ صرّح بأن في ديوانه ما يدعو إلى الرفق في مقاضاته، ومن أقواله ما يدلّ على الإيمان واليقين وتنزيه الباري عز وجل! كما أن فيما قاله الشيبني ما يرسم تصوّره للشعر الجديد بهذا الاسم، وهو الشعر الذي يخاطب القلوب، ويناجي المثل العليا.

وحقاً كان الشيببي في كثير من شعره حريصاً على أن يسمو بالشعر إلى المحلّ الذي يراه جديراً به، وقد يكون مقلّلاً بالقياس إلى زميليه الكبيرين الرصافي والزهراوي، ولكنّ ما نشر من شعره ينبئ عمّا لم ينشر، وهو كثير كثير كما قال مؤرّخوه، وحسبه أنه واجه تياراً عاصفاً له أنصاره المعجبون، فوقّف صامداً في مهبة، ليلفت القراء إلى مستوى أرقى وأرفع، وقد كان لمكانته وزيراً ورئيساً لمجلس الأعيان، وبحراً من علماء الشريعة ما يجعله مسموع الكلمة ملحوظ المكان.

- ٢ -

يسمّع الإنسان كلمة واحدة من إنسان آخر قد يكون لفظها عفواً دون قصد، فتكشف له عن أمور كثيرة كانت في طيّ الخفاء، وكاتبو التحليل الأدبي المرتكز على مسائل علم النفس، يختارون من سمات الشخص الواقع تحت مجهر التحليل سمة تكون هي مفتاح شخصيته، ولعلّي أقرب من هذا الاتجاه، حين أذكر أنّي فتحتُ ديوان الشيببي عرضاً، فوقع نظري على بيت لم أستطع أن أبرحه دون أن يُحدث في نفسي شتّى المشاعر، فقد عبّر الشيببي ذات يوم سواد العراق إلى مشارف فارس، فرأى قصوراً وأنهاراً ورياضاً، ولكنه هتف من أعماقه قائلاً:

فيا ليتها كانت رُبى عريّة مكرّمة منهنّ رضوى وثهلان!

إن المناظر الضاحكة في غير بلاد العرب لم تُنس الشاعر العربي الأصيل صحراء الجزيرة وجبليّتها الموحشين، فتمنّى أن تكون الأرض جميعها جزيرة العرب، مع أنّ شاعر العرب الأكبر أبا الطيب المتنبي قد مرّ بشعب بوّان، وهو من أجمل منتزهات الدنيا إذ ذاك فسّحره وبهره، وأنشأ قصيدة في وصفه يعتبرها النقاد من عيون شعره، ثم أشفق على نفسه أن يترك هذا المكان إلى غيره فقال:

يقولُ شعب بوّان حصاني أمن هذا يُسار إلى الطعان!

وبيت آخر استوقفني من شعر الشيببي، إذ أراه ذا دلالة تقارب دلالة البيت السابق، فقد قرأت قصيدته الرائعة التي مطلعها:

بيغداد أشتاق الشّامَ وها أنا إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوّق

وفيهما يتحدث عن صلة الشام بالعراق، وأنهما بلدٌ واحد فَرَقَهما المستعمر الغاصب، فرمى الله يده بالتشتيت! وأخذَ يذكر الأماكن الحبيبة على شواطئ بانياس والفرات ودجلة وبردى . . ذكرَ المحب الوامق، ويتشوق إلى الماضي، فيحنّ إلى تدمير الشامية والخوزنق العراقي، وهذا كلّ طبيعي منتظر، ولكن البيت الذي أوقفني في القصيدة، وحسني فلم أنتقل عنه أمداً غير قصير هو قول الشيبلي:

وما الأرض لولا أربعُ عربيّةٍ سوى عطن بالعبقريّة ضيق
إي والله! الأرضُ جميعها ما بين مشرق ومغرب، تضيقُ بالعبقريّة فلا تسعها إلا أربعُ عربيّة! لقد تخيلت أن الشيبلي قد قرأ تاريخ العالم العربيّ في شتى مجاله، وفي عصور ازدهاره، قرأه قراءة المُستوعب الدارس، فأدرك كنوزاً علمية تحدّرت من عصور العباسيين والأندلسيين والفاطميين، مما يعزّ نظيره إذ ذاك على أمة غربيّة كانت تتخبّط في الظلام، فصاحَ صيحتة التي تفجّر منها هذا البيت الرائع! فلولا ربوعُ العرب ما عُرفت العبقريّة! وقد يكونُ في هذا بعض المغالاة، ولكنها مغالاةُ الواصل المطمئن الذي يُريد أن يقول لمن ينبهرون بقشور أوروبا دون لبابها: إنّ لنا ما لهؤلاء من كنوز، وإذا تحيّننا الدهر اليوم فلن نأس من الغد.

كم صلصل هذا البيت في أذني، لأنّي أعرف قوماً يهتفون بالقومية وبالعروبة . . لا لأنهم أدركوا مجد العروبة كما أدركه بحثاً ودراسة وفحصاً هذا الشاعر النابغة، بل ليتخذوا من الهتاف بالعروبة مطيّة إلى شهوات أنانية، وأمجاد زائفة، وإذا كان الزبد يذهب جفاء، فقد تكشفَت الحقائق عن واقع أليم!

وديوانُ الشيبلي صرخة عالية في أذن الشرق النائم ليصُحُو من غفلته، وقد بدتُ تباشير الصباح لعيني الشاعر، فحداهُ الأمل إلى أن يقول تحت عنوان (الشرق الناهض):

نفد الصبرُ فهبّت فزعاً	وأبى السيف لها أن تضرعا
بعثَ الله لها راقدةً	من عصور ما أقصّ المضجعا
أزعمتُ ألا يراها حملاً	غاصب صال عليها سبعا
جمّح الشرق على رائضه	بعد ما استنّ ذلّولاً طيعا
في جهات الأرض خرق كلما	رفأ الساسةُ منه اتسعا
جاذبتنا بردة الملك يدُ	ملأتهَا من فسادٍ رُقعاً

صلةَ الشرقيّ بالماضي اسلمي لا تُعودي سنداً منقطعاً
واذكري ما فعلَ الغرب بمن هذبوه واصنعي ما صنعا
نصر الله عهداً بالحمى سالفات ورعاها مارعى

والقصيدة طويلة تحتاج إلى قراءة مستأنية، وهي تمثل مذهب الشيبلي في الشعر، حيث يتحاشى الفضول، ويتوخى القصد، ولا يشطّ به الخيال إلى أفق غير معهود، وقد تحدث عن الشعر كما يزنه وينظره في مرآته فقال^(١):

«من أهل زماننا قومٌ شغفوا بالجديد لأنّه جديد، وذهبوا إلى استبعاد القديم من تراثنا في الآداب والفنون لأنّه قديم، والحق أن العبرة في الشعر ليست في حداثة عهده، على ما يراه قوم، ولا في قدم عصره كما يذهب آخرون، بل العبرة في هذا الباب بلطف المعنى، وسلامة المبنى، وبلاغة العبارة، وصدق العاطفة، وجمال الشعور والتصوير، وإنّ من الشعر لما يهزّ النفس، ويُرضي الوجدان، وإنّ من الشعر لما يلهم الصواب ويهدي إلى الحكمة، فإذا توافرت في الشعر القديم هذه الخصائص فهو شعرٌ جديد، وإذا خلا منها الشعر الحديث فهو شعر غثّ عتيق».

بهذا التعريف الدقيق لجيد الشعر ورديته، اختار الشيبلي أن يكون شعره وفق ما وضعه معياراً للشعر الجيد، على أنه كان لا ينسى أنه وزير تربية وتعليم، وشيخ للعلماء في معهده الديني، وفرغ دوحة علي، فكان ذلك كله باعثه على الترفع عن خسيس الأغراض، ومُنحدر الأوصاف، حتى الغزل، وما على أحدٍ معابة إذا تغزل، فقد كان جدّه الشريف الرضي أبرع شعراء الغزل في عصره، وحجازياته الوجدانية راقصةً مرقصة، هذا الغزل العفّ الشريف يطرقه الشيبلي في حذر، فما يكاد يتحدث عن لوعته المشبوبة، وهي لوعة يحسّ لذعتها في حناياه حتى يتذكّر نسبه وحسبه ومرباه، فيترك حديث الوجد المشبوب إلى حديث الخلق الكريم، والعفة الطاهرة، والسلوك المتحرّز العيوف، وهذا بعض ما يجده القارئ في قوله تحت عنوان (الحب الطاهر):

أما لأسيرٍ في هواك سراحُ وهل لتباريح الفؤاد براحُ

(١) أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية (مقدمة الكتاب) معهد الدراسات العربية.

أجل سلّمتك العاشقون قلوبها
إذا بدؤوا يستعطفونك عاودوا
هووا فاتّقوا بثّ الغرام فأضمرّوا
خليليّ ما أحلى الغرام سجيّة
وما أخطر العشق الذي ليس دونه
يقولون: إتيان الكبائر جائز
يريدون للدنيا ضماداً وإنهم
ألا هممّ يكبحن من شهواتهم
فقد عصفت بالمكرمات زعازع
إذا أظلمت أخلاقنا وتجهّمت
وفيما تقدّم من شعر الشاعر ما يقدّم النموذج الصادق لمنحاه التعبيري، فلا
أزيد.

وللشبيبي جهادة السياسي الشهير، فمع أنّه كان في مبتدأ الشباب عقب الحرب
العالمية الأولى، فقد تقدّم أساتذته وشيوخه في النجف الأشرف إلى تأليف جماعة
من شباب النجف والكوفة والحلّة وكربلاء تدعو إلى الإصلاح السياسي، وكانت
قصائده وقصائده رفقاءه من تلاميذ النجف الأشرف، وهم جماعة من عشاق اليقظة
الاستقلالية، ولهم أسلوبهم الشعري المعروف بطابعه العباسي، كانت هذه القصائد
تقوم مقام المنشورات السياسية في بعث الهمم.

وقد عرفوا أن الاحتلال الإنجليزي للعراق لا يُريد الاستقلال، بل يريد الحماية
والسيطرة، فهبوا في وجهه هبة لم تحدث من قبل، لأن السيطرة التركية من قبل
كانت سيطرة أخ في العقيدة مهما تجرّ، أما سيطرة الإنجليز فسيطرة عدو لا يخفي
العداء، وقد اجتمع الحاكم الإنجليزي في النجف داعياً إلى التهذئة في ظل الحماية،
ولكنّ صوت رضا الشبيبي صرّخ في وجهه طالباً الاعتراف باستقلال العراق،
وغضب الحاكم معلناً أن الطلب مرفوض، فانفضّ الجمع حين خرج رضا الشبيبي
منسحباً ووراءه ذوو شيعته من طالبي الاستقلال.

ورأى أن يترك العراق إلى الشام ليجتمع بالشريف حسين مطالباً إياه أن يتحد
الشام والعراق في وجه العدو الغاصب، ومعه من التوقعات ما يدلّ على أن هذه

الرغبة مطلب شعبي عام، وقد جعل الشاعر السياسي من دمشق مقراً لحركته السياسية فكان همزة وصل بين مجاهدي العراق والشام، ولو سارت الأمور مسارها الطبيعي لتألفت دولة عربية موحدة من القطرين الكبيرين، ولكن تعاون إنجلترا مع فرنسا قد أجهض هذه الحركة المباركة، لتنفرد فرنسا بسورية ولبنان.

وتتحكم إنجلترا بالعراق، فأثر الشيببي الرجوع إلى وطنه ليبدأ النضال من جديد، وقد كتب الشاعر المناضل فضلاً طويلاً في ستين صفحة تحت عنوان (رحلة في بادية السماوة) تحدّث فيها عن جهاده الشاق حين اخترق البادية سنة ١٩٢٠ بين ضواحي مدينة دمشق غرباً إلى شاطئ نهر الفرات في الفلوجة شرقاً، وقطع هذه المسافة على ظهور الجمال في ست وعشرين مرحلة.

وقد صرّح الشيببي أنه مُدّة إقامته في الشام كان وثيق الصلة بقيادة الثورة العربية، وبالرأي العام معها، ولم تنقطع في هذه الفترة رسائله إلى المجاهدين من إخوانه في العراق حين جدّ الخصام بين السوريين والمستعمرين، حيث زحف الجيش الفرنسي على دمشق من لبنان، واحتل الشام بعد واقعة (ميسلون) واستعرض القائد الفرنسي المتغطرس جيشه في قلب دمشق ليعلن الاحتلال القاهر، فلم يسع الجالية العراقية في الشام إلا أن ترجع إلى بغداد مستأنفةً جهاد الإنجليز.

وما كتبه الشيببي في هذه الرحلة سجلٌ أمينٌ لفترة قاسية من فترات المقاومة العربية، وهي أصدقُ تعبيراً في بساطتها الأسلوبية مما يسوقه المؤرخون في خضمّ من الوثائق والتقارير تتضارب، ولا تتعارف!

وقد عُرف للشاعر مكانه بعد أن نالت البلاد استقلالها فرأس أعمالاً قيادية هامة، وتولّى الوزارة خمس مرات، ورأس مجلس الأعيان، ولكنه لم يكن يلبث في هذه المناصب زمناً يتيح له أن ينهض بالإصلاح تربوياً ودستورياً، لأن صراحته الواضحة ليست من وسائل النجاح السياسي في عهد مُراوغ يتعاون فيه الحمل مع الذئب، ويشذ من يطمعون في الرئاسة حين يخلصون الودّ للإنجليز، ليبقوا في مراكز الخطوة والجاه!.

وفي أوقات فراغه من العمل الحكومي كان أحب شيء إليه أن يفرغ إلى بحوثه العلمية، وهي بحوث عليها طابع الجدة والأصالة، إذ كان من همّه الأول أن يبتعد عن المكرر المعاد، وأن يطرق بحوثاً لم تُعرف من قبل، مهما بذل الجهد في إتقانها

تمحيصاً وترجيحاً وتدويناً، ومن هذه البحوث ما كتبه من مؤلفات خاصة بفلاسفة اليهود في الإسلام، وهو موضوع لم يطره عربي من قبل، ولم يعتمد الدارس فيه على بحوث الاستشراق، لأنهم يسرّون حسواً في ارتغاء حين يجعلون الإسلام مجرداً من الفلسفة، وكل ما ينسب إليه مترجم عن غير لغته، ومن بحوثه أيضاً حديثه الفريد عن مؤرخ العراق ابن الفوطي، وعن أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، وعن التراث الفلسفي للعرب، وعن تاريخ النجف الأشرف، وعن المأنوس من لغة القاموس.

أما المسألة العراقية فقد كتب عنها كتابة المؤرخ والممارس في وقت واحد، إذ نصّ على ما شاهد ورأى، وكان صريحاً في سرد المآخذ، وتبرير ماله وجه من التبرير، وهذا ديدنه الواضح، لأنه لا يتحدث عن التاريخ ليقول: هأنذا، بل ليقول ما يعتقد عارفاً أن الذين يكتبون المذكرات السياسية كثيراً ما يقلبون الحقائق، ليكونوا وحدهم دعاة الحرية وخدّام الشعب، وهي مأساة لحظها الشيبني نفسه وتحدّث عنها بمرارة في شعره حين قال:

فتنة الناس - وُقيت الفتنة -	باطل الحمد ومكذوب الثنا
ربّ جهنم حولوه قمراً	وقبيح صيروه حسناً
أيها المصلح من أخلاقنا	أيها المصلح، الداء هنا
كلّنا يطلب ما ليس له	كلنا يطلب، حتّى أنا
لم تزل - ويحك يا عصر أفق -	عصر ألقاب كبار وكُنّى
حكم الناس على الناس بما	سمعوا عنها، وغضّوا الأعينا
إننا نجني على أنفسنا	حين نجني ثم ندعو: من جني؟
خسرت صفقتكم من معشر	شروا المال وباعوا الوطناً

ومن أنفس ما قرأته لمحمد رضا الشيبني ما كتبه عن رحلته إلى المغرب، حيث دُعي إلى الاحتفال بمرور ألف عام على إنشاء جامعة القرويين، فأتيح له أن يتنقل بين حواضر المغرب، وأن يرى الآثار التاريخية العظيمة التي قرأ عنها من قبل، وقد وُصف كل ما وقعت عليه عينه وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالنقد الأخوي العاطف، حين يرى ما لا ينسجم مع تقاليد العرب وتعاليم الإسلام، والرحلة بهذا التوجيه العالي فصل من فصول التربية الخلقية والسلوك الحضاري، كتبه أديبٌ غيور تتقد جوانحه

حميةً على المثل الرائعة التي نادى بها الإسلام، ومن أول سطر من سطور الرحلة تقرأ ما يُنبئ عن الملاحظة الدقيقة، والوعي المتيقظ، واستمع إلى بعض ما قال الرجل الكبير^(١):

«كانت حقوقنا مهتزمة، ولغتنا ممتهنة في مكاتب شركات الطيران، وفي إذاعاتها وإعلاناتها، فلم تسمع إذاعةً إلا بلغة أعجمية حتى فيما يتعلق بالرحلة - وفي الرّكّاب جماعة من العرب - وحسبنا ما لاقيناه في مدينة النور باريس من التعتّ والإجراءات التعسّفية، ومن خلف المواعيد، والإخلال بها مع العرب والمشاركة، كأنهم قوم لا حساب لهم في تلك البلاد، وهؤلاء المُرشّدون وأدلاء السّواح في الديار الأندلسية، وفي الجزيرة الخضراء، يسمعونك من التعريض بماضي الأمة العربية ما يدلّ على فساد ذوق، إن لم نقل: قلة أدب.

ألا يمكن أن تتمّ رحلتنا ضمن بلاد العرب، أو داخل هذه الأقطار الشرقية، حيث لا ينال المسافرين حيف، ولا تبخس لهم حقوق، كما تمت قبل ذلك رحلات الآباء والأجداد على ظهور الجمال! لهذه العلة يضطر من يقصد المغرب الأقصى من بغداد إلى دمشق أو القاهرة، أن يقصده عن طريق القارة الأوروبية والسواحل الغربية لا عن طريق القارة الإفريقية، وهي طرقٌ ملتوية كثيرة النفقات، ولكنها حافلة بمظاهر النشاط والحياة، وأكثر مما مرّ أننا قوم يغلب علينا التواكل، وتعوزنا رُوح التآزر في سبيل تحقيق مصالحنا المشتركة في بلادنا بالذات».

والرحلة جميعها من هذا الطراز العالي نقداً وتعليلاً واقتراحاً وتوجيهاً، ولا يدرك شعور الشيبني بسوء معاملة الأجانب لأمثاله من فضلاء العرب إلا من يتمتّع بإحساسه العربي المشربّ نحو الكمال، وقد رأى حدائق فارس ولم يُمسس بسوء، ولكنه قال متلهّفاً:

فياليتها كانت ربي عربية مكرمة منهن رضوى وثهلانُ فكيف بشعوره، وقد لمس هوان العربي من ملأ غير ملئه، وممن؟ ممن يأكلون خيره، وينهبون ثمره، ثم يتبجحون ويتعاضمون!!.

* * *

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني عشر، سنة ١٩٦٥، ص ٨ وما بعدها.

من شيوخ الترتيل

محمد رفعت - علي محمود - أحمد ندا

- ١ -

ازدهرت إذاعات القرآن الكريم في دول إسلامية مختلفة، فأوحت للسامع المسلم ثقافة دينية كانت تنقصه من قبل، فإن سماع القرآن يترك صداه القوي لدى كل من يُصغي إليه، ولو لم يكن ذا ثقافة ما، لأن من معجزات هذا الكتاب الخالد أن يَرده كلّ ظامئٍ فيرتوي منه، متى أخلص النية، وآمن بمن أنزله، ومن بُعث إليه، وإذن فنفع العامة من سماع كتاب الله مؤكّد ملموس، وقارئو الكتاب في الإذاعات المختلفة يشتركون في تثقيف الشعب المسلم ثقافة تهديه إلى سواء الصراط.

أقول ذلك لأنني كتبتُ مقالاً تأبينياً لراحل كبير من قراء كتاب الله ذوي الصيت الممتد، قلت فيه: إنه شارك بقراءاته المتتالية في نهضة شعبية لعقول سامعيه من مختلف الطبقات. قلتُ ذلك فرأيتُ مَنْ يعترض على أنني جعلت هذا المقرئ المرموق ممن أسهموا في نهضة المستمعين بما يَسروه من ترداد كتاب الله! وكأنّه رأى من الإسراف أن أخصّ قارئ كتاب الله بمقال تحليلي، وهو يرى عشرات الكتب تظهر خاصّةً بصغار الممثلين والممثلات، وذكريات المطربين والمطربات، فيعدّ ذلك دليلاً نهضة ثقافية! لأن الثقافة هذه الأيام قد اتجهت إلى الفنّ وحده وكأنّه كل شيء.

أما أن يتحدث كاتبٌ عن صاحب صوت ندي يصدق بأعذب كلام قيل في كل اللغات، فهذا ما لا يروق، ومن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض من كتب يُنعى على طبيبٍ مجتهد يقرأ كتاب الله مرتلاً، فيقول: لم نكن في حاجة إلى قراءته، وقد خسر تخصصه العلمي، يقول ذلك في حين يرى طبيباً كالدكتور إبراهيم ناجي ينظم

الشعر، فيعدّه عبقرية، أو مهندساً كعلي محمود طه يُبدع القصيد، فيراه المثل الذي يُحتذى، أما إذا التجأ طبيبٌ إلى ترتيل كتاب الله، فهنا تقوم قيامة المغرضين، سخطاً على من ترك تخصّصه، ثم لا يسألون لماذا ترك الطبيب والمهندس تخصّصهما الأصيل!!.

إنّ كتاب الله وحده كان مجالَ الثقافة العامّة للشعب في القرن الماضي، حين لم تكن في مصر كلها إلا خمس مدارس! وقد ذكّر مؤلف (كنز الجواهر في تاريخ الأزهر)^(١)، وهو الأستاذ سليمان رصد الحنفي، سجلاً ناطقاً بالأرقام الموثقة يشهد أنّ (١٠٣٠) ألفاً وثلاثين مدرّساً من حملة كتاب الله كانوا يعلمون القرآن في شتى مساجد القطر المصري، وهم وحدهم الذين ثقفوا العامة بكتاب الله! حين لم تكن لنظارة المعارف غير خمس مدارس!! أفلا يكون هؤلاء من جنود النهضة التعليمية، وقد قاموا بمجهودهم المخلص دون نظر إلى راتب ماديّ، بل استجابة لشعور مؤمن نبيل.

على أنّ من الحسن الجميل أن نسجّل أن قراءة القرآن ترتيلاً وتجويداً كانت تقام لها الحفلات البهيجة في الأفراح والأعراس، حيث لم تكن هذه القراءة خاصّة بالمآتم كما نشاهد الآن، ولعمري إنه تقليد جميل سبّقنا به الأجداد، ونقل عنه الأحفاد، وأذكر في هذا المجال وصفاً رائعاً كتبه الأديب الكبير والشاعر العظيم خليل مطران حين استمع إلى قارئة قرآن، بلغت ذروة التأثير في بعض الأعراس الفاتكة بمنزل أحد الوجهاء، فلم يتمالك أن يُعبّر عن مشاعره بمقالٍ رائع نرى من المتعة أن نعرضه على القارئ الكريم، فلعله يُعيد هذا التقليد الغابر في حفلات الأعراس كما كان في الأمس القريب.

مقال الأستاذ خليل مطران^(٢):

«كانت ليلة الأحد الثاني من هذا الشهر مفتتح ليالي العرس في منزل الوجيه الفاضل حسين بك شاهين، والرجلُ معروف المكانة في العاصمة، كان منزله ضائقاً بقاصديه على اتساعه، فأقمناه لنسمع فيه تلاوة القرآن الكريم، ولا يخفى أنّ الترتيل

(١) كنز الجواهر، ص ٢٠٤ وما بعدها.

(٢) خليل مطران، أروع ما كتب، ص ٧٤، للدكتور محمد صبري.

إذا اقترنت فيه براعة التلحين بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى، كان ذلك منتهى الطرب، ولقد كان من هذا القبيل ما سمعناه ليلة الأحد، فإن المجودة كانت فتاة من الفيوم تدعى أسمهان، محجوبة عن الناس بستار كثيف، وعلمنا أنها تناهز الثلاثين من العمر، ولا زالت بكرًا، وأنها تقسم رزقها بينها وبين أسرة كبيرة، وأنها صالحة تقية، لا ترتل إلا الآيات الشريفة، فإذا فعلت فبعد وضوء، ولا شك أن شدة العقيدة هي التي تكسب صوتها تلك الرنات التي تنفعل بها نفوس السامعين انفعالا غير مألوف.

ومما يجدر بالذكر أنها تقرأ القراءات على اختلافها، ولا تكاد تردّد في النطق بكلمة مع ما في ذلك من الصعوبة، بل هي تجيد كل قراءة كأنها من القبيلة التي تنسب تلك القراءة إليها، وأول ما سمعناه منها سورة يوسف، ففي تلاوة القسم الأول منها، وهو مقدّمة المواضع المؤثرة في القصّة، كان صوتها يُسلسل الآيات كعدّ الجواهر على صفاء، وكان تلحينها مستويا، كأنه ممهّد لما يتلو، فلما ألقى يوسف في غيابة الجب، ثم نقله السيارة إلى مصر، وجرى له فيها ما جرى من عظيم الأمور، أخذ الصوت يتنقل بين المعزن والمفرح، والترغيب والترهيب، والقرع والزجر، والوعد والوعيد، وكل ذلك يتميز من عامّة سرد القصّة، كما ترتفع من السهل الهضاب بين أخضر مُدبّج، وصخري مخرّج، وكلّما تمادت في القراءة عظم الشعور في نفوس الحاضرين، وجميعهم من ذوي الأدب والمقام يصغون حق الإصغاء للقول الشريف الذي يُتلى عليهم، ثم يكون صدى شعورهم التهليل والتكبير في غاية من الحشمة والوقار.

وأذكر أنها لما وصلت إلى قول إخوة يوسف: ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ رَقَّ صوتها وحنّ ولطف، حتى طفرت الدمعة من عيني، وذلك أنها كانت تختار لكل موقف أمد النغم موافقة له، ولا تخلط بين الألحان على حدّ سويّ في كلّ موضع، كما يفعل سواها من القارئین، فإذا فرغت من اللحن الذي هي فيه، ودعت الحالة إلى اختيار غيره أطالت الوقف، وانتقلت إليه من أقرب مآتيه إلى اللحن السابق.

وبعد أن مضى مطران في وصف الصوت النديّ كما شاءت ريشته الملهمة، ذكر أنه انصرف مع الحاضرين في سرور يُمازجه الخشوع، وقد عرف معنى الطرب على حقيقته.

قد يظنّ بعض المتسرّعين أن المقرئ الذائع الصيت إنسانٌ رُزق حلاوة الصوت، دُونَ أن يكون له قُدْر كاف من الثقافة العلمية في ميدانه، وهذا ممّا يحدث أحياناً، ولكنّ الموهبة وحدها لا ترتفع بصاحبها إلى حيثُ ينال الإعجاب التام، دُونَ دراسة لعدّة علوم منها علم النحو، فهو الذي يحدّد الوقف الصحيح للمقرئ، ويمنع الوقوع في الخطأ، وهو الذي يُساعدُ على جلاء المعنى ووضوحه، ويخسّم النقاش عند الاعتراض، ومنها علم التجويد وهو في صحيحه علمُ الإلقاء، أو فنّ الإلقاء على التدقيق، لأنّ الإلقاء إذا اقتصر على معرفة مخارج الحروف من جوفية وحلقية وشفوية، وعلى صفات الحروف من شدّة ورخاوة، واستعلاء وانخفاض وقلقلة، وعلى مواضع الإدغام والإظهار والإخفاء وأحكام النون والتنوين وغيرهما، لا يبلغ مداه دون إحساس تام بأثر ذلك كله في نفس القارئ وتأثيره لدى السّامع.

كما أنّ الإمام بالمعنى العام للسياق واجب ضروريّ، إذ يتوقّف عليه الاهتداء إلى الإعراب النحويّ، ودراسة كل ذلك أمرٌ ليس بالهين، فإذا أضيف إليه معرفة أوجه القراءات أو بعضها كان الجهد العلمي المبذول جهد عالم لا مبدعٍ فحسب.

ومجالس التلاوة التي تعدّدت حلقاتها في مساجد مصر كانت ميدان هذه الدراسة في الجيل الماضي، وكادت تنقطع في هذا الجيل للأسف، فقد روى أجدادنا الكثير عن مجالس التلاوة في المسجد الحسيني عقب صلاة الجمعة، حين كان يتصدّرها أكابرُ المقرئين من أمثال الشيخ إسماعيل سكر، والشيخ حسن المناخلي، والشيخ حنفي برعي، وكلهم بارع في فنّه، بل فيهم من كانت تستقدمه تركيا عاصمة الخلافة لإحياء سهرات رمضان، كالشيخ إسماعيل سكر الذي حازَ إعجاب السلطان عبد الحميد، فمَنّحه نوطاً من أنواط التشريف، وأهداه ساعة ذهبية غالية الثمن، ظلّ مباحياً بها حتى انتقل إلى جوار ربه، فباعَها الأسرة بثمن جزيل.

ولا يزالُ مقرئوا اليوم يُمنحون الأنواط والنياشين من شتى الدول الإسلاميّة، ومنهم من يحرص على تزيين صدره بما مُنح تباهياً في حفلات القراءة، وإذا كنْتُ لم أشهد مجالس القراءة التي تصدّرها الشيخ إسماعيل سكر، فقد أُتيح لي أن أتردّد كثيراً على مجالس القراءة التي كان يتصدرها الشيخ عامر السيد عثمان في مسجد الإمام الشافعي، وهو مقرئ عالم بخاصّة، وعلى يده تخرّج كثيرٌ من المبدعين، وكان أحد المختبرين للأصوات الإذاعية، وله رأيه المسموع، أما مجلس التلاوة يوم

الجمعة في مسجد الإمام، فقد كان حافلاً بعلية القوم، ومنهم كبار الوزراء وأرباب المناصب الرفيعة، ممّن هاموا بمجالس الذكر الحكيم.

وأذكرُ بهذه المناسبة حديثاً لا أنساه، فقد كنتُ مع أستاذه الكبير السيد شحاتة المفتش العام للغة العربية بوزارة التربية والتعليم، نشهد إحدى هذه الحلقات المباركة، وقد بلغ الخشوعُ مبلغاً تحقّق فيه قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١) إذ اقشّرت الجلود هيبةً، ولانت القلوب رحمةً وحنيناً، فقال الأستاذ سيد شحاتة للشيخ عامر في غمرة من التأثير الروحي الجاذب: يُخَيِّلُ إِلَيَّ يا سيدي أنّ الإمام الشافعي معنا يجلس في الحلقة مستمعاً، فقال الشيخ عامر فوراً دون اتّداد: أمّا أنا فيخيّل إليّ أنّ رسول الله ﷺ يجلس معنا مستمعاً متفضلاً. وهنا سرّت في النفوس كهرباء أخذتُ لم تستفق الأرواح منها إلّا بعد دقائق! فأبي تأثير يبلغ بالنفوس هكذا!.

على أنّ المنصفين من أصلاء الكتاب كانوا يشيدون بهؤلاء الكبار في مقالاتٍ متتابعة في الصحف، فإذا انتقلوا من عالم الشهادة إلى عالم الغيب كتبوا عنهم مؤبّنين، وإذا كان من أساتذة هذا الجيل المرحومون الشيوخ: أحمد ندا، وعلي محمود، ومحمد رفعت؛ وهم أساتذة من نسمعهم اليوم وأساتذة أساتذتهم، فإني أحتفظ بمقالين كتب أحدهما الأستاذ عبد العزيز البشري عن الشيخ أحمد ندا عند رحيله، وكتب الآخر الأستاذ عبد الرحمن صدقي عن الشيخ علي محمود غبّ وفاته.

ولم يتقدم بي الزمن فأشهدُ مجالس الرجلين وأستمع إليهما فأقول عنهما ما أحسُّ وألمس، ولكنّ الزمن سمح باستماعي واستماعي ببعض مجالس الشيخ محمد رفعت في عهده الأخير، فأغرمتُ به غراماً فوق الوصف، وحين انتقل إلى جوار ربه كتبت عنه مقالاً صادقاً بمجلة الهلال أفيه بعض حقه عن خبرة وعيان! وسبيلي الآن أنّ ألمّ ببعض ما قيل عن الشيخين الكبيرين، مما يعطي القارئ المعاصر فكرة صادقة عنهما بقلم أستاذ أصيل.

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

تحدّث الأستاذ البشري^(١) عن الشيخ أحمد ندا، فذكر أنّ صوته لم يكن حلوّاً بالمعنى المتعارف، ولكنه كان قوياً شديداً القوة، يرتفع إلى ما لا يستطيع أن يرتفع إليه صوتٌ غيره، وهو عريضٌ متّسع، إذا جُلجل وأنْصقل صار أشبه في وُضوحه بصفحة الأفق، وقد كان صائداً لا يخطئ سهمه متى سنحت الفرصة، كان من أولئك الأفاضال الذين بعث الله في نفوسهم تلك الموهبة النيرة، التي تشقّ وحدها طريقها في الفنّ فتَهَيئ لها السبيل، وتُبدع أحداثاً لم تكن معهودة من قبل، وهكذا أبدع الرجل في فن ترتيل القرآن بدءاً لا عهد للناس به من قبل.

وللشيخ أحمد ندا في ليلته التي يختارها للقراءة المتكررة ثلاث نوبات: في النوبة الأولى يظهر متخادلاً ضعيفاً، حتى ليعتقد السامع أنّه الليلة ميّئوس منه، وقد يطيلُ علاج صوته فلا يبلغ به ما يريد السامع، فإذا جاءت النوبة الثانية يرى السامع به فُتاءً وقوة لا عهد له بهما من قبل، وخرجَ صوته مرناً واضحاً ليس عليه من الصدا غير القليل، فيقرأ ولا يأخذ في قراءته سُمْتاً واحداً، بل ما يزالُ يترجّح بين فنون النغم، ليلتمس النغمة التي تُعجب وتروق، أما النوبة الثالثة فلا يتعلّق بها وصفٌ واصف، لأنها فوق أن يصفها قلم مُجيد.

وقد عاش الشيخ أحمد خمسين سنة أو تزيد لا يكادُ يستريح من السهر ليلة واحدة، ولقد يسهر الليلة في أسبوط، ويسهر الليلة التالية في المحلة الكبرى، فيبدع في الأولى كما يبدع في الثانية، ما ترى على صوته أثراً للضعف أو انخزال.

أما الأستاذ عبد الرحمن صدقي^(٢)، فقد قال عن الشيخ علي محمود: «إن نوابيع المقرئين لعهد كثيرون، وهم يختلفون بعضهم عن بعض أشدّ الاختلاف في جوهر الصوت وطبقته، وطريقة القراءة، وموضع الإجادة، وسر التأثير؛ فمنهم من كان إلى التضخيم أميل، ومنهم من كان إلى الترقيق، ومنهم من لم يُرزق حلاوة الصوت، لكنه أوتي مقدرةً على التصوير، ومنهم من يعمد إلى التطريب، ومنهم من يظهر في تلاوته شجّيّ التخشع وبخّة البكاء، وما إلى ذلك من الألوان.

(١) المختار، للأستاذ البشري ١١٠/٢.

(٢) مجلة (المجلة) أبريل، سنة ١٩٦٠م.

ولقد استمع الشيخ علي محمود إلى هؤلاء وغيرهم، واشترك في السهرات مع بعضهم، إلا أن ثروته في الفن ما زالت تزداد، ويتوقّر حظّه منه، حتى أصبح بعد قليل إمام طريقة في القراءة لا يُنافسه فيها منافس، ذلك أن الشيخ علي يجمعُ في فنّه معظم محاسن هؤلاء القراء المحسنين، فهو إذا رفع بالقراءة صوته رائعُ الجهارة والتفخيم، وإذا رققه كاد يذوب من فُرط النعومة واللين، ويخافت به فإذا هو همّس المتناجين، ثم يغير فيه على مقتضى المعنى، فيبلغُ ما لا يبلغه أحد في قوة الأداء وصدق التصوير».

ثم التفت الأستاذ صدقي إلى ناحية هامة حاول أن يوضّحها دون لبس، فذكر بأنّ مقدرة الشيخ علي محمود هي في فنّ القراءة، قبل أن تكون في ألحان الموالد وموشحاته، لأنّ بعض الناس يعتقدون أنّه يبدع في قصّة المولد النبوي وما تضمن من موشحات وقصائد أكثر من إبداعه في التلاوة، وهؤلاء من خصوم الشيخ الذين لا مشاركة لهم في حفلات المولد، فيحاولون أن يقصروه عليها حتى لا يزحمهم في الميدان المشترك، ولكن الذي لا نشك فيه هو سبقه الظافر في ميدان القراءة أولاً.

وبعض السامعين لا يلتفتون إلى جلاء المعنى، ويشغلهم حسن الصوت عن تأمل المراد من قول الله، وهؤلاء قاصرون محجوبون، ولا ذنب للشيخ معهم، فهو يمثل آيات الله تمام التمثيل غرضاً ومعنى قبل أن يسوقها في صوت مؤثّر خلّاب، ومن يريد النغم لذات المنغم، يفوته اللحن والمعنى معاً، إذ لا صوت دون بيان. هذا بعض ما يقال عن أحمد ندا وعلي محمود، أما محمد رفعت وقد ألفته إلف المشاهد المتمثّل، فلا بدّ له من مقال خاص أصف فيه ما رأيته رأي العيان، وسمعته دون حجاب.

- ٢ -

محمد رفعت

بلبل الفردوس

قد يكون من المصادفة المحضة أن يُولد الأستاذ محمد رفعت في الربيع، وأن يذهب في الربيع، وقد يكون ذلك رمزاً مقصوداً لموهبة طائرٍ ملهم أخذ يردّد ألحانه

العذبة في رقة وإبداع، فأسر الأذان وأبهج النفوس، ثم انتقل إلى الفردوس في عرس الحياة وبهجة الربيع، ليستأنف غناؤه الساحر في ملأ رفيع، ومَن يكون فتان الفردوس في طهارته وقديسيته إن لم يكن من طراز رفعت الحبيب؟؟.

لقد عجب بعض الناس أن يكون هذا المقرئ الخاشع فناناً موهوباً، ونسوا أن أكبر المطربين من المغنّين لا يحسن دوره إلا بمصاحبة (أوركستر) مكتمل يرسم له طريق النغم، ويهيئ له جو التردد ارتفاعاً وانحداراً، وهمساً وانتفاضاً، بل إنّ الصوت يتضاءل وينكمش، فتأتي الألحان المُسغفة لتنقذه من فشله الذريع؛ أما محمد رفعت فيستعين بصوته وحده على أداء رسالته العجيبة، فيبلغ من الإبداع والروعة ما ينقل الناس من الأرض إلى السماء، فيعيشون لحظات ممتعة في أوج ملائكي تضيئه أنوار الخلد، وتعبق في أفيائه عطور الجنان.

نشأ الرجل نشأة متواضعة، فلم يحذق أصول النغم على أستاذ محترف، بل كانت أذنه المطبوعة دليل توفيقه، فهو يستلهمها وحدها الصواب، فتهديه، وكان من الطبيعي أن يدرس أصول التلاوة من مدّ وقطع وإدغام وإظهار، وهي ميسورةٌ ذلول يلم بها أكثر المقرئين، فليست تُساوي فتيلاً إذا جانبته الموهبة الأخاذة!! وكم في الناس من يحيط بها من القراء دون أن يبلغ معشار ما لدى رفعت من سحر بهيج.

وإذا كانت دراسته الثقافية لا تُتيح له أن يتفهم معاني الإعجاز في كتاب العربية الأول، فقد كانت روحه المشرقة الصافية تصل إلى المعنى المراد عن طريق الفطرة الملهمة، والسليقة المطبوعة، فهو يعرف مواضع الترهيب والزجر، وأساليب التشويق والترغيب، فيكون في الأولى إعصاراً عنيفاً، وفي الثانية نسيماً رقيقاً يهب على روض شدي، فكأن معاني الكتاب العزيز تُفسّر تفسيراً واضحاً في تلاوته!! حتى ليسأل السامع: أدرس الرجل شروح القرآن دراسةً الحاذق، ثم استطاع أن يصوّر المعنى في أنغام متساوقة مصقولة؟ تلك معجزة (رفعت) الخالدة!! فقد فسّر كتاب الله بما لا يبلغه سواه من القراء.

وثانية نسجلها للرجل، فقد أثبت بتغريده الساحر موسيقية القرآن إثباتاً لا يحتمل الشك، فشدهوّه الفريد في تسلسله وامتداده يريك من فنون البلاغة أعاجيب، فيظهر لك انسجام الألفاظ، وتآلف المعاني، وقوة التصوير وروعة الإيحاء، بما لا تحتاج معه إلى أستاذ فني أديب، وإنّ كتاب الله ليظهر في إعجازه البليغ مسموعاً من حنجرة

رفعت الموهوبة، فيدعو عشاق الأساليب أن يتابعوا هذا الطراز القشيب في بهجة وافتتان.

وأنا أعتقد أن الرجل نفسه لا يدرك من اصطلاحات القول وتعريفات البُلغاء شيئاً، ولكنه ينطق بالإعجاز عن طبيعة أصيلة، كما يأتي البدر بالضوء، والزهر بالأريج!!.

وكم يدهشك رفعت حين توازن بينه وبين غيره من المقرئين!! فهو يقرأ القرآن قراءة متصلة متماسكة، فلا ينتقل فجأة من آية إلى آية، أو منتصف سورة إلى ختام غيرها، كما يعتمد عشاق الإطراء والمديح من أدعياء المقرئين، فترى أحدهم يترك ما يفيض فيه من معنى أخاذ، ثم يعتمد إلى معنى لا صلة له بما يقول، دون أن يتم المعنى الأول، ولا سبب يدعو إلى هذا النشاز المزعج غير ما يدركه المقرئ من أن أول سورة الرحمن مثلاً أو آخر سورة القمر مما يوافق إبداعه الخاص، ويستهوو جمهوره الأمي!! ولا عليه بعد ذلك إن أتم كلام الله أو بتره بترأ يدعو إلى المؤاخذه والتشريب! هذا مسلك مستنكر يستميل الأسماع بتلاعب الصوت ومد الحروف، وإظهار التحنن والتواجد في غير موضعهما، حتى ليخيل إليك أن من يفعلون ذلك من المقرئين، على وقارهم المنتظر، ناشئون خلعاء يغنون، لا يقرؤون!!.

وكم أشعر بالتقزز والامتناع حين أرى قارئ كتاب الله يجعل من صوته آلة ميوعة وتختث، دون نظر إلى خطر منزلته، وجلال رسالته، فأين هو من مقرئ موهوب كالأستاذ محمد رفعت، يجعل المعنى المقروء ميزان انطلاقه وانقباضه، فهو يعمد إلى تصويره كما ألهمه، فيأتي رفيعاً ساحراً يمتع الأرواح، وله من خشوعه وخشيته روعة خالصة تستدرّ الدموع!!.

قرأ مرة قول الله عز وجل في سورة القصص عن موسى عليه السلام: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبَى يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَتَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فوقف عند قوله ﴿تمشي﴾ ثم بدأ بقوله ﴿على استحياء قالت﴾ فظن بعض السامعين من دارسي النحو والبلاغة أن الرجل قد أخطأ، ورجاه أن يصل، فابتسم رفعت وقال: أرى أنها قالت على استحياء، ولا أرى - كما فهمت أنت - أنها تمشي على استحياء، لأن الحياء في القول ألزم منه في السير!! وكان ردّاً طريفاً يدل على أن الشيخ قد فهم كل كلمة مما رتل على الناس، بل جاوز فهم العامة بفطرته

وقد قرأتُ أن الشيخ على ثقافته المحدودة كان يحتفظ بمقدار كبير من أسطوانات (بيتهوفن) و(ليست) و(باجنيني) و(موزارت)، إذ وُجدت كلها في بيته بعد وفاته، فقد كان في عزلته الخاصة يسمعها على انفراد، فيفهم من إعجازها الساحر، ما يفهمه كل فنان من جوهر فنه الأصيل، وذلك غير عجيب، لأن الموسيقى لغة عالمية يدركُ منها كل إنسان على قدر استعداده وميوله، وإذا احتاج السامع العادي إلى مرشد يهديه، فالفنان الملهم أستاذ بموهبته، وقد يرى فيما يسمع ما لا يراه مدرس محترف، بل إنه ليصل بحاسته الملهمة إلى هواجس وخوارج، لم تكن في حساب المبتكر الأول!! والشاعر الموهوب يقرأ القصيدة لغيره، فتتكشف له عن آفاق لا تتاح لأكثر من يقرؤون، وقد يرى في إيماضها المتوهج بوارق لم تبدُ لعيني ناظمها الأصيل، وما أقرب الشعر من الموسيقى، بل إن الفنون جميعها أخوات، أقول: قرأت هذا . ولكني بعد كثير من المعاودة رأيت أنّ ما قرأته مجرد احتمال لا يرقى إلى اليقين .

ولم يكن الأستاذ فناناً في أدائه الصوتي فحسب، بل كانت روح الفنان تغمر جوانب وضيئة من حياته الخاصة والعامة، فأثبت بذلك أن الموهبة الرفيعة كلّ لا يتجزأ، فإذا أسعدت إنساناً ما ببعض هباتها الجزيلة، فإنها تبسط جناحيها على مختلف مشاعره ومكتمل عناصره، ومن نلّس لديه من الفنانين شذوذ الموهبة فلا يمكن أن يكون أصيلاً في إبداعها، بل ربما كان التصنّع سبيله إلى الطبع المختلس، وقد نهضت نقائمه النفسية لتشي بتزييف موهبته وشاية بقاء!! .

فمحمد رفعت كان يحاسب نفسه حساباً عسيراً في كل خطوة يسيرها بين الناس، فلا يُقيم من العروض المادية ميزاناً للتواصل والانقباض، إلا إذا وجد من التصرفات المقصودة ما يهدف إلى مساس بكرامته، والنيل من موهبته عن طريق ملتو خداع، وبهذا وحده نُعلّل ثورته على الإذاعة المصرية حين انتقصت من أجره، وفضّلت غيره عليه دون سبب معقول، فقد انسحب الشيخ لا لِمُصْالَة ما يأخذ، بل لما يُوحى به هذا التصرف من إهانة متعمّدة، وتقدير طائش . وفي حياة الرجل من الترفع والبذل ما يثبت أريحيته النادرة، ووفاء الحميد، فقد كان يتقاضى في الليلة الواحدة مبلغاً

يصلُ في بعض الأحيان إلى مئة جنيه!!^(١) ولكنه كان يرفض هذا المبلغ عن سماحة إذا كانت الليلة ليلة جمعة في غير القاهرة، حذراً أن تفوته قراءة الكهف في مسجده المعتاد، غير ناظر في سبيل وفائه إلى ما يضيع عليه من ثروة تلمّظ لها الشفاء.

بل إنه حين استطارت شهرته، ونقلت الإذاعة صوته الملائكي إلى شتى ربوع الإسلام، رأت وزارة الأوقاف أن تنقله إلى مسجد شهير من مساجد القاهرة ذات الدويّ والصليل، ولكن الشيخ أبى أن يفارق مسجداً ألفه وعرف أناسه، مهما بلغ من التواضع حداً لا يتكافأ مع عظمة الفنان الموهوب، وقد كاد الناس يمرون بمسجد (فاضل) بدرب الجماميز، فيجدون الطريق مليئة بالبسط والفراش إذ ضاق المسجد بأهليه، فاضطر المصلون إلى التحلق حوله في مختلف الطرقات، وجلسوا في وهج الظهيرة يستروحون من صوت الشيخ نسيماً يبّدد الحر اللافح، ويمسّ الشغاف بالفرحة والحنين.

وحين ترصد له الدهر في حنجرتة الذهبية، فحاربته في موطن خلوده وسرّ عبقريته، أثر الانزواء في منزله المتواضع من غير صخب أو ضجيج، وتعرض لضروب أليمة من الفاقة والاحتياج، إذ كان لا يُبقي على شيء من كسبه الوفير، وقد تناقلت الصحف على غير إرادته نبأ فاقته فسارع عشاقه إلى التبرع، وقدموا إليه ألف جنيه ليستعين بها على الدواء والشفاء، ولكن روح الفنان تأبى الهوان، فقد برم رفعت بما أذيع، وأعلن شكره للمساهمين متلطفاً في ردّ المال لأصحابه، آيياً أن يلتمس الشفاء عن طريق الاكتساب!!.

وقد غفلت الإذاعة عن تسجيل صوت الرجل في حياته، حتى إذا لمست حاجة السامعين إلى سحره، ذهبَتْ تلمس الأشرطة الخاصة لدى عشاقه ممن استطاعوا أن يحرزوا بعض إبداعه، ومن المؤسف أن أكثر هذه الأسطوانات يُسيء إلى صوت الرجل!! لأنه سجّل في خريف حياته حين بدأت العلة تثقل على حنجرتة الماسية، وفرق شاسع بين ما سمعناه من صوت الرجل منذ ربع قرن، وما نسمعه الآن من أشرطة متأكلة، هي بمثابة الخط المقلوب على ورق النشاف، وهكذا نترك الفنان الموهوب يحترق في دنيا الجحود والنكران، تتابه العلل وتبرح به الفاقة، حتى إذا

(١) أيام كانت المئة شيئاً مذكوراً!.

لقي نهايته المحتومة اندلعت جذوة الحزن وراءه، ولعلنا نأخذ من ذلك بعض العبرة، فلا نفرط مستقبلاً في موهبة فنان جديد.

لقد جعلت عنوان هذا البحث (محمد رفعت بلبل الفردوس)، وليس هذا الوصف من ابتكاري، ولكنه من وحي الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، حيث أنشأ في رثاء الشيخ قصيدة حارة من عيون شعره، ألمح فيها إلى تجاهل الدولة له أثناء مرضه، على حين تغدق الذهب على الراقصات والمطربات، يقول الشاعر:

أُسْرَى إِلَى الْفَرْدُوسِ بَلْبَلُهُ وَتَسَبَّحَ الْآيَاتُ فِي فَمِهِ الْفَجْرُ بِالصَّلَوَاتِ كَفَنَهُ وَهَقَّ الْأَذَانُ لَهُ فَضَمَّخَهُ عَرَجَتْ بِهِ الرَّحِمَاتُ مِنْ كَمَدِ سِجْنَانِ حَطَّافٍ فَوْقَ هَيْكَلِهِ سَجَنَ الضِّيَاءُ وَكَانَ يَسْكُبُهُ وَعِزَابُ حَنْجَرَةٍ مَصْفًى سَكَنْتُ بِهَا (فَهَّاقَةً) رَصَدْتُ مَجْنُونَةً لَمْ تَدْرِ مَا حَبَسْتُ أَجْرَاهُ مِنْ فَمِهِ كَمَا نَزَلْتُ يَتَلَوُّهُ رَفْرَافاً بِأَجْنَحَةٍ تَشْقَى الْمَعَاصِي حِينَ تَسْمَعُهُ وَإِذَا صَغَى جِبْلٌ لِقَارِئِهِ مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ تُبْصِرُهُ كُلَّ الْعِبَادِ عُنُوا لِرَهْبَتِهِ الْمُسْلِمُ الْمَعْمُورُ مَسْجِدَهُ مَا زَالَ يَسْقِيهِمْ وَيُثْمِلُهُمْ حَتَّى أَذَابَ حَشَاهُ، وَاخْتَلَفَتْ وَأَوَى لِعُزْلَتِهِ، وَمَا ذَكَرْتُ جَحْدَتَهُ، بَلْ جَحْدْتُ صَدَاهُ فَمَا	وَالذِّكْرُ فِي فَمِهِ يَرْتَلُهُ وَجَنَاحُهَا لِلْخُلْدِ يَحْمِلُهُ وَمَضَى لَشَطِّ الْغَيْبِ يَنْقُلُهُ بِدَعَائِهِ وَغَدَاً يَقْبَلُهُ كَمْ رَاحَ فَوْقَ الْأَرْضِ يَثْقُلُهُ وَكَلَاهُمَا أَبَدًا يَجْلَلُهُ مِنْ صَوْتِهِ الصَّافِي وَيَنْهَلُهُ يَبْغِي الصَّيَاتَ بِهَا فَتَخْذَلُهُ لِلصَّوْتِ، يُطْلِقُهُ فَتَعْقِلُهُ وَحَيّاً ضِيَاءُ اللَّهِ يَرْسِلُهُ آيَاتُهُ الْكُبْرَى يَفْصِلُهُ دُونَ السَّرَائِرِ لَا تَنْزِلُهُ وَيُذِيبُ قَلْبَ الْجَنِّ مَقُولُهُ خَشَعَتْ ذَرَاهُ، وَنَاءَ كُلِّكَلِهِ وَتَكَادَ رَوْعَتُهُ تَزْلُزَلُهُ وَهْدَاهُمْ لِلنُّورِ مَشْعَلُهُ وَالرَّاهِبُ الْمَغْمُورُ هَيْكَلُهُ بِحَلَاوَةِ التَّرْتِيلِ جَدُولُهُ عَلَّلَ عَلَى جَنِيهِ تَقْتُلُهُ (مَصْر) الْوَفِيَّةُ مَا يَعْلَلُهُ حَفَظْتُ لَهُ رَنْمًا يَسْجَلُهُ
---	---

لو أنه غنى لها نغماً
لرأيتها حفرت بمهجتها
يا قوم لا طوبى لما ذهبت
تسقيهم الحرمان ممزوجاً
فإذا دنا الحصّاد مختلجاً
وقفت تسحّ على مقابرهم
متهتّك الصبوات تأمله
تمثاله، ومضت تدلّله
دياكُكم بالفنّ تفعله
بعصارة النسيان حنظله
بسكينة الأموات منجله
نوحاً دُموعُ الشُّكل تجهله!

لله، كم أحب أن تُقرأ هذه القصيدة قراءةً فاحصة، ليعلم القارئ كم يعاني
الملهمون من الشرفاء، وكم يحظى المهرجون من الأدعياء.

* * *

محمد سعيد العباسي

من أعلام الأدب السوداني

أردتُ أن أختار شاعراً من شعراء البعث الأدبي بالسودان، ليكون الحديث عنه بعض الحديث عن نهضة هذا البلد الشقيق، وإذا كانت نهضة الشعر قد سبقت نهضة النثر في الوطن العربي، فالحديث عن شاعرٍ رائد يعطي تصوراً طبيعياً لمرحلة من مراحل التقدّم الفكري، والأستاذ محمد سعيد العباسي أحدُ الأعلام البارزين في النهضة الشعرية، وله اتجاهه الرصينُ في صياغة الشعر، إذ كان من أنصار الديباجة المشرقة، وله نظراء، منهم الأستاذان عبد الله عبد الرحمن وعمر البناء، وبعضُ الناقدين يحاولون أن يجعلوهما في شُعبةٍ فنيةٍ غير شعبيته. وما أرى ذلك، وبخاصّة الأستاذ عبد الله عبد الرحمن، فهما قريب من قريب.

تحدث الأستاذ محمد إبراهيم الشوش في كتابه (الشعر الحديث في السودان)، عن الشاعر العباسي (ص ٧٩) ووصفه في العنوان بأنه شاعر البادية، لأنّ أثر البداوة واضحٌ في أكثر قصائده، وقد تعدّدت رحلاته إلى البادية في فترات متكررة من حياته، فوصفَ رمالها ونباتها وحيوانها وليلها ونهارها، وليس بلازم أن يكون شاعر البادية ممّن رحلوا إليها وعاشوا فيها.

فالشاعر المصري محمد عبد المطلب (الأستاذ بدار العلوم سابقاً) كان يُعرف بشاعر البادية، ولم يكن له عهد بالصحراء، إذ عاش متنقلاً بين سوهاج والقاهرة، ولكن عواطفه الوجدانية نحو البادية قد ألحقت به هذا الوصف، وأنا أرى أن كلّ محب للشعر العربي القديم عاشقٌ للبادية، إذ انطبعت صورها في ذهنه عن حبّ خالص، فأورثته هيأماً بها، والبادية مع ذلك كلّ ميدان الكرم والرجولة والوفاء وإباء

الضميم، وهي شمائل يروق لكل إنسان أن يتَّسم بها، لذلك نجدُ لحديث البداوة رنةً شجية عند أهل الحضرة.

أذكر أنّ الشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد المطلب قد رثى الأديب الكبير الشيخ علي يوسف في حفل مشهود، فلم يهجم على الموضوع من صميمه، كما فعل حافظ إبراهيم وخليل مطران وغيرهما من شعراء الحفل، بل افتتح الرثاء بتلّيف بدويّ حار، فيه حنينٌ إلى نجد، وجيرة الجزع، وصادفٌ هذا الافتتاح تجاوباً مع السامعين في الحضرة، فاهتزّت أرواحهم اهتزازاً مُطرباً، وقالت الجرائد تعليقاً على القصيدة: «لقد ارتجت لها أندية وآفاقها» وذكر التعليق في صدر القصيدة بالديوان، أما الافتتاح الشجيّ المعبر فهو^(١):

تَجَافَى بنا نجدٌ فهل أنت مُنجد وشطّيت بأهليه النوى فتبدّدا
ذوى نبتة لَمّا جفا المُزن تربه ومزّ به حلو من العيش أرغد
أجيرتنا بالجزع نرتقبُ اللقا على الدهر أم ذات الفراق المؤبد
عُدونا إذا شطّيت بكم عن رباعنا نوى قذف بالعود فالعود أحمد

والرمز واضح في مجال الرثاء، فإنّ بُعاد نجد، وذبول نبتة بعد البشاشة، ورحيل الجيرة بالجزع دُون وعد باللقاء، كل ذلك له مُعادلٌ نفسي، هو رحيل على مدنف، وكانت هذه الرموز ذات علاقةٍ حميمة بالسامعين، فأطربت وهزّت.

يذكر الدارسون في ترجمة محمد سعيد العباسي؛ أنّه وُلد في إحدى قرى النيل الأبيض سنة ١٨٨٠، وتنقّل في عددٍ من الكتاتيب، ليحفظ القرآن ويَشْدُو شيئاً من علوم العربية، وفي التاسعة عشرة من عمره التحق بالمدرسة الحربيّة المصرية، وظلّ بها عامين (١٨٩٩ - ١٩٠١) ولم يتمّ تعليمه، ولكنّه اتجه في المدرسة اتجاهاً شعرياً لم يُنحَ لغيره، إذ كان من أساتذة المدرسة شاعرٌ كبير، هو الشيخ عثمان زناتي، وهو أصيلٌ في ثقافته العربية وديابجته الشعرية، فتأثّر به تأثراً شديداً، وعرضَ عليه ما ابتدأ به من النظم، فصادفَ ترحيباً منه وتقويماً، وما زال العباسي يلهجُ بفضل الزناتي على اتجاhe الأدبي في قصائد مُتواصلة، قد أُشير إلى بعضها.

وإذا كان مُفتتح هذا القرن (وهو الزمن الذي أقام فيه العباسي بالقاهرة) حافلاً

(١) ديوان عبد المطلب: ص ٦٧.

كبار الشعراء من أمثال البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومحرم والكاشف، وإذا كانت الجرائد اليومية تُطالعُ القُراءُ كلَّ يوم بقصائد هؤلاء الكبار، وإذا كان عثمان زناتي أحد المُجِدين في هذا المضمار، فإن تكوين الشاعر الأدبي قد نما في هذه الفترة نمواً وجَّهه إلى النمط الذي يرتضيه! وأسوأ ما نرى عند بعض الناقدين أن يجعلوا كلَّ ما قيل في هذه الفترة شعراً تقليدياً.

وفي كُتُب التاريخ للأدب السوداني عنوانٌ كبير هو (الشعراء التقليديون)، ويعني بذلك كاتبه شعراء النمط العربي الفصيح، وهو عنوانٌ خادع، إذ يُلقي ظلالاً سيئة على شعراء هذه الفترة، حين يُوحى بعدم الأصالة! وإذا صدق هذا الاتجاه فكلُّ شعراء العرب تقليديون بهذا المعنى الخادع، لأنَّ المحافظة على العمود الشعري كانت طابع الأعلام الكبار من هؤلاء على توالي العصور! وإذن فجرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي، وأبو العتاهية والبحتري والمتنبي وأبو العلاء والشريف تقليديون! وهكذا حتى ننتهي إلى مدرسة البارودي! والأوفق أن يُوصف بالتقليد من يفقد الطبع الشعري، ويعدمُ الموهبة الدافعة، يوم يُعالج النظم علاجاً صناعياً، أما أن يوصف المبدعون ممن التزموا النمط الأصيل بأنهم تقليديون فذلك تمويه وخداع.

نعود إلى أستاذ العباسي وهو الشاعر الكبير عثمان زناتي، الذي قال عنه العباسي^(١):

سريتُ في ضوئه حيناً يَقُومُ مِنْ عودي ويفسحُ لي من صدره الرحب
والذي بعث إليه عند قيامه بطبع ديوانه قائلاً^(٢): «إن لي وريقاتٍ من الشعر أريدُ
طبعها ونشرها، وعزمتُ على إهدائها إليك قياماً بواجبك نحوي، فهل لسيادتك أن
تقبله وتأذن لي بنشره».

نعود إلى عثمان زناتي فنذكرُ أنه على أصالته الشعرية، ومكانته في عصره ظلَّ مجهولاً لدى شعراء اليوم، وقد قال الأستاذ أحمد العوامري بك عنه^(٣): «كان رحمه

(١) وقفات مع العباسي، ص ١٦٩ للأستاذ عبد القادر إدريس.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مجلة الرسالة، العدد ٤٠٩.

الله من الفئة الممتازة من شعرائنا، الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، ولم يبالغ الشيخ محمد المهدي حين عدّه الشاعر الثاني بعد شوقي، وقد رويت لي منذُ حقبة طويلة بعضُ قصائده ومقطوعاته، فأحسستُ من الرصانة والجزالة شيئاً كثيراً الشبه بشعر المتنبي والبحري وأبي تمام.

وقولُ العوامري: «إن زناتي قريب الشبه بأبي تمام والبحري». له ما يؤكّده من شعره أحياناً، وأقولُ: أحياناً. لأنّه في حين آخر يتمثّلُ الجاهليين لا العباسيين، فيميلُ إلى القوّة الآسرة، وهذا ما عناه الأستاذ أحمد الزين حين قال عنه^(١):

ولا تنسيا عثمان إنّ قريضه يعيدُ لنا عهدَ البدء ويذكر
يؤرّقه برق الغضى ويشوقه نسيمٌ على أزهار (توضح) يخطر
فذاك امرؤٌ هدته أيام وائل لأيماننا، فالجيل للجيل يشكر

فإذا أراد القارئ نمطاً من شعره الذي لا يذكره أحد الآن فليسمع قول الزناتي:
أرقتُ وأصحابي خليّون نوّم وما أنا ذو ثأرٍ ولا أنا مغرم
ولكنّ همّاً بين جنبيّ هاجه عليّ ذوّ القربى عفا الله عنهم
فإن يكُ حلمي مدّ أعناق جهلهم فلا زلتُ فيهم يجهلون وأحلم
إذا أنا أتهمتُ استقلّوا فأنجدوا وإن أنا أغرقتُ استقلّوا فأشأموا
والقصيدةُ طويلة من هذا النمط القوي، ولي عن الشاعر بحثٌ متواضع نشرته في كتابي (قطرات المداد) تحت عنوان: (عثمان زناتي شاعر مجهول).

ولعلّ من التوفيق الأدبي أن ينشأ محمد سعيد العباسي نشأته الشعرية الأولى في رعاية هذا الشاعر المجيد، وأن يترسّم خطاه، ويظلّ عالقاً به، يرأسله نائياً، ويحنّ إليه في شوق، ثم يستأذنه في طبع الديوان بعد عشرين عاماً من فراقه فيأذن.

شُغف محمد سعيد العباسي بسلامة الأسلوب الشعري منذ نشأته، ثم جاء عامل آخر دَفّعه إلى التمسك بهذا المنحى الفنّي، هذا العامل هو النشأة في بيئة دينيّة تدرّس القرآن والحديث وكُتب السلف في العقيدة والتشريع، وكُنْتُ من قبل قد أشرتُ إلى مُشابهة بينه وبين شاعر البادية في مصر محمد عبد المطلب، وهذه المشابهة لها أكثر من وجه.

(١) قطرات المداد، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ١٤٥ وما بعدها.

وقد تحدّث الأستاذ عباس محمود العقاد عن عبد المطلب بما ينطبق تماماً على الأستاذ محمد سعيد العباسي، فماذا قال العقاد؟ لقد كتب فصلاً عن عبد المطلب في كتاب (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) يؤكّد أن ما شاع من الأسف على تأخر المسلمين في مطلع هذا العصر صحبه شعور بأن النجاة في الرجوع إلى الإسلام في عصره الأول، فكلُّ قديم قريب من الإسلام في مصدره الأول هو عنوان الصحة والمثانة، وعاصمٌ من الضعف والركاكة؛ لذلك التجأ طلاب اللغة القويمة إلى ما كان في عصر الدولة الأموية والدولة العباسية من نمطٍ بياني، حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة في البادية، ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة، يقول العقاد^(١):

«وليس بين شعراء هذه الفئة من يمثلها، ويستغرق فيها، كما مثّلها واستغرقَ فيها الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المتبدّي في لفظه وأغراض كلامه، لأنّه سلك إلى هذا المذهب من طريقيّن، طريق الأصل العربي، وطريق النشأة الدينيّة، فلم يكن له منصرفٌ عن مذهب البداوة إلى مذهب غيره».

وإذا كان مؤرّخو عبد المطلب وصّفوه بشاعر البادية، ومؤرّخو محمد سعيد العباسي وصّفوه بشاعر البادية، وإذا تشابهت النشأة والثقافة والاتجاه، فالحنين المتّصل في شعر الشاعرين إلى مراعٍ البادية طبيعيٌّ أصيل.

كان الشاعر يزور البادية في السودان كثيراً، لأنّه زعيمٌ طائفةٍ دينيّةٍ كبيرة، لها مئآت المساجد وآلاف الأشياع، ومنهم من ينتظرون لقاءه في ربوعهم النائية، ويحسبون أوقات زيارته السنوية بكل دقة، فيستقبل استقبال الشيخ المرشد، ويُلقي العظات، وينفق الأموال، وقد كان ميسوراً غير مقترّ عليه في الرزق، إذ ورث عن أبيه أرضاً خصبة يستثمرها بعناية، وقيمٌ بها عدة مشروعات رابحة.. وهذا الاستقلال الاقتصادي جعله بعيداً عن مؤثرات الوظائف الحكومية، فلا ينظم الشعر في احتفالات عامة، بل هو أميرٌ نفسه في كلّ ما يقول، وقد عرف عنه المسؤولون ذلك، فحفظوا له مقامه. وأشعاره ذاتُ حظٍّ رائع بين تلاميذه فهم يحفظونها، وقد يرتّلونها بنغمة غنائية في مجالس السمر، على أن إقامته الطويلة بين مريديه في البادية

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ٤٤، للأستاذ العقاد.

قد ساعدت على صفاء نفسه، وجعلته يخلو إلى خواطره، فيتحدث عنها بما سار وذاع، يقول بعض أصدقائه - مُلخصاً^(١) -:

«وكان مُولعاً بحياة البادية، يؤثرها على حياة المدن، وقد جابَ وديانها وسهولها وجبالها وأحياءها، ولم يترك مكاناً لم يزرها، ويبقى به ردحاً من الزمن يتملى جماله وروعته، وقليلٌ من البدويين أنفسهم من جابوا الصحراء كما فعل العباسي، وهو يبدأ الرحلة من الخرطوم ترقُّلُ به النياق، وتُخدي بين الفلوات فرحاً بقاء أحبائه من البدو، وكانت تُعجبه ساعته معهم بتلك البساطة والصدق»، وطبيعي أن يتحدث في شعره عن هذه الرحلات فيقول:

لم يبق غير السرى مما تُسرَّ له	نفسى، وغير بنات العيد ^(٢) من عيد
المُذنيات من رهطي ومن نفري	والمبعداتى عن أسرى وتقليدي
آثرتها وهي بالخرطوم فانتبذت	تكاد تقذف جلموداً بجلمود
تؤمّ تلقاء من نهوى وكم قطعت	بنا بطاحاً، وكم جاثت لصيخود
نَجْدٌ يَزْفَعْنَا آلٌ ويخفضنا	آلٌ، وتلفظنا بيدٌ إلي يد
حتى تراءت لحاديننا (التهود) وقد	جئنا على قدرٍ حتم وموعود

ووصفُ الرحلة على الناقة من الشاعر المعاصر، يكون تقليداً إذا تابع الأقدمين، ولم يُمارس التجربة، أما الذي قامَ بالرحلة، واهتَزت خواطره بانفعالاتها، فسَطَرَ بعض ما يجيش بخاطرهِ، فلن يكون مقلداً، أذكر أن بعضَ الشعراء وصفَ الطيّارة، وباهى بما وصف، وقَدّمه إلى العقاد دليلاً على تجديده، فقال له: «أنت مقلد، لأنك لم تركب الطائرة، ووصفتها ليقال: إنك تتحدث عن المخترعات الحديثة، ولو ركبت الناقة ووصفتها كما أحسستَ بها كنتَ في ذلك مجدداً، لأنك تتحدث عن شعور صادق». فالذين أخذوا على العباسي هيامه بوصف النياق مخطئون. . والقول ما قال العقاد.

والشاعر في رحلاته لا يكفُ عن تسجيل انطباعاته، حتّى ما كان فيها في مجلس الوعظ جامعاً، أو في مجلس النصيحة منفرداً مع المنصوح، فقد جاءته ذات مرّة من

(١) نظرات في شعر العباسي: ص ٣٩.

(٢) النياق.

تقول: إنّ الرزق في السماء، وإنّ السعي لا يفيد، لأنه مُقدَّر مكتوب. وهو معنى يشيع لدى العامة، وكأنّه اعتقاد ديني، وقد ظنّت هذه القائلة أنّ العباسي سيُبارك اعتقادها، ويشكر لها إيمانها، ولكنه نصّحها بالتي هي أحسن، فأفهمها أنّ السعي على الرزق واجب، وأنّ الكسل داءٌ عضال، ثم اختمرت التجربة في نفسه، فصارت قصيدةً يقول في بعض أبياتها:

قالت: الرزقُ في السماء بقدر	كلُّ أمرٍ يجري إلى مستقرٍّ
ليس في الناس من إذا شاء أضحى	رافلاً في ثياب يمينٍ وخير
قلتُ: يا هذي أقصري عن مقال	لستِ تذرّين منه ما لستِ أدري
أثقلتُ كاهلي مذاهب أشياء	خ كرامِ شمّ العرائين زُهر
لا أملُ السرى ولا أتركُ السعي	اتكّالاً على المقادير تجري
ومرامي إحدى اثنتين فإمّا	عيش حرّ، أو لا فميئة حرّ
آه لو كان لي بساطٌ من الريح	أوافيه أو قوادم نسر
فأطيرن نحو مصر اشتياقاً	إنّها للأديب أحسن مصر

والبيت الأخير يؤكد إحساساً تأصل في نفس الشاعر طيلة حياته، فله في الحنين إلى مصر قصائدٌ ملتزمة، ولعل أكثر دواعي هذا الحنين أنّ مصر قد ساعدت على اكتماله الأدبي، وأن أيامه بها على شهورها القليلة في المدرسة الحربية كانت عاملاً توجيه في مساره الحيوي، والشاعر - في كلّ شعره - صادقٌ عفويٌّ ينطق بما اشتمل عليه وجدانه دون أن يتزَيّد، وقد وقف مع أصدقائه الذي نأوؤا مصر موقف الخصومة مذكراً إياهم أن ديار العروبة وطن واحد، بل إن ديار الإسلام وطنٌ أكبر، ومحاولة النيل من قطر إسلامي جريمةٌ دينية قبل أن تكون جريمة سياسية، ومما قاله العباسي:

ليت شعري هل للكنانة علم	بقلوب ذابت جوى واشتعالا
أم تُراها تذرّينا بأننا احتملنا	في هواها القيود والأغلالا
ما فقدنا الصبر الجميل وإن كنا	فقدنا من الزمان اعتدالا
عنّت يرهق النفوس وحال	لم نجد للإفصاح عنها مجالا
ورأينا حسن الوفاء لزاماً	فاضطفينا الأعظام والإجلالا
لرجالٍ كانوا بمصر بدوراً	وكرام شدّوا إلينا الرّحالا
بلغونا رسالة الأدب العا	لي نثاراً، والشعر سحراً حلالا

عَلَّمُونَا مَعْنَى الْحَيَاةِ وَكُنَّا قَبْلُ عَنْ فَهْمِ سَرِّهَا ضَلَّالًا

- ٢ -

وللعباسي شعر كثير في بلاد زارها بالسودان، فهو ذو حنين دائم لما ألف من المكان، وهذا شعورٌ طبيعي نبحت عنه إذا غاب، فللموطن أثره القوي في نفس الإنسان شاعراً أو غير شاعر، واندلاغُ الحنين في نفوس الشعراء نحو الديار البعيدة، والأطلال المهجورة نابغٌ من إحساسٍ قويٍّ يعمل في النفس، وليس شعراً الأطلال في أكثره تقليداً أو محاكاة، فهو رمزٌ لمعاناة قاسية يعانيها الشاعر الحضري الذي لم يَألف الأطلال، فيرمز بها إلى ما يحسّه من حرمان، وللعباسي في هذا المنحى شعراً جيداً، منه قصيدته عن (سنار) ذات المجد القديم، والتاريخ الحافل أيام العزة والاستقلال في عهد ملك أبي متحرّر، وقد وازن الشاعر بين غابرها الزاهر، وحاضرها الأليم، فقال من قصيدة باكية:

زُرْتُ سَنَارَ وَالْجَوَانِحُ أُسْرَى	زَفَرَاتٍ هَدَّتْ قُوَى الصَّبْرِ هَذَا
إِنْ مَحَا الدَّهْرُ حَسَنَهَا فَلَقَدْ كَانَتْ	مُرَاداً لِلْمُحْتَفِينَ وَخَلْدَا
كَمْ لَهَا فِي الرِّقَابِ مَنَا دِيُونٌ	وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَلَّا تَوْدَى
وَجَمِيلٌ لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي	وَيَدُّ بِالصَّنَائِعِ الْغَرَّ تَنْدَى
فَأَفْعَلَ الْخَيْرَ مَا اسْتَطَعَتْ تَجَدُّهُ	سَبِيحاً جَاعِلاً مِنَ الْحَرِّ عَبْدَا
كُنْتُ مَثْوًى لِلْأَكْرَمِينَ وَمِينَا	نَا رَخِيّاً لِخَيْلِهِمْ وَمُنْدَى
وَرَحَاباً قَدْ زُيِّنَتْ وَقَبَاباً	زَانَ أَرْجَاءَهَا مَلِيكَ مَفْدَى
عَاشَ مَا عَاشَ وَهُوَ جَدُّ أَبِي	لَمْ يُعْفَّرْ لَغَيْرِ مَوْلَاهُ خَدّاً
عَجَمْتُهُ الْخَطُوبُ وَهِيَ شَدَادٌ	فَأَثَارَتْ مِنْهُ الْخِشَاشَ الْأَشَدّاً
وَبُثُوداً تَهْفُو وَخَيْلاً تَنْزَى	بِالْأَنَاسِيِّ سَادَةً وَعِبْدَى
أَرْخَضُوا فِي هَوَاكِ كُلَّ عَزِيزٍ	فَتَبَارَوْا فِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ جَنْدَا
فَرَّقَتْهُمْ يَدُ الزَّمَانِ أَبَادٍ	يَدَ وَمَا خَلَفُوا لِعَمْرِي نَدّاً
قَدْ شَقَيْنَا مِنْ بَعْدِكُمْ فُورَدَنَا	يَا كِرَامَ الْحَمَى مِنَ الْهَوْلِ وَرَدَا
وَاسْتَعْضْنَا مِنْ ذَلِكَ الْعَزَّ هُوناً	وَنَعِيمَ الْحَيَاةِ بَطْشاً وَكَدّاً
وَرَكَبْنَا عَشْوَاءَ لَا يَأْمَنُ الرِّكْبُ	عَثَاراً، وَلَا يُؤَمِّلُ رُشْدَا

قَدَرُ غَالِبٌ، وهل يملك الناس جميعاً لْقُدرة الله ردّاً
فبكاء الماضي السعيد، والتحسّر على العزّ المفقود في السودان استجابةً وطنية
مخلصة من شاعر أبيّ كريم، ولكن الذين كتبوا معلقين على هذه القصيدة اتّخذوا
منها مجالاً نقد لشعراء مبدعين، نقد يخالف الصواب في اتجاهه، فليس معنى
إعجابنا بمن يبكي مجدّ وطنه الخاص، أن تنتكّر لشعراء كبار بكوّا وطنهم الخاص
والعام معاً، وهم من طراز ممتاز، وفيهم من يرتفع مستواه الفني عن مُستوى الشاعر
العباسي دُون مراء.

لقد قال الدكتور محمد إبراهيم الشوش عقب إيراد هذه الأبيات ما نصّه^(١):

«وهنا يتضح لك الفارق الكبير بينه وبين شعراء التقليد كعبد الله عمر البناء
وعبد الله عبد الرحمن، فقد انصرف هؤلاء إلى ذكر مجد الإسلام في الزمان الغابر
وانحطاط حالة المسلمين وضياع العروبة، سائرين في ذلك مع ركب شعراء التقليد
في العالم العربي؛ كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والزهاوي والرصافي ومحمود
غنيم، ولكن هذا القالب تتحطّم جوانبه في يد العباسي، فلا تجدّ عنده مثل هذا
التعميم، فهو يتحدث في تحديد ووضوح عن المناطق التي يذكرها من البادية أو
سنار، وعن وشائج القربى والأواصر بين مصر والسودان».

ومعنى هذا أولاً أنّ هؤلاء الشعراء الذي ذكرهم لم يتحدثوا عن مواطنهم الخاصة
جواراً ما تحدّثوا به عن الوطن الكبير، وهذا غير الواقع، لأنّ عبد الله عبد الرحمن
والبناء قد تحدّثا عن السودان بما تنطق به آثارهما الكثيرة، وهي في متناول يد
الباحث، وكذلك تحدث شوقي وحافظ ومحمود غنيم عن مصر، وتحدّث الزهاوي
والرصافي عن العراق، ولكنهم جميعاً لم يَنسُوا الوطن العربي الكبير حين تحدّثوا
عن مآسيه، ولم ينسوا تاريخ الإسلام الزاهر حين احتفلوا بذكرياته التاريخية الرائعة،
هذه واحدة.

أمّا المعنى الثاني الذي أتعجّب له فهو نظرة الناقد إلى نفر يصفهم بالتقليديين
لأنّهم تحدّثوا عن هموم المسلمين في كل مكان، والسؤال الوارد هنا؛ أهذه الهموم
صادقة أم مصطنعة؟ فإذا كانت هموماً يحسّها كل فرد في الأمة الإسلامية، فلماذا

(١) الشعر الحديث في السودان: ص ٩٠.

لا يكون الشاعر العربي المسلم لسانَ وطنه الكبير، كما هو لسانُ وطنه الخاص؟ ولماذا تردّد شعر شوقي في الآفاق، ألأنّه قصّره على مصر، أم لأنّه تحدث عن مصائب المسلمين في حروب البلقان وطرابلس والشام؟ وأكثر من ذكر الربوع العربية في كل مكان؟.

ثمّ إنني لا أفهم أن يوصف شاعر كبير كالأستاذ عبد الله عبد الرحمن بأنه مقلّد، مع أنّه لا يقلّ مكانة عن الشاعر العباسي، وهل لا يتمّ الحديث عن شاعرٍ إلّا بانتقاص سواء، لقد عرفت الصحف الأدبيّة عبد الله عبد الرحمن في مصر أكثر ممّا عرفت الشاعر العباسي، وكانت مجلة الرسالة تنشر قصائده واصفةً إيّاه بشاعر السودان، فلماذا نُحاول أن نبخسه قدره، وهو شاعرٌ عملاق، والأصلُ الأصيل لدى الناقد الموضوعي أن ينظر إلى الشعراء بميزان دقيق لا ينحرف ولا يميل.

أذكر أنّ العدد الممتاز من مجلة الرسالة الصادر في (٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ هـ) الموافق (٣٠ إبريل سنة ١٩٣٦) قد نُشر عدة بحوث حافلة وقصائد مختارة لكبار الأدباء والشعراء في العالم العربي، ومن بين القصائد المختارة بالعدد قصيدة (ذكريات يجتليها محرّم) لشاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن، كما وصفته مجلة الرسالة، وقد قال فيها:

هو الشوق في أحشائنا يتضرمّ	إلى ذكريات يختليها محرم
إلى ذكريات هنّ بعث ويقظة	وهنّ لآلام الجراحات مرهم
ألا ليت شعري ما دها العرب إنني	أرى الجوّ في آفاقها يتسمم
أكلُ بناء غيرهم متساند	أكلُ بناء لهم متهدم
كفانا هواناً أنّ ريباً يحوطنا	وأنا إذا رُمنا الحديث نجمم

وله قصائد أخرى بالرسالة ذات طول وإبداع، فهل يحسب ذلك له أم يكون مصدر نقد له، على أن الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الشوش قد أعقب ما تقدّم بقوله:

«وليس معنى هذا أنه لم يتعاطف مع البلدان العربية الأخرى، فقد نظم القصيدة الطرابلسية في وصف حال طرابلس مع الطليان، كما وقف إلى جانب كفاح الشرق ضد الاستعمار الغربي، وهاجم الحضارة الغربية وقارنها بحضارة العرب». فإذا كان ذلك موضع إعجاب بالشاعر العباسي فلماذا لا يكون من أسهموا بغزارة في هذا

المجال موضع إعجاب وتقدير، وكيف يتفق كلامه هذا مع سابقه؟ .

أما القصيدة الطرابلسية التي أشار إليها الناقد، فمن غرر القصائد في ديوان العباسي، وفيها يقول:

مكانكم إنَّ الفخارَ هو الصبر	إذا اشتبكتُ بيضُ الظبا والقنا السمر
إذا ضاقَ ذرعُ المرءِ عما ينوبه	فليسَ له إلا المهتدة البئر
فما رجلُ الدنيا سوى من يعدّها	لنجدته إن مسّه حادث نكر
ألا يا بني الإسلام هذا حماكمو	وهذاك نورُ الحق في ضوئه فاسروا
أبيح حماكم، واستهين حريمكم	وأقوت ديار الحق واستبدل البشر
خذوها بني الطليان بكراً فإنها	لعمركم في بابها الفتكة البكر
فقد فلّقوا بالمشرقة هامكم	وحلّى بعقد الموت نحركم النحر
وفرسانُ حرب لا ترى الموت حاجزاً	ولم يُثنيها عن عزمها أنكم كثر
يَهمون شوقاً للطعان كأنهم	عشارُ المهاري قد أضرب بها العشر
يذوقون طعمَ الموتِ حلواً وسائغاً	على قدر ما يبذو لكم طعمه المر
أراقوا على تلك البطاح دماءكم	بحكم قَضته فيكم البيض والسمر
فليت الذي أغراكم شهد الوعى	لينظر ماذا فيكم فعل الدهر

إن شعراء العربية في هذه الآونة الزهية، آونة مكافحة الاستعمار في شتى ربوع العالم الإسلامي، قد كانوا إخوة متساندين في مهبّ العواصف، وكانوا يتلمّسون الذكريات الدينية؛ كأيام الهجرة وأيام المولد، ويوم بدر، وليلة الإسراء، ليذكروا المسلمين بماضيهم الزاهر، فيكونُ منه فجرٌ يشرق من ظلام محيط، وواجب النقاد أن يُقدّروا لهم قيادتهم السياسية والفكرية، حين أهابوا بشعوبهم أن تطردَ النوم من الأجفان، وأن تستعيد الماضي السعيد، فكيف يكون ذلك تقليداً وترديداً، وهو صَوْتُ النذير؟! .

وقد واصلَ العباسي صيحاته الداعية إلى اليقظة الإسلامية، فالدين هو العروة الوثقى، وقديماً ساد رجاله الكون حين طهّروا العالم من الشرك، وأناروا بصيرة الكون بما أنزل الله من نور، وبعض المتحدّثين عن العباسي لا يذكرون هذا الجانب من شعره، ولا أدري لماذا يُحاولون أن يجعلوا الدين بعيداً عن كل حركة تحريرية، وما انتصرَ العالم الإسلامي حين أفاق من سباته العميق إلا على صَوْتُ دعاة الدين،

والشاعرُ يذعو إلى الاهتداء بسيرة السلف، وإراحة الضمير بطاعة الخالق وحده، دون اعتبار لمن يُغضبه هذا الاتجاه من الخلق، والجهدُ موفور فلا يظن أحدٌ أننا قلةٌ لا كثرة، يقولُ العباسي:

هل نسيتم مطامع الغرب فيكم
أنا أدري بحالهم من كثير
لا تقولوا: إننا قليلٌ ولا و
وكفانا بالدين عزوتنا الو
وبهذا النيل المبارك والنيل
وقديماً قد أظهر الله هذا الد
برجالٍ كان الزمان عنيداً
وأناروا به البسيطة، دغ مصر
فتمشوا على هداهم سراعاً
وسأخذو بكم متى عسعس الليل
إن في دولة البيان جنوداً
سم شعراً ما قيل ما في الغرض
والأديب الأريب قبل رضاء

أم جهلتم يا قومنا إرهابه
أعرفُ الناس بالهوى من ذاقه
سع، فعزمُ الرجال وسع وطاقه
ثقى وبالضاد لحمه وصداقه
جميلٌ من برّه الله ساقه
ين، والشرك قد أطال رواقه
فأروه من بأسهم ما أفاقه
دع الشام حصنه وعراقه
وأنيروا لشعبكم آفاقه
بلحنٍ فيه الهدى والذلاقه
بعضهم قادة وبعض ساقه
الأسمي وإلا فقل: شعار الحماقه
الخلق يُرضي بشعره خلّاقه

وقد ألف قومُ الدعوة إلى احتذاء الغزب في معركة النهوض، ثم لا يحتذونه إلا في الخلاعات والتبذل، تاركين ميادين العمل والكّد، وقد صاح بهم العباسي قائلاً:

ومتى رُمتم التحرّر فاسعوا
وانبذوا هذه التي زفها الغر
ما لهذا الأسير والزهو والبُر
هل نسيتم مطامع الغرب فيكم
أنا أدري بحالهم من كثير
أجمعوا أمرهم فأحكم كل
وأتى ما أتى، فكم حرما
نزلوا منزل المسوّد متا
فرضوا قادرين حتى على من

إن في السعي نيله ولحاقه
ب لكم من حضارة برّاقه
د الموشى، وما له والأناقه
أم جهلتم يا قومنا إرهابه
أعرفُ الناس بالهوى من ذاقه
منهم الأمر ثم أعمل ساقه
ما رعاها، وكم دم قد أراقه
ثم شدوا على الضعيف وثاقه
مات متا، ضريبة وبطاقه

فغدا الأقوياءُ ضعفى وأضحى ذنباً مَنْ قد كان أنف الناقه
وهذا الحماسيُّ المندد يرقّ وجداناً في لحظات الصفو، فقد قرأ العباسيُّ كتابَ
(ليلي المريضة في العراق) بأجزائه الثلاثة، ورأى مؤلفه الدكتور زكي مبارك يتحدث
عن ليلي صاحبة المجنون رَمزاً لا تاريخاً، ويُنسَى قصّة عاطفية اشتهرت في السودان
وهي قصّة (تاجوج والمحلق) وتاجوج فتاة سودانية رائعة الجمال، وقد هام بها
ابن عمها المحلق، وبَدَلَ جهده الجاهد حتى رضي والدّها به زوجاً، وقد طلب منها
أن تتجرّد من ثيابها بعد الزواج أمامه، فغضبت، فلما ألحّ قبلت على أن يطلقها بعد
تحقيق رغبته، وأن يقسم بالله على ذلك، فطار صوابه لهذا الطلب الشاذ، وخاصمته
في عنف، فشرّد عقله، وخرج هائماً، والقصة طويلة، لا مجال لتتبّع خطواتها، وقد
أصبحت في السودان أسطورة شعبية، أخذت تتزايد على الألسنة ويضاف إليها
ما يؤجّج الحسرة في القلوب.

قرأ العباسي حديث زكي مبارك عن ليلي فكتب إليه قصيدة رائعة يُشيد فيها بأدبه
العاطفي، ويقول بعد ذلك:

فيا ابن المبارك عِشْ سالماً	وُورِكَ في زندك الواريه
تغنيتَ حيناً بليلى العراق	فأخلّتها الرّتبة الساميه
فمدّ لنا فضل ذاك العنان	عنان براعتك الطاغيه
وألِمَ بتاجوج واحفل بها	فتاجوجُ جوهرة الباديه
وعلق على جيد تاريخها	لآلى أنحورك الطاميه

والقصيدة حافلة بالشوق إلى مصر والإعجاب بأدبائها، وفي طليعتهم زكي
مبارك الذي خصّ أدبه بثناء حفيّل، لم يملك زكي مبارك إلا أن يقول عنه مخاطباً
العباسي: «أيها الشاعر الذي حيّا مصر، حيّاك الله وحيّاك، فقد طوّقت جيد مصر
بقلائد صنعت من حبّات القلوب! أهذا شعر أم سحر، هو إلهام جادت به فطرة
كريمة الأصل، في بلاد أبناؤها أصلاء».

إنّ العباسي شاعر أصيل، له زملاءُ أصلاء مثله، وكلهم بارع مجيد.



محمد صادق عنبر

أديب رائد تناساه المؤرخون

كان المغفور له الأستاذ محمد صادق عنبر من كبار أدباء هذا العصر، حرّر في أمهات الصحف اليومية في أوائل هذا القرن مع أعلام النهضة الأدبية، فكانت مقالاته البيانية تتصدّر المؤيد واللواء والأهرام والأخبار (الرافعية)، وكان يُذكر مع المويلحي وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش والمنفلوطي وحفني ناصف، من أعلام الرعيل الأول.

وقد سُئل عنه صديقي الأديب الكبير الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف، فخصّه بحديث دقيق موجز في جريدة الأخبار (١٥/١١/١٩٧٨) تحت عنوان (صادق عنبر أديب منسى)، ذكر فيه أنه اشتغل بالتدريس في المدارس الأهلية وعمل في الصحافة مدة طويلة، وبخاصّة في جرائد الحزب الوطني، وكان يحب أمين الرافعي ويقدره، وقد جمع ما قيل في رثائه في مجلّد حافل، ثم أشاد ببراعته البيانية، وذكر له نادرةً طريفة في عمله الصحفي، إذ كان يُعيد كتابة الأخبار الصحفية بأسلوب أدبيّ.

وقد جاء له أحد مندوبي الأهرام بحادثة؛ ضربَ فيها شابّ رجلاً فقتله، فكتبها الأستاذ عنبر بأسلوبه، وقال فيما قال: «ولكنّ فتىً مراهقاً وكّزه فقضى عليه». فلما قرأ العبارة الأستاذ أميل الخوري، وكان يُشرف على تحرير الجريدة، قال له: «دخيلك الله! ما فتىً مراهقاً وكّزه فقضى عليه؟». فقال له الأستاذ صادق: «هي لغة القرآن التي لا تعرفها». فقال: آمنت يا أخي بالقرآن والإنجيل والتوراة، ولكن هذه الكتب السماوية لا يقرؤها الناس في كفر البطيخ!». وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٣٨ م.

هذا بعض ما قاله الأديب النابه الأستاذ فهمي عبد اللطيف، والذين يجلسون إليه

ويتابعون مقالاته وكتبه يعرفون أنه يعلم من أخبار الأدب ورجاله في هذا العصر ما يملأ موسوعة حافلة يجهلها أكثر الدارسين، ولولا أنه يخضعُ لحَيِّزٍ محدود في يوميات الأخبار لأفرد صحيفة حافلة بتاريخ الأستاذ عنبر.

ولكنَّ صحافة اليوم تفرّد صفحاتٍ بأكملها لمطربة ناشئة، أو لاعب كرة ينهض ويتعثر، وتضنّ على أعلام الفكر بصفحة خاصة، لأن منطق الأستاذ أميل الخوري لا يزال قائماً، إذ يرى أن قراء كفر البطيخ وغيرها من القرى يهتمّون بالمطربة الناشئة أكثر مما يهتمّون برجال الفكر، ولو كانت صحف اليوم تهتمّ برجال الفكر بعض اهتمامها بمراهقات التمثيل ومراهقي الكرة، ما احتاج أديب سوداني أن يسأل الأستاذ فهمي عبد اللطيف عن صادق عنبر، وما اضطر المسؤول أن يجيب في إيجاز دقيق، وكان في وسعه أن يطنب ويطيل.

لقد كان من قَدَر الأستاذ صادق عنبر أن يكتب مقالاته في الصحف والمجلات، يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، ويقف عند ذلك دُون أن يتعداه، ولو فطن إلى جمع ما كتب، لكانت مجلدات أدبه تملأ الأسواق، ولكنّ مفكري الجيل الماضي لم ينظروا إلى غير قراء زمانهم، أو قل: إنهم تواضعوا فأنكروا أنفسهم، وتركوا بحوثهم الضافية تغيب في ظلمات الأبد دون أن يقف عليها أحد!.

لقد كان أحمد زكي باشا وعبد الله عفيفي ومحمود أبو العيون، ومحمد مسعود وعلي سرور الزنكلوني، ومحمد البهاوي ومحمد صادق عنبر لا يتركون أسبوعاً يمر دون مقال اجتماعي، أو بحث تاريخي أو حوار علمي في أمهات الصحف اليومية، وقد ذهبوا فذهبت آثارهم من ورائهم دون أن تدلّ عليهم بعدهم، وهل في دارسي اليوم من يقرؤون المقالات المجموعة في فيض خاطر لأحمد أمين، ووحى القلم للرافعي، ووحى الرسالة للزيات، وساعات بين الكتب للعقاد، كي نُطالبهم بمراجعة مجموعات الأهرام والسياسة والأخبار والمؤيد وكوكب الشرق والبلاغ! وهي في خزائنها المظلمة دفينة كالأموات، ولا بعث إلا أن ينفخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين.

كان الأستاذ محمد صادق عنبر يكبرُ مصطفى صادق الرافعي بأعوام قلائل، ولكنه قد فُتن به، وأخذ يحتذيه في كل ما يكتب من مقدمات الكتب والدواوين، وخطرات العاطفة، ومنازع الشعور، في صحف الأدب، مع اقتباسٍ من قوله،

وتنويه باسمه، حتى تمّ له في أيامه الأخيرة أن يُحاكي (أوراق الورد) و(رسائل الأحزان)، محاكاةً من اتفاقاً شعوراً ونبضاً وإحساساً، كما اتفاقاً فكراً ومذهباً وعقيدة! والمحاكاة تكون كرهية ثقيلة إذا تعمدها صغيرٌ يحاول أن يترسّم خطي كبير، يبعد عنه بمسافة قاصية، ولكنها تكون ثمرة طبيعية حين تتحد أفكارٌ ومشاعر، وتتقارب ثقافاتٌ وقراءات، وتتلاقى خلجات ونوازع، إذ يصدر النور عن مصباحين متماثلين.

ولستُ بذلك أقرّر أنّ الأستاذ عنبر يماثل الرافعي في كل اتجاه، ولكنّي أزعّم أنه كان أقدرَ على فهمه، وقد رُزق أحاسيسه، وقرأ ما قرأ، وتشرب أدبه حتى امتلأ به، فأصبح يأتي بمثل أدبه في أحيان كثيرة، لا ليقول إنه أصبح رافعياً، بل ليقول: هذا هو النمط الذي أوثره وأشتهيه، وهذا هو الأسلوب الذي يسمح به القلم عن عقيدة مخلصه، لا عن افتعال لصيق.

رجعتُ نهضتنا الأدبية في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن في بعض ما رجعت إليه إلى التملُّي من الأدب العربي القديم في أزهى عصوره السالفة نثراً وشعراً، فكان البارودي في الشعر ثمرةً يانعة من شجرة الشعر العباسي، وسار تلاميذه على نهجه في التزود من بلاغة السابقين مع تجديد أوحى به طبيعة العصر، والتأثر بثقافة أوروبا الوافدة، وكان محمد عبده في النثر ثمرةً يانعة من شجرة الجاحظ وابن حزم وابن خلدون وعلي بن أبي طالب، وقد شرح كتاب نهج البلاغة وأذاعه ليكون مثلاً يُحتذى، ونهض تلاميذه من بعده ليسيروا على منواله، وكان من أبرزهم كُتّاب الديباجة البيانية، وفي طليعتهم المنفلوطي والرافعي والبشري، والزيات وصادق عنبر، على اختلاف طاقاتهم الفنية سعة وضيقاً، وقد عكفوا جميعاً على آثار البلغاء، وحاكوها في مطلع الشبيبة حتى استقام لكل كاتب منهم أسلوبه الذي عرف به.

وقد حاكى صادق عنبر ابن المقفع والجاحظ في القديم، كما ترسّم الرافعي في الحديث، حاكى ابن المقفع والجاحظ في أول الطريق محاكاةً لا بدّ منها لتلميذ يتسقط موارد الأساتذة، فظهرت آثار المحاكاة واضحة في ثماره الأولى، ولكن قوماً يغيظهم أن يزدهر البيان العباسي ازدهاراً يصل ما بين القديم والحديث بأقوى الصلات، أخذوا يوقدون نار الحرب على هؤلاء البلغاء، إذ يرمونهم بالتقليد دون

الابتكار، ولا ينكر أحد أنّ كل ناشئ يقلد في بواكير إنتاجه، ثم تستقلّ له طريقته الخاصة بعد المراتة والتجريب؛ وهذا ما كان من صادق عنبر حين أخذ يترسّم بُلغاء القدماء، فامتلاّت بواكيره الأولى بما ينمّ عن مصدرها القديم، ولكنه في معانيه وعواطفه جديد جديد، كما سيّضح لنا حين نستعرض فنوناً من كتاباته العاطفية التي جاءت فيض الوجدان الصادق، والصبابة الواقعة.

وقد ذكر الأستاذ الكبير محمد فهمي عبد اللطيف وصف الأديب المنشئ في عنوان كلمته عن صادق عنبر، وهو وصف يصدق عليه في فتراته الأولى، لا في إبداعه الأخير، وكان العقّاد رحمه الله قد أطلقه على المنفلوطي في كتاب (المراجعات)^(١)، فذكر أنه منشئ وليس بكاتب، وفَرّق بين الاثنين بأنّ الأديب الكاتب إنسان ينقل عن خاطره قبل أن يكون حامل قلم وصائع كلام، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة مدركة لا فضيلة لسان وعبارة، أما الأديب المنشئ فصاحبُ زينة وتزويق، وليس له رسالة يؤديها في الحياة، فليست فضيلته فضيلة إنسان يخاطب جميع الناس بلغة الحياة، ولكن فضيلة حروف لا حياة فيها، وأصدقاء لا ارتباط بمعانيها، وإذا كان الأديب المنشئ - هو من حدّده العقّاد بهذا الوصف فلعمري لقد ظلم العقّاد المنفلوطي ظلماً واضحاً حين جعله أديباً منشئاً فحسب! فما اشتهر المنفلوطي لأنّه صاحب صنعة وتزويق، ومرصّع حروف لا حياة فيها، ولكن لأنّه قد عبّر عن مآسي الظلم والقسوة والجهل والفقر والمرض في عصره، ولئن جاء أدبه باكياً فإلى واقع جيله وواقع حياته ترجع أسباب البكاء.

وقد خفّت أن يقصد الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف من الأديب المنشئ ما يقصده العقّاد، فرجعتُ إليه وسعدت بحديثه النير المفيد، وكان مما قاله عن تحديده للأديب المنشئ - كما وصف به صادق عنبر - أنه يترسّم آثار السابقين، وضرب المثل بمحاكاته لابن المقفّع في وصف الصديق، وللأستاذ رأيّه الذي يرتّيه، ولكنني أخالفه إذ أرى أن الصداقة حاجة نفسية في كيان كل إنسان، فإذا عبّر ابن المقفّع عن شعوره نحو صديق أكبره وأجله، ورأى الأستاذ صادق عنبر في حديث ابن المقفّع ما أعاد له تجربة صادقة مع صديق لمسّ فيه بعض ما لمس

(١) مراجعات من الأدب والفنون: ص ١٧٢، ط أولى.

ابن المقفّع من صاحبه، فليس هو حينئذ يترسّم ويحتذي فحسب، ولكنّه يعرض نمطاً إنسانياً أعجبه، وفاضت نفسه بالتعبير عن هذا الإعجاب! .

وفي الأدب الأوروبي قصيدة (لشلي) في القبّرة أعجب بها نفر من كبار الشعراء، وعارضوها دون أن يُوصَفوا بالترسّم والتقليد، لأن قصيدة (لشلي) ألهمتهم ما أضافوه من العواطف حول هذا الطائر اللطيف! وأيّ الأدباء لا ينشدُ صديقاً تكتمل مزاياه، وتفيض أحاسيسه بأصفي الينابيع الرائعة، فإذا وجده أو قرأ عنه جاشت عواطفه، فكتب ما تمليه عن صدق وإيمان، لقد قال ابن المقفّع عن صديقه:

«إني مخبرك عن صاحب لي، كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعوهُ إلى ريبة، ولا يستخفُّ له رأياً ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان لسانه فلا يقول ما لم يعلم، ولا ينازع فيما لا يعلم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا نطق برَّ الناطقين، وكان يُرى متضاعفاً مُستضعفاً، فإذا جد الجد كان كالليث عادياً، كان لا يدخل في دعوى، ولا يشترك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء، وكان لا يستشير إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرّم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يشتكي، وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن طقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع» .

أكبر الظن أن ابن المقفّع لم يجد هذا الصديق في واقع الحياة، فتخيّله في عالم المثال، وكتبه كما تخيّل، لأن الأديب العباسي قد عرف بالتعمّق في مسائل السلوك ومنازع الأخلاق، فكَتَبَ الأدب الصغير والأدب الكبير، ليهدي الحيارى إلى مشارع الخير في الحياة، وقد تصوّر صورة مثلى لصديق يجمع مراقي الخير، فيكون نبراساً للأصدقاء، وتحدّث عما تخيّل، وكأنه واقع موجود، وقد قرأ الأستاذ صادق عنبر

كلام ابن المقفع فاهتدى به ، ولفظ الاهتداء من عنده هو ، فكتب في وصف صديق له يقول^(١) :

«إني مخبركم عن صاحب لي ملأْتُ منه يدي، وطويْتُ على حَبِّه نفسي، وجعلتُه ضَمِّي بين صحبي، كان بصيراً بوزد الأمور وصدرها، يعرف من مطلع كلِّ أمر ما يكون مقطعه، وتقومُ أدنى فِراسة منه مقام البيّنة، ويصيب بالظنِّ ما يُخطئ غيره بالعيان، كان أكنم ما يكون للسر إذا باحت الألسنة من الأسرار بمصُونها، وانفجرت صدور الثقات عن مكنونها، كان أبيتاً؛ لو خُطبت إليه إمارة على أن يكون مهرها ذلّ ساعة لآثر أن يزفَ إلى قبره على أن تزفَ إليه الإمارة، كان صلب العود على التوب، إذا رماه الدهر بخطب يبلوه بلي منه الخطب بالنفس المرة، والحق الوعر، والصدر الذي تضل في ساحة صبره كل نائبة.

كان متورّعاً لا يقوم مقاماً يقع عليه ظلُّ ريبة، ولا يقف موقفاً تسحب فيه ذيلها شبهة، ولا يقول قولاً، أو ينظر نظرة تعقبها ظنة، كان كريماً جمَّ الإيثار، يطوي بطنه عن جاره، ولا يملك من ماله أكثر مما يملك إخوانه، كان يقنع بالقليل، فما أكل فبلغ الشبع، ولا شرب إلا دون الري، ولا لبس منمنماً ولا معلماً، ولا توسّد حريراً ولا وثيراً، وكان فيه عزة الملك، وعليه سيما الزاهدين، كان فتياً، ولكن همته كانت ترمي به وراء سنّه، وهو يرمي بهمته حيث أشار إليه السؤدد، كان باهر الأدب، يشير عليك موهماً أنه يستشيرك، ويدلّك على الرأي وكأنه يستدلّ بك عليه، ويريك مقطع الحق، ويدع أن تقطع من دونه، ولو رأيته وقد مثل بين يديه مستفيد لحسبته بين يدي المستفيد ماثلاً، أو سمعته وهو يجيب مسؤولاً لحسبته سائلاً، كان أملك ما يكون لنفسه إذا رضي، ولحلمه إذا غضب، ولجده إذا لعب، ولوقاره إذا طرب، كان طويل الصمت كأن بلسانه عوجاً، فإذا نطق استقام على نهج من البيان تراءى فيه حكمٌ تأخذ المرء قبل أن يأخذها، كان قليلاً ما يكتب، فإذا كتب فالكتاب من يدك إلى عقلك إلى روحك، كالزهرة الناضرة تراها نسيجاً في أناملك حريره، ثم تعرفها طيباً في أنفك عبيره، ثم تدركها شعراً في نفسك وحيه وتعبيره، كذلك كان صاحبي، ولبعض تلك الخلال يكبر الرجل الرجل ولكنه :

صفرت كفي منه ومضى وقد امتلأت منّي يده»

(١) رسالة الحب والجمال بين قيس وليلى : ص ١٥٥ .

هذا ما قاله عنبر، وكذلك أرى أيضاً أنه تخيل مثلاً، ولم يرسم واقعاً، لأن حديث الصديق عن الصديق الواقعي يترقق بذكريات أخوية محببة، وتهمس به نوازع وجدانية ترسم أدق الخلجات وأبهر النوازع، أما ما كتبه الرجلان معاً فحديث مدرّس أخلاق يحدّد صفات ويضع مواقف فحسب، وعنصر الفكرة الطاغية على عنصر العاطفة لا يعني أن الأستاذ صادق عنبر يقلّد، ولكنه يعني أن عاقلاً يهتدي بعاقلاً في طريق واحد.

لقد شارك الأستاذ صادق عنبر في توجيه الحياة الأدبية بمقالاته الصحافية أولاً، وبمقدماته للآثار الفكرية، وما ينشر من تراث السلف ثانياً، وبقيامه على تنقيح ما يبعثه القراء للنشر في الصحف التي يشرف على تحريرها ثالثاً، وقد عرف في مقدماته بالهدوء والبعد عن الإطراء الكاذب، والتوجيه إلى الهدف الأسمى، وإن لم يتخلّص من قيود التكلف من أوائل عهده، كما لم تتسع نظرتة حينئذ لتشمل حيزاً أرقى وأفسح، ولكنه مع ذلك كان موضع الأستاذية لزملائه الذين يشتركون معه، وله معاونات أدبية ملثمة، حيث كان يساعد بعض المنتسبين إلى الصحافة على الاستمرار في التحرير بما يكتب لهم من كلمات تنسب إليهم، كيلا تنقطع أرزاقهم إذا أعجزتهم الظروف عن الإجابة، وفي هؤلاء من تنكّر له بعد أن اشتد ساعده واستقام على الطريق، ومن حفظ الود فرعى له حق الإيثار والتكريم، والمكانة من الصدارة الأدبية فيما يزاوّل من تحرير.

لقد راجت شائعة شهيرة تقول: إنه كان يفحص مقالات المنفلوطي متسقطاً بعض عثراتها اللغوية والفكرية، ومهدياً إياها للطلاب الشيخ طه حسين ليفرغ منها مقالاته التي ابتدأ بها حياته الأدبية، في أوائل نشأته الفكرية، وهي شائعة تحدث عنها الأستاذ عباس حافظ في جريدة الزمان، وقد قرأتها دون أن أحتفظ بالعدد لأشير إلى رقمه وتاريخه، ثم أتيج لي بعد ذلك أن أقرأ عنها حديثاً مسهباً في مجلة الزهراء تحت عنوان: (ما أعرفه عن طه حسين) بقلم صاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب، حيث قال^(١):

«لما ظهرت الطبعة الأولى من النظرات، وجد فيها بعض الأفاضل من رجال

(١) مجلة الزهراء، المجلد الثالث، (ص ٢٦٨)، ربيع الثاني ١٣٤٥ هـ.

الحزب الوطني فقرات آلمتهم، فأوّا أن تعمل صحيفتهم - وكانت تنشر يومئذ باسم (العلم) وباسم (الشعب) - على انتقاد النظرات والخط من شأنها، وكان في قلم تحرير تلك الصحيفة كاتب ضليع وأديب نحير، هو صديقي وزميلي الآن في تحرير الأهرام؛ الأستاذ محمد صادق عنبر، فدفعوا إليه كتاب النظرات، وطلبوا إليه أن يقرأ في كل يوم بضع صفحات، فيعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على نصوص العربية وقواعدها وأساليبها، ويضع إشارات على ما ينتقده منها، ويكتب فيما يلي ذلك من الهامش وجوه الصواب بأدلتها.

فمضى الأستاذ صادق عنبر في عمله هذا طويلاً، وكانت الصفحات التي يودعها علمه في اللغة والبلاغة والأدب تُعطى يوماً بعد يوم إلى الشيخ طه حسين، فيفرغها في فصول كان الناس يغتفرون ما فيها من سلاطة طه حسين وهذره، لما فيها من علم صادق عنبر وأدبه، حتى لقد رأيت يومئذ من يرفع منزلة كاتبها إلى منزلة صاحب مجلة الضياء (الشيخ إبراهيم اليازجي) فيما كان ينه عليه قبل ذلك، من أغلاط لغة الجرائد.

هذا ما قاله الأستاذ محب الدين الخطيب، ولم يجد منكراً من الأستاذ صادق عنبر، ولا من الدكتور طه حسين، وهذا ما أخذ يشيع ويتردد وكأنه حق لا مرية فيه، وقد ذكره الأستاذ محمد الهياوي في الحفلة الرائعة التي أقيمت لتأبين الأستاذ صادق عنبر، وعلقت عليه مجلة الرسالة بما سيكون موضع تعليق على تعليقها، حيث قال أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات تعليقاً على الاحتفال^(١):

«وهنا مسألة لا بدّ من الإشارة إليها، فقد ذكر الأستاذ محمد الهياوي أنّ الأستاذ صادق عنبر هو الذي كان يكتب تلك المقالات المعروفة في نقد النظرات للمنفلوطي، وقد أيده الأستاذ عبد الرحيم بن محمود في هذه الدعوة الجريئة، وأذكر أنّ كاتباً كتب مثل هذا الكلام منذ سنوات في مجلة الزهراء، ونحن بشهادة العيان ننكر هذه الدعوى أشد الإنكار، لأننا كنا مع الدكتور ساعة كان يملئها ويدفع بها إلى الجريدة، وقد ذكرنا في بعض مقالاتنا أسباب ذلك، ولا ندري كيف يسىخ العقل هذا، والدكتور طه يومئذ أقلّ من الأستاذ صادق عنبر سنّاً ونفوذاً وشهرة،

(١) مجلة الرسالة العدد (٢٩١) ٣٠/١/١٩٣٩ م.

وما الحكمة في أن يكتبها الأستاذ عنبر، ويمضيها الدكتور طه، وذاك موظف في جريدة العلم، وهذا أجنبي عنها، إنّ الدكتور طه يأبى عليه طبعه أن يضع اسمه هذا الموضوع».

هذا ما قاله الزيات، وقد أعلن أنه كان حاضراً ساعة تدوين المقالات، وهو يعلم أن صاحب الزهراء لم يقل: إن الأستاذ صادق عنبر كتب المقالات ووقعها طه، ولكنه قال: إنه علّق على صفحات الكتاب في هوامشه ببعض الانتقادات، ثم أعطى الكتاب لظه فقرأ التعليقات، ليصوغ المقالات النقدية معتمداً على العناصر التي كتبها الأستاذ صادق عنبر، والزيات لا ينكر قوة الذاكرة الرائعة لدى طه، وليس بعجيب أن يحفظ الانتقادات ثم يدعو الزيات ليمليها عليه، إذ كان كاتبه المختار حينئذ بحكم صداقتهما الناشئة.

أما الحكمة التي تساءل عنها الأستاذ الزيات في أن يكتب عنبر دون أن يوقع نفسه، فما أظنها تخفى على المعيّته، حيث اضطر الرجل أن ينقد استجابة لأصحاب العلم، ولم يشأ أن يفسد ما بينه وبين المنفلوطي من ودّ، فأثر أن يكتب سواه، وطه حسين إذ ذاك طالب صغير بالأزهر، ولم يكن ذا شأن أدبي يمنعه أن يستعين بسواه، وقد تحاشى طه أن يذكر صادق عنبر فيما تلا هذه الحادثة. كما لم يذكر الشيخ عبد العزيز جاويز في غير فصل محدود بالجزء الثالث من (الأيام) مع أن أثره فيه أكبر بكثير من أثر لطفي السيد، ولكن لطفي مدير الجامعة وذو شأن، أما جاويز فمجاهد مغترب في حياته، ثم مسارع إلى لقاء ربه دون ضجيج، فلم يذكره طه وهو لن يستفيد منه شيئاً!

وحين انتقل الأستاذ صادق عنبر إلى جوار ربه نعاه الأستاذ الزيات في (الرسالة)، فذكر أنه ينعى إلى قراء الرسالة أديباً من أعلام البيان العربي، إذ كان الأستاذ - طيّب الله ثراه - بقية خير من تلك الطائفة الرشيدة الصالحة، التي غدّت الناشئين وبصرتهم بالأساليب المشرقة منذ ثلث قرن، فكان من أنصار الديباجة القوية والأسلوب البياني المستمد من بيان القرآن ونبعته، وكان أسلوبه يشبه أسلوب المرحوم الأستاذ الرافعي، فقد كان يعجب بفنه وطريقته، ويأخذ نفسه على الجري في حلبته، ولقد عمل في الصحافة مدّة من الزمن، ولكنه ظلّ على سليقته الأدبية، وظلّ أسلوبه أسلوب الأديب له روعته ورونقه، وآخر ما أخرجته من الآثار جملة من

الرسائل الغرامية وضعها على لسان ليلي وقيس ، ونحا فيها منحى الرافعي في (أوراق الورد) ، ثم (كلمات في كلمة) كان ينشرها منذ أيام ، وكان ينوي جمعها في كتاب ، فلعل أصدقاءه يقومون له بحق الصداقة ، فيجمعوا من آثاره ما تنثر ، كما قام هو بحق الوفاء لصديقه أمين الرافعي^(١) .

- ٢ -

لقد تحدّث الأستاذ الزيات - كما تحدث سواه - عن أثر الرافعي رحمه الله في صادق عنبر ، وهو أثر بارز واضح السمات ، فقد طلع الرافعي على قراء العربية بأسلوب هو صاحبه الفرد ، لا في القديم ولا في الحديث شبيه له أو نديد ، كان الرافعي فخل الفكرة عميقها ، فهو يتند كل الاتناد في تكوينها على وجهها الدقيق حتى تظهر عميقة الغور فسيحة المحيط ، وهو واسع التصوير بديعه ، لا يكفي بالخيال القريب بل يعلو به الجناح إلى أرفع مدى بلغه كاتب في اللغة العربية ، فيفاجئك بما لا يخطر على بالك من رائع التصوير وبديع الرسوم ، وهو ذو تعبير صلب متماسك ، تحاول أن تجد فيه ثغرة واهنة تتخلل قوته الآسرة فلا تكاد تجد ، هذا إلى حميته المتفردة المشتعلة إذا تحدّث عن العقيدة والرسالة والعروبة ، وإلى رفته الشفيفة حين يلج المسارب في دنيا العاطفة الوجدانية ، متحدّثاً عن أرق الهمسات ، وأشفّ الخلجات .

ومثل هذا الكاتب الرفيع لا يتناول إلى محاكاته إلّا من له حظٌّ من موهبته ! قد يستطيع كاتب أن يحاكي المنفلوطي ، وطه حسين ، والمازني والبشري ، فهم في إبداعهم القادر على هضبة يسيرة المرتقى ! أما الرافعي فيتحدّى السرب في شاهقة منيعة تأوي إليها العُصم من الأوابد ! .

وقد وطد الأستاذ صادق عزمه على أن يقاربه ، وأن يأخذ نفسه على الجري في حلبته ، وها هو ذا أستاذنا الزيات رحمه الله يقول في نعيه : «إنّ أسلوبه يشبه أسلوب الرافعي ، ونحن نعلم ما بين المشبه والمشبه به من فروق ، إذ لو تماثلا لكانا شيئاً واحداً ، فلا غرابة أن نجد روح الرافعي في أسلوب عنبر ، وبخاصة فيما اتجه به

(١) مجلة الرسالة ، العدد (٢٣٨) ٢٤ / ١ / ١٩٣٨ م .

وجهة العاطفة، حتى ليلتبس على القارئ العادي أي الرجلين هو الكاتب إذا لم يقرأ التوقيع، ولتقرأ معنا ما كتبه محمد صادق عنبر في رثاء أمين الرافعي، لنجد روح مصطفى صادق في قول عنبر عن أمين الرافعي المجاهد الكبير:

«ماذا عسى أن أصوّر من إنسان إذا كان من ناحية مادته ابن اليوم الذي ولد فيه، فهو من ناحية معناه صفوة تعاقبت عليها الأجيال، فما زال القدر يطوي له الزمن مرحلة مرحلة حفيّاً به متخيّراً له، ثم ما زال يشقّ له فينحدر مرتقيّاً حتى إذا استتم واستكمل أتى مصر على قدر أحوج ما كانت في ضعفها إلى قوته، وفي إسارها إلى نجدته، ثم ما عسى أن أصف من إنسان طلع من خلال الزمن كله، فهو وإن أنشعب من الماضي إلا أنه خلق ليستوعب الحاضر، ثم ليمتدّ من هذا الحاضر القريب إلى المستقبل البعيد، ثم ما عسى أن أصوّر من إنسان كان مما يلي الجيل كأنه جيل وحده، ومما يلي التاريخ كأنه طيف المستقبل في تضاعيف الحاضر، ومما يلي العصر هو قوة لا تُردّ، ولعمري من ذا يردّ على الله القدر؟ قوة ليس يقال فيها: من أين، ولكن يقال: إلى أين، ولا يسأل ماذا كانت؟ ولكن يسأل كيف كانت؟ ولا ينظر إلى الناحية التي بدأت منها، ولكن ينظر إلى الناحية التي انتهت إليها»^(١).

فإذا أراد القارئ أن يسمع وصف صادق عنبر لكتاب (رسائل الأحران) للرافعي فليسمع، ليرى كأن الرافعي هو الذي يتحدث^(٢):

«لو أن لجة من الدمع تضربها زفرات الهوى فتموجُ بضرم الحب، ثم جعل من هذا الضرم صفحات، وصُنّف من هذه الصفحات كتاب لكان هذا الكتاب هو الرسائل.

قرأت ما قرأت من كتب الأدب عربيّة ومعربيّة، ولمحت فيها مدامع المهجورين، وتسمعت نجوى المدنفين، فما قرأت فيها كهذه الرسائل، لا في الوصف ولا في المعنى، ولا قوة الإبداع للصفات والمعاني.

أما الوصفُ فأية العجب، وإنك لترى في سواد كل صفحة فجراً يُشرق بألوانه ونسيمه ونداه، كأن مدارك الكتاب من مدارك الفلك، ثم لا تدري من إعجازه كيف

(١) مقدمة كتاب (ذكرى فقيد الوطن)، ص ب، بقلم صادق عنبر.

(٢) مجلة الزهراء، المحرم سنة ١٣٤٣هـ، ص ٥٩.

يلهمه هذا الكاتب، ولكنه على ذلك يلهمه من حيث لا تدري .

أما المعاني فكما تسحّ الغمامة من أعلى الجوّ في رقة وصفاء، وهي لا تسحّ إلا ما يجعل من كل شيء غير حي شيئاً حياً، وأما الإبداع فيكفي في وصفه أنّ الكتاب جمع ثلاثاً متشابهات هنّ الشعر والحكمة والحب، وقد جمع ذلك كله أن ذلك كله من خصائص قلم الرافعي .

أما كتاب (أوراق الورد) فقد تحدّث عنه صادق عنبر في كتابه (رسائل الحب والجمال بين قيس وليلى)، إذ كتب على لسان قيس في الرسالة التاسعة عشرة يلفت ليله إلى كتاب (أوراق الورد) فقال^(١): «لقد رأيتك في جوّ عطرٍ جديد من كتاب (أوراق الورد)، الذي طَفَّر به الأدب العربي طفرة، كان فضلُ الخيال يقصر عنها على امتداده، ويتعثّر من دونها على ارتداده، والكُتُبُ في نفسها مرصّدٌ حيٌّ ثابت تَرَيْنَ فيها حركة العقل الإنساني واتجاهاته، بل هي ميدانُ سِلْم، وإن كانت العقول تَتَضَلَّ فيها أبدأ، ويفوُتُ بعضها بعضاً، وأُهَيَّبُ ما تكون الحرب حين تشبّ سِلماً، فكان هذه الكتب صنفاً آخر من الخلق يتنافس ويتناجز كما يتنافسون ويتناجزون، فهذا قويٌّ من قُوتَيْن، واحدة فيه، والثانية في ضعف غيره، وهذا ضعيف من ضعفين أحدهما منه، والثاني من قوة الآخر .

لقد رسم عاطفة الحب الذي يغني فيه قلب المحب، ولا يغني فيه قلمه، وأبدع في وصف العشق الذي هو نُسْكٌ بالدم في قدس الإنسانية، حين تكون بين الإنسانية والألوهية، وافتنّ في تصوير الوله الذي يذهب فيه العاشق حين يذهب به، حتى لا يدري ماذا بلغ من قبل، ولا ماذا بقي عليه أن يبلغه من بعد، فكانَ فيما رسم وأبدع وأفتن كأنما يلهم إلهاماً، ولولا أني أطلع على الأفق الذي يذهب فيه خيال الرافعي صُعُداً لحسبت أن لقلمه باصرتين نفذت أشعتهما من كل ذرة من هذا القلب الذي تقدّست في محرابه، وجرى حبك فيه واطرد وتدفع، فجعل بعض كتابه ترجمة حرفية لهذا الحب .

أما وصفه للجمال فكوصفه للحب كلاهما يُجن به، وكأنني به يصف إنسانية فلكية مستبدة بالجمال كله فهو فيها فتون، بل هو فيها فنون، لكل منها في فقه الجمال

(١) رسائل الحب والجمال ص ١٠٠ .

ونسب معانيه بعضها إلى بعض حواشٍ وتعليقات، ولكن ليس فيها كلها عُقدٌ تحلُّ بما يزيدها تعقُّداً (كأنه أراد أن يقول: وليس فيها كلها عقدة تحل إلا بما يزيدها تعقُّداً فسقطت إلا . ليستقيم الكلام) وقد جعل موصوفته تنعم من صلتها به بما أنعم من صلتني بك نعيماً معنوياً، وأملك ما يكون الجمال حين يكون قوة سماوية، تصعد بنفسين في مدارج الكمال إلى المستوى الذي يكون فيه على الإنسانية ظل من الألوهية».

وبعد؛ فما حقيقة هذه الرسائل التي كتبها صادق عنبر إلى حبيبته، وردَّ بها على نفسه متخيلاً جوابها؟.

إن الذي يعكف في مدى سنوات تتجاوز الاثنتي عشرة على كتابة معاني من الحب العذري الخالص، يجمع هذه المعاني في خواطر تتعاقب، ثم يبدع لها أجمل الصور البيانية، لتظهر في أسنى الحلل، ثم ينضدها في سلك بياني رائع من التعبير الأنيق؛ لا بد أن يصدر عن نفس محترقة ووجد كظيم، وقد قال الأستاذ عن هذه الرسائل^(١):

«بدأت لي منذ إحدى عشرة سنة بدايةً لداعيةٍ دعت إليها مجيباً، هي أن أجمع شكولاً من المعاني التي اخترعتها في تصوير الحب والجمال، إذ كان موضوعهما من موضوع الإنسانية كلها في عصر من التاريخ، ثم رأيتُ أن أنظم هذه المعاني تخليداً لها في سلك من رسائل، أدرتها بين قيس وهو في عالميته من هو، وليلى وهي من عالميتها من هي، وكسرت هذه الرسائل على هذا الفن من المعاني بما يعرضُ في سياقه من الخلجات والخطرات، التي يمتُّ بعضها إلى بعض بسبب، أو يؤلف بين شيءٍ وشيءٍ منها نسب، لا لتكوّن منها روايةً بمنظرها وفصولها من بدايتها التي بدأت إلى نهايتها التي لا أعرف كيف تنتهي، ولكن لتكون معرضاً أدبياً لهذا الفن من الصور الطريفة الناطقة، وتكون على ذلك جزءاً من معجم موجز للخطرات والخلجات، التي يمكن أن تمرّ بنفس محب يحب فوق ما يسع قلبه، أو بنفس حبيبة يفنى قلبه في حبها، ولا يفنى على ذلك حبها».

لقد بدتُ للكاتب بدايةً لداعيةٍ دعت؟ ولن تكون هذه الداعية غير حب كظيم

(١) رسائل الحب والجمال: ص ١٥١.

قامت عوائق كثيفة دون إعلانه، فتنفّست عن أزكى المشاعر في أرقّ السطور، وقد خاف الرجل على نفسه أن يشي حديثه بحقيقة حبيبته، فكان ينكر وجودها، ويتذرع لهذا الإنكار بأوهى التبريرات.

يقول الدكتور زكي مبارك في معرض رثائه في أحد فصول (ليلي المريضة في العراق)^(١):

«تذكرت أنني كنت أتلقي مجلة النهضة النسائية وأنا في باريس سنة ١٩٢٧ م، وفيها رسائل وجدانية تحت عنوان «الرسائل الضائعة»، وهي رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر، فلما لقيت بعد حين أثنت عليها، فقال وهو يتوجّع: ليبتها كانت صحيحة فهي خيالية، فقلت: ليتك تمضي في هذا النظام البديع.

وبعد رجوعي من باريس سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عني، فمررت عليه في قلم المطبوعات، فحبسني ساعتين ليمتّع أذني برسائله «رسائل الحب بين قيس وليلي»، فقلت: أهي أيضاً خيالية؟ فتنهّد وقال: لو كانت تُنبئ عن وجد دفين لما كان جسمي أضخم جسم في هذه البلاد، فنصحته بتكلّف العشق، ليخف وزنه فيُمسي وهو فتى رشيق».

لقد خدع صادق زكي مبارك، فانخدع على طول مراسه حين صدّق أنّ الأمر خيال في خيال، ولعلّ صديقي الأديب المكين الأستاذ محمد شوقي؛ أمين عضو مجمع اللغة العربية وتلميذ عنبر وصهره وأمين سره، يستطيع أن يقول بعض ما يعلم من أمر هذه الرسائل، ولا أدري لماذا يحجب الأستاذ شوقي في صدره أدق المعلومات وأطرفها لدى القراء؟!.

أما خلاصة ما يقال عن رسائل الحب، فهي نفحة من نفحات (أوراق الورد)، قد كتبها الأستاذ صادق عنبر بعد أن تمكّن من رافعيته بحيث تدانت الشقة قريباً قريباً من الأديبين الكبيرين، ولعلّ الأوفق أن أختم حديثي عن هذه الرسائل الممتازة بأنموذج منها لم أتعمد اختياره، بل جاء كما اتفق، وللقارئ أن يعتبره من (أوراق الورد) أو من (رسائل الأحزان) أو من (السحاب الأحمر)، فمأوها المترقرق كأنه من هذه الجداول العذاب.

(١) الرسالة، العدد ٢٤٠، ٧ فبراير سنة ١٩٣٨ م.

قال الأستاذ صادق عنبر في الرسالة السابعة :

«لبيلاي، حَرَّتْ على كبدي أمس وقدةً من وقداث الصبابة، حتى كأنَّ كبدي منها على جمرة مشبوبة، وكأن في هذه اللهفة القوية التي تهدر في دمي أبداً نفساً قوياً، يراوح تلك الجمرة ويناسمها فهي لا تبرح تتلَهَّب، ولا تفتأ كبدي عليها تتقلب، فياحزّة كبدي منك، ماذا تعاني من صبابتها؟! .

ونزتْ بقلبي نازية من الحنين إليك ثم نزتْ، حتى كأنَّ قلبي منها بين أضلعي طائر من قفصه في إسار، وقد جذبه الحنين إلى خميلته التي كان يسكن إليها كلما حَزَّتْ عليه الهاجرة، ولكنَّ قفصه موصدٌّ عليه لا يفلته، وأضلعي متضامّة على قلبي لا تنفرج عنه، فيالهدف قلبي عليك ماذا يكابد من تحنانه؟! .

لقد تهذّى إلى طيفك أمس في فترة لم تكن للكرى، تقرّ فيها المادة وتسكن، بل كانت للوحي تستشرف فيها الروح وتصفو، فكان طيفك من تهديه إلي كالملك يُرى ولا يلمس، بل كان نوراً تمتلئ منه كلتا العينين، ولا شيء منه في اليدين، وقد جعل يرفّ حولي فيملاً عليّ حَيَزي مُنَى وأنساً وأخيلة، حتى جعلني منه في جنة تعجز بلاغة اللغات عن وصفها، وأحسبني قلت للطيف فيما ناجيته به: أيها الطيف، لقد تسلَّلنا من ماديتَيْنَا النائمَتَيْنِ، وارتفعت بنا الحقيقة السماوية التي أودعها كلانا إلى هذا الأفق البعيد، فكلانا فيه طيف روحاني لا يحدّ إلا بالآخر لأننا مطلقان، فناشدتُكَ الحبيبة التي أوفدتك إلي إلا ما منحنتي ما فوق الرضا، لأجدَ به برد الصبر على حرّ الصبابة، وإلا ما نقلتني من محنة البعد التي تميّنتني ضِعْفِي الموت إلى منحة القرب التي تحييني ضِعْفِي الحياة». إلى سطور غضة تملأ خمس صفحات جميلة من هذا الطراز. . .

هذه إشارات شتى إلى معالم الحياة في تاريخ أديب كبير، وإذا لم أقل ما يجب أن يقال عنه، فحسبي أن قلت ما أستطيع، وكيف لي بالمزيد؟ .

* * *

محمد علي جناح

القائد الأعظم لدولة باكستان

حين انتقل إلى رحمة الله زعيم باكستان القائد الأعظم (محمد علي جناح)، نشرتُ كلمةً عنه بمجلة الرسالة الغراء في العدد (٧٩٥)، الصادر بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨، قلتُ فيها ما يُستحسن أن أسجّله في صدر هذا المقال، لأنه تعريف دقيق بالراحل الكريم:

«كانت وفاة القائد الأعظم محمد علي جناح مصيبة فادحةً سالت لها الدموع، وقد تلقيتُ نبأها الفاجع في حيرة بالغة، وأخذتُ أَسْأَلُ عن مصير دولته الفتية بعد أن فقدت بطلها العظيم، وربّانها الحاذق؛ كما استعرضتُ صوراً من الآمال المشرقة التي يَلْتَمِسُ العالم الإسلامي تحقيقَها على يد باكستان، منذ أن أصبحت دولة مستقلة تسعى إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، وتَشعر بما يشعر به أبناء الحقيقة المحمدية في ربوع الإسلام.

وقد أتيت لي أن أشاهد الفقيد العظيم أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة، فراقني منه هدوؤه المطمئن، ووقفتُ على صورةٍ ممتازة من مزاياه الطيبة، التي تنطق بها ملامحه وإشاراته، كما تتبعْتُ في كثير من الاهتمام نشاطه السياسي، وقرأت عن كفاحه واستبساله ما زادني إجلالاً لَهُ في حياته، وألْهب قلبي حُزناً عليه بعد مماته..

ولا يقدرُ مصيبة الإسلام في زعيم باكستان غيرُ من ألمٍ بتاريخه إماماً دقيقاً، فقد وَهَب - رحمه الله - نفسه للدفاع عن حقوق طائفته المُبعثرة المتناثرة، فجعل منها قوّةً متشابكة متساندة، تصلُّ إلى أهدافها في جرأة، وتُفصح عن رأيها في قوة وإيمان، وكانت منذ أمدٍ بعيد هَدَفاً تتعاوره السهام القاتلة من كل جانب، وطُعْمَةٌ تتزاحم عليها الأفواه الجشعة من كل صوب.

فتاريخُ القائد الأعظم يرتبط أشدَّ الارتباط بتاريخ الأمة الإسلامية في الهند، فإذا

كَتَبَ كاتب عن الزعيم الراحل وإنما يتحدث عن مئة مليون مسلم، كانوا أبايد في مختلف الجهات، فوهمهم الله قائداً قوياً، يجمع الشمل، ويلمّ الشعث، حتى توحدت الكلمة على يده، ودنت الغاية المأمولة بجهوده .

وسأعرضُ بإيجاز للحركة الإسلامية في الهند، وأثر محمد علي جناح في نجاحها الباهر، وحسبُه أن يكون التعريفُ به مقروناً بسيرة أمته، فكفاحها كفاحه وتاريخها تاريخه .

كان حزب المؤتمر في الهند ينظر إلى المسلمين في مواطنهم بعين المقت والكراهية، فهم في رأيه أقليةٌ لا يحسب حسابها في الأمة الهندية، وقد اصطبغ الحزب بالصبغة السياسية ظاهراً لدهاءٍ أحكمه غاندي ونهرو وبقية زعماء الهندوك، ولكن أعضاءه الكثيرين لا يتناسون أحقادهم الدفينة حول المسلمين، إذ كانوا في فترات متواصلة يهضمون حقوقهم الوطنية، ويشيعون عنهم المفتريات الآفكة، ولذلك تندلع الفتن الأهلية دائماً دون انقطاع، والحاكمُ الإنجليزي لا يتوانى عن إشعال الضرام، بل يتخذها عامل استقرار لاستبداده السياسي، إذ يُقيم دعائمه على الخلاف الديني، والنزاع الطائفي، فلم يجد المسلمون بُدّاً من تأسيس رابطة إسلامية مستقلة عن حزب المؤتمر، لتقف في وجه المتآمرين من الهندوك، وترسم الخطة لمستقبل منتظر .

كانت الطائفة الإسلامية تضمّ نُخبةً ممتازة من الأحرار الأمناء، وكان القائد الأعظم يبذل لها ما يملك من فكر ثاقب، وقلب جريء، وعقل سياسي نافذ، فقد تثقّف ثقافةً عالية، ونال شهادة الحقوق من إنجلترا، ثم تقلّد مناصب قضائية أبرزت جانباً لامعاً من كفايته ونزاهته، ثم اشتغل بالمحاماة فطارت شهرته، وذاع صيته، هذا إلى جانب سياسته المحنّكة، التي جعلته - فيما بعد - قائد أمةٍ وزعيم دولة ورجل خلود .

كانت نفس القائد غنيّة بكثير من التسامح الودود، فلم يشأ أن يقطع صلته بحزب المؤتمر بعد تكوين الرابطة الإسلامية، ولكنه ظلّ متميّماً إليه ليقوم بدور السفير في تسوية ما يجدد من تعارض الآراء، واختلاف وجهات النظر، ولعله كان يطمع أن يكون بتسامحه الملموس مثلاً واضحاً لأعضاء المؤتمر، كيلا يفرطوا في المغالاة والتعصّب، ولقد وُفق في بادئ الأمر توفيقاً مشهوداً، حيث عُقد اتفاق (لكنو) سنة

١٩١٦، وبمقتضاه قُدمت من الحزبين مذكرةٌ مشتركةٌ إلى الحكومة البريطانية تطلبُ منح الهنود قسطاً من الحكم الذاتي .

ولكنَّ القائد الأعظم ضاق صدرأ بتعصّب الهندوكيين، ويئسَ من العُدول عن تعسفهم الشنيع، وقد جاهد في استئصاله، فلم يجدْ بداً من أن يستقيل من حزب المؤتمر، حيثُ هيأَ نفسه لعملٍ شاقٍّ تكتنفه المخاوف والمكاره، لأنَّ الطائفة الإسلامية كانت تتلقَى ضربات قاصمة من عدّة جهات، فالمؤتمرُ بأعضائه المُتغطرسين يؤلّب عليها النفوس .

وحزبُ (مهاسيها) قد أُلّف خصيصاً لمحاربة الرابطة الإسلامية، فأخذَ يُزاوِل جرائمه الوحشية في بربريّة شنيعة، وقد أعلنَ صراحةً أن المسلمين ليسوا من الهند، وعليهم أن يرحلوا إلى البلاد العربية التي تدين بدينهم، وأكثرُ الأرواح البريئة التي أزهقت في الهند كانت بأيدي أعضاء هذه الجماعة، ولولا ثبات الرابطة الإسلامية، وصمودها الراسخ أمام أعدائها المتوحشين، لتقلّصَ ظلّ الإسلام في هذه البلاد، ولعلَّ من الأدلة القاطعة على بربريّة حزب (مهاسيها) أن قاتل المهاتما غاندي كانَ منتمياً إليه، إذ لم يرقّه بعض ما أبدى من الموافقة على تقسيم الهند إلى دولتين، فألّف مع بعض أعوانه عصابة لاغتيال زعماء المؤتمر واحداً بعد واحد، فإذا كان هذا شعورهم الإجرامي نحو إخوانهم الهندوكيين، فمن يحصي النكبات الفادحة التي جرّها هؤلاء على المسلمين؟ .

ولقد انتهز حزبُ المؤتمر نجاحه في الانتخابات التي تلتَ دستور سنة ١٩٣٥، فأعلنَ أنّه وحده الذي يمثل الأمة الهندية، وتغاضى عن مئة مليون مسلم، بدعوى أنهم أقلّيّة ضعيفة، وأنّ الزمام السياسي قد أصبحَ في يده وحده، ولكن القائد الأعظم قد تنبّه للخطر المحدق، فبدأ برحلاتٍ متوالية إلى المدن الإسلامية في الهند، داعياً إلى توحيد الكلمة أمام هذه الاستهانة البالغة، وبخاصّة أنّ حكومة حزب المؤتمر رفضت أن يشترك فيها عضوٌ واحد مسلم .

ثم كثرت الفتنُ الداخلية كثرةً دلّت على أن محاربة المسلمين مقصودةٌ تتمّ وفق ترتيب مدبّر، وحين رأى الهندوك نجاح القائد الأعظم في جمع كلمة المسلمين أخذوا يتهمونه بممالة الإنجليز، وأطالوا في ذلك إطالةً لا تعتمد على أساس، ولكنَّ محمد علي جناح لم يكثرث بأيّ اهتمام، وواصلَ العمل الجاد، حتى انتهى

إلى موافقة حزب الرابطة الإسلامية سنة ١٩٤٠ على الاقتراح الخاص بتقسيم الهند، وقيام دولة الباكستان، وكانت لهذه الموافقة دهشة عالمية.

ولكن الموقف السياسي تحسّن كثيراً حين جاءت الانتخابات الجديدة سنة ١٩٤٦ محققة انتصار المسلمين في جميع المقاعد المخصصة لهم في المجلس التشريعي، وأسقط في يد المؤتمر الهندوكي، إذ بان واضحاً للعيان أنه ليس وحده الذي يمثل الهند، كما أكد ذلك من قبل، وهنا أصبح مركز الرابطة الإسلامية قوياً مدعماً، يسمح لها أن تستقلّ بالبلاد التي انتخبت المسلمين من المرشحين، ودارت المفاوضات السياسية، تتعثر وتستقل، حتى انتهت إلى تقسيم الهند إلى دولتين، فارتفع العلم الإسلامي في أمة وليدة، وتحقق أمل كان يظنه الناس سراباً يلوح.

لقد كان محمد علي جناح زعيماً من طرازٍ فريد، لأن جميع الزعماء المعهودين ينشؤون في أمم مهتأة معروفة، فيوجهونها إلى الطريق السوي، ولكن القائد الأعظم قد أوجد أمة لم تكن قبل أمة، وسهر على نموها السريع، فترعرعت في حقبة وجيزة، ولاقت من الأعاصير السياسية ما كاد يُزعزعها عن مستقرها لولا حكمة القائد، ونظره البعيد.

أما أخلاقه فقد كانت موضع الإجلال من أعدائه ومعارضيه، إذ كان يعمل في وضوح النهار، ولم تسمح له مروءته أن يحيك الدسائس في الظلام لمناوئيه، وقد رُزق من المحاماة مالاً طائلاً، فلم يرض به في سبيل غايته السياسية، كما كان يعتني اعتناء تاماً بمظهره، إذ كانت أناقته مضرب المثل، واقتدى به زملاؤه ثقةً بذوقه الأنيق، ولثقته بنفسه اشتغل بالمحاماة في إنجلترا بين أساطين القانون الإنجليزي أربع سنوات كاملة، فكان المرجع الموثوق به، وقد كللت قضاياه بالنجاح هناك.

هذا ما قلته بمجلة الرسالة عقب وفاة الزعيم العظيم، وهو يرسم الصورة العامة للقائد، ولكنه يحتاج إضافات تفسر بعض الغوامض، وتفصل ما يحتاج إلى تفصيل:

كانت قدرة الزعيم الفائقة تتجلى في صراحته، إذ كانت أهدافه جميعها مُعلنة في أقواله، وبعض السياسيين - إن لم يكن أكثرهم - يضمرون أكثر مما يظهرون، مراعاة لما يرونه من ظروف تتطلب الإضمار، وذلك يقفهم مواقف التناقض، حين يُفاجئون أنصارهم بأعمال لا تتفق مع ما سبق أن قالوه، وهي السياسة الماكرة التي تحلل

وتحرّم، ولكنّ (جناح) قد أعلن أنّه محاسب على كلّ ما يقول، حين حدّد الهدف من مسعاه السياسيّ، وفيما أعلنه من الالتزامات، ما يدل على صدق النية الصريحة دون خفاء.

فمن أقواله التي لم يكن يسأم تكرارها، لترسخ في الأذهان؛ هذه العبارات:

١ - «إن قصّة باكستان هي في الواقع قصّة الضمير والعقل والقلب، لأنّ لهذه المئة مليون من الناس كيانه مستقلاًّ متميّزاً، يتمثّل في عاداتها وتقاليدها ولغتها وثقافتها، هذه المئة مليون لها شعورها الصائب الذي يضيّ لنا الطريق، ونلمح في ضوئه حاجتنا نحن مسلمي الهند، إلى دولة جديدة مثالية، تحتضنّ هذا كله، وتقرن فيها السياسة بالأخلاق، حتى تكون مثلاً لغيرها من الأمم التي استهلكتها اليوم حضارة المادة، وعميت عينها عن حاجة البشرية إلى الضمير، وإنّ ردّي على القائلين بأنّي أبغي تأسيس حكومة (بيوقراطية)، هو أنّ هذه الحكومة لا محلّ لها في مفهوم الإسلام نفسه الذي أؤمن به، فالإسلام دين ودولة، عبادة وسياسة، حضارة وضمير، وأنا حين أجاهد في سبيل الباكستان إنما أجاهد في سبيل هدف إنساني كبير.

٢ - إنّ الانفصال بين المسلمين والهندوكيين هو نتيجة الاختلاف في كلّ شيء، حتى في الأكل، فإنّ الهندوكي لا يريد المسلم أن يأكل لحم البقرة التي يعبدها، ومسلمو الهند يمثلون مئة مليون في قارة عظيمة فلماذا لا يُنشئون دولة كبرى!». .

وقد تحوّلت هذه الأقوال إلى معتقدات راسخة في النفوس، بحيث كان المئة مليون يعرفون أنّها مفتاح الأمل في حياة مستقلة كريمة، وكلّ محاولة لمناقشتها تبوء بالخذلان على المستوى الشعبي العام، وعلى المستوى السياسي الخاص، حين عارض نهرو الفكرة مدّعياً أنّ العالم يسعى إلى الوحدة لا إلى التقسيم! ووحدة العالم لا تكون مقبولة إلّا حين تكون المساواة هي دستورهما الأول، أما حين تُؤلّف الوزارة من الهندوك، ولا يكون للمئة مليون من المسلمين وزيرٌ واحد، فكيف يُمكن أن يتم الاتحاد بين قاهر ومقهور؟.

على أنّ التاريخ الإسلامي في الهند كان يُعطي المسلمين قوة في التصميم على استقلالهم، فقد ارتفعت راية الإسلام في هذه البلاد دون قهر، لأنّ النظام الذي كان سائداً من قبله كان يقوم على وضع طائفيّ، يجعل فريقاً من المواطنين منبوذين،

فيعاملون بما لا تُعامل به الحيوانات من ازدراء، ولذلك سارعت الأكثرية إلى اعتناقه تخلصاً من جبروت البراهمة، الذين جعلوا الآدميين أنجاساً.

وقد تعصّبت هذه الطوائف للإسلام منذ اعتنقته، إذ لمست فيه طوق النجاة، وازدهرت الحضارة الإسلامية في الدولة التيمورية على نحو لا تزال الآثار شاهدة بارتقائه المدني العظيم، ولم يتصدّر لمقاومة الاحتلال الإنجليزي غير المسلمين وحدهم، لأنّ لهم حضارة يدافعون عنها، ومدنية تفوق مدنية المتسلّط، ولولا قوة الحديد والنار ما استطاع الإنجليزي أن يحتلّوا البلاد، وقد علموا أن المسلمين هم الشوكة الأولى التي تؤرّق مضاجعهم، فعملوا على إقصائهم من أماكن الإدارة، وقربوا المسالمين من الهندوك، وفي الوقت نفسه جعلوا سياسة (فرّق تسد) أساس استقرارهم، حين تشجّر الطوائف المختلفة، وهم يتظاهرون بالحياد!

على أن فكرة الباكستان كانت خيالاً يداعب المسلمين قبل قرن كامل من إنشائها، فقد اتجه إليها تفكير السيد أحمد خان وزملائه في جامعة عليكرة، ودعوا إليها كامل بعيد لا يأس من تحقيقه، ثم جاء السيد محمد إقبال الشاعر الإسلامي الكبير فصاغ لها فلسفة فكرية في دواوينه الشعرية، إذ بعث في النفوس رغبة في استعادة المجد السالف، وظلّ يهتف بحلمه الجميل، حتى عُقد المؤتمر الإسلامي في سنة ١٩٣١، فقدّم المشروع بكافة موارده، وذكر المسلمين بأقوال السيد أحمد خان ونواب محسن، ومولاي محمد علي، ورحمّ علي؛ وكلّهم اتجهوا وجهة التقسيم.

وهكذا صار محمد إقبال أظهر من دعا إلى الباكستان، لأنّه عبّر عن عواطف الخاصة والعامة في دواوينه الشعرية ناشداً مذهب القوة في عراك الحياة، ولن تكون القوة دون استقلال ذاتي، لا تذوب فيه الجماعة في بحر يموج حولها ويكاد يبتلعها، ولعلّ صاحب ديوان (صدى الأيام) قد عبّر عن بطولة إقبال الرائعة، حين كان سبباً رئيسياً في إنشاء دولة الباكستان، فقال مخاطباً الشاعر الكبير^(١):

سننّت لأرباب القصيد رسالة فصاروا يقودون الشعوب كأقيال
وكانت رياض الشعر ملهى عنادل فأضحت بما أبدعت حومة أبطال

(١) ديوان صدى الأيام: ص ١٤٤، للدكتور محمد رجب البيومي.

لقد خطب القائد الأعظم في احتفالٍ عام ضمّ زعماء المؤتمر، وزعماء الرابطة الإسلامية، وكان بعضُ البارزين من المسلمين ممّن لم يشاؤوا الخروج من حزب المؤتمر (وله اجتهاده أصاب أم أخطأ) يحاول أن يشني القائد عن مشروعه، معلناً أن العلاقة ستوثق في ظل الدولة الواحدة، فجاء ردّ محمد علي جناح مستنداً إلى الوقائع التاريخية القريبة سنة ١٩٣٥، حين وُضع دستورُ الهند على أساس ديمقراطي في ظاهره، ولكنه في غايته المؤلمة ينتهي إلى أن يبقى المسلمون أقلية، تتحكّم فيها الكثرة الهندوكية، وقد بدا هذا الخطر واضحاً حين نادى حزب المؤتمر بأن يكون للمسلمين ثمانون نائباً في الجمعية التأسيسية الأخيرة من مجموع أعضائها البالغ عددهم ثلاثمئة وتسعة وثمانون عضواً، ومعنى ذلك ألا يُسمَعَ صوتُ ما للمسلمين، ارتكاناً إلى تأييد الأكرية، فيكون تمثيلهم عديم الجدوى! وهو واقعٌ صريح لا يمكن إنكاره، لذلك كان الائتلاف بين الرابطة الإسلامية وحزب المؤتمر ممّا يعصف بالكيان الاستقلالي للمسلمين، وهذا ما جهر به جناح وأيّده المسلمون.

أشرتُ من قبل إلى قول القائد الأعظم: «إن حاجة المسلمين اليوم في الهند تتعلق بدولة جديدة مثالية تحتضن مبادئ الإسلام، وتقرن السياسة بالأخلاق». وهو قولٌ يُلاقي ابتسام دُهاة السياسة المعاصرة، إذ وَقَر لديهم أنّ السياسة لا تلتزم بالمنحى الخلقي، فالمعاهدات تُمزق، والعهود تُنقض، والاحتلال يُبرّر، والقوة الغاشمة تُحترم، لأنّ الميكافيلية هي أساس النجاح السياسيّ في قرون السيطرة الأوروبية، ولكنّ انتشار هذه السياسة لا يجعلها صحيحة مقبولةً، لأنها أدّت إلى النجاح، إذ العبرةُ الصحيحة بالوسائل النزيهة لا بالغايات المغتصبة.

وفي عهود التاريخ فترات التزمّت فيها السياسة بالخلق فأدّت إلى نفع جزيل، كسياسة الخلافة الراشدة، وسياسة عمر بن عبد العزيز؛ لذلك كان محمد علي جناح يركز على واقع أصيل من تاريخ الإسلام، حين دعا إلى أن تقترن السياسة بالأخلاق في ظلّ الباكستان الإسلامية، وحياتُه العملية في جميع أدوارها تنطق بالتزامه الخلقيّ الصريح، منذ عالَج شؤون الحياة، وأنقل ما سطره الأستاذ الباحث أنور الجندي عن سلوكه الشخصي إذ قال^(١):

(١) تراجم الأعلام المعاصرين: ص ٣٨٧.

«لقد أجمع خصوم جناح وأصدقاؤه على أنه كان قويّ الشخصية، باهر الشمائل، وأنّه كان نزيهاً مستقيماً على حظّ من الشرف الشخصيّ عظيم، وقد قال عنه الدكتور (كمر شنالال) في كتابه (الهند والغرب): إنه لا يوجد رجلٌ بذلت بريطانيا لإغرائه ما بذلت لإغراء محمد علي جناح وكسب معونته، ولكنه رفض جميع المغريات، ومضى على نهجه في الاستقلال، والحقّ أنه لم يتفقّ لرجل في مثل ثراء جناح أن يشغل نفسه بالعمل السياسي، وأن يُرهقها بهذه المهام الخطيرة المجاهدة، لولا أنّه كان يؤمن في قرارة نفسه بوطنه وقومه، ولذلك وضع كفايته وأعصابه وجهده في هذا السبيل، ولا شكّ أن محمد علي جناح قد أعطى الشرق كله درساً في الخلق، فقد كان الساسة يفصلون بين السياسة والخلق، ولكنّه جمع بينهما، وربط بين الدهاء واليقظة والحرص، وهما من صفات السياسيّ، وبين الخلق المتين والكلمة الصادقة، والعهد الوثيق الذي لا يتخلّف ولا يهين ما دام صاحبه قد أعطاه».

وقد ذكر بعض ناقديه من مراسلي الصحف الأوروبية عقب وفاته أنّ القائد الأعظم مع قدرته الفكرية وجودة تخطيطه السياسي، لم يكن خطيباً يقنع الجماهير، والحقّ أنّ الخطابة من مؤهلات الزعامة، وكذلك كان مصطفى كامل وسعد زغلول وحسن البنا في مصر، ولكنّ الزعيم الذي لا يُخاطب الجماهير شفويّاً، يستعِضُ عن ذلك بآرائه التي دونها في مقالاته، وخطبه المكتوبة التي أعدّها بدقة واهتمام قبل أن تُقرأ، وشغف الزعماء بملاقاة الجماهير والتحدث إليهم قد يكون في بعض أحواله مصدر تباّه واعتزاز، حين يلحظ الخطيب إعجاب جمهوره، ويُصنفي إلى تصنيفه المتواصل، وهتافه العالي، ولكنّ ذلك كلّ لا يؤيّد مركزه إنّ لم يكن صاحب خطةٍ سديدة وتخطيطٍ محكم.

وقد اعترف بعض الخطباء في مذكراته السياسية أنه كان يعدّل آراءه في موقفه الخطابي مراعاةً لشعور العامة من المستمعين، وإن لم يكن مرتاحاً لهذا التعديل، ولعمري ذلك هو الخطأ بعينه، فإن الخطيب الحقيقي هو الذي يستطيع مواجهة الجمهور، ويستطيع التأثير فيه لينقله من رأي لا يؤمن به إلى رأي يراه جديراً بالتنفيذ، وقد كان (جناح) مُحامياً لامعاً يملك إعجاب القضاة، والمحاماة ضرب من الخطابة الراقية في أسمى مظاهرها، لأنها تعتمد على المنطق، وتستند إلى

القانون، وكلُّ انفعالٍ عاطفي في أسلوبها لا يلتفت إليه القاضي، إذا لم تكن مواد القانون مؤيدة لها، و(جناح) بهذا المعنى القانوني خطيبٌ رصين.

وهذا الحديث عن عزوفه عن خطابة الجمهور، يُجاوره نقد آخر، قال به مراسل صحيفة التاميز في معرض تأبينه، وهو أنه لم يكن يستطيع أن يخفي عداؤه الصريح للهنداكة في كثير من تصريحاته، ونحن نعلمُ أنَّ الرجل الكبير هاجم الهنداكة بضراوة حين افتروا على المسلمين في بلاغاتٍ كاذبة، تقدّموا بها للحاكم الإنجليزي العام، والحاكمُ يعرفُ مقدار عدااء المسلمين له، وأنّهم لا يقبلون حكمه الغاصب، وقد ابتعد الكثيرون منهم عن أعمال الدولة الرسميّة، كيلا يكونوا أداة تنفيذٍ لمشيئته، بينما تهالّك الهندوك على هذه المناصب، وتزلّفوا إلى الحاكم الإنجليزي حتّى صاروا موضع الاهتمام، وسالت أيديهم بالأموال تكالّباً على الوظائف الحكومية، والموظفُ الحكومي في عهد الاستعمار أسيّر لا حرّاً، وهذا ما جعل المسلمين بمنأى عن بريق هذه الوظائف، وحين يقومُ نزاعٌ على أرضٍ هندية بين المسلمين والهندوك يَخِفُّ الحاكم المستعمرُ إلى مُؤازرة الهندوك ضدّ المسلمين، لأنّه يعرفُ جيداً أنّه يستطيعُ أن يستميل الهندوك بأقل المغريات، أما المسلمون فذوُّ عنادٍ متصلّب أمام الباغين..

وما قاله القائد الأعظم في هذا المجال تحدّث به الشاعر الكبير محمد إقبال حديث الناظم الغاضب، فقد نُشر الأستاذ عبد الوهاب النجار ملخصاً شافياً لحديث دار بين الشاعر الكبير وأعضاء البعثة الأزهرية للهند، قال فيه، ردّاً على من زعموا أن المسلمين يرغبون في بقاء الإنجليز بالهند طيلة الحياة، وأنّ الهندوك هم الذين يسعون للتحرير، وهي فريّة مضحكة نفاها الشاعر إقبال حين قال^(١):

«الحقيقةُ أن الرّغبة الصادقة في بقاء الإنجليز بالهند إنما هي صادرة من الهنداكة، وذلك أنّهم يخشون جانب الأقلية الإسلامية، لأنهم يعرفون حق المعرفة قوة المسلمين، وجرأتهم على القتال إذا جدّ الجد، ودليلي على ذلك أن السيخ أخذوا مسجداً إسلامياً، ووضعوا أيديهم عليه، وحاول المسلمون استرداده برفع الشكايات إلى الحكومة، فلم تفعل شيئاً، فعولوا على أن يحكّوا جلودهم بأظفارهم، وأن

(١) مجلة دار العلوم، يوليو سنة ١٩٣٨، ص ٤٦.

يتولّوا أمرهم بأنفسهم فينتزعوا المسجد عنوة، فجاء البوليس لردّ المسلمين بقوة السلاح، وأطلق عليهم الرصاص، فأصاب اثنين وعشرين من المسلمين، كانت إصاباتهم في صدورهم، ولم يُوجد بينهم من أُصيب وهو مُولّد ظهره، ومثّل هذه الجرأة لا تُوجد في الهنادكة إطلاقاً.

والعلة في فقر المسلمين الآن هي أنّ الحكومة الإنجليزية حين وضعت يدها على تلك البلاد لم يَقم لمنازعتها سوى المسلمين، فلما ملكت ناصية الأمر استُهدف المسلمون لعسفها وجورها، ونُزعت أموالهم ودورهم من أيديهم بالقوة، وصُيرت إلى الهنادكة، وقد كفّ المسلمون يدهم عن التعاون مع المحتلّين، فاستعانوا بالهندوك، وحينئذٍ وُجدت الفرصة السانحة لإثراء الهنادك إثراءً فاحشاً، وبقي المسلمون في فقر مدقع، وصارت دُنيا الهند في أيدي الهنادك بالتجارة والوظائف الحكومية، وأملك المسلمين المصادرة حين صارت في حوزتهم.

هذا بعض حديث (إقبال)، وقد كان وثيق الصلة بالقائد الأعظم، وموضع استشارته فيما يَجِدُ من الأحداث، ويطرأ من الخطوب، وقد كتب إليه محمد علي جناح يقول في بعض رسائله:

«إني أعلم أنّك رجلٌ جَمُّ المشاغل، وأرجو ألا تُضجرك كتابتي إليك حيناً بعد حين، إذ أنت اليوم المسلم الوحيد في الهند الذي يحقّ للأمة كلها أن تتطلّع إليه لقيادتها في هذه الزوبعة التي تهبّ على شمال الهند الغربية، وإني لمبلّغك أننا نعيش في حربٍ أهلية، ولولا الشرطة والجيش لعمّت في مثل لمح البصر».

لقد ظهرت في مصر كُتب كثيرة تتحدّث عن غاندي ونهرو، ولم تظهر كُتب تتحدّث عن محمد علي جناح، غير ما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في مؤلّفه عنه! والسبب في ذلك أن الغربيين أكثروا من حديث الزعيمين الهندوكيين، فترجم المصريون ما قالوه، وحَوّروه وأطلقوا عليه أسماءهم، وكان الأولى أن يضيفوا إلى ما كتبه كتاباً ثالثاً يتحدّث عن القائد الأعظم محمد علي جناح! وسيضمنون القارئ المتجاوب، لأن القارئ المصري لا ينسى أن منشئ دولة الباكستان زعيم مناضل وقائد عظيم.

* * *

الدكتور محمد غلاب

باحث فلسفي مستقل

- ١ -

مؤلف الفلسفة إذا كان عَزَوْفًا منصرفاً عن الناس إلا في دائرة اختصاصه، لا يكاد يعرفه أحد، مهما أكثر من المؤلفات، لأنَّ قِراءَهُ محدودون، وتلاميذه في أكثرهم يقرؤون ما كُتِبَ لينجحوا في الامتحان، فإذا تخرَّجوا إلى محيط الحياة تركوا مادته العلمية، وعدَّوها طلاسماً شاقَّةً، تُتعبُ الذهن، ولا تقضي إلى متعة خالِبة، فإذا كان هذا المؤلف مضطراً إلى الانزواء، لِعِلَّةٍ لحقته في عينه، بعد تجربة حاولها في عقد الصلات فلم يوفَّق، فإنَّ نسيانه يكون أكثر.

وهكذا كان الدكتور البصير (محمد غلاب) أستاذاً في فَنِّهِ، كثيراً غزيراً في نتاجه، لم يكد يترك التأليف طيلة حياته في شهر من الشهور، حتى إذا جاءه اليقين، أصبح خبيراً منسياً، وسكت عنه تلاميذه الأقرباء، كما نسيه معارفه البعداء..

وُلد الدكتور غلاب في أول يوم من أيام القرن العشرين، ونشأ في أسرة تعتَزُّ بنسبها العربي الأصيل، وترتفع به مُوثَّقاً - في رأيها - إلى الجدِّ الأربعين، ومهما يشكُّ شاكٌّ من غير الأسرة في هذه الصلة الممتدة إلى جُذور التاريخ، فإنها عند الأسرة تُورثُها اعتزازاً، وكان والده رئيس قريته، ولم تكتمل فرحة طفله به، إذ فارقه في الخامسة من عمره، ثم صَعبَ بصره حتى نفذ، والتحق بالأزهر فكان مبرزاً بين أقرانه، ثم أدركته ثورة سنة ١٩١٩، فرجع إلى بلده ليقراً علوم الأزهر على عالمٍ أزهري يُثَقِّنُها كلَّ الإِتقان، فلم تضع أيامُ الإضراب السياسي عبثاً بالنسبة إليه.

ثم دَفَعَتْهُ همته إلى أن يتعلَّم اللغة الفرنسية، وإلى الالتحاق بالجامعة المصرية القديمة، وتنوعت أهدافه فَتال الدبلوم العالي بمدرسة الحقوق الفرنسية، وكان

الدكتور طه حسين قد رجع من فرنسا أستاذاً شهيراً، فأحيا الآمال في طائفةٍ من أمثاله صمّموا على الذهاب إلى فرنسا، ليبلغوا مبلغه، وهكذا ارتحل غلاب إلى جامعة ليون بفرنسا بعد جهاد شاقٍّ من أسرته، ومما يذكره بمرارة أنّه حين ركب الباخرة إلى فرنسا من الإسكندرية لم يودّعه أحد، مع أنّ لكلّ مسافر - حينئذٍ - مودّعا، وعاد فلم يستقبله أحد، ولكنّه عاد بالدكتوراه، نالها بمرتبة الشرف مع تقدير التهنئة، وتبادل الرسالة في جامعات باريس، وهو سعيدٌ بما ظفر، فكم من طلاب رجعوا من باريس، واستقبلهم أهلهم بالميناء الإسكندريّ، ولم يُحرزوا درجةً علمية ما، بل ركنوا للهو استجابةً لنزوات الشباب، ولم يكن الدكتور محمد غلاب أحد هؤلاء بداهةً.

رجع الدكتور غلاب ليحذو حذو الدكتور طه حسين في الاتصال بالصحافة، وتوجيه الرأي العام، وأصدر مجلة (النهضة الفكرية) مدى ثلاث سنوات متوالية، لينشئ جيلاً من القراء يتشبع بمبادئه الثقافية، وقد التفّ حوله نفر من الشباب شجّعهم على النشر، ودعا طائفةً من أساتذة المدارس العليا للإسهام في نشر المقالات.

ولكنّ المجلة لم تبلغ ما أراد لها، لأنّ صاحبها لم يتصل بحزبٍ سياسي يعرف زعماءه، ويسير له بمقالاته الحزبية ذكرٌ في الناس، كما فعل غيره في مضماره، بل جعلها مقصورة على الثقافة والأدب والشعر، وقد لاقت حرباً من منافسيها ذوي المجلات الذائعة، فكانوا يصدّون باعة الصحف عن ذبوعها، وتمضي إليهم النهضة الفكرية، فترجع في حبالها كما ذهبت، هكذا قال الدكتور غلاب في حديثه عن المجلة الموءودة، وإخاله صادقاً^(١).

وليس الأمر غريباً في بابه، فقد أنشأ الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي (مجلة المعرفة) في هذه الفترة نفسها، فكانت منافسةً صعبةً لمجلتي (المقتطف) و(الهلال)، لأنّها مع احتفالها بالبحوث العلمية قد انفردت بصوت إسلاميٍّ له أهدافه الحبيبة، وجمعت من كبار الكتاب من يُعدّون في الصفّ الأول نباهةً ذكر، ووفرة نتاج، ثم جاءت رشوة الباعة، فلاقت المعرفة مصير (النهضة)، ومجلة الفكر غير

(١) في عالم المكفوفين، للدكتور الشرباصي ١٤٧/٢.

مجلة السياسة، فالأولى ذات قراء محدودين، فإذا وجدت مع ذلك حرباً مأكرة، فمصيّرُها معلوم!.

ولكنّ كلية أصول الدين قد أنشئت في هذا العهد، ورأى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمد الظواهري أن يتنفع طلابُ الكلية بحامل الدكتوراه في الفلسفة، فعُيّن أستاذاً للأخلاق والفلسفة بالكلية، واشترك في وضع المناهج للطلاب بالكليات والمعاهد الأزهرية مع صفوة من خيرة القوم، وأخذت مؤلفاته الكثيرة تنهمر انهمار الغيث، فأسدى فضلاً، وكشف عن جوهر نفيس.

اتجه الدكتور في محاضراته إلى درس الفلسفة الشرقية، والفلسفة الإغريقية، وكانت كتبُ الفلسفة بكلية الآداب تنكر كل أثر للفلسفة الشرقية فيما تلاها من الفلسفات، تبعاً لما قرّره جمهرة أساتذة الغرب في هذا المجال، ثم أذاع الدكتور طه حسين كتابه (قادة الفكر) فأيد هذه الفكرة بأقصى ما يملك من بيان، وكتب الدكتور أحمد أمين قصة الفلسفة اليونانية فظاھر هذا الرأي وأيده، وفي طلاب كلية أصول الدين من تلاميذ الأستاذ الدكتور غلاب من قرؤوا كتب الأساتذة يوسف كرم وطه حسين وأحمد أمين، فعرفوا ما قالوه، واستمعوا إلى أستاذهم فوجدوا الرأي المخالف، فحسبوه يسترضي عواطفهم الشرقية حميَّة وحماسة لا عن بحث وتحقيق.

وتجرّأ طالب متسرّع فقال للدكتور غلاب: ولم لم تنشر ردك على مخالفيك في صحيفة علمية، ليتسع مجال النقاش خارج الكلية. واستمع الدكتور إلى الطالب مفكراً، وهنا صحّ لديه أن ينشر خلاصة دروسه في مقالاتٍ متتالية بمجلة الرسالة استمرت عاماً كاملاً، ثم جمّعها في جزئين ونشرها مطبوعة، فأحدث دويّاً صاحباً بين أهل العلم، وهكذا وفق الله طالبَ الكلية لاستدراج أستاذه إلى النشر في فضاء فسيح، فامتد بفكرته إلى المحيط العربي جمعه، بعد أن انكمشت في جدران ضيقة الرحاب.

وقد ذكر الدكتور محمد غلاب في مقدمة كتاب (الفلسفة الشرقية) أنه سيحاول دراسة النظر الإنساني، وما مرّ به من تطورات قبل أن تُطلق عليه كلمة الفلسفة، لأنّ التفكير الشرقي القديم لا يتفق على تسميته تفكيراً فلسفياً كثيراً من باحثي الغرب، لأنّه في رأيهم يستمدّ آراءه من التعاليم الدينية!! وهي حجة داحضة؛ لأن أصحاب

هذا الرأي لم يُنكروا إطلاقاً الفلسفة على ما أنتجته مفكّرو العصور الوسطى، الذين يستمدّون تعاليمهم من المسيحيّة، فكيف ينكرون ذلك بالنسبة إلى الشرق وحده؟ .

وقد قرّر أرسطو أنّ الفلسفة لم تُعرف في تاريخ العقل البشري إلّا في المستعمرة اليونانية (ايونيا) وقد أسّسها قومٌ إغريقيّون، فالفلسفةُ إغريقيّة الأصل والعنصر، وهي لا تَصْعَدُ في رأيه إلى ما وراء القرن السادس، فأصبح كلامُ أرسطو موضعَ قبول الكثيرين، وقد أكّده (بارتلمي سانت) في مقدّمة ترجمته لكتاب (الكون والفساد) لأرسطو، وهو ما نقله إلى العربية الأستاذ أحمد لطفي السيد، فكان قوله موضعَ يقين الدكتور طه حسين ومن تلاه، يقول الدكتور غلاب في المقدمة: «ولهذا الرأي مقلّدون، وأذنانُ مقلّدين في مصر في كلّ فكرةٍ تطعُنُ على الشرق»، وكتب في الهامش ما يدل على أن المقلّد طه حسين، وذب المقلّد أحمد أمين، والتفرقة بين الرجلين لا معنى لها، إذ هما يندرجان في اتجاه واحد، وقد قرأ أحمد أمين ما قرأ طه حسين، وألّف في الفلسفة قبل أن يؤلّف فيها! .

هذا ما قاله أرسطو وتابعوه، وتابعو التابعين، أمّا الدكتور غلاب فقد تتبّع منشأ هذه الفكرة منذُ قالها أرسطو، ثم ذكر الرأي المقابل الذي سجّله (ديوجين لا إرس) في كتابه (حياة الفلاسفة) وقد عاشَ في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، وألّف كتابه الذي اعترف فيه بفلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة، وبسبقهم الغرب في النظر العقلي بما ورد عنهم من آثار، ومن أقوى آراء الدكتور غلاب أن الباحثين الأثريّين عثروا على كلمات العدل والفضيلة والنفس والحياة الأخرى في الشرق، قبل تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يُعرَف مداها، وأنّ علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنّ بناء الإهرام قام على وضع هندسيّ تسبقه فلسفة رياضية مؤكّدة، وأنّ كثيراً من النظريات الإغريقيّة تتوفّر فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها. . وتلك أدلة جديرة بالاهتمام.

وكتاب الدكتور أقوى ما كُتب في موضوعه، إن لم يكن أقوى كُتبه جميعاً، حيث بدأه بمقدمة اشتملت على مناهج البحث في العصر الحديث، وعلى ما يجب أن يسلكه الباحث في استعراض المذاهب الفلسفيّة، مراعيّاً خطوات البحث العلمي في ترتيب الحوادث وفق القانون المنطقي.

أما ثقافات الأمم الشرقية فقد وجدت مكانها المبسوط، حين تحدّث الدكتور

غلاب بإفاضة عن الفلسفات المصرية والهندية والفارسية، والصينية والكلدانية العبرانية، وكانَ وفيّاً كل الوفاء لمصر، وفاءً علمياً، لا وفاءً عاطفياً، حين أشبعَ الحديث عن الحياة العقلية في مصر، منذ نشأتها في عصر ما قبل التاريخ، ثم في عصور منفيس ومدينة الشمس وطيبة، وأفاضَ في التطورات التي تعاقبت لدى المصريين حول مسائل الألوهية والنفس، والبعث والسؤال والميزان والثواب والعقاب، هذا غيرُ ما اتجهوا إليه في تأصيل قواعد للأخلاق والآداب، وعلى طريقته في الحديث عن مصر تحدّث عن فلسفة الهند والفرس والصين.

وقد وجد من الباحثين من نهج نهج الأستاذ في تأريخ الفلسفة الشرقية، وربما اتّسع أكثر مما اتّسع، ولكن السابق هو الذي مهّد وهياً ورسم الطريق، فكتابُ الفلسفة حين ظهر في أواخر سنة ١٩٣٧م، كان جديداً جديداً، وقد قلت: إن فصولاً منه نشرت قبل الطبع بالسنة الخامسة من مجلة الرسالة، فأتيح لها أن تكون واسعة الذبوع، وأن تكون مجال أخذٍ ورد.

وقد احتفلت الصحف العلمية بظهور هذا الكتاب القيم، فأشادت به مجلة الرسالة، ونقل الأستاذ محمد فريد وجدي مقدمة الكتاب في جزئين متتاليين من مجلة الأزهر، وقال تمهيداً لهذه المقدمة^(١):

«شرحَ حضرة الأستاذ الألمعي الدكتور محمد غلاب، أحدُ محرري هذه المجلة في طبع بحوثه الفلسفية، وهي تقع في ثلاثة مجلدات، وقد تمَّ طبع المجلد الأول منها، فرأينا أن ننقلَ المقدمة الفلسفية الممتعة، التي افتتح بها هذه البحوث، فقد أوجزت من تعريف الفلسفة، وفوائد دراستها، وأطراد تقدّم الفكر البشري، ما لا يمكن أن يستخلصه المستفيد إلّا بعد مطالعات تستغرق سنين طويلاً، فنشكّر للمؤلف دراساته المدققة، وجهوده الموفّقة، راجين له دوام الإنتاج على هذا الأسلوب القيم، والتمحيص الحكيم».

وإذا كان الدكتور قد بدأ نتاجه العلمي بهذا الأثر الكبير، فقد كان براعة استهلال فائقة لما تلاه من البحوث الغزيرة، والبحثُ الفلسفي شاقٌّ يحتاج إلى الصبر الطويل، ويُخيّل إليّ أنّ مخطوطاتِ فلسفية كانت لدى الدكتور قبل أن يكون أستاذاً

(١) مجلة الأزهر، المجلد التاسع، ص ٢٧٨، سنة ١٣٥٧هـ.

للفلسفة بالكلية، فلما أُتيح له أن يغمر طلابه بعلمه الوافر، أخذَ يصدر كتبه المتوالية، ومنها كتاب (مشكلة الألوهية)، وكتاب (الفلسفة الإسلامية في المغرب)، وكتاب (المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة)، وكتاب (الأخلاق النظرية)، وكتاب (حياتنا الاجتماعية ومشكلاتها العظمى)، وكتاب (الأدب الهليني) في ستة أجزاء، وكتاب (الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر)، وكتاب (أدباء الرومانتيكية الفرنسية) وكتاب (الأدب المقارن) وغيرها..

وأكثرُ هذه الكتب كما تحتاج إلى صبر المؤلف في الإعداد، تحتاج إلى جلد القارئ في الاستيعاب، وقد تهَيَّيت بعضها، فوقفْتُ على شاطئه، دُونَ أن أضع قدمي في الماء، لأن استيعابه يحتاجُ إلى دراسة مؤهلة، لا أراني وفَّقْتُ لها من قبل، ولكنَّ غيري قد قرأ وهضم واستفاد، وفي ذلك عزاء أي عزاء لذوي الجهد المرير.. وليست بعض هذه الآثار هي التي استغلقتُ علي، لأنني حين تصفَّحت كتاب (مشكلة الألوهية)، وقد نشره بمجلة الأزهر مفرَّقاً قبل أن يجمع، حاولت أن أنتقل منه إلى كتاب (الله) للأستاذ العقاد فوجدته أَعْتَى وأصْلَب، لأن العقاد يفترض في قارئ كتابه أنه ملُمٌّ بأصول كثيرة مما يتحدث عنه، فيفاجئه بالحكم على آراء لم تُبسط على وجهٍ مريح، أما الدكتور غلاب فلا يُناقش رأياً قبل أن يوضِّحه على وجهٍ كاشف.

وفيما ذكرتُ من مؤلَّفات الدكتور ما يتصل بالأدب وتاريخه مثل كتاب (أدباء الرومانتيكية الفرنسية)، ومثل كتاب (الأدب المقارن)، وكتاب (الأدب الهليني)؛ والحقُّ أنَّ النزعة الأدبية قد تأصَّلت في نفس الدكتور غلاب، وهو طالبٌ بالأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة، إذ كان ينشر بالمجلات الأسبوعية خواطر أدبية أشار إلى بعضها الدكتور زكي مبارك في كتاب (مدامع العشاق)، كما أنَّه نشر مترجمات أدبية لبعض القصص الأوروبية الشهيرة بمجلات السياسة الأسبوعية والرسالة والرواية.

وإن كنتُ وقفتُ طويلاً عند قصة تحت عنوان (يوميات جينيفيف)^(١) نشرها في ثلاثة أعداد من الرسالة، لأنها ليست ذات هدف إنساني، وإنما هي تصويرٌ لنزوات هابطة، ولعلَّ المترجم أراد أن يقفَ القارئ على نوازع من التحليل النفسي الدقيق لكوامن الغرائز، فجعل من هذه القصَّة مثلاً.

(١) مجلة الرسالة، الأعداد: ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣.

أما كتاب (الأدب الهليني) فموسوعة تقع في ستة أجزاء، وقد قال عنه الدكتور وهيب كامل^(١): «إن المؤلف قد اعتمد في تأليف هذه الموسوعة على كتابين اثنين في تاريخ الأدب اليوناني». عيّنها باسمي الكتابين واسمَي مؤلفيهما، ثم قال:

«ونحن لا نعترض على هذا النحو من التأليف، لأن الكتابين المشار إليهما حجّة في بابهما!». وهذا كلام لا يخلو من نقد صائب، لأن من يتصدّى لتأريخ الأدب اليوناني لا يكفي أن يلخص كتابين لم يقرأ سواهما! ولكن ما يشفع للدكتور غلاب في رأي الدكتور وهيب كامل أن الأستاذ (لويب) الأمريكي قد سلك هذا المسلك في تأليف كتابين شهيرين أحدهما كتاب (الأدب السكندري) لمؤلفه العالم الكبير (كويت)، والثاني كتاب (داوس) في تاريخ الكوميديا اليونانية المتأخرة للعالم الكبير (لاجراند) حين نقلهما نقلاً إلى الإنجليزية مُسقِطاً الهوامش في ترجمته!

وتعقيباً على ذلك أقول: إن الخطأ لا يبرّر الخطأ، وكان على الدكتور غلاب أن يُثبت في المقدمة أنه يلخص كتابين لمؤلفين، ويحدد الأسماء، بل كان من الأوفق أن يكتفي بعرضِ نصوص أدبية إغريقية مع التعليق عليها، وإذا فعل ذلك فلن يعترض عليه معترض، لأن النصوص الأدبية ملك للجميع في مجال الشرح والتعليق، وقد استدرك عليه الناقد أشياء تدلّ على تسرعه، وقال في خاتمة نقده: «إن الكتاب يحتاج إلى ثلاثة أجزاء أخرى لإتمام قصّة الأدب اليوناني». ودعا المؤلف أن يواصل العمل إذا وجد فسحة من الوقت، ليتمّ هذا العمل الكبير.

- ٢ -

للدكتور محمد غلاب بحوثٌ فلسفية كتبها للطلاب في مذكرات متداولة، وهذه البحوث تلتزم المنهج المقرر في لائحة الكلية، فمجال الابتكار فيها قليل، لأن المؤلف يحاول أن يلمّ بالمقرّر جميعه، ولا يتسع المجال لمناقشة كل رأي على حدة، وإذا أفادت هذه البحوث طالب الكلية، فإن غيره من المثقفين يحتاج إلى غذاء أدهم وأوفر، لذلك كانت بحوث الدكتور خارج نطاق الكلية تدل على شخصيته العلمية أكثر من غيرها، وما جاء من هذه البحوث تقليدياً سردياً فهو مما كُتب

(١) مجلة الكتاب، عدد ديسمبر سنة ١٩٥٢.

للعامة، ولا يزال كتاب الفلسفة يستزلونها من عليائها إلى مستوى الجمهور، ليضعوا أرضاً ممهّدة للمسير.

ومن هذه البحوث التقليدية ما كتبه الدكتور غلاب خاصاً بعلم الكلام، فهو أشبه بالمدكرات لا بالتحقيقات، وما كتبه عن التصوّف الإسلامي، إذ جعل تراجم رجال التصوف والمتكلمين باباً للحديث عن مواقفهم، ولا شك أن ترجمة العالم تفيد إذا شملت الحديث عن اتجاهاته الفكرية بإشباع، أما لو كانت تلخيصاً لكتب الطبقات فإنها لا تُشبع حاجة القارئ المتعمّق، وإن أشبعت رغبة القارئ المبتدئ.

ولأترك الحديث عن ما يُشبه المذكرات المدرسية من آثار الدكتور، إلى ما هو أليق بمستوى فكره الفياض، وأبدأ بحديثه عن (الإسلام والفلسفة) لأن شخصيته العلمية قد برزت في هذا الحديث، فقد بدأ القول بما اتهم به (رينان) العقل السامي، وردّ عليه في اختصار، وهو حديث كان أسبق من جلّي فيه الأستاذ مصطفى عبد الرازق، فيما كتبه في دروس الفلسفة الإسلامية، ثم ثنى بالحديث عن أسباب تفلّس العرب، وجعل السبب الأول كتاب الله، فأصاب حين ذكر أن القرآن أول كتاب سماويّ فرضَ تعلّم الحكمة على أبنائه فرضاً، حين دعاهم إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما نزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض...

ثم أفاض في تأكيد هذا السبب بما تجاهله غيره، حين جعل السبب الأوّل لفلسفة المسلمين هو الترجمة، ولا أنكر أن ترجمة كتب الهند واليونان والفرس بعثت على التفلّس، ولكن الترجمة كانوا نَقْلَة فقط، وحظّهم من الفلسفة حظّ من وجد كلاماً فنقله، أما من قرؤوا الكتب المترجمة، وتأثروا بها ونقدوها فهم الجديرون بالانتساب إلى الفلسفة، وقد أحسن الدكتور حين ردّ على من ذهبوا إلى أن فلاسفة المسلمين في الأندلس كانوا أقوى من فلاسفة المسلمين في الشرق، وعلة ذلك عندهم: أن البيئة الطبيعية بالأندلس أخصب منها في بغداد - وهي نعمة التفريق بين الأجناس التي ابتدعها رينان - فقال الدكتور غلاب: «إن أمثال الكندي والفارابي وابن سينا ليسوا بأقلّ من ابن رشد، وإذا كان هناك نبوغ في مؤلفات ابن رشد الأندلسي فمرجعه إلى التقدم الزمني، وإلى نضوج الفلسفة الإسلامية، واطلاع

اللاحق على آثار السابق، فأفاد منها وزاد عليها، وتلك طبيعة البحث على تداول العصور.

وقد عرضَ الدكتور غلاب إلى ما أفاض فيه فلاسفة المشرق، من نقلٍ عن فلسفة أرسطو ظهرت آثاره في آراء الكندي والفارابي وابن سينا، من حديث العقل الأول والعقل الثاني إلى العقل العاشر، وما يُشبه هذه الخيالات ليرى الإسلام منها، ولينقل ما ذكره الغزالي عن تهافت الفلاسفة، ثم أعلن أن الفلسفة الحقيقية لا تصطدم مع حقائق القرآن في شيء، وأن كل ما سبق من حديث العقول بعيد عن منطق الإسلام، وقال في صراحة واضحة^(١):

«إن مشاهير فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا وابن رشد قد قدسوا بعض النظريات اليونانية الخاطئة، فهَوَّوا في نظر المسلمين هَوًى أفعم قلوب الأمة الإسلامية بالريب والشكوك في الفلسفة كلها».

والذين كتبوا في هذا المجال من أساتذة الأزهر، قد تحدّثوا عن هذه الآراء ليبينوا بعدها عن الإسلام، وإذا كان للإسلام فلسفة، فليست هي التي توافق آراء أرسطو، ولكنها هي التي تنبع من آيات القرآن، وقد ذكرت من قبل أن الإمام الأكبر مصطفى عبد الرازق قد جعل علم الأصول هو المظهر الحق لفلسفة الإسلام، ذكرت ذلك في حديثي عنه بهذا الكتاب.

ومن أحسن ما كتبه الدكتور غلاب تحت عنوان (الأخلاق الفلسفية)^(٢)، ما ذكره عن الدين وقوة سلطانه على النفوس، فقد بدأه بحديث الشعوب الوثنية، حين رأَتْ مظاهر الكون الخارقة من شمس ورعد وبرق ونار، والنافعة من حيوان وطيور ونبات، فاعتقدت أنها تمثل المحرّك الأول لهذه المظاهر، فاستحقّت التقديس والعبادة، وهي على بطلانها الواضح قد أفادت في نزع الشرور وتخفيف الآثام، لأنّ الاعتقاد بالمحرّك الأول قد أوجد الخشية في نفوس هؤلاء الوثنيين، ولكنّ الله عز وجل لم يشأ أن يدومَ هذا الباطل رائئاً فوق النفوس، فبعث الرسل ترى لإعلان الحقيقة الأبدية، وهي رب الوجود، وبذلك انتقل الناس من الوثنية إلى التوحيد، وإذا كان

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ٧٠٥.

(٢) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، (أعداد متوالية ابتداء من ص ٢٨٢).

للدين أثره في نزع كثير من الشرور، فقد قام خلاف بين علماء أوروبا حول نظرية تأسيس الأخلاق، أيكون ذلك التأسيس على الدين أم يكون منفصلاً عنه؟ .

أما القائلون بقوة الدين في نزع الشرور، فقد لمسوا الحقيقة الواضحة في أثر الإيمان في الكف عن الضرر، والتسامي بالغرائز الهابطة إلى مستوى النقاء والطهر، كما أن ارتقاب الجزاء ثواباً أو عقاباً في الآخرة قد غلّ المؤمنين بقيد خلقي لا ينفك، فكان مصدر سعادة للبشرية، لذلك وجب أن تهتم الحكومات بالتربية الدينية، ليسعد المواطنين في ظلّالها، وأي قانون لا يستند إلى رقابة السماء فما أسهل عصيانه إذا أمن المجرم على نفسه، ولم ير من يشهد جريمته من الناس، وإذا كنا نقدر القانون، ونجعله كفيلاً بصلاح البشرية، فلا بد أن يستشعر الإنسان قوته المتمكنة منه، ولن يكون ذلك إلا في حياطة الدين، إذ أنزله الله دستوراً لصالح الناس .

وهذا المنطق قد وُجد من يخالفه، ونشر الدكتور غلاب حجة هؤلاء ملخصة في أمور؛ منها أن الأديان كثيرة متعددة، ونشر أخلاق دين معين، يُجبر غير معتنقيه على قانون لا يؤمنون به!! وهذه سفسطة واهية، لأن الأديان السماوية جميعها تتفق على الفضائل وتُحارب الرذائل دون نكوص، فإذا نُشرت أخلاق الإسلام في مصر مثلاً فلن يرى المسيحي فيها ما يخالف أخلاق دينه، ومن الحجج أن بعض الحكومات لا دينية، فكيف نُجبرها على أخلاق الدين، وقد فصلته عن السياسة؟ والرد على ذلك أن الشرائع السياسية يُمكن أن تتبدل، أما قوانين الأخلاق فتأبته، والمسيحي في حكومة لا دينية كفرنسا يؤمن بأخلاق الإنجيل ويحتذيها، وإن نادت الدولة بفصل السياسة عن الدين، على أننا في الإسلام لا نقرّ هذا الفصل ونراه خرقاً لشريعة الله! فالمسألة تخصّ المسلمين .

وقد رأى الفيلسوف (كانت) كبير الفلاسفة العقلانيين أن فضل الدين عن الأخلاق خطرٌ على الحياتين الاجتماعية والأخلاقية معاً! والذين يُحاربون انتساب الأخلاق إلى الدين، يُريدون أن يتحللوا من الدين، فلا يقعون تحت حدوده إذا ارتكبوا الموبقات، ولكن الإنسان السوي لا يخشى هذه الناحية، لأنه بعيد عن أوبئة الانحلال، والمفروض في المسلم أن يكون من هذا الطراز .

ومتى انتهى الأمر إلى رعاية الأخلاق في كنف الدين، فمن أقوى وسائل

الاجتماع أن يكونَ صاحبُ الدين ممتّعاً بضمير حيّ، وهو ما عبّر عنه القرآن بالنفس اللوامة، وقد تحدّث الدكتور غلاب عن الضمير وقوة تأثيره في النفوس، فقسّم الضمير إلى نوعين، ضمير نفسي، وضمير أخلاقي، أما الأول: فيقف عند إدراك ما يجيش في النفوس من انفعالات، وأما الثاني: فهو الحَكَم الصادق على ما يأتيه المرء من أفعال، وقد شاء له اطلاعه أن يزحم القارئ بآراء فلاسفة الأخلاق في أوروبا مُطيلاً مجيداً، لينتهي إلى أن الأخلاق الإسلامية قد قامت على رعاية الضمير، والاستماع إلى صوته، وأنّ المثل الأعلى في الإسلام ذروةٌ يطمح إليها المسلمون، فهم دائمو السعي إلى الوصول إليها، وفيهم من رزق الخطوة فارتقى، ومن قصّرت به خطاه فتلكأ.

وتابع الدكتور بحثه منتقلاً إلى بحوث من علم النفس تتعلق بالغريزة، وبحوث من علم الاجتماع تتعلق بالعادات والعرف والتقاليد، ولكن ذلك كلّ في نطاق التوجيه الإسلاميّ، المؤيّد بالشواهد والنصوص.

ولقد كان من الخير لأستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر ولطلّابه وقرائه أن يعالج هذه البحوث بوحى من ثقافته الدينية أولاً، ويهدي من اطلاعه على أحدث الآراء الأوروبية في هذا المجال، ليأخذ منها ويدع وفق تعاليم دينه، لأن كثيراً من الذين ألفوا في هذه الشؤون الدقيقة، قد نقلوا مترجماتٍ أوروبية عن أناس كثرتهم الكاثرة من الماديين، فأحدثوا بلبلة في النفوس، وانتشر ضلالهم على صفحات مجلّات تُحب أن تنحدر النفوس إلى حضيض الشهوات، ولم يُجِدِ الوعظ المنبري شيئاً في ردع هؤلاء، فكان واجباً على الملتزمين من أساتذة الأخلاق والفلسفة أن يكشفوا النقاب عن مموّهاتٍ تتزيّياً بزَيِّ البحث الدقيق، وهي في الواقع لا تعرف طريق البحث الرشيد، وما كتبه الدكتور غلاب يسدّ كثيراً من الثلمات..

قضى الدكتور غلاب رَدْحاً في فرنسا، فقرأ كثيراً مما كُتِب عن الإسلام في الغرب، وعرف طرق التهجّم الكاذب على حقائق هذا الدين، وقد شغله عمله الجامعي عن التصدي لهذه الافتراءات، ولكنه أخذ يرصدها، ويسجلها في أوراقه، ليفرغ إلى معارضتها بعد أن ينتهي من عمله، ولم يكن كقوم سمعوا هذه الأراجيف من أبناء مصر، فاعتقدوا صحتها، وأخذوا يُشيعون الكثير منها في مؤلفاتهم، تزلّفاً إلى من بيدهم منح الدرجات العلمية هناك.

لذلك كُتب الدكتور غلاب عدة بُحوث تحت عنوان: (الإسلام كما يراه الأوروبيون)، فأظهر أنّ قداماءهم كانوا يكذبون على الإسلام، فيلصقون به و برسوله التّهم الفاضحة دُون تمحيص، ومنهم من حاول أن يثبت أنّ الإسلام دين التثليث، وقد أخذ هذا التعدّد عن المسيحيّة، مع أنّ الإسلام دين التوحيد، وما جاء إلّا ليحارب أعداءه، وإذا كان التثليث مصدرَ تهمة يصبُّ بها الإسلام فلماذا اعتنقه هذا المستشرق وآمن به؟.

وكم كان جميلاً من الباحث الدكتور غلاب أن يأتي بالفرية الاستشراقية، ثم يرد عليها بما كتب مستشرق آخر في موضوعها، لا لأنه عاجز عن الإفاضة في تفنيدها، بل ليثبت للقراء أن الحق لا يعدم التّصير، فقد أثبت ما قال (رينان) عن محاربة الإسلام للعلم، وردّ عليه بما قال الأستاذ (كارادي فو)، كما نقل ما قاله الأخير عن الوحداية وهو حقّ في أكثره، ولكن غيوماً تراكمت على بعض نواحيه، فأزاحها بالدليل المقنع، وقد قال عن (كارادي فو)^(١):

«بعد أن انتهى الأستاذ من بسط إلهية القرآن، عرض لما فيه من أخلاق فلسفية، فكانت إبانته إياها بمثابة ردّ قاطع على أولئك الجاهلين، الذي زعموا أن القرآن ليس فيه إلا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين، من مثل الأمر بالصدق والأمانة والنهي عن الكذب والخيانة، فأثبت لهم أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية، هي في أسمى درجات النظر، ونقل من أقواله الشافية ما يؤكّد هذا الاتجاه.

وإذا كان الباحث قد ذكر أنماطاً من الآراء المنحرفة لهؤلاء، فقد وجدَ من الإنصاف أن يذكر أنماطاً تمثّل الاتجاه المستقيم، فكتب مقالاً عن الأستاذ (أميل دير مانجيم) يثبت فيه نواحي من السمو الرفيع للإسلام ونبيه الكريم، وقال: إنه وفق إلى الكثير من الحقائق، وإن كانت له هو الآخر هفوات سأعرض لها في حينها». ثم نقل نصوصاً صحيحة من تفكيره المعتدل تحت عنوان^(٢): (محمد إنساناً) و(محمد حكيماً) و(محمد نبياً) وهي نصوص يقبلها المسلم بارتياح.

(١) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، ص ٢٦٢.

(٢) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، ص ٣٧٩.

هذا وقد أطال الدكتور الوقوف عند آراء الأستاذ (بول كازانوف) لأنه قد انتدب أستاذاً بالجامعة المصرية حيناً من الدهر، فذاعت آراؤه بين كثير من الطلاب، وقد ألف كتاب (محمد ونهاية العالم) ليثبت أن القرآن قد أُضيف له بعد وفاة النبي ما دعت الحاجة إليه في نظري أبي بكر وعمر، مثل الآيات التي صرّحت بأن الساعة من الأمور التي استأثر الله بعلمها. وتُهمّة إضافة شيء للقرآن فزِيّة يعرف هذا المستشرق كذبها، ولكنه علم أن الأناجيل قد حُرّفت وزيد عليها، فأراد أن يجعل القرآن كالإنجيل، ومضى يسوقُ مفتريات لا تثبت لأدنى تحقيق، وقد ساعدَ عليها جهله بالأسلوب العربي، لأنّه لا يعرف اللّغة إلا عن طريق المعاجم، كما يجهل الفرق بين الحقيقة والمجاز في الأسلوب البياني، وإذ ذاك يتورّط في الحكم الفاسد، لأنّه يضلُّ معاني الكلمات، وهذا ما كشف عنه الأستاذ غلاب في تعقيباته الشافية.

وجاء بعد كازانوف أكبرُ حاقِدٍ من المستشرقين وهو الأب (لامانس) فجعل يجمع أشباه هذه المفتريات، فإذا لم يجد اختلق وبالغ، حتى سقطت سُمعته العلمية عند أصدقائه من ذوي نحلته، والذين أشادوا به لم يستطيعوا أن يشفوا صدورهم من الحقد، فمضوا على جمرهم محترقين، وقد حدّد الدكتور غلاب موقف هذا الحاقِد وكشف عن خطئه المريب.

هذا نمطٌ من الشبهات التي تصدّى لها الدكتور غلاب في بحثه عن (الإسلام كما يراه الأوروبيون) ولعلّي وقد رسمت خطوطاً واضحةً عن اتجاهه الفكري، لا أعفيه من نقد هادئ أسجّله عليه، إذ كان يضيق كل الضيق بما يوجّه إلى مقالاته وكُتبه من اعتراضات هادفة، قد يكونُ قائلها مُخالفاً وجهة نظره، ولكنه دارسٌ، له حقُّ المؤاخذه والتعقيب.

وأذكر بهذا الصدد أن الأستاذ (دريني خشبه) قد نقدَ بعض مترجماته نقداً صائباً مسبّباً، فضاق الدكتور غلاب؛ والحق أن الكتاب المنقود ذو أخطاء كتبها المؤلف، وغفل عنها المترجم فلم يعقّب عليها، فاستدرك الأستاذ دريني ما كان، وظلّ الدكتور غلاب ضائعاً بالنقد حتى فرّجَ عن نفسه بمقال كتبه تحت عنوان (النقد عندنا

وعندهم^(١)، بدأه بالضيق النافر من ركود الحركة النقدية الصحيحة، ثم اشترط في الناقد شروطاً جمعها في قوله: «إن هذه المهمة الشاقة لا تيسّر إلا لمن توافرت لديه شروط خمسة، هي: غزارة الثقافة، واتزان المنطق، والقدرة على اكتناه النفوس، والدراية الاجتماعية، والنزاهة الخلّقية» وأفاض في مثل هذه المعاني.

لقد كان الدكتور غلاب باحثاً مثابراً نشيطاً، ومؤلفاته الكثيرة شاهدة فضل، ودليل مثابرة وإخلاص.. وهي بعدُ تسير في عدة اتجاهات..

* * *

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٣١، ٢٩/١/١٩٥١م.

محمد المتولي الشعراوي

يمتّع العامة، ويقنّع الخاصة!

- ١ -

عرف العالم الإسلامي الشيخ محمد المتولي الشعراوي بعد أن جاوزَ الخمسين من عمره، واستشرفَ للستين، وهي معرفةٌ عجيبةٌ في بابها، إذ المعتاد أن ينزعَ عاشقو الفكر - أدباً وعِلماً - إلى التعبير عن ذوات أنفسهم في فترة الشباب المبكر، ثم يوالون الاطلاع والتعمق شيئاً فشيئاً، مع التنفيس عن أفكارهم بالنشر في الصحف، أو التأليف في الكتب، وبذلك يمرّون في دَوّرات متعاقبة من بدء الهلال حاجباً صغيراً حتى يكتمل بدرأً منيراً.

ولكن الأستاذ الشعراوي جعل يقرأ ويتعلّم، وينشرُ بعض آثاره في نطاق زملائه وأصدقائه، وهو نطاقٌ محدود لا يُبشّر بوجود نابغةٍ يتصدّر عالم القيادة في دُنيا الفكر الإسلامي، حتى أذن الله فأشرقَ شمساً وهّاجة، تُرسل الضوء الساطع دُون أن تَسبِقَها تباشير الصباح! وقد حدّثوا فيما ذكروه أنّ النابغةَ الذياني قد وُصِفَ بالنبوغ لأنّه نطق بالشعر رائعاً مكتملاً بعد أن جاوز الأربعين، فأذهش من سمعوه، إذ بلغهم شعره الرائع على غير انتظار، وما زال النابغة يصدر روائعه حتى صار ثالث ثلاثة هم أعلام الشعر في عصر الجاهليين.

نشأ الشيخ طالباً بالأزهر في معهد الزقازيق وفي كلية اللغة العربيّة، وكان نبوغه الأدبي ملحوظاً بين زملائه، ولكنه لم يزد على أن يكون واحداً من كثيرين يُشاركونه موهبته، كما دفعته حماسته الوطنية إلى الانتماء الحزبي للوفد المصري، وهو يومئذ لسانُ الأمة، وضميرُها المتوثّب، وقد ذكر الشيخ فيما روي عنه صلواتٍ وثيقة بسعد

زغلول، ومصطفى النحاس زعيمى الوفد، والرجلُ صادقٌ فيما يذكر لأنه لا يُضيف مزيداً من فضله، بل يقرّر واقعاً كان مجهولاً لدى العامة فُعرِفَ لديهم، وقد تخرّج في الكلية مدرّساً بالمعاهد، فمبعوثاً إلى السعودية والجزائر، وكان له في كل مكان ينتحيه شهرةٌ بالعلم، لأنه كان يخطبُ في نطاقه المحدود، فيُنْفَحُ بما يفيد ويمتّع، وقد عرّف له أساتذته الكبار مكانته البيانية، فحرص الأستاذ الأكبر إبراهيم حمروش على الاستفادة من علمه وبيانه، كما اختاره الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون مديراً لمكتبه، فكان موضعَ استشارته وأمين سرّه، وقد جدّ من الأحداث إذ ذاك ما وجّه إليه الأنظار، فأشارت الأصابع العالمية إلى مكانه المستتر خلف الحجاب، إشارةً أبرزت معدنه، وكشفت عن جوهره الأصيل.

أمّا هذا الحدثُ فهو انعقادُ المؤتمر الرابع لمجمع البحوث في أكتوبر سنة ١٩٦٨ عقب الهزيمة المروعة التي زلزلت العالم الإسلامي بانتصار إسرائيل على مصر، وقد حاولت بعض الأجهزة أن تهوّن من هذه الكارثة فدعتّها بالنكسة، ولكن الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون كان مريضاً، فطلّب من مدير مكتبه الأستاذ الشعراوي أن يُعدّ له كلمة الافتتاح، فألقى هذه القنبلة المدوّية على لسان الشيخ، حين هتف بمحضر نائب عبد الناصر السيد حسن الشافعي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر إذ ذاك، فقال الأستاذ الشعراوي^(١):

«أيها الإخوة العلماء، إنّ نكبة النكسة التي واجهت أمة العرب وشعوب الإسلام لم تكنُ محنةً سياسية بقدر ما كانت محنة دين، فمن الجائز على سياسة البشر أن تُخطئ تخطيطاً أو تخور في مواجهة، ولكن ليس من الجائز أن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، لأننا لو انتصرنا ونحْنُ على ما كان في مجتمعنا من خلل وانحراف، لازدّدنا جرأةً على محارم الله، ولجعلنا النصر شهادةً على صدق التحلّل وسلامة الانحراف، وصواب الانفلات من حضرة الله ومبادئ الإسلام، ولهذا كانت الهزيمة غيرّةً من الله علينا، لأنّ فينا وجدان الدين، وإن لم يكن فينا سلوك المتّقين، فحاسبنا ربُّنا لنرجع إليه، وابتلانا لنقبل عليه، وذلك قانونُ الأحياء يُحتَمّ مرارة الجرعة تقريباً لحلاوة الشفاء، فعَلَيْنَا معشر العلماء أن نبين للناس أنّ الله لا يتغيّر من

(١) مجلة الأزهر، شعبان سنة ١٣٨٨هـ، نوفمبر سنة ١٩٦٨م.

أجلنا، ولكن يجب أن نتغير نحن من أجل الله، فإن الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

كانت هذه الخطبة مبعث تساؤلٍ عجيب! ولم يُنكر الإمام الأكبر أن مُنشئها الأستاذ الشعراوي، حين رأى الثناء الجمّ يتقاطر عليه إعجاباً بها.

وكان الشيخ الشعراوي قد لمس جفاء ذوي الأمر وترتبصهم به، فانتقل إلى البلاد العربية داعيةً إسلام وأستاذ جماعة!.

كان اسم الشعراوي يُدَوِّي في إذاعة المملكة العربية السعودية قبل أن يشتهر بمصر، ثم أراد الله له أن يُسعد أهله بعطائه، فوقَّ الأستاذ أحمد فراج إلى اختياره مُتحدثاً في ندوته الشهيرة (نور على نور) وكان أول حديث ديني خاص في شأنه بتلفزيون مصر هو حديث (الإسراء) وقد جَذَب انتباه المشاهدين جذباً قوياً أخذاً، لأن الطريقة العلمية التي يصطفيها الأستاذ في شرحه كانت مثلاً رائعاً للدعوة والدعاة، إذ حرص كلَّ الحرص على أن يفيد الخاصّة والعامة في وقتٍ واحد، فهو يبدع أفكاره وخواطره متساوقةً متسلسلة، ويجعلها شبيهة بالقضايا المنطقية التي تأتي نتائجها صريحة جليّة، بعد مقدّمات لا شك في صحتها، وهي بعد ذلك مؤيَّدة بالدليل النقلّي الذي يُمعن الأستاذ في تحليله ألفاظاً، وفي خلاصة ما يؤدّي إليه بُرْهاناً وتعليلاً، وهذا ما يُرضي الخاصّة، أما العامة فسيبلُ الوضوح السافر الذي يتجافى عن المصطلحات العلمية، ويتعد عن النقول المتوارثة، والنقاش المدوّن في الكتب والحواشي والتقارير.

هذا السبيلُ السافر هو طريقة الشعراوي في تقديم آرائه، لذلك يستمعُ إليه ذو الثقافة العالية ممّن ينشد الحق لوجه الحق، فيرتاح إلى منطق، كما يستمعُ إليه المشاهد المتطلّع للمعرفة من أبناء الشعب، فيجد ما يشبع وجدانه الديني، وما يقنع تفكيره البدهي، فيصير مغتبطاً بما يسمع، وهذا من فضل الله على الأستاذ، لأنّه جعل الشبيبة الإسلامية وأبناء الوطن العربي جميعاً تلاميذ لِدُروسه، وإنك لتسمعُ في المجتمعات الشَّعبية آراء الشعراوي تتردّد على ألسنة العامة، وهي تمسُّ الصميم من مسائل العقيدة والشرعة.

وقد كانت هذه المسائل وقفاً على المثقفين وحدهم، فأصبحت - بما قام به الشعراوي من تذليل ميسر - مجال الحديث لدى غير المثقفين، فكأنّ الشيخ أوجد

جامعة شعبية دينية تنتقل إلى المشاهدين في منازلهم، فتُعطيهم الدروس الشافية الوافية، بدل أن ينتقلوا هم إلى مدرّجات الجامعة، ليستمعوا ما قد يتعسر على أذهانهم.

وأنا أقرّر في ارتياح أن الوعي الديني في الأمة العربية قد جاء كثير من روافده عن دروس الشيخ، وقد يعترض بعض الذين لا ينظرون النظرة العامة إلى فوائد الدروس القرآنية الشاملة على الأستاذ، بأنه كثيراً ما ينتقل من موضوع إلى موضوع لأدنى الملابس، ناسياً أن تلك طبيعة الدعاة في كل زمان ومكان، الدعاة الذين يُلْقون الدروس، ويواجهون المجتمع وجهاً لوجه، فهم في حاجة إلى التذكير بما قبل، والذين خاضوا في علوم الاجتماع والتربية يؤكدون على ضرورة التكرار لترسخ المعاني، وتبلور الأفكار، هذا في حلقات الدرس؛ أما في الكتب المتداولة فإن الأمر يختلف، ويكون التكرار موضع ملل، وما جاء في الكتب المتوالية التي تحمل اسم الأستاذ من ألوان التكرار لا ذنب له فيه، لأن القائمين على نشر هذه الكتب هم الذين ينقلون الأحايث دون التفات إلى ما قيل من قبل، والرجل سمح يوافق كل ذي نية سليمة على أن ينشر ما يريد من دروسه، إذ الهدف هو النفع العام. ولي في هذا المجال موقف سبق أن أوضحته على صفحات جريدة الجمهورية^(١)، إذ راعني أن يقوم الناشرون بجمع آثار الشيخ دون الرجوع إليه، فيحدثوا في بعض الأحيان ما يشبه التناقض إذ ينقلون الرأي على غير وجهه الصحيح، وقد قلت بصدد ذلك - وقرأه الشيخ كما اعتقد -:

«إنّ ما يُنشر من هذا التفسير الرائع في كُتب صغيرة تتابع بها الطابع، وتلقفها الأيدي واثقة مطمئنة لم يصدر أكثره عن أمر الشيخ ورقابته الدقيقة، بل تجرّأ ذوو الكسب التجاري على سرعة الطبع، فنشروا ما يُمكنهم تحصيله كما يتهيأ لعقولهم، إذ قرأت نصين يكادان يكونان مختلفين لتفسير آية كريمة، نقلها اثنان عن الشيخ الكبير، فكّتها كلّ منهما كما يتصور، وليست المسألة من السهولة بحيث يجوز عندها السكوت، لأنّ هذه النصوص المنسوبة للشيخ دون أن تلتزم الدقة المطابقة أصبحت بعض ميراثه، وستكون وثيقة معتمدة أمام الأجيال القادمة».

(١) جريدة الجمهورية: ١٩٨٦/٨/١.

قلت ذلك في حينه، فوجدتُ استجابةً فوريةً، لأن الشيخ بدأ يطبع تفسيره في أجزاء متوالية تحت إشرافه اليقظ، وفي هذه الأجزاء المتصلة المحددة بأرقام متتابعة، ما يمحو كل اعتراض يمكن أن يوجه إلى هذا التفسير، لأن رقابة الشيخ لم تُنحَ لبعض المتسرّعين أن يكتبوا ما كانوا يتعجلون بنشره، دون وعي ثقافي مكتمل، وهذا بعون الله وتوفيقه..

وإذا كان الله عز وجل ما فرّط في الكتاب من شيء، بل جعله مصدرَ هداية للبشر جميعاً بما أكد فيه من معانٍ ذات إقناع، فإن الشيخ في تفسيره الممتدّ عبر السور الكريمة، قد تعرّض إلى أدقّ المسائل التي حيرت المفكرين ليجلوها ساطعة في ضوء القرآن الكريم، فاختار عدّة قضايا هامة لتكون موضعَ النظر الهادي إلى منهج السماء، فقضية الإيمان بالله تلك القضية التي أكثر علماء الكلام في نقاشها بالأدلة المنطقية والبراهين الجدلية، فما نفَعوا غير الخاصة ممن يعرفون أقيستهم وبراهينهم، تلك القضية جعلت الشيخ يطرق الموضوع من أوسع أبوابه حين يقول^(١):

«اقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى أن تبدأ الحياة البشرية بالرسول، لأنهم الذين سيبلغوننا عن الله ما يريدنا جل جلاله أن نعرفه عنه، في أنّه الخالق الذي أوجد كل شيء؛ وأنّه وضع لنا منهجاً في الحياة نتبعه، وهذا الاتجاه الإيماني الجازم يصدّ كل لغوٍ يقوله رجال الاجتماع في أوروبا مؤكّدين أنّ الإنسان قد خلُق غير عارف بربه، ولذلك خاف من مظاهر الطبيعة كالبرق والرعد والنار فألّوها، وجعلها ربّاً يُعبد! إنّ هذا الضلال الذي اكتسح البشرية لم يكن في مبدئها بل كان بعد أن ضلّ الناس سبيل الحق، فحادّوا عن عبادة إلّه واحد، لذلك توالى الرسل مُنذرين ومبشرين، فالإنسان الأوّل وهو آدم نبيّ علّمه الله الأسماء، وعرف ذات الحق، وبشّر به لدى نسله، وأولّه قابيل وهابيل، وقد تأكّد ذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]».

لقد ألح الأستاذ على تقرير هذه الحقيقة في كثير مما قال، ثم اتخذ دليلاً الجازم

(١) الخير والشر: ص ٢٧.

من قصّة ابْنِي آدَمَ، حِينَ قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ، فَقَدْ احْتَكَمَا إِلَى اللَّهِ، إِذْ قَدَمَا إِلَيْهِ قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، وَقَدْ قَالَ هَابِيلُ لِأَخِيهِ فِيمَا رَوَى اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْبَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْبَلَكَ إِلَيَّ أَخَافُ أَلَّا تُرَدِّيَنِي إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٢٨]. فهذا الخوف من الله صَدَى لتعليم آدم لابْنِهِ، وفي هذا الموضع يَقَرُّ الشَّيْخُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الثَّابِتِ مِنْ لَدُنْ وَجُودِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَقُولُ:

«إِنْ احْتَكَمَ قَابِيلُ وَهَابِيلُ فِي قَضِيَّتِهِمَا إِلَى اللَّهِ، إِنَّمَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمَا عَرَفَا وَجُودَ اللَّهِ الْخَالِقِ لِهَذَا الْكَوْنِ، وَكَوْنَهُمَا قَرَّرَا أَنَّ يَحْتَكِمَا إِلَى اللَّهِ بِقُرْبَانٍ يَقْدَمَانِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمَا عَرَفَا الْمَنْهَجَ، وَكَيْفَ يَتِمُّ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ، وَعَرَفَا أَنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُ إِلَيْهِ بِأَفْعَالٍ مُعَيَّنَةٍ، وَتُغْضِبُهُ أَفْعَالٌ مُعَيَّنَةٌ، وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ، لَمْ يَتْرِكِ الْإِنْسَانَ لِحُلَّةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا مَنْهَجٍ، وَأَنَّ الْمَنْهَجَ نَزَلَ مَعَ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ».

وقد نقل الأستاذ محمد فريد وجدي عن كبار الكتّاب في الغرب ما يؤيّد نظرية الإيمان بالله منذ خلق البشرية، وقد ذكرتُ النصوصَ التي استشهد بها الأستاذ في مجال آخر، فلا داعي إلى تكرارها، ولكنّي أقول للذين يَصُدِّفُونَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ مُتَّبِعِينَ بَوَارِقِ الْإِلْحَادِ فِي أُرُوبَا: إِنَّ أُرُوبَا نَفْسَهَا لَيْسَتْ جَمِيعُهَا مِلْحَدَةٌ، وَإِذَا ذَهَبَ فَرِيقٌ لِلْإِلْحَادِ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَلَا تَكْتَفُوا بِمَا يَقُولُونَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَمْعُوا إِلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ إِنْ كُنْتُمْ مُنْصَفِينَ.

وقد وَضَعَ الأستاذُ قَاعِدَةً عَامَةً تُوضِّحُ اتِّجَاهَهُ فِي تَقْدِيمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، إِذْ يَقَرُّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَاجِبٌ مُحْتَمٌّ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُنَاقِشَ فِي مَدَى صَوَابِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ صَوَابٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَإِنَّمَا النِّقَاشُ يَكُونُ فِي تَفْسِيرِ قِيلَ عَنْهُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَوْلِ وَجْهٌ آخَرُ، يَقُولُ الْأُسْتَاذُ:

«إِنَّمَا لَا نُنَاقِشُ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ إِلَّا لِتَوْضِيحِ مَفَاهِيمِهَا، وَلَا نُنَاقِشُ الْحُكْمَ ذَاتَهُ، لِأَنَّهُ صَادِرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَغَايَةُ مَهْمَةِ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، هِيَ التَّأَكُّدُ مِنْ أَنَّ الْحُكْمَ مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا وَصَلْنَا إِلَى هَذِهِ النِّقْطَةِ فَقَدْ نَكُونُ وَصَلْنَا إِلَى نَهَايَةِ مَهْمَةِ الْعَقْلِ، فَيَصْبُحُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّسْلِيمُ وَالطَّاعَةُ، وَالْعَيْبُ فِيمَنْ يُرِيدُ مَنَاقِشَةَ الْأَدْيَانِ أَنْ يَأْتِيَ بِجَزْئِيَّاتِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَيُنَاقِشُهَا، وَأَحْكَامُ اللَّهِ لَا تُنَاقِشُ كَجَزْئِيَّةٍ، وَلَكِنَّا نُنَاقِشُ مِنَ الْقَمَّةِ أَوَّلًا، أَهِيَ مِنَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ أُبَلِّغُهَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ لَمْ يَبْلُغْهَا؟ فَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ بَلَّغَهَا، وَهُوَ ﷺ صَادِقُ الْبَلَاغِ تَكُونُ الْمَنَاقِشَةُ قَدْ انْتَهَتْ، أَمَا بَحْثُ جَزْئِيَّاتِ الدِّينِ

لنقبلَ بعضَهُ، ونرفض بعضه، فهذا مرفوض تماماً»^(١).

ويستطرد الأستاذ فيقول:

«والعجيبُ أنَّكَ تجد من يكفر بالله يأتي ليناقلشك في قضايا الدين، وهذا منطقُ مرفوض، لأنَّك ما دمت لا تؤمن، فماذا تناقش؟ إذا كنت لا تؤمن بالقمة التي شرَّعتْ وقالت، يكون نقاشك نوعاً من العبث المرفوض».

وهذا التأكيدُ قد يكون موضع النقد من طائفة لا ترى لها الحق في مناقشة النصوص، وتعدّ الشيخ متحكماً متعتاً، ولكنَّ الشيخ لا يكتفي بالقول العام، بل يشرح كلَّ نصٍّ ليوضح وجهة الهداية في معناه، ويردّ على كل شك يتطرّق إلى وجه الهداية في هذا المعنى! وإذا كان بطريقته الخاصة في فهم النص قد أوضح ما به من توجيه، فقد جلاّه على وجهه الصحيح، كما أنّه قطع الطريق على من يقتطعون جُزئيات من نصوص قرآنية بعيدة عن سياقها العام، ثم يحاولون أن يُظهروا بعض التعارض فيما اقتطعوه من هذه الجزئيات، ولو سلكوا سبيل الإنصاف لجأوا بالنص الكامل مقارنةً بنص كامل آخر، وحينئذٍ لا يكون هنا مجال للتعارض، لأنَّ النصوص جميعها تسيرُ على صراطٍ مكتمل منسّق، وهي تفسّر بعضها بتفصيل المجل، وإيضاح المبهم، تفصيلاً منسّقاً لا يعرف التعارض والاضطراب!.

وقد أعجبني الرجل ذو العقل البصير، حين واجه من يقول: إننا نعيشُ في عصر جديدٍ يتطلبُ تشريعاً جديداً بقوله^(٢): «أنتم أيّها العلماء المبيحون (لبعض وجوه الربا) تقولون: نحن نعيش العصر، وقولكم: نحن نعيشُ الدين دائماً يقول: نحن هو المشرّع، وقد تقولون هذا عن حُسن نية، ولكنَّ رجل الدين دائماً يقول: نحن نعيشُ الدين، وليُخضع العصرُ أنفَه لمنطق الدين... ويجبُ أن يعلم هؤلاء العلماء أنهم سيلجئون بهذا الفعل ضلالاً في اعتقادهم، وإضلالاً لغيرهم، وذلك وزر، وهذا وزر آخر».

لقد كان الشيخ منطقياً مع نفسه، ملتزماً منهجه الصريح دُونَ مواربة، إذ وضع أسساً ثابتة للنقاش الهادف، ومن حادَّ عنها فهو منه بمكان بعيد.

(١) المرأة في القرآن الكريم: ص ٢٤.

(٢) شبهات وأباطيل، ص ١٠٠.

تحدث الأستاذ العقاد عن نابغة من خطباء العصر وبلغائه، فقال: «إن عبقرية البيان لديه قد بلغت ذروتها العليا، ومن أدواتها ملكة التعبير الصحيح، ونصاعة الحجة وحضور البديهة»^(١). واستشهد ببعض الأمثلة على بديهته الحاضرة، فقال: «إن بعض تلاميذه سأله ما فائدة الحروف اللثوية؟ ولماذا نقول ثاء وسين، ولا نستغني بإحدهما عن الأخرى، فقال النابغة على البديهة: أقول كسر الله من أمثالك! ولا أقول كثر! فهل أرضيك».

ولا أدري لماذا يحضرني مثال العقاد كلما قرأت ردّاً مفحماً للأستاذ الشعراوي، لأنه يملك أدوات البيان الرائع ومنها ملكة التعبير، ونصاعة الحجة وحضور البديهة.

يأتيه المعترض بحجة لا يظنها تدفع، فيقول له: إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. وها هو ذا الطب الحديث يعلم ما في الأرحام بواسطة الأشعة، فكيف يقال: إن الله ينفرد وحده بعلم ما تتضمن الأرحام!

ويظنّ المعترض أن الرجل الكبير سيُطرق كثيراً لبحث عن حلّ، فإذا به يُفاجأ بالرد البديهي^(٢): «من قال لك: إن علم ما في الأرحام يقتصر على الذكورة والأنوثة فحسب! ألا يكون هذا العلم شاملاً هيئة الولد، قصيراً أو طويلاً، ولونه أسود أو أبيض، وحالته سعيداً أو شقيماً؟ وعمره ممتدّاً إلى عشرات السنين، أم مختصراً في مدة وجيزة!!».

ويأتي مُعترض آخر فيقول: إنكم تقولون إن الله حرّم لحم الخنزير مأكلاً، وها هم رجال الطب المسيحي في أوروبا يأكلونه ويستطعمونه، ولا يجدون في لحمه ضرراً ما، فلا أثر لما تزعمونه من الدودة الشريطية؟ فيقول الشيخ: «إن نفراً من كبار الأطباء قد أثبت بلاء هذه الدودة، كما أثبت أن لحم الخنزير سمّين يُرهِق المعدة بدهنه، فلماذا تأخذون رأي فريقٍ دون فريق؟». فيُحاول المعترض أن يجد

(١) الرسالة، العدد ٧٤١، ١٥/٩/١٩٤٧.

(٢) شبهات وأباطيل ص ١٢٩.

باباً آخر للاعتراض فيسأل: ولماذا خلق الله الخنزير إذن؟ وحرّم لحمه؟ فيُفاجأ برّد الشيخ^(١):

«مَن الذي قال: إن الله خلق الخنزير ليؤكَل؟ أكلُ ما خلقه الله للطعام فحسب؟ لقد خلق الله الخنزير لمهمّات أخرى غير الأكل، خلقه ليجمع كمّيّات هائلة من الجراثيم التي تتكاثر في القمامة، فيأكلها ليخلّص الناس من أضرارها، وربّما كانت آثار هذه الجراثيم هي السبب في تحريم مأكله، لقد خُلِق لذلك، ولكن الإنسان جعله مأكلاً، فأخرجه من شيء نافع إلى شيء ضار!».

ويأتي مستفهم فيقول: إن الله عز وجل يقول: ﴿يَمَعَشَرِ الْيَمِينَ وَالْإِيسَى إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقد قال بعض المفسّرين: إن السلطان هنا سلطان العلم، فهل صحيح هذا التفسير؟ فيقول الأستاذ: «كلمة سلطان في الآية لا يمكن أن تكون سلطان العلم، إذ لو كان معناها ذلك لدخل النّفوذ من السماوات والأرض في استطاعتنا، وكيف يقول الله بعد ذلك إن قبلنا هذا التفسير: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] إن معنى الاستثناء في الآية ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ هو أن ليس لأحد من الناس سلطان، فالله عز وجل صاحب هذا السلطان، وبه يلغي القوانين ويبطل النواميس، كما حصل ليلة المعراج مع رسول الله ﷺ»^(٢).

هذا عن بعض ما يُعترض به على الآيات، أما تأويل الأحاديث النبوية على وجهها الصحيح، فللشيخ في ناحيته توفيق وسداد، فقد تعرّض إلى شرح قول رسول الله ﷺ: «خلقت المرأة من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته» فقال^(٣): «إن مهمة المرأة هي الحنان والعطف، فشبهها بالضلع، والضلع معوج، واعوجاجه يجعله صالحاً لمهمته، فلو كان معتدلاً ما أدى هذه المهمة، لأنّه خلق ليحمي قفص الصدر بما فيه من أعضاء لينة رقيقة، والناس يفهمون خلقها من ضلع أعوج على أنّه سبّة لها، وهذا الخلق مناسب لمهمتها، لأن مهمتها حنانيّة».

(١) الحلال والحرام، ص ٦٨.

(٢) شبهات وأباطيل، ص ١٣٠.

(٣) شبهات وأباطيل، ص ٥٦.

وإذن فالضلع الأعوج لا يُراد به الازدراء، ولكنه تقرير لواقع، فللعوج في هذا النطاق مهمة لا يؤديها الاعتدال، ويقف الشيخ أمام ما روي من قول رسول الله ﷺ: «النساء ناقصات عقل ودين». فيقول: «ليس في هذا الحديث ما يوحى بازدراء المرأة، ولكنه يُعبر عن طبيعة التكوين عندها، فالمرأة تغلب عليها العاطفة، لأنها التي تحنو على الولد، وتمسح الدموع لتوجد الابتسامة، والرجل يغلب عليه العقل لأنه الكادح المناضل في خِصَم الحياة، فإذا نقصت العاطفة لديه بالنسبة للمرأة لم يكن ذلك نقصاً في حقه، كما لو زاد عقله بالنسبة إليها لم يكن ذلك نقصاً لها». هذه فحوى سطور كثيرة قالها الأستاذ، ورأيت أن أوجزها في هذه الكلمات منعاً للإسهاب.

ولكني بعد ذلك لا أمنع نفسي من مخالفة الأستاذ في بعض ما اتجه من التأويل، فقد ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء؛ ٧٦]. مقارنة بقول الله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ليشير إلى أن كيد المرأة أقوى من كيد الشيطان وعمل ذلك^(١): «بأن المرأة مخلوقة ضعيفة فيكون كيدها عظيماً، فهي إذا تمكّنت من عدوها لا تفوت الفرصة للقضاء عليه، ولضعف المرأة فإنها لا ترتكب جريمتها بالعنف ولا بالمواجهة، ولكنها تكيد وتحتال، فتضع السم لضحيّتها، أو توقعه بحيلة ما».

وأرى أن السياق للآيتين لا يدل على أن كيد المرأة أقوى من كيد الشيطان، لأن آية النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ كانت مقارنة بكيد الله، وآية يوسف كانت تقارن كيد الرجل بكيد المرأة، فالجهة منفكة، كما يقول المناطقة.

وقد اتهم الأستاذ ظلماً بأنه يعالج مسائل الغيب بعيداً عن مجريات الأمور في الحياة، وهو اتهامٌ يقوله من لا يصدق به في ذات نفسه، لأن أحاديث الأستاذ تدور حول كتاب الله عز وجل، وكتاب الله يتضمن شريعته في تنظيم الحياة، ومفسر القرآن لا يترك آية ويقفز إلى أخرى، فيقال: إنه يتجافى شؤون الحياة. ولكنه يتبع السياق القرآني كلمة كلمة دون أن يترك حرفاً واحداً دون إيضاح، وقد جمعت أحاديثه في كُتب مختلفة تعالج شؤون الحياة في مختلف نواحيها، فعصفت بكل إرجاف.

(١) المرأة: ص ٧٨.

والذين ساقوا هذا الاتهام ساقوه بصدد حديث الأستاذ عن القضاء والقدر، وهو حديث لا مفرّ منه، لإزالة شبهة مَنْ يزعم أنه مُجبرٌ مقهور غير مختار، وإذن فلا يجوز أن يُحاسب عن فعل اضطرّ إليه، وقد فصّل الأستاذ هذه القضية بعيداً عن المصطلحات الكلامية، وجعل المشاهد الملموس موضع الدليل، فإنّ الله عز وجل قد أعطى الإنسان القدرة على الحركة والقول، وهو بهذا مالكُ الملك المتصرّف فيه، والإنسان حين يتصرّف فيما أقدره الله عليه يكون محاسباً لأنّه يتصرف باختياره في أمرٍ وكلٍ إليه، هذا الاختيار هو مناطُ التكليف الذي يتمّ عليه الحساب، أو هو الأمانة التي حملها الإنسان، يقول الأستاذ^(١):

«إن طاقة القُدرة ممنوحة لك من الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيعُ أيّ إنسان أن يدّعي أنها ذاتية، أو أنها تحدثُ باختيار بشري، ولكن الحق سبحانه وتعالى وضع فيك طاقة الحركة، ثم جعلك مختاراً في توجيهها، فأنت تستطيع أن تمشي بهذه القوة إلى المسجد، أو تمشي إلى الخُمارة - والعياذ بالله - فطاقة المشي هي من الله، وتوجيه الطاقة إلى الخير وإلى الشر منك.. وهذا نطاقُ الاختيار، اختيارٌ في تطبيق منهج الله، وهو المنهج الذي سيتمّ عليه الحساب في الآخرة».

في هذه السطور الموجزة انكشفت قضيةٌ يعتبرها الكلاميون من أعقد القضايا، ولكنّ بداهة المنطق التلقائي قرّبتها في وضوح، وفي نطاق هذه القضية عالج الأستاذ تفسير آيات (الهداية) من نحو قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾  ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨].

ويُخيّل إليّ أن الضّعف الإنساني لدى المذنب - وكلنا مذنبون - يجعلُ بعض الناس يحاول أن يُبرئ نفسه من ذنب قام به باختياره، فرأى في آراء الجبريّين ما يتّسجم مع هواه، والمسألة في صميمها تحتاج إلى الإيجاز الواضح، لأنّ الإطناب يقدّف بالمتكلم والسامع في فيافي شاسعات، ولا دليل لمن يعتسف الطريق.

ونسأل لماذا حاربت الصّحف الشيوعية الأستاذ؟ لأنّه تكلم في الغيبات وترك أمور الحياة، أمّ لأنّه فضح الإلحاد وقاومهُ سلاح لا يُفلّ؟ لقد هاجم الدّاعية المعسكرين المتنازعين معاً، هاجم المعسكر الغربي، لأنّه يُعجّي كل قُواه لمحاربة

(١) القضاء والقدر، ص ٦٨.

الإسلام، ويُقيم المؤتمرات في أوروبا وأمريكا لتنصير المسلمين، وهو عملٌ لا يقرّه أي دين، إذ أنّ مجال التنصير لا يزال مفتوحاً أمام الوثنيين، وما أكثرهم في شاسع الأرض، فكيف تُصوّب السهامُ الباغية إلى دين سماويّ، يعترف بعيسى ويعده من أولي العزم بين الأنبياء؟!

كذلك هاجم المعسكر الشرقي بفلوله المتناثرة في بلاد العرب والشرق بعامة، وإذا كان الشيوعيون قد وجَّهوا حربهم إلى الدين، واعتبروه أفيون الشعوب، وعدوا فاطر السماوات والأرض وهماً لا حقيقة له، فإنهم ما هاجموا الدين وربّ الدين إلّا حين كشف علماء المسلمين خُرَافَةَ المساواة المزعومة في المذهب الشيوعي، وأنّها خداعٌ كاذب لم تظهر لها حقيقة في آية دولة شيوعية - أو كانت من قبل - فتركوا الحديث عن شيوعية المال إلى إنكار ربّ الناس، وهي هزيمة مفضوحة كشفها الشيخ الشعراوي حين قال:

«يقولون - أذيال الشيوعية -: إن الكلام الذي يعتنقه المسلمون جاؤوا به من أصل خرافي!! وإذن فالنظام موجودٌ أولاً، أمّا كونه ممّن؟ فهذا أمرٌ لا يعنيكم. فقارنوا نظاماً بنظام، وقد قارنتم ففشلتُم، وتبين تفوّق النظام الإسلامي على نظمكم جميعاً، وأنّه سابق متميز، وأنه لا إذلال فيه لأحد، لأنّ أحداً لم يدّع أنه أتى به ليستذلّ الناس.

لقد بدؤوا يناقشون فكرة الله! ونقول لهم: هذا فراژ من ميدان المناظرة، وميدان الجدل، ما لكم والله الذي نقول: إننا جئنا بالنظام من عنده؟ ناقشوا نظاماً بنظام، ناقشوه على أنه نظامٌ بشري في مواجهة نظام بشري آخر». ومضى الشيخ يناقش آراء المساواة المزعومة، ليستمع إليه مَنْ أخلص قلبه لله وهو مؤمن! أمّا الذين وُجه إليهم النقاش فقد ولّوا مدبرين.

وقد عُرف عن الشعراوي سماحةُ النفس وسعة الصدر في ردوده على المخالفين، وكثيراً ما يتعرّض لقضية تكون موضوع الساعة فيخصّها ببعض الحديث في درسه التليفزيوني دون أن يشير إلى أسماء المنقودين، بل يعرض ما يراه من التصويب في هدوء متّدد، ولا أعلم أنه اشتطّ في جدال خاض غماره غير ما ردّ به على الأستاذ توفيق الحكيم، حين تخيل بعض الأحاديث التي أدارها على لسان ربّه، فقوّل رب العزة بما شاء له هواه، وهو اجتراءٌ كان من الأحزم أن يُقابل بالدفع

الحاسم، وهذا ما فعله الأستاذ، وخاصة أن الذين قدّموا لهذه الأحاديث في الأهرام كتبوا عنها ما يميل بعقل القارئ المتواضع في تفكيره إلى الضلال، إذ عدّوا هذا الاجترار الشاذ على مقام رب العزة باباً من أبواب العبقرية الملهمة، والشفافية النيرة، فخدعوا الناس واستزهبوهم في آن واحد، خدعوهم حين أوهموهم أن في حوار الحكيم نوعاً من الفكر السامي، ذي التحليق الرفيع، وأرهبوهم حين جعلوا خصوص هذه المناقشات الشاذة حَفَنَةً من الرجعيين ذوي الفكر الجامد المتحجّر.

وكان لا بدّ للغيورين من العلماء أن يقذفوا بالحق على الباطل في مقالات كاسحة، شاعت الأهرام أن تطوي الكثير منها، وتنشر القليل ممّن كتبه كبار المسؤولين في الأزهر الشريف.

والذين يفترون على الشيخ بأنه لا يصارح أعلام الفكر، بل ينقل شُبهات وأوانها، سيخفضون رؤوسهم خجلاً حين أدّكرهم بغضبة الشيخ على مقالات الحكيم، في مقالاتٍ نشرها تباعاً بمجلة (اللواء الإسلامي) وقد بدأها بدعوة إلى المناقشة العلنية بينه وبين توفيق الحكيم ومؤيديه في حلقة تليفزيونية تنقل للمشاهدين صراع الرأي المحتدم، دون أن تكون الندوة مُعلّقةً يحرفها من ينقلها في الصحف المغرضة!.

وقد قال الشيخ في بيانه الأول إنه يريد أن يكون النقاش علناً، ليعرف كل إنسان قدره، كيلا يُصبح دين الله مباحاً لكل من يُريد أن يعتدي عليه ويشوّهه بين الناس. وكان من المتوقع أن يتقهقر الحكيم ومؤيدوه في الصحف عن لقاء الشيخ!! إذ لا يملكون ما يملك من الدليل!.

وقد كان الشعراوي حاسماً حين قال عن الحكيم: «إنه فيما أداره من الحديث بينه وبين ربه لم يبيّن لنا كيف كلّمه الله هكذا مواجهة! أم أرسل إليه ملكاً؟ وما هي الكيفية التي تم بها الحديث، فإذا كان ذلك تخيلاً، فقد قيّد مراد الله بمراده، أي قيّد إرادة الله بإرادته هو، فما يقوله عقل الحكيم يقوله الله، وما لا يُريده لا يقوله! وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله وأحبّ خلقه: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] إذا كان هذا هو حديثه مع رسوله، أبيض الله تعالى لتوفيق الحكيم ما لم يُبَّحْ لمحمد عليه الصلاة والسلام!«.

وقد ردّد الحكيم حديثاً عن بشرية الرسول بمعنى أنّه يُخطئ ويصيب، وهو قولُ مَنْ لا يدري شيئاً عن عصمة الأنبياء، إذ صرّح الحكيم في حوارهِ بأنّ الأنبياء ينوون النيات السيئة، ولكنّ الله منعهم من الفعل، وهو شَطَطٌ لا أدري كيف طرأ على ذهن الحكيم وحده، إذ لا أعلم أحداً من السابقين قال به، وقد دحضه الأستاذ الشعراوي مؤكداً طهارة النيات لدى الأنبياء، وموضحاً أنّ بشرية هؤلاء الكبار - وقد اختارهم الله لإبلاغ منهجه - بشريةٌ مبرّأةٌ من اللغو والخطأ والهوى، فالرسولُ بشر، ولكنّه مؤيّدٌ بالوحي، مراقبٌ من الله في أفعاله وأقواله.

ولا يتمّ النقاش على وجهه إلا إذا أحضر القارئ مقالات الأهرام مقارنة بمقالات الشعراوي في جريدة اللواء الإسلامي، ليعرف كيف ينتصر اليقين الجازم على الشك الحائر، كما يعرف غفلة المؤيدين للحكيم حين وصفوه بالسبق الفكري، والتنوير الذهني، لا لشيءٍ إلاّ لأنه أجّز على لسان ربه ما لم يقله! والحكيمُ وأمثاله لا يستطيعون أن يُجروا على ألسنة رؤساء الدول أحاديث لم يقولوها، وهم في سلطانهم القاهر، فكيف يُجيزون أن يمتدّ بهم الحديث في خواطر متساوقة تتلجلج في صدر إنسان ثم تُنسب إلى الله!!.

هذه جولةٌ سريعة في فكر الأستاذ محمد المتولي الشعراوي، تقفُ بالقارئ على اتجاهه الإيمانِي فيما يزاول من أساليب الدعوة، وتصور بعض جهاده في تصوير الحقائق الإسلامية، وتقريبها للشبيبة المعاصرة، لتنفذ الفريق المتخبط في أوهامه الضالّة، وتعود به إلى النهج الرشيد.

* * *

محمد محمود الزبيري شاعر اليمن وبطلها الشهيد

- ١ -

أول ما عرفْتُ الشاعر المجاهد الأستاذ محمد محمود الزبيري حين قرأتُ بمجلة (المسلمون) بالعدد الثامن من السنة الأولى قصيدةً مؤثرة تحت عنوان (عالم الإسلام) وقد جاء فيها:

هذه رُوحُه وهذي جنودُه	فليحاذرُه مَنْ بشرٌ يُريدُه
نامَ نومَ الموتى فظنَّوه ميتاً	وازدَهاهم هجوعه وهموده
شدُّقُه مصرع الوحوش فماذا	صار فيه حتى علاه صديده
كيفَ هان الهزبرُ في حرم الغيل	وسادتْ ضبأُؤه وقُروده
شدَّ ما استأسد البغاث بقبر النَّس	ر واستأسدت على الليث دُوده

وبالقصيدة نفسُ حار، وصرخة ملتهبة على مصاب العالم الإسلامي بالمستعمرين حين وطئوا غابه، ونزعوا شوكة، ولم تحملْ أغصانه حلوَ ثماره، ولا شدا بالهوى غريده:

أين معنى الحياة فيه وأين الروح في نبضه وأين وجوده؟
ثم تفاءلَ الشاعر، حين رأى شعلَةً تنبثق من قبره، فيهبّ الصريع ثائراً مقداماً!
والقصيدة فوق سبعين بيتاً تتحدّث عن رُبوع الإسلام المنهوبة في كشمير وفلسطين وأندونيسيا والمغرب الأقصى، وختامُها قول الشاعر عن عالم الإسلام:

عالمٌ مُسلمٌ عنيدٌ فلا تهنيدهُ ممكن ولا تهويده
سوف يبقى حقيقةً تملأ الأُر ض ويفنى عدوه وحقوقه

ويريد بالتهنيد مأساة كشمير، وبالتهويد مأساة فلسطين، لقد أعذتُ القصيدة عدة

مرات، وتساءلت كيف لا أعرف هذا الشاعر، وقصيدته تدلّ على أنه متمرس لا مبتدئ، ولا بدّ أنّ زفرات أخرى من هذا اللهب صعدت من بركان صدره الثائر، ثم نظرتُ إلى هامش العدد، فوجدت محرر (المسلمون) يقول^(١):

«بعث إلينا سماحة الأخ العزيز القاضي محمد محمود الزبيري بهذه القصيدة العامرة التي ألقاها في مؤتمر إسلامي بالباكستان، وها هي ذي تُنشر للمرة الأولى، والأخ الزبيري مجاهد مؤمنٌ محتسب، وقد عهد إليه رجال الحركة اليمنية الحرّة الأخيرة بوزارة المعارف، ولكنه نزح إلى الباكستان حيث يقيم الآن معزّزاً مكرماً».

وإذن فالرجل مجاهد، ناضلَ حتى صار أهلاً لأن يتولّى وزارة المعارف، قائدٌ في أضخم معركة تربوية، ثم هو قد نزح إلى الباكستان صابراً محتسباً! وإذن - مرة أخرى - فقد لاقى صعاباً مُرة في موطنه، لاقى ما يلقاه الأحرارُ الأباة، حين يصطدمون بالوصوليين ممن ينتهزون الفرصة السانحة، ليقطفوا ثماراً لم يتعبوا في غرس أصولها، ثم هم يكيدون للزُّراع الأصلاء فيُشيعونَ حولهم الأراجيف المسمومة، حتى يذلّهم الجوّ، فيذهب الضوء ليجوا في الظلام، هذه قصة الإنسانية في أكثر أدوارها، التي قال عنها أحمد محرم الشاعر الإسلامي الكبير:

بأرضٍ تترك الآساد صرعى لتستبقي الثعالب والذئابا

وقد علمتُ فيما بعد أنّ قول (المسلمون): إنه نزح إلى الباكستان حيث يقيم الآن معزّزاً مكرماً. لم يَدُم طويلاً، فقد تعقّبتُه ظروف محرّجة في مهجره، ظروفٌ تتلبّس كل عيوف أبيّ، وفي لحظةٍ من لحظات الغضب ترك عمله التعليمي هناك، وتفرّغ للعمل الحرّ، أيّندري القارئ أيّ عمل حرّ قام به الشاعر المجاهد الغريب؟ إنها قصّة يرويها الشاعر الأديب (عمر بهاء الأميري) سفير سورية في الباكستان حينئذ، حيث يقول مَنْ رَوَى عنه حديثه^(٢):

«وكنا كلّما دعونا الأستاذ الزبيري ليفطر معنا في رمضان، كان يعتذر ويقدم المبرّرات ممتنعاً، حتى عتبنا عليه، وقلنا له: متى نجلس على الفطور معاً. وفي ذات يوم جاءني الأستاذ عمر الأميري، وقال لي إنّه أثناء تجواله بالليل في شوارع

(١) المسلمون، العدد الثامن، السنة الأولى.

(٢) المجاهد الشهيد، للأستاذ عبد الرحمن طيب، ص ١٤٩.

(كراتشي) شاهد شخصاً يحمل صندوقاً، وبيعُ الأقفال والمفاتيح والخردوات أثناء الليل، فلمَح في ذلك البائع الزبيري، فتقدّم إليه سائلاً: ما هذا؟ فرجاه أن يكتّم الخبر، وقال إنّه يتبع ذلك الأسلوب ليستعين به على العيش!! .

وهذا ما يذكّرنا بقول مصطفى صادق الرافعي عن الشيخ عبد العزيز جويش أنه كان يبيع الحطب حاملاً إياه على ظهره في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، حين نفذ البترول في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ ألمانيا، واضطرّ الأهليون إلى استعمال الحطب! فكان وحدهُ مرتزق الكاتب المجاهد في هذه الربوع، ولكن ألمانيا لا تهتمّ بمثل عبد العزيز، فلم تَخَلّت الباكستان المسلمة عن إكرام ضيف عزيز؟! .

أعودُ إلى القصيدة الماضية، فأذكر أنّها دفعتني إلى السؤال عن شعرٍ آخر لناظمها، وأخذتُ أبحث عما سبق من أعداد (المسلمون) فوجدتُ نماذجَ رائعة تدلّ على شاعرية ملهم مقتدر، ومن بينها ما نشرته المجلة تحت عنوان (في جو إقبال) لشاعر اليمن القاضي محمد محمود الزبيري، وقد قدّمت له بقولها: «كان إقبال روحاً عالية محلّقة، ولغة الروح لا تُترجم، وشاعرنا هنا لا يترجم إقبال، ولكن يعيش في جوه، يفسّر ويشرح غير ملتزم الأصل، ولكنه غير بعيد عنه، وقد ابتدأ الشعر بهذه المقطوعة تحت عنوان (الصبح)^(١) :

أرى سحراً يبدو علينا بوجهه ويجلّو علينا طلعة اليوم والغد
ولم أستبن من أيّ نبع شعاعه يجيء، ولا من أي عرق ومحتد
ولكنّ فجرًا يشعّر له الدجى أتى مع أذان المؤمن المتعبّد

وعنوان (الأذان) أولى بهذه القطعة من عنوان (الصبح) لأنه الهدف الذي عناه إقبال، والقارئ سيدرك ذلك دون لبس، وقد توالى المقطوعات في أعداد مختلفة تتحدّث عن جو إقبال، وكنتُ أعجب بها، وأوازن بينها وبين ترجمات نثرية كتبها الأستاذ محمد حسن الأعظمي في مجلة الثقافة نثراً، فألمحُ مقدرةً فائقة للشاعر الزبيري، وقد قرأت أنّ الأستاذ الأعظمي نفسه - وكان عميداً لكلية العربية بالباكستان - هو الذي نقلَ للزبيري شعر إقبال من الأوردية إلى العربية، ليترجمه بفنه البارِع، وهذا اعترافٌ منه بمقدرته على الصوغ، فلهما معاً من مُحبّي إقبال كلّ تحية، وأذكر

(١) المسلمون، السنة الأولى، العدد السادس، ص ٩٧.

أنّ شاعراً عربياً عَرَفَ أنّ إقبال قد نظم الشعر بالفارسية، فعاتبه مداعباً لأنه لم ينظم بالعربية حيث قال^(١):

علامَ عشقتَ الفارسية دُونَهَا وميدانها يغري بها كل صوال!
لقد عشقتَ آيَ الكتاب وإنها لأجدر أن تحظى بآيات بإقبال

نعم، قرأتُ كل ما وقع تحت يدي من أنفاس إقبال في روضة الزبيري، ولكنني اشتقتُ إلى أن أقرأ شعراً خالصاً للزبيري، فكان من حظّي أن أقرأ له قصيدةً ممتازةً بمجلة الرسالة^(٢) تحت عنوان (حين ينظم الشاعر) وهي من روائع الشعر العربي النادر، إذ صوّر الشاعر المؤمن إحساسه حين يتأهّب لنظم القصيد، والقصيدُ هنا في أَوْجِهٍ العالي، لا في أغراضه الهابطة، فهو حينئذ يحسّ بريح كريح الجنة تهبّ من أعماق روحه (أي شعور رائع هذا) ويشعرُ أنّ القوافي تدبّ في رأسه معتركةً، فهذا المعنى يندّ، وهذا المعنى يغيب، حتى يتهيأ للشاعر ما يقول، فيوزع الطّهر على العالمين، وينشر الطيب في الأرجاء، ويُعاني أزمةً شديدةً فيما يكابد، لاعتمالِ الخواطر في صدره، والأفكار في نفسه، ولولا أنّه يعرف أنّ هذا العراك من أسرار النبوغ لاستدعى الطبيب! أيّ تصوير رائع هذا الذي أبدعه الزبيري في قوله:

أحسُّ بريح كريح الجنان تهبُّ بأعماق رُوحِي هبّوا
وأشعر أنّ القوافي تدبّ كالتمل ملء دِمَاغِي ديبّا
فهذا يزوغ وذاك يزوغ وذلك يُذعن لي مستجيباً
وذاك يفارقني يائساً وهذا يُواعدني أن يؤوبا
ومنها أوزع للعالمين طهراً وأنشُر في الأرض طيبا
أخلفُ منها لقاح التّهي وأنجبُ للأرض منها شعوبا
حروفُ الرّويّ بها نطفة ترعرع بيتاً عريقاً نسيبا
أسلم نفسي لها ذاهلاً حريصاً عليها بشوشاً طروباً
وأصغي لها هادئاً تارة وأصرخ حيناً عبوساً غضوباً
ولولا اهتدائي لسرّ النبوغ وأعراضه لطلبتُ الطيبا!

وأنا أسأل: هل وصف إنسان ساعة الإلهام بمثل هذا؟ إنني لأحفظ قول من قال

(١) صدى الأيام، للدكتور رجب البيومي، ص ١٤٥.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ٩٧٨، ٣١/٣/١٩٥٢.

في مثل هذه الحالة ، وهو الأستاذ الجارم :
آنأ يُراوغني فأنظر ضارعاً فيلينُ بعد تنكّر وجحود
وقول من قال - وهو الأستاذ الأسمر - :
إنني لأطلب إذ أحاولُ نظمه ما يرتجي في الغاب صائدُ ضيغم
ولكن أين هذا وذاك مما قال الزبيري ! .

ثم مضت الأيام وأنا أتابعُ نتاج الزبيري الأدبي ، وأبارك جهوده الوطنية في إسعاد
بلاده وتحريرها من الاحتلال الداخلي ، حتّى فوجئت بمصرعه على غير انتظار ،
فرايتُ أن أجمعَ ما قيل عنه في كُتُبٍ خاصّة بحياته ، وفي مقالاتٍ نُشرت عنه بعد
وفاته ، فماذا وجدتُ؟ وجدتُ افتراءً صارخاً على شهيدٍ لقي ربّه ، ولم يُطفئ رحيله
غلّ قوم يناهضون مبادئه ، فمضوا يرحمونه بالزور ، ومن آفة الأقلام في هذه الأيام
أنّها لا تلتزمُ بالحق في شيء ، بل تطفئ المآرب ، لتُسودّ البياض وتُبَيّض السواد ! .
لقد تعاوى أذنان الماركسية على تشويه وجهه الكريم ، لأنّهم يحذرون أن تُضيئ
صفحات الذين دافعوا عن العروبة والإسلام ، فتسودّ صفحاتهم باعتبارهم مأجورين
عملاء ! وليتهم يقفون معاً في طريق ، لأنّ بعضهم يأكل بعضاً ، إذ ليس الغرض لديهم
أن يسيروا وفق مبدأ معين خطأً أو صواباً ، ولكنّ الغرض أن يتسلّق الواحد على
حساب الآخرين ، أصدقاء وأعداء معاً ، وإذا تطلّب التسلّق الانتهازيّ أن نفترى على
الناس ، فذلك سهل يسير ! .

لقد زعم هؤلاء أن الرجل عميلٌ للاستعمار ! أيّ استعمارٍ إذن؟! قالوا : لقد هَرَبَ
إلى عدن ، فراراً من الحاكم اليمني ، وظلّ ساكناً بها ، ولم يعملْ على تحريرها من
الإنجليز!! غريبٌ لجأ إلى موطن لا يدري أسبستمْ مقامه به ، أم يُسلم إلى الأعداء ،
كيف يُصبح في يوم وليلة زعيماً من زعماء هذا الموطن يعمل على حريته ! وأين
رجال البلاد؟ هل طلبوا منه أن يُسعفهم بآرائه فنكل؟ وهذا الذي يقول ذلك لم صار
عوناً للاستعمار ولم يخجل ! عوناً للاستعمار الأحمر ! .

وقالوا : إنه تعاون مع مشايخ القبائل في اليمن ، وهم أعوان الإمام ! وهذا افتراءٌ
على مشايخ القبائل ، لأنهم أول من ثاروا على الإمام ، وقد سالت دماؤهم في ثورتَي
سنة ١٩٤٨ ، وثورة سنة ١٩٦٢ ، ولو كانوا يؤيّدون الإمام ما نجحت الثورة ، ولما
انقضى عهدٌ وجاء عهد ، ثم من هؤلاء مشايخ القبائل؟ أليسوا أهله وذويه من

الغيورين على العروبة والإسلام، ولا يزالون يتمتّعون بصفات البدو والأوائل من ذوي الكرم والتضحية والإيثار، لم يعرفوا غشّ الانتهازي، ولا خداع الوصولي! أيكون العميل الماركسيّ الذي يجنّو لموسكو مناضلاً مجاهداً، وهو صنّعة الإلحاد، ويكون المُنتمي إلى الكرام من أهله وعشيرته خائناً غاشّاً!! .

ويقولون: إنه لو كان وطنياً لأعدم كما أعدم رجال ثورة سنة ١٩٤٨، وهذه فريّة مضحكة! إن المجاهد الباسل توقع مصيره فهرب تحت جنح الليل، وأنقذه الله مما دبّر له من المكاييد! أيكون من الحتم عليه أن يسعى لينفذ فيه حكم الإعدام! وإذا كان من شيعة الإمام، فلمْ هرب منه إلى الباكستان، ولماذا لم يكن بجواره، ناعماً بالعيش في بلده مع حاكم البلاد، الذي قيل: إنه من أنصاره المخلصين! أقوال يبصق بعضها على بعضها الآخر! .

وقيل: إنه جاهر بمحاربة المحاكم العسكرية، وعدّها قهراً ظالماً لا مبرّر له، ودعا إلى مُحاكمة من يُتهم في السياسة أمام محكمة شرعية! وماذا في هذا الرأي العادل؟ لو كان الزبيري قد نادى بالمحاكمة العسكرية لصحّ أن يُتهم بقصر النظر إن لم يُتهم بالخيانة، ولكنه ثار في وجه العسكريين، ونادى بالتزام بالوضع الطبيعيّ، في حين جبنّ غيره عن أن يُصارع بالحق! .

لقد فكّرت في هذه الاتهامات المضحكة فوجدت أنّ الذي يُكيلها للشهيد البريء، يريدُ أولاً أن يُدافع عن نفسه، لتأييده كلّ ما عارضه الزبيري، ولم يجرؤ على أن يظهر على حقيقته صريحاً، فأثّر التسترّ تحت اتهامات تُدينه وتدين أمثاله، لا تكون غير وسام للأبرياء! .

أمّا ما انحدرَ إليه الإسفاف من الاتهامات، فهو سؤالُ الذين في قلوبهم مرض! لماذا يلبسُ العمامة كما يلبسها الإمام؟ فهو إذن راضٍ عن اتجاهه! وإذن فائمة الأزهر جميعاً، وعلماء الإسلام في كل مكان مؤيّدون للإمام اليمني، لأنهم يلبسون العمامة! والخجلُ كل الخجلُ أن يُنشر هذا الكلام ويُذاع، وقد آن بعد هذه التقدمة الطويلة بعض الشيء أن أنتقل إلى تدوين بعض ما قرأتُ من سيرة هذا البطل الشهيد! .

نشأ البطل في بيتٍ دينيّة فأبوه القاضي محمود محمد الزبيري أولٌ من تولّى القضاء بمدينة حيس، وكانَ على جانبٍ من السماحة والفضل، فرعى طفله الناشئ

رعاية أبوية عاطفية، إذ حفظ القرآن على يده، ثم تولّى إمامة المصلين وهو غلام ناشئ، لما يتمتع به من جمال الترتيل في الصلاة، إذ كان يقرأ القرآن بقراءة نافع وحفص معاً، وذاع له صيت بالعلم والأدب في سن اليفاعه، إذ قرأ متون العلم في الشريعة وعلوم اللسان على الشيوخ الكبار ببلدته.

ونشأ بعيداً عن التعصّب المذهبي السائد في عصره، إذ كان يقرأ كتب الشافعية في الفقه مع قراءة كتب الزيدية، ومال إلى التصوّف العمليّ الذي يُساعد على ارتقاء الروح بالإخلاص والصدق والثقة في الله، فالتصوّف عنده ليس انعزلاً ورهبانية، فذلك ما يناقض روح الإسلام، ولكنه تطلّع إلى المثل العليا في الفضائل، وبُعِدَ عن نقائص الشيم في الرذائل.

وكأنّ الأقدار قد هيأت له فيما بعد معاشره أدب الشاعر الكبير محمد إقبال، ليعرف منه معنى التصوّف الحقيقي، إذ هو مصدرُ القوة المكافحة، وبابُ النضال عن الحقائق، فقد خلّق المسلم قوياً بدينه، قوياً بمثله المتأبّية على الظلم والخنوع، ولو أدرك المنتسبون إلى التصوّف أيّ معراج يرتقي بهم إلى العزة لعلّمو أن التصوّف عملٌ وكفاح، وليس عزلةً وانسحاباً، فلا يعتزل الناس غير مريض كسول.

ولعلّ في ما قدّمت من شعر الشاعر ما يرمزُ إلى هذه المعاني، وليس المجالُ مجال بحثٍ أدبي فأفيضُ في هذا الاستشهاد، ولكننا نرسمُ خيوطاً واضحة لحياة مناضلة، ضربت المثل الرائع في الصبر والنضال، وأحرزت الشهادة بعد كفاحها الطويل.

- ٢ -

درس الزبيري ما يقرب من علوم المرحلة الثانوية في اليمن، ثم دفعته همته إلى السفر إلى مصر، كي ينال درجة علمية في الفقه والأدب، فنزل القاهرة سنة ١٩٣٧، والتحق بكلية دار العلوم مدى ثلاث سنوات، والحق أنّ الوسط القاهريّ قد أفاده علمياً وسياسياً ودينياً.

أما علمياً فقد تعدّدت المحاضرات الأدبية في عدّة مجالات مختلفة، إذ كانت الجمعيات الخيرية والأدبية تحرصُ على إفادة الجمهور من الاستماع إلى كبار

المتحدّثين، وأما سياسياً فقد قرأ عن الأنظمة الدستورية ما جعله يحلم بحكم دستوري عادل في اليمن، يقوم على الانتخاب الحرّ النزيه، ويجعل الشورى أساساً لأركانه، وأما دينياً فقد انتسب إلى جمعيّة الإخوان المسلمين، وعرف من مبادئها الصريحة ألاّ فصل بين الدين والسياسة، واستمع إلى الأستاذ حسن البنا، فتشرب الكثير من أفكاره الإصلاحية الرشيدة.

أما المجالات العلمية كالهلال والرسالة والمقتطف والسياسة الأسبوعية والأزهر والثقافة، فكانت جامعةً كبرى لكل متطلّع إلى الدراسة السديدة، حيث يقوم كبار الأساتذة بتحرير هذه المجالات، وكانت الرسائل والثقافة والأزهر أقرب المجالات إلى اتجاهه، كما أنّ مجال الشعر قد اتسع أمامه في الحفلات المسائية بالجامعة وغيرها، وقد أنشأ قصيدة عامرةً يبشّر فيها بأول اتحاد عربي للطلاب، فكانت قصيدة حماسيّة نظمها الشاعر، لتكون فاتحةً لديوانٍ حماسيٍّ كبير.

وأحبّ أن أقول: إن الفرقَ شاسعٌ في الميزان الفنيّ بين قصائد الزبيري التي استوحاها من إقبال، ونسج على منوالها بعد رحلة الباكستان، وبين ما قاله من قصائد الحماسة السياسية في المتتديات الأدبيّة، لأنّه في الأولى مفكّر وجداني يعيش في سبحات الروح، أما في الثانية فخطيبٌ يواجه الجمهور بما يحسّه، وطبيعيّ أن يُعبّر عن العواطف العامّة بأسلوب تقريريّ نجد فيه الصدق البالغ، والإخلاص الدافق، ولا نجد فيه الخيال المجنح، ولا التصوير الملهم، ولا يعيبه ذلك، لأن خطاب الجمهور لا يتحمّل التعمق في اصطلياد المعاني، وانسجام الصّور؛ وقد رأيتُ بعض الباحثين يحدّد مكانةً متواضعةً للزبيري مُعتمداً على شعر الخطابة، وقد ظلّمه في ذلك ظلماً بيّناً، لأنّ لديه ما هو أرقى وأنفس!!.

ولا أدري لماذا لم يُواصل الطالب دراسته النهائيّة بدار العلوم، فقد رجع إلى صنعاء بعد ثلاث سنوات فحسب من الدراسة بالكلّيّة، وكانت النهاية منه على بضع خطوات فلم يبلغها، وقد وُضِعَ في سنته الأخيرة بالقاهرة برنامجاً إصلاحياً سمّاه (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأذاعه بين زملائه اليمنيين، وفي الناس من يستريح إلى الوشاية التّامة، فسُرّعان ما طار النبأ إلى الإمام يحيى، فأمر بعودة أفرادٍ من البعثة اليمنيّة سماهم بأسمائهم، وفيهم محمد محمود الزبيري ليتعاون

معهم في تنفيذ البرنامج! وما دَرَوْا أنه أعد العدة لسجنهم جميعاً، ولكنه انتظر حتى أنسوا به، وأخذ يرصد حركاتهم.

وقد جاءه أن الزبيري ألقى خطبة يوم الجمعة في المسجد الجامع مطالباً بالإصلاح، ومعلنًا ضرورة وجود هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسجنه الإمام في (غمدان)، ثم في (الأهنوم) وقد علم أن ليله سيطول، لأن الشفاعات الكثيرة التي قُدمت للإمام لم تملّ به إلى العفو، وكادت صحته تفتن، لما لاقى من ضروب العسف والإرهاق، فأشار إليه بعضُ خلصائه أن يسترحم الإمام بقصيدة عاطفة يعلن فيها أن المسجونين أبنائه، وهو والدٌ يؤدّب ابنه الناشز، ولكن رحمته تُسغه بالعفو بعد ذلك التأديب، وكانت حالة الشاعر النفسية والجسمية تدعوه إلى الاستجابة خوفاً من الهلاك المرتقب، فقال قصيدة مستعطفة، يقول فيها للإمام يحيى:

ما ضاقَ صدركَ عن أناس أشعلُوا نار الحروب وناصبوك وأوقعوا
أفتنزلُ النكبات فينا وَخَدنا وجميعُ شعبك في نعيمك يرتع
دع لي بقية مهجة أحيا بها إني لأرضى بالحياة وأقنع
ثم شفّعها بقصيدة مسترحمة لوليّ العهد، فاستعطف والده، وجاء الأمر بالإطلاق، فكان عليه كي يأمن غائلة الوشاة أن يهنئ الإمام بعيد الفطر، وألقى قصيدة في الاحتفال، من باب التقية المشروعة! ومن أعجب ما قيل بهذا الصدد ما حكاه بعض الكاتبين بعد رحيل الزبيري، من أنه كان من شيعة الإمام ووليّ العهد، لأنه مدحهما بقصيدتين! والكاتبُ يعرف عن يقين ظروف القصيدتين وبواعثهما، ولكنه يغشّ في حديثه، مع أن الكتابة عن الراحلين أمانةٌ تتطلب الصدق، وماذا يُجديه من تشويه سيرة راحل لا يملك الدفاع عن نفسه! إلا أن يدلّ هو على ما يكنّه من حسدٍ مقيت.

وقد أحسّ الزبيري أن الإمام ووليّ عهده يتعقبانه مع نفرٍ من زملائه المصلحين، فصمّموا على الهرب إلى عدن، وفي الليلة التي شدّوا فيها الرحال، كانت الشرطة تبحث عنهم في دورهم لاعتقالهم، فكأنّ إلهاماً من الله دعاهم إلى الرحيل آخر لحظة، وكانت الإقامة في عدن لا تبشر باستقرار، ولكنها تجعلهم في أمن من غائلة الإمام، وأراد وليّ العهد أن يسترجعهم إلى صنعاء باذلاً حُلُ الوعود، إذ أعلن في

جريدة فتاة الجزيرة أن حكومة اليمن مستعدة في الدخول في علاقات مباشرة مع العالم العربي، ومستعدة أن تنشر التعليم بمقتضى سياسة الجامعة العربية، فاحتاط الزبيري وزملاؤه، ووضعوا شروطاً دستورية يلتزم بها الإمام مُعلنًا ذلك على الناس .

وكانت الحركة اليمنية المعارضة باليمن قد انتهت إلى وضع ميثاق وطني، من أهم بنوده أن تكون الشريعة الإسلامية مصدر الحكم، وأن تكون الشورى أساساً له، وأن تخضع الحكومة لرقابة مجلس الشورى في كل ما تصدره من القوانين، على أن توضع للبلاد ميزانية مالية يقررها المجلس النيابي المقترح، وقد نشرت الاقتراحات بالصحف العدنية، وتُنوِّلت أنباؤها إلى اليمن .

ومن الحق أن نشير إلى زملاء الزبيري في هذه الغربة النشيطة، ذات النضال السلمي، وهم الأساتذة أحمد محمد نعمان، وزيد بن علي الموشكي، وأحمد محمد الشامي، وكلهم يتدفق وطنية وغيرة، ولم يحدث خلاف ما بينهم على الوسائل أو الغايات، وقد أرخ الأستاذ أحمد محمد الشامي لهذه الأحداث تاريخاً مخلصاً، وذكر جهود زملائه في إنصاف ومودة، ولم يحاول أن ينسب لنفسه أكثر مما نسبه إليهم، وهي مَحْمَدَةٌ نبيلة تُحسب له، وقد امتاز عن الرفاق بشغفه العلمي بتاريخ اليمن سياسياً وأدبياً، وله فيه مؤلفات هي المرجع الأول في هذا الاتجاه .

ثم قامت الثورة سنة ١٩٤٨ على أيدي نفرٍ من المخلصين، ولكن التكتل الخارجي قد أسقطها، لأن الجامعة العربية لم تؤيدها، وكان هذا الإخفاق مصدر ألم لكبار رجال الإصلاح، ومنهم من حُكم عليه بالإعدام ظلماً، فلقِيَ الله شهيداً، ولستُ أؤرِّخ للثورة، ولكنني أتحدث عن الزبيري فحسب! .

لقد فرّ أنصارُ الثورة بعد سقوطها إلى شتى البلاد، وكان فرار الزبيري إلى الباكستان، كما أسلفت من قبل، وقد وجد من سفير سورية بهذا الموطن الشاعر الأستاذ عمر بهاء الأميري عوناً أي عون، وكابد من المصاعب ما جعله يتاجر في الخردوات والأقفال الحديدية، ولكن شيخ الإسلام الباكستاني المرحوم (بشير أحمد عثمانى) كان ذا علاقة أخوية حميمة به، فسَهَّل عليه كثيراً من المصاعب، وقد رفع مُذْكِرَةً إلى وزير المعارف الباكستانية، ساعدت على تحسين وضعه بعض الوقت فقط، لأن الوزير أُقيل، وجاء من عَادَى كل مشروع قام به سلفه، ولكن روح الشاعر الكبير محمد إقبال كانت ترفرف عليه من أوجها في الملاء الأرفع، فهوَّنت عليه مشاق

الحياة، وألهتهُ بنظم قصائد تسيرُ في أفق إقبال، وتأخذ جذوتها من وقوده! وهكذا يكونُ الشعر، كما قال شوقي بسلوى الشجي وراحة الحزين:
والشعرُ مَروحةُ الحزين وراحةُ المتعلِّل!

وشعرُ الزبيري في أفاق إقبال محتاجٌ إلى دراسة أدبيّة، لأنّه نَقَلَهُ من عالمٍ إلى عالمٍ، وهو ردٌّ بليغٌ على من يرون الشعر خاصّاً بالجواذب الهابطة ذاتِ الإغراء الجسدي أو الدنيوي، إنّ رسالة الشاعر كما يعتقدُها إقبال هي رسالةُ الأبطال في إنشاء الدّول، وإنهاض الشعوب، وإحياء النفوس! هذه رسالةُ الشعر في أعلى مراقبه، سنّها إقبال، وتبعها أفرادٌ معدودون على الأصابع، منهم محمد محمود الزبيري، والصاوي شعلان، وعبد الوهاب عزام! وأُبْحِثُ عن غير هؤلاء من تلاميذ إقبال في ذاكرتي الواعية فلا أكاد أجِد! أفتراني نسيت؟.

وفي هذه الحقبة نظم الشّاعر قصيدته (حين ينظم الشاعر) التي استشهدت بها من قبل، وكنتُ أظن مجلة الرسالة قد نشرت القصيدة جميعها، ولكنّ قراءتي لكتاب (المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري) الذي ألفه الباحث الوفي الأستاذ (عبد الرحمن طيب بعكر) قد عرضت لي الأصل المسهب لهذه القصيدة الرائعة، وقد ختمها بقوله:

أحبّ القريض وأخيا به	مع الهول طفلاً ضحوكاً لعبوا
ورُوح الطفولة في نزعتي	وفنّي، سيمنعني أن أشيبا
وأما البياض على مفرقي	فقد صار كالناس لونا كذوبا
خُذوا كلّ ديناكمو وأتركوا	فؤادي حرّاً أيّاً غريبا
فلئنّي أضخمكم دولةً	وإن خِلْتُموني طريداً سليبا

والبيت الأخير يدلّ على اعتزاز شاعري تهون به الصعاب! وما احتمل الشاعر الشهيد ما لاقاه من سجن ونفي وتشريد إلّا بمدد من هذا الاعتزاز.

ومن باكستان ارتحل الشاعر إلى مصر بعد خمس سنوات ذاق فيها الهنيء وغير المريء، نزل مصر بعد لَمَس دلائل التّرحيب به، وكانت إذاعة صوت العرب إحدى وسائله في مخاطبة شعبه اليمني، إذ جعلَ يلقي أحاديث قويّة تصل الحاضر اليمني الأليم، بالماضي المزدهر السعيد، وله قصائدُ حماسية أُلقيت بالإذاعة، ونُشرت

بالمجلات المصرية، وبعضُ الدارسين وازن بين شعره وشعر أبي القاسم الشابي الذي يقول فيه :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولكنّ مجال الموازنة غير طبيعي، فالشائبيّ قد صرخ صرخة واحدة جلجلت في الأسماع، أمّا الزبيري فقد كانت الصرخات المتوالية رسالته الدائمة المتكررة في نفثات حارّة، لو جُمعت في مجلد واحد لكانت معلماً من معالم الحرية في العالم الإسلامي.

وقد ذكر الأستاذ بعكر^(١) أنّ بعض الناقدين ذكر في معرض تحليله لشعر الزبيري أنه كان شاعر القبيلة الضيقة، والطائفية المقيّنة، ولم يكن شاعر العروبة والإسلام، وهذا بُهتان لا خطأ، لأنّ الخطأ يتوقّع في مسألة غائمة تختلف فيها الأنظار، وتتقابل الآراء، ولن يكون في مسألة ساطعة كسطوع الشمس في رابعة النهار، وديوان الزبيري ناطقٌ بآلام الإسلام وآماله، فكيف يكون شاعر القبيلة؟ ونحن نعدّ شوقي شاعر العروبة والإسلام، وله في مصر وحدها عدّة قصائد، فهل يقول قائلٌ: إن شوقي شاعر مصر، ودُوّ نظريّ ضيق، لأنّه نظم بعض شعره متغنياً بوطنه الحبيب؟.

كذلك تحدث الزبيري عن آلام اليمن في نطاق فسيح من الشعر الممتدّ الرحب، ولعلّ ناقدًا آخر يأتي، فيقول: لقد اهتمّ بالعروبة والإسلام ولم يهتمّ باليمن، ما دامت النظرة عوراء، بل ما دام الغرض يُعمي ويصمّ، ونحن نعرف أن معنى البهتان أن تُجازف بالاتهام وأنت تدري بطلانه، حين تفتريه افتراءً، وهكذا صار مثلاً هذا النقد بهتاناً لا خطأ يلتبس له العذر، وتمحل له الأسباب، لأنّه كذب صارخ.

ومضت الأيام مرّة أخرى ليعود الزبيري إلى اليمن بعد الثورة الثانية سنة ١٩٦٢ وزيراً للمعارف، وزيراً لم يفتنه بهاء المنصب، ولم تغرّه جواذب السلطة، بل ظلّ بعمامته واعظاً في المنتدى، وإماماً في محراب المسجد، ولكنه كان سوط عذاب على من يعرقلون طريق الإصلاح، ويدعون أنّهم يسرون في ركبه، هم منافقون يُظهرون ما لا يُبطنون، وهو صريحٌ ينادي بأعلى صوت بما يراه، مهاجماً ذوي النفاق من ذيول الأحزاب المتصارعة في الشرق والغرب؛ على أن يكون لها في

(١) المجاهد الشهيد، ص ٢٠١.

اليمن صوتٌ يعارض منهج العروبة والإسلام.

وكتابه (واق الواق) يصوّر معركة الخصوم والأنصار بما يفضح أصحاب البصائر العليلة والنيات المدخولة، حتى لتعرفهم بأسمائهم حين تقرأ أوصافهم، وقد كانت اجتماعات المسؤولين بعد الثورة تضمّ اليمنيّ الوطني واليميني البعثي واليميني الماركسي، فهي اجتماعاتٌ تضارب وتناقض، واليميني الوطني صريحٌ في إسلامه وعُروبه المنتمية إلى الإسلام، فهو ينطقُ بمبادئه ليُطرب شعباً آمن بها، واعتزم على أن يسير في هديها، أمّا اليميني البعثي فلا يُريد للإسلام ذكراً، واليميني الماركسي لا يريدُ لا للعرب ولا للإسلام ذكراً.

فماذا يصنعون بصاحب الصوتِ الأعلى الذي يجمع الجماهير حوله، ويفضحُ نيات مخالفيه، لأنهم إذا حاربوا الرأي بالرأي فقد فلجّهم، وظهرت حجته عليهم، فلا بدّ أن يكون الاغتيال هو الحلّ الوحيد، والاغتيال سهل هين، فليسَ للرجل حرسٌ يحميه، ولا قصُرٌ تحول أسواره دُون هجوم أعدائه، ولكنه ينتقل من الشارع إلى المسجد في حرسٍ من إيمانه، وعزّة من يقينه، وقد قاد الجيش الشعبي في مؤتمر عمران، ففضح نيات المغرضين، وبدّوا عرايا للعيان، وحذّر هؤلاء من امتداد نفوذ الشعبي امتداداً يعصف بأهوائهم، وإنها لمريضة، ويهدم آمالهم، وإنها لحاقدة.

وقد دُعا إلى مؤتمر (خمر) ليصدر القرار الشعبي الحاسم بانتماء اليمن إلى عروبه وإسلامه، فلا بدّ أن يُجهز عليه قبل انعقاد المؤتمر في رأيهم، وشاءت إرادة الله أن ينعقد المؤتمر وأن يُصدر ما يرتثيه المخلصون من قرارات لا تُرضي الذبول، والعقابُ المحتوم لهذا البطل أن يُغتال شهيداً، وينجو قاتلوه فلا يَعْرِف أحدٌ عنهم شيئاً! وأن يقبض على أناس بتهمة الاغتيال وهم أبرياء منه، ثم يفرج عنهم بعد التحقيق، وتقيد الجريمة الشنعاء ضد فاعل مجهول!!

ولكن إذا جُهل هذا المجرم عند الناس فهو معلوم عند الله، وسيفضح أمره حين يقوم الناس لرب العالمين..

* * *

محمد المهدي السنوسي

البطل العالم المناضل

- ١ -

يقول الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكري في كتابه عن السنوسية^(١):

«دَرَجَ الْكُتَابُ مِنَ الْإِفْرَنْجِ عَلَى اعْتِبَارِ السَّنُوسِيَّةِ إِحْدَى الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ فَحَسَبَ،
وَانْبَرَى الطَّلِيَّانِ مِنْ سَنَوَاتٍ مَضَتْ يَعْمَلُونَ لَتَعْزِيزِ هَذَا الْاِعْتِقَادِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ،
يَخْدُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَلِ فِي صَرْفِ أَذْهَانِ سَوَادِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي أُصُولِ
السَّنُوسِيَّةِ الْحَقَّةِ، وَالتَّسْلِيمِ بِأَنَّهُ مَا دَامَتِ السَّنُوسِيَّةُ طَرِيقَةً مِنَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ، فَهِيَ
بَعِيدَةٌ كُلَّ الْبَعْدِ عَنِ الْعِنَايَةِ بِشُؤْنِ الدِّينِ، بَلْ وَلَا يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَعْمَلَ لِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ
وَالدُّنْيَا، وَوَجْهُ الْخَطَرِ فِي هَذَا الْاِعْتِقَادِ إِذَا رَسَخَ فِي الْأَذْهَانِ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ
يَحْرُمُ السَّنُوسِيَّةُ - كَنْتِيجَةُ مَنْطِقِيَّةٍ فِي النِّهَايَةِ - مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى الْحَكْمِ، وَتَشْيِيدِ صَرْحِ
الدُّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَتِيدَةِ، تِلْكَ الدُّوْلَةُ الَّتِي جَاهَدَ اللَّيْبِيُّونَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً مِنْ أَجْلِ
إِرْسَاءِ قَوَاعِدِهَا.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ فَاتَ الطَّلِيَّانَ وَمَنْ حَظَا حَذُوهُمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَعْرِفُ تَفَرُّقَةً بَيْنَ
شُؤْنِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَا يَفْصَلُ بَيْنَ الْعَقِيدَةِ وَالدُّوْلَةِ، وَمَا كَانَتِ السَّنُوسِيَّةُ فِي أَدْوَارِ
تَارِيخِهَا الْحَافِلِ طَرِيقَةً تَقْصُرُ اهْتِمَامَهَا عَلَى شُؤْنِ الْعِبَادَةِ، فِي غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى أَحْوَالِ
الشُّعُوبِ الَّتِي اتَّخَذَ الْإِخْوَانُ السَّنُوسِيُّونَ عَلَى عَاتِقِهِمْ إِرْشَادَهَا حَتَّى تَتَحَرَّرَ مِنْ قِيودِ
الْجَهَالَةِ وَتَتَّعَمَّ بِهَدْيِ الْمَعْرِفَةِ».

هَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ فُؤَادُ شُكْرِي حِينَ انْزَعَجَ مِنْ مُفْتَرِيَّاتِ الْإِفْرَنْجِ

(١) السَّنُوسِيَّةُ دِينٌ وَدُوْلَةٌ، (مَقْدَمَةُ الْكِتَابِ) لِلدُّكْتُورِ شُكْرِي.

الضالة، التي حاولت أن تضائل من حركة بعثٍ إسلامي يتحرّر من الاحتلال، ويناوئُ أساليب الاستعمار في كلّ وطنٍ إسلامي، وإذا كان أكثر الفرنجة قد تعمّدوا الإساءة إلى هذه الحركة التحزّرية، فإنّ السير (ت . . و . أرنولد) صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام، كان أصدق قولاً منهم حين تحدّث عن السنوسية حديثاً المحايد المستقل، وقد أقام مدّة طويلة بالهند مزاملاً لكبار المفكرين الإسلاميين في جامعة عليكرة، فاعترف في المقدمة بحسن توجيههم العلمي، ومنهم مولانا شبلي التّعماني، ومولانا بهادر علي وغيرهما، وقد أثّنى على هؤلاء معترفاً أنه يدينُ لهم بالفضل. أقول: إنّ السير أرنولد قد كان قريباً من الحق حين قال عن السنوسية^(١):

«وفي السنة ١٨٣٧م أسّس فقيهٌ جزائري يدعى سيدي محمد بن علي السنوسي، جمعيةً دينيّة تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام، ونشر العقيدة الإسلامية، ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينيّة بقوة عبقريته الصافية دون أن يُريق الدماء، ويدينُ أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة، التي يوسّع خلفاؤه حدودها كلّ يوم. ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة، وبما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد تشدّداً، تلك المبادئ التي تجعل التّعبد لله وحده، وتُحرّم التضرّع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تاماً، وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يتجنّبوا كلّ اتصال باليهود أو المسيحيين، وأن يُساهموا بنصيب معيّن من دخلهم يُضاف إلى أعمال الجماعة، إذا لم يستطيعوا أن يكرّسوا أنفسهم لخدمتها، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كلّ نشاطهم على تقدّم الإسلام، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أيّ لونٍ من ألوان الخضوع للنفوذ الأوروبي.

وتنتشر هذه الجماعة في أفريقية الشمالية وحدها، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال أفريقيّة، من مصر إلى مراكش، كما تمتدّ إلى الدّاخل في واحات الصحراء وفي السودان، وكان مركزُ تنظيمها في واحة جغبوب، في الصحراء اللّيبية بين مصر وطرابلس، وفي هذه القرية كان يتعلّم مئآتٌ من الدعاة، ثم يُرسلون إلى كافة أجزاء أفريقية الشمالية دعاةً للإسلام، وكانت زواياهم الفرعيّة - ويقال: إنها بلغت ١٢١ زاوية - تتلقّى من زاويتهم الرئيسيّة في جغبوب التعليمات والأوامر في كلّ المسائل المتعلقة بتدبير الدولة الدينيّة الكبرى».

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٨١، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، وزميله.

وقد أسهبَ مؤلف (الدعوة إلى الإسلام) عقب ذلك في بيان الجهود الممتازة التي حقّقها السنوسيون في بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو، وكيف حوّلوا كثيراً من القبائل الوثنيّة إلى الإسلام، واشتروا عبيداً أرقاء، فأفهموهم معنى الإسلام الصحيح، وأعتقوهم فصاروا عوناً للدعوة.

وفيما تقدم ما يُعطي انطباعاً عاماً للجهود السنوسية ذات المدى الواسع في نشر الإسلام ومقاومة الاحتلال الأوروبي، وكان لمنشئها الكبير الشيخ محمد بن علي السنوسي الفضل كل الفضل في توجيهها السديد، وكان عالماً مؤلفاً، دَرَسَ الإسلام في مصادره الصحيحة، ورأى ما رانَ على تعاليم الإسلام من سُحُبٍ حجبَت لألاءه، وأسلمت أهله إلى التوكّل والاستسلام، فخرج مجاهداً نازحاً إلى شتّى ربوع الإسلام، زارَ مصر ومكة والعراق، فكوّنَ رأياً عاماً يدعو إلى البعث الإسلامي الناهض.

ولكن عين الاستعمار لم تسكُت عنه، فجعلت تُحاربه بدعوى السّعي إلى قلب نظام الحكم، وهي دعوى تُشرفُه، لأن الحكم حُكْم استعمارٍ دخيل، والسّعي إلى قلبه واجب مفروض، وقد استطاع المحتلّ أن يهيج السلطانَ العثماني عليه، باعتباره لا يصدر عن أمره، لذلك ترك بلاد المغرب إلى البيضاء، بعد أن قامت الدعاية العثمانية في وجهه، وهي ذاتُ خطرٍ مؤكّد لأنّها مصدرٌ إسلامي، فليست كدعايات المستعمرين، وفي ليبيا أنشأ الزوايا الكثيرة، وأصبحت جغوب مركز الدعوة الرئيسي للسنوسيين، ووفاهُ الأجل سنة ١٨٥٩ بعد أن وضع الأساس المكين.

مات الشيخ محمد بن علي السنوسي بعد أن أُرْسِي دعائم واضحة المعالم، تأكّدت في نفوس أتباعه، ففي حَقْل الشريعة الإسلامية دَعَا إلى عَدَم التقليد، وهو مالكيُّ المذهب، ولكنّه لم يتعصّب لمذهبه، ورأى أن يكونَ القرآن والحديث هما المرجعَ الأولي عند الحكم بالصحة أو البطلان أو التحليل والتحريم، كما أن كلّ البدع التي رَوَّجها أَدْعِيَاءُ التّصوِّف - وهي ليست من الإسلام في شيء - كانت موضع نقده اللاذع، وقد ألّفَ أكثرَ من ثلاثين كتاباً ورسالة في محاربة البدع، وتأصيل العقيدة.

وقد جعل من نشر الإسلام بين الوثنيين في أفريقية أقدس رسالة في عنقه، وكان يذهبُ بنفسه ليدعو إلى الإسلام بالقُدوة الحسنة أولاً، وبإيضاح محاسن الشريعة

التي ترعى الأخلاق الكريمة، وتُقدّسُ الحقوق والواجبات. وهذه الجهود الضخمة لو اختصرَ عليها الشيخ لكانت عملاً رائعاً يقفُ به في طليعة المصلحين، ولكن أعظم أثرٍ له هو تصديده للاستعمار الفرنسي، وفَضَح أساليبه المدخولة، وكانَ الفرنسيون قد استمالُوا طائفةً من أدعياء التصوّف، ومَنّوهم الأمانى ليكونُوا أُلُستهم الخادعة بين العامة، ففضح الشيخ ممالأتهم للعدو، ورماهم بالخيانة، وبذلك عرفَ الناس أن التصوّف الذي يدعون إليه ستارٌ للكسل والملاينة، وليسَ أحد السبل المؤدية إلى الفلاح!

وقد نقلَ الأستاذ أنور الجندي في حديثه عن الشيخ السنوسي الأكبر ما كتبه الرحالة الفرنسيّ (وفيرير) عن السنوسية وأثرها في مُجالدة الاستعمار حيث قال^(١):

«إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع ألوان المقاومة التي انبعثت في وجه فرنسا بالجزائر، واليدُ المدبّرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي، والحقيقة التي يجب ألا نغفل عنها هي أنّ الطريقة السنوسية أخطر أعدائنا نفوذاً، وأنها العقبة الكأداء في سبيل توسّعنا السياسي والاقتصادي داخل أفريقيا، كما هي عائقٌ في طريق أهدافنا في القارة الواسعة شمالي خط الاستواء، فهي القوة المحركة لجميع الحوادث التي وقعت في البلاد الإسلامية، للحيلولة دون الانتشار الأوروبي في البلاد».

وحين انتقلت الزعامة بعد الشيخ إلى ولده الأكبر محمد المهدي السنوسي، رأى الفرنسيّون أن يُوقِعُوا الخلافَ بين الأسرة الواحدة، فأزجفوا بين أتباعها أنّ المهدي هو الأصغر، وأن أخاه الأكبر محمد شريف هو الأحقّ بالمشيخة، وهذا كذبٌ وافتراء، فالأكبر هو محمد المهدي، وقد اختاره والده في لحظاته الأخيرة قبل أن يُودّع الحياة.

وإظهاراً للشيخ الراحل بمظهر السذاجة زعم الفرنسيون هذه الأضحوة، التي تقول: إن الولد الأصغر أظهر ذكاءً وكفاية أكثر من أخيه، ولذلك قرّر الوالد الشيخ أن يختبر جرأتهم أمام أتباعه في جغبوب، إذ أمر ولديه أن يتسلّقا نخلتين عظيمتي الارتفاع، ثم يقفرا على الأرض من هذا العلو الشاهق، فقفز المهدي

(١) الأعلام المعاصرين، ص ٤٠١، للأستاذ أنور الجندي.

الأصغر، ولم يُصَبَّ بسوء بركة دعاء والده، وإذ ذاك اختارَه الوالدُ لخلافته مع أحقيّة أخيه! .

وهذه الأضحوكة التافهة لا يُمكن أن يسيغها عقل إنسان، يعرف من رجاحة عقل الوالد ما يحولُ دون هذا العبث، فالرجُلُ الساذج يعلم أنّ الفَقْرَ من أعلى الشجرة قد يُودي بحياة القافز فيخَرَّ صريعاً، فهل يجهل ذلك رئيسُ عالمٍ مكافح جَمَعَ قومه على الحق، وجعلهم شوكةً في عين المحتل، لقد حَسَبَ واضحُ هذه الأكذوبة أنّ القبائل المنتشرة في أفريقية، والتي تدين بالطاعة للسُنوسيين سَتُشَكِّك في مقدرة الشيخ، وستعلمُ أنّه ظلم ولّده الأكبر دون حق، فجعلوها سلاحاً من أسلحة الريبة والتشكيك .

وقد صدّقها بعض الكتّابين عن السنوسية من المسلمين، فروّوها باعتبارها حقيقة مسلّمة^(١)، ولكنّ الأستاذ الليبي محمد الأخضر العيساوي دَفَعَهَا دفعاً صريحاً بمقال كتّبه تصحيحاً لأخطاءٍ وردت في المقال، فقال^(٢): «والحقيقة أنّ هذه القصة لا أصلَ لها، وأنّ السيد محمد المهدي السنوسي هو الأكبر، إذ وُلِدَ بماسّة بالجبل الأخضر سنة ١٢٦٠ هـ، ووُلِدَ أخوه السيد محمد شريف بمدينة درنة ١٢٦٢ هـ». فبطلت الأكذوبة بالأرقام، قبل أن تبطل بالاستحالة العقلية أن يقترفها زعيم ذو خطر كبير .

تولّى المهدي زعامة السنوسية، وكانَ عمره أربعة عشر عاماً، وهي مدّة لا تتيح له أن يدير الأمورَ بحزم الرجال، ولكنّ مَنْ حوله قد أمَدَّوه بالرأي، وكأنّه أحسَّ بمركزه الخطير، فكانَ يسهرُ الليل الطويل قارئاً في الكتب، ليحلّ محلّ والده في الزعامة الدينيّة، فإذا جاءَ الصبح جمع مستشاريه، وأخذَ يقرأ الرسائل الواردة من الأتباع في مختلف أنحاء القارّة، ويجيب عليها، كما كانَ يتصدّر للإمامة في الصلوات الخمس، ويشهد المحافل الدينيّة واعظاً مذكّراً، فحسُنَ الاعتقاد فيه، وحُبّبَ إليه الانتقال إلى شتّى القبائل، ليتّصل اتصالاً مباشراً بأتباعه، وكانَ ذا ذاكرة حادة جَعَلَتْه يعرف أحوالَ تابعيه، ويلمّ بأخبارهم في صبرٍ جميل وحُسن استقبال، وتلكَ من وسائل الزعامة الناجحة، وقد لمسَ انتقال الحركة إلى فارس ودمشق

(١) السنوسيون، مقال بالعدد ٣٨٥ من الرسالة، ص ١٧١١ .

(٢) حول السنوسيين، مقال بالعدد ٤٠٦ من الرسالة، ص ٥٤١ .

والقسطنطينية والهند، فجعلَ يختارُ رُسلًا لكل قُطر يزوّدُهم بالنصيحة، ويدعوهم إلى التماسك والتّساند، وهكذا صارت السنوسية ذاتَ دَوَيٍّ في العالم الإسلاميّ جميعه .

وأحسنَ السلطان العثماني بمركز المهدي، فبعث رسوله إليه مُستخبراً في الباطن، ومؤدياً تحيته في الظاهر، ولو سلمت النيات لانتَهزَ السلطان سطوعَ نجمٍ مخلصٍ في بلادِ الخلافة، فتعاون معه على الخير، ولكن حاشية السوء في الأستانة أبث على أن تُشوّه مواقف المخلصين .

فما لبث الجوّ أن تكدر بين السلطان الداهية والمهديّ الشاب! وجعلت الدسائس تفعلُ فعلها، حين أذيع عن المهدي أنه يعتقد أنه المهدي المنتظر، وأن هذا الاعتقاد قد جَمَعَ حوله الأنصار في أكثر بلاد الإسلام، وكُتِبَ السنوسية التي ألفها الشيخ محمد بن علي السنوسي، والكتب التي كُتِبَتْ في عهد محمد المهدي لا تُشير إلى شيء من ذلك، وقد ساح المهدي بين القبائل في شتّى ربوع الوطن الأفريقي، ولم يسمع منه أحدٌ هذا الادعاء! ومع ذلك رَوّجَهُ الأوروبيّون، وصدّقه العثمانيون، ولا تُنكر أنه صَرَفَ بعض الأنباع عنه، ولكنّ الباقيين هم الكثرة الكاثرة. والذين صدّفوا عن السنوسية استجابةً لهذا الزعم لم يكونوا أهلاً للانتساب إليها، إذ فاتهم أن يتلقوا الشيء من مصدره الحقيقي، لا من أفواه الأعداء .

يقول الأستاذ حسين جعفر في حديثه عن السنوسية: «قَلِقَ الأتراك من ازدياد شهرة الشيخ السنوسي مرةً أخرى، وقد لاحظَ السلطان عبد الحميد الثاني أن سلطة الشيخ في كثير من أجزاء طرابلس وبنغازي أعظم من سلطة الحُكّام العثمانيين، وفي سنة ١٨٨٩ زارَ الحاكم التركي الشيخ السنوسي في جغوب على رأس بعض قوّاته، فكان هذا الحادث سبباً في أن يترك الشيخ جغوب منتقلاً إلى واحة الكفرة، وهو مكانٌ بعيدٌ يجعله في مأمن من أي هجوم مفاجئ» .

فوجئ أتباعُ الشيخ بأمره بإياهم بالارتحال، لم يشأ أن يُفصحَ عن همومه الداعية للهجرة غير المنتظرة، ولكنّ مجيء الحاكم على رأس قوّة حربية كان في مدلوله الصريح اختباراً للقوّة السنوسية، ودراسةً للمكان، انتظاراً لوقعةٍ قريبة، والشيخ لا يحب أن يصطدم بجيشٍ إسلامي، فهو يعلم أن رجال الفتوى في الأستانة سيصمونه بالكفر، ويعدّونه خطراً يجب استئصاله، وكأنّه تذكر موقف السلطان من

عراي باشا حين أظهر الحُكم بعصيانهِ، فكانَ رأي تركيا عاملاً مرجّحاً للاحتلال البريطاني، وذا أثرٍ في نفوس الضعفاء ممّن يتبعون كل ناعق.

رأى المهدي الغدر في عين الحاكم التركي، وعرفَ أن الشرّ مبيتٌ فارتحل إلى (الكفرة) وهي يومئذ ذاتُ موقع آمنٍ، لأنَّ الطريق إليها وعراً شديد تَزَحُّمُ الرمالِ والصخور، ولا تستطيع العربات الحربيّة أن تجتازَه، كما أنّه فكّر في احتمالٍ آخر هو أن يتعاون المؤتورون منه في الشمال الأفريقي، وهم من دُعاة الفرنسيين مع السلطان في إبادة القوة الإسلامية الناهضة، فيقفُ الشيخ بجنده المحدود أمامَ قوتين كبيرتين، وهو احتمالٌ متوقّع، وقد سبقت الأحداث بمثله في بعض المناسبات، وزادَ من الخطر أنّ تُوفي سلطان واداي، وأعقبه السلطان إبراهيم، فلم يسرْ على خطّة سلفه في محالفة السنوسيين، بل أظهرَ النفورَ من مُراسلات المهدي، وأعلنَ مُخالفته، ومال السنوسي إلى الحكمة، فكتبَ إليه يستأنسه، وينزِعُ من صدره ما قد يكون موضعَ ريبٍ وحذر، لأنّه كانَ يعملُ على الاستعداد لمعركةٍ مع الفرنسيين، وهي معركة احتيالي ووقية قبل أن تكونَ معركة حديدٍ ونار، ويخشى أن يكونَ السلطان إبراهيمَ ظهيراً لهم، وله أتباعه الذين يزينون للضعفاء أن يَنْفُضُوا أيديهم من الشيخ، إذ لا طاقةَ له بمجابهة تركيا وفرنسا في وقتٍ واحد.

وما ظنّه المهدي السنوسي قد تحقّق، إذ أخذ الطابور الخامس يُجوّف جَبُروت الأعداء، ويعدُّ لقاءهم زلزالاً مدمراً، وهي مسألةٌ تدعو إلى القلق الزائد، وتوجب العمل السريع، ولكن في احتيالي هادئ يُخفي الخطّة المدبّرة، مع الاعتراف بصولة العدو، وفداحة ما يملك من أدوات التدمير والاستئصال.

- ٢ -

ولم تكن الصّحف والمجلّات من أدوات المهدي السنوسي في نشرِ تعاليمه، لأنّه لا يريد أن يُحدث ضجيجاً خارج بيئته، ولأن البلاد لم تكن ذاتَ استعداد مُيسّر للطبع والنشر، فرأى أن تكون الزوايا المختلفة هي مصدر التوجيه لأتباعه، وقد كان والده صاحبَ فكرة إنشاء هذه الزوايا في الشمال الأفريقي، وليبيا والسودان، وحول بحيرة تشاد، حيث أكثر منها السنوسي الكبير إكثاراً محموداً، إذ كان لا ينزلُ مكاناً، ويجمع حوله من يستميلهم إلى طريقته إلّا وبادر بإنشاء زاوية للصلاة وتلقّي العلم، وتبادل الرأي، وإعداد العدة لنشر الدعوة.

وقد عُرفت الزوايا على نحو واسع، منذُ خرج المسلمون إلى الجهاد في الثَّغور القريبة من ديار العدو، فكانَ الرِّباط هو الاسمَ الحربيَّ للمجاهدين في الثَّغر، وكانت تجاوره حجرةٌ صغيرةٌ تصلُّحُ خلوةً لمتعبد زاهد، تُسمَّى بالزاوية، ثم تطوَّرت الزَّوايا فكانت ذات اتساع، وقد تضمَّ عدة حجرات. وحين جاء صلاحُ الدين إلى مصر أكثر من (الخوانق) - جَمْعُ (خَانَقاه) وهي المكانُ الذي يأوى إليه الغرباء والمنقطعون إلى العبادة، وتُجرى عليهم الأرزاقُ - ولم يكن المُقيمون بها كسالى كما يتوهم بعضُ الدارسين - وقد قالوا ذلك فعلاً - ولكنهم كانوا يدرسون العلم ويناقشون الفقهاء، ويلتزمون بقراءة بعض الكتب، ودارَ الزَّمن فأصبح المُوسر من الأغنياء يَبني في قريته زاويةً لتكون مسجداً مصغراً.

وقد فكَّر منشئ الطريقة الأول محمد علي السنوسي في إنشاء الزوايا بكلِّ مكان يجتمع فيه مريدوه، ولم تكن الزَّاوية للصلاة والعبادة فحسب، ولكنها كانت للتربية الدينيَّة، والتربية السياسيَّة، فالتربية الدينيَّة تعتمدُ على دُروس القرآن والحديث، ودراسة المذهب المالكي دون الالتزام به، لأن من المذاهب ما قد يرجح المذهبَ في بعض المسائل لقوة دليله، وهنا يسير الدارس وفق قوَّة الدليل، ومعنى هذا أنَّ الاجتهاد في الفقه قد بدأ يفتح منافذه في الزوايا السنوسية، ليشرق منه الضوء. أمَّا التربية السياسيَّة فخاصَّةٌ بمحاربة المستعمرين في أفريقية وآسيا، ممَّن يحتلُّون بلاد الإسلام، فهُم الأعداء الحقيقيون.

وحين تولَّى محمد المهدي زمام الدعوة بعدَ الوالد الكبير، رأى أن الإكثار من الزَّوايا هو الطريق الجيِّد الذي يجمع الناس على كلمة الله، فاتَّسعت الزوايا لعهدِه اتساعاً أزعج الفرنسيين، بحيث ظنَّوا أن المقاومة في الجزائر ومراكش وتونس لم تُكنْ غير صدَى لدعوة السنوسية، إذ لمسوا من حماسة هؤلاء لدينهم ما جعلهم يبيِّتون لهم الغدر، ولذا توقَّع المهدي هذا العدوان فانتقل إلى (الكفرة) كما أُشرت من قبل. جاء في المنار^(١):

«وقد بلغنا أن الحكومة الفرنسيَّة خصَّصت مئة ألف فرنك في كلِّ سنة، لمقاومة سُلطة أصحاب الطريق في الجزائر وما يليها ويتَّصل بها، وإن الذين يأخذون هذا

(١) المنار، المجلد الخامس، ص ٤٨٠.

المال هم الذين كانوا يعظّمون أمر (التيجانية) ثم صاروا يعظّمون أمر (السنوسية) بما يكتبونه في الجرائد والكتب».

وفي سنة ١٩٠٠ ترك السنوسي واحة الكفرة إلى الحدود الغربية من سلطنة (وآدائي) وبنى على قمة التلّ الصخري زاويةً منيعة وحصّنها تحصيناً قوياً، وكان الفرنسيون على مقربة من الزاوية، ولهم جواسيسهم الكثيرون، فرأوا من حماسة المقيمين بالزاوية ونشاطهم وتذريباتهم اليومية ما جعلهم يعتقدون أنهم يدبّرون هجوماً عليهم، وأنّ الزاوية مليئة بالسلاح الحربي، فلم يشاؤوا مهاجمتها كيلا تحصدهم أسلحتها، واتجهوا إلى زاوية أخرى أنشأها المهدي حديثاً في (بير علالي) وهي مُلتقى التجارات المارة وسط القارة شمالاً وجنوباً، تقع قريباً من بحيرة تشاد، فجعلوا يتحرّشون بها في هجومٍ متقطع، تقوم به كتيبةٌ صغيرة، فتجد الدفاع القوي فتسحب.

ولعلّ الفرنسيين كانوا يقصّدون بهذه المناوشات إدراك القوة الحقيقيّة للسنوسيين، ولكنهم في غسق الليل عقدوا النية لهجوم كبير ساحق، تقدّمه الدبابات والمدافع، ولم يتمكّن المدافعون بالأسلحة المتواضعة من الصمود أمام العدوان المسلّح القاهر، فسقطت الزاوية بعد قتالٍ عنيف، واستشهد من علماء السنوسية ورجالها عددٌ لا يُستهان به، وانتهت المعركة بسقوط (بير علالي) في يد الفرنسيين سنة ١٩٠٢.

والذين يحلّلون هذه المعركة القاضية يرجعون نجاح المعتدين إلى أمور هامة، أولها: القيامُ بالهجوم في غسق الليل بعد انقطاع طويل للمعارك، ظنّ به أن الفرنسيين قد عدلوا عن القتال، وآثروا المهادنة، وثانياً: قلّة من كانوا بالزاوية من الجنود، إذ أنّ الشباب المتهيين للدفاع لم يزد عددهم عن ثمانية عشر مقاتلاً، والباقيّن شيوخٌ وكهولٌ يعبدون الله ويطلبون العلم، وثالثاً: ما أحدثه الرعب المفاجئ، حيث عاق القوم عن حمل السلاح على الفور، وكان يفهمهم للدفاع إذاً أحيطوا علماً بما سيكون، بل كانت الاستعانة بالمجاهدين من رجال الزوايا الأخرى ستعطي قوة صمود، وربما تؤدي للنصر، لأنّ الأبطال يدافعون عن عقيدة، ويرحبون بالاستشهاد، لأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، والرجل المدافع حينئذ بعشرة من المهاجمين.

وقد تأثر المهدي السنوسي بما لحق تابعيه من الاغتيال، وأخذ يعدّ العدة للانتقام متنقلاً بين الزوايا في حندس الليل، كيلا يعلم الأعداء مَسِيرَهُ فيُهاجموه بقوتهم الكاسحة، وظلّ خمسة أشهر يواصل عناء التعبئة دُونَ انقطاع من يناير سنة ١٩٠٢ حتى دَهِمه أجله في ٣٠ مايو سنة ١٩٠٢، فدُفِنَ سريعاً، وأُخْفِيَ مكان دفنه، ولم يُعْلَم في حينه كيلاً يفتّ في عضد المحاربين، ولكنّ الموقف صعب، والعملُ يتطلّب قيادةً تصدر الأمر دون تَوَانٍ، فاجتمعتِ الأسرة السنوسية للمشاورة، وكان أبناء الرّاحل صغاراً لا يقدرّون على تحمّل التبعة، فانقلبتِ الزعامة إلى ابن أخيه السيّد أحمد الشريف السنوسي، وكانَ عند الظن به، فقد مكث يجاهد المحتلّين في غير هواة، وظلّ على عهده البطولي حتّى سقطت (واداي) في أيدي الفرنسيّين بتكاثر القوة الغاشمة سنة ١٩١١، فتراجّع المدّ السنوسيّ الزاحف، ولسانُ حال الشريف السنوسي يقول:

سَقُونَا هُمُو كَأْساً سَقُونَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبِرَا
وَإِذَا كَانَ الْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ؛ فَإِنَّ مَجْلَةَ الْمَنَارِ نَقَلَتْ شَهَادَةَ الْفَرَنْسِيِّينَ
لَهُ حِينَ كَتَبَتْ نَعْيَهُ فَكَانَ مِمَّا قَالَتْهُ:

«جمعَ هذا الرجل من الصفات والخلال ما يندر أن يكون لأحد من الرجال، فهو الرجل الديني الوحيد، الذي كانت تلهجُ بذكره الجرائد الأوروبية، وتستقرئ أعماله، وتتبع حركاته وسكناته، وتبني عليها آراءها السياسية، وكان على زُهدِه وانزوائه في زاويته أشبه بملكٍ عظيم، أو قائدٍ باسل يستعدّ لكفاح الأقران، وفتوح البلدان، وكانَ الناس في أوروبا وفي الشرق مختلفين في أمره، وهائمين في أودية الظنون في شأنه، والأكثرونَ يعتقدون أن طريقته جامعةٌ بين الدين والسياسة، ومن أصولها الاستعدادُ للمدافعة والمقارعة عند الحاجة إلى ذلك، وقد كانَ يقول: إنَّ من أصول الطريقة إحياء الأرض، وغرس الأشجار، واقتناء السلاح».

هذا بعضُ ما جاء في المنار، وإذا كان الناس لعهدِه يختلفون في أمره، ويهيُمون في أودية الظنون بشأنه، فما جاءَ ذلك إلّا من انتشار سموم أعدائه في جرائد الاستعمار، إذ دأبت صحف الاحتلال على الحطّ من شأن المناضلين من غير جنسهم، فإذا ظهر منهم بطلٌ باسل يحمي حوزته ألُفَت عنه الكتب وعُلِّقَت صورُه على الجدران، وأصبح موضعَ الحظوة والاحتفاء، وتُرجمت أنباؤه وسيرته إلى

اللغات المختلفة، حتى أصبحنا في الوطن العربي نعرف عن قادة أوروبا أضعاف ما نعرفه عن قادة العرب والمسلمين، بل وُجد فينا من يتنكر لهؤلاء الذين كافحوا العدو طيلة حياتهم، حتى سقطوا في الميدان شهداء قديسين، ويعدّهم دراويش!! .

* * *

العلامة محمود شكري الألوسي عالم العراق وإمامه الكبير

- ١ -

يقول الشاعر العربي :

أرى كُلَّ غُضْنٍ نابعاً من أرومة أبى نسبُ العيدان أن يتغيرا
وهذا البيت يعبر عن حقيقة مشاهدة لا مجال لإنكارها، فنحن نعرف في تاريخ العلم أسراً شهيرة ظلَّ أفرادها يتناوبون الزعامة العلمية فاضلاً بعد فاضل، وكلُّ عالمٍ يضيف إلى التراث الفكري ما يُعتبر فخراً للأسرة جميعها، وقد يكون منها ذو الفضل الجهمير الذي يعمُّ نوره آفاقاً كثيرة، وذو القدر المحدود في النتاج العلمي، ولكنَّ الجميع ينهلون من مورد واحد، وإن اختلف الضياء بين الشمس والقمر والنجوم.

هكذا نعرف في تاريخ العلم مَنْ يُسمَّى بابن رشد الجدَّ وابن رشد الأب وابن رشد الحفيد، كما نعرف من يُسمَّى بالسبكي الجد والسبكي الوالد والسبكي الابن، فإذا جئنا إلى الأسرة الألوسية فإننا نجدُها توارثت المجد العلمي كبيراً عن كبير، فقد كانت من الأسر الماجدة في العراق لأمدٍ طويل تجاوزَ عدَّة قرون، حتى سطَّع نجم الشَّهاب الألوسي صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) فكان الشمس المشرقة التي تدور حولها أقمارٌ ونجوم، وقد بسطنا سيرته بسطاً يُشير إلى فضله العلمي، وجاهه العائلي بما يعرف قارئ هذه البحوث^(١). فلست الآن في حاجة إلى أن أعيد بعض ما ذكرت، ولكنني أشير إلى أن الشهاب رحمه الله ورث المجد العلمي عن أب كريم النبغة غزير العلم، كان رئيس العلماء في عصره، وقد تتابع

(١) النهضة الإسلامية في سيرة أعلامها المعاصرين: ٣٣/٢.

أبناءؤه يَسْتَتُونَ بسيرته خلفاً عن خلف، حتى جاء الحفيد محمود شكري الألوسي، فكان مذكراً بفضل هذه الأرومة الماجدة.

وتتابع الفضل العلمي في أسرة من الأسر غير تتابع الفضل المالي، فقد تكون الأسرة عريقة في الثراء المالي دون أن يكون ذلك موضع مباحة، لأن المال الموروث لا يدلّ وحده على فضل الوارث، إذ وجد عقاراً وضياعاً وتجارة فشأ منعماً فيما ورث، وخلفه من تمتع بميراثه دون جهد يدلّ على معدن خلقي أصيل، أما وراثته العلم فمن أشقّ الوراثة، لأنها تتطلب من كل خلف أن يكّد ويكدح، حتى يكون رأساً في العلم، والعلم ذو حسد ومُنافسة، فلا ينبغ فيه إلا من كدّ وكدح، وأولى مع الكدح المتواصل رغبة حارة في الارتقاء إلى معارج الفكر، متسلّحاً بالصبر والسهر والاطّلاع، ومداومة التأليف النافع، حتى يشهد بفضله مُنافِسوه.

وإذا كان الشهاب الألوسي موضع القدوة الحافزة لمن تلاه، فإن الحفيد محمود شكري الألوسي كان أظهر من لمع نجمه في الأسرة من بعده، ولن أنكر فضل أبيه وأعمامه، فكلهم ذو سُمعة طيبة، وله ذكر في العلم مشهود، ولكن والد محمود شكري لم يُمتّع بالحياة قدراً يُبيح له أن يترك مؤلفات علمية، كما ترك أبناء هذه الأسرة الماجدة، وحسبه أن ترك مؤلفاً حيّاً هو ابنه الكريم، إذ هيأ الله له أن يحمل الراية بعد عمّه نعمان الألوسي، فكان حامل الزعامة العلمية في وطنه، تشرّب إليه الأنظار إذا احتدم الخطأ واختلط الحق بالصواب.

وقد عرفنا من سيرة المُخلصين من العلماء أنهم يتعرّضون لمكايد الحسدة، وشايات الموتورين، فيلاقون من ذلك بلاء لا يطاق، وعلى قدر الارتفاع العلمي تكون سعة هذه المكايد وتواصل حلقاتها، كذلك لاقى محمود شكري من هذه الدنئات ما لاقى جدّه الشهاب، فعملت الدسائس على زعزعة أمتنهما حيناً من الدهر، واضطّرا إلى مُغادرة بغداد، ليدرّعا عنهما سطوة الحاكم المعتدي، وبغي الرؤساء في تركيا، حين أمروا بالعقوبة لوشاية دنيئة دون تحقيق.

لقد سُجن الشهاب أمداً طويلاً لأنه صدع بالحق، واضطر إلى أن يُرسل إلى الأستانة من يعمل على إبراء ساحته، حتى اتضح الأمر بعد جهد كبير في المعاناة، إذ أوصدت داره وحُوربت أسرته في رزقها أمداً غير قصير، كما جاء الأمر من الأستانة

نفسها من بعد بعقوبة محمود شكري، وتقديمه إلى المحاكمة في العاصمة الكبرى للخلافة، فسار طائعاً مفوضاً إلى الله أمره، حتى بلغ في رحلته (الموصل) وبها من أهل الفضل من يعرفون فضله، ويعلمون أن الدسائس هي التي أحكمت هذه الفرية الظالمة، فتواصوا بإكرامه مع من صحبه، ليرحل من الموصليين إلى دار الخلافة من يعلن كيد الكائدين في بغداد للرجل المفضل، وقد نجح المسعى، فتم العفو شامل، وعاد العالم الكبير إلى بغداد من الموصل، فاستقبل بها استقبال المنتصر الفائز.

ورأى من الوالي الجديد رجلاً فاضلاً ذا رغبة في الإصلاح والإصلاح، فركن إليه وأمدّه بالمشورة، ولم يقبل أي منصب ديني، ليتفرغ إلى الدراسة العلمية مُدرّساً ومؤلفاً، ولعلّه علم ما كابد جدّه الشهاب من المحنة حين عزل عن الإفتاء، وصودرت أمواله، وتعتلت موارد رزقه، فلم يجد ما يمنح به تلاميذه المترددين على داره كعادته، بل لم يجد الضروري لأسرته، وقد تعودت على النعمة السابعة، وهي سحابة تخيم ثم تنقشع!!.

عرف محمود شكري ذلك، فاعتزل المناصب طائعاً مرتاحاً، وله في ذلك غرائب عجيبة روى بعضها تلميذه الأثير العالم الأديب الشيخ محمد بهجت الأثري فقال^(١):

«روى الأب انتاس ماري الكرملّي عن الأستاذ محمود شكري الألوسي أنّه كان بعد الاحتلال الإنجليزي منقبض النفس، ضيق اليد يلبس حذاء خشناً من أحذية الجنود، فقال له الأب انتاس: يا مولاي أراك تلبس في قدمك ما يلبسه المرتزقة من جنود الإنجليز، من الأحذية الضخمة ذات الصوت المزعج والحمل الثقيل، فابتسم الألوسي، وقال: إني أفنع بما أستطيع أن أشتريه.

وكان الأب انتاس يعرف أن الألوسي قد وصل إلى حالة قاصية من الحاجة الشديدة، لأن الأتراك قد منعوا عنه كلّ خير، فلمّا بلغ أمره المعتمد الإنجليزي حاول أن يضمّه إلى صفّه وهو رأس العلماء في بلده، وله صلة وثيقة بالأب انتاس، فكلّفه أن يحمل إليه ثلاثمئة جنيه ذهباً، وهي يومئذ تعدّ مصدر ثراء لأسر

(١) الحديقة، للأستاذ محب الدين الخطيب، تحت عنوان (زهد الألوسي): ٨٤/٤.

شَتَّى لا أسرة واحدة، فغضبَ شكري الألوسي وصاح في وَجْهِ الأب انتاس قائلاً: خيرٌ لي أن أموتَ جوعاً من أن آخذَ مالاً لم أتعَبَ في كسبه، فجعلَ يلحّ عليه، ويصفُ له شدةَ فاقةِ أسرته، وأتّه إذا صَبَرَ على الشدةِ فأولاده الصغار لا يصبرون، فأصرَّ على الامتناع، وقال للأب انتاس: إذا أكثرَت من إلحاحك طَرَدْتُكَ!.

يقول الأب انتاس: ولكن فاقة الأستاذ كانت وقرأ عليّ وعلى مُحبيّه، فتكلّمتُ مع ذوي الأمر ليعيّن قاضياً للقضاة ببغداد، وأجيب الطّلب، وسارعتُ بإخباره، فقال لي: إنّ هذا المقام يستلزمُ علماً زاخراً، وذمةً لا غُبار عليها، ووقوفاً تاماً على الفقه، وأنا لا أشعرُ بذلك، ووجداني يحكمُ عليّ بأني غير مُتّصفٍ بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضي قضاة المسلمين! وقد كان هذا الموقفُ مصدر عجب شديد لمن يعلمون عُسر الشيخ وضيق يده، وظلّ يتردد عنه، حتى لقي ربه، فقال الأستاذ عز الدين التنوخي في رثائه:

تعرّضتِ الدّنيا له مستميلةً فآثّر أخراه وأعرضَ نائياً
وقال لمعطيه الدنانير: عُدْ بها لصاحبها، إذ عِزَةُ النفس مالياً
لأحوجُ بالدينار منّي مُفيدةً إذا كان بالدينار يرمي المرامياً

وفي هذا المجال، أرى رأياً غير ما يرتثيه الأستاذ الألوسي، فإن ولاية القضاء منصبٌ علميٌّ هو له أهل، وقد يكون تنحيه عنه باباً لإعطائه من لا يبلغ مبلغه في العلم والفضل، ثم إنّ المال مالُ بغداد نهبُ الإنجليز من خزائنها، وهم لا يعطون قليلاً أو كثيراً من خزانة إنجلترا، ولكنهم يسلبون الكثير، ويمنحون القليل، فالرجل يأكلُ من رزق بلده لمهمةٍ علميةٍ يقوم بها، وهو أهلٌ لها، وإذا خاف على نفسه أن يتعرّض للحكم بما لا يراه، فهنا يجب عليه أن يستعفي، والمحتلّ الإنجليزي لا يتدخل في مسائل القضاء، وقد تكون هذه الميزة الوحيدة في كل بلدٍ احتلّه، ولكن التحرّز الشديد كان دافعاً للشيخ، فأثر المثال على الواقع.

كتب السيد محمد رشيد رضا للألوسي ترجمةً موجزةً إذ كان من عادته أن ينعي أهل الفضل عند رحيلهم، فيقول ما لهم وما عليهم، إذ لم يكن النعي لدى صاحب المنار مجرد ثناءٍ حافلٍ لا يعرف النقد، وقد قال عن الأستاذ الألوسي^(١):

(١) مجلة المنار، المجلد ٢٥، ٣٧٢/٥.

«إن التعليم في المدارس الدينية الإسلامية كله تقليديّ، فإذا رأيت عالماً مستقلاً فاعلم أنه لا فضل لمدرّسه ولا لشيخها في ذلك، بل سببه استعداد خاص فيه، قارّنه إرشاد مُرشِدٍ من غير العلماء الرسميين في الغالب، أو اطلاع على بعض المصنّفات التي تُرشد إلى العلم الصحيح، وحسب فقيدنا العزيز أنّه كان في أثناء طلبه للعلم يُراجع تفسير جدّه، أو يطالع كتابة أستاذه وعمّه (جلاء العينين) فهما يُرشدانه إلى ترك التّزام ما قرّره أفراد من العلماء من اتّباع مذهب معين، وترك ما سواه وإنّ وضّح دليله، لأنّه من مذهب آخر، وما يذرنا لعل عمّه السيّد خير الدين كان يرشده إلى الاستقلال ولو في الأصول، وإنّ كان كوالده صاحب التفسير يلتزمان التقليد في الفروع، فمهما كانت حالتهما في التدريس والفتوى، فقد كانا غريبين عن عصرهما لما أُوتيا من سعة الاطلاع، وعدم الجمود على المألوف عند الأشياخ، والذي يظهر لنا أنّ الأستاذ رحمه الله لم يعن بالدعوة إلى الاستقلال وترك التقليد، وتربية نشء جديد يقوم بذلك، على ما كان عليه من الشجاعة وعدم المبالاة بالدينا».

وهذا الكلام يتضمّن حقّاً كثيراً، ولكنّ بعضه يحتاج إلى تعليل، فالجدّ الشهاب والحفيد شكري لم يكونا يلتزمان التقليد في الفروع، لأنّ كل مقلّد لا يحيد عن مذهبه الخاص به، شافعيّاً أو حنفيّاً أو مالكيّاً أو حنبليّاً، ونحن نعلم من آراء الجدّ والحفيد ما يخرجُ بهما عن التقيّد بمذهب معيّن، فقد كان الشهاب الألوسي شافعيّاً، ثم تولى القضاء، فدرس المذهب الحنفيّ الذي هو مذهب الدولة العثمانية المسيطرة حينئذ، وأفتى به، وهو في تفسيره آيات الأحكام لا يتحيّز لمذهب خاص به، بل يختار من آراء الأئمة ما يرتاح إليه، لأنّه وهو العالمُ الجهير، يعلم أنّ كلّاً منهم مجتهد، يفترض في اجتهاده الخطأ والصواب، وكذلك كان الأستاذ شكري الألوسي، ولهذا تعدّدت الآراء الفقهية في مؤلفاته التي لم تتخذ وجهة إمام واحد لا تتعدّاه.

أما قول السيد رشيد رضا: «والذي يظهر لنا أنّ الأستاذ رحمه الله لم يُعن بالدعوة إلى الاستقلال، وترك التقليد، وتربية نشء جديد يقوم بذلك». فهذا ما يخالف الواقع، إذ كان للأستاذ الألوسي مدرسته العلمية والأدبية التي خرّج منها عشرات النابغين، وأحدثت تياراً جديداً في التفكير العراقيّ، صار به الأستاذ أحد الأعلام

الموجهين، وقد نَشَرَ المنار عقب كلمة السيد محمد رشيد كلمةً أخرى في تأبين الأستاذ شكري الألوسي جاء فيها ما يخالف قول الأستاذ رشيد، وكاتبها هو تلميذ الأستاذ محمود شكري، الباحث الطائر الصيت الأستاذ محمد بهجت الأثري وقد قال فيها^(١):

«وبعد بلوغه الثلاثين اهتدى إلى المحجّة البيضاء التي لا يضلّ سالكها، وكسّر أغلال التعصّب، وفكّ ريقه الجمود من عُقه، وأطلق طائر فكره من قفص التقليد الأعمى إلى فضاء التساهل والتيسير، وطفق يأخذ بالكتاب والسنة، وبما يوافقهما من كلام سلف الأمة من غير تحزّب لشيعة أو مذهب، فصّدع بعد أن رسخت قدماه بالأخذ بالدليل الحق، وشنّ غارات شعواء على الخرافات المتغلغلة في النفوس بمؤلّفاته العديدة التي زعزعت أسس الباطل، وأحدثت انقلاباً عظيماً في الأفكار».

وإذا كان الأستاذ قد اشتغل بالتدريس أمداً غير قصير، إذ زاول الشرح في جامع العدلية، ثم في مدرسة (السيد سلطان علي) ثم في المدرسة (الداودية) ثم في مدرسة (مرجان) غير دروسه بالمساجد العامة، وهي دروسٌ منتظمة خرّجت أدباء من أشهرهم الشاعر الكبير معروف الرصافي، فكيف يكون الأستاذ بعد ذلك لم يُعَنّ بتربية النشء، وهل كانت هذه المدارس حُجرات خالية من الطلاب. إنّ بعض مؤلفاته لم يكتبها بنفسه، وإنما كانت أمالي في حلقات الدرس، حفظها الطلاب من بعده، وصارت كتباً في أيدي الناس، بعضها مخطوط، وبعضها مطبوع، وقد أحصى الأستاذ بهجت الأثري ما عثر عليه من مؤلفاته في مقاله المشار إليه بالمنار فكانت خمسين مؤلفاً ما بين مبسوط ذي أجزاء، ومختصر يقرب من المتون.

ولعلّ السيد محمد رشيد يقصد بعدم تربية النشء أنّه لم يكن صاحب مدرسة فكرية كالأستاذ الإمام محمد عبده، إذ جاوزت دروسه الأزهرين إلى كبار العلية من المثقفين في مصر، والبيئة المصرية هي التي ساعدت الأستاذ الإمام محمد عبده على الازدهار، وكانت البيئة العراقية لعهد الأستاذ محمود شكري لا تسمح بذلك، لعدم انتشار وسائل الثقافة من صحفٍ ومطابع ومكتبات، وقد قال تلميذه معروف الرصافي في رثائه:

(١) مجلة المنار، المجلد ٢٥، ٣٧٢/٥.

لِمَنْ تَرَكْتَ فَنُونَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ أَمَّا خَشِيتَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِ الْعَطَبِ
تلك المدارسُ قد أَوْحَشَتْهَا فَعْدَتْ خُلُوعاً مِنَ الدَّرْسِ وَالطَّلَابِ وَالْكَتَبِ
ما إِنْ تَرَكْتَ لَهَا فِي الْعِلْمِ مِنْ وَطَرٍ وَلَا لِمُتَابِعِهَا فِي الدَّرْسِ مِنْ أَدَبٍ
وَلَمْ يَخْصِرْ الْأَسَى دَاراً نَعِيتَ بِهَا بَلْ عَمَّ مُتَبَعْدُا مِنْ بَعْدِ مُقْتَرَبِ
وَإِذَنْ، فَالْأُلُوسِي كَانَ أَسْتَاذَ مَعْشَرٍ، وَقَائِدَ نَشْءٍ مَعَ نُبُوغِهِ فِي الْجَدَلِ وَالتَّصْنِيفِ.

- ٢ -

لا يزالُ صاحبُ الرَّأيِ الحرِّ مُصدراً من مصادِرِ الخِلافِ بَيْنَ مَنْ يَتَّبِعُونَ إِلَيْهِ فِي حَسْمِ بَعْضِ الْمَسَائِلِ ذَاتِ الْجَدَلِ الْمُمْتَدِّ، لِأَنَّهُ سَيَصْدُرُ رَأْيٌ يُوَافِقُ فَرِيقاً، وَيُغْضِبُ فَرِيقاً آخَرَ، وَلَوْ أَخَذَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْمُتَجَادِلِينَ بِمَبْدَأِ الْإِنْصَافِ، لَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ مَتَى اسْتَبَانَ لَهُمْ طَرِيقُهُ، وَلَشَكَرُوا مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ النَّصِيحَةَ، وَلِلْحَقِّ الْفَتْيَا، وَلَكِنْ مَنْ لَمْ تُرْضِهِمْ آرَاءُ الْأُلُوسِيِّ شَتُّوا الْهَجُومَ عَلَيْهِ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْإِلْحَادِ تَارَةً، وَإِلَى الْمَمَالَاةِ تَارَةً أُخْرَى، لِذَلِكَ خَاضَ الرَّجُلُ الْمَسَالِمَ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ الْجَدَلِيَّةِ حَرْباً لَا مَفْزَ مِنْهَا، فَأَبْلَى بَلَاءً صَادِقاً فِي الدِّفَاعِ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ خُصُومُهُ أَنْ يُقَارِعُوا الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ، فَقَارِعُوهَا بِالْعِنْتِ وَاللِّجَاجِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَلَمَّسَ الظُّرُوفَ السِّيَاسِيَّةَ لِلْإِقْيَاعِ بِهِ لَدَى الْمَسْئُولِينَ، وَرَأَى فِي ذَلِكَ شِفَاءً لِنَفْسِهِ تَتَّقِدُ لَوَاعِجَهَا.

أَمَّا الْمُنَاسِبَةُ فَإِنَّ الْحَاكِمَ التُّرْكِيَّ جَمَالَ بَاشَا قَدْ اخْتَارَ الْأُلُوسِيَّ لِلسَّفَرِ إِلَى أَمِيرِ نَجْدٍ، لِيُضَمَّهُ إِلَى الصَّفِّ التُّرْكِيِّ فِي الْحَرْبِ الْقَائِمَةِ، وَقَدْ سَافَرَ الشَّيْخُ لِيَسْتَمَعَ إِلَى الْقَوْلِ، ثُمَّ يَرَى مَا فِيهِ مِنْ صَوَابٍ فِيَقْبَلُهُ، أَوْ بَاطِلٍ فَيَدْحِضُهُ، فَهُوَ فِي اللُّغَةِ السِّيَاسِيَّةِ سَفِيرٌ يَعْرِضُ شُرُوطاً، وَيُعْطِي رِغَائِبَ وَوَعُوداً، وَمِثْلُ مُحَمَّدٍ شُكْرِي لَا يَذْهَبُ لِيَنْصَرَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فَرِيقٍ، وَلَكِنْ لِيَنْصَرَ الْحَقُّ أَيْباً كَانَ مَوْضِعُهُ، وَقَدْ حَادَثَ أَمِيرُ نَجْدٍ، وَرَأَى عِنْدَهُ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فَجَرَعَ لِيُبْنِي خِلَاصَةً مَا وَقَعَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورٍ.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْخِلَاصَةُ مِمَّا يُرِيحُ الْحَاكِمَ التُّرْكِيَّ، فَرَأَى الْمَغْرُوضُونَ أَنْ يَدَسُّوا لَهُ بِأَنَّ سَفِيرَهُ الْعَامِلَ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصاً لَهُ فِي سَفَارَتِهِ، وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَى إِنْجَاحِ كُلِّ مَا اعْتَزَمَهُ جَمَالَ بَاشَا، وَقَدْ صَدَّقَ الْحَاكِمُ ذَلِكَ بَدْءاً، فَتَعَرَّضَ الشَّيْخُ لِمُضَاقَاتٍ فِي رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ وَرَاحَتِهِ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ اتَّضَحَتِ الْحَقِيقَةُ السَّافِرَةُ، فَعَرَفَ الْحَاكِمُ أَنَّ

الألوسي لم يكن يملك أن ينتقل بصاحب نجد من جهة إلى جهة، وأنه قام بالرسالة على الوجه المستطاع.

وقد رأى الألوسي أن يسجل رحلته إلى نجد في كتاب تاريخي علمي، يضم من التاريخ القديم قدر ما يحفل به من وقائع التاريخ المعاصر، وهو كتاب قيم لا يزال به بريقه، لأنه يسجل حلقة من حلقات النزاع المتأزم بين الأتراك والعرب، في سلسلة من الحلقات لم يكتب لها بعد أن تظهر على وجهها الصحيح، لأن بعض من كتبوا عن هذه الفترة الحرجة قد مثلوا وجهات نظر خاصة، والمؤرخ الصادق لا بد أن يقرأ وجهات النظر جميعها في حيدة مخلصه، ثم يحكم بما ينتهي إليه البحث دون انحياز.

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب عن رحلة الألوسي التي سماها (تاريخ نجد) وبلغت ما يناهز مئة وعشرين من الصفحات:

«يتدئ الكتاب بالكلام على تحديد نجد نقلاً عن مؤرخي العرب، وتليه جملة صالحة من شعر الأموي (يريد الأيبوردي) وقد نظم شعراً في الحنين إلى نجد سماه (النجديات) معارضاً به الشريف الرضي في شعره الذي أطلق عليه (الحجازيات) وشعر الأموي في التغني بنجد والحنين إليها مشهوراً، ثم فصل فيما اشتملت عليه نجد من القرى والبلاد، وفصل في قرى الإحساء وبلادها، وفصل في شمائل أهل نجد ومعايشهم وأقواتهم، يلي ذلك بسط المقال على معتقداتهم وأعمالهم، وفيه مناظرة ابن جرجيس صاحب كتاب (صلح الإخوان) والشيخ عبد اللطيف حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفيه سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يلي ذلك بيان عظيم الأهمية للقبائل الساكنة اليوم في نجد، وفصل في نسب آل الرشيد وآل سعود وبيان من تفرع منهم من الأمراء، وفيه ذكر رسم حكومتهم، وبعض مكاتبات آل سعود في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي آخره فصل في بعض من اشتهر من علماء نجد، ولا سيما الشيخ محمد بن عبد الوهاب»^(١).

وهذه الرحلة إلى نجد، تذكرنا برحلة الشهاب الألوسي، صاحب روح المعاني إلى الأستانة، حيث نهض إليها من بغداد، ليثبت براءته من تهمة التصقت به، وقد

(١) مجلة الزهراء، المحرم سنة ١٣٤٤هـ، ص ٦٢.

كَانَ ذَا سَعَةٍ شَامِلَةٍ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْمَدِينِ الَّتِي مَرَّ بِهَا مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى عَادَ إِلَيْهَا، وَاصْفَاءَ مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ، وَمُسَجَّلًا مَا اخْتَارَهُ مِنْ أَحَادِيثِهِمْ، وَالرَّحْلَةَ وَثِيقَةً سِيَاسِيَّةً تَارِيخِيَّةً تَعَدُّ مَصْدَرًا لِتَارِيخِ حَقَبَةٍ غَامِضَةٍ، وَلَا يَشِينُهَا غَيْرُ الْأَسْلُوبِ الْبَدِيعِيِّ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ، وَهُوَ دَاءُ الْعَصْرِ جَمِيعِهِ.

يقول مؤرّخه الأستاذ محمد بهجت الأثري^(١):

«كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَامًا فِي مَعْرِفَةِ مَذْهَبِ السَّلَفِ، يَأْخُذُ بِالْدَّلِيلِ دُونَ تَقْلِيدٍ، شَدِيدَ الْإِنْكَارِ عَلَى الْحَشَوِيِّينَ، لَا يَعْرِفُ الْمَحَابَبَةَ وَلَا الْمَدَاجَاةَ، يَقُولُ لِلْمُصِيبِ: أَصَبْتَ، وَلِلْكَاذِبِ: كَذَبْتَ».

وَمِنْ هُنَا تَوَاتَرَتْ مَوْالِفَاتُهُ فِي الرَّدِّ عَلَى خُصُومِ رَأْيِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَوْالِفَاتِ ذَاتُ الصَّدَى الْمُتَجَاوِبِ: (الآيَةُ الْكُبْرَى عَلَى ضَلَالِ النَّبْهَانِيِّ وَرَأْيَيْهِ الصَّغْرَى)، وَ(صَبَّ الْعَذَابِ عَلَى مَنْ سَبَّ الْأَصْحَابَ)، وَ(الْقَوْلُ الْأَنْفَعُ فِي الرَّدِّ عَنْ زِيَارَةِ الْمَدْفَعِ)، وَ(غَايَةُ الْأَمَانِيِّ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّبْهَانِيِّ)، وَ(الْكِتَابُ الْأَخِيرُ دِفَاعٌ قَوِيٌّ عَنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ الْكِبَارِ مِنْ أَمْثَالِ الْإِمَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَالْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ، وَالْأَمِيرِ الْهِنْدِيِّ صَدِيقِ عَلِيِّ خَانَ، وَالْمُصْلِحِ نَعْمَانَ الْأَلُوسِيِّ، وَجَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِيِّ، وَمُحَمَّدِ عَبْدِهِ، وَرَشِيدِ رِضَا، لِأَنَّ الشَّيْخَ النَّبْهَانِيَّ تَنَاوَلَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا بِالْهَجْوِ الْمَقْدَحِ، وَذَلِكَ غَيْرُ سَبِيلِ الْمُنْصَفِينَ، إِذْ انْحَازَ إِلَى نَاحِيَةِ التَّوَسُّلِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ! وَلَمْ تَكُنْ مَنَاقِشَاتُهُ مَقْصُورَةً عَلَى الْجَدَلِ الْعِلْمِيِّ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ، بَلْ تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَا تَخِيلُهُ مِنَ الْهِنَاتِ الَّتِي أُلْصِقَهَا ظُلْمًا بِهَؤُلَاءِ الْأَفْضَالِ، فَأَحْدَهُمْ لَا يَصِلِّي، وَالْآخَرُ يَقْتَرِفُ الْمُنْكَرَاتِ، وَمَا أَظَنَّ هَذِهِ التَّهْمَ مِمَّا تَلِيقُ بِرَجُلٍ يَدَافِعُ عَنِ الْإِسْلَامِ! وَقَدْ نَظَّمَ ثَلَاثَ قِصَائِدَ فِي هَجَاءِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِيِّ، وَمُحَمَّدِ عَبْدِهِ، وَرَشِيدِ رِضَا، وَقَالَ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ:

يَدُلُّ عَلَى خَافِيهِ ظُلْمُهُ وَجْهَهُ وَأَفْعَالُ قَلْبِ الْمَرْءِ مِنْ وَجْهِهِ تُقْرَأُ

وَهُوَ قَوْلٌ مُضْحَكٌ حَقًّا، لِأَنَّ مَرَأَى الْإِمَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَخْلَعُ الْمَهَابَةَ وَالْإِجْلَالَ

(١) المنار، مجلد ٢٥، ٣٨٢/٥.

في نفس رائيه، ونورُه يتلأأ بهاءً، حتى لتخشع دونه الأبصار، كما قال حافظ إبراهيم في مدحه^(١):

رَأَيْتُكَ وَالْأَبْصَارُ حَوْلَكَ خُشَّعٌ فَقُلْتُ: أَبُو حَفْصٍ بِيرِدُنِكَ أَمْ عَلِي
إِلَى قِصَائِدٍ أُخْرَى تَدَلُّ عَلَى سَمْتِهِ الرَّائِعِ، وَلَيْسَ هُنَا مَكَانُ الْإِسْتِشْهَادِ بِهَا، وَقَدْ
انْتَشَرَتْ مَوْالِفَاتُ النَّبْهَانِي، وَسَكَتَ عَنْهَا بَعْضُ مَنْ تَعَمَّدُوا إِهْمَالَهَا، وَلَكِنَّ الْأَلُوسِي
رَأَى أَنْ يَدْحِضَهَا، وَقَدْ فَعَلَ.

ومن كماله الخُلُقِيّ، أن مقالاً ناقداً توجّه به الشاعر الكبير محمد باقر الشبيبي إلى
بعض كتب الألوسي، فلم يشأ أن يرد عليه، لأنّه ناقش بأدب، وتكلّم في الموضوع
لا في الذات، ثم وقع الشاعرُ باقر الشبيبي في مِحنةٍ سياسية حين قال يهجو بعض
أبناء العراق، الذين مآلؤوا المحتلّين، طمعاً في المنصب:

أَبْنَاءُ هَذَا الشَّرْقِ تَغْسَأُ لَشَرْقِكُمْ أَمَّا فَيَكْمُو إِلَّا ابْنُ خَائِنَةِ غَمْرِ
فَرَفَعَ بَعْضُ الْقُرَاءِ دَعْوَى عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ فِي رَأْيِهِ طَعَنَ فِي شَرَفِ أَمْهَاتِ الْمَوْضُفِينَ
الَّذِينَ يُمَاطُونَ الْإِحْتِلَالَ حِينَ نَظَمَ هَذَا الْبَيْتَ، وَرَأَتْ الْمَحْكَمَةُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى خَبِيرٍ
أَدْبِيٍّ يُفَسِّرُ مَقْصِدَ الشَّاعِرِ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ نَظْمِهِ، فَاخْتَارَتْ الْعَلَّامَةُ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ
شُكْرِي الْأَلُوسِي لِلنَّظَرِ فِي الْحُكْمِ، وَظَنَّ بَعْضُ الصَّغَارِ أَنَّ الْأَلُوسِي سِيَهْتَبِلُ الْفُرْصَةَ
فِيْمِيلُ عَلَى نَاقِدِهِ الْمُحْتَدِّ، وَلَكِنَّ الْأَلُوسِي تَدَبَّرَ الْمَوْقِفَ، وَذَهَبَ إِلَى قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ
لِيُعْلَنَ أَنَّ الْبَيْتَ بَرِيٌّ مِنْ تَهْمَةِ الزَّنى، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ عَنْ امْرَأَتِي لُوطَ وَنُوحَ:
﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ
ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِلِينَ﴾ [التَّحْرِيمُ: ١٠]. قَالَ الْإِمَامُ الْأَلُوسِي، حَاشَا لِلَّهِ أَنْ
تَخُونُ نِسَاءُ الْأَنْبِيَاءِ أَزْوَاجَهُنَّ بِالزَّنى، فَالْمَقْصُودُ بِالْخِيَانَةِ هُنَا مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ، وَعَلَى
هَذَا فَالشَّاعِرُ حِينَ قَالَ: «أَمَّا فَيَكْمُو إِلَّا ابْنُ خَائِنَةِ غَمْرِ» يَقْصِدُ الْمَخَالَفَةَ لِلْأَمْرِ
لَا الزَّانِيَةَ، وَبِهَذَا الرَّأْيِ الْحَاسِمِ بَرِّىءُ بَاقِرِ الشَّيْبِي مِنَ الْإِتْهَامِ.

ننتقلُ إلى أهمِّ أثرٍ علميٍّ للألوسي، تردّد ذكره في الشرق والغرب، وكانت له به
حظوةٌ بالغة في دوائر الاستشراق، ذلك هو كتابه الرائع (بلوغ الأرب في معرفة
أحوال العرب) الذي نال به جائزة البحث العلمي من لجنة الألسنة الشرقية في

(١) ديوان حافظ، ج (١).

(استكهولم)، إذ اقترحت اللجنة منذ أكثر من قرن على علماء الشرق والغرب تأليف كتاب يُعرب عن أحوال العرب قبل الإسلام، ويستقرئ كل ما كانوا عليه في أحوالهم العامة والخاصة، فتقدّم للجنة أناسٌ ذوو فضلٌ ببحوثهم الجيدة المنتقاة، واضطرت اللجنة إلى مُراجعة كلّ ما قدّم من البحوث الصّوافي، وأقلّ بحث يقع في ألفٍ من الصفحات، ثم استقرّت على أنّ كتاب الأستاذ الألوسي أحسن ما كُتب في موضوعه، وأقرّها إلى الشروط المطلوبة، فاستحقّ الجائزة، ونال المؤلف الوسام الذهبي تقديراً لجهده العلمي.

وقد بعث إليه الكونت (كرلودي لندبرج) قُصَل النرويج برسالتين تُثنيان على مجهوده العلمي الشاق، ونَشَر الرسالتين بأمّهات الصحف العربية في مصر والعالم العربي، فكان لهما أثرهما في ذبوع الكتاب، وإقبال القراء على تصفّحه، وحرص أساتذة الاستشراق على صداقة الأستاذ، فكانوا يرسلونه في كلّ ما غمض عليهم من شؤون البحث العلمي، فيجيب على هذه الرسائل بإشباع، وقد أسف الأب (انستاس ماري الكرملّي) لأنّ الألوسي لم يُحاول جمع رسائله العلمية، لتُطبع في كتاب خاص، فتكون ذخيرةً كبرى للقراء جميعاً، بدل أن تكون ملكاً للمبعوث بها إليه وحده، وقد كان كبار الباحثين من أمثال أحمد تيمور وأحمد زكي وأحمد الإسكندري يحتفظون بصور مما يُرسلونه، إجابةً على الأسئلة الاستشراقية، ونُشرت بعض هذه الرسائل فهَدّت إلى خيرٍ نافع!

وقارئ كتاب (بلوغ الأرب) بأجزائه الثلاثة الكبار، يشعر أنّ المؤلف قرأ أكثر من مئتي كتاب ما بين مخطوط ومطبوع، والمخطوط في أيامه - ولا يزال - أكثر من المطبوع، حتى استطاع أن يتحدّث عن تاريخ العرب في الجاهلية، بما لم يستطع أن يصل إليه أحدٌ من سابقه، وقد يؤخذ عليه أنّه اهتمّ بالجمع والحشد أكثر مما اهتمّ بالتحليل والنقد، ولكنّ موضوع الاقتراح كان مُنصبّاً على جمع الأخبار من ناحية، وكان الجهد المبذول في جمع هذه الأخبار من دفائن المخطوطات لا يسمحُ بجهدٍ آخر في التحليل والتعليل.

والمؤلفُ بذلك قد قدّم أدوات البناء الكافية لإقامة صرحٍ شاهقٍ للأمة العربية، ولولا هذه اللّبنات، ولولا هذه الأرض ما ارتفع البناء فيما بعد على أيدي من واصلوا البحث في كتاب الأستاذ وحده، ليقيموا من مواده كتباً مختلفة، ذات فنون

شتى، فمن متحدث عن عادات الجاهليين، ومن مُتحدّث عن أديانهم، ومن متحدث عن طبقاتهم، وعن أجوادهم وخطبائهم وكرمائهم، وعن مساكنهم في الحضر والوبر، وأسواقهم ومناظراتهم وأنسابهم، وحكامهم المستمع إلى آرائهم في المعاضل المتأزّمة، وعن تقاليدهم الذائعة في أفراحهم ومآتمهم، وأحلافهم السياسية، ولعبهم بالميسر والقдах، ومذاهبهم في الشعر والخطابة والوصايا، وعلمهم بالتاريخ وحوادث الأيام، وما اشتهروا به من العرافة والكهانة، ومعرفة نجوم السماء، وتقلّبات الريح والأنواء والبروج، ومن اشتهروا بالزجر والعيافة، ومن أنكروا الزجر والطيرة، وما قالوه في الرعد والبرق والسحاب، وإمامهم بمسائل الملاحة وارتياح البحر، وهي مسألة كانت موضع جدل لدى من لم يقرؤوا شيئاً من تاريخ العرب في كُتبه المتداولة، حتى كُشف عنها الألوسي النّقاب.

أما أحوال التجارة والصناعة والحدادة والحياكة والنسيج والكُسى والعمائم، فمما كاد يكونُ جديداً على القارئ قبل أن يجمعه الألوسي في كتابه الحافل.

وقد اختتم الكتاب بفصلٍ حافل عن سكّنة البوادي وما امتازوا به عن سكّنة الحضر، وهو فصلٌ جيد يُنصف قوماً رُموا بالغفلة بغياً دون حق، وقد وصل إلى مقطع الرأي حين قرر أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، لأن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها من خير أو شر، والبدويّ متّجه إلى الخير بطبعه إلا إذا ظلم، فإنه يركب جواد الشر، وهو هنا ليس بشيرير، ولكنه منتقم ينتصر لنفسه، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١ - ٤٢].

على أن بعض الأدعياء قد قطع من صفحات الكتاب ما ليس له، ونسّبه إلى نفسه دون أن يهتم بذكر المصدر في الهامش على الأقل، وهي مأساة تحدّث عنها الأستاذ الأثري في مقدمة الطبعة الثالثة من الكتاب فقال:

«وقد تطفّل بعضهم بعد ظهور الكتاب، على تأليف كتاب مُشابه يبحث عن العرب وأطوارهم، فانتحل معظم الكتاب حرفياً من غير مبالاة بملامة لائم، حتى إنك لتجد الخطأ المطبعي في بلوغ الأرب وإرداء بعينه في كتابه، وهذا من أغرب ما رأيناه من أدعياء العلم والأدب، لا أكثر الله عديدهم، ونسأل غفّار الجرائم والذنوب

أن يغفر له هذه الجريمة التي يسودُ منها جبين الإنصاف، ويحمرّ لها وجه العلم خجلاً».

والكتابُ في طبعته الثانية محلّي بشروح أدبيّة رائعة للأستاذ محمد بهجت الأثري، كشفت غوامض كثيرة، وأضافت من المعلومات ما ارتفع به قدرُ الكتاب فوق ماله من قدر، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات هذه الطبعة وما وليها من الطباعات من تعليق لغوي أو نحوي أو تاريخي أو جغرافي، وقد يضطرّ إلى مخالفة أستاذه في رأي، فيتقدّم كالسائل المستفسر لا كالناقد المؤاخذ، وهذا من أدب النفس قبل أن يكون من أدب الثقافة والاطلاع، ولا يثبت للتعليق على كتاب الألوسي غير تلميذه الأثري، فهو منه بمثابة محمد رشيد رضا من الأستاذ الإمام!

ولأهل العلم رغبة لا أدري كيف تتهيأ، فقد ذكّر الأستاذ الأثري في مقاله بالمنار أنّ له أكثر من خمسين مؤلفاً ذكر أسماءها دون لبس، كما ذكر أنّه قرأ أكثرها في مخطوطات لدى الأسرة الألوسيّة، فلماذا لا تُؤلّف لجنة علمية لفحص هذه الآثار، ونشر ما تتّجه إليه الرغبة في نشره خدمةً للعلم والأدب، واقتداءً بما قامت به لجنة نشر الآثار التيمورية في مصر، حين عكفت على إصدار بُحوث العلامة أحمد تيمور المخطوطة بحثاً وراء بحث، وبعضُ هذه البحوث كان ناقصاً لم يتم، فحاول القائم على نشره أن يستكمل مواضع النقص في فصولٍ ضاعفت حجم الكتاب، حتى صار به كتاباً آخر، كما نرى في صنيع الدكتور زكي محمد حسن حين أشرف على نشر كتاب (التصوير عند العرب) للعلامة أحمد تيمور، فهل من مستجيب لهذه الرغبة، فيلبي أمني كثيرة لعشرات من الباحثين!! هذا ما نرتجيه.



الفهرس

٥	مقدمة الجزء الرابع
٧	إبراهيم المازني كاتب ذو أهداف
٢٠	الدكتور أحمد الشرباصي باحث خطيب دؤوب
٣٤	أمين الخولي في بحوثه العلمية
٤٩	جمال الدين القاسمي عالم الشام وبخايتها المستنير
٦٢	حسن البنا علم يستغنى عن كل وصف
٨٢	حسن القاياتي وبعض نواحي إبداعه
٩٤	الدكتور زكي علي الداعية الإسلامي المهاجر
١٠٧	شبلي النعماني علامة الهند ومصلحها العظيم
١١٨	الأمير صديق حسن خان المفترى عليه
١٢٩	طه الراوي أديب العراق وعالمه
١٤٣	عبد الحميد السحار في قصصه الإسلامي
١٥٦	عبد الحميد الزهراوي المصلح الكاتب الشهيد
١٧٠	عبد الرحمن شهنذر الزعيم السوري المناضل
١٨٤	عبد السلام المويلحي بطل نسيه كاتبو التاريخ
١٩٨	عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المجاهد
٢١٢	عبد الفتاح أبو غدة من بقايا السلف الصالح
٢٢٦	علي أحمد باكثير أديب متعدد المواهب

٢٣٩	 الخوجه كمال الدين سفير الإسلام في أوروبا
٢٥٣	 محمد أحمد جاد المولى المربي المحاضر البحاثه
٢٦٦	 محمد الحمدي الظواهري الإمام الأكبر
٢٨١	 الدكتور محمد توفيق صدقي الباحث عن الحقيقة
٢٩٣	 محمد رضا الشيببي الشاعر العالم المصلح
٣٠٧	 من شيوخ الترتيل محمد رفعت (أحمد ندا) علي محمود
٣٢٠	 محمد سعيد العباس من أعلام الأدب السوداني
٣٣٣	 محمد صادق عنبر أديب رائد تناساه المؤرخون
٣٤٨	 محمد علي جناح القائد الأعظم لدولة الباكستان
٣٥٨	 الدكتور محمد غلاب باحث فلسفي مستقل
٣٧٢	 محمد المتولي الشعراوي ممتع العامة ومقنع الخاصة
٣٨٦	 محمد محمود الزيدي شاعر اليمن وبطلها الشهيد
٣٩٩	 محمد المهدي السنوسي البطل العالم المناضل
٤١٠	 محمود شكري الألوسي عالم العراق وإمامه الكبير
٤٢٣	 الفهرس